ملحمة اعمار الفاو
مدينة الفداء وبوابة النصر العظيم

هَلْ أتاكَ حديثُ إعمارِ الفاوِ: مدينةِ الفداءِ وبوّابةِ النُّصْرِ العَظيم!

حَسَناً. . إنّا نقصُّ عليكَ مِنْ أمرِهِ خَبَرا:

● يعودُ تاريخُ مدينةِ الفاوِ الى سنةِ ألفَيْنِ وخمسمائةٍ قبلَ الميلادِ. وقد أشارتِ اللُّقى الأثاريّةُ الى أنَّ الملكَ الأشوريَّ سنحاريب أطْلَقَ عليها (بيو سلامو) أي بابَ السَّلامة. وسمّاها الكِلْدانيّونَ أرضَ الماءِ، وأطلقَ عليها العربُ عامَ ٦٣٥م: ماءَ الصَّبْرِ، أي المُرّ. وأطْلَقَ عليها الرئيس القائدُ صدّام حسين: مدينة الفداءِ وبوابةَ النَّصْرِ العظيم.

● يُقالُ أنَّ «الفاو» أخَذَتْ أسْمَها من سَفينةٍ جاءَتْ الى مَصبِّ شطِّ العربِ كانَ اسمُها «فاو» فغاصَتْ فيه وتحطَّمَتْ. . وذهَبَ ياقوت الحموي الى أنَّ مَعنى الفاو: «الفجُّ الواسعُ بَيْنَ جبلَيْن» وقِيلَ أنَّها بمعنى «الفم» فهي فمُ العراقِ المُتدلّي على الخليجِ العربيّ. وذَهَبَ آخرون الى أنّها مُشْتَقَّةٌ من «الفولاف» وهو نبات تشْتهرُ بزراعتِهِ منطقةُ الفاوِ، وتُسْتَخْرَجُ مِنْ أزهارِهِ، مادةٌ صبغيّةٌ حَمْراءُ أُسْتُعْمِلَتْ في طِلاء شَناشيل البصرة.

● ابْتَدَأَ الغُزاةُ الإيرانيّونَ، غزْوَهم للفاو ليلةَ التاسعِ عشرَ مِن شباط ١٩٨٦ وفي أرْضٍ إذا أنْفتحَتْ شمالاً ذَهَبتْ الى البصرة. وإذا امتدَّتْ غرباً أدّى بها الطريقُ الساحليُّ المُعبَّدُ الى أمّ قصر فالحدودِ الكويتيّة.

● سَقَطَتْ على أَرْضِ الفاوِ ـ بَيْنَ احْتلالِها وتحريرِها ـ عشرةُ ملايين قذيفةٍ مُتفجرةٍ. وضحّىٰ العراقيّون دِفاعاً عن الفاو بعددٍ من الشهداءِ يزيدُ على ماقدَّمَهُ العربُ من شهداءَ في الحروبِ العربيّةِ ـ الأسرائيليّةِ. وغَنِمَ العراقيُّونَ في أرْضِ الفاو.. سِلاحاً ومُعدَّاتٍ وذخائِرَ يَتجاوزُ وَزْنُها نِصْفَ مليون طن.

● شَرَعَ العراقيّونَ بتحريرِ الفاو في الساعةِ ٦٣٠ ـ ١٧ نيسان ١٩٨٨.. وفي الساعة ١٧١٥ ـ ١٨ نيسان ١٩٨٨ انغرَسَ العَلَمَ العراقيُّ في أعلىٰ الموضعِ الذي يتحكَّمُ بمنطقةِرأس البيشة علىٰ رأس الخليج العربي. ولم يَبْقَ من الغُزاةِ في أرْضِ الفاوِ غيْرُ الجُثَثِ والأسرىٰ.

● ماكادَ العراقيّونَ يُحرِّرُونَ الفاوَ في ستِ وثلاثينَ ساعةً حاسمةً، حتىٰ بَدأوا يُحرِّرونَ الأرْضَ العراقيّةَ المُحتلّةَ كلَّها من شرْقِ البصرةِ جَنوباً الىٰ المُرْتفعاتِ الجبليّةِ شمالاً.. فكانَ تحريرُ الفاوِ، حَقّاً، فَتْحَ الفُتوح.

● كانَ تحريرُ الفاوِ وَشْرقِ البصرةِ وبقيّةِ الأرْضِ العراقيَّةِ، في قياساتٍ زمنيّةٍ مُثيرةٍ، وبأداءِ عسكريٍ مُنَظمٍ ومُتكاملٍ، وبتلاحمٍ شَعْبيٍّ رائعٍ.. هو خلاصَةُ عواملِ الصِراعِ في الحَرْبِ مع العدوِّ الأيرانيّ، وخلاصةُ فنِّ إدارةِ هذا الصراعِ من الجانبِ العراقيّ، وتخْصيصاً كانَ ثمرةَ الدورِ القياديِّ الفَذِّ الذي اضْطَلَعَ بهِ القائدُ العظيمُ: صَدّام حسين.

● ومِثْلَما خَطَّطَ وقادَ القائدُ المُلْهمُ صدَّام حسين، ملحمةَ تحريرِ الفاو، وبشكلٍ مباشرٍ، خَطَّطَ وقادَ الرئيسُ القائدُ صَدَّام حسين، حملةَ إعمارِ الفاوِ وبأشرافٍ ميدانيّ مُباشرٍ.

● تَنْفيذاً لأمْرِ السَّيدِ الرئيسِ القائدِ صَدَّام حسين بإعادةِ بناءِ الفاوِ.. باشَرتْ ومُنْذُ الدقيقةِ الأولىٰ ليومِ الخامسِ والعشرينَ مِنْ شهرِ حزيران ١٩٨٩، فِرَقُ العَملِ عَمَلَها، مُواصِلَةً الليلَ بالنهارِ.. لِتَنْتهي في الخامسِ والعشرين من تشرين أول ١٩٨٩.

● ومِثْلَما شاركَ العراقيّونَ جَميعاً في تحرير الفاوِ.. كلٌّ مِنْ مَوْقعهِ. شَارَكَ العراقيّونَ جَميعاً في إعمارِها. وكلٌّ مِنْ مَوْقعهِ.

● ومِثْلَما كانَ إحتلالُ وتحريرُ الفاو، مَدْعَاةً للتَضامنِ العربيّ مع العراقِ ـ إلاّ مَنْ شَذَّ عَن الإجماعِ العربيّ وتَواطأ مَعَ العدوِّ الأيرانيِّ ـ فإنَّ إعمارَ الفاوِ، اسْتَقْطَبَ الجُهْدَ العربيَّ والمُشاركةَ في حملةِ الإعمارِ ـ ولو بحجرٍ.

«رئيس التحرير»

بعض الجوانب الاقتصادية والاجتماعية
لمدينة البصرة
كما اوردها الرحالة الاوربيون في العصر الحديث

دراسة
د. فلاح حسن عبد الحسين
كلية التربية/جامعة البصرة

تعتبر كتب الرحلات احدى مصادرنا المهمة لدراسة تاريخ المشرق العربي والعراق خاصة في العصر الحديث حيث تكمن تلك الاهمية لا في عددها الضخم فقط وانما في مادتها ومنهجيتها التي تناولت جوانب مختلفة وممتعة من تاريخنا الذي تفتقر اليها مصادرنا المحلية في الغالب. حقيقة ان معلوماتنا غير دقيقة عن عدد تلك الرحلات بالضبط حيث يذكر لونكريك ستة وتسعين منها واغلبها اوربية في حين قدرها بعض الباحثين المحدثين بما يقرب الثلاثمائة[1]، لكن معرفتنا بها مازالت قليلة جداً « في الوقت الحاضر ولا توازي اهميتها بالرغم من ظهور بعض الاعمال في الاونة الاخيرة سواءً » تلك التي ترجمت الرحلات الى اللغة العربية مباشرة او التي درست بعض المواضيع المجددة من خلالها[2]، لعل السبب في ذلك هو اما تعدد اللغات التي كتبت بها، او صعوبة العثور عليها في اوربا لقدمها، او التنوع الكبير للمواضيع التي بحثتها.

مما لاشك فيه ان اهداف وغايات اولئك الرحالة متعددة ومتباينة لكنها كانت تعكس الاهتمام المتزايد بالشرق من قبل القوى الاوربية منذ مطلع القرن السابع عشر عندما بدأت البوادر الاولى لصراعاتها من اجل السيطرة والتوسع فيما وراء البحار، وقد بدأت اسبانيا والبرتغال وهولندا كقوى بحرية استطاعت الوصول الى هذه المناطق من العالم وبذلك وفروا معلومات مهمة وقيمة لحكوماتهم وبلدانهم عن تلك المناطق والاصقاع التي زاروها، وهم لم يخفوا تلك الاهداف فقد ذكروها اما في مقدمة او ثنايا تلك الرحلات. ذكرت كاريه عند مرورها بالبصرة عام ١٦٦٣ ان هدف رحلتي للهند لايخلو من مهام استطلاعية لحساب شركة الهند الشرقية الفرنسية، لا لمراقبة حركة الهولنديين والانكليز هناك، وانما لملاحظة اعمال شركة الهند الفرنسية نفسها هناك. . . ولذلك جاءت رحلتها مليئة بالملاحظات والانطباعات عن الهند والصراع الانكليزي - الهولندي، والصراع الفرنسي - الهولندي في مياه الهند الشرقية[3].

لكن الملك الاسباني فيليب الثاني (١٥٥٧ - ١٥٩٦) كان منتبهاً قبل كاريه الى اهداف تلك الرحلات وخاصة الانكليزية منها التي كان ابرزها رحلة آبارد - فيج - نيوبري عام ١٥٨٣ الى الشرق لدراسة طريق الفرات ومدى صلاحيته للتجارة حيث كتب الى نائبه في الهند بان « عليه الانتباه الى الخليج العربي الذي

يحاول الانكليز استخدامه كبوابة للوصول الى الهند . . .»[4].
ولذلك فان الرحالة الانكليزي S. Cowper لاينكر هدف رحلته الى العراق عندما كتب:

«بالرغم من زيارة رحالة كثيرين لمدينة البصرة التي وصلوها اما عن طريق الخليج العربي او عن طريق الفرات فان تلك الرحلات كانت نهرية اهتمت بالجوانب الملاحية والجغرافية ولا تعطي وصفاً دقيقاً للتجار الانكليز عن طريق الفرات الذي ظل مجهولاً، وباستثناء رحلة Blunt ليس هنالك وصف دقيق عن هذا الطريق الى البصرة، لان التاجر الذي يريد الذهاب الى الشرق فانه يذهب عن طريق البحر المتوسط - اورفه - ديار بكر ماردين - الموصل - بغداد حيث توجد في هذا الطريق العقبات الملاحية وصعوبة الحصول على التجهيزات . . . ولذلك فاني سافرت لاكتشاف طريق الفرات . . . وحتى البصرة الذي يمكن ان يكون طريقاً للسفن التجارية . . .»[5].

اما السير وليس بوج فقد كتب بصراحة عند وصوله الى البصرة عام ١٨٨٦.

«وبعد ان رحب بي القنصل البريطاني في البصرة السير روبرتسن وبحث معي الهدف المقصود من زيارتي لهذه البلاد باسهاب وزودني بمقترحات مفيدة حيث اعلمني ان هناك تجارة عظيمة نجحت في صنف العاديات وان بيوتاً عدة في البصرة وبغداد تعمل على تصديرها بصورة منظمة الى وكالاتها في لندن وتقوم سفن الحكومة التركية بنقلها من بغداد الى البصرة. . . .»[6].

ليس من الصعب قراءة العديد من تلك الاهداف في الرحلات الاوربية عامة التي تمثل في بعض وجوهها النمو المتزايد من الاهتمام بهذه المنطقة ، في حين تمثل بعض اهداف الرحلات الاخرى مقاومة ذلك الاهتمام ، فبعد تزايد الاهتمام البريطاني في العراق مثلاً، نلاحظ فرنسا ارسلت فونتانيه في منتصف القرن التاسع عشر الى العراق والبصرة وذلك لدراسة المصالح البريطانية هناك والسبل الكفيلة لعرقلة تلك المصالح، فكانت الحصيلة ان كتب لنا كتابه الشهير بثلاثة اجزاء عن تاريخ المنطقة، وكذلك الحال مع القنصل الروسي آداموف في البصرة[7].

وآخرين ولذلك فان صراع الاهداف هذا هو الذي شكل الاعتقاد السائد من ان هدف تلك الرحلات هو «التجسس وجمع المعلومات» فقط لحكومات اولئك الرحالة وهو شيء لايمكن نكرانه.

ولكن ذلك يجب ان لا ينسينا الدافع الفردي وحب الاطلاع والمغامرة الذي كان وراء الكثير من تلك الرحلات وخاصة تلك التي بدأت اثناء او بعد عصر النهضة الاوربية التي اكدت على قدرات الانسان وطاقاته الخلاقة ودعوتها الى اكتشاف المجهول . لقد ساد اوربا نزعة واضحة للترحال والاكتشاف فيما وراء البحار ليس باتجاه الشرق وانما حتى في الغرب[8] في مرحلة ما بعد حركات الكشف الجغرافي حتى لخص تلك النزعة Walter Raleigh بان «جو العصر الاليزبيثي هو ذلك الجو المليء بالتوقعات والنجاح، فاحياء العلوم الكلاسيكية فتح الباب على مصراعيه على كل التراث الكلاسيكي، وان اكتشاف العالم الجديد يبدو وكأنه ازاح الستار ليتمكن الانسان من النظر الى مستقبل رائع. . . .»[9].

ولذلك فان تلك النزعة برزت بصورة واضحة في الكثير من كتب الرحلات المبكرة ، كتب لودفيكودي فارتيما وهو احد نبلاء مدينة روما الذي زار الشرق في ١٥٠٤:

«واذا ما سألت عن سبب رحلتي ، بالتأكيد فاني لا ارى سبباً افضل من تلك الرغبة الجامحة للمعرفة التي كانت سبب الكثير من الرحلات لرؤية العالم ومعجزات الخالق. ونظراً لكون البعض قد سافر الى بعض اجزاء العالم بما فيه الكفاية، فاني قررت زيارة ووصف تلك الاجزاء التي لم تكن معروفة من قبل. . . . .»[10].

اما تاجر البندقية المعروف Caeser Fredrick الذي جاس الشرق ايضاً عام ١٥٦٣ فقد ذكر في مقدمة رحلته «نتيجة لرحلاتي العديدة في الهند الشرقية وما بعدها التي استغرقت ثمانية عشر عاماً لاقيت النجاح والاخفاق ولكني رأيت وادركت اشياء جميلة ورائعة يجب تسجيلها ونشرها ليعرفها هذا العالم. . . .»[11].

ولا يقل الرحالة البرتغاليون صراحة عن سابقيهم في

ذكرهم للدافع الذاتي في رحلاتهم الشرقية، فنرى Pedro Teixiera الذي بدأ رحلته من الهند عام ١٦٠٢ يصر على السفر عبر الخليج العربي الى حلب بالرغم من توتر العلاقات العثمانية ـ البرتغالية اناذاك حيث يقول «ان رغبتي ملحة لمعرفة هذا الجزء من العالم»[١٢] في حين ذكر الاب الكرملي غمودنهو نفس الاصرار في رحلته عام ١٦٦٣ عندما كتب « انه بالرغم من التحذيرات التي حذرني منها اصدقائي... بعدم الذهاب عن طريق الصحراء للمخاطر الجمة... ولكني ارغب بالاطلاع على احوال هذه الصحراء...»[١٣].

ولا تخلو الرحلات الفرنسية كذلك من دافع حب المعرفة والاطلاع فقد تحدث تيفنو عن دافع رحلته الاولى عام ١٦٦٨ عندما ذكر انه يريد «توسيع معرفته وتحسين ثقافته والبرهنة على طاقاته وابداعاته في هذا المجال» واكد الهدف نفسه في رحلته الثانية عام ١٦ وهو حب الفضول والتعلم Curiosty and Learning [١٤] اما تافرنيه فهو من الرحالة الاوربيين القلائل الذين جابوا الارض بنطاق واسع. ففي رحلاته الست (١٦٣٢ ـ ١٦٦٨) التي جاس فيها اغلب الاقطار الاوربية وبلدان الشرقين الادنى والاوسط واقطار الوطن العربي حتى قال عن نفسه في مقدمة رحلته:

«لو جاز لي ان اعد اثر التربية عليّ ثانية، لقلت واثقا بأني جئت الى هذا العالم وفيّ رغبة في الاسفار....»[١٥].

ومهما تنوعت وتعددت اهداف تلك الرحلات الاوربية الى الشرق العربي خلال الفترة موضوع البحث (١٥٤٧ ـ ١٩١٣) فمن الممكن تحديد فترتين متباينتين لتلك الرحلات من حيث اهدافها ودوافعها وكذلك اسلوبها ومنهجها وهي:

المرحلة الاولى:

تمتد من وصول الاتراك العثمانيين الى المشرق العربي حتى منتصف القرن الثامن عشر حيث تزايد الاهتمام الاوربي بالمنطقة وخاصة البريطاني منه ولم يكن الدافع الاقتصادي هو البارز وانما الدافع الذاتي وحب الاطلاع وجمع المعلومات ولذلك فان تلك الرحلات يطغي على اسلوبها ومنهجها البساطة والاختصار ولم تهتم بالتفصيلات الدقيقة عن المناطق التي تذكرها. ان رحلات القرن السادس عشر مثلاً لا تذكر شيئاً ذا اهمية عن مدينة البصرة ولا عن الطرق التجارية منها وحتى تلك التي سلكها الرحالة انفسهم في الوصول اليها كما يبرز ذلك واضحا في رحلات قيصر فردريك عام ١٥٦٣. والرحالة الانكليز نيوبري دفيج وآيلدرد عام ١٥٨٣. والرحالة تاجر البندقية الشهير كاسبار بالبي في ١٥٩٠ وعلى العكس تماماً من رحلات القرون اللاحقة.[١٦]

والمرحلة الثانية:

جاءت اهداف وغايات رحلاتها معقدة ومتنوعة لانها تمثل فترة ما بعد غزوة نابليون لمصر، وفتح قناة السويس، وسكة حديد برلين ـ بغداد. حيث اخذت الانظار تتوجه الى بلاد وادي الرافدين لاستكشاف طريق الفرات كطريق بديل للقناة للوصول الى الهند. ولذلك فان عدد رحلات هذه الفترة هي اكبر بكثير من رحلات الفترة الاولى، فاذا اخذنا عدد الرحلات التي ذكرها لونكريك، برغم تحفظنا عليه. نرى ان ٢٤ رحلة فقط للفترة ١٥٥٣ ـ ١٦٩٥ مقابل ٧٤ للفترة ١٧٢٠ ـ ١٩١٣[١٧] ولذلك فان رحلات هذه الفترة ونتيجة لتعدد وتنوع اهدافها تميزت بغزارة مادتها ومنهجها التحليلي الذي لايعتمد في مادته على المشاهدات المباشرة لاولئك الرحالة فقط وانما تستخدم المادة التاريخية والجغرافية والاجتماعية لمدينة البصرة في الوقت الذي نلاحظ نكسيرا كتب عن البصرة عام ١٦٠٤ مادة لاتتعدى ١٠ ـ ١١ صفحة فقط كتب فوثنانيه في ١٨٨٤ خمسة فصول عنها تضم اكثر من مائة صفحة وما كتبه دي لاثال لا تتجاوز عشر صفحات فقط كتب بكنغهام عام ١٨١٦ اكثر من سبعين صفحة، وما كتبه فيليب اوليفيه صفحة واحدة او صفحتين عام ١٦٥٢. نلاحظ ادdespite امرف كتب في ١٩١٢ كتابا بجزءين عن البصرة وهكذا...

ومهما تكن غايات تلك الرحلات واساليبها واهدافها. فقد احتلت البصرة مكانة بارزة فيها وذلك بسبب اهميتها التجارية في العصر الحديث، وشهرتها التاريخية المعروفة وموقعها الاستراتيجي المهم فتلك الرحلات لا تتحدث كثيراً، عن تاريخ انتقال البصرة من موقعها القديم (قرب النهر الحالية) الى موقعها

الحديث الحالي (البصرة القديمة الحالية) وهو ما يزال مثار جدال ونقاش عدا تكسيرا الذي ذكر ان موقعها الاخير ما هو الا الموقع الثالث الذي انتقلت اليه المدينة ولكن دون ان يشير الى موقعيها السابقين.[١٨]

وتجمع تلك الرحلات على ان المدينة في الفترة العثمانية كانت تبعد عن الضفة اليسرى لشط العرب بحوالي الميل الى ميلين لكن رحالة القرن السادس عشر لا يتحدثون شيئاً عن استخدامات الارض فيها، وبالرغم من مكوث الرحالة الانكليزي جون ايلدرد ستة اشهر فيها عام ١٥٨٣ فانه لم يترك لنا وصفا عنها سوى ذكره بان مساحة نطاقها السكني تبلغ ميلاً ونصف وان بناياتها وقلعتها واسوارها مبنية من اللبن المجفف في الشمس[١٩].

لكن تكسيراً اكثر وضوحاً عندما ذكر عام ١٦٠٤ بان البصرة «كانت محاطة باسوار يبلغ ارتفاعها ثلاث ياردات، وتقع قلعتها المربعة الصغيرة على الضفة، عند التقاء (قناة العشار الحالية) بالنهر، وان بعض اجزائها مهدمة لحدوث انفجار هائل فيها قبل وصولي الى المدينة بثمانية او عشرة ايام وذلك لاستخدامها كمخزن للعتاد حيث كان ٥٠٠ كيس من البارود فيها، وسماها تكسيرا بقلعة الترك Fort of Turks، ويبدو ان تكسيرا لم يكن دقيقاً عندما ذكر ان مكان المدينة البالغ عشرة الاف شخص كانوا يسكنون تلك القلعة. بالاضافة الى دار الحكومة فيها، ربما يقصد في ذلك انهم كانوا يسكنون داخل السور وليس القلعة؟.[٢٠]

وعلى العكس مما ذكره تكسيرا، فان دي لافال الذي زار المدينة عام ١٦٢٤ لا يشير الى وجود اسوار Walls للمدينة وانما يذكر استحكامات ترابية Earthern Rampart اقامها السكان بسبب حروب المدينة مع بلاد فارس، ولكن لا يذكر طولها الذي لابد ان يكون كبيرا لانها مدينة كبيرة ومأهولة بالسكان وان كانت بيوتها غير منتظمة... وتضم ساحة كبيرة معروضة فيها بعض قطع المدفعية، من ضمنها بعض الاسلحة البرتغالية التي استولى عليها عرب البصرة من مسقط عندما كانوا يجوبون البحار بسفنهم...»[٢١].

ويؤكد تافرنيه ما ذكره دي لافال حيث يشير في عام ١٦٨٦ الى كون «البصرة كبيرة وتقع داخل اسوار ترابية Walls of Earth يبلغ طولها ست ساعات مشيا على الاقدام ويحتوي ذلك السور على ثلاثة ابواب وهي: البوابة الشرقية، والبوابة الغربية، وبوابة بغداد وهنالك مساحات كبيرة من الارض ما بين تلك الاسوار والنطاق السكني للمدينة لا توجد فيها الحدائق ولا اشجار النخيل...»، ويخرج الحجاج الى مكة من بوابتها الشرقية عند مقام علي Dgiam — Hall[٢٢].

ويبدو مما تقدم ان سور البصرة بقي عبارة عن سداد ترابية عالية لفترة غير قصيرة من القرن السابع عشر حتى ادراك حكام المدينة وباشواتها عدم كفاءة تلك الاسوار وضعف تحصيناتها انذاك حيث ذكر الاب الكرملي الايطالي فنشنسو الذي زار المدينة عام ١٦٥٦ من ان حاكم المدينة «طلب اكثر من مرة وضع مخطط جديد لها وتحصينها جيداً على مثال ما تم في مالطه... بل واراد تحصين القرنة (الخط الدفاعي الاول عن البصرة) كي يعيش فيها بامن وسلام. وباشر فعلا، ببناء مخططين للمدينة بالقرب من النهر، ثم توقف عن البناء وبالامكان مشاهدة ذلك، حيث قيل ان سبب توقفه هو قلة الجص الذي يجلب من اطراف الخليج وافتقار البصرة الى الحطب اللازم الذي يشعل لفخر اللبن»[٢٣] ويؤيد ذلك تيفنو وفيليب اللذان زارا البصرة في ١٦٥٢ و ١٦٨٦ ولكنهما يريان ان الباشا تخلى عن رغبته في بناء مدينة جديدة بالقرب من القلعة الواقعة على ضفة شط العرب عند التقائه بقناة (العشار) خوفا من مهاجمة الانكليز والهولنديين ولاتفه الاسباب»[٢٤].

لا ينكر ان انشاء مدينة جديدة على الضفة اليمنى من شط العرب ربما تكون اكثرملاءمة لتجارة البصرة وسكانها على السواء وذلك بايجاد ميناء يطل مباشرة على النهر يكون قادراً على استيعاب السفن الكبيرة لعمق المياه وان استخدامات المياه لاغراض الشرب افضل مما عليه في قناة العشار التي اصابها التلوث نتيجة استخدامات السكان اليومية لها ولكن الاسباب التي اوردها اولئك الرحالة تبدو غير كافية لتفسير توقف حسين باشا افر اسياب عن بنائه لمدينته الجديدة، وربما عدم استقرار الاوضاع

السياسية في المدينة وعدم توفر الموارد المالية الكافية من الاسباب الواضحة وراء ذلك، وخاصة اذا ادركنا ان مثل تلك المشاريع تحتاج الى فترة زمنية طويلة قد لا تتوفر لحاكم واحد ، وان واردات باشوية البصرة انذاك لا تتجاوز ٨٠٠ الف قرش سنوياً»[٢٥].

وعلى اية حال ، يبدو ان سور البصرة والتركيب الداخلي للمدينة اتخذ شكله النهائي في القرن الثامن عشر ، فبالرغم مما ذكره الرحالان الانكليزيان بلاستيد وكار مايكل اللذان زارا المدينة في ١٧٥٠ و ١٧٥١ على التوالي ووصفوها بانها «مدينة كبيرة لكن بناءها غير منظم وبيوتها تتألف من طابقين ومبنية من اللبن المجفف في الشمس ، وليس فيها بنايات مميزة عدا مساجدها التي هي في حالة رديئة ايضاً كما هو الحال بالنسبة لسورها الذي لايمكن اصلاحه الا بصعوبة»[٢٦] لكن الرحالة الدانيماركي كاستن نيبور اول رحالة ترك لنا وصفاً دقيقاً للبصرة التي زارها عام ١٧٦٥ حيث قال ان اسوارها مازالت مبنية من الطابوق (اللبن) المجفف في الشمس، الذي صب بشكل خاص وتحتوي على خمسة ابواب وليس ثلاثة كما ذكرها تافرنيه في ١٦٨٦، وهي: باب الرباط، وباب الزبير، وباب بغداد، وباب مجموعة، وباب السراجي[٢٧] وهي نفس البوابات التي ذكرها بكنغهام عام ١٨٨٦ فيما بعد والتي بقيت حتى مطلع هذا القرن»[٢٨].

ولكن ما اغفله نيبور من سور البصرة هو اجزاؤه ولا سيما ذات الطبيعة العسكرية، التي جاءتنا من الرحالة الانكليزي بارسنز الذي مكث في المدينة فترة غير قصيرة اثناء حمله كريم خان عام ١٧٧٥ ووصف اساسات السور بانها «قوية ومتينة ومبنية من الطابوق المجفف الذي يصل ارتفاعه في السور حتى مستوى سطح الماء المجاور في الخندق»[٢٩] وان الخندق المحيط بالسور مكون من قناتي الخورة والخندق الحاليتين حيث يسير بمحاذاتها ابتداء من التقائها بشط العرب وحتى اطرافها عند بوابة الزبير. ولذلك اتخذ سور البصرة شكلا مستطيلا تقريباً ويبلغ محيطه ما يقرب من ثمانية اميال ومن هذا يبدو ان سور البصرة لا يتميز عن اسوار المدن العراقية الاخرى انذاك في شكل محيطه، وانما في كونه محصناً بخندق مائي كبير يحيط به في اجزائه الشمالية والشرقية والجنوبية ولا يرتبط باليابس الا في طرفه الغربي عند التقائه بالصحراء باتجاه هضبة الزبير، ولذلك سيلعب هذا دورا بارزاً في افشال الهجمات الخارجية على المدينة ولا سيما هجوم كريم خان عليها انذاك.[٣٠]

يبلغ سمك السور ٢٠ - ٢٥ قدماً ويوجد في اعلاه ثمانية مشارف (مزاغل) Bastions ، وفي كل شرفة ثماني مدافع وثماني بنادق، ومقابل كل مزغل في اسفل السور عدد من المدافع المحمولة بالعربات الصغيرة، لكن تلك الاسلحة قديمة وغير صالحة للاستعمال. ويؤيد بكنغهام بارسنز بان تلك المزاغل تستدير باستدارة السور وترى فيها مصادفة محلات للمدافع وان لم تكن مرتفعة كثيرا، وان بعض اجزاء السور محصنة بابراج مستديرة ومتوجه بشرفات، لكن حالة تلك الاسوار مزرية بسبب عدم اجراء التعليمات التي تحتاجها في حينه وتبدو اشبه بالاسوار لمدينة مهجورة اكثر منها باسوار تحيط بمدينة مأهولة»[٣١] . ولعل عدد المزاغل التي ذكرها بارسنز اقرب الى الدقة من العدد «٩٩ مزغلاً» وهو الذي اورده بلاستيد عام ١٧٥٠»[٣٢].

ومهما تكن حالة السور في البصرة فانها لا تختلف كثيراً عن احوال اسوار المدن العراقية الاخرى كأسوار مدينة بغداد مثلاً التي لم تكن بحالة جيدة على الدوام الا في حالة وجود خطر واهم. ولكن ما تختلف فيه مدينة البصرة بالتأكيد عن بقية المدن الاخرى هو في استخدامات الارض وخطط العمران فيها طيلة الفترة. موضوع البحث حيث يمكن تمييز نطاقين هما:

النطاق الاداري والعسكري:

يقع بالقرب من ضفة شط العرب اليمنى ويشتمل على محلتي المناوى على الضفة اليمنى من قناة العشار والمقام على الضفة اليسرى ، وتضم المناوى التي كانت خارج السور حتى مده اليها حسين باشا افراسياب على القلعة الصغيرة المربعة[٣٣] التي ذكرها تكسيرا في ١٦٠٤ وتافرنيه في ١٦٥٢ التي «لايمكن لأية سفينة دخول القناة من النهر دون اذن منها»[٣٤]، بالاضافة الى مسجد ذي منارة صغيرة والى بعض المخازن لطرح الاخشاب والمواد اللازمة

لصناعة السفن والزوارق الصغيرة. واما المقام فانه يضم دائرة الكمارك عند الضفة ومقهى ومسجداً ومساكن لاولئك الذين اجتذبتهم الاعمال الحكومية هناك والميدان يقع بعد دائرة الكمارك وهو ساحة مربعة كبيرة لا تستخدم فقط حقل، خارج السور(٣) وليس محلة سكنية وحتى المحلات التي تحمل اسماء اشخاص (ابن عبد شيخ جوهر، شيخ عمر، شيخ حبيب، شيخ بادي، محمد تحته، شيخ قنبر سيد رمضان، حسن داده، عز الدين، محمد جواد، عباس) هي ربما اسماء لبيوتات وعوائل اكثر منها محلات سكنية مستقلة اذ لم يبق منها حتى الان اية محلة (عدا عز الدين) وكذلك الحال بالنسبة لتلك المحلات التي تحمل اسماء حرف ومهن (الشربتية، بحصصة، الحدادة، معصرة، حصرجية، الخضراوية، خشابة، مقبيرة....)، ربما تمثل مناطق تركز لتلك المهن والحرف اكثر منها مناطق سكن. وهذا يحملنا على الاعتقاد ان محلات المدينة السكنية اقل من ذلك العدد الذي ذكره نيبور بكثير وخاصة اذا ما ادركنا ان الرحالة اللذين جاءوا قبل نيبور وبعده، يجمعون على ان مساحة النطاق السكني للبصرة لا تتعدى ميلين مربعين باية حال من الاحوال، فاين يمكن استيعاب (الثلاث وسبعين) محلة فيها؟

ان تحديد المحلات السكنية وعددها لمدينة البصرة في عصرها الحديث لابد ان يرتبط ارتباطاً وثيقاً بعدد السكان الذي تضمه تلك المحلات والذي بقي موضع تخمين وجدل بين اولئك الرحالة الذين مروا بالمدينة او مكثوا بعض الوقت فيها. وطالما ان الاحصائيات المحلية عن سكان المدينة في هذه الفترة غير متوفرة فان تلك الارقام تفي مصدرنا الرئيسي في هذا المجال لعل تكسيرا اول رحالة اوربي ذكر ان البصرة تضم في ١٦٠٤ عشرة الاف بيت اي ما يقارب ٥٠ الف شخص اذا اعتمدنا معامل ٥ اشخاص لكل بيت(٦). في حين قدر غودنهو بيوتها بثلاثين الفاً عند زيارته لها في ١٦٦٣(١١) وهذا التخمين ربما تعوزه الدقة، لانه اذا اخذنا ارقام تكسيرا بنظر الاعتبار وهي اقرب الى الصواب، فليس من المعقول ان يتضاعف عدد البيوت ثلاث مرات في فترة نصف قرن.

اما في القرن الثامن عشر، فان نيبور هو الرحالة الوحيد الذي قدّر سكان المدينة باسلوب علمي وهو ذكر عدد المحلات وعدد البيوت لكل محلة وعدد الاشخاص لكل بيت، حيث قدرها بسبعين محلة (وان اورد اسماء ثلاث وسبعين محلة) وقدر مئة بيت لكل محلة وسبعة اشخاص لكل بيت، وبذلك يبلغ عدد السكان حوالي ٤٩ الف نسمة، ولكنه شك في النهاية من ان عدد سكان المدينة لايتجاوز اكثر من اربعين الفاً.(٥) حقيقة ان المدينة تعرضت الى الطاعون القاسي في ١٧٧٣ والى الغزو الاجنبي في ١٧٧٥ الذي ادى الى خسارة نسبة عالية من سكانها الى الحد الذي وصل فيه عدد سكانها اكثر بقليل من ثمانية الاف نسمة في ١٧٩٠ عندما زارها تايلر.(٦)

جدول رقم (١) (*)

اسماء محلات مدينة البصرة كما ذكرها الرحالة كاستن نيبور

١٧٦٤

الاسم بالعربية	الاسم بالالمانية		
١: المناخ	Menach	٧: الدوغ	Doagh
٢: المشراق	Mischrak	٨: ام البلابل	Om el Bellabil
٣: دنانيك	Denanik	٩: ام البزازين	Om el Bissasin
٤: ابن عيد	Iben Aid	١٠: شيخ بادي	Schech Badi
٥: عباية	Abaieh	١١: شيخ قنبر	Schech Kumber
٦: ميدان العبيد	Meidan al Abid	١٢: شيخ جوهر	Schech Dsjohar

١٣: ام الطنوق	Om el Ettonuk
١٤: قبلـه	Kable
١٥: شيخ عمر	Schech Omer
١٦: مدبغة	Medbuga
١٧: نهر البنات	Naher el Benat
١٨: الشيخ حبيب	Schech Habib
١٩: جسر اللوح	Dsjusser ellauh
٢٠: مكول	Megkul
٢١: المعدان	Maadan
٢٢: محمد تحته	Mohammad Tachate
٢٣: حمام كوت	Hammam Kud
٢٤: محلة القاضي	Mehallet el Kadi
٢٥: محلة العرصة	Mehallet el Arsa
٢٦: محلة سيد رمضان	Mehallet Said Rammadan
٢٧: محلة الأفغان	Mehallet el Afghan
٢٨: حكاكـه	Hakake
٢٩: محلة مرجانـه	Mehallet Murdsjana
٣٠: حسن داده	Hassan Dade
٣١: الكواز	Kauas
٣٢: بستان قصب	Bustan Kasab
٣٣: كوارخين	Kauarchin
٣٤: عز الدين	As Eddin
٣٥: محلة خان زكار	Chan Zikkar
٣٦: القطانـه	El Kotana
٣٧: السيف	El Sif
٣٨: حوش الباشا	Hausch el pasha
٣٩: جسر الغربان	Dsjusser el Gurban
٤٠: المجموعـة	Medsjemoa
٤١: مقبيـرة	Mogaber
٤٢: صبغونيـة	Samgonie
٤٣: محمد جواد	Mohammem Dsjoad
٤٤: عروة	Arroa
٤٥: غمقـة	Samke
٤٦: بحارنـة	Bahama
٤٧: جسر العبيد	Dsjusser el Abid
٤٨: بلد السايس	Balled Essias
٤٩: الدوغ	Doagh
٥٠: حلل	Holal
٥١: المقام	Mokam
٥٢: محلة الجديدة	Mehallet el Dsjedide
٥٣: نظران	Naduran
٥٤: الصبخة	Sabcha
٥٥: معصـرة	Maasra
٥٦: الخضـر	El Kchodder
٥٧: الحدادة	Hadade
٥٨: الخليليـة	Chaliife
٥٩: الشربتيـة	Scherbatie
٦٠: محلة اليهود	Mehallet el Ihud
٦١: حصرجية	Hasirtchie
٦٢: الصمير	Seimar
٦٣: فتالة	Fatale
٦٤: جسر الحوز	Dsjusser el Haus
٦٥: خشابـة	Chaschabe
٦٦: محلة الساعي	Mehallet Essai
٦٧: منـاوي	Menaui
٦٨: بريهـة	Brahe
٦٩: عباس	Abbas
٧٠: فرسي	Firsi
٧١: الخضـراوية	Choddraule
٧٢: كوت الكومرلي	Kud el Kummerli
٧٣: مجمصصـة	Medsjossasa

(*)Source : Niebur, op. cit, p. 173

ويلاحظ : ١ ـ المشراق : كتبت في الاصل مشارق ٢ ـ الدوغ : مكررة مرتين (٧ ، ٥٣)]

ولذلك فان ما ذكره بكنغهام في ١٨١٦ من ان نفوس البصرة ربما وصل الى نصف مليون نسمة وانها فقدت في طاعون ١٧٧٣ ثلاثمائة الف نسمة لهو امر تعوزه الدقة[١٧]، لان بعض احصائيات القنصلية البريطانية في بغداد، قدرت سكان العراق في منتصف القرن التاسع عشر بمليون وربع، كان عدد البدو منهم الذين يسكنون الصحراء نصف مليون شخص[١٨]، والبقية في المدن والريف، فكيف كانت البصرة وحدها تضم نصف مليون نسمة. ولا تختلف تقديرات بكنغهام عن تقديرات لوخر الذي ذكر ان البصرة فقدت مائتي الف نسمة في طاعون ١٨٣١[١٩] . لا ينكر ان طاعوني عام ١٧٧٣ و ١٨٣١ كانا قاسيين حتى في مدينة بغداد التي فقدت في الاول ٥٠ ـ ٦٠ الف شخص وما يقرب ذلك الرقم في الطاعون الثاني[٢٠] .

ان المبالغة في حجم خسارة السكان نتيجة تفشي الطاعون ربما يعكس حالة الخوف والهلع الذي اصاب المدينة لسرعة انتشار ذلك الوباء وعدم توفر وسائل الوقاية منه، ولكن بالرغم من ذلك، نلاحظ ان سكان المدينة تزايدوا خلال الربع الاول من القرن التاسع عشر حيث تذبذب سكان المدينة ما بين ستين الف وثمانين الف كما اورد ذلك بارسنز ودوبريه وهيود وكيل، وبالرغم من تعرض المدينة الى الكوارث الطبيعية والامراض في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فان عدد السكان بقي حتى مطلع هذا القرن مستقراً حول الاربعين الفاً . اما ارقام القنصل الروسي في البصرة الكسندر اداموف في عام ١٩١٢ فلا تساعدنا على معرفة عدد السكان بدقة في المدينة لانه ذكرها لكل ولاية البصرة التي كانت تضم المدينة والاقضية والنواحي التابعة لها[٢١] . وعلى اية حال ، لوقارنا عدد سكان مدينة البصرة بعدد سكان مدينة بغداد مثلاً لوجدنا البصرة اقل كثافة من بغداد التي ظل عدد سكانها يتذبذب حول مائة الف نسمة طيلة القرن الثامن عشر ومائة وخمسين الفا طيلة النصف الاول من القرن التالي عدا فترات الطاعون والكوارث الطبيعية الاخرى التي ضربت المدينة[٢٢]. ولكن اذا قارنا سكان مدينة البصرة في اواخر القرن التاسع عشر بعدد سكان بعض موانىء الخليج العربي المهمة آنذاك، كالمحمرة، ومسقط ، والكويت، مثلاً لوجدنا البصرة اكثر كثافة في سكانها من كل تلك الموانىء وفي الوقت الذي وصل عدد سكانها في ١٨٨٩ اربعين الفاً، كان سكان المحمرة آنذاك ٥٦٠٠نسمة، وفي عام ١٩٠٩ عندما ارتفع سكانها الى ستين الفا كان سكان الكويت في العقد الاول من القرن العشرين اثني عشر الفاً، وقطر وعشائرها ستاً وعشرين الفاً والقطيف وضواحيها عشر الاف نسمة فقط ..... الخ[٢٣].

جدول رقم (٢)
عدد سكان البصرة ١٦٠٤ ـ ١٨٨٨
كما اوردها الرحالة الاوربيون

اسم الرحالة :		السنة التي زار البصرة فيها	عدد السكان/شخص
١: ب، تكسيرا	pedro Teixiera	١٦٠٤	١٠ الف بيت
٢: ب. دي لافال	Della Valle	١٦٢٣	مأهولة بالسكان
٣: أ. كاريه	Abbe Carre	١٦٢٤	مأهولة بالسكان
٤: ر. ب. فيليب	R.P. Philipe	١٦٣١	ــــ ــــ
٥: ثافرنيـــه	V.Tavernaie	١٦٥٢	ــــ ــــ

٦: م. غودنهو	M.Godinho	١٦٦٣	٣٠ الف بيت (١٠٠ الف نسمة)
٧: ثيفونو	Thevenot	١٦٨٦	مأهولة بالسكان
٨: ك. نيبور	C, Niebure	١٧٦٤	٥٠ الف
٩: ج. تايلر	J.Tayler	١٧٩٠	٨ الف (؟)
١٠: بارسنز	Parsons	١٨٠٨	٨٠ الف ـ ٩٠ الف
١١: دوبريه	Duprieh	١٨٠٩	٦٠الف
١٢: بكنغهام	J.Buchkingham	١٨١٦	١٠٠ الف
١٣: و. هيود	W.Hude	١٨١٧	٨٠ الف
١٤: ج. كبل	G.Kapple	١٨٢٤	٦٠ الف
١٥: ج. اشر	J.Ussher	١٨٥٦	٥ الف ـ ٦ الف (؟)
١٦: أ. شيفرد	A.Shepherd	١٨٥٧	٦٠ الف
١٧: أ. لوخر	A.Locher	١٨٨٩	٤٠ الف

ومما لاشك فيه، كان العنصر العربي يشكل الغالبية العظمى بين سكان المدينة على الدوام في الفترة موضوع البحث. وبما ان البصرة مركز تجاري حدودي وميناء بحري مهم فمن الطبيعي ان نجد المدينة تضم بعض الاقليات الدينية والجاليات التجارية من كل اقطار اسيا، ولكن لانملك ارقاماً دقيقة عن حجم كل اقلية او جالية ما عدا ما ذكره بكنغهام في ١٨١٦ حيث ذكر وجود ٥٠ عائلة من الارمن، و ١٠٠ عائلة من اليهود، و ٢٠ عائلة من الكاثوليك،(٥٤) وارقام آداموف عن عدد تلك الاقليات في مطلع هذا القرن لا تساعدنا كثيراً في معرفة حجمها في المدينة لانه ذكرها لولاية البصرة وليس للمدينة فقط(٥٥).

ويجمع الرحالة الذين زاروا البصرة من ان سكانها يحترمون الاجانب «ولم اشاهد في اي مكان زرته من قبل مثل ذلك الاحترام، كما ان هناك نوعاً من التسامح الديني بين كل الطوائف التي تسكن المدينة» كما ذكر بكنغهام(٥٦)، ويؤيده في ذلك استون شفرد الذي زار البصرة في ١٨٥٧ الذي كتب ان في «كل رحلاتنا داخل المدينة وفي اريافها القريبة وجدنا السكان مؤدبين ويعملون على اكرامنا بالتمر واللبن والحليب وكل شيء يستطيعون تقديمه.....»(٥٧) وحتى حكام البصرة وباشواتها نظروا الى تلك الاقليات نظرة ود واحترام فيذكر الاباء الكرمليون الايطاليين فنشنسو وسبستياني اللذين زارا البصرة في ١٦٥٦ ان اميرها حسين باشا (آل افراسياب) كان ينظر نظرة ود واحترام الى الاباء الكرمليين ويلبي طلباتهم ويعاملهم كأصدقاء له، وقام بزيارة الدير ودخل كنيسته وبستانه فامر بشق ترعه على نفقته، كما سمح للاب منصور الذي كان صديقه ان يشيد غرفا جديدة من اجل راحته وفائدة الدير،(٥٨) اما دي لاڤال فيذكر «انه بعد ان انهى الاباء الكرمليون بناء كنيستهم في ١٣ نيسان ١٦٢٤ حضر الباشا بنفسه اليها في اليوم التالي لزيارتها...»(٥٩) ويؤيد نيبور ذلك حيث اكد بان حسين باشا منح حرية واسعة للمسيحيين واجتذب كثيراً منهم للاستقرار في المدينة...»(٦٠).

ويبدو ان وصول الكرمليين الى البصرة اقدم من وصول الاوغسطينيين البرتغاليين اليها. في ١٦٠٤، ذكر تكسيرا انه «شاهد بيتاً يشبه الابرشية يقع على الضفة الاخرى للنهر وانه يرجع الى جماعة عيسى بن مريم وتتبعه مساحات شاسعة من الاراضي ومزارع النخيل حيث لم اسمع بوجود مثل تلك الابرشية لعبادة السيد المسيح»[٢١] وهذا نفس الوصف الذي ذكره الاب الكرملي الرحالة فنشنسو الذي وصل البصرة عام ١٦٥٦، وبذلك فان وصول الكرمليين الى البصرة ليس في عام ١٦٢٣ كما يعتقد البعض وانما اقدم من ذلك[٢٢]. ففي ذلك الدير نزلت الرحالة الفرنسية كاريه عام ١٦٢٧[٢٣] وفيه نزل الاباء الكرمليون فنشنسو ومبستياني حيث ذكروا:

«اعجبنا ذلك الدير الذي يعد من بيوت البصرة الحديثة ويحتوي على مختلف المرافق الضرورية الخاصة بالاديرة: فناء تحيطه اروقة، في وسطه حديقة عامرة بالازهار وكانت كنيسة الدير على اسم العذراء مريم .... هناك في الطابق الارضي غرف الاستقبال، اما الطابق العلوي ففيه صوامع الرهبان تعلوها السطوح التي ينام فوقها الرهبان في الصيف...»[٢٤]

ويبدو ان الكرمليين بنوا كنيسة اخرى في البصرة حيث ذكر دي لاقال ان الاب الكرملي Basilio de San Franseco انهى عام ١٦٢٤ بناء كنيسة صغيرة ومعبد لجمعيته في البصرة سماها Nostra Senora del Remedii واقام وليمة حضرها كافة المسيحيين الاوربيين في المدينة[٢٥]، ويؤيده تيفنو الذي ذكر في عام ١٦٨٦ ان الاباء الكرمليين في البصرة يملكون بيتاً وكانت الكنيسة في ذلك البيت حيث تقدم خدماتها ليس فقط للفرنجة وانما للنساطرة والارمن الذين يأتون الى المدينة خلال موسم التجارة.»[٢٦]

اما نيبور فيشير في ١٧٦٤ الى ان تلك الكنيسة قد تهدمت ويقوم راهبان ينتسبان الى المذهب الكاثوليكي الروماني بتشييد كنيسة صغيرة للمرة الثالثة[٢٧].

ولا تذكر لنا كتب الرحلات تفصيلات عن ادارة ونشاطات الاباء الكرمليين في البصرة عدا بعض الاشارات عن اولئك الاباء الذين تولوا الاشراف على الكنيسة ويعتبر الاب كازميرو الكرملي من ابرزهم وهو فلمنكي الاصل وهو عالم بارع يتقن عدة لغات ويكن له الهولنديون في المدينة احتراما كبيراً[٢٨].

اما غودنهو فقد ذكر ان الاب الكرملي Braz de Santa Barbara قام بضيافته اثناء مكوثه في المدينة عام ١٦٦٣[٢٩]. ولكن اخذ الكرمليون وجمعيتهم يفقدون مكانتهم في البصرة بسبب نمو فرعها في بغداد في اواخر القرن التاسع عشر فقلصوا نشاطهم تدريجياً حتى لم يبق لهم في المدينة سوى مدرسة واحدة للبنين واخرى للبنات وان اعيد جزء من نشاطهم فيما بعد لمجيء الراهبات الفرنسيات اليها عام ١٨٩٩ لفترة قصيرة.[٣٠]. اما المسيحيون الاوغسطينيون وهم في الغالب من البرتغاليين فكان مجيؤهم الى البصرة بعد وصول الكرمليين اليها، فيذكر دي لاقال في ١٦٢٥ انهم لم يبنوا كنيستهم في المدينة بعد بسبب الحروب والغارات التي كانت تتعرض لها.. وانما كانوا يمارسون طقوسهم في بيت مؤجر ويدفع الباشا تلك الاجور.... وكان الاب Consalvo Martin de Castbranco زعيما للبرتغاليين في البصرة[٣١]، ويبدو ان ليس لتلك الاقلية دور كبير في المدينة وعلى عكس سابقتها حيث ذكر تافرنيه الذي زار البصرة في ١٦٥٢ بان اولئك الرهبان غادروا البلدة منذ انقطاع البرتغاليين عن المتاجرة معها، في حين ذكر غودنهو في ١٦٦٣ وجود اثنين من الاباء الاوغسطينيين البرتغاليين في المدينة ولكن لم يذكرهم بالاسم[٣٢].

مما تقدم يبدو ان الاهمية التجارية للمدينة هي التي ادت الى بروز اهميتها الدينية للاوربيين فالى جانب تلك الاقليات كانت هناك الجاليات التجارية الاجنبية في المدينة التي كانت اقامتها فيها اما مؤقته او بصورة دائمة. فيذكر الرحالة الفرنسي فيليب الذي زار البصرة في ١٦٥٢ ان التجار البرتغاليين اعتادوا على مغادرة البصرة في اواسط شهر تشرين الاول من كل عام بعد نهاية موسم جنيّ التمور فيها[٣٣] وذلك بشرائها وتصديرها الى الهند، اما تيفنو فكان اكثر وضوحا حيث ذكر في ١٦٨٦ في خلال فترة الموسم التجاري لاتزدحم البصرة بالتجار الاجانب القادمين من الهند فقط وانما باولئك التجار القادمين من بغداد لشراء السلع الهندية حيث يكون السكن نادراً جداً فيها...»[٣٤] ففي ذلك الموسم تصل السفن التجارية من الخليج العربي الى البصرة في

نهاية تموز من كل عام وتبقى هناك حتى نهاية تشرين الاول لانها لا تستطيع الخروج من شط العرب بسبب هبوب الرياح المعاكسة (الجنوبية الشرقية)، بعد ذلك تبدأ الرحلات النازلة الى الهند وتستمر حتى مايس من السنة التالية.

وهكذا يبدو ان نمط التجارة الاوربية مع البصرة في الفترة ما قبل انشاء الوكالات التجارية الدائمة كان نمطاً موسمياً يشبه الى حد كبير نمط التجارة الاوربية في العصور الوسطى وعصر النهضة حيث لم يكن حجم الانتاج الاجمالي كافياً لقيام الاسواق العالمية بصورة دائمية ويقوم فيه التاجر المتنقل بدور رئيسي فيه اذ سرعان ما يبيع بضاعته في البصرة ليشتري منها بضاعة اخرى ينقلها معه الى هرمز او سورات او صلب لبيعها هناك وهكذا.

ولعل هذا النمط من التجارة هو الذي يفسر لنا عدم ورود تفصيلات دقيقة عن مدينة البصرة في رحلات اولئك الاوربيين من التجار الذين مروا بالمدينة في الفترات المبكرة من العصر الحديث. فتاجر البندقية المعروف قيصر فردريك ذهب عام ١٥٦٣ من حلب الى الهند عبر بغداد والبصرة وهرمز ولكن دون ان يترك لنا ملاحظاته عن المدينة وفي عام ١٥٦٥ وجد في احدى القوافل التجارية المتجهة من البصرة الى حلب تسعة من التجار البنادقة وجماعة من البرتغاليين بزعامة Antonio Teixiera ولكن لانعرف تفصيلات رحلتهم وكذلك الحال مع تاجر البندقية الاخر كاسبار باني الذي مر بالبصرة في ١٥٧٩. وحتى رحلة اولئك التجار الانكليز نيوبري - آيلدرد - فيج (الاخير يوصف بانه من الرواد الانكليز في الهند) الذين كانوا برفقة تجار آخرين يحملون رسائل من الملكة اليزابيث الى اباطرة الصين والمغول، لم يتحدثوا عن البصرة والطريق الذي سلكوه، عدا ما ذكره آيلدرد من انه وزميله التاجر William Shales انزلوا تجارتهم في البصرة وقد كانت محملة على سبعين باركا Barks، ويجر كل بارك اربعة عشر رجلاً في رحلتهم النهرية. اما نيوبري فكان يبحث عن بعض المخطوطات العربية النادرة لشرائها لحساب ريجارد ماكلبوث تاجر الكتب الانكليزي في مدينة اكسفورد حيث كتب له في ٢٨/مايس/١٥٨٣ ما يلي:

«سألت كثيراً، في طرابلس بسوريا عن مخطوطة وصف البلدان لابي الفداء ولم اعثر عليها. وربما يمكن العثور عليها في بلاد فارس كما ابلغني البعض ولكن لم اذهب الى هناك بعد، وسابحث عنه في بابل والبصرة وحالما اجده سارسله لك . . . .»[٣٣].

ولا يختلف الرحالة الفرنسي تافرنيه عن الرحالة المذكور اعلاه بالرغم من انه كتب عن البصرة بصورة مقتضبة جداً، فهو تاجر مجوهرات باريسي كان يحمل معه في رحلته الى الشرق عام ١٦٦٤ مجوهراته بقيمة ١٣٠ الف باون استرليني، باع قسماً كبيراً منها الى الشاه عباس الثاني في اصفهان في كانون الاول من تلك السنة، وقسماً اخر الى احد امراء الهند المسمى Aurangzeb في مايس من السنة التالية، بل ويذكر الرحالة الانكليزي كارمايكل ان القافلة التي كان يسافر معها المتجهة من البصرة الى حلب كانت تضم ثلاثة وثلاثين تاجراً مسيحياً، وسبعة من التجار اليهود وعشرين تاجرا من المسلمين تنقل تجارتهم ٦٠٠ جملاً وتقدر قيمة تلك التجارة بثلاثمائة الف باون استرليني».

ولكن تلك التجارة الموسمية لاتعني عدم وجود بعض الجاليات التجارية الاوربية في البصرة وخاصة الايطالية والبرتغالية منها أقدم الجاليات التي استقرت في المدينة، فعند مجيء تكسيرا عام ١٦٠٤ الى المدينة سكن في بيت احد التجار البنادقة وهو Santo Fonte الذي رافقه من هرمز الى البصرة حيث استقبلها في المدينة تاجر بندقي آخر وهو Jerom Ben Tempely الذي قدم لنا خدمات جليلة في المدينة كما ذكر تكسيرا وكان معهم على نفس السفينة التاجران البرتغاليان James de Melo de San Payo و John Pinto وهو تاجر ثري وذو سمعة حسنة وعلى علاقة قوية مع الايطالي Fonte ولم يغادر البصرة مع تكسيرا بسبب ومالديه من بضاعة كثيرة لبيعها في المدينة. . .»

ويبدو ان تلك الجاليات التجارية قد بقيت في البصرة حتى منتصف القرن الثامن عشر وعلى عكس الهولنديين الذين اختفوا منها عندما زارها نيبور الذي ذكر ان الايطاليين على اختلافهم موجودون في المدينة ويمارسون تجارة لابأس بها مع البندقية ولوفرنو عن طريق حلب وكان التاجر البندقي الشاب Leoni من ابرزهم ويملك تجارة كبيرة وله علاقات تجارية وثيقة مع بغداد.

ان البصرة كمركز تجاري اقليمي معروفة من خلال العديد من الدراسات، ولا حاجة لتكرار ما توصلت اليه تلك الدراسات فقد وصف غودنهو سوقها في ١٦٦٣ بانه اعظم سوق في هذه البحار، «ويرسو في مينائها سنوياً اكثر من اربعين سفينة محملة بالملابس الناعمة والحديد والخشب والتوابل والكهرمان، والاعشاب الاخرى»، ويسكنها تجار اغنياء يشتغلون على مائتي سفينة، ويقول الهولنديون ان التجارة في البصرة تحقق ربحاً بمقدار مئة بالمئة»[٧٦] واستون شيفرد اكثر دقة عندما اكد ان سوق البصرة في اهميته وسمعته اكبر من اي سوق سواء في القاهرة او في الاسكندرية حيث تتوفر فيه:

- حمولات الرز والسكر، والسكاكين والاواني من برمنكهام (بريطانيا)
- القطن والاقمشة المطبوعة من مانجستر
- السجاد، والتركواز، من بلاد فارس
- التوابل من سيلان، واللؤلؤ من البحرين، القهوة من مخا (اليمن)
- الحرير الطبيعي والشاي من الصين
- الحديد والقصدير من انكلترا، والبنادق من السنغال
- التحفيات من بابل ونينوى، والرقيق من هرمز.

والذهب والفضة، والشاي والعمائم والنيلة من سورات ....[٧٧]

ولكن اهمية تجارة البصرة لا تمكن في ذلك النوع من السلع التي ذكرها استون شيفرد وانما في تجارتها الكبرى القائمة على التمور والخيول، والرقيق والابل. فيذكر تيفنو في ١٦٨٦، انه كانت في الميناء قبل وصوله الى البصرة خمسة عشر سفينة كبيرة قسماً منها هولندي والقسم الاخر لتجار اجانب وعرب كلها محملة بالتمور فقط وبكميات هائلة وبما تكفي لكل الهند»[٧٨]. ويقدر فونتانيه صادرات البصرة من التمور سنوياً والمارة فقط عبر قناة العشار بـ ١٥٠ Baglos(٦٠ طناً) وهذه الكمية قليلة، حيث تباع الـ Baglo الواحدة بستة الاف قرش وتذهب الانواع الجيدة منه الى موانىء البحر الاحمر في حين تذهب الانواع العادية منه الى الهند وكانت الضريبة على التمور المصدرة قرشاً واحداً لكل كيس[٧٩].

والبصرة غنية بسوق الرقيق فيها حتى عرفت احدى محلاتها بميدان العبيد ولكنها ليست اكبر من سوق مسقط وبالرغم من ان هذه التجارة كانت محرمة من الناحية القانونية لكنها معروفة انذاك وكانت بيوتات الموظفين والملاك الكبار في البصرة من احسن مصادر اقتناء الرقيق فيها. ويذكر الاب فنشنسو في ١٦٥٦، انه قبل وصوله بايام قليلة الى البصرة وصلتها قافلة من الصبيان والفتيان من روس ويونانيين ومجريين وبولنديين»[٨٠]، اما ثافرنيه فيرى ان ما يشترى من الرقيق في سواحل البحر الاحمر وجنوبه كان يرسل الى مسقط التي كانت سوقاً رئيسية له ويقدر ما يدخلها من الرقيق باربعة الاف سنويا يصل الى البصرة منها حوالي ثلاثمائة ويذهب الباقي الى موانىء اسيا الاخرى»[٨١].

اما تجارة الخيول فلابد ان تكون رائجة في البصرة منذ الفترات المبكرة للعصر الحديث وذلك للاستخدامات العديدة للخيول سواء في القوافل التجارية، وقوافل الحج، وحاجات صنف الفرسان في الجيش العثماني بالاضافة الى حاجات التصدير. وبالرغم من ان الباب العالي كان قد حرّم تصدير الخيول من الامبراطورية لكن ذلك التحريم بقي حبراً على ورق وكانت ترسل الخيول الى المحمرة لاغراض التصدير.

ويتباين عدد الخيول التي كانت تصدرها البصرة من ١٥٠٠ رأس خيل عام ١٨١٦ كما ذكر بكنغهام[٨٢] الى مليون حصان عند منتصف القرن التاسع عشر كما يعتقد فونتانيه[٨٣] وكانت مدن الهند الكبرى مثل كلكتا وبومباي والسنغال وبلاد فارس من الاسواق المهمة لها. اما مصادر البصرة من الخيول فهي عديدة تمتد من الجزيرة الفراتية وتكريت وبغداد نزولاً الى البحرين والجزيرة العربية لوفرتها ولرخص اثمانها كما ذكر سبستياني في ١٦٥٦[٨٤] ولكن دور البصرة في تجارة الخيل لا تكمن في كونها منفذاً لتصديرها وانما مكانا لتربيتها ايضا وخاصة للفترة ما بين شرائها وتصديرها وقد تستغرق عدة شهور وذلك لتوفر المراعي الجيدة حول المدينة. وكذلك في كون البصرة نفسها سوقاً رائجة للخيل وذلك لاستخدام اعداد كبيرة من الخيول في القوافل التجارية الصحراوية الصاعدة الى حلب.

ويبدو من كتب الرحلات ان تجارة الخيل هذه مربحة جداً وانها تتعرض الى الكساد والخسارة بعض الاحيان، فيذكر بكنغهام ان سعر الحصان الواحد الواصل الى الهند من البصرة يبلغ ٦٠٠ روبية في حين يباع بـ ٨٠٠ روبية. واما الخيول التي ترسل الى اقليم البنغال فيكون عادة اجمل واعلى سعرا واكثر عددا حتى جذبت المقيم البريطاني للاشتغال بتجارتها وكان يرسل على حسابه الخاص عدداً من الخيل الجميلة التي يبلغ ثمنها واصلاً الى اقليم البنغال ١٥٠٠ روبية في حين يمكن بيعها بالفي روبية، وهكذا[٨٥].

ولا تتحدث كتب الرحلات الاوربية بصورة مباشرة عن تجارة الابل في البصرة في الفترة موضوع البحث، ولكن نستنتج من دراستنا للقوافل التجارية الصاعدة من البصرة الى حلب وجود قوافل تقتصر على تلك الابل الفتية المخصصة للبيع فقط والتي ترسل اما من الجزيرة العربية مروراً بالبصرة او من الصحراء المحيطة بالبصرة فيذكر الرحالة بلاستيد ان شيخ الاحساء يرسل سنوياً قافلة من تلك الابل الى حلب بقيادة احد اقربائه او اتباعه وبعد ثلاثة ايام من رحلتها يلتحق بها عدد اخر من الجمال حتى يتضاعف عددها الى ثلاث مرات . . . حيث ذكر ان قافلته وحدها التي سافر معها عام ١٧٥٠ كانت تتألف من الفي جمل وكلها مخصصة للبيع[٨٦]. اما القوافل التجارية التقليدية فانها تستخدم اعدادا لاباس بها من الابل في رحلاتها وهي غالباً تتحدد بحجم التجارة المراد ارسالها في كل رحلة. في اواخر القرن السادس عشر يذكر Berker ان حجم تلك القوافل كان يتراوح ما بين الفين الى خمسة الاف جمل، ولكن يبدو ان تلك الارقام تعوزها الدقة. حقيقة ان جون ايلدرد سافر بقافلة في ١٥٨٣ تتألف من اربعة الاف ما بين حلب وبغداد، ولكن الرحالة الذين ذهبوا من البصرة الى حلب لا يذكرون ارقاماً عالية للجمال التي كانت في قوافلهم، فالرحالة البرتغالي Bernardino سافر في مطلع القرن السابع عشر بقافلة تتألف من ١٤٠٠ جمل، وشافرنيه بقافلة تتألف من ٤٠٠ جمل، وكارمايكل في ١٧٥١ بقافلة تتألف من ١٢٠٠ جمل، ستمائة منها فقط محملة بالبضائع[٨٧]. ولا نملك تفصيلات عن اسعار الجمال في البصرة، عدا تلك التي ذكرها بلاستيد عام ١٧٥٠، وهي لا تعطينا تصوراً دقيقاً عن اسعارها، لقد اشترى بلاستيد جملاً واحداً للمحفة بسعر ٧٥ قرشاً في حين اشترى ثلاثة جمال اخرى لحمل امتعته بـ ٧٥ قرشاً (اي ٢٥ قرشاً للجمل الواحد). وينصح كارمايكل اولئك الرحالة الذين يغادرون البصرة الى حلب بشراء الجمال منها بسعر ٤٠ روبية لبيعها في حلب بربح مئة بالمئة[٨٨].

ان مدينة البصرة وتجارتها ربما لم تبلغ تلك الشهرة الواسعة لولا موقعها الاستراتيجي على واحد من اهم الطرق التجارية الدولية الذي يربط الشرق الاقصى باوربا. ولذلك فاهم الخطوط التجارية التي تتفرع من البصرة هي:

١ : الطريق البحري الذي يربطها باهم موانىء الخليج العربي انذاك ولا سيما هرمز والذي تعتبر جزيرة خرج المحطة الرئيسية فيه وذلك لموقعها في منتصف الطريق وتتوقف عندها كافة السفن المبحرة ما بين البصرة وهرمز.

٢ : وترتبط البصرة ببغداد بواسطة الطرق النهرية التقليدية عبر نهري دجلة والفرات ويفضل الرحالة استخدام طريق الفرات اكثر من طريق دجلة لان الاخير توجد فيه تعرجات كثيرة في اجزائه الجنوبية، ولعدم وجود قرى سكنية كثيرة عليه وخاصة ما بين العمارة وبغداد التي تعتبر مهمة لاية رحلة وخاصة عند تعرض تلك السفن الى المخاطر المتعددة كالغرق وهبوب الرياح والسرقات، والاهم من ذلك كله، هو ان طريق الفرات كان يشكل الجزء الجنوبي من طريق الفلوجة البصرة وتكون بابل من اكبر المناطق التي يتوقف الرحالة فيها وتتخذ كنقطة مرور لما الى بغداد او الى الاماكن المقدسة في كربلاء والنجف. ولعل اول من استخدم هذا الطريق هم الرحالة الانكليز ايلدرد ـ فيج ـ نيوبري عام ١٥٨٣ عند نزولهم من حلب عن طريق البرجسك ولكن لم يتركوا لنا وصفاً عن اهم محطاته التجارية انذاك[٨٩] حتى عام ١٦٦٣ عندما سلكه الرحالة البرتغالي غودنهو الذي ترك وصفاً دقيقاً له ما بين البصرة وبابل والذي اكتملت معالمه عند نيبور بعد قرن تقريبا. ان اهم محطاته بعد البصرة هي:

القرنة :

وقد مر بها تافرنيه عام ١٦٥٢ وذكر انها كانت تحكم من قبل ابن امير البصرة وتوجد فيها قلعة جيدة يحميها مدفع واحد وتسجل فيها كافة البضائع النازلة الى البصرة من بغداد وتزود السفن بقوائم الضرائب فيها ولكن تدفع عند وصولها الى البصرة[٩٠]. يبدو ان القلعة بقيت في المدينة حتى مطلع القرن التاسع عشر عندما وصفها الرحالة الانكليزي هيود عام ١٨١٧ وذكر ان القرنة. «مدينة صغيرة وفيها نقطة كمارك»[٩١]. في حين وصفها صموئيل ايفنز عام ١٧٨٩ بانها كانت مسورة بسورين من الطين ولم يتجاوز سكانها ٥٠٠ شخص[٩٢].

الشالوشية :

وبالرغم من ان غودنهو ذكرها في ١٦٦٣ وان نيبور لم يوردها عام ١٧٦٥، في حين ذكرها مايلز في رحلته عام ١٧٨٩ كقرية تقع على نهر دجلة وليس على نهر الفرات[٩٣] واغلب الظن انها لم تكن منطقة محددة ولربما كانت تشمل المناطق التي تسكنها عشائر الشلاش التي كانت تنتشر ما بين دجلة والفرات هناك.

المنصورية :

لم يذكرها غود نهو وانما وصفها نيبور بانها «قرية كبيرة» تقع على الفرات والى الشمال من نهري عنتر وصالح، ولكن ذكرها تايلر في ١٧٨٩ بانها تقع على دجلة وليس الفرات، وكما هو الحال مع الشالوشية فلربما انها كانت مناطق سكن عشائر بني منصور الحالية الممتدة بين دجلة والفرات[٩٤].

العرجة :

وهي الى الشمال من مدينة الكوت وفيها كمرك يعود الى عشائر آل صالح[٩٥].

السماوة :

وهي قرية صغيرة وفيها برج عال لارشاد القوافل الصحراوية عندما وصلها غودنهو في ١٤ نيسان ١٦٦٣، ووجد نيبور بيوتها مشيدة جميعها من الطين المجفف بالشمس وقدمات سكانها باجمعهم تقريباً «منذ بضعة سنوات بسبب الطاعون»[٩٦].

الملوم :

وصلها نيبور في ١٩ كانون الاول ١٧٦٥ ووصفها «بالقرية الكبيرة وهي مقر عشيرة الخزاعل» في حين لم يذكرها غودنهو[٩٧].

وتعتبر بابل المحطة النهائية لطريق الفرات النهري وتوفر للرحالة خيار الاستمرار في رحلته الى اعالي الفرات كما فعل غودنهو الذي واصل سفره الى عنه، او التحول الى طريق الفرات الصحراوي (بصرة ـ حلب) وذلك بالذهاب اما الى النجف او كربلاء الحاليتين ومنهما السير باتجاه حلب، او الذهاب الى مدينة بغداد كما فعل نيبور حيث يمكن قطع المسافة في يومين اثناء الصيف وثلاثة ايام في الشتاء، ولكنه قطعها في اربعة ايام نظرا لكونه «ليس على عجلة من امره»[٩٨].

جدول رقم (٣)

رحلة غودنهو عام ١٦٦٣ من البصرة الى حلب عام ١٦٦٣ عن طريق الفرات (طول الرحلة = ٢٧ يوماً)

المناطق التي مر بها	التاريخ	الفترة بالايام
البصرة الشالوشية	٤/٩ ـ ٤/١٠	١
الشالوشية ـ العرجة	٤/١٠ ـ ٤/١١	١
العرجة ـ النجيب	٤/١١ ـ ٤/١٣	٢
النجيب ـ السماوة	٤/١٣ ـ ٤/١٥	٢
السماوة ـ النجف	٤/١٥ ـ ٤/١٧	٢
النجف/ الحلة	٤/١٧ ـ ٤/١٨	٢
(استراحة ليومين في بابل)	٤/١٨ ـ ٤/٢٠	٢
بابل ـ عنه	٤/٢١ ـ ٤/٢٨	٨
عنه ـ طيبه (الصحراء)	٤/٢٨ ـ ٤/٣٠	٢
استراحة ليوم واحد في طيبة	٤/٣٠ ـ ٥/١	١
طيبة ـ حلب	٥/١ ـ ٥/٤	٤

ان معرفة الوقت الذي تستغرقه الرحلة النهرية من البصرة الى بابل لابد ان يختلف نتيجة عوامل عديدة، لعل اهمها هو فترة السفر نفسها هل في الصيف او الربيع او الشتاء وذلك لملاءمة مناسيب المياه للسفر، ويأتي بعد ذلك حجم السفن وحمولاتها وحتى عدد الاشخاص الذين يقومون بسحبها بين تلك المحطات. وفي الوقت الذي يذكر فيه نيبور انه بالامكان قطع المسافة بين البصرة وبابل في فترة ٦ ـ ٨ ايام لكنه احتاج الى واحد وعشرين يوماً للوصول الى بابل.[٩٩]

ومهما تكن الفترة التي تستغرقها الرحلة النهرية في الفرات ما بين بغداد والبصرة فانها لاتختلف كثيرا عن مثيلتها في نهر دجلة، رحلة فنشنسو وسبستياني في ١٦٥٢ مثلا استغرقت واحدا وعشرين يوماً وان يكن قطعها بفترة اقصر[١٠٠] وارتاد هذا الطريق ايضا تافرنيه في رحلته الثانية عام ١٦٥٢ ايضا ولكن لا يذكر تفصيلات عن المناطق التي مر بها وانما وصلنا بعضها من قبل الرحالة المتأخرين وخاصة جورج كبل في ١٨٢٤ ومينان ١٨٢٧ الواقعة عليه وهي :

العمارة ـ المجر ـ القصر ـ القرنة ـ نهر عمر ـ العزير ـ الدير ـ البصرة[١٠١]

حيث يلاحظ عدم ذكر اية قرية او مدينة تقع على دجلة ما بين العمارة وبغداد .

اما الطريق البري الذي يربط البصرة ببغداد فهو ذلك الطريق الذي يمثل الجزء الجنوبي من طريق بصرة ـ حلب الصحراوي الكبير حيث يذهب اغلب الرحالة اما الى النجف الحالية والتحول منها الى بابل ومن ثم الى بغداد وهذا يستغرق ثلاثة الى اربعة ايام، او الذهاب ابعد حتى كربلاء ومنها الى بغداد وهذا يستغرق من يومين الى ثلاثة ايام بدون اقامة او توقف في المدن .

ولكن اهم الطرق البرية التي تربط البصرة بالعالم الخارجي هو طريق بصرة ـ حلب الشهير الذي لازال ينتظر الدراسة والبحث. فبعد ان شهدت اوربا نهضتها المعروفة في اواخر العصور الوسطى وقد كان من اهم نتائجها هو يقظة اوربا نحو اسيا واهميتها، وخاصة بعد اتجاه اسبانيا والبرتغال نحو العالم الجديد، الذي نبه انكلترا وفرنسا وهولندا لتجارة الشرق وقد ادركا ان تجارة الهند هي تجارة العالم. وبذلك فقد توجه الى الهند الكثير من الرحالة الانكليز والفرنسيين واغلبهم من مبعوثي شركتي الهند الشرقية الانكليزية والفرنسية وهم سلكوا طريق وادي الفرات الصحراوي المعروف انذاك باسم طريق قوافل الصحراء الكبرى Great Desert Caravan Route كأقصر طريق يربط الخليج العربي بالبحر الابيض المتوسط، بل واقصر بكثير من طريق رأس الرجاء الصالح الذي كان يخضع للسيطرة الاسبانية ـ البرتغالية انذاك.

لعل البرتغاليين اول من استخدم طريق الفرات الصحراوي بالرغم من محاولاتهم على عدم تشجيع الطرق البرية التجارية لزيادة قبضتهم على الطرق البحرية التي كانت عصب امبراطوريتهم ويعتبر Antonio Tenreiro اول برتغالي استخدم هذا الطريق مرتين في العصر الحديث لنقل البريد الى الهند مرة في ١٥٢٣ عند عبوره الصحراء من حلب الى البصرة والثانية في ١٥٢٨ عند عودته من الهند الى لشبونة. وبالرغم من ان Tenreiro نشر رحلته عام ١٥٦٠ لكنه لم يورد اية تفصيلات عن هذا الطريق، وكذلك الحال بالنسبة الى جماعة من الرحالة البرتغاليين عام ١٥٦٥ والرحالة الانكليز نيوبري ـ فيج ـ آبلدرد عام ١٥٨٣ الذين سلكوا اجزاء من ذلك الطريق دون ذكر وصف له[١٠٢] .

ولكن Pedro Teixiera اول رحالة اوربي وصف الجزء الجنوبي من الطريق (بصرة ـ كربلاء) عام ١٦٠٤ حيث سافر من البصرة عبر الصحراء الى كربلاء ثم بغداد وعنه وحلب. وبالرغم من ان الرحالة الايطالي دي لافال سلك الطريق نفسه الذي سلكه تكسيرا بعد عشرين عاما لكنه لم يذكر لنا تفصيلات عنه اما الجزء الشمالي ، من الطريق فقط سلكه البرتغالي Gaspar de Bernardino للفترة ١٦٠٦ ـ ١٦٠٧ دون اية تفصيلات ايضاً.[١٠٣]

ان الوصف الكامل لطريق بصرة ـ حلب الصحراوي للقوافل التجارية وصلنا من الرحالة الانكليز منذ منتصف القرن

الثامن عشر عندما بدأوا يرتادونه بكثافة تلبية لحاجات شركة الهند الشرقية الانكليزية وخاصة G. Kapper وبلاستيد عام ١٧٥٠ حيث ذكروا ان اهم محطاته هي :

الزبير ، جويبده ، الخانق ، الغضاري ، الاثله (وهي قرب بركة الرحمة الواقعة مقابل مدينة النجف من جهة الغرب)، هدية، الاخيضر، الرحالية، حكلة الحوران (حيث تلتقي فيها القوافل التجارية القادمة من بغداد بقوافل البصرة)، طيبة (وهي من اكبر المحطات التجارية الصحراوية قبل مدينة حلب وقد ذكر عنها تكسيرا في ١٦٠٤ بانها تضم ٢٥٠ بيتاً، ويوجد فيها وكيلاً للجالية الاوربية في حلب كما اضاف دي لاقال) ، ولعل اخر محطة هي Haqlar (الحكلة؟) وتقع بالقرب من قرية قديمة تعرف بالجبون يعتبرها بلاستيد نهاية الطريق حيث تنتظر القوافل هناك لاستلام اوامر الباشا من حلب ليحدد مكان التجمع وليتمكن الشاهبندر ورجاله من رؤية القافلة، وتعتبر قرية تيرب هي مكان تفتيش القافلة وفرض الضرائب حيث يوجد عشرون موظفا من الكمارك هناك(١٠٤).

اما الطريق الذي ذكره نيبور في ١٧٦٥ استناداً الى رواية احد البدو الذي سافر لاكثر من عشرين مرة فيه، وزاد عليه احد التجار بعض الاسماء لا تختلف في محطاته الرئيسية ولكن يبدو ان بعض المحطات والمناطق قد ادخلت دون تدقيق لانها لم تذكر من قبل الرحالة الذين سلكوا الطريق لمرات عديدة، فهذه المحطات هي :

الزبير ـ جويبدة ـ شكره ـ الخنقة ـ القصر (وهو قلعة مهدمة) ـ وادي ابو مريس (عيون سعد ام كرون) ـ الغضاري ـ Dajurtami (؟) ـ القائم او الاثلة ـ بركة الرحمة (بالقرب من النجف الحالية) ـ الطقطقة (الحياضية) ـ الحسين (كربلاء) ـ الاخضير ـ رأس العين ـ لميل ـ كبيسة ـ عقلة الحوران غب الجاموس ـ المانعي ـ الرتقة ـ البرودن ـ الرحبة ـ جب الغنم الحمض ـ جبل البشير ـ العدمة ـ طيبة ـ قصر العين ـ قاع ابو الفياضي ـ عنز الروثة ـ صهاريج ـ مرتفعات سبيث (وفي هذه المرتفعات توجد الحكلة) وتوجد عين سفيره او عين ذهب ـ حلب(١٠٥).

ومن ذلك يبدو ان وادي ابو مريس (عيون سعد ام كرون) هو وادٍ مازال موجوداً حتى الان وليس محطة تجارية لتوقف القوافل وطقطقه كذلك تقع بالقرب من الكوفة الحالية وهي اول محطة تتوقف فيها القوافل الصاعدة من النجف والكوفة باتجاه بلاد الشام ولم يسبق ان مر بها طريق البصرة ـ حلب الصحراوي وكذلك الحال بالنسبة لكربلاء حيث لم تمر بها القوافل الا قوافل المسافرين الى بغداد انها تقع الى الشمال الشرقي من الطريق وانما تمر بالاخضير القريب منها وكذلك كبيسة التي هي اخر محطة تجارية للقوافل الصاعدة من بغداد الى حلب ويجمع كل الرحالة الذين سلكوا طريق بصرة ـ حلب ـ انهم لم يتوقفوا عند كبيسه وانما الى الغرب منها(١٠٦)

وينفرد نيبور من بين الرحالة الاخرين بذكر طريق بديل عن الطريق اعلاه وذلك لاستخدامه عندما ينعدم الامن في مناطق الطريق السابق ، ويمتد اكثر باتجاه الغرب في عمق الصحراء وفي هذه الحالة يجب التزود بالماء اللازم لمدة ٤ ـ ٥ ايام على الاقل واهم محطاته هي :

الزبير ـ جويبده ـ شكره ـ الخانق ـ القصير ـ السلمان ـ الاثلة ـ قطري البريه ـ حجره او عجوز ـ القصرة ـ صواب ـ الصرايم ـ الصخنة ـ بئر قديم ـ ابو فياض ـ الحمام ـ جبل الحص ـ الحكله ـ سفير ـ حلب(١٠٧).

ويبدو من محطات هذا الطريق ان الافتراق عن الطريق الاول يبدأ من الخانق باتجاه السلمان (نقره السلمان الحالية) ومن ثم العودة الى الاثلة، اي الابتعاد عن مناطق عشائر الفرات الجنوبي وخاصة عشائر المنتفك ومن ثم الرجوع الى عمق الصحراء حتى جبل الحص والحكلة اي الابتعاد عن عشائر الفرات الاعلى حيث كانت تلك العشائر في صراع مستمر مع السلطات العثمانية.

اما الطرق التي تخرج من البصرة الى الجزيرة العربية فهنالك طريق القرين (الكويت الحالية) الذي يتفرع من جويبدة ـ صفوان ـ الجهراء والقرين على ساحل الخليج العربي وهذا ما ذكره نيبور فقط دون الرحالة الاخرين والطريق الثاني هو طريق

الحج البري الذي ذكره تيفنو فقط في ١٦٨٦ حيث يخرج الحجاج من البوابة الشرقية للبصرة (مقام علي) ويتجهون الى قلعة صغيرة تبعد ثلاثة اميال المانية Agatech عن المدينة حيث يوجد فيها ماء مر (واظن الدرهمية الحالية) ـ ثم الى جبل سنام وفيه يوجد الماء النقي الطيب المذاق، ومنها الى منطقة الحفار Tacha — Hafter ويتوفر الماء الجيد فيه ومنه الى العنيز Anize التي تبعد مسافة ثلاثة عشر يوماً مشيا على الجمال. ومن العنيز يتجه الطريق غربا نحو نجد التي توجد فيها قلعتان الواحدة مقابل الاخرى وتسكنها بعض القبائل العربية لكن الماء فيها غير جيد، ومن نجد ينزلون جنوبا باتجاه المدينة المنورة ومكة ولا يتحدث تيفنو عن محطات الطريق ما بين نجد ومكة ويكتفي فقط بذكر ان على الحجاج التزود بالماء لعدد معين من الايام وحتى وصولهم قرب مكة لارتداء الاحرام. ويستغرق الطريق عند العودة من مكة الى البصرة حوالي ٣٥ يوماً(١٠٨). ولا يذكر غود نهو في ملخصه الصغير عن الطرق في القرن السابع عشر هذا الطريق وانما طريق مكة ـ السويس فقط(١٠٩).

وفي مثل هذه المجتمعات والمراكز التجارية لابد ان توجد فيها عمليات منظمة للائتمان والصيرفة وخاصة مدينة البصرة التي تلتقي فيها الجاليات من مختلف انحاء العالم، وكل النقود فيها معروفة كما يذكر تكسيرا(١١٠). ولكن اغلب الرحالة المبكرين لم يتطرقوا الى انواع العمليات الائتمانية في البصرة ما عدا ذكرهم لبعض انواع النقود المتداولة وحتى منتصف القرن الثامن عشر عندما بدأ بعض الرحالة الذين سلكوا طريق الفرات الصحراوي يشيرون الى بعض تلك العمليات التي كانت تسيطر عليها الجالية العبرية في المدينة واهمها ما سماه الرحالة بلاستيد عام ١٧٥٠ باسم Respondentia ولابد انها تشبه عملية Ricorsa التحويل واعادة التحويل للاموال بين مكانين وقد اخترعها التجار الايطاليون في العصور الوسطى الاوربية واخذت بالانتشار الى بقية انحاء اوربا فيما بعد.

يوصي بلاستيد الرحالة بان لا يحملوا نقودهم معهم اثناء رحلتهم لمخاطر السرقة والضياع، وانما عليهم اقراضها في البصرة الى احد التجار اما في المدينة او احد التجار الذين يسافرون معه في القافلة والذين هم بحاجة اليها عند الرحيل . فاذا وجد احدهم من يرغب الاقتراض فانه عليه اعطاءها الى ذلك التاجر مقابل ان يقوم الاخير باعطائه تعهدا مكتوبا يسمى (Respondentia) يتعهد فيه (او وكيله) عند الوصول الى مدينة حلب بدفع المبلغ اما بعملة مدينة حلب او بعملة يتم الاتفاق عليها مقدما ويبدو ان العملات المستخدمة في هذا النوع من المعاملات هو القرش Piastre(١١١).

ويذكر بلاستيد في ١٧٥٠، وتايلر في ١٧٨٩ وجود نوعين من القروش هما : القرش الجاري او الرائج Piastre Courante (وهي النقود الحسابية)، والقرش الخاص او يسمى القرش الرومي Piastre en Space (وهي النقود الحقيقية) ويقال للاول باللغة الايطالية التي كانت لغة المال والصيرفة انذاك Moneta Corrente وللثاني Monetta Bouna حيث كان الاخير اغلى من الاول بنسبة ١/٢ ٦ بالمائة عند بلاستيد و ٦ ـ ١٠ بالمائة عند تايلر الذي يوصي الرحالة بان يكتبوا كافة معاملاتهم المالية بالقرش الرومي لانه اغلى من القرش الرائج لانه اذا لم يفعلوا ذلك فان الصرافين سيدفعون لهم في حلب بالقرش الرائج وهذا حدث فعلاً لبلاستيد الذي اقرض احد التجار في البصرة الفي قرش ولكنه لم يحدد نوع القرش في التعهد، فعند وصوله الى حلب اراد الطرف المسحوب عليه الحوالة (التعهد) ان يدفع له بالقرش الرائج ولكن الصدفة ان التاجر (الساحب) كان معه في القافلة حيث رجع اليه وعوضه ذلك لانه كان من التجار الشرفاء، ولكنه حتى في هذه الحالة حصل على ربح قدره ١٥ بالمائة(١١٢).

ومن هذا يبدو ان المجتمع التجاري في البصرة او حلب لا يختلف عن المجتمعات التجارية في الاسواق والموانىء الاوربية في العصور الوسطى وعصر النهضة حيث تنعدم البنوك المركزية وتتعدد المصارف الخاصة وتتعدد انواع النقود المعدنية ووجود نوعين من النقود في العمليات الحسابية: نقود حسابية (خيالية) ونقود حقيقية الاولى اخترعت لمجرد تسهيل العمليات الحسابية وللتقليل من تداول النقود ولكن لها ما يساويها من العملات المتوفرة في السوق في كل وقت حيث يملك الصرافون والتجار

جداول خاصة ومعقدة لمعرفة ما يساويها.

فالشامي مثلاً كان العملة التي تقام بها صفقات التمور منذ فترة مبكرة في البصرة ولكنها انقرضت في القرن الثامن عشر الا انها ظلت كأساس لبيع التمور وكانت قيمتها الرسمية تقل عن قيمتها في السوق ولكن المشتري في النهاية يدفع حسابه بالعملات المتوفرة لديه بعد ان تتم عملية تحويل الشاميات التي تمت بموجبها الصفقة الى تلك العملات المتوفرة لدى المشتري وفق جداول خاصة يمتلكها الباعة والدلالون والصرافون. وكذلك الحال مع (قران الدفتر) في القرن التاسع عشر الذي كان قرانا خياليا حيث كان كل ٣٤,٤ منه يساوي ليرة عثمانية، ورغم ان تلك الليرة اصبحت تساوي ٥٤ قرانا حقيقيا فيما بعد الا ان القران الخيالي بقي العملة التي تحسب بموجبه الصفقات التجارية ثم تبدأ عملية المعادلة والتسوية وفق جداول خاصة وبعدها يتم الدفع بالعملات المتوفرة وهكذا[١١٣].

ان وجود هذا النوع من العمليات الحسابية سببه عدم توفر كميات كافية من النقود الحقيقية المعدنية، ولاختفاء النقود المعدنية الجيدة من السوق وخاصة الذهبية والفضية منها بسرعة وبذلك نرى تيفنو مثلا يذكر ان «الزكين البندقي» او «زكينو» كما ذكره تفنتسو في ١٦٥٦، وهو عملة ذهبية لمدينة البندقية الايطالية كان يساوي ٥/٧ قرشا (نقود فضية) وكل قرش = ٣ - ٥/ ٣ عباسي (نقود حسابية)، لكن الزكين البندقي «نادر جداً» في البصرة ويجلبه المسافرون معهم من الهند[١١٤]، ويبدو انه كان معروفا في البصرة حتى عندما زارها تايلر في ١٧٨٩ ذكرياته كان يساوي ٥/ ١٧ قيراطا من الذهب[١١٥].

ولكن بلاستيد ذكر المعادلات في حسابه لنفقات رحلته عام ١٧٥٠:

١ : روبية هندية (فضة) = ٥ محمودي (نحاسي)

١ زيلت عثماني (zelot) فضة = ٤,٥ محمودي (نحاسي)

١ قريش (Piastre) فضي = ٦ محمودي (نحاسي)

١ دوكادو (زكين) ذهبي = ٢١,٥ محمودي (نحاسي)

١ باوند استرليني = ٤٥,٥ محمودي (نحاسي)

والزيلت وهي من النقود الفضية العثمانية المعروفة في البصرة وعند تحويلها الى نقود ذهبية فان الشخص يحصل على فائدة قدرها ٤,٥ بالمائة. ولكن بلاستيد ينصح الرحالة بشراء الذهب في البصرة لانه افضل من اية نقود معدنية ويمكن بيعه في اية محطة تجارية اثناء الطريق[١١٦].

الهوامش والمصادر

١ : لونكريك، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر خياط، (بغداد ١٩٦٨) راجع الفهرست، الملحق الاول : ص ٣٩٧ - ٤٠٨

وهذا الرقم يعتقده الاستاذ كوركيس عواد وهو من المهتمين بتلك الرحلات الاجنبية التي ذكرت العراق في العصر الحديث. راجع: المورد، المجلد التاسع، العدد الثالث (١٩٨٠) ص ١٦٧.

٢ : من الترجمات التي ظهرت بالعربية مثلا ما قام به الدكتور محمود الامين عندما ترجم الجزء الخاص ببغداد والموصل من رحلة كارستن نيبور باسم (رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر)، (بغداد ١٩٦٥)، وترجمت سعاد هادي العمري الجزء المتعلق برحلة نيبور من البصرة الى الحلة باسم «مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة الى الحلة ١٧٦٥»، (بغداد ١٩٥٥)، كما كتبت دراستها عن بغداد بعنوان (بغداد كما وصفها السواح الاجانب في القرون الخمسة الاخيرة)، (بغداد ١٩٥٤).

وترجمه بشير فرانسيس وكوركيس عواد ثالرته باسم «العراق في القرن التاسع عشر (بغداد ١٩٤٤). وكذلك ترجم الاب الدكتور بطرس حداد القسم الخاص بالعراق من رحلات تفنتسو وسبستياني للعراق عام ١٦٥٦، وتايلر عام ١٧٨٩ - ٩٠: المورد المجلد الخامس، العدد الثالث (١٩٧٦ ص٧١ - ٨٩، والمجلد التاسع العدد الثالث (١٩٨٠) ص ١٦٧ - ٢١٢، والمجلد الحادي عشر، العدد الاول (١٩٨٢) ص ٢٥ - ٤١.

اما الاستاذ سليم طه التكريتي فقد قام بترجمة رحلة بكنغهام بعنوان: رحلتي الى العراق عام ١٨١٦ بجزئين (بغداد ١٩٦٧ و ١٩٧٠)، كما ترجم رحلة راوولف بعنوان (رحلة المشرق الى العراق وسوريا ولبنان وفلسطين (بغداد ١٩٧٨).

اما فؤاد جميل فقد ترجم رحلة السير وليس بدج بعنوان رحلات الى العراق (بغداد ١٩٦٦) في حين ترجم علي البصري رحلة مدام دي لافوا بعنوان «رحلة مدام دي لافوا الى كلدة العراق عام ١٨٨١، (بغداد ١٩٥٨) ...... الخ

اما عن طريق بعض البحوث التي درست مواضيع محددة من خلال تلك الرحلات راجع مثلا:

× نورس، د. علاء موسى كاظم، بغداد في رحلات الاجانب في العهد العثماني،

المورد، المجلد الخامس العدد الثالث (١٩٧٦)، ص ١٣ - ٢٧.

× الراوي، سلمان وليق، بغداد في رحلات الاجانب، المورد: المجلد الثالث، العدد الرابع (١٩٧٩) ص ٦٥٠ - ٦٥٧.

3 — The Travels of Abbe Carre in India and the Near East from 1627 to 1674 (Charles Fawcett, ed) , (London, 1974), Vol. 1, p. 8 — 13.

4 — The Great Desert Rout to India, (Doglius Carruthnrs, ed.), (London, 1929), p. 14.

5 — Cowper, S, Through Turkish Arabia: A Journey from the Mediterrenean to Bombay by the Euphrates and Tigris Vallyes and the persian Gulf, (London, 1894), see the Introduction.

7 — Fontainer, V. Voyage dans L'Inde et dans Le Golfe Persique por L'Egypet et le Mer Rouge, 3 tomes, (paris, 1844 — 46).

حيث كتب عن البصرة وحدها خمسة فصول (الثامن - الثالث عشر) من الجزء الاول ص ١٦٥ - ٢٨٥ وهناك اراء مستفيضة تناقش جهوده في العراق والبصرة بصورة خاصة والرامية لعرقلة المصالح البريطانية في كتاب د. عبد العزيز نوار «تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا الى نهاية حكم مدحت باشا القاهرة ٦٨ ص ٢٩٦ - ٥١٨، وكذلك في اطروحة د. صادق ياسين الحلو الموسومة.

L'Europe et Les Problemes Maritmes du Golfa Arabe de 1789 a 1857 2 tomes (Unmblished ph. D thesis). University of provencal, 1983, Vol. 2, p 598 — 98.

اما كتاب اداموف فقد ترجمه د. هاشم صالح التكريتي بعنوان «ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها»، ج ١ (البصرة، ١٩٨٢) في حين ان الجزء الثاني تحت الطبع.

٨ - عن اولئك الرحالة الذين اتجهوا الى الشرق في القرنين السادس عشر والسابع عشر راجع.

Raymond Beazly , (ed.) Voyages and travels during the Sixteenth and Seventh centuries, 2 Vols. , (London, 1903)

9 — Hakluyt, R. The Tudor Venturers, Selected from the principal Navigations, Voyages traffiques and Discoveries of English Nation, Vol. 3, (Glasgow, 1904), p. 93.

10 — Bidwell, R. Travellers in Arabia, (London, 1976), p. 20.

11 — Hakhuyt, R. Op. Cit. Vol. 5, p. 365 — 66.

12 — Ferguson, S.W. The Travels of peter teixeira from India to Italy by Land, (London 716, p. 1 — 2.

13 — Godinho, Manuel Relacao do Novo Caminho que Fez por Terra e Mar, vindo da India para Portugal no anno de 1663, Second Edition, (Lisboa, 1824), p. 127 — 31.

14 — L'Estrange , R. The Travels of Monsieur de Thevenot into Levant, (ed.) (London, 1687) . The Introduction.

١٥. تافرنيه، العراق في القرن السابع عشر كما رآه الرحالة الفرنسي تافرنيه ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، (بغداد ١٩٤٤). ص ٣.

١٦ - مثلا لم يتجاوز ما كتبه فردريك الصفحة الواحدة عند مشاهداته في البصرة، في حين ما كتب الرحالون الانكليز الثلاثة اكثر من ثلاث صفحات راجع Hakluyt, R. op. cit. Vol., 5, p. 365 — 7l, and p. 452 — 56.

اما كاسبار بالبي فلم يكتب اكثر من صفحة واحدة عن البصرة في ١٥٩٠. توجد الترجمة الالمانية للرحلة في مكتبة المتحف العراقي بعنوان Gaspar Balbi Venetiaans koopman, naar o ost — Indien Van't Jaar 1579 tot het Jaar 1588.

١٧ - لونكريك: المصدر السابق،

١٨ - يذكر تكسيرا ان البصرة انشأت في هذا المكان منذ مائتي سنة وهذا موقعها الثالث.

Teixiera, Op. cit. p. 17.

19 — Hakluyt, R. Op. Cit. Vol. 6, p. 6 — 7.

20 — Teixiera, Op. Cit. p. 15.

21 — The Travels of peter Della Valle, simamed the Traveller containing a Description of the East Indies and Arabia... etc., Hakluyt Society (ed.), (London, 19) ,

٢٢ - المصدر السابق: ص ٩٤ - ٩٦

٢٣ - المصدر السابق: ص ٨٥

٢٤ - تفينو، المصدر السابق، ص ١٥٨ philipe, R. p. Voyage D'Orient, (Lyon, 1652), p. 79.

٢٥ - هذا المبلغ اورده تفينو عند تقديره لواردات باشوية البصرة السنوية في النصف الثاني من القرن السابع عشر. راجع: Thevenot, Op. Cit. p. 59. 162.

26 — Carruthers, D. Op. Cit. p. 59, p. 177 — 78.

٢٧ - نيبور، المصدر السابق: ص ٧ - ٨

٢٨ - بكنهام، المصدر السابق، ص ٢٦٠ - ٢٦٣

29 — Parsones, A. Travels in Asia and Africa including a Journey from Scanderon to Alppo and over the Desert to Baghdad and Bussora, (London, 1808), p. 155 and passim.

٣٠ - راجع بعض خرائط الاسوار التي رسمها نيبور مثلا لبعض المدن العراقية كبغداد والموصل والنجف حيث تبدو اسوارها على شكل دائري او شبه دائري. بكنهام، المصدر السابق: ص ٢٥٧ - ٢٦٠

31 — Parsones, Op. Cit. p. 162 — 64.

32 — Carruthers, Op. Cit. p. 60.

٣٣ - بكنهام، المصدر السابق: دي لافال ص ١٣٦

٣٤ - تافرنيه: المصدر السابق: ص ٩٤

35 — Thevenot, Op. Cit. p. 157 and 559

٣٦ - تافرنيه: المصدر السابق: ص ١١١، بالنسبة لنيبور راجع جدول رقم (٢)

37 — Thevenot, Op. Cit. p. 163.

٣٨ - نيبور: المصدر السابق، ص ١٧٢، بكنهام، المصدر السابق: ص ٢٥٧ - ٢٦٠

Parsones, Op. Cit. p. 156 — 58.

39 — Dupre, Voyage en perse, fait dans Les annees 1807, 1808, et 1809 en traversant La Natolie et La Mespotamie .... etc., tome premier, (Paris , 1819), p. 198.

40 — Teixiera, p. Op. Cit. p. 16 — 17.

٤١ ـ نيبور ، المصدر السابق :

42 — Della Valle Op. Cit.

الرسالة الحادية عشرة /حلب ٥/٨/١٦٢٥

٤٣ ـ وهو المعامل الذي اعتاد مؤرخو التاريخ السكاني استخدامه لمعرفة حجم العوائل في البصرة .

٤٤ ـ حيث ذكر غودنيو ان عدد سكانها يبلغ مائة مائة الف نسخة وبذلك فهو استخدم معامل ٣/٣ نسخة/بيت تقريبا.

Godinho, M. Op. Cit. p. 117

٤٥ ـ نيبور المصدر السابق : ص ١٠ ـ ١١

٤٦ ـ تايلر ، المصدر السابق : ص ٣٦

٤٧ ـ بكنغهام ، المصدر السابق :

48 — Issawi, Charles The Economic History of the Middle East 1800 — 1914, population and Movement in iraq, (Chigago, 1966), p. 157.

49 — Locher, A. With Star and Crescent: A Full and Authentic Account of a Recent Journey with a Cravan from Bombay to Constantinople, (London, 1889), p. 73.

٥٠ ـ نورس د. علاء كاظم ، المصدر السابق : ص ٢٢ ـ ٢٣

٥١ ـ ادامون ، المصدر السابق : ج ١ ، ص ١٢٩

٥٢ ـ عن سكان بغداد في تلك الفترة، راجع ، نورس، د. علاء كاظم ، المصدر السابق : ص ٢٣

٥٣ ـ القهواتي ، د. محمد حسين ، البصرة دورها التجاري في الخليج العربي ١٨٦٩ ـ ١٩١٣، البصرة (١٩٨٠ ص ٤٥

٥٤ ـ بكنغهام ، المصدر السابق : ص ٥٥

٥٥ ـ ادامون ، المصدر السابق : ج ١ ، ص ١٣٠

٥٦ ـ بكنغهام ، المصدر السابق :

57 — Shepherd, W.A. From Bombay to Bushire and Bussora : Including an Account of the present State of Persia and Notes on the Persian War, (London. 1857) p. 197

66 — Thevenot Op. Cit. p. 163

٦٧ ـ نيبور ، المصدر السابق :

٦٨ ـ سبستياني ، المصدر السابق : ص ١٨٢ ـ ١٨٣

69 — Godinho, M. Op. Cit. p. 141 — 42.

٧٠ ـ ادامون ، المصدر السابق : ج ١ ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣

71 — Della Valle Op. Cit. p. 246 — 47.

٧٢ ـ نيفتو، المصدر السابق : ص ١٠٠

73 — Phillipe, Op. Cit. p. 47.

74 — Thevenot, Op. Cit. p. 157.

٧٥ ـ وردت هذه المعلومات بصورة مفصلة في مقدمة كتاب حول طريق الصحراء الى الهند

Dogullas Carruthers

76 — Godinho, Op. Cit. p, 116 — 122.

77 — Shepherd, Op. Cit. p. 187.

78 — Thevenot, Op. Cit. p. 157.

79 — Fontainer, Op. Cit. p. 250.

٨٠ ـ فنشنسو، المصدر السابق : ص ٨٦

81 — Fontainer, Op. Cit. p. 277 — 78.

٨٢ ـ بكنغهام ، المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٢٨١ ـ ٨٣

83 — Fontainer, Op. Cit. p. 252 — 55.

٨٤ ـ سبستياني ، المصدر السابق : ص ١٧٦

٨٥ ـ بكنغهام ، المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٢٨١

86 — Carruthers, Op. Cit. p. 62.

87 — Ibid, P1/2 33.

88 — Ibid, p. 65 and 167.

89 — Hakluyt, Op. Cit. vol. 5, p. 367 — 71.

٩٠ ـ المصدر السابق : ص ٩٣ ـ ٩٤

91 — Hude, Op. Cit. p. 52.

92 — Evens, Samuel A Journel Kept on a Journy from Bassora to Baghdad over the Little Desert to Alppo, Cypres,..... in the year 1779, (London, 1784), p. 7.

93 — Godinho, Op. Cit.

نيبور ، المصدر السابق : ص ٦٦ تايلر المصدر السابق : ص ٤٠

٩٤ ـ المصدران السابقان ، نفس الصفحات

٩٥ ـ ٩٧ ـ نيبور المصدر السابق : ص ٦٥ ـ ٦٦

٩٨ ـ ٩٩ ـ المصدر نفسه : ص ١٠٨ و ص ٥٥

١٠٠ ـ سبستياني، المصدر السابق : ص ١٨١

101 — Mignan, R. Travels in Chaldea including a Journey from Bassura to Baghdad, Hilla, and Babylon performed on Foot in 1827, (London, 1829), p. 15 and Passim.

Keppel, George personal Narrative of A Journey from India to England by Bussorah, Baghdad, the ruins of Babylon .... in the year 1824, 2 Vols., (London, 1827), p. 78 — 94.

102 — Carrthuers, Op. Cit. p. 16 — 19.

103 — Kepper, James Observations On the Passage to India Through Eygpt, by Vienna to Constantinople to Alppo and from thence by Baghdad and Directly across the Desert Bassora, (London, 1785), p. 178 — 270.

١٠٤ ـ اما عن رحلة بلاستيد فقد وردت في كتاب D. Corrthuers المعنون :

The Great Desert Route to India : p. 51 — 134.

١٠٥ ـ نيبور ، المصدر السابق : ص ٤٨

١٠٦ ـ راجع رحلة J. capper الذي لم يذكر انه مرّ في اي من تلك المناطق التي اضافها نيبور الى المسطات العثمانية Capper, op. cit., p. 193 . اما بلاستيد فقد ذكر ان قافلته نزلت في وادي يبعد ميلين عن كبيسه وارسل قائد القافلة رسولا الى المدينة لاستطلاع الرأي حول وصول قافلة بغداد . راجع : Carrthuers: op. cit., p. 78 — 80.

١٠٧ ـ نيبور ، المصدر السابق : ص ٤٨ ـ ٥٠

108 — Thevenot, Op. Cit. p. 163 and Passim.

109 — Godinho, Op. Cit.

110 — Teixiera, Op. Cit. p. 17.

111 — Carrthurea, Op. Cit. 104

١١٢ ـ تايلر ، المصدر السابق : Ibid, p. 105 _7.

١١٣ ـ الفهواني ، المصدر السابق : ص ٤٧٧ ـ ٧٨

114 — Thevenot op. cit p. 158.

١١٥ ـ تايلر ، المصدر السابق :

116 — Carrthurea, Op. Cit. p. 128.

٥٨ ـ فنشنسو ، المصدر السابق ، ص ٥٨ . سبستياني، المصدر السابق ، ص ١٨٤ الرسالة العاشرة، احداث ١٣ نيسان/ ١٦٢٤

59 — Della Valle, op. cit,

٦٠ ـ نيبور ، المصدر السابق ، ص ١٠

61 — Teixiera, op. cit. p. 17.

٦٢ ـ ادامون ، المصدر السابق، ج ١ ، ص ١٩٩

63 — Fawcett, Ch. op. cit. Vol. I, p. 8.

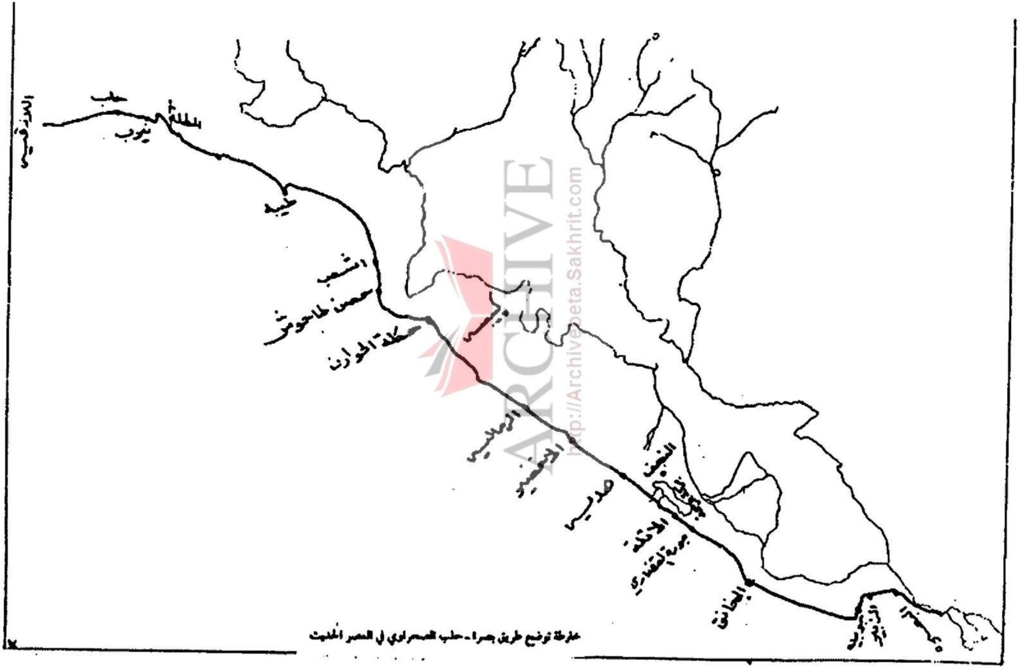
٦٤ ـ فنشنسو ، المصدر السابق ، ص ٨٣

الرسالة العاشرة في ١٣/نيسان/ ١٦٢٤

65 — Della Valle op. cit.

صدر عن دار الشؤون الثقافية العامة





خارطة توضح طريق بصرة - حلب الصحراوي في العصر الحديث

ادب الرحلات العراقي في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين

دراسة
د. محمد حسن علي مجيد
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

ان غريزة حب السفر والترحال ، وارتياد المجهول ، وطلب المعرفة والاستطلاع ، واكتشاف الغريب من اهم غرائز الانسان ، لذلك شُغِفَ بحب التجوال والاطلاع منذ اقدم العصور ، فقد قام المصريون القدماء برحلات طويلة في الآفاق ، ثم الفينيقيون ثم الاغريق فالرومان[1] ثم رحلات العرب قبل الاسلام الى انحاء الجزيرة العربية وخارجها الى اليمن والحبشة والشام والعراق . وحسبنا ان نشير الى رحلتي (الشتاء والصيف) اللتين ورد ذكرهما في القرآن الكريم مما كان يقوم به في كل عام التجار والرحالة العرب الى جنوب الجزيرة العربية وشمالها ، ثم جاءت رحلات العرب المسلمين منذ البعثة النبوية المباركة حتى القرن العاشر الهجري[2] (السادس عشر الميلادي) ، حين قلّت حركتهم ، ودخل السفر والترحال في عصر هدوء نسبي وخمول في الحركة والتنقل ، وذلك بسبب الاجتياح الاجنبي للبلاد وسيطرته عليها ، واستبداده بمقدراتها ، وخطورة السفر ، وتخريب الطرق ، وقلة وسائط النقل ، وسوء المسالك وكثرة قطاعي الطرق ، وفقدان الامن وفساد الادارة ، ورداءة الحالة الاقتصادية ، حتى بدأ نشاط الاوربيين في القرون المتأخرة والعصر الحديث ، وكثر سواحهم ورحالتهم ، وصاروا يجوبون بلاد الشرق بالعشرات ، تحت اسماء شتى وعناوين كثيرة مختلفة ، فمن المنقبين عن الآثار الى مبشرين وتجار ، او رحالة وسياح ، او مهندسين واطباء ، او باحثين وخبراء ، او بصفات كثيرة اخرى غيرها[3] لقد اخترنا حقبة القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ميدانا لدراسة (ادب الرحلات) فيها ، لانها تشكل انعطافاً مهماً في تاريخ العراق الحديث . فهي من اخطر الحقب وادقها واحفلها بالاحداث وذات خصوصية متميزة ، لانها ليست فترة خمول ويأس تامين ، او مرحلة خضوع واستسلام لمستعمر قوي مثلما سبقها من العصور ولا هي عصر استقلال وطني او استقرار فكري مثلما صار بعدها ، انما هي حقبة التململ والقلق على الصعيدين السياسي والاجتماعي ونشاط علمي وادبي على الصعيد الثاني ، مهّد لنهضة العراق الفكرية والاجتماعية في القرن العشرين . وهذا ما جعلنا نولي هذه الحقبة عناية خاصة . وندرس جانباً مهماً من جوانب حياتها الثقافية وهو (ادب الرحلات) فيها ، مما يلقي ضوءاً كثيراً على نوع الحياة فيها من جوانبها المختلفة من احوال الناس واتجاهات السياسة وانواع البيئة ، واشكال المدن ، وطراز العمارة ، ومظاهر الطبيعة ... الى آخره .

ومع ان عصر القرن التاسع عشر عصر هدوء نسبي في الحركة بالنسبة للعراقيين ، وقلة في السفر والتنقل بسبب صعوبة

المواصلات ـ كما اسلفنا ـ ورداءة وسائط النقل وسوء المسالك ، ولفقدان الامن وكثرة قطاعي الطرق ، فان رحلات كثيرة قام بها مرتحلون عراقيون وسجلتها كتب التاريخ والادب الى خارج العراق ، او اليه من الخارج ، هذا فضلاً عن عشرات الرحلات التي قام بها العراقيون داخل العراق لاغراض السياحة والاطلاع ، او لاغراض شخصية او تجارية او سياسية ، قطعوا بها الطرق وشاهدوا المدن ووصفوا الناس وركبوا الدواب والسفن ، هذا فضلاً عن الرحلات التي كان يقوم بها الحجاج العراقيون الى الديار المقدسة لاداء فريضة الحج ، ويسجلونها في مدوناتهم شعراً او نثراً باسم (الرحلات المكية او الرحلات الحجازية) مما حفلت به الكثير من كتب الادب والتاريخ والمجموعات الشعرية المطبوعة والمخطوطة . ولكن مما يلفت النظر ان هؤلاء السياح والرحالة العراقيين الكثيرين لم يذكرهم بعض من ألف في (ادب الرحلات) العربي في القرن التاسع عشر والعصر الحديث ، واغفلوا ذكرهم ، ولم يدرجوهم ضمن من ذكروا من الرحالة والسياح العرب . ولعل هؤلاء المؤلفين لم يقفوا على رحلات العراقيين هذه بسبب عدم توافر المصادر لهم ، ولان الادب العراقي في القرن التاسع عشر لم ينل حظه من الدرس والتدقيق والنشر مثلما نال ادب الاقطار العربية فيه . فقد ذكر (احمد ابو سعد) مثلا في كتابه (ادب الرحلات) الكثير من رحلات العرب في عصر النهضة من السوريين واللبنانيين والمغاربة من غير ان يذكر معهم سائحاً عراقياً واحداً ـ على كثرتهم مثلما ذكرت ـ ، فقد تحدث عن رحلات (احمد فارس الشدياق) اللبناني الى مصر ومالطة وتونس واوربا ، ورحلة (محمد عمر التونسي) من القاهرة الى بلاد السودان ، ثم رحلات (امين الريحاني) المصري الى ربوع البلاد العربية ومنها العراق . وغيرهم .

ان اهمية (الرحلات) تكمن اولاً في قيمتها العلمية حيث تزود اهل التاريخ والجغرافية والآثار والادب وغيرهم بمعلومات قيمة عن وصف البلدان والاصقاع والمدن والآثار والطرق والعمران ، وازياء الناس واخبارهم وتقاليدهم واشكالهم وعاداتهم ، ومظاهر الطبيعة ، وغرائب الحوادث والاخبار مما يلذ ويمتع ، ثم في قيمتها الفنية ثانيا ، حيث تزود القراء بمعلومات كثيرة وصور ممتعة وحوادث غريبة ، مما تؤلف رافداً ثراً من روافد الفن والمتعة الادبية .

لقد كتب السياح والرحالة العراقيون رحلاتهم في هذه الحقبة على نمطين ادبيين . هما : (الرحلات النثرية) التي كتبها الادباء (نثراً) ، والاخرى (الرحلات الشعرية) التي نظموها (شعراً) ، وهي اكثر من الاولى . وسنتحدث عن كلا النوعين ، ولكننا سنفيض في الحديث عن (الرحلات الشعرية) ، لانها ـ كما ذكرت ـ اكثر عدداً ، واجمل لغة والطف صورا ، وامتع خيالاً ، واغرب احداثاً ، واشد طرافة .

١ ـ الرحلات النثرية

رحلات كثيرة سجلتها اقلام العراقيين نثراً في هذه الحقبة ، منها رحلاتهم الى خارج العراق ، فقد رحل عدد كبير منهم الى استانبول عاصمة الدولة العثمانية ، لدوافع شتى وسجلوا رحلاتهم ، ومنهم من ارتحل الى بلاد الشام ومنهم من رحل الى ايران ، وقسم رحل الى الهند لاغراض سياسية او شخصية او تجارية ، ومنهم من سافر الى نجد والحجاز لغرض التجارة او الحج ، مما زخرت به مصنفات المؤلفين في ذلك العصر ، ومنها رحلات العراقيين في داخل العراق وبين مدنه وسجلوها نثرا او شعراً .

وطبيعي اننا لا نستطيع في هذا البحث المتواضع ان نحيط بكل تلك الرحلات ذكراً وتحليلاً وتقويماً ، انما سنشير الى اثنتين منها ، من الرحلات التي اتجهت الى خارج العراق ، حدثت الاولى في مرحلة القرن التاسع عشر ، وحدثت الثانية في مطلع القرن العشرين وهما رحلة العلامة ابي الثناء الالوسي الى الاستانة عاصمة الدولة العثمانية ، ورحلة الشيخ محمد رضا الشبيبي الى الحجاز ، وسنفيض في الحديث عن الاولى ، ونختصره عن الثانية ، وان كانت الاولى ذات طابع فردي ، والثانية ذات طابع وطني وقومي ، الا انها اكثر تفصيلا واطرف صوراً ، واطول زمناً وامتع خيالاً من الثانية .

أ ـ رحلات القرن التاسع عشر

رحلة ابي الثناء الالوسي الى الاستانة (١٨٥١ ـ ١٨٥٣م)

صاحب هذه الرحلة هو العلامة الجليل السيد محمود شهاب الدين ابو الثناء الالوسي (١٨٠٢ ـ ١٨٥٤م) ، صاحب التفسير الكبير للقرآن الكريم المعروف بـ(روح المعاني)[١] الذي يقع في تسعة مجلدات كبيرة ، والمؤلفات الكثيرة القيمة التي عُرفت عنه ونسبت اليه[٢] .

ان رحلة ابي الثناء الى الاستانة هي اشهر رحلات العراقيين المكتوبة (نثراً) في القرن التاسع عشر ، ومن اطولها واتمها ، فقد سجلها في ثلاثة كتب ، تحدث في الكتاب الاول عن المرحلة الاولى من الرحلة ، (سماه نشوة الشمول في السفر الى اسلامبول) صوّر فيه سفرته من بغداد الى الاستانة . وقد استغرق هذا الجزء من الرحلة اربعة شهور تبتدىء من غرة جمادى الاخرى من عام ١٢٦٧هـ (١٨٥١م) ، وتنتهي في اواخر شهر رمضان المبارك من العام نفسه[٣] وهي مدة تكفي للطواف حول العالم في هذه الايام عشرات المرات ، وابرز ما فيه وصفه للطريق من بغداد الى الاستانة التي سماها (قروق) وهو موجز مشاهداته تلك ومصادفاته وبعض الانطباعات السريعة التي كوّنها وسجلها بسرعة قبل ان تذهب عن باله . والكتاب الثاني سماه (نشوة المدام في العودة الى دار السلام) وقد سجل فيه الجزء الاخير من الرحلة ، وهي ـ رحلة العودة ـ ومشاهداته فيها ، وهو مثل الكتاب الاول في الايجاز ، وسرعة تسجيل المشاهدات والاتصالات التي تعرض لها في العودة ، ويبدو ان ابا الثناء كتب هذين الكتابين خلال مشاكل السفر وزحمة الاحداث ومتاعب الطريق واضطراب المزاج ، فسجل خواطره فيهما قبل ان يجتاحها النسيان ويمحو بها الزمان ، لذلك اوجز فيهما ايجازاً تاماً ، كما جاءت الاحداث مضطربة فيهما ، والافكار غير منسقة والخواطر غير مرتبة ، والعبارات فيها بعض الارتباك . وقد طبع هذان الكتابان في مطبعة الولاية ببغداد سنة ١٢٩١ ، ١٢٩٣هـ ووضعا في مجلد واحد .

لكن الرجل بعد ان عاد من رحلته هذه التي استغرقت حوالي سنتين[٤] واستقرت به الدار وانحسر عنه غبار السفر واصاب قسطاً من الراحة ، عاد مرة اخرى لتسجيل احداث رحلته المثيرة من جديد في كتاب ثالث كبير : سماه : (غرائب الاغتراب في السفر والاقامة والاياب) وقد كتبه في هذه المرة : باسلوب متمهل متأنٍ يختلف عن اسلوبه في كتابيه السابقين ، وتأنق كثيراً في انتقاء عباراته واختيار افكاره وبسط معانيه ، واطال في الوصف ، واسهب في تصوير المواقع والمدن والمشاهد والاحداث والمعالم والناس ، وذكر ما دار بينه وبين من التقى بهم من رجال العلم والسياسة والتدريس والادب اثناء سياحته هذه من مطارحات ومناقشات . وقد كان حريصاً على ذكر كل كبيرة وصغيرة مما صادفه ، فوصف المدن التي رآها او مكث فيها في الذهاب والاياب وصفها كلها بلغة جميلة ميسرة ، مطعمة بالشعر في كثير من الاحيان من نظمه او من نظم غيره . وباسلوب حافل بالمحسنات والزخرفة اللفظية ، المنتقاة بتذوق مما لايجد القارىء معه مللاً ، مما شاع في عصره ، واستحسنه الناس حتى استحوذت احداث الرحلة واسلوبها على اعجاب معاصريه من شعراء وادباء واصدقاء[٥] .

بدأ ابو الثناء قصة الرحلة بذكر اهدافها ودوافعها ، والمعروف ان ابا الثناء قد نال في حياته حظوة كبيرة من المعرفة والرفعة والدين ، وسطع نجمه في البلاد وتسلم ارفع المناصب وبلغ من العلم اعلى المراتب ، وكتب كثيراً من المؤلفات والكتب القيمة ، كما تسلم وظائف مهمة ، كان منها وظيفة التدريس في مدارس بغداد ، والوعظ في الحضرة القادرية ، والاشراف على اوقاف مدرسة مرجان ، وهي وظيفة لا توكل الا لكبار العلماء ، ووظيفة الافتاء في بغداد وهي ارفع المناصب الدينية ، وكان ذلك كله ايام الوالي علي رضا باشا ببغداد (١٨٣١ ـ ١٨٤١م) ، وعندما جاء بعده الوالي محمد نجيب باشا ، اوغر بعض الوشاة صدره على ابي الثناء ، وسعوا بالزور عليه حقداً وحسداً ، وكان هذا منحرفاً عن ابي الثناء ، فعمد الى اقصائه من افتاء بغداد وتجريده من اوقاف مرجان وقطع راتبه وفصله من التدريس وعزله عن مناصبه عملاً بمشورة بطانته السيئة ، وبذلك ساءت حال ابي

الشتاء سوءا شديداً وبلغ به الضر كل مبلغ ، وشعر بحيف مرير من جراء الظلم الذي وقع عليه ، حتى ضاقت به السبل ، واضرت به الحال ، ولم يعد لديه ما يديم الرمق ، حتى اضطره الى بيع اثاث بيته وكتبه وعاش بثمنها فترة من الزمن ، حتى وصف هو ما آل اليه حاله من ضيق ذات يده بقوله : «حتى كدت آكل الحصير واشرب عليه مداد التفسير»[10] ، فرغب ان يعرض حاله على اولي الامر في الاستانة ، حين يقول (وقلت لنفسي لابد من السفر . . . لاعرض حالي وما انا فيه من البلية على مراحم الدولة العلية»[11] .

وبعد تبيان سبب الرحلة ودوافعها ، وصف بعدها موقف وداع الاهل والمعارف ، وساعة الفراق المريرة (غرائب الاغتراب ٤٧ ـ ٤٨) ، ثم وصف طريقه من بغداد الى الموصل ، ولابد ان نقف معه وقفة قصيرة في وصفه لها ، وجمال طبيعتها ونبل اهلها ، وفضل علمائها . والظاهر انه وصل اليها في الربيع فقد وصفها هذا الوصف البديع حين يقول :

«وهي مدينة عذبة الماء ، طيبة التربة والهواء . طعامها هنيء ، وشرابها مريء ، واسعة البلاد وسرتها ، ووجهها الصبيح وغرتها . تلد الربيع في السنة مرتين ، فهي بين البلاد ام الربيعين . . . وهي كالعرائس في حليها وزخارفها ، والقيان في وشيها ومطارفها . . ولا عيب فيها سوى انها ايام الربيع تسرق العمائم الخضر من السادة فتنشرها على سطوح دورها :

كأن نسيم الريح في جنباتها
نسيم حبيب او لقاء مؤمل

ولعمري ان من اختبر وامتحن ، حكم بان كل روضة بالنسبة الى رياضها خضراء الدمن ، وانها تنبت العلماء المحققين كما تنبت الاقحوان والنسرين ، وتخرج الاخيار كما تخرج الازهار . . . . (غرائب الاغتراب ص٦٥) . وغيرها العشرات من الصور ، مما اشتملت عليه هذه الرحلة ، مما يدل على سعة خيال الرجل وخصب قريحته ، وقدرته على سباكة اللغة وصياغة العبارة وانتقاء الالفاظ .

وبعد الموصل يدخل الاراضي التركية فيصف مدنها مدينة مدينة ومواقعها موقعاً موقعاً ، منها وصفه لـ (لجزيرة ابن عمر ، وارضروم ، وسيواس وتوقات وسامسون) وغيرها حتى يصل الى الاستانة باسلوب طريف دخله التلوين وتفننت به يد التطريز والتنميق ، وحفل بالطباق والمحسنات . لعل من اطرفها وصفه للبحر الاسود حين قطعه في باخرة بحرت به عباب اليم في طريقها الى القسطنطينية وما لاقاه من اهوال البحر ، ومخاطر المراكب فيه ، منها هذه الصورة الطريفة التي استعمل فيها الالوان للتعبير عما في نفسه من مشاعر متضاربة :

(ثم ركبنا البحر الاسود لطلب العيش الاخضر واذاقة العدو الاصفر طعم الموت الاحمر) (غرائب الاغتراب ١٠٥) .

الا ان اكثر ما يعّد مركز ثقل في رحلة ابي الثناء هذه ، هو وصفه للقسطنطينية ـ عاصمة الدولة العثمانية ـ وصفاً مسهباً دقيقاً مفصلاً ، دل على انبهار بها وعجب بكل مناحيها ، فهو لم يترك جانباً منها الا ذكره ، ولا ركنا الا مّر به ، ولا جماعة او فئة من الناس الا اسهب في تفصيل القول فيها ، كما اتى على ذكر المعالم ووسائط النقل ، والابنية والاسواق ، كما وصف نساءها ورجالها ، ومدارسها ومساجدها ، وتكايا الدراويش فيها ، بل وصف حتى الخانات والنوادي والمقاهي وروادها فيها . كما وصف الشطار والافاقين واهل الفتوتة فيها ، كما وصف اصحاب الطرق الصوفية مثلما وصف رجال الحكم والسياسة والموظفين ، ووصف علماءها ومدرسيها وطلاب العلم فيها مثلما وصف التجار والباعة واهل الحرف ، كل هذا بوصف دقيق مباشر يكاد ينطبق على الواقع الذي شاهده او نُقل اليه من بعض معارفه انطباقاً تاماً .

وقد لايتسع المجال هنا لأتي على الجوانب الكثيرة التي تناولها وصف ابي الثناء من معالم الاستانة ، مما يزخر بالمتعة ويجدر بالقراءة ، والذي يمكن ان يتحقق بالرجوع الى كتابه المذكور (غرائب الاغتراب ٦٦ ـ ١٩١) ليطلع على ما حواه هذا السفر النفيس من غرائب الترحال وعجائب السفر . ولكننا هنا نثبت جانباً من وصفه للاستانة ، مما يعطي فكرة عن صفاتها ، وعن اسلوب الكاتب فيها وعن معالم هذه المدينة الواسعة الممتدة بين

اليابسة والبحار التي شعر ابو الثناء ازاءها بالذهول والانبهار مقارنة ببغداد في منتصف القرن التاسع عشر التي ذكر المؤرخون عنها انها كانت (مدينة كابية قليلة العمران والبناء) ، قال ابو الثناء يصف القسطنطينية وصفه المشهور الذي قرأناه في كتب الادب المدرسي ، حين تأسره فيها نشوة الجمال ، ويسرح فيها مع الخيال :

«وبلدة مونقة الارجاء ، رائقة الانحاء ، ذات قصور تضيق عن تصورها سعة الاذهان . وتتجاذب الحسن هي وقصور الجنان ، وربة رياض اريضة واهوية صحيحة مريضة . قد تغنت اطيارها ، فتمايلت طرباً اشجارها . وبكت امطارها ، فتضاحكت ازهارها ، وطاب روح نسيمها ، فصّح مزاج اقليمها .. فلما رويت من الصهباء اشجارها ، رنّحها من النسمات المسكية خمارها ، فتدانت ولا تداني المحبين وتعانقت ولا تعانق العاشقين :

وكأن النرجس الغضّ بها
اعين العين وما فيهنّ غُمْضُ»

ثم يسهب ابو الثناء في وصف اهل القسطنطينية وعاداتهم واشكالهم ،

ثم يرجع الى وصف البحر الذي تقع عليه المدينة ، والمراكب العائمة فيه ، فيصور ثغر البسفور وصفحة الدردنيل ، ثم طرق المواصلات ، والقصور ، ومواد البناء ، وقال ان اكثرها مبني من الخشب الذي يسبب في كثرة الحرائق عندما تجف وتتآكل وتعبث به الدودة ، وهكذا يسير مع معالمها ، حتى يصل الى نسائها فيصفهن بدقة وتعجب وانبهار مما يُعَد غريباً على ابي الثناء ، لاننا لا نتوقع من رجل له مثل علمه وفضله ، وصلاحه وتأثمه ، ان يراقب النساء وعاداتهن ، ويدقق النظر في اشكالهن وازيائهن ، ويتتبع سيرهن وسلوكهن ، ولكننا سبق ان ذكرنا : ان الانسان ذو فضول . ومفتون في التعرف على المجهول ، ويتطلع للعجيب والغريب من العادات والاشكال . وان نساء الاستانة في ذلك الوقت شيء عجيب بالنسبة الى نساء بغداد . فنساء عاصمة الدولة ، الكبيرة الحاكمة القريبة من بلاد اوربا بثوراتها الصناعية والسياسية والاجتماعية والحضارية . وقد اخذن بنصيبهن من العلم والحضارة . من غير نساء بغداد، المدينة المنكوبة بحكم الاجنبي .

لذلك جاء وصف ابي الثناء لنساء الاستانة بهذا الشكل الذي يحمل طابع التعجب والاستغراب وهو يرى اكثرهن سافرات ، عاريات الوجوه والاكتاف ، يستطيع ان يراهن مباشرة من غير حجب ولا استار :

(وفيها من النسوان ما يخيّل اليك انهن من حور الجنان . . . وفيهن من عادات نساء الاعراب ، انهن يبرزن الى الازقة من غير نقاب ، الا انهن الطف من شمائلهن ، وادعى بالصبوة بهن من تمايلهن ، فكأنهن نسيم همّ ان يتجسد . . . وربما يقول ظمآن النظر اذا اتى منهل مياه خدودهن وورد ، الله اكبر كيف نسج الربيع على الماء زرد ، وربما يُنشد اذا ذاق نظره خمر خدها المتورد :

(رقّ الزجاج ورقت الخمر
فتشاكلا وتشابه الامر)
(فكأنما خمر ولا قدح
وكأنما قدح ولا خمر)

ومعظمهن حرائر ، وان لم يحتجبن عن النواظر . . . ولله تعالى درّ من قال في حقهّن :

(هن الحرائر لا ربات اخمرة
سود المحاجر لايقرأن بالسور)(١١)

× × ×

ب ـ رحلات مطلع القرن العشرين :

ـ رحلة الشيخ محمد رضا الشبيبي الى الحجاز وبادية السماوة ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ : ـ

المشهور ان الشيخ محمد رضا الشبيبي (١٨٨٩ ـ ١٩٦٥م) قد

كُلف بمهمة وطنية وقومية معروفة ، للقيام برحلة الى الحجاز عام ١٩١٩ لمقابلة الشريف حسين بن علي منتدباً من العراقيين[١٣] فقام برحلته هذه وكانت على اربع مراحل . الاولى كانت من النجف الى البصرة . والثانية من البصرة الى حائل في نجد ثم الى المدينة المنورة في الحجاز قاطعاً بادية البصرة من الشرق الى الغرب ، ومارّاً ببقاع ووديان وسهول وجبال وقبائل عدة استغرقت سبعة وعشرين يوماً سماها (سبعاً وعشرين مرحلة) باعتبار ان المرحلة هي مسيرة اليوم الواحد لعدم وجود وحدة قياسية للمسافة عندهم حينذاك ، ثم المرحلة الثالثة : وهي المرحلة الاولى من (رحلة العودة) من الحجاز الى دمشق حيث مكث في الشام وفي بعض مدنها ما قرب من عام[١٤] ، ثم المرحلة الرابعة ، وهي المرحلة الثانية من رحلة العودة من الشام الى العراق قاطعاً بادية الشام او بادية السماوة من الغرب الى الشرق . وان هذا الجزء من الرحلة هو المرحلة الوحيدة التي سجلها الشبيبي بدقة واصدرها بكتاب مستقل سنة ١٩٦٥ تحت عنوان (رحلة في بادية السماوة) الذي طبع بمطبعة المجمع العلمي العراقي بعد ان كانت مجلة المجمع العلمي العراقي قد نشرت الرحلة تحت العنوان المذكور في المجلد الحادي عشر من عام ١٩٦٤ .

اما (رحلة الذهاب) الى الحجاز التي تبدأ من النجف او من البصرة ، فلم يسجلها الشبيبي ، او بالاحرى لم تصدر بمقال او مذكرات او كتاب مطبوع ، ولذلك فاننا لا نعرف عن تفاصيلها الا الشيء القليل مما ذكره عنها في مقدمة كتاب رحلة العودة المذكورة من اشارات سريعة واخبار مختصرة التي سماها (الرحلة النجدية او الرحلة الحجازية) ، ويبدو ان احداث الرحلة الرابعة هي التي كانت الصق في باله عندما سجل احداثها ، لانه كان قد انتهى تواً منها ، ومازلت وقائعها ومناظرها شاخصة في ذهنه ، لانه ـ كما يتأكد من قراءة هذه المرحلة من الرحلة ـ انه كتبها بعد رجوعه الى وطنه واستقراره في داره ، بينما كانت احداث المراحل السابقة قد مضى عليها اكثر من عام ، لذلك يبدو ان الرجل حرص على تسجيل القريب الحاضر منها .

اما ما سجله في احداث المرحلة الرابعة (رحلة في بادية السماوة) ، فيقع في قسمين متميزين ، الاول عبارة عن مقدمة طويلة عن السفر وفوائده والرحلات ومتعتها ، واشتهار النجفيين بحب السفر وحب التنقل وبُعد الهمة وشدة الرغبة في الترحال والاغتراب ، ثم تحدث فيها عن البادية وطبيعتها ، مقارناً بين معالم بادية الشام (بادية السماوة) وبادية نجد ، وما وقع في منطقته السماوة وباديتها من احداث ومعارك عبر التاريخ ، وذكر من قطعها من الرواد والقواد التاريخيين امثال القائد خالد بن الوليد الذي قطع هذه البادية الى الشام في رحلته القيادية التاريخية المشهورة ، ثم رحلة ابي الطيب المتنبي بعده عندما قطعها متجهاً الى مصر . وغيرهم من المشهورين . . . الى آخره .

وفي القسم الثاني يبدأ بوصف هذا الجزء من الرحلة ، وقد جعلها على مراحل وقال انه قطعها في (ست وعشرين مرحلة) لان الطريق استغرق ستة وعشرين يوماً تبدأ في السابع والعشرين من تشرين الاول من سنة ١٩٢٠ وتنتهي في الحادي والعشرين من تشرين الثاني من السنة نفسها وهي مدة يكفي اقل منها للسفر الى اليابان بالباخرة في هذه الايام .

لقد ذكرت ان الشبيبي كتب هذا الجزء من الرحلة بعد عودته واستقراره ، وليس في اثنائها ، ولذلك جاءت عباراتها مرتبة ، وافكارها منسقة وذكرياته فيها طريفة منتقاة . وبسبب من كون الشبيبي واحداً من رجال اللغة والتاريخ فان اسلوب السرد في الرحلة اتسم بطابعه ، فهو كثيراً ما يعلق على بعض ما يثبته من اسماء او افعال خلال الحديث ، وما اذا كانت هذه الكلمة فصيحة صحيحة مستعملة ، ويعلق على اسماء الاماكن والبلدان والمواقع واسماء القبائل وانسابهم ، وماذا قيل عن اصل تلك الكلمة في لسان العرب او في القاموس المحيط وماذا قال الفيروز ابادي فيها ، وهل هي من الفاظ التراث ام من كلام الحضر ام من الفاظ الريف ام كلام البادية ، وكثيراً ما كان يراجع المصادر ويتأكد من المعجمات او كتب التاريخ ، وغير ذلك مما نجده من طوابع لغوية او تاريخية .

وهذا مقطع من رحلته الذي وصف به نساء البادية اللواتي

شاهدهن ابان الرحلة ، وما تميزت به من جرأة في الرأي ، وخفة في الحركة ورشاقة في الشكل : «بقينا في نظر فريق من هؤلاء البدو الخلّص مضافا الى من لقيناهم في البادية من الاغراب لغزا غامضا . . . وملامح غير مألوفة لرفاقنا في الاشكال والالوان ، ولا يتمكن بعض القوم زرايتهم على ثقل خطانا وبطء حركتنا ومظاهر الترهل في ابداننا وطالما جوبه الحضر من اهل القافلة بهذه العبارة (ما اثقلكم على وجه الارض) وقد لاحظنا ان البدويات من نساء القوم اكثر رشاقة واخف حركة واعظم جَلَداً وصبرا من رجالنا المنغمسين في اسباب الحضارة ، ولا عجب فالشجرة البرية اصلب عوداً وابطأ خموداً . . .»[15] ، ثم يتحدث عن طريقة ابناء البادية في اكرام الضيف فيقول :

«دعينا الى طعام العشاء بعد المغرب ، وقد ارخى الليل سدوله . . . وغاب العرب المضيفون عنا ساعة واطفأوا الضياء ، كل ذلك حرصاً على حرية اضيافهم ساعة تناول الطعام . . .» ، ثم يذكر حادثة طريفة جرت لهم في احدى الليالي وهم في البادية فيقول : «وقد استحوذ علينا القلق ليلة الضويع ، ولم تغمض لنا عين الى الصباح ، وذلك لاشتباهنا بغارة شنها علينا جيش من البدو الغزاة ، ومن عادات القوافل التي تقطع البوادي اذا توقعت شراً او بوغتت بغزو ان تنتظم في شكل دائرة تامة تحيط بها احمال البضائع وبعدها الرواحل والجمال ، يكمن خلفها الرجال باسلحتهم كما يكمن الجنود في خنادقهم متأهبين للطوارىء وهكذا فعلنا في تلك الليلة وكنا نطلق النار بكثرة على اشباح وهمية وما اكثر الاشباح في آفاق الصحراء ، ولما اصبح الصباح ظهر لنا اننا كنا نطلق النار على كلب ضل اهله وراح يتتبع آثار القافلة»[16] .

٢ ـ الرحلات الشعرية

ذكرنا : ان الرحلات الشعرية اكثر عدداً والطف صوراً ، واطرف خيالا وامتع قصصاً . وسنتحدث عن ثلاث رحلات من القرن التاسع عشر وهي رحلة عبد الجليل البصري من البصرة الى البحرين سنة ١٨٢٥م ، ورحلة حبيب بن طالب البغدادي من لبنان الى بغداد سنة ١٨٤٧م ، ورحلة الشيخ عبد المحسن الكاظمي من بغداد الى مصر سنة ١٨٩٧ ـ ١٨٩٩م ، اما عن رحلات العراقيين في مطلع القرن العشرين فسنتحدث عن عدد منها لتتم الموازنة بين المرحلتين ، وما اتسمت به كل منها من خصائص فنية .

آ ـ « رحلات القرن التاسع عشر »

ـ رحلة الشاعر عبد الجليل البصري الى البحرين سنة ١٨٢٥م[17]

من الرحلات (الشعرية) الممتعة التي سجلها الادب العراقي في القرن التاسع عشر رحلة الشاعر عبد الجليل البصري (١٧٧٥ ـ ١٨٥٣م) وهي (رحلة بحرية قام بها في الخليج العربي وجزر البحرين) مع لفيف من اصدقائه ، ثم العودة معاً الى البصرة ، سماها الشاعر (نزهة الجليس) واستغرقت اسبوعين كاملين ابتداء من منتصف شهر رجب من عام ١٢٤١هـ (١٨٢٥م) حتى آخر يوم منه[18] . وهي قصيدة رجز طويلة بلغت (مائة وثمانية وثمانين) بيتاً ، وصف فيها باسهاب وتفصيل ممتعين مراحل الرحلة من ساعة قيامها من البصرة حتى وصوله الى اقصى مناطق البحرين ثم وصف معالم رحلة العودة الى البصرة . وتكمن اهمية هذه الرحلة في جانبها العلمي والتاريخي حيث ثبت المواقع وشخص الاماكن وعين الاتجاهات ووصف الموانىء وذكر العشائر القاطنة على جانبي شط العرب والخليج العربي وغيرها من الحوادث والمناظر والمفارقات ، فضلاً عما فيها من فن ممتع وادب طريف .

في بداية الرحلة حدد ساعة الحركة وزمانها ، وذكر واسطة النقل التي اعدوها للابحار ، والاسلحة التي حملوها للدفاع عن انفسهم عند الحاجة ، ثم مجموعة من كتب متنوعة في الفقه والتفسير والحديث والادب ، مما يشير الى ان الجماعة السائحة كانت تعرف ان الرحلة قد تطول . فلابد اذن من استغلال الوقت والافادة من الزمن فحملوا الاسفار للدراسة والمداولة وهذا يدل على انهم كانوا من اهل العلم وذوي الفضل والمعرفة .

قال محدداً ساعة الحركة وتاريخها :

صبح الخميس النصف من شهر رجب
في خـامس الحـوت وذا فـصـل يُحب
مـن سـنـة في ضـبـطـهـا ارخـنـا
(عـنّي لـلـنـزهـة قـد خـرجـنـا)
في رفـقـة غـرّ الـوجـوه كُـمّـلِ
مـا فـيـهـم الا فـصـيـح المـقـولِ

ثم يستمر في وصف رفاق السفر وما فيهم من لطف الاريحية وحسن المعشر في تسعة ابيات اخرى ، بعدها يتحول الى وصف الخدم الذين معهم وما كانوا عليه من صدق في الخدمة وامتثال للامر . قال في اولها عنهم :

غلمـانـنـا كـل خفيف الـروح لا
يـنـفـك في بِشـر وطـبـع سَـهُـلا

ثم يصف السلاح الذي احتاطوا به للطوارىء :

سـلاحـنـا الاسـيـافُ والـبـنـادقُ
وبـالـرمـايـة الجـمـيـع حـاذقُ

ثم الكتب ، واسفار المعرفة ، وهي متنوعة من فقه وحديث وادب :

وقـد صـحـبـنـا مـعـنـا اسـفـارا
نـقـطـف مـن اسـطـارهـا ازهـارا

اما موكب الرحلة فقد تألف من قاربين مصنوعين بدقة ومحفوفين بالعناية :

قـد امـتـطـيـنـا قـاربـين خُـفّـا
بـحـسـن تـيـسـير الالـه لـطـفـا

ثم وَصَفَ شط العرب والخليج العربي ، وينابيع المياه فيها ، وما سمق على جوانبها من باسقات النخيل واشجار الكروم وما اثمرته من كل لذيذ وشهي لمن يجنيه :

تـرى بهـا الـنـخـيـل بـاسـقـاتِ
مـن كـل نـوع لـذّ لـلـجـنـاةِ
فـيـهـا يـنـابـيـع مـيـاهٍ قـد جـرتْ
في بـرهـا وبـحـرهـا تـفـجـرتْ

حتى يصل الى مناطق البحرين وجزرها ، فيصفها منطقة منطقة وجزيرة جزيرة وصفاً دقيقاً مفصلاً مشتملاً على تثبيت المواقع وتحديد الاتجاهات وتسير الرياح وصعوبات الابحار واوقات الحركة ، ثم كل ما وقعت عليه عيناه من خضرة وماء ،واناس وحيوان ، ومبانٍ وقلاع ، ومحن ومزالق وامواج وعواصف ، كل ذلك في وصف نسخي فيه الكثير من دقة النقل ، وصدق التصوير ومطابقة المشاهدة مع تشويق في الحديث وحبكة في الاسلوب ووضوح في اللغة وطرافة في المعاني مما يمكن ان يعد وثيقة تاريخية ونادرة علمية وتحفة ادبية ، لولا قلة في الخيال واسهاب في السرد .

فبعد دخوله مياه البحرين ، يصف جزرها واجواءها ، فيقول في قسم منها :

وقـد غـنـمـنـا نـزهـة الجـزيـرة
سـرنـا الى (جوّ) بـحـسـن سـيـره
وقـد وردنـا مـنـهـلاً مـسـتـصـفىْ
فـيـه مـريـئـاً سـكـريـاً اصـفىْ
ثم ارتحلنـا الصـبـح لـلـجـنـوبِ
فـزاد فـيـنـا الـريـح بـالمـبـوبِ

فاذا وصل الى بعض مواقعها ووقعت عيونه على بعض نسائها ، وما فيهن من حسن وصباحة وفتنة وملاحة يصفهن في ابيات عدة يقول في بدايتها :

دار لـربـات الجـمـال الخـرّد
مـن كـل هـيـفـاء بـقَـدّ امـيـد

وفي ابيات بعدها يصف مهارة الصيادين وقدرتهم الحاذقة على تعيين الصيد وتحديد حركته والظفر فيه . في ابيات عدة يقول في اولها :

سـوى فـريق حـلّ منهـا نـاحـيـةْ
وكـلـهـم في الـصـيـد هـادٍ داهـيـةْ

ولا نستطيع هنا ان نتعرض لكل معالم الرحلة وملاحقة احداثها ، الا اننا نختتم حديثنا عنها بوصفه الدقيق والطريف (لقلعة) نزلوا بها في بعض مراحل السفر ، وما فيها من حسن الطراز وضخامة البناء ، وجمال المنظر ؛ وما حوته من اشجار عالية وثمار دانية وفاكهة متدلية مما يعكس عجبه بها وانبهاره

بفخامتها حين يقول في بعض ابياتها :

حتى نزلنا في فناء (القلعة)

والنخل فيها قد ابان طلعة

اشجارها تنوعت ازهارها

فتى على افنانها هزارُها .

كأنما الاترجّ في الاوراق شُبْ

في خيمةٍ خَضْرا قناديلُ ذهبْ

والماءُ جارٍ قد صفتْ جداولهُ

واستعذبت لوارد مناهلُهْ

منظر هذي القلعةِ العظيمةْ

تعرفُ منه انها قديمةْ

صخورها منحوتة مربعةْ

عظيمة السمك بطول وسعةْ

حاط بها سوران ثم الخندقُ

يعجب راءٍ عرضهُ والعمقُ

قصورها نامتْ عن التقصير

وقد زهتْ بزخرفِ التعمير

وبعد ان تصل الرحلةُ الى نهايتها ، وتُحقِقَ غاياتها ، وتبلغ اقاصي البحرين ، يميلون للرجوع ، ويستعدون لرحلة الاياب فيصف هذا : الجزء من الرحلة مثلما وصف (رحلة الذهاب) ولكن مع بعض الاختصار لان اكثر المعالم كان قد ذكرها في المجيء ، فصار يقتصر على ذكر ما صادفهم فيها وما فاته من امور .. قال في بدايتها :

وبعد ما ملنا الى الرجوعِ

للاهل قبل آخر الاسبوعِ

هب علينا عاصفُ الشمالِ

فلم نجدْ وجهاً للارتحالِ

.....

ثم توجهنا الى البلاد

بخير حال مقتضى المراد

في ضحوة الخميس منتهى رجب

جئنا الى المكان اذ نلنا الارب[19]

......

رحلة الشاعر حبيب بن طالب البغدادي

من لبنان الى العراق سنة ١٨٤٧م

اما الرحلة الثانية التي قطع بها الشاعر حبيب بن طالب البغدادي[20] (المتوفى بعد سنة ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م) ماراً بمدن الشام ، فانها فاقت رحلة زميله البصري طول مدى ، وعدد ابيات وطرافة اسلوب وغرابة خيال وحسن تصوير ، وكثرة تفصيل ، في قصيدة رجزٍ ايضاً بلغت (مائتين وستة وسبعين) بيتاً .

تبدأ الرحلة بما هو متعارف عليه من حمد الله والثناء عليه والصلاة على نبيه الكريم وصحبه وآله الطاهرين (عليهم الصلاة والسلام اجمعين) . وبعد اكثر من عشرة ابيات من الحمد والثناء ، يذكر ساعة الحركة ويحدد مكان الانطلاق :

فحين صرنا من بلاد عاملهْ

بحمدِ خيرِ منعمٍ والشكر له

فبدء سيري كان من (تبنين)

غب وداع الطرف الامين

وقد نهضنا عند ضوء الفجر

نفري الفلا من مهمة وقفر

حتى وردنا (الشق) وهو منبعُ

صافٍ كمين الديك صرف يلمع

ثم يأخذ بذكر المواقع والمدن ومعالم الطريق ووسائط النقل ومتاعب السفر ومفارقات الرحلة وعادات الناس ، ومشاهد الطبيعة ، كما يصف الابنية والقصور ، والجوامع والاديرة ، والقلاع والحصون ، والخانات والحمامات ، والبرك والينابيع ، والانهار والنواعير ، كما وصف وسائط النقل التي استخدموها ، وقال انها كانت (البغال) في المرحلة الاولى من الرحلة ، حتى ديار بكر في شمال العراق ، فتحولوا الى (الاكلاك) واستخدموا نهر دجلة في بقية الرحلة الى بغداد ، كما ذكر المدن التي مر بها ابتداءً من مدن جنوب لبنان : صور وصيدا ، ثم مدن الشام : دمشق

وحمص وحماه والمعرة وحلب وغيرها ، وانتهاء بمدن العراق : ديار بكر والجزيرة والموصل وتكريت وسامراء حتى بغداد ، كل ذلك بوصف تفصيلي ممتع لكنه لايبلغ حد الملل لما فيه من حسن التشويق وجمال السرد المنقول من الواقع وباسلوب التصوير المباشر ، مع الكثير من الخيال في احيان كثيرة .

وها نحن نسير مع بعض مراحل الرحلة ووصفه للطرق والمدن بهذا الاسلوب الطريف :

وبكّر الركب الى الشآم
ولا تسل عن ذلك المقام
حتى وردنا حارة الخراب
من الشآم مركز الانجاب
وقد بقينا في (دمشق) شهرا
مرادفاً لليلتين اخرى
وقد سرينا من (دمشق) عصرا
براة ذي الحجة ارّخ (بسرا)

اي عام ٢٦٣هـ ، ويقصد بعد الالف طبعاً .

وفي صباح الثالث الركبُ ارتحلْ
الى (حماة) والعصير قد وصل

وحين يصل (حماة) يصف نواعيرها المشهورة في ابيات عدة طريفة منها قوله :

وللنواعير حنينٌ موجعُ
لكل قلب بالنوى مصدع
تدور سعيا وتئن كمذا
كأنها تطلب إلفاً فُقِدا

وهو تصوير جميل ، كما انه من المراتّ القليلة التي يوصف بها (الناعور) في الشعر العراقي في هذه المرحلة على الرغم من ان بيئة العراق حينذاك كانت بيئة زراعية كثيرة البساتين والنواعير .

ولا شك في اني لا استطيع ان اسير مع احداث هذه الرحلة الطويلة النَفَس ، الكثيرة الشعر ، او اتتبع في هذا البحث معالمها ، اذن لطال البحث ، او لاحتجتُ الى اكثر من مقال ، اذن لا نصاع للضرورة ، واقتصر على ثلاثة مواقف مهمة ، اولها : وقفة الشاعر في منطقة (سويرك) في الشام ، وثانيهما وثالثها وصفه لمدينتي الجزيرة والموصل في العراق .

فبعد ان يقطع الشاعر البغدادي مرحلة طويلة من الرحلة ، ويعضّ به التعب ويبلغ منه الاعياء مبلغاً كبيراً حين يصل الى منطقة (سويرك) في الشام يبدأ بتصور امور وهمية ويتخيل اشياء غريبة حين ينقل : انه شاهد في هذه المنطقة ستة اجساد من آل الرسول (ﷺ) ملقاة على الارض من غير مواراة من زمن طويل ، من غير ان يمسها التلف ، وهي باقية هكذا منذ سنين يفوح منها اريج المسك ، وهم (شيخ ، وابناه ، وابنتاه ، وزوجه) . لنستمع الى هذه الرواية الغريبة في هذا الجزء الحرج من رحلة البغدادي :

وفي (سويرك) شهدنا آيه
ثابتة بالنقل والروايه
ان بها من عصبة المختار
ستة اجسام بلا تواري
اجسامهم على مرور الحجج
باقية تذكو بطيب الارج
واحدهم شيخ كبير اشيب
يُدعى عليا وهو فيهم معطب
مبضع الصدر طعين الخاصرة
بادٍ لعيني ناظر وناظرة
وابنان في جنبيه وابنتان
وزوجة له على البيان
وهم على مرتفع كالمصطبة
اجسادهم مصفوفة مرتبه
...

اما وصفه لبلدة (الجزيرة) العراقية ، فيقول فيها هذا الكلام الطريف ، ويرسم لها هذه الصورة الظريفة :

حين وردنا بعدها (الجزيره)
وهي لعمري بلدة خطيره
وقد خلتْ من نظره ومن شجر
ومن قصور ترتقى ومن اثر

وما بها سوى المياه دائره
مثل غواة حول بنت حاسره
رخيصة الاسعار خذ ولا تسل
اللحم والسمن كثير والعسل

وعلى الرغم من ان هذا الوصف تقريري ، الا ان الخيال لدى الشاعر قد ادى دوراً موفقاً في البيت الثالث .

اما الموصل ، فيصورها هذا التصوير الممتع ، الذي يسهب في تبيان جهاتها ومحلاتها ، ومزارات الانبياء فيها ، وفضل الخيرين من اهلها ، حتى يصل الى هذا المقطع الطريف الجدير بالقراءة :

وهي لعمري بلدة عظيمه
احوالها باللطف مستقيمه
فماؤها دجلةُ ، والهواءُ
فيه لكل علة شفاء
زاهية الجنات بالاشجار
لكثرها رخيصة الاسعار
وخبزها مثل صدور الغيد
مهفهفات كاعبات رود
اشهى الى العين من الرقاد
من ناعس بالغ في السهاد
كذلك (العقيمر) كالزنود
منهنّ و (التفاح) كالخدود
ولا اطيل الشرح في حسن الثمر
فمن جنان الخلد قد ذاع الخبر
.....[٢١]

(رحلة الشيخ عبد المحسن الكاظمي الى مصر سنة ١٨٩٧ - ١٨٩٩م)

اما الرحلة الشعرية (الثالثة) في القرن التاسع عشر ، فقد كانت رحلة الشاعر عبد المحسن الكاظمي (١٨٦٥ - ١٩٣٥م) الشهيرة من بغداد الى البصرة فايران فالهند ثم الى مصر بين عامي (١٨٩٧ - ١٨٩٩م) وعلى ان رحلة الكاظمي قد ذاعت في الناس اكثر من رحلة زميليه البصري والبغدادي . بل لعل الكثير منهم ، وبينهم بعض هواة الادب من لم يسمع بهما او يعرف عنهما شيئاً ، لكنها مع ذلك اقل اهمية من رحلة زميليه من الناحية الفنية واقل وضوحاً ، وابياتاً وتفصيلا وتشويقاً وحبكة ، وابهت صورا ، على الرغم مما يتمتع به الكاظمي من شاعرية متدفقة لايملكها زميلاه ، كما انه ليس في الرحلة نفسها ، ومناظرها ومتاعبها ومفارقاتها ما وجدناه في الرحلتين السابقتين من افاضة في السرد ودقة في الوصف وتتبع للمشاهد .

ولعل سبب عدم لحاق رحلة الكاظمي فنيا برحلة زميليه ، ان الرجل في رحلته كان يحمل همومه بين جنبيه في رحلة الهجرة هذه ، وفي صدره مضاضة الفراق الاجباري عن الوطن ، وفي قلبه سعير الشوق الى الاهل اكثر مما يحمل من شعور برحلة ممتعة يقضي معها اياماً هانئة ، ويشاهد فيها مناظر خلابة ، ثم يعود بعدها الى وطنه آمنا مطمئناً مثلما كان عليه حال زميليه ، لذلك فان قصائد الكاظمي في رحلاته ليست مستقلة الغرض ، انما جاءت في اغراض متعددة اكثرها في وصف مصر واهلها وفرحه بالوصول الى مصر ، ثم في مدح بعض معارفه او تبيان ما احاطه بعض من التقى بهم خلال الرحلة ، واشادة بكرمهم ، ووصف اشواقه للاهل وللوطن .

وعلى الرغم من ان رحلة الكاظمي كانت اطول زمناً وابعد مسافة واشد معاناة واكثر خطراً ، بل هي مجموعة رحلات متصلة في رحلة طويلة واحدة . فقد رحل الكاظمي من الكاظمية الى البصرة في المرحلة الاولى ... ثم غادرها الى الهند ... ومن الهند ركب الباخرة مرة اخرى وذهب الى مصر ... وكان وصوله الى مصر سنة ١٨٩٩م»[٢٢] ليقيم فيها بقية حياته حتى وفاته سنة ١٩٣٥ فان الرجل لم يخلف لنا في وصف رحلته الطويلة هذه غير ثلاث قصائد[٢٣] اكثرها في وصف عواطفه ومشاعره واشواقه للاهل وللوطن . والاشادة بمصر واهلها عند وصوله اليها ، او ببعض معارفه ممن اقام عندهم خلال رحلته ، وليس فيها من وصف الرحلة ومشاهدها غير لقطات سريعة ، الا انها جميلة وتشير الى مراحل حساسة مهمة من الرحلة .

فمن ذلك ما جاء في قصيدته (العينية) : نعم اهل مصر

انتم خيرامة ... في وصف المرحلة الاولى من سفرته على الابل من بغداد الى البصرة حين صورها تصويراً موفقاً باسلوبه البدوي الجزل الذي عُرف به الكاظمي ، وواصفا شدة المعاناة وصعوبة الرحلة :

سرينا نجوب البيد في غلس الدجى
وسارت مطايانا تخب وتوضع
تموج بنا شرقاً وغرباً كأنها
تقبض بمسراها القفار وتذرع
كأنا وقد مالت بنا سنة الكرى
سجود على اكوارهن وركّع

اما في المرحلة الثانية من الرحلة ، فيصف ركوبه البحر في باخرة ، شقت به عباب اليم ، ثم وصوله الى السويس في رحلة محفوفة بالخطر ، الا انه يصف شدة سعادته حين علم انه وصل الى مصر ، صاغها بذات الاسلوب البدوي المسبوك ، والصور الطريفة ، ولكن على اختصار وسرعة شديدتين بحيث يفقد القارىء متعة التأمل والسير معه في عرض البحر وطوله ، وتأمل مناظره ، ومشاطرته اهواله ومخاطره . فما ان ينزل برحلة الى البحر حتى يصل بنا الى السويس وينزل مصر ، فيشعر القارىء بانقطاع ذهني مرعب وصحوة مفاجئة من حلم لذيذ ، ويبدو ان فرحته العارمة بالوصول الى منيته ـ مصر ـ بعد طول مشقة وترقب ولهفة هو الذي جعله يقطع علينا وعلى نفسه فرصة تأمل البحر ، واسترجاع اهواله ومناظره حين يقول :

ولما نقلنا للبواخر رحلنا
وعفنا المطايا وهي حسرى وظُلَّعُ
هجمنا على جيش من الموج ضارب
بزخّاره نحو السما يترفع
يطالعنا من كل فج كأنه
جبال شروري اصبحت تتقلع
ولما تبينت السويس وسار بي
الى النيل سيار من البرق اسرع
هرعت اليها عاطفاً من حشاشتي
وقلت لصحبي هذه مصر فاهرعوا[٢٢]

ونلاحظ ان آثار الاسلوب البدوي التقليدي القديم ما يزال يلاحق بيان الكاظمي ولغته ، على الرغم من انه يصف موضوعاً حضارياً حديثاً متمثلاً بالباخرة وفخامة صنعها ، ولكنه بقي يستخدم عبارات الاقدمين وتشبيهاتهم في السفر ، المتمثلة بـ(المطايا ، وحسرى ، وظلّع) وغيرها . ثم تشبيه الموج ، ثم المطايا ومراكب السفر النوق بارتفاعها وضخامتها بـ(جبال شروري) ثم (البرق) الذي كثيراً ما يلازم السائرين في الصحراء .

اما قصيدة الكاظمي الثانية في الرحلة (دعوني اجوب هذي الدياميم) فلا توضح خط سيره في الرحلة ، او تحدد الطريق او ترسم المعالم او تصف المواقع او تذكر المواقف ، لكنها انصبت على ذكر وسائط السفر التي استخدمها في رحلته من بغداد حتى القاهرة ، من (جمال وخيل) في المرحلة الاولى من بغداد الى البصرة ، ثم (الباخرة) في رحلته البحرية الى مصر في المرحلة الثانية ، ثم وصف (القطار) في المرحلة الثالثة حين نزل على ارض مصر واستقله من السويس الى القاهرة . وفي الحق انه يفصل في ذكره هذه الوسائط ويبدع في وصفها . لكنه يرسم لها ذات الصور التراثية القديمة التي رسمت للناقة والفرس ، بل حتى في وصفه للباخرة والقطار يشعرك انه يقطع بك الفيافي والقفار ، لا المزارع والبحار ، او كأنه يسير بك في صحراء جرداء لا خضرة فيها ولا ماء في المرحلة الاولى ، مستخدما الفاظ البادية وصورها المألوفة . ولاسيّما عندما يصف الناقة التي اقلته في رحلته ، فهو يحشد لوصفها كل أسماء الناقة المعروفة في القاموس العربي ، فهي :

(خوص ، زيّافة ، شملالة ، مرقال ، داعر ، كوماء ، هوجاء ، سعوم .... الى آخره) ، اما القطار فتظهر لنا فخامته وانبهار الشاعر بهيأته وهيبته ولكنه يبقى مشدودا الى صورة موكب (القطار الصحراوي) المتمثل بمجموعة الجمال السائرة في البادية . كل ذلك بلغة فخمة ، توجهها ثقافة قديمة قويمة ، واسلوب متماسك يوجه بده وقلمه وفكره ، لكنها ممتعة جزلة تشعرك بهيبة اللغة وعنفوانها . وبودي لو ابسط اجزاء من وصف وسائط النقل هذه ليطلع القارىء على صورها ، وعلى لغتها

واسلوب وصفها :

قال في قسم من الرحلة يصف حنينه الى الاهل والوطن :

ايها القلب كم تحن الى الكر
خ وتهفو لساكني الزوراء
وشجياً اراك في كل حين
لصحاب من الجوى اخلياء
اخذوا النوم من جفوني وباتوا
في جفونٍ ريّاً من الاغفاء

اما الابل التي يمتطي ظهرها فيقول فيها :

ودعوني اجوب هذه الديامي
م واسري في هذه الاجواء
فوق خوص ترغو فتنتظم البيـ
د جميعاً في سلك ذاك الرغاء
كل زيّافة تزف كما الار
واح من نسل داعر كوماء
وسعوم من آل شدقم مرقا
ل واخرى شملالة هوجاء
عائمات كما السفائن في بحـ
ر سراب التنوفة القفراء
تلطم الارض لطمة الكاعبات الـ
خود خد المليحة الحسناء

اما (الخيل) التي ركبها ، فيقول فيها :

وعلى ضمّر اذا صوّت الحا
دي حسبت الصهيل رجع الحداء
يتسابقن للمغار لا يحـ
جمن في كل غارة شعواء
كذئاب الغضا عواسل في القا
ع خماص البطون والاحشاء
انما الخيل كالرجال فهذا
للمغاني وذاك للهيجاء

اما (البواخر) فيصفها هذا الوصف الممتع حين يقول :

قاطعات البحار طولا وعرضا
بين صيف يقودها وشتاء
فكأنها في اخريات الليالي
اولبيات الخدور في الاحياء
كل قارية توشح في حمـ
راة جادية وفي صفراء
وكأن الرايات حمر جمال
لحنَ من فوق قبة حمراء
او طيور حمر وخضر يرفرفـ
نَ على الوكر فوق عالي البناء
ابداً تنطح الرياح بخيشو
م وتفري به عباب الماء
ولها حافز يقوّم جنبيـ
ها ، وينزو في ضلعها العوجاء
ما اثر الضمير منها وما ابـ
ردَ ظهرانها من الارتواء
يغمر الماء نصفها الاسفل والـ
اعلى مجال الارواح والانداء
ومتى تلتقي باخرى تقلْ ثهـ
لان اضحى معانقا لحراءِ

وحين ينزل الكاظمي البر المصري ويستقبل (القطار) فانه يرسم له هذه الصور الطريفة التي تدل على انبهاره بهذا المخترع الجديد عليه :

وبانشاء كل ذي عجلات
دائرات بذلك الانشاء
مَن يساوي به المراكب في السيـ
رِ وما كل مركب بسواء
مرعد برق ، ولا رعد في السحـ
ب ، ولا بارقٌ يلوح لرائي
ساحباً خلفه قصورا كما ذا
ك وراءه سحائب الانواء

من رأى قبلها المقاصير تسري
هوّماً في المفازة البهماء
فاذا جاز او دنا من ربوع
ناح نوح الحزينة الشكلاء
واذا همّ للرحيل دعا القو
م فكان الجميع طوع الدعاء
ومتى سار ينشر الظل في السهـ
ل ، ويطوي الحزوم طيّ الرداء
تلك مَلك من الزنوج تردى
برداء الجلال والكبرياء
ملك قاهر له الرعد الغبـ
را وتهتز قبة الخضراء[٢٥]

وفي قصيدة الرحلة الثالثة (رحلة مصر) يجيد الكاظمي ايضاً ، ولكنه على طريقته ، وهو يحمل همومه ، ويذكر بلاده ، ويصارع اشواقه ، ثم في وصف بعض مراحل السفر ، وبعض مناظره ومراكبه التي يسميها (بنات الماء) ، لكنه يرسم لها صورا طريفة . والحق ان الرجل يبدع في هذه الاجزاء من مكونات الرحلة ، ولا سيما وصف الباخرة وصراعها مع امواج البحر المتلاطمة ، حين يقول في القسم الاول منها واصفا لوعته واشواقه بسبب البعد والغربة والفراق :

بعدتَ عن الديار وصرت تدعو
على البعد الديارَ ولا تُجيبُ
رحلتَ وانت للعلياء صادٍ
تحوم على الموارد او تلوب
وخلّفت المنازل آنساتٍ
سروب الغيد يتبعها سروب
تشقّ حشاك من كلفٍ عليها
وتأنفُ ان تشق لك الجيوب
وفي مصر اراك وانت لاهٍ
وقلبك في العراق جوى يذوب
فكم والى مَ تنتحب ثم تكبي
ولا يجدي البكاءُ لا النحيب

اما في تصوير رحلته فيقول :

بنفسي ما بنفسك يوم شطت
(ابو شهر) وسرتُ ولا صحيب
اقمنا برهةً والفجرُ طفلٌ
بطلعته قرون الليل شيب
وسرنا والهمومُ بها انسياب
علينا والظلامُ له دبيب
وعجنا راكبين اليوم فُلكا
وهل اغنى الفوارس ذا الركوب
بواخر من بنات الماء شُمّاً
على هام السحاب لها سحوب
تحلق كالعقاب بنا وتهوي
هويّ الطود اوهنه الخطوب
ولم يرع الحشا منا ومنها
صعود بالعواصف او صبوب
تكنفُ الموج وهو بها محيط
نزاعَ النفس لاقتها شعوب
بلغتُ بها قرارة كل لجٍّ
بعيد القعر ، لؤلؤه رطيب
وارض جزتُها من بعد ارض
سباسبها المريعة والسهوب
اعوم ببحارها طوراً ، وطوراً
اجوب من الموامي ما أجوب
. . . .
الى ان قادني املي لمصرٍ
قياد الجامحات وهنّ لوب
. . . .[٢٦]

× × ×

قلنا اننا ستتحدث عن ثلاث رحلات شعرية من القرن التاسع عشر . ونعود الان فنستدرك ، ونقول : لنتحدث عن رحلة رابعة ، لها نكهة خاصة ، لانها كتبت بنمط آخر من انماط

الشعر ، كان قد شاع في تلك الحقبة واغرم به الناس ، ونظمه الكثير من الشعراء «وكان مستفاضاً بين ادباء العراق في القرن الماضي ونبغ فيه كثيرون فاجادوه كل الاجادة ، وكتبوه في مراسلاتهم ومحاوراتهم»(٣٧) . اعني به (شعر البند)(٣٨) ، فقد قام شاعر عراقي برحلة ممتعة على فرس له من الحلة الى بغداد ، فوصفها وصفاً دقيقاً طريفاً مفصلاً بقصيدة بند طويلة احتوت على وصف فرسه ، ثم وصف الطريق الذي سلكه ، والمنازل التي مرّ بها ، ثم وصف بغداد حين وصوله اليها ووصف مقامات الائمة فيها ، ثم ذكر العديد من الشخصيات والوجهاء الذين التقى بهم .

قلنا انه بدأ الرحلة بوصف (جواده) الذي سافر عليه ، وقد كان وصفاً ندر مثيله في وصف الخيل في الشعر العراقي في هذه الحقبة ، حين رسم له صوراً اخاذة جميلة يدل على معاناة حقيقية ، والفة مع الحيوان ، وقرب منه ، وان تلك الاوصاف وان كانت تقليدية ، الا انها ذات اطار ممتع من الخيال الطريف والمحتوى الجديد ، والقالب الشيّق ، والالفاظ السهلة ، والاسلوب الممتع من اساليب الشعر العربي ، وهو الشاعر (محمد بن الخلفة الحلي - المتوفى سنة ١٨٣١م) وهو صاحب البنود الكثيرة المشهورة(٣٩) ، ويبدو ان الرحلة قد تمت خلال العقد الثاني من القرن التاسع عشر ، لانه ذكر فيه اسم الوالي (سعيد باشا) ابن الوزير سليمان باشا الاول ، وان سعيداً هذا كان قد ولي بغداد بين سنتي (١٨١٣ - ١٨١٦م) .

ان وصف ابن الخلفة في مطلع الرحلة لجواده يدل على بداية نشيطة ، وعزم مندفع للسفر ، وثقة كبيرة برفيق الطريق وقدرته على مواصلة الرحلة الطويلة المضنية الى نهايتها ، لذلك اطرى ذلك الجواد ، وفصّل في اجزائه ووقف عند ميزاته من قوة وسرعة وجمال ، ومن حسب واصالة . وهذا جزء من وصفه لجواده الاثير :

دايا مرتقياً سرج جواد من جياد الخيل جمّاح . ورباعياً من الضمر في غرته . النجمُ اذا لاح ، طويل العنق والساق ، سريع الخطو سبّاق . قصير الاذن والظهر وسبع العين والجبهة والصدر ، فلا الريح يباريه اذا غار ، ولا السهم يجاريه اذا سار . ولا الطير يحاذيه وان طار . ولا يُسبق ان مر ، ولا يلحق ان فر . ولا يصعبه الحر ولا يتعبه الكر ، ولا يكلفه البرد ، ولا يبلغه الطرد ، من الجرد العتاق الشهب ان اقبل كالسيل . وان ادبر كالبرق اذا اومض في الليل» ثم يبدأ بوصف الرحلة ومنازلها وطريقها : «وسر يحفظك الحافظ من كيد ذوي الغدر . لئام القوم كم خانوا وكم ما بينهم ضاع دم هدر . واياك ومكر السيء الخلق . فلا تصحب سوى السيف وكن فرداً وحيداً حذرا حتى يراك الناس كالطيف وعوّد نفسك الغربة واقطع مهمة البيد . . . وجرّد صارم العزم من الحزم . على غارب مهريّ لقد فصله الصانع في احسن تفصيل . . . فحركه من الجسر(٣٠) ، لكي يخترق الارض كما النسر . وان جئت الى (النيل) وجاوزت (المحاويل) . فلا تأو الى خان . ولا ترفق بمن خان . سوى خان ابن نجار . شريف تاجر اشرف تجار . سقى الله على تربته مزنة غفران . من الرحمة مالم يسقها من قبل انسان واعلا قصره في جنة الخلد بفضل منه مادام واحسان . فبت فيه ولا تبرح حتى مطلع الشمس . وروح بالك لاتذكر ماصابك بالامس . وقم واسرع بسراك ولا تمش على مهل . ليطوى لك بالمسرى جميع الوعر والسهل . وان جئت الى (البير)(٣١) تجنبها فما فيها اهل تدبير . نعم في (خان زاد) استطعم الزاد . هنيئاً واصطبح واغبق به طرفك مازاد ، ضحى ثم اشرب القهوة من كف سخّي ذكره شاع . قنوع كلما تعطيه يهتز بشكرٍ لك ما فيه عطاء ابداً ضاع فودّعه ودعَ عن نفسك البخل . ولا تصغ للذي عذل . فذاك الناقص الرذل (وخان الكهية) المشهور ان وافيته لا تتخذ فيه . نزولا ان قرب البلد الطيب يخفيه . ومل عنه يساراً تنظر اليسر بعينيك عيانا . وترى يرحل عن ساحتك العسر بياناً ، وسيهديك سنا النور الالهي كمشكاة وفيها ضوء مصباح . بدا وسط زجاج فتظن الكوكب الدري قد اشرق ياصاح ، نعم ذاك شعاع القمرين النيرين . . . السيدين السندين الكاظمين . . . فيمم يا رسول الخير تلك الحضرة السامية الفائقة الصنع . وهنيت لك البشرى اذا ما نظرت عيناك فيها غاية المقصد والمطلب والنفع . . . وانثني نحو ربيع ومحل عامر عال رفيع . . . ذلك

القصر الذي كل خطيب فطن يقصر عن وصف معانيه . . . تأمل . تلك الدار شادها المعروف مأوى لجميع العالمينا . . . دار مولانا طليق الوجه في البذل . . . ابي يوسف محمود السجايا صاحب الفضل على الفضل[٣٢] . . . وعرّج يا اخا السير الى الزوراء دار الاولياء الخلفاء المحبوبة الاقليم بغداد . بلاد هي تخت الملك والعلياء ما شام ومصر حسرة الشاهات[٣٣] لم يحص مزايا حسنها المنشي بتعداد . وقف وقفة مبهوت على دجلة وانظر فيه خضراء قد حل بها النعمان[٣٤] ذو القدر . وسلم باحتشام ذا عظيم الشان من عظمه الرحمن في العلم له الصدر . رئيس الفقهاء العلماء الصلحاء الفاضل الكامل والعالم والعامل جهراً اوضح الدين . . . ولا تغفل اذا قابلت قبر الشيخ معروف . من التسليم يا هذا عليه فعسى كل بلاء عنك مصروف . . . فان جئت الى سوق الكمالات ، باهليه المكنى هو في (السوق الجديد) الشاهق المرشد من دون دلالات[٣٥] حقيق ذاك ان يوصف في سوق عكاظ . لما حاز من كل فتى امضى من السيف اديب بارع للشعر نقّاد . من كل صفي مرتضى القول ذي فهم ذكي اصمعي النطق في الانشاد والانشاء وقاد . . . .»[٣٦] .

ب ـ رحلات مطلع القرن العشرين

هذه بعض رحلات العراقيين المسجلة (شعراً) في القرن التاسع عشر الى خارج العراق ، وهناك رحلات كثيرة غيرها فيه الى خارج العراق ، وفي داخله ، لانستطيع ان نذكرها كلها ، وهي محفوظة في كتب التاريخ والادب التي عنيت بادب هذه المرحلة[٣٧] .

اما رحلات العراقيين (الشعرية) في مطلع القرن العشرين ، فهي بطبيعة الحال اكثر من رحلاتهم في القرن التاسع عشر . فقد صار السفر ايسر ، ووسائل النقل اكثر ، ومخاطرة اقل ، ووسائط المواصلات اسرع وافضل . ومن يتتبعها يجد الكثير منها ، مما سجلته كتب الادب والتاريخ ، لذلك فنحن مضطرون هنا الى الاجتزاء ، واعطاء امثلة منها ، وذكر بعضها للموازنة . على اننا نود ان نبسط مقدماً بعض الفروق الفنية الاساسية بين ما سُجل من رحلات القرن التاسع عشر ورحلات مطلع القرن العشرين ، ثم نذكر الامثلة ، فمن اهم تلك الفروق او السمات الفنية بينها ، ان رحلات (القرن التاسع عشر) قد اتسمت بالطول المفرط (شعراً ونثراً) ثم بتضخيم الاحداث ، والتأكيد على الغريب وتبيان الاهوال ، واستعمال المحسنات واعتماد الاسلوب المباشر في السرد ، والنقل المادي الواقعي لوقائع الرحلة والوصف والدقة في النقل ، بينما جاءت رحلات مطلع القرن العشرين في قصائد قصيرة او صفحات قليلة . ويبدو ان سبب ذلك يرجع الى شدة المعاناة ، وطول مدة السفر ، وصعوبة الطرق ، وكثرة الفراغ لدى شعراء القرن التاسع عشر لكن رحلة مهمة قام بها شاعر عراقي في مطلع القرن العشرين ، وبالتحديد سنة ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م رحل من النجف الى البصرة وسجلها شعرا اتبع فيها نهج شعراء القرن التاسع عشر تماماً من حيث الاطالة (حيث وقعت في (مائة وسبعة واربعين) بيتاً ، والاسهاب في التفاصيل ، وكثرة المبالغة والاهتمام بالجزئيات ، والتدقيق في الاحداث ، ورصد الاماكن ووصف المواقع والمدن والناس واشكالهم وعاداتهم ، وبيان وسائط السفر وحتى في المقدمة التقليدية بافتتاح قصيدة الرحلة بحمد الله وشكره والصلاة على نبيه الامين (ﷺ) وصحبه وآله الطاهرين ، وكذا في استخدام (الرجز) اسلوباً في الوصف تماماً كما فعل شعراء القرن التاسع عشر ، تلك هي رحلة الشاعر النجفي (محسن الجواهري ١٢٩٥ ـ ١٣٥٥هـ) والتي مطلعها :

الحمدُ لله الذي اولى النعم
واخرج الاشياء من كنز العدم

لذلك يمكن عدها ضمن دائرة رحلاته لانها اتصفت بصفاتها وان كان زمنها قد تأخر قليلاً عنه ، وهي طويلة يمكن مراجعتها في مصادرها[٣٨] .

ومن شعراء مطلع القرن العشرين الذين نظموا في الرحلة (الشعرية) الشاعر (محمد رضا الشبيبي) حين وصف لنا رحلة قام بها عام ١٩١٤م عندما وكان في بعثة عسكرية على حدود العراق

الشرقية[٣٩] متجها الى حلوان فيفيض بوصف الاجواء التي اجتازتها البعثة ، والمصاعب التي تعرضت لها والطرق التي سلكتها من شعاب وكثبان ، ثم من ريح غربية شديدة باردة كانت تضربهم ، كما وصف الجبال التي اجتازوها ، وقال انها مكسّوة بالثلج لشدة ارتفاعها ، وكان قسم منها ذا نبت ، وثالث عريان من الثلج والنبات ، حتى بدت تلك الرواسي في ارتفاعها وتشكيلتها كأنها مدافن ضمت اجداث القرون الغابرة ، وهو خيال طريف وتصوير موفق لهيأة تلك الجبال وهي تلفّ الازمنة والقرون ، وهي ما تزال شاخصة في مكانها لا تتحرك رغم حركة العصور ، مستوحياً ذلك من مدافن مدينته في النجف ورهبتها وقدمها حين يقول :

ولما اجزناها الى الشرق اشرقت
لا عيننا بعد العراقين حلوانُ
تجافت عن السهل السوي واصبحت
تجشمها المسرى شعاب وكثبان
وهبت لنا غربية فتأرجت
من البيد اذ هبت جيوب وارادن
وهل مسعفي بالقرب طول تقلبي
(وبدرة) خلفي والجبال و (جصان)
شواهق بالثلج الكثيف تكللت
كما كللت هام الجبابر تيجان
فمنهن عالٍ مشمخر ودونه
ومنهن كاسٍ بالنبات وعريان
كأن رواسيها مدافن شيدت
وقد دُفنت فيها قرون وازمان

ويسير الشاعر في رحلته الصعبة هذه مع الشعاب والمسالك الوعرة متبعاً اسلوب التوكيد والتفصيل كأنه يريد ان يقنع السامع بصدق المعاناة وشدة الاهوال التي تعرض لها مع اعضاء البعثة حتى بلغ الاعياء معهم مبلغاً شديدا ، فهزلت الركائب وتداعى الركبان من ظهورها واضطر القسم الأخر الى الترجل عنها ،

فيصورها هذا التصوير الدقيق بقوله :

ركائبنا حسرى ، كوابٍ ونهّضُ
ونحن طلاع الارض رجل وركبان

اما بقية الرحلة فممتع لانك لا تحس معه مللاً ، بل تشدك المشاهد وتأخذك[٤٠] التفصيلات التي احسن الشاعر وضعها في وصف مسيرته في هذه الرحلة الشاقة الممتعة ، لانها تمثل معاناة حقيقية وشعور صادق بتعب تعّرض له ، كما لعب الخيال دوره في صياغة الرحلة ، فحسّن الصورة واكسبها تشويقاً وطرافة ، كما ان تشبيهاته جاءت اكثرها معنوية ذهنية ، على ان الجانب الحسي كان فيها واضحاً ايضاً ، وان ذكرياتها كانت ما تزال عالقة في ذهنه ونفسه فسجلها حين عودته الى بلاده ، قبل ان يلف احداثها النسيان .

× × ×

ويجمل الشاعر محمد حسين كاشف الغطاء (١٨٧٦ ـ ١٩٥٤م) رحلته الى مصر حين قصد اليها ، عقب اداء فريضة الحج عام ١٩١١م[٤١] فيصف اولاً سفره (بالقطار) الذي اقله من الحجاز الى بلاد الشام في المرحلة الاولى من رحلته ويسميه (ابن البخار) ، ثم بعدها يصف المرحلة الثانية منها وهي (سفرته الى مصر) بالباخرة ، فيصور اهوال البحر ، وما تعرض له من اتعاب ومشاق ابان الرحلة الطويلة ، حين يقول :

اجشمها اخطار كل مهولة
تماوت فيها الموتُ وانذعر الذعر

كل ذلك بسبب شوقه الى مصر ورغبته في رؤيتها وشدة هواه اليها ، وتحمله المشاق من اجلها ، ويقطع البحر ، وتمر الايام وهو في لججه حتى يكتب الله له الوصول الى مصر ، فيبدي فرحة عارمةً حين وصوله اليها :

هواي الى مصر ، الا هذه مصر
اعودُ الرجا ذاوٍ؟ وعود الهوى نضر

ثم يعود بعد هذا البيت بذاكرته فيصف ماعاناه من اهوال وعناء من اجل حلمه في مصر :

تمطى عليّ البر والبحر دونها
فما عاق عزمي البر عنها ولا البحر
فخضتُ اجاج البحر ، والبحر كالح
وجبت فجاج البر ، والبّر مغبّر
الى ان انالتني ابنة النيل باعه
ومدت لترحيب اصابعه الحمر

لكن مصر ، او الاقامة فيها ـ كما يبدو ـ لم ترق بعد ذلك للرجل ، وانه لم يلق فيها ما كان متأملاً منها ، من حسن الترحيب ، وصدق الحفاوة ، لذلك راح يتشكى من بقية ايامه فيها ، ومن اقامته في ربوعها ، ولم ينشرح صدره فيها ، فعاد يصف خيبة امله فيها ، وانخداعه ببهارجها وما سمعه عنها :

وقد غرني في الليل حسن ابتسامها
ويارب ليث للفريسة يفتّر
واعجبني في وطئها لينّ الثرى
ورب رمادٍ كامن تحته الجمر
فها انا ملقى في حنايا ربوعها
كأني فيها قد تناساني الدهر
نزيل ولا وجه يروق ولا رؤى
وضيف ولا ماء يروق ولا خمر
....
وواسعة لم ينفسح لي صدرها
ولم ينشرح لي قط يوماً بها صدر[١٢]

× × ×

ويصف مهدي بن هادي القزويني الحلي (١٣٠٩ ـ ١٣٦٦هـ) رحلة له بسفينة شراعية انحدرت به مع الفرات من قضاء الهندية حتى الكوفة ومنها الى النجف بعربة تجرها الخيول على سكة الحديد (الترامواي) بارجوزة طويلة بدأها بحمد الله والصلاة على نبيه الكريم (ﷺ) ، ثم يصف انزال الامتعة الى السفينة ، ثم سريانها في النهر ذاكراً بعض المواقع والمدن والعشائر التي مرّ بها ، ذكراً مباشراً خالياً من الخيال ، بعدها وصف تذكره لاهله في الهندية وشوقه لهم ، حتى يصل الى الكوفة فيصف بعدها رحلته البرية بعربة الحديد الى النجف[١٣] .

اما الشاعر كاظم الدجيلي (المولود سنة ١٨٨٤م) فيسلك الطريق ذاته الذي سلكه قبله زميله الحلي في رحلة نهرية اخرى ، ولكن صعودا في الفرات ضد التيار من (الكوفة الى الهندية) ، وهي لاشك رحلة اشق . فالوقوف ضد التيار غير الاستسلام له او المسير معه ، ناهيك عن مقاومته وشقه ، لذلك كانت رحلة الدجيلي اكثر متعة من رحلة الحلي ، واحلى نكهة ، وكان وصفه لها اكثر سبكاً واعظم تشويقاً ، فضلاً عن قدرة الدجيلي الفنية التي تفوق قدرة زميله الحلي ، لانه كان يمتلك خيالاً ارحب ، واداة ادق ، وثقافة اوسع ، فهو قد ركب زورقاً من الزوارق البخارية التي سماها (بنات الماء) جرت فوق سطحه وشقت عبابه فترك على صفحة النهر الهادىء امواجاً عالية تضرب جرفيه بشدة ، والزورق يصعد في الفرات والماء يتحدر تحته ، ثم يصف الطريق الذي مرّ به ، وشواطىء النهر وما نبت عليها من اشجار باسقة ونخيل عالية ، وهامات الصفصاف المتمالية التي تقف على الجانبين بشموخ وكبرياء . وقد تهب الريح فتعبث بغصونها فيكون لها انكسار واعتدال ، اما الزورق فيمضي صامداً صاعداً الى اعلى الفرات من غير ان ينحني للريح ، او يوقفه عتوّ التيار ، (وهكذا يمضي بنا الدجيلي في هذه الرحلة المثيرة وما جاءت عليه من حسن السبك وجمال الصور ورشاقة اللغة . غير ان عنصر الخيال كان فيها قليلاً ، فضلاً عن انه لم يذكر ايّا من المدن التي شاهدها او المواقع التي مرّ بها غير ما وصفه من حسن الطبيعة وجمال النهر وقوة الزورق وارتفاع الموج[١٤] .

× × ×

هذه احدى رحلات الدجيلي داخل العراق ، على ان له رحلات (ثرية) اخرى غيرها الى خارجه «فقد رحل ... رحلات عدة الى ايران وكردستان واطراف العراق وعربستان وجاب القرى ومنازل الاعراب ... وكتب عنهم كتاباً (عام ١٩١١م) ، ما لم يتهيأ لغيره من الرحالين والرواة ... وألف في تلك الرحلة كتاباً ممتعاً ، لكن الكتاب ضاع ... ورحل في ١٩ آذار سنة ١٩١٣ الى الفرات وكربلاء وشفاثا وقصر الاخيضر والنجف وعريسان والشامية والديوانية وكتب فيها كتاباً ... كما

وصف رحلته . . . وما شاهده . . . في تلك البلاد والقبائل واحوال اهلها الاجتماعية وعوائدهم . . . بكتاب آخر باسم ـ رحلة الفرات ـ . . . . »[5]

اما آخر الرحلات (الشعرية) التي نذكرها في هذا البحث مما سجله الرحالة العراقيون الكثيرون في مطلع القرن العشرين ، هي رحلة الشاعر خيري الهنداوي (١٨٨٥ ـ ١٩٥٧م) الذي وصف هو ايضاً رحلة نهرية قام بها في شبابه من بغداد الى الصويرة بمركب بخاري ممتطيا ظهر دجلة اذ «سار به المركب من بغداد صباحاً فوصلها عند الغروب»[6] وتضارع قصيدة الهنداوي هذه في وصف رحلته قصيدة زميله الدجيلي ان لم تزد عليها حسن تصوير ورقة خيال وجمال تشبيه ، فهو يصف بداية الرحلة انها قبيل الصبح عندما كان (الليل يناجي الصباح قبل الشروق) ، ثم يبدأ (الابحار) في النهر اذ يبدأ المسير حين تشرق الشمس فيبدو شعاعها من خلال الاشجار كأنها السيوف اللامعة او (بيضٌ تُسَلُّ في يوم ضيق) حتى اذا ما واصل المركب البخاري سيره ، وتوسط النهار ، تشتد اشعة الشمس حتى ترتد عنها العيون (حُسَّرا عند شدة التحديق) ، وهكذا يصف نهار الرحلة من صباح الاقلاع حتى غروب الوصول ، كما لم يفته ان يذكر معالم الطريق ، ومشاهد الشواطىء ، ومناظر البساتين ، واصطفاف الاشجار وتغريد الطيور ، كما يعود الى وصف منازل الشمس في شروقها وتدرجها منذ الصباح حتى المساء ، فهي في الفجر ما تزال في خدر الافق ، وحين تبزغ فهي كفتاة حيية خجلى ، ثم من ارتفاعها رويداً رويداً حتى يشتد عودها وتقوى شوكتها فتصبر متحدية . حتى لايجسر احد على مواجهتها ، ثم ميلها للغروب بتمهل وذلة وانكسار وهي تمشي حينذاك على استحياء كأنها عذراء تخشى عيون الرقباء ، هذه وغيرها من الصور التي ابدع الشاعر في رسمها . لنستمع الى هذا المقطع من هذه الرحلة الممتعة :

فوق مخّارة تشق عباب الماءِ شقّاً بزفرة وشهيق
ذات كفين يقذفان مياه النهر قذف الصخور بالمنجنيق
لم يكلا طول النهار رفيقاً والدجى يقطعانه بخفوق
رحلت بي من الرصافة والليل يناجي الصباح قبل الشروق
فتبدي للعين قرن من الشمس بدا في تلألؤ وبريق
واكف الشمال تنسج في الماء دروعاً من النسيج الرقيق

× × ×

. . . .[12]

الهوامش والمصادر

١ ـ نقصد بمطلع القرن العشرين : الربع الاول منه

٢ ـ يُنظر عن تلك الرحلات وأزمانها : ادب الرحلات ـ احمد ابو سعد . ص١٧ ـ ٢٢٦ . دار الشرق الجديد ـ بيروت ١٩٦١ .

٣ ـ يُنظر عن نشاط العرب والمسلمين في مجال الرحلات حتى القرن الثامن الهجري : ادب الرحلات عند العرب في المشرق ـ علي محسن مال الله ـ مطبعة الارشاد ـ بغداد ١٩٧٨ ، كما حفلت كتب التاريخ والاخبار بنشاطهم وتحدثت عن رحلاتهم حتى القرن العاشر الهجري .

٤ ـ انظر اخبار الكثير منهم في كتاب : اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ـ لونكريك ـ ترجمة جعفر خياط طبعة ٣ مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٦٢ ، وكذلك في كتب كثيرة مطبوعة تجدها في فهارس المكتبات تحت عنوان (الرحلات) .

٥ ـ لقد طبع هذا السفر الكبير في مطبعة بولاق بمصر سنة ١٣٠١هـ .

٦ ـ انظر عدداً من مؤلفاته في كتاب (المسك والاذفر) لمحمود شكري الالوسي جـ١/١٦ ـ ٢٠ الطبعة الاولى . مطبعة الآداب ـ بغداد ١٩٥٨ . وانظر ترجمة العلامة ابي الثناء الالوسي في المصدر نفسه ص٥ ، وفي نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر ـ الدكتور محمد مهدي البصير ص ٢١٩ ـ ٢٥١ مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٤٦ .

٧ ـ انظر : المسك الاذفر ١٣ ـ ١٤

٨ ـ بدأت الرحلة من غرة جمادي الاخرى سنة ١٢٦٧هـ/١٨٥١م وانتهت في الخامس من ربيع الاول سنة ١٢٦٩هـ .

انظر : المسك الاذفر ١٣ ـ ١٥

٩ ـ منهم صديقه الشاعر البغدادي عبد الغني جميل (١٧٨٠ ـ ١٨٦٣م) الذي قرّظ الرحلة تقريظاً جميلاً في قصيدة طويلة ، واثنى على ما جاء فيها من قصص واخبار وطرائف واسلوب بديعي ، هام به ابناء عصره . قال في اولها :

له من رحلة حارت بها الفِكَرُ
لم تكن في سواها اليوم تفتكر

وجاء فيها :

جلّت عن الوصف لا شيء يشابهها
الّا وكل معانيها لنا غرر

انظر : مجموعة عبد الغفار الاخرس . ص ١٢٧ نشرها عباس العزاوي . بغداد ١٩٤٩

١٠ ـ غرائب الاغتراب ـ شهاب الدين ابو الثناء الالوسي ـ ص٢٥ مطبعة الشابندر ـ بغداد ١٣٢٧هـ

١١ ـ المصدر السابق ص٢٥

١٢ ـ المصدر نفسه ص ١١٣ ومابعدها .

١٣ ـ الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ـ فريق المزهر ال فرعون جـ ١/٥٧ مطبعة النجاح ـ بغداد ١٩٥٢ .

١٤ ـ رحلة في بادية السماوة ـ محمد رضا الشبيبي ص١ مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٦٥

١٥ ـ رحلة في بادية السماوة . ص : هـ .

١٦ ـ المصدر السابق ص١٦

١٧ ـ انظر ترجمته في مقدمة ديوانه : ديوان عبد الجليل البصري الطباطبائي ـ المطبعة السلفية بمصر ١٣٨٦هـ .

١٨ ـ ديوان عبد الجليل البصري . ص٣٧ .

١٩ ـ المصدر السابق ٣٧ ـ ٤٦

٢٠ ـ انظر ترجمة الشاعر في : شعراء بغداد ـ علي الخاقاني ٢/٤١٩ مطبعة اسعد ـ بغداد ١٩٦٢ ،

وشعراء كاظميون ـ الشيخ محمد حسن آل ياسين ١/١٢٧ مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٨٠ ، وقد لقبه الشيخ ال ياسين بـ(الكاظمي) ، بينما لقبه الشيخ الخاقاني بـ (البغدادي) .

٢١ ـ تُنظر الرحلة الكاملة في : شعراء الغري ـ لعلي الخاقاني ٢/٤٢٠ ـ ٤٣٠ ـ المطبعة الحيدرية ـ النجف ١٩٥٤ ، و: شعراء كاظميون ١/١٦٦ ـ ١٧٨

٢٢ ـ شاعر العرب . عبد المحسن الكاظمي ـ للدكتور محسن غياض ص٦٠ ـ وزارة الاعلام ـ بغداد ١٩٧٦

٢٣ ـ هي قصائده : (نعم اهل مصر انتمو خير امة ، و: دعوني اجوب على الفيافي ، ورحلة مصر) انظر : ديوان الكاظمي ـ شاعر العرب ـ المجموعة الاولى/٤٦ ـ ٧٦ نشرها حكمة الجادرجي . الطبعة الاولى . مطبعة ابن زيدون .

٢٤ ـ ديوان الكاظمي ـ شاعر العرب م ١/٤٨ ـ ٤٩ . وقد جاء الشطر الاخير في الديوان : (هذه مصرنا اهرعوا) ، ولكنه جاء في كتاب الدكتور محسن غياض (شاعر العرب ـ عبدالمحسن الكاظمي ص٧٣) :

(هذه مصرنا فاهرعوا) ، فآثرت الثانية لانها اجمل وابلغ وخالية من الزحاف الذي تحمله عبارة الديوان .

٢٥ ـ ديوان الكاظمي ـ شاعر العرب م١/٥٤ ـ ٦٢

٢٦ ـ المصدر السابق م١/٦٣ ـ ٧٦

٢٧ ـ مجلة اليقين (البغدادية) ، لصاحبها السيد محمد الهاشمي جـ ١ السنة الاولى ١٦ نيسان ١٩٢٢ ص١٨ .

٢٨ ـ شعر البند : نوع من الشعر العربي يعتمد التفعيلة بدل نظام الشطرين ، ويكتب على شكل النثر . ينظر عنه : (قضايا الشعر المعاصر) نازك الملائكة ص ١٩٥ الطبعة الخامسة ـ بيروت ١٩٧٨ ، والبند في الادب العربي ـ لعبد الكريم الدجيلي .

٢٩ ـ انظر قسماً منها في : البند في الادب العربي ص ٦٧ ـ ٨١ مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٥٩ . والبابليات ـ لمحمد علي اليعقوبي جـ ٢/٤٩ ـ ٥٣ مطبعة الزهراء ـ النجف ١٣٧٣هـ

٣٠ ـ المقصود بالجسر هنا : جسر الحلة القديم وهو بداية الرحلة .

٣١ ـ البير : منطقة بين الحلة وبغداد في منتصف الطريق تقريباً ، كانت تسمى (خان النصف) او (بير النصف) .

٣٢ ـ ابو يوسف : هو القاضي (ابو يوسف) المعروف ، وجامعه موجود في الكاظمية ، وهو في الاصل داره التي كانت تجتمع اهل الفقه والفضل .

٣٣ ـ الشاهات ـ المقصود به شاهات الفرس ، جمع شاه وهو الملك .

٣٤ ـ النعمان : هو الامام ابو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي .

٣٥ ـ السوق الجديد : المحلة المعروفة في بغداد في جانب الكرخ ، وكان يسكن فيها جماعة الشاعر واصدقاؤه ممن يجتمع بهم من الادباء امثال عبد الغفار الاخرس وعبد الباقي العمري ، وغيرهم .

٣٦ ـ المصدر : مجلة اليقين (البغدادية) جـ ٦ السنة الاولى ١٠ تموز ١٩٢٢ ص١٨٢ ـ ١٨٨ ـ وانظر القصيدة في : البند في الادب العربي ٧١ ـ ٧٢

٣٧ ـ منها مثلا رحلة محمد شرع الاسلام الى ايران سنة ١٨٨٨م . انظر : شعراء الغري لعلي الخاقاني ١٠/٣٥٥ ـ ٣٥٨ ، ورحلة الشاعر عبد الباقي العمري في نهر الفرات ـ انظر : الترياق الفاروقي ص ١٠٠ ، النجف ١٩٦٤ ، ورحلة الشيخ محمد حسن كبة من النجف فالكوفة براً ، ثم عن طريق النهر الى الهندية ومنها الى كربلاء براً ، انظر : نهضة العراق الادبية ٢٨٨ ـ ٢٨٩ ، كما وصف الشاعر محسن الخضري رحلة مهدي القزويني الحلي الى الديار المقدسة سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م انظر ديوان محسن الخضري ص٥٩ ـ المطبعة العلمية ـ النجف ١٩٤٧ ، وغيرها .

٣٨ ـ انظر القصيدة كاملة في : شعراء الغري ٧/٢٤٣ ـ ٢٤٩ ، وانظر ترجمة الشاعر في المصدر نفسه ص ٢٤٠

٣٩ ـ ديوان الشبيبي ـ محمد رضا الشبيبي ص١٢ ، القاهرة ١٩٤٠ .

٤٠ ـ المصدر السابق ١٢ ـ ١٣ ، وحلوان مدينة عراقية تقع شرق العراق بالقرب من بدرة وجصان

٤١ ـ ذكر الشيخ علي الخاقاني في شعراء الغري ٨/١٢٠ : ان كاشف الغطاء سافر عام ١٩١١م الى الحج ، ومن هناك توجه الى الشام ، ثم الى بيروت ومنها الى مصر ومكث في ربوع الشام ومصر في سفرته هذه ثلاث سنوات . انظر ترجمة الشيخ كاشف الغطاء في المصدر نفسه ٨/٩٩ ـ ١٣٤

٤٢ ـ انظر القصيدة كاملة في : الادب العصري في العراق العربي ـ رفائيل بطي ٢/٧٧ المطبعة السلفية بمصر ، القاهرة ١٩٢٣م . وفي شعراء الغري ٨/١٦٤ ـ ١٦٥ .

٤٣ ـ انظر الارجوزة كاملة في : شعراء الحلة ـ لعلي الخاقاني ٥/٣٨١ ـ ٣٨٣ المطبعة الحيدرية ـ نجف ١٩٥٢ ، وانظر ترجمة الشاعر في المصدر نفسه ٥/٣٨٠ .

٤٤ ـ انظر القصيدة كاملة في : الادب العصري ١/٢١٧ ـ ٢١٨ ، وانظر ترجمة الشاعر في المصدر نفسه ١/١٨٧ ـ ١٩٤

٤٥ ـ المصدر السابق ١/١٨٩ ـ ١٩٢

٤٦ ـ خيري الهنداوي ـ الدكتور يوسف عز الدين ص ٢٧٧ الطبعة الثانية ـ مطبعة الشعب ـ بغداد ١٩٧٣ .

٤٧ ـ انظر القصيدة كاملة في المصدر السابق ٢٧٧ ـ ٢٧٨ .

ريف الموصل في مشاهدات ياقوت الحموي
دراسة تحليلية في معجم البلدان

دراسة
يوسف جرجيس الطوني
معهد المعلمين المركزي/الموصل

يُعَدُّ معجم البلدان الذي صنفهُ ياقوت الحموي[1] ، من اهم المصادر البلدانية واكثرها شهرة حتى حقبة الغزو المغولي في اقل تقدير ، وذلك لما ضمهُ من مادة جغرافية وتاريخية وادبية ضخمة ومتنوعة . حيث كانت التجارة والارتحال واكتساب المعرفة ، قد فتحت امامهُ افاقاً واسعة ، مما اعطاه دفعاً قوياً لتوسيع مداركه ، في ميادين المعرفة المختلفة بعامةٍ وفي الميدان الجغرافي بخاصةٍ . فكان ان سافر الى اصقاعٍ كثيرةٍ براً وبحراً ، مثل مناطق الخليج العربي والشام ومصر واذربيجان ، وخراسان وخوارزم ، علاوة على مشاهدتِه الواسعة لمناطق كثيرة من العراق .

وكانت فكرة تصنيف معجم البلدان ، قد تبلورت في مخيلة ياقوت سنة ٦١٥هـ في مدينة مرو ، اي قبل سنة من بدء الاجتياح المغولي لمناطق الشرق الاسلامي ، فدفع هذا الغزو ياقوت الى الخروج من بلاد خوارزم ، منهزماً بنفسهِ ، تاركاً متجرهُ وبعض مسودات معجمهِ طعماً لنهب المغول . وقد قاسى ياقوت في اوبتِهِ ، كثيراً من الشدائد والاهوال ، والتي ذكر جانباً منها ، في رسالةٍ[2] وجهها بعد وصوله الى مدينة الموصل سنة ٦١٧هـ ، الى وزير حلب جمال الدين ابن القفطي ، الذي كان قد تعرف عليهِ ياقوت ، اثناء سفراته التجارية الى بلاد الشام في نهاية القرن السادس الهجري . ولم تطل اقامة ياقوت في الموصل . فتوجه الى سنجار ومنها قصد حلب حيث كانت مُستقره الاخير ، وذلك في احد خاناتها في ربض خارج المدينة . حيث ذهب في تجارة لبعض الوقت الى مصر ، بمعونة من الوزير القفطي[3] ، فحصل خلالها على بعض ارباح اعانتهُ سني حياتِه الباقية التي قضاها في تصنيف معجمهِ ، حتى ادركته الوفاة في العشرين من رمضان سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م

اتسم الجهد الذي بذله ياقوت في معجمه ، بالضخامة حيث بلغ عدد صفحاته الاصلية في الطبعة الاوربية التي اخرجها وستنفلد (٣٨٩٤) صفحة ، والتي توزعت على اربعة مجلدات ضخمة ، فضلاً عن مجلدين كاملين خصهما وستنفلد للتعليقات ، كما ضم المعجم ما يقرب من خمسة آلاف بيت شعري[4] .

وقد اعادت بعض دور النشر العربية ، طبع الكتاب في القاهرة وبيروت ، معتمدة على الطبعة الاوربية ، بعد تجريدها من الحواشي والتعليقات ، مع اجراء بعض التصويبات اللغوية الطفيفة ، والتي ثبتها وستنفلد حيث كانت مألوفة في عصر

ياقوت ، ويمكن ملاحظة ذلك على سبيل المثال عند المقارنة بين طبعة دار صادر البيروتية وطبعة وستنفلد الاوربية .

ان احساس ياقوت بالحاجة الى مرجع عام ، يجمع شتات المادة الجغرافية المعروفة حتى عصره ضمن نطاق موسوعي ، كان احساساً صادقاً ، حيث حدث ان هلك جانبٌ مهمٌ من تلك المادة ، مما اعطى الحق لكراتشوفسكي عند حديثه عن المعجم بقوله[٣] :

« وهو اوسع واهم ، بل واكاد اقول افضل مصنف من نوعهِ ، لمؤلف عربي للعصور الوسطى » .

واذا اقتصرنا في الحديث عن ريف الموصل ، فاننا نجد اهتماماً واضحاً بهذا الريف . بطريقة غير مباشرة من قبل ياقوت ، وهذا الاهتمام متأتٍ من مروره بكثير من مناطق الموصل . ومشاهدته لكثير من قراها ومواضعها ، لذا جاءت مادته عن ذلك على درجة عالية من الوضوح والحيوية . كما ان مروره بمناطق الموصل ، هيأ له فرصة التعرف وعقد الصداقة مع عدد من اعلام الموصل وريفها ، مثل ابناء الاثير ، ومحمد بن نفضلون العدوي العُقْري الذي وصفهُ بالصديق ، حيث افاد من هؤلاء في كثير من المواضع البلدانية المتعلقة بريف الموصل . كما ان علاقته الوثيقة بابن الاثير المؤرخ ، دفعته الى ان يعهد اليه حينما التقى به آخر مرة بحلب قبل وفاته ، بايصال كتبه التي اوقفها على مسجد الزيدي الذي بِدَربِ دينار ببغداد . وسنحاول من خلال الفقرات الاتية تحليل المواد البلدانية الواردة في معجم ياقوت ، وتوضيح جانب من مشاهداته في ريف الموصل ، مع الاشارة الى بعض عناصر القوة في مادته البلدانية ، علاوة على الهفوات التي وقع بها .

اولاً : بلدانية الموصل في المعجم :

ان جملة ما افرده ياقوت لبلدانية الموصل وريفها ، يربو على (٢٠٠)[٦] مادة بلدانية متنوعة ، بين مدينةٍ وبلدةٍ وناحية وقريةٍ وديرٍ وجبلٍ ونهرٍ وعين ماء ، وغير ذلك ، وهو ايراد كبير ، اذا علمنا ان غيرهُ من البلدانيين او المؤرخين ، لم تحو مؤلفاتهم هذا العدد الكبير من هذه المواد ، في عصر كانت امارة الموصل الزنكية قد بلغت ، درجة كبيرة من السعة والاستقرار ، حيث كانت تمتد من مناطق شمال تكريت حتى جنوب ديار بكر وماردين واسعرد ، ومن نهر الزاب الكبير شرقاً حتى خابور الفرات غرباً . ومن خلال تقصينا ومراجعتنا للمعجم تمكنا من الوقوف على هذه المواد البلدانية ، التي وردت فيه ، وقد ارتأينا توزيعها على النحو الآتي .

١ ـ المدن والبلدان : اورد ياقوت في معجمه سبع مواد تُمثل مدناً وهي : خرزاد اردشير ، رأس العين ، سنجار ، السن ، الكحيل ، الموصل ، نصيبين .. وذكر ياقوت عشر مواد بلدانية بصيغة «بلد» هي : آلال ، برزمهران ، بلد[٧] ، بوازيج ، جزيرة ابن عمر ، حُر ، الحسنية ، دارا ، المكارية . كما ذكر احدى عشرة مادة اخرى بصيغة «بُليد» هي : باشزي[٨] ، برقعيد ، بومارية ، الثمانين ، حديثة الموصل ، سكير العباس[٩] ، طور عبدين[١٠] ، فيشخابور ، محلبية ، معلثايا .

٢ ـ القرى : ذكر ياقوت ثلاثاً وعشرين بلدانية بصيغة «قرية كبيرة» وهي باجبارة ، باخديدا ، باصفرا ، باعشيقا ، باعيناثا ، باوشنايا ، برطلّ ، تل اسقف ، جُدال ، جُهينة ، حصى ، خلبثا ، دوغان ، الدولعية ، السلامية ، السميعية ، العمرانية ، الفضلية ، كرمليس ، اللبن ، المراوزة ، مَرَقّ ، نيربا ، كما ذكر ياقوت ثماني واربعين مادة اخرى بصيغة «قرية» هي : إبيان ، أذرمة ، باجدا ، باجربق ، بارما ، بارنجان ، باشمنايا ، باعذرا ، باعربايا ، بافخارى ، بامردني ، بلاباذ ، بيسان ، ترجلى ، تل خوسا ، تل زبدى ، توماثا ، جوجر ، حريش ، خالدية ، خرستاباذ ، خيرين[١١] ، دير سابا ، دير صلوبا ، زابات[١٢] ، الزاوية ، شرملة ، العاصمية ، العرادة ، العقر[١٣] ، غرسة ، قبراثا ، القبيصة ، قردى[١٤] ، قناة الكار ، كراثا ، كرمية ، كفرزمار[١٥] ، لهيم ، ليلش ، مدبج ، المؤنسة ، النقيعية ، نينوى ، واسط[١٦] .

٣ ـ النواحي والقلاع : ـ ورد في معجم ياقوت اثنتي عشرة ناحية مرتبطة بريف الموصل هي : آنج ، باسورين ، بافكى ،

باقردي ، بسومة ، جبثا ، جومل ، الحنانة[١٧] ، عزا ، غبضة (الكس) نخلا ، اما القلاع التي تم حصرها في المعجم ضمن ريف الموصل فقد بلغت عشرين قلعة هي : اثيل : آشب ، اردمشت ، آروخ ، القى ، باخوخا ، باز الحمراء ، برخو ، تل اعفر[١٨] ، الجديدة ، جرذقيل ، الجلانية ، جل صورى ، خوشب ، علوس[١٩] ، العمادية ، فنك ، قيمر ، نيروة ، هرور .

٤ ـ الاديرة : ـ ذكر ياقوت اربعة وعشرين ديراً ضمن مناطق الموصل هي : دير ابون ، ديرابي يوسف ، الدير الاعلى دير آكمن ، دير باشاوا ، دير باعربا ، دير باعوث[٢٠] ، دير باطا ، دير بانخايل[٢١] ، دير الجودي ، دير الخنافس ، دير الزعفران ، دير سعيد ، دير الشياطين ، دير الكلب[٢٢] ، دير كوم ، دير متى ، دير ملكيساوة ، دير متصور ، دير النمل ، دير يونس ، عمر الزعفران .

٥ ـ المواضع والجبال والاودية والانهار والعيون : ـ ذكر ياقوت اثنتي عشرة مادة بلدانية بصيغة «موضع» وهي : باجيرى ، بلاليق ، تل التمر ، تل التوبة[٢٣] ، حزة ، سلوطح ، سهاب ، العجاج ، عربايا ، كشاف ، ياسورين . كما تخلل هذه البلدانيات ست مواد مستقلة بصيغة جبل وهي : التين ، الجار[٢٤] ، الجودى ، داسن ، السلق ، طورزيتا ، كما ذكر خمسة وديان هي : الثرثار ، ثوير ، الخوسر ، وادي الزمار ، وادي الشياطين . واورد ايضا اربع مواد بلدانية بصيغة «نهر» هي : بريشو ، الخازر ، الخابور[٢٥] ، الزاب ، كما اورد ثلاث مواد اخرى بصيغة «عين ماء» هي : حمام علي ، الزاهرة ، القيارة . علاوة على مواد اخرى تتعلق ببعض تسميات مدينة الموصل ومحلاتها ، مثل الحدباء[٢٦] والراوند[٢٧] ، ودرب دراج[٢٨] ومنطقة مرج الموصل[٢٩] .

٦ ـ مواد بلدانية اخرى : ـ

ذكر ياقوت بلدانيات اخرى عرضاً . فعند حديثه عن ناحية بافكى[٣٠] اشار الى عدد من قرى هذه الناحية مثل تل عيسى وبيت رثم ، والقادسية والزراعة والسعدية . كما اشار في مادتي الخازر والزاب عن قرى اخرى مثل اربون وباشزى[٣١] . واشار الى قلعة بشير عند حديثه عند الزوزان[٣٢] . ونورد هنا نموذجاً لاشاراته العرضية في مادة باعشيقا فعند انتهاء حديثه عنها قال[٣٣] : «والى جنبها قرية اخرى كبيرة ذات اسواق وبساتين متصلة» ولم يُسم ياقوت هذه القرية ، وقد اراد بها قرية «باحزاني» المتصلة اليوم ببلدة باعشيقا .

ثانيا : مشاهدات ياقوت في ريف الموصل :

يتضح من خلال دراسة حياة ياقوت الحموي ، ومتابعة بلدانيه التي اوردها في معجمه عن ريف الموصل ، عمق الصلة التي ربطتهُ بكثير من تلك البلدانيات ، وذلك من خلال زيارته للموصل ومروره بها ، مرات عديدة جيئة وايابا من الشام الى اواسط اسيا ، كما انه كان على اتصال مباشر بريف الموصل ، من خلال مشاهداته لكثير من قرى وبلدان الموصل ، علاوة على كثير من مواضعها وجبالها وانهارها واوديتها لذا جاءت مادته عن الموصل وريفها ، جامعة بين مشاهداته وملاحظاتهِ وسماعاتهِ ، ومشاهدات وملاحظات وسماعات مؤرخين وبلدانيين سبقوه في ميدان التأليف ، حيث ادخل جوانب بلدانية ومعلوماتية متنوعة في معجمه ، وهذا التنوع والشمول نجده واضحا في الجوانب الزمانية والموضوعية ، خصوصاً عندما كان يتهيأ لياقوت رصيدُ من المعلومات عن البلدان الرئيسة والمشهورة . وخاصيّة التنوع والشمول نجدها واضحة عند حديث ياقوت عن مدينة الموصل حيث قال[٣٤] : «المدينة المشهورة العظيمة ، احدى قواعد بلاد الاسلام ، قليلة النظر كبراً وعظماً وكثرة خلق وسعة رقعة ، فهي محط رحال الركبان ، ومنها يقصد الى اذربيجان ، وكثيراً ما سمعت ان بلاد الدنيا ثلاثة : نيسابور لانها باب الشرق ، ودمشق لانها باب الغرب ، والموصل لان القاصد الى الجهتين قلّ ما لا يمر بها » ويتابع ياقوت سماعته بما كان يجده في مصنفات العلماء والادباء كما في قوله[٣٥] : «وكثيراً ما وجدت العلماء يذكرون في كتبهم ان الغريب اذا اقام في بلد الموصل سنة تبين في بدنهِ فضل وقوة . . . . وما نعلم لذلك سبباً الا صحة هواء الموصل وعذوبة مائها . . . . وليس للموصل عيب ، الا قلة

بساتينها وعدم جريان الماء في رساتيقها ، وشدة حرّها في الصيف وعظم بردها في الشتاء ، فاما ابنيتهم فهي حسنة جيدة ، وثيقة بهية المنظر ، لانها تبنى بالنورة والرخام ، ودورهم كلها ازاج وسراديب مبنية ، ولا يكادون يستعملون الخشب في سقوفهم البته ، وقل ما عدم شيء من الخيرات في بلد من البلدان الا ووجد فيها» .

وتبرز الدقة والحيوية في مشاهدات ياقوت عندما يعقد مقارنات بين ما كتبهُ بعض البلدانيين في الحقب السابقة وبين ما كان يلاحظهُ من خلال زياراتهِ الميدانية لكثير من قرى الموصل . فعلى سبيل المثال بعد ان ينقل ياقوت مشاهدات احمد بن الطيب السرخسي(٣٦) عند بلدة اذرمة ، يُدّون ما لاحظهُ اثناء زياراتهِ ، حيث قال(٣٧) : «واذرمة من ديار ربيعة : قرية قديمة اخذها الحسن ابن عمر بن الخطاب التغلبي من صاحبها وبنى قصراً وحصنها . قال احمد بن الطيب السرخسي الفيلسوف في كتاب له ، ذكر فيه رحلة المعتضد الى الرملة لحرب خمارويه ابن احمد بن طولون ، وكان السرخسي في خدمتهِ ، ذكر فيه جميع ما شاهده في طريقهِ ، في مضيِّهِ وعودهِ ؛ فقال : ورحل يعني المعتضد من برقعيد الى اذرمة وبين المنزلين خمسة فراسخ ، وفي اذرمة نهر يشقها وينفذ الى اخرها . والى صحرائها يأخذ من عين على راس فرسخين منها وعليه في وسط المدينة قنطرة معقودة بالصخر والجص ، وعليه رحى ماء وعليها سوران واحد دون الاخر وفيها رحبات وسوق قدر مائتي حانوت ولها باب حديد ، ومن خارج السور خندق يحيط بالمدينة وبينها وبين السميعية قرية الهيثم بن المعمّر فرسخ عرضاً ، وبينها وبين سنجار في العرض عشرة فراسخ انتهى قول السرخسي . واذرمة اليوم من اعمال الموصل من كورة تعرف بين النهرين بين كورة البقعاء نصيبين ، ولم تزل هذه الكورة من اعمال نصيبين ، واذرمة اليوم قرية ليس فيها مما وصف شيء» .

وضمن السياق الذي سار عليه ياقوت في وصفه لأذرمة ، نجده ينقل تفاصيل كثيرة ووافية عند حديثه عن بلدة برقعيد ، من مشاهدات رحالة سبقوه ، ثم يعقب ذلك بما شاهدهُ اثناء مرورهِ بالقرية ، علاوة على ايراده سماعات اخرى ، كان قد تلقاها من بعض مجاوري القرية ، حيث قال(٣٨) : «بليدة في طرف بقعاء الموصل من جهة نصيبين مقابل باشزى ، قال احمد بن الطيب السرخسي : برقعيد بلدة كبيرة من اعمال الموصل من كورة البقعاء وبها ابار كثيرة عذبة وهي واسعة وعليها سور ولها ثلاثة ابواب باب بلد وباب الجزيرة وباب نصيبين وعلى باب الجزيرة بناء لايوب بن احمد وفيها مائتا حانوت . قلت انا كانت هذه صفتها في قرابة سنة ٣٠٠ بعد الهجرة وكان حينئذ تمر القوافل من الموصل الى نصيبين عليها ، فاما الان فهي خراب صغيرة حقيرة واهلها يضرب بهم المثل في اللصوصية ، يقال لص برقعيدي وكانت القوافل اذا نزلت بهم لقيت منهم الامرين ، حدثني بعض مجاوريها من اهل القرى ان قفلاً نزل تحت جدرانها احترازاً وربط رجل من اهل القفل حماراً له تحت ذلك الجدار خوفاً عليه من السرّاق وجعل الامتعة دونه واشتغلوا بالعسس وحراسة ما تباعد عن الجدار لانهم امنوا ذلك الوجه ، فصعد البرقعيديون على الجدار والقوا على الحمار الكلاليب وانشبوها في برذعتهِ واستاقوه اليهم وذهبوا به ولم يدربه صاحبه الى وقت الرحيل ، فلما كثرت منهم هذه الافاعيل تجنبتهم القوافل وجعلوا طريقهم الى باشزى وانتقلت الاسواق الى باشزى وبين برقعيد والموصل اربعة ايام وبينها وبين نصيبين عشرة فراسخ ، ومن برقعيد هذه كان بنو احمد التغلبيون سيف الدولة واهله» ولكي تكتمل الصورة التي اوردها عن برقعيد ، نجدهُ يستعين بعدد من النصوص الشعرية التي قيلت في بعض رؤسائها ، مع ترجمة لبعض اعلامها المبرزّين .

ومما يلاحظ في بعض مواد ياقوت البلدانية المتعلقة بريف الموصل ، اشاراته الصريحة والواضحة عن مشاهدتها ؛ حيث قال عن قرية باجبارة(٣٩) : «وقرية في شرق مدينة الموصل على نحو ميل ، وهي كبيرة عامرة ، فيها سوق وكان نهر الخوسر قديماً يمر بها تحت قناطرها وهي باقية الى هذهِ الغاية وجامعها مبني على هذهِ القناطر رأيتها غير مرة» وقال عن قرية دوغان(٤٠) «وقرية كبيرة بين راس العين ونصيبين ، كانت سوقا لاهل الجزيرة يجتمع اليها اهلها في كل شهر مرة ، وقد رأيتها انا غير مرة ولم اربها سوق» .

كما تظهر دقة الوصف في كثير من المواضع التي ذكرها ياقوت ، وذلك من خلال المعاينة المباشرة لها ، وهذا ما نجده

واضحاً عند حديثه عن وادي الشرثار بقوله[1] : «واد عظيم بالجزيرة ، يمد اذا كثرت الامطار ، فاما في الصيف فليس فيه الا مناقع حامية وعيون قليلة ملحة ، وهو في البرية بين سنجار وتكريت ، كان في القديم منازل بكر بن وائل ، واختص باكثره بنو تغلب منهم ، وكان للعرب بنواحيه وقائع مشهورة ، ولهم في ذكره اشعار كثيرة ، رأيته انا غير مرة ، وتنصب اليه فضلات من مياه نهر الهرماس ، وهو نهر نصيبين ويمر بالحضر مدينة الساطرون ، ثم يصب في دجلة اسفل تكربت ، ويقال ان السفن كانت تجري فيه ، وكانت عليه قرى كثيرة وعمارة فاما الان فهو كما وصفت» .

وليست غايتنا هنا حصر مشاهدات ياقوت في ريف الموصل ، بل ابراز مجموعة من الشواهد ، التي تظهر بوضوح حضوره الفعلي في كثير من بلدان الموصل ومناطقها . وفضلاً عن ذلك فان حيوية المادة التي اوردها وحداثتها ، قد جاءتنا ايضاً من خلال تقصي اخبارها ، عن طريق السماع من رجال عصره البارزين ، مع نقله ما كان مالوفاً على السنة الناس . ففي حديثه عن العمرانية قال[2] «قرية كبيرة وقلعة ..... والقلعة آلت الى الخراب» وقوله عن دير عبدون[3] «قرب جزيرة ابن عمر وبينهما دجلة ، وقد خرب الان ، وكان من احسن متنزهاتها» . وقوله عن دير كوم[4] «قريب من العمادية من بلاد الهكارية ، من اعمال الموصل بالقرب من قرية يقال لها كوم ينسب اليها الدير وهو عامر الى الان» وقوله عن قلعة جرذ قيل[5] : «قلعة من نواحي الزوزان .... افاديتها الامام ابو الحسن على بن محمد بن عبد الكريم بن الاثير الجزري» . وقوله عن العقر الحميدي[6] : «.....وينسب اليها جماعة منهم صديقنا الشهاب محمد بن فضلون» . ويمكن متابعة صلة ياقوت ببلدان الموصل ، من خلال ملاحقته تسميات كثير من المواد البلدانية ، وخصوصاً تلك التي تعود الى اصول عراقية قديمة من اشورية وارامية ، عن طريق تقصي معانيها من بعض سكان تلك المناطق التي مر بها . فعلى سبيل المثال قال عن العُمر[7] : «فهو الدير للنصارى» وعن الطور بقوله[8] «وبلسان النبط كل جبل يقال له طور» وعن بريشو بقوله[9] «اسم لنهر الخازر الذي بين الموصل واربل» . وقوله[10] : «واهل نخلا يسمون الخازر بريشوا» ولم ينس ياقوت ما كان يطرأ على تسميات بعض القرى من تغيير فكان يورد ذلك كما في قوله عن قرية كراثا بقوله[11] : «قرية من قرى الموصل بينها وبين جزيرة ابن عمر ، تعرف اليوم بتل موسى ، وكان موسى تركمانياً ولي الموصل من قبل السلجوقية وقتل هناك ودفن على تلها فعرفت بذلك ، وذلك في ايام كربوغا على الموصل» .

هكذا فاننا نجد ياقوت يجمع في منهجه البلداني في غالب الاحيان ، بين حداثة وحيوية المعلومات ، وبين نصوص تاريخية وادبية وجغرافية سابقة ، بعضها يرجع الى عصور متقدمة في سبقها التاريخي لحقب ما قبل الاسلام والعصور الاسلامية الاول ، فعلى سبيل المثال فانه من جملة الخصائص التي رافقت بلدانية ياقوت في مواضع كثيرة من معجمه ، استخدامه للشواهد الشعرية وتوظيفها خدمة لاغراض البلدانية ، حيث ان استعانته بهذه الشواهد والتي لم يكن مجيئها اعتباطاً ، كما انه لم تفرضها ثقافته الواسعة وذوقه الادبي الرفيع ، جاءت شيئا ملازماً ومكملاً لمنهجه ، من حيث خدمة مواد المعجم فبعد ان ينقل مشاهداته عن احدى محطات القوافل على طريق الموصل ـ نصيبين ، يورد اشارة عنها في ادب ما قبل الاسلام حيث يقول[12] : «قرية كبيرة عامرة على تل عال ، وعندها خان حسن عامر ، واهلها نصارى ، بينها وبين الموصل مرحلتان ، وهي على طريق القوافل رأيتها غير مرة ، ولها ذكر في الشعر القديم ؛ قال رجل من بني حُيي من النمر بن قاسط يقال له دِثار يهجو رجلاً من بني زبيد يقال له خالد :

ايا جبلي سنجار ! هلا دققتما
بركنيكما انف الزبيدي اصمعا
لعمرك ما جاءت زبيد لهجرة
ولكنها جاءت ارامل جوعا
وتبكي على ارض الحجاز ، وقد رأت
جرائب خمساً من جُدال فاربعا»

ومن اجل ان يكمل ياقوت هذه الصورة الشعرية نجده يستعين بهذه الابيات في مواد بلدانية اخرى ، مثل سنجار كما انه يضيف اليها مقاطع اخرى كانت هي السبب في ذكر الابيات السابقة ، حيث قال في مادة سنجار[٥٣] : «قال ابو عبيدة : قدم خالد الزبيدي في ناس معه من زبيد الى سنجار ومعه ابنا عم له يقال لاحدهما صابىء وللاخر عويد ، فشربوا من شراب سنجار ، فحنوا الى بلادهم فقال خالد :

ايا جبلي سنجار ما كنتما لنا
مقيضاً ولا مشتى ولا متربعا
ويا جبلي سنجار هلا بكيتما
لداعي الهوى منا شنين ادمعا
فلو جبلا عوج شكونا اليهما
جرت عبرات منهما او تصدعا
بكى يوم تل المحلبية صابىء
والهى عويداً بثه فتقنعا

ثالثا : الدقة والانفراد وبعض الهفوات :

يمكن للباحث الوقوف على كثير من النصوص الصريحة المتعلقة باعمال الموصل وكورها وتبعية كثير من تلك البلدان لامارة الموصل الزنكية ، وذلك من خلال متابعة ياقوت في معجمه كما في قوله عن اردمشت[٥٤] : «وهو الان لصاحب الموصل» وقوله عن قلاع[٥٥] آروخ والقى وباخوخا : «لصاحب الموصل» وقوله عن قلعة الجديدة[٥٦] : « اسم قلعة في كورة بين النهرين التي بين نصيبين والموصل واكثر ما تكون لصاحب الموصل غالباً» .

كما يقدم ياقوت مادة طيبة في الجانب الاجتماعي ، وذلك من خلال اشاراته الكثيرة ، الى قبور الاولياء والصالحين ، والاديرة التي يسجل عنها زيارة الناس لها وخروجهم للمتنزهات ، كما اورد نصوصاً عن الحوادث والقصص الغريبة ، لاضفاء المتعة والسرور والاستغراب على نفس القارىء . ومن ذلك قوله عن بلد (اسكي موصل)[٥٧] : «وبها مشهد عمر بن الحسين بن علي بن ابي طالب» . كما اورد نصوصا كثيرة عن الاديرة التي يقصدها الناس للشفاء والراحة ومن ذلك قوله عن الدير الاعلى[٥٨] : «انه يبرىء من الجرب والحكة والبثور» واشارته عن بئر في دير باطا[٥٩] لفائدتها في معالجة البهق ، ومجيء الناس الى دير الجب[٦٠] لاجل الصرع ، واشارته الى ضيافة المجتازين بدير باعربا[٦١] .

وعلاوة على ذلك فقد افصح في ذكر بعض الجوانب الدينية المتعلقة ببعض القرى ، كما في حديثه عن قرية باخديدا بقوله[٦٢] : «قرية كبيرة كالمدينة من اعمال نينوى ، في شرق مدينة الموصل ، والغالب على اهلها النصرانية» وقوله عن باعشيقا[٦٣] : «من قرى الموصل ، وهي مدينة من نواحي نينوى في شرق دجلة ، لها نهر جارٍ يسقي بساتينها وتدار به عدة ارحاء ، وبها دار امارة . . . . ولها سوق كبير فيه حمامات قيسارية ، يباع فيها البز وبها جامع كبير حسن له منارة ، وبها قبر الشيخ ابي محمد الراذاني الزاهد وبينها وبين الموصل ثلاثة فراسخ او اربعة واكثر اهلها نصارى» وقوله عن برطلي[٦٤] : «والغالب على اهلها النصرانية» . كما يقدم اشارات اخرى عن البيع والجوامع والكنائس كما في قوله عن تل التوبه[٦٥] : «وهو تل فيه مشهد يزار ويتفرج فيه اهل الموصل كل ليلة جمعة» وقوله عن بلدة السن[٦٦] : «مدينة على دجلة فوق تكريت ، لها سور وجامع كبير وفي اهلها علماء ، وفيها كنائس وبيع للنصارى ، وعند السن مصب الزاب الاسفل» . ويقدم ياقوت نصوصاً اخرى عن الطوائف التي كانت تقطن في بعض مناطق الموصل كما في قوله عن جبل داسن[٦٧] «فيه خلق كبير من طوائف الاكراد يقال لهم الداسنية» وقوله عن الزوزان[٦٨] : « واهلها أرمن وفيها طوائف من الاكراد» .

وفي الجانب الاقتصادي نجد اشارات كثيرة الى العيون والابار والبساتين كما في[٦٩] : سنجار وابو ماريا وتل اعفر وراس العين وباعشيقا وترجلى وخلبتا وباعيناثا ودارا والمراوزة ونيربا وواسط وخرستاباد وغرسة والفضيلية والسلامية ، واشار الى قرية باصفرا بقوله[٧٠] : «قرية كبيرة في شرق الموصل في لحف الجبل

كثيرة البساتين والكروم ويجيء عنبها في وسط الشتاء» كما اشار الى برطلة بقوله[٧١] «قرية كالمدينة في شرق دجلة الموصل من اعمال نينوى كثيرة الخيرات والاسواق والبيع والشراء يبلغ دخلها كل سنة عشرين الف دينار حمراء . . . . ولهم بقول وخس جيد يضرب به المثل وشربهم من الابار» ، علاوة على شهرة السلامية[٧٢] بالكروم والنخل الكثير ، وشهرة سنجار[٧٣] بالنخيل والترنج والنارنج ، ومناطق شرملة[٧٤] بحب الرمان الشوشي وقلعة هرور[٧٥] بالعسل .

وقد اورد ياقوت نصوصاً كثيرة عن اسواق الموصل وقيسارياتها فعلى سبيل المثال كان لباعشيقا[٧٦] سوق كبير فيه قيسارية يباع فيها البز . اما غيفة[٧٧] فكان يحصل منها ما يزيد على خمسة آلاف دينار من خشب وقصب ومستغل ارض وارحاء . وكانت السلامية[٧٨] من اكبر قرى الموصل واحسنها وكان فيها عدة حمامات وقيسارية للبز . كذلك اشتهرت قرى باجبارة[٧٩] والفضلية[٨٠] والسّن[٨١] باسواقها ايضاً .

وقدم ياقوت اشارات مهمة الى محطات القوافل الرئيسة التي كانت تتوفر فيها خانات المسافرين واحواض المياه ، اضافة الى تزويدها بكثير من حاجيات المسافرين ، لهذا كانت قوافل التجارة الرئيسة تجتاز مناطق ريف الموصل . ومن محطات القوافل الرئيسة قرية بلاباذ[٨٢] في شرق الموصل التي كانت : «تنزلها القفول وبها خان للسبيل وهي بين الموصل والزاب» كما كانت قرية مرق[٨٣] «قرية كبيرة على طريق نصيبين من الموصل تنزلها القوافل بينها وبين الموصل يومان» . وكذلك الحال بالنسبة لقرية العرادة[٨٤] الواقعة بين راس العين ونصيبين والتي كانت تنزلها القفول .

هكذا نلاحظ ان مادة ياقوت المتعلقة بريف الموصل ، قد جاءت على درجة كبيرة من الدقة والوضوح والانفراد ، في كثير مما اورده ، كما في اذرمة وباجبارة وبازبدى والخازر والسلامية وغيرها . فضلاً عن ذلك فان ياقوت يكاد يكون من القلائل بين اهل التصنيف في انفراده باشارات مهمة واساسية الى كثير من نواحي الموصل وقراها مثل : باخديدا وباصفرا وبافكى وبلاباد وبرطلى وبيسان[٨٥] وبريشو وتل اسقف[٨٦] وجبشا[٨٧] وشرملة ونخلا والنفيعية[٨٨] وباسورين[٨٩] : فضلا عن حيوية المادة التي يقدمها في بلدانيات اخرى مثل : بارما[٩٠] وباشمنايا[٩١] وباعشيقا وبرقعيد وجهينة[٩٢] وحديثة[٩٣] الموصل وخلبتا[٩٤] ودير مقى[٩٥] والسلامية والفضلية والمحلبية[٩٦] وغيرها .

ومن جهة اخرى فان ضخامة مادة المعجم ، قد جعلت بعض موادهِ البلدانية يتسم بالاقتضاب وينقصه الوضوح ، فضلا عن ان دقته في مادته المعجمية لم تمنعه من الوقوع باخطاء في تحديد مواقع بعض البلدانيات : فعلى سبيل المثال : قال عن كفر عزا[٩٧] : «ناحية من اعمال الموصل» وقوله عن حزة[٩٨] : «بليدة قرب اربل من ارض الموصل» وهما موضع واحد كان تابعا لاربل من الناحية الادارية وذلك في ايام ياقوت الحموي . كما توهم ياقوت حينما جعل رافد الخازر[٩٩] يصب في دجلة لان الخازر يصب في الزاب الاعلى قبل مصب الاخير بنهر دجلة ببضعة اميال . كما ان تحديده لموضع قلع اردمشت[١٠٠] بعيد عن الدقة ، حين جعلها من قلاع جزيرة ابن عمر على جبل الجودي ، اي داخل حدود تركيا حالياً ، والصحيح ان هذه القلعة تقع ضمن حدود العراق الاقليمية على سفوح الجبل الابيض في ناحية السليفاني التابعة لمحافظة دهوك . وقال ياقوت عن قرية لُك[١٠١] : «قرية قرب الموصل من اعمال نينوى في الجانب الغربي» حيث يظهر الارتباك واضحاً في هذا النص اذ المعروف ان اعمال نينوى تقع في الجانب الشرقي من الموصل . ومما يؤيد ذلك قول ياسين العمري[١٠٢] «اللك عامرة واهلها مسلمون وهي وقف نبي الله يونس عليه السلام» كما ان هذهِ القرية موجودة اليوم ضمن قرى قضاء الحمدانية[١٠٣] ، وبقايا اثار اللك القديمة التي ذكرها ياقوت تقع عند القرية الحالية .

ومن بين هفوات ياقوت او هفوات النساخ والمحققين اشارة تتعلق بقلعة علّوس[١٠٤] تجعلها من قلاع ناحية الارزن . وهو خطأ واضح لان علوس من قلاع نواحي الزوزان ، التابعة للموصل . كما نجد عدم توفر الدقة عند تحديد موقع دير الخنافس[١٠٥] على الرغم من ان ياقوت قد نقل هذا النص من

ديارات الخالدي ، حيث جاء في المعجم «قال الخالدي : هذا الدير بغربي دجلة على قلة جبل شامخ» والجدير بالذكر ان هذا الدير يقع شرق دجلة على قمة جبل عين الصفرة ، على يسار الطريق المودي الى اربيل من جهة الموصل ، واثار هذا الدير شاخصة على قمة الجبل .

ان ما اوردناه من هفوات تخللت بعض بلدانيات المعجم المتعلقة بريف الموصل . امر طبيعي بالنسبة الى جهد عظيم مثل معجم البلدان ، كما ان هذه الاخطاء وغيرها في مواضع واقاليم اخرى تطرق الى ذكرها المعجم ، لا تقلل من الاهمية الكبيرة التي يتمتع بها معجم ياقوت ، لان جانباً كبيراً من تلك الاخطاء ، لايمكن عزوها الى ياقوت نفسه ، بل الى بعض النساخ الذين كانت تعوزهم الثقافة والخبرة والدربة ، علاوة على المحققين والناشرين الذين يتحملون مسؤولية كبيرة ، في ضبط النص والتعليق عليه واثبات الصواب في اصل النص ، وتدوين ما هو غلط او ضعيف في الهامش ، اللهم الا اذا كانت النسخة بخط المؤلف . وينطبق هذا القول على معجم البلدان لان الكتاب قد حقق منذ زمن بعيد ، حيث طبعه المستشرق الالماني وستنفلد بين عامي ١٨٦٧ - ١٨٧٣م ، اي في وقت لم تكن ادوات التحقيق وضبط النص قد اكتملت بعد[١٠٦] . كما ان بعض دور النشر التجارية قد تلقف طبعة وستنفلد ، فجردتها من جميع الهوامش والتعليقات والفهارس . وعلى اية حال فان الاخطاء التي وردت في معجم ياقوت ، تبقى محدودة جداً ، اذا ما قورنت بالاخطاء الكثيرة ، التي تخللت كتاب «معجم ما استعجم»[١٠٧] لابي عبد الله البكري الاندلسي ، الذي لحقه الكثير من التصحيف علاوة على ان الاخير يفتقد الى عنصر الموازنة التي نجدها في معجم ياقوت . وبذا يمكن القول ان فن المعاجم قد وصل الى درجة كبيرة من النضج والارتقاء على يد ياقوت الحموي الذي حفظ لنا من خلال معجمه مادة هامة في محيط المعرفة الجغرافية والتاريخية والادبية ، كما ان اهمية معجم ياقوت لا تقف عند حدود ما اضاف من مادة الى كتب البلدان وما دونه من مشاهدات في اسفاره ورحلاته ، وما امتازت به مادته من تنوع وشمول ؛ بل ان بعضاً من تلك الاهمية يكمن في حفظه لكثير من الشذرات المتعلقة ، بكتب الرحالة والبلدانيين ممن لم تصل الينا كتبهم .

واخيرا لابد من القول ، انه بعد دراستنا للمواد البلدانية ذات العلاقة بالموصل وبلدانها في هذا المعجم ، يمكن متابعة وتشخيص البلدانيات ، التي لم يرد ذكرها فيه ، وتلك مسألة على غاية من الاهمية ، وهي كثيرة جداً ، لذا سنحاول في دراسة لاحقة ، القيام باستدراك عليها . كما اننا بدراسة مواد المعجم الموصلية ومستدركها ، يمكن الوصول الى مجموعة من الحقائق التي توضح ، مقدار التغير الذي طرأ على بلدان الموصل وتسمياتها ، ونشاط تلك البلدانيات في حقب العباسيين المتأخرة ، ومقارنة ذلك بحقب السيطرة الاجنبية اللاحقة ، وهذا ما سنتناوله في دراسة اخرى ان شاء الله .

الهوامش والمصادر

١ - ولد ياقوت في حدود سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م وعاش شطراً كبيراً من حياته الاولى ببغداد ، وبسبب اشتغاله بالتجارة فقد انتقل في ارجاء واسعة من الشرق الاسلامي وقبل وفاته بعشر سنوات ، استقر في حلب صارفاً اكثر وقته لانجاز معجمه البلداني ، مع العمل في التجارة بين الشام ومصر . ينظر : ترجمته المفصلة : تاريخ اربل لابن المستوفي (ت ٦٣٧هـ) تحقيق د. سامي الصفار (بيروت - ١٩٨٠) ، ٣١٩/١ . انباه الرواة على انباه النحاة لجمال الدين ابن القفطي (ت٦٤٦هـ) تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم (دار الكتب المصرية ١٩٥٠ - ١٩٥٥) ، ٧٥/٤ .

وفيات الاعيان لابن خلكان (ت ٦٨١هـ) تحقيق د. احسان عباس (بيروت دار صادر ، ١٩٧٧) ١٢٧/٧ تاريخ الادب الجغرافي العربي لكراتشوفسكي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، (القاهرة - ١٩٦٣) ، ٣٣٥/١ .

٢ - ينظر نص الرسالة في : وفيات الاعيان ، ١٣٠/٦ - ١٣٩ . وكذلك اشارة عنها في : انباه الرواة ، ٧٨/٤ .

٣ - انباه الرواة ، ٧٨/٤ .

٤ - تاريخ الادب الجغرافي العربي ، ٣٣٥/١ .

٥ - تاريخ الادب الجغرافي العربي ، ٣٣٥/١ .

٦ - تم حصر المواد البلدانية المذكورة اعلاه والمتعلقة بالموصل من قبل الباحث

٧ - ذكرها ياقوت في موضع آخر ينظر : معجم البلدان (بلط) ، ٤٨٤/١ ويطلق عليها في الوقت الحاضر (اسكي موصل) اي الموصل القديمة وينظر عنها في الحقبة العثمانية : عبد الله السويدي سيرته و رحلته د. عماد عبد السلام رؤوف (بغداد - ١٩٨٨) ص١٠٠ ؛ الموصل في القرن الثامن عشر حسب مذكرات

دومينكوا لانزا ترجمة عن الايطالية القس روفائيل بيداويد (بطريرك حاليا) ، (الموصل ـ ١٩٥٣) ، ص٢٣ .

٨ ـ معجم البلدان ٣٢٢/١ وترد في بعض المصادر بصيغة (بو شزة) ينظر : مفرج الكروب ، لابن واصل ، الجزء الثالث ، بتحقيق د. جمال الدين الشيال (القاهرة ـ دار القلم) ص ١٥٦ كما توهم بعض الكتاب المحدثين فحسبها بشري ينظر الايوبيون في شمال الشام والجزيرة د. محمود ياسين التكريتي ، (دار الرشيد ـ ١٩٨١) ، ص ١٤٨ .

٩ ـ معجم البلدان ٢٣١/٣ .

١٠ ـ معجم البلدان ، ٤٨/٤ ، حيث قال عنها ياقوت «بليدة من اعمال نصيبين في بطن الجبل المشرف عليها المتصل بجبل الجودي» ومنطقة جبال طور عبدين كانت تضم حوالي (١٥٠) قرية وهي محصورة بين مدن جزيرة ابن عمر ونصيبين وسعرت وماردين وديار بكر واختص بالسكن فيها الاقوام الارامية منذ عصور ما قبل الميلاد .

١١ ـ ذكرها ياقوت في موضع آخر بصيغة (قصور خيرين) ينظر : معجم البلدان ، ٣٦٦/٤ .

١٢ ـ قال عنها ياقوت : «قرى على زاب الموصل يقال لها الزابات» ينظر : معجم البلدان ، ١٢٣/٣ .

١٣ ـ موضعان يحملان هذا الاسم الاول قرية بين تكريت والموصل وهي اول اعمال الموصل من جهة الجنوب ، والثاني قلعة حصينة في جبال الموصل تعرف بعقر الحميدية . ينظر معجم البلدان ، ١٣٦/٤ .

١٤ ـ ذكرها ياقوت في موضع آخر بصيغة (باقردي) وعدّها هنا كورة في شرق دجلة من نواحي جزيرة ابن عمر ، ينظر : (بازبدي) ، ٣٢١/١ .
(باقردي) ، ٣٢٦/١ ، وينظر ايضا (قردى) ٣٢٢/٤ .

١٥ ـ هي ناحية الزمار التي كانت تبعد عن الموصل مسافة ٨٠ كم في جهتها الشمالية الغربية . وبسبب وقوع البلدة ضمن حوض بحيرة سد صدام فقد شيدت بلدة زمار الحديثة خارج نطاق حوض البحيرة . ينظر عن اخبار هذه البلدة في الحقبة العباسية : الكامل في التاريخ لابن الاثير (بيروت دار صادر ١٩٦٦) ١١٧/١١ ، ٥١٧ وفيات الاعيان ، ٢٠٧/٥ ، مفرج الكروب ، ١٥٧/٣ .

١٦ ـ ذكر ياقوت فيما يخص ريف الموصل قريتين بهذا الاسم احداهما تقع في شرق دجلة تبعد عن الموصل مسافة ميلين والاخرى قرية بنواحي الفرج في غرب الموصل ينظر معجم البلدان ، ٣٥٣/٥ . وعن الاولى ايضاً العيون والحدائق ، لمؤلف مجهول ، بتحقيق عمر السعيدي ، (دمشق ـ ١٩٧٣) ، ٣٦٧/٢/٤ . والكامل في التاريخ ، ٣٠٩/٧ . وعن الثانية ينظر ايضاً : المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ، لياقوت الحموي ، تحقيق وستنفلد ، (غوتنغن ـ ١٨٤٦) ، ص ٤٣٣ .

١٧ ـ قال عنها ياقوت «هي ناحية من غربي الموصل» معجم البلدان ٣١٠/٢

١٨ ـ ذكرها في موضع آخر بصيغة (تُليعفر) ينظر معجم البلدان ، ٥٤/٢ . وهي مركز قضاء تلعفر حالياً .

١٩ ـ ذكرها ياقوت بقوله : «من قلاع البختية الاكراد من ناحية الارزن» معجم البلدان ١٤٧/٤ معتمداً في ذلك على ابن الاعرابي ، وهي ليست من نواحي الارزن وانما من نواحي الزوزان ينظر الكامل في التاريخ ، ١٥/١١ .

٢٠ ـ ورد في معجم البلدان مصحفاً بصيغة (باغوث) والصحيح كما اوردناه اعلاه ينظر ٥٠٠/٢ ، وتعني كلمة باعوث في الارامية الطلب والتضرع والالتماس . وكان يقع شمال بلدة زمار بـ ٢٠كم ينظر عنه : الديورة لايشوعدناح البصري نقله الى العربية بولس شيخو (الموصل ـ ١٩٣٩) ، ص ٣١ .

٢١ ـ ذكره ياقوت في موضعين آخرين بصيغة (دير ما نخايل) و (دير ميخائيل) ينظر : ٥٣١/٢ ، ٥٣٨/٢ .

٢٢ ـ ذكره المقدسي البشاري بقوله : «يحمل اليه من عضة كلب فيقم عند رهبانه اربعين يوماً فيبرأ باذن الله» ينظر احسن التقاسيم ، (ليدن ـ ١٩٠٩) ص ١٤٩ .

٢٣ ـ ذكره ياقوت في موضع آخر تحت اسم (توبة) ينظر معجم البلدان ، ٥٥/٢ .

٢٤ ـ قال ياقوت في معجمه : «والجبار ايضاً : جبل من اعمال شرقي الموصل» ٩٤/٢ . وهي سلسلة جبال كارة المحصورة بين سلسلة جبال عقرة وسلسلة جبال متينة .

٢٥ ـ ذكر ياقوت ضمن هذه المادة ، احد روافد نهر دجلة الذي يمر من مدينة زاخو باسم (خابور الحسنية) ينظر : ٣٣٤/٢ .

٢٦ ـ قال ياقوت الحدباء : «اسم لمدينة الموصل سميت بذلك لا حدداب في دجلتها واعوجاج في جريانها» معجم البلدان ، ٢٢٧/٢ .

٢٧ ـ ذكر ياقوت راوند بقوله : «قال بعضهم : وراوند مدينة بالموصل قديمة» معجم البلدان ، ١٩/٣ .

٢٨ ـ محلة كبيرة في وسط مدينة الموصل ينظر معجم البلدان ، ٤٤٧/٢ ، وفي هذه المحلة كان رباط مجد الدين ابن الاثير ينظر وفيات الاعيان ، ١٤٣/٤ .

٢٩ ـ قال ياقوت «ويعرف ببرج ابي عيفة : عن جانبها الشرقي موضع بين الجبال في منخفض من الارض شبيه بالغور فيه مروج وقرى وولاية حسنة واسعة وعلى جباله قلاع» معجم البلدان ، ١٠١/٥ .

٣٠ ـ ينظر معجم البلدان ، ٣٢٦/١ .

٣١ ـ ينظر معجم البلدان ، ٣٣٧/٢ ، ١٢٣/٣ .

٣٢ ـ ينظر معجم البلدان ، ١٥٨/٣ . وتقع مناطق الزوزان في الوقت الحاضر في العراق وتركيا شمال بلدة العمادية وفي منطقة حكاري تركيا .

٣٣ ـ ينظر معجم البلدان ، ٣٢٤/١ .

٣٤ ـ ينظر معجم البلدان ، ٢٢٣/٥ .

٣٥ ـ ذكر ابن قتيبة الدينوري : «قال الاصمعي . . . ومن اقام بالموصل عاماً ثم تفقد قوته وجد فيها فضلاً» . ينظر عيون الاخبار ، (القاهرة دار الكتب المصرية ـ ١٩٦٣) ، ٢١٩/١ . وينظر النص المذكور في المتن (مادة الموصل) في معجم البلدان ٢٢٣/٥ .

٣٦ ـ كان السرخسي من المقربين للخليفة العباسي المعتضد اشتهر بمصنفاته الكثيرة وتوفي سنة ٢٨٦هـ ينظر التفاصيل عنه : الفهرست لابن النديم ، تحقيق رضا تجدد ، (طهران ـ ١٩٧١) ، ص ٣٢٠ . معجم الادباء لياقوت الحموي ، (بيروت ـ دار احياء التراث العربي) ، ٩٨/٣ .

٣٧ ـ معجم البلدان ١٣١/١ . ولا يعرف موضعها اليوم وكانت تقع شمال بلدة الزمار بالقرب من الحدود العراقية السورية ينظر عنها : فتوح البلدان للبلاذري تحقيق صلاح الدين المنجد (مطبعة لجنة البيان العربي) ٢١٣/١ ؛ المجدل ، لعمر بن متى الطيرهاني (روما ـ ١٨٩٦) ص١٠٣ احسن التقاسيم ، ص ١٣٩ ، صورة الارض ، ص ١٩٩ .

٣٨ ـ ينظر : معجم البلدان ٣٨٧/١ ، ذكرها ابن حوقل النصيبي بقوله : «مدينة كثيرة الزرع من الحنطة والشعير ، يسكنها بنو حبيب قوم من تغلب وفيها مئونة لبني السبيل ، وفي اهلها بعض شر لانهم في سنخ بني حمدان ، وشرب اهلها من الابار وليس بها بستان ولا كرم» صورة الارض ، ص ١٩٩ . وينظر عنها ايضا : تاريخ الموصل للازدي ، ص ٣٥٠ ، الكامل في التاريخ ، ٦٠٩/٨ ،

حوادث سنة ٣٥٩هـ ، الروض المعطار للحميري ، تحقيق احسان عباس (بيروت دار القلم ١٩٧٥) ص١٦ . وقد ذهب صاحب خطط الموصل الى انه قد شيد على انقاضها قرية ابو وجنة الحالية وهو رأي بعيد عن الصواب لان قرية ابو وجنة لاتبعد عن الموصل اكثر من ٥٠كم اي ليس اكثر من (١٢) فرسخ بمقياس تلك العصر ، بينما ذكر قدامة ابن جعفر ، ان برقعيد كانت تبعد (٢٠) فرسخاً عن الموصل ينظر : الخراج وصنعة الكتابة لقدامة بن جعفر ، بتحقيق محمد حسين الزبيدي (بغداد - ١٩٨١) ص ١١٢ . او كما قال ياقوت بينها وبين الموصل اربعة ايام اي ان المسافة لا تقل عن ١٠٠كم ، لذا فان برقعيد كانت تقع في نقطة ابعد من بلدة الزمار وقريبا من الحدود العراقية السورية . اما قرية ابو وجنة القريبة من قصبة عين زالة ، فهي قرية بلوشنايا التي ذكرها ياقوت بقوله : «قرية كبيرة من قرى الموصل قرب بلد من اعمال البقعاء» ينظر معجم البلدان ١/٣٣٣

٣٩ - ينظر عنها تاريخ الموصل للازدي ، حوادث سنة ٢٠٨ هـ ، ص٣٦٥ ؛ والباهر في تاريخ الدولة الاتابكية لابن الاثير ، تحقيق عبد القادر احمد طليمات ، (القاهرة - ١٩٦٣) ، ص ١٨٨ . ومن بعض تراجمها ينظر : تاريخ اربل ، ١/١٦٨ ؛ تكملة اكمال الاكمال ، لجمال الدين الصابوني ، تحقيق مصطفى جواد ، (بغداد - ١٩٥٧) ، ص ١٥٢ . وكان اهلها خليط من النساطرة والارثودكس والمسلمين وقد عانوا الامرين في عهد بدر الدين لؤلؤ ، لتضييقه عليهم في طلب الاموال ، مما اضطرهم للميل الى صاحب اربل ، مظفر الدين كوكبري ، لذا حرّض عليهم بدر الدين جماعات العدوية (اليزيدية) ، فهاجموا القرية وخربوها وذلك في سنة ١٢٢٠م ، ينظر : نسخة كتاب النفس والقيامة والملائكة ، تاليف موسى بن كيفا ، بخط القس محبوب الباشيقي في آخر شهر ايار من السنة المذكورة ، بالاعتماد على كتاب دقائق الطيب ، تاليف اغناطيوس يعقوب الثالث بطريك انطاكية وسائر المشرق ، (زحلة - ١٩٦١) ، ١/٣٨٧ . وينظر ايضا امارة بدر الدين لؤلؤ ، لسوادي عبد محمد ، (بغداد - ١٩٧١) ، ص ٤٨ ، وقد ذهب بعض الباحثين بعيداً في تحديد موقعها ، فقال سليمان الصائغ انها كانت تقع قرب قرية بارجة الحالية ، ينظر : تحقيقات بلدانية : لكوركيس عواد ، مستل من مجلة سومر ، م١٧ ، لسنة ١٩٦١ . بينما يرى الصوفي ان قرية الجيلة قد شيدت على انقاضها ينظر : خطط الموصل ، ٢/٨٩ . اما سعيد الديوه جي فقد خلط بين قريتي باجبارة وبالخاري ، ينظر : منية الادباء ، ص١٦٣ . اقول علاوة على دقة تحديد ياقوت لها فقد ذكرها عمرو بن متى الطيرهاني بقوله : «وهي على جانب نهر دجلة ما بين سور نينوى والموصل» ينظر : المجدل ، ص ٦٦ .

٤٠ - ينظر معجم البلدان ، ٢/٤٨٤ . وتقع اليوم في سوريا ، وينظر عنها ايضا : شعر الاخطل ، صنعة السكري ، رواية محمد بن حبيب ، تحقيق فخر الدين قباوة ، (حلب - ١٩٧٠) ، ٢/٧١٤ ؛ الكامل في التاريخ ، ٤/٣٩٤ .

٤١ - ينظر معجم البلدان ، ٢/٧٥ . وعن وقائع الثرثار التي اشار اليها ياقوت ينظر : الكامل في التاريخ ، ٤/٣١١ ، حوادث سنة ٧٠هـ ، وكذلك صفحات متفرقة وكثيرة من ديوان الاخطل ، تحقيق الاب انطوان صالحاني ، (بيروت - دار المشرق) .

٤٢ - ينظر معجم البلدان ، ٤/١٥٣ ، وينظر عنها ايضاً : تاريخ الموصل للازدي ، ص ٣٢ ، ٨٣ . وتقع بقايا اثار قلعة العمرانية غرب بلدة عقرة في قرية كتنك الحالية .

٤٣ - معجم البلدان ، ٢/٥٢٢ ؛ وكذلك المشترك وضعاً ، ص ١٩٠ .

٤٤ - معجم البلدان ، ٢/٥٣٠ . ويعني (الدير الاسود) ويقع بالقرب من قرية ديري ، على مسافة ٥كم شرق العمادية ، على سفوح جبال متينة ، كما يسمى ايضاً دير مارقرداغ . والقرية التي اشار اليها ياقوت في المتن ، تسمى اليوم كوماني (المواضع السوداء) وقد انفرد ياقوت بذكر هذا الدير ، والقرية ، فيما يخص المصادر العربية خلال الحقب العباسية .

٤٥ - معجم البلدان ، ٢/١٢٤ ؛ وكذلك مادة (زوزان) ، ٣/١٥٨ .

٤٦ - معجم البلدان ، ٤/١٣٦ ؛ وهي مركز قضاء عقرة حالياً .

وسميت كذلك نسبة الى الاكراد الحميدية ، وينظر عنها ايضاً : الاعلاق الخطيرة ، لابن شداد ، تحقيق ، يحيى عبارة ، (دمشق - ١٩٧٨) ، ٣/٢٢٨ ، تاريخ الدول السرياني ، لابن العبري ، نشره الاب اسحق ارملة ، في مجلة المشرق (١٩٥١ - ١٩٥٦) ، ١٩٥٤ ، ص ٤٣٢ .

٤٧ - معجم البلدان ، ٤/١٥٤

٤٨ - معجم البلدان ، ٤/٤٧ .

٤٩ - معجم البلدان ، ١/٤٠٦ ، وتعني تسميته الارامية (الرائد الرئيس) . وقد اوردت بعض المصادر قرية باسم (باريثا) او (باريشا) قرية من نهر الخازر ، ينظر : تاريخ الطبري ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، (القاهرة - دار المعارف) ٦/٨٦ ، الكامل في التاريخ ٤/٢٦١ . وعلى الاغلب فان هذه القرية هي قصبة بردرش الحالية التابعة لقضاء عقرة كما ذكر ابن فضل الله العمري ديراً قريباً من هذه القرية باسم (باريتا) وهو المعروف في المصادر السريانية باسم (برعيتا) ينظر مسالك الابصار ، تحقيق احمد زكي باشا ، (القاهرة - ١٩٢٤) ١/٣٠٧ .

٥٠ - معجم البلدان ، ٢/٣٣٧ . اما نخلا التي ذكرها ياقوت في المتن فكانت ناحية من نواحي مرج الموصل ، شمال سلسلة جبال عقرة ، وتعني تسميتها في الارامية السهل او الوادي ويطلق عليها اليوم اسم (نهلة) . ينظر معجم البلدان ، ٥/٢٧٦ ؛ كتاب الرؤساء لتوما المرجي ، تحقيق الاب البير ابونا ، (الموصل - ١٩٦٦) ، ص ١١ ، ٣٧ ، ٥٧ ، ٩٢ ، وكذلك

Fiey, Assyrie chrétienne (Beyrouth — Imprimerie catholique) v.I pp. 304 — 310

٥١ - معجم البلدان ، ٤/٤٤٢ ، تسميتها مأخوذة من البصل البري الاخضر (الكُراث) وتحتفظ القرية اليوم باسمها الذي ذكره ياقوت (تل موسى) وهي تقع على طريق الموصل - عين زالة ، ذكرها ابن الاثير بقوله : «وخرج موسى لاستقبال سغمان فلما كان موسى عند قرية كرائا ، وثب عليه جماعة من غلمان القوامين - نسبة الى قوام الدين كربوقا - فقتلوه ، رماه احدهم بنشابه فقتله فعاد اصحابه منهزمين ودفن على تل هناك ويعرف الان بتل موسى» الكامل في التاريخ ٧/٣٣٣ . ويبدو ان القرية خربت بعد الغزو المغولي ، وبقيت كذلك حتى النصف الاول من القرن الثامن عشر الميلادي وقال عنها عبد الله السويدي في رحلته «وهو تل عال مدور ، وحوله عين ماء عذب صاف حار يخرج من تحت الجبل ، وحوله قرية قديمة هي الان خراب» ينظر عبد الله السويدي ص ١٠٠

٥٢ - معجم البلدان ، مادة (جدال) ، ٢/١١٢ ؛ وكانت تقع شمال غرب الموصل على مسافة تصل الى (٦٠كم) ومّر بها ابن جبير في رحلته بعد خروجه من الموصل في طريقه الى نصيبين والشام فقال : «وبتنا بقرية كبيرة تعرف بجدال لها حصن عتيق» ينظر رحلة ابن جبير ، (بيروت دار صادر - ١٩٦٦) ص٢١٣ . والى هذه القرية ينتسب احد جثالقة النصارى المعروف بـ ايشوعيا ب الجدالي المتوفى في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي . ينظر : المجدل ، لعمرو بن متى الطيرهاني ، ص ٥٢ ، فهرس المؤلفين لعبد يشوع الصوباوي ، تحقيق د. يوسف حبي ، (مطبعة المجمع العلمي العراقي - ١٩٨٦) ص ٧٤ ، ادب اللغة الارامية ، البير ابونا ، (بيروت - ١٩٧١) ص٢٦٦ . وتقع بقاياها الاثرية ضمن مناطق ناحية العياضية .

٥٣ - معجم البلدان ، ٣/٢٦٢ . وابو عيينة المذكور في النص هو معمر بن

المثنى البصري ، الذي كان احد ندماء الخليفة هارون الرشيد ، واشتهر بكثرة مصنفاته وتوفي سنة ٢٠٨هـ ، وقيل في غيرها . ينظر ترجمته في : معجم الادباء ، ١٥٤/١٩ . كما ذكر ياقوت ابيات خالد الزبيدي في موضعين آخرين هما : (جدال) و(المحلية)

٥٤ ـ معجم البلدان ، ١٤٦/١ ، وذكرها ياقوت في موضع آخر باسم (كواشي) ينظر معجم البلدان ، ٤٨٦/٤ .

٥٥ ـ ينظر معجم البلدان : ١٦٢/١ ، ٢٤٦/١ ، ٣١٦/١ .

٥٦ ـ معجم البلدان ، ١١٥/٢ ، وينظر عنها ايضاً : الكامل في التاريخ ، ٥١٢/١١ .

٥٧ ـ معجم البلدان ، ٤٨١/١ ، وينظر ايضا : الاشارات لمعرفة الزيارات ، للهروي ، تحقيق جانين سورديل ، (دمشق : ١٩٥٣) ، ص ٦٨ ، منهل الاولياء ، لمحمد امين العمري ، تحقيق سعيد الديوه جي ، (الموصل ـ ١٩٦٧) ٩٤/٢ .

٥٨ ـ معجم البلدان ٤٩٨/٢ ومن بقايا هذا الدير كنيسة الطهرة القريبة من قلعة باشطابيا بالموصل وكان هذا الدير من المراكز العلمية المزدهرة في الحقب العباسية المتأخرة ينظر عنه : الديارات للشابشتي ، تحقيق كوركيس عواد ، (بغداد ـ ١٩٦٦) ، ص ١٧٦ ؛ المجدل ، لماري بن سليمان ، (روما ـ ١٨٩٩) ، ص١٠٣ ؛ مسالك الابصار ٢٩٣/١

٥٩ ـ معجم البلدان ، ٥٠٠/٢ ؛ وينظر ايضاً : الديارات ، ص٣٠٥ .

٦٠ ـ معجم البلدان ، ٥٠٣/٢ ؛ ويطلق عليه اليوم اسم (دير مار بهنام) ، ويقع على مسافة ٣٥كم جنوب شرق الموصل ، ويعد احد اشهر الاديرة في العراق اليوم ، حيث تعود معظم اثاره المعمارية الى الحقبة الزنكية التي جدد فيها بناؤه على يد التكارتة الذين نزحوا الى شرق الموصل في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي .

٦١ ـ معجم البلدان ، ٤٩٩/٢ ؛ وينظر عنه ايضاً : مسالك الابصار ، ٣٠٠/١ .

٦٢ ـ معجم البلدان ، ٣١٦/١ . تعني تسميتها (بيت عطية الله) كما تحتمل هذه التسمية معاني اخرى مثل بيت الحداة او بيت الشباب او قد تكون مأخوذة من (بيث ديدا) اي (بيت او بين النهود) ، لوقوعها في منخفض من الارض واحاطتها بالتلال الارضية ، وقد اطلق عليها اسم (قرة قوش) اي الطائر الاسود في حقبة العثمانيين ، وهي اليوم مركز قضاء الحمدانية ، يصل نفوسها اليوم الى (١٧,٠٠٠) نسمة ينظر بعض الاشارات التاريخية عنها في تاريخ الدول السرياني ١٩٥٦ ص ١٤١ ، ٣٨٨ وتفاصيل كثيرة في : Assyrie chretienne v.II p. 430

٦٣ ـ معجم البلدان ، ٣٢٤/١ ؛ تسميتها ارامية وتعني بيت المظلومين او المتألمين ، ترد في بعض المصادر العربية باسم (باسحاق) ، وهي بلدة قديمة تبعد عن الموصل مسافة ٢٥كم ، وهي اليوم مركز ناحية ، ينظر عنها : احسن التقاسيم ص١٤٧ ؛ الكامل في التاريخ ، ٤٥٣/٧ .

٦٤ ـ معجم البلدان ، ٣٨٥/١ ؛ تسميتها ارامية وتعني بيت الطل او بيت الظل او مصنع الارطال والاوزان ، ترد في بعض المصادر باسم (باتلي) وهي اليوم مركز ناحية ، تبعد عن الموصل مسافة (٢٠كم) ينظر عنها : تاريخ الموصل ، للازدي ، ص ٢٨٧ ، الكامل في التاريخ ٢٢٩/٤ ، تاريخ الدول السرياني (١٩٥٦) ص ١٤٠ ، ٣٨٦ Assyrie chretienne, v.II, p.418

٦٥ ـ معجم البلدان ، ٤١/٢ .

٦٦ ـ معجم البلدان ، ٢٨٦/٣ ؛ وينظر عنها ايضاً : تاريخ الموصل للازدي ، ص ٢١٦ . المشترك وضعاً ، ص ٢٥٨ ؛ الكامل في التاريخ ؛ ٣٥٤/٥ ؛ ٤٥٤/٩ ؛ ١٨٦/٧ ؛ ٥١/١٠ المجدل ، لماري بن سليمان ، ص ٧٨ ، ١٣٠ ؛ المجدل ، لعمرو بن متى ، ٧٣ ، ٩٤ .

٦٧ ـ معجم البلدان ، ٤٤٧/٢ ، وتسميتها ارامية وتعني العلو او المنخفض

٦٨ ـ معجم البلدان ، ١٥٨/٣ ؛ وتسميتها كردية وتعني المناطق ذات العشب والمرعى .

٦٩ ـ معجم البلدان ٢٦٢/٣ ، ٥١١/١ ، ٣٩/٢ ؛ ١٣/٣ ؛ ٣٢٤/١ ، ٢٢/٢ ؛ ٣٨١/٢ ؛ ٣٢٥/١ ؛ ٤١٨/٢ ، ٩٦/٥ ، ٣٣٠/٥ ، ٣٥٣/٥ ، ٣٥٨/٢ ، ١٩٣/٤ ، ٢٦٧/٤ ، ٢٣٤/٣

٧٠ ـ معجم البلدان : ٣٢٤/١ ؛ وتقع في خلف جبل عين الصفرة على مسافة ٢٥كم عن الموصل ينظر عنها ايضاً : تاريخ الدول السرياني ، (١٩٥٤) ، ص ٤٣٩ ، (١٩٥٦) ، ص ٣٩٢ .

٧١ ـ معجم البلدان ، ٣٨٥١ .

٧٢ ـ معجم البلدان ، ٢٣٤/٣ ؛ تقع قرية السلامية على مسافة ٣٠كم شرق الموصل ، وهي من قرى قضاء الحمدانية اشتهرت في حقبة العباسيين المتأخرة ينظر : الكامل في التاريخ ، ٢٢١/٨ ، ٣٤٥/١٢ ؛ منية الادباء ، لياسين العمري ، تحقيق سعيد الديوه جي ، (الموصل ـ ١٩٥٥) ، ص ١٥١ ، خطط الموصل ، ٩٠/٢ ؛ تحقيقات بلدانية ، ص ٤٣ .

٧٣ ـ معجم البلدان ، ٢٦٢/٣ . ينظر تفاصيل وافية عن تاريخها في كتاب الاعلاق الخطيرة ، ١٥٤/٣ ـ ٢١٢ .

٧٤ ـ معجم البلدان ، ٣٣٨/٣ ؛ هي قرية شرمن او شرملي الحالية وتقع بين عقرة والشوش ، ضمن ناحية العشائر السبعة ينظر عنها في :

Assyrie chretienne, v. I, pp. 2 60 — 263.

٧٥ ـ معجم البلدان ٤٠٣/٥١ ؛ وينظر ايضا ، الكامل في التاريخ ، ٦٩٦/٨ ، ١٤/١١ ، ٤٤٤/١٢ . وقرية هرور تقع في نواحي برواري بالا في قضاء العمادية ، ويبلغ نفوس القرية في احصاء ١٩٥٧ ، (٨٢٥) نسمة ينظر : المجموعة الاحصائية لتسجيل عام ١٩٥٧ (سكان القرى) اصدار وزارة الداخلية ـ مديرية النفوس العامة ـ (بغداد ـ ١٩٦١) ، ص٤٦ .

٧٦ ـ معجم البلدان ، ٣٢٤/١ .

٧٧ ـ معجم البلدان ، ٢٢١/٤ ، كانت تقع ضمن مناطق مرج الموصل ينظر الديورة ص٥٦ وينظر ايضا احسن التقاسيم ، ص ١٩٧ ؛ وذكر الصوفي انه ربما هذه الناحية ما نسميها اليوم ناحية السورجية ضمن قضاء عقرة ينظر : خطط الموصل ، ١١١/٢ .

٧٨ ـ معجم البلدان ، ٢٣٤/٣ .

٧٩ ـ معجم البلدان ، ٣١٢/١ .

٨٠ ـ معجم البلدان ، ٢٦٧/٤ . هي قرية الفاضلية اليوم وتقع على مسافة (٢٥كم) عن الموصل على طريق الشيخان . جاء في كتاب ترجمة الاولياء ، ص١١٢ . عن الشيخ فضل : «له مشهد قديم في قرية من قرى الموصل تسمى باسمه» ويرى الصوفي ان قرية الفضلية هي قرية الزراعة او راس الناعور ينظر خطط الموصل ١٠٣/٢

وذكر ياقوت عين الزراعة في مادة خرستاباذ بقوله «قرية في شرق دجلة من اعمال نينوى . . . شربها من فضل مياه راس الناعور المسمى بالزراعة» معجم البلدان ، ٣٥٨/٢ واشار اليها القزويني عند ذكره لـ عين راس الناعور حيث قال : «بشرقي الموصل عين في قرية تسمى زراعة لها عين فوارة غزيرة الماء» ينظر عجائب المخلوقات (بيروت ـ ١٩٨١) ص٢٣٠ .

٨٢ ـ معجم البلدان ، ٤٧٦/١ . ترد في بعض المصادر السريانية باسم

باعلوتا : اي موضع الاصنام من الاصل الاشوري (امكر بعل) ثم حرفت الى بلاباذ ، اي موضع بعل لان (باذ او اباد) الفارسية مأخوذة من (بيث) الارامية وهي قرية بلاوات الحالية التي تقوم على تل اثري يعود الى ايام الاشوريين وهي تقع شرق باخديدا (مركز قضاء الحمدانية) ينظر عنها ايضا : دائرة المعارف الاسلامية ، مادة (بلاباذ) ، طبعة الشنتاوي ، ٥٦/٤ .

٨٣ ـ معجم البلدان ، ١٠٩/٥ ، وتسمى اليوم تل مرك وتقع على طريق الموصل ـ ربيعة .

٨٤ ـ معجم البلدان ، ٩٢/٤ .

٨٥ ـ معجم البلدان ، ٥٢٨/١ ؛ وهي ضمن قضاء تلكيف حالياً .

٨٦ ـ معجم البلدان ، ٣٩/٢ ؛ وتعني تسميتها التل المرتفع وهي تقع ضمن قضاء تلكيف .

٨٧ ـ معجم البلدان ، ١٠١/٢ ؛ وتعني تسميتها (الجبن من الالبان) .

٨٨ ـ معجم البلدان ، ٢٩٧/٥ .

٨٩ ـ معجم البلدان ، ٤٢٥/٥ .

٩٠ ـ معجم البلدان ، ٣٢٠/١ ؛ وينظر عنها ايضاً دائرة المعارف الاسلامية مادة (بارما) .

٩١ ـ معجم البلدان ، ٣٢٣/١ .

٩٢ ـ معجم البلدان ، ١٩٤/٢ .

٩٣ ـ معجم البلدان ، ٢٣٠/٢ .

٩٤ ـ معجم البلدان ٢٨١/٢ . تسميتها ارامية وتعني اللبن او الحليب او الحقل المخصب .

٩٥ ـ معجم البلدان ، ٥٣٢/٢ .

٩٦ ـ معجم البلدان ، ٦٣/٥ . ٩٧ ـ معجم البلدان ، ١١٦/٤ .

٩٨ ـ معجم البلدان ، ٢٥٦/٢ . كانت حزة في العصور العباسية الاولى من اعمال الموصل ، حيث ذكر ابن الاثير في حوادث سنة ١٠٥هـ ذلك بقوله : «من اعمال الموصل» الكامل في التاريخ ، ١١٩/٥ ثم اشار اليها في حوادث سنة ٢٥٤ بقوله : «من اربل اليوم» ، الكامل في التاريخ ، ١٨٨/٧ .

٩٩ ـ معجم البلدان ، ٣٣٧/٢ .

١٠٠ ـ معجم البلدان ، ١٤٦/١ ؛ وتسمى ايضا (كواشي) ؛ ذكرها ابن الاثير بقوله : «من احصن قلاع الموصل واعلاها وامنعها» الكامل في التاريخ ، ٣٤١/١٢ وعن موقعها الاثري ينظر : المواقع الاثرية (تل كواشة) ص٢٧٠ اضبارة ١٣٤٧ .

١٠١ ـ معجم البلدان ، ٢٢/٥ .

١٠٢ ـ منية الادباء ، ص١٦٣ .

١٠٣ ـ ينظر : موضع (تل عش) في قرية اللك ضمن المواقع الاثرية لقضاء الحمدانية في الادوار الاشورية . المواقع الاثرية ص ٢٣٧ اضبارة ١٥٦ .

١٠٤ ـ معجم البلدان ، ١٤٧/٤ ، وفي مادة زوزان ينقل عن ابن الاثير ، ويذكر علوس من بين قلاع الزوزان ، ينظر معجم البلدان ، ١٥٨/٣ .

١٠٥ ـ سمي بدير الخنافس لظهور طلسم ظريف فيه «وهو ان في كل سنة ثلاثة ايام تسود حيطانه وسقوفه من الخنافس الصغار اللواتي كالنمل فاذا انقضت تلك الايام لا يوجد في تلك الارض من تلك الخنافس واحدة البتة ، فاذا علم الرهبان بمجيء تلك الايام اخرجوا جميع ما لهم فيه من فرش واثاث وغير ذلك هرباً من الخنافس فاذا انقضت الايام عادوا قلت انا (ياقوت) وهذا شيء رأيت من لا احصي يذكره ولم ار له منكراً في تلك الديار والله اعلم» .

معجم البلدان ، ٥٠٨/٢ .

١٠٦ ـ تاريخ الادب الجغرافي العربي ، ٣٣٦/١ .

١٠٧ ـ ينظر مصادر البكري ومنهجهُ الجغرافي ، لعبد الله يوسف الغنيم ، (القاهرة ـ مطبعة المدني ـ ١٩٧٤) ، ص١٦٣ .

* * *

في زمن قياسي حررنا الفاو مدينة الفداء وبوابة النصر العظيم... في زمن قياسي اعدنا بناءها.

«العراق في رحلة ابن جبير خاصة» ورحلات العرب الاخرى

دراسة
د. علي محسن عيسى مال الله

كلية الشريعة ـ جامعة بغداد

ابن جبير

٥٤٠ ـ ٦١٤هـ

حياته ونشأته :ـ

هو محمد بن احمد بن جبير بن محمد جبير بن سعيد بن عبد السلام بن جبير الكناني الداخل الى الاندلس في محرم سنة ثلاث وعشرين ومائة وكان نزوله بكورة شذونة.[1] وهو من ولد ضمرة ابن كنانة بن بكر بن عبد مناة بن خزيمة بن مدركة بن الياس ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، بلنسي[2] نزل ابوه شاطبة[3] ثم استوطن هو جيان،[4] ثم غرناطة، ثم فاس، فالأسكندرية، واقام اثناء ذلك بسبتة[5]، ومالقة،[6] وغيرهما حسبما اقتضته الاحوال[7] وقد كان ابوه احمد من كتاب شاطبة، ورؤسائها. وله منزلة اجتماعية مرموقة. واراد هذا الاب ان يصوغ ابنه على مثاله فرعاه رعاية تامة. فكان له اول استاذ اخذ منه العلم ثم دفع به الى المعلمين المحترفين،[8] نذكر منهم على سبيل المثال ابا الحسن بن محمد بن ابي العيش الذي اخذ عنه القراءات،[9] واخذ العربية عن ابي الحجاج بن يبقا بن يسعون، واخذ العلم بسبته عن ابي عبد الله بن عيسى التميمي السبتي. واجاز له ابو الوليد يوسف بن عبد العزيز بن الدباغ.[10] وعندما بلغ ـ ابن جبير ـ السن التي يستطيع فيها ان ينفرد بحياته، ويضطلع باعبائها، احترف الكتابة، فعمل لبعض الامراء من الموحدين الذين كانوا يسيطرون على الاندلس، والمغرب في ذلك الوقت، وكان اشهر من اتصل به ـ ابن جبير ـ هو ابو سعيد عثمان بن عبد المؤمن الذي كان والياً على ولايتي سبتة/وطنجة سنة ٥٤٩ هـ.[11] ولم تقتصر حياة ابن جبير على الكتابة وحدها بل مارس التدريس في فاس فكان منقطعاً الى اسماع الحديث، والتصوف وترويه ما عنده.[12]

ولما قام برحلاته المعروفة التقى بأكابر العلماء كابن الجوزي في بغداد، وصدر الدين محمد بن عبد اللطيف الخجندي رئيس الشافعية باصبهان، وكثير من العلماء، بمكة/ودمشق، وقد شهدوا له جميعاً بالفضيلة، والعلم.[13] اما التلاميذ الذين تأثروا به فهم كثيون، منهم على سبيل المثال لا الحصر احمد بن عبد المؤمن الشريشي، شارح مقامات الحريري في المغرب،[14] والحافظان ابو محمد المنذري/وابو الحسين يحيى؛ علي القرشي بالقاهرة، وفخر القضاة بن الجياب/وابنه جمال القضاة في الاسكندرية. ويعد

جولاته الطويلة في الاقطار الاسلامية الفى عصاه في الاسكندرية، فأقام بها يحدث، ويؤخذ عنه الى ان لحق بربه سنة ٦١٤ هـ.(١٥)

اخلاقه:-

كان ابن جبير على جانب عظيم من المزايا العالية، والخلق الرفيع، فوصفه احدهم، فذكر بانه «كان اديباً، بارعاً، وكاتباً بليغاً، وشاعراً مجيداً، سنياً فاضلاً، نزيه الهمة سري النفس، كريم الاخلاق، انيق الطريقة في الخط.»(١٦) وينعته ابن الخطيب فيذكر بانه كان كريم الاخلاق ذا نظم فائق، ونثر بديع، وكلامه مرسل سهل، وتغراضه جليلة، ومحاسنه ضخمة، وذكره شهير وله حكم مستجادة.(١٧)

اما صاحب النفح فيقول:- «كان ابن جبير من اهل المروءات، عاشقاً في قضاء الحوائج، والسعي في حقوق الاخوان، والمبادرة لايناس الغرباء. وفي ذلك يقول ابن جبير عن نفسه:-

يحسبُ الناسُ باني متعبٌ	في الشفاعات وتكليف الورى
والذي يتعبهم في ذاك لي	راحة في غيرها لن افكرا
وبودي لو أُقضي العمر في	خدمة الطلاب حتى في الكرى(١٨)

الحق انه شعور انساني، رجل ينسى ذاته ليذوب في خدمة الناس، وقضاء حوائجهم، حتى يبلغ الحماس عند ابن جبير في اسداء المعروف، والعمل الصالح، وبوده ان يخدم الناس حتى في اوقات النوم. انها نفحة انسانية خالصة، تجاوزت الحدود لتضرب للناس امثالاً رائعة، وعبراً قيمة. لذلك نرى بعض الأدباء المحدثين يصفه بذلك الرجل «الحازم الوقور»(١٩) وكيف لا يكون حازماً، وقوراً، وقد تأدب باداب الاسلام، تشبع بحب الرسول صلى الله عليه وسلم، وصحبه الكرام، والعترة الطاهرة.

نعم لقد كان ابن جبير مؤمناً ناسكاً، متمسكاً بدينه، وعقيدته حتى قيل عنه ان الدعاء «عند قبره مستجاب»(٢٠) وقد «عني بالاداب فبلغ فيها الغاية، وتقدم في صياغة الفريض، وصناعة الكتابة، ونال بها دنياً عريضة، ثم رفضها وزهد فيها»(٢١)

وخلاصة القول في ابن جبير وخلقه انه كان رجلاً، دمث الخلق، رفيع المنزلة، نذر نفسه في حب الخير، ومنح الاخرين العطاء الثر، حتى اصبح من الرجال الصالحين الذين يشار اليهم بالبنان، وصار من الابرار، الاخيار الذين سجلت مآثرهم بمداد من ذهب.

وحلاته:-

لقد رحل ابن جنها.

الاولى:- بداها من غرناطة سنة ٥٧٨ هـ. حيث ادى فريضة الحج سنة تسع وسبعين وخمسمائة، والتقى في الديار المقدسة بنخبة من العلماء، ثم واصل سيره، وبدأ يتنقل من قطر الى اخر حتى وصل الى اصبهان، فالتقى بالعالم الفاضل - محمد عبد اللطيف الخجندي - رئيس لشافعية(٢٢) الذي مر ذكره انفاً. وقد اعجب ابن جبير بخلقه، وبعلمه حتى خاطبه قائلاً:-

يا من حواه الدين في عصره	صدراً يحل العلم منه الفؤاد
ماذا يرى سيدنا المرتضى	في زائرٍ يخطب منه الوداد
لا يبتغي منه سوى أحرفٍ	يعتدها اشرف ذخر يُفاد
في رقعة كالصبح أهدى لها	يد المعالي مسك ليل المداد
اجازة يور ثنيها العلا	جائزةً تبقى وتفنى البلاد
يستصحب الشكر خديماً لها	والشكر للامجاد اسنى عتاد(٢٣)

فاجابه الصدر الخجندي:-

لك الله من خاطب خلتي	ومن قابس يجتذي سقط زندي
اجزت له ما أجازوه لي	وما حدثوه وما صح عندي
وكاتب هذه السطور التي	تراهن عبد اللطيف الخجندي(٢٤)

لقد طاف ابن جبير طويلاً في هذه الرحلة، وتعرف على كثير من العلماء، والزهاد، الذين مر ذكرهم عند الكلام عن حياته. ثم رجع الى وطنه غرناطة سنة ٥٨١ هـ.(٢٥)

اما الرحلة الثانية: فقد قام بها عندما شاع الخبر المبهج بفتح بيت المقدس، اليها من غرناطة سنة ٥٨٥ هـ ثم آب اليها سنة ٥٨٧ هـ، وسكن غرناطة، ثم مالقة ثم سبتة، ثم فاس، منقطعاً الى اسماع الحديث، والتصوف وتروية ما عنده، وفضله بديع، وورعه يتحقق، واعماله الصالحة تذكر.

اما الرحلة الثالثة:- فقد بداها من سبتة بعد موت زوجته عاتكة ام المجد بنت الوزير ابي جعفر الوقشي، وكان كلفاً بها. فعظم وجده عليها، فوصل الى مكة، وجاور بها طويلاً ثم بيت المقدس، ثم تحول بمصر، والاسكندرية، فاقام بها طويلاً الى ان

لحق بربه(٢٦) كما ذكرنا سابقاً.

قلت لقد قام ابن جبير بثلاث رحلات قصد فيها جميعاً الحج. وقد وهب الادب العربي مجموعة من اجمل ما عرف بها ادب الرحلات، ولم يدون ابن جبير اخبار هذه الرحلات في رحلته المعروفة ـ بل اقتصرها على الرحلة الاولى وحدها.

خط الرحلة الأولى:ـ

يحاول الباحث ان يختصر خط رحلته، فلا يذكر الا المدن، وبعض الامكنة التي زارها.

لقد تحرك ركبه من غرناطة في اول ساعة من يوم الخميس لثمان خلون من شوال سنة ٥٧٨ هـ، وبدأ يتجول في المدن الاندلسية حتى وصل الى سبتة. وتُعدُّ سبتة المنطلق الحقيقي لرحلته.

ومن سبتة استقل ابن جبير مركباً اخذ يجوب به عباب البحر ماراً بمدن كثيرة، حتى وصل الى سردانية، وفي سردانية، اصابه اعصار هائل، وبعد تحسن الجو ظهر لهم ساحل صقلية فارسوا فيه. ثم ابحر الركب الى جزيرة اقريطش، ومنها الى مصر فالاسكندرية. وتعدُّ الاسكندرية اول مدينة في رحلته طبق عليها منهجه.

اما المدن، والاماكن السابقة التي مر عليها، فلم يتعرض لها الرجل الا بالتسمية فقط. وقد تكلم عن الاسكندرية، وعن اسواقها، ومنارها، ثم اخذ يتجول في ربوع مصر، فزار القاهرة، وقد طال حديثه عنها. ثم زار قوص، ومنها سلك احد دروب الصحراء، الى ان بلغ عيذاب على البحر. وقد اقلع من عيذاب سالكاً طريق البحر حتى وصل الى جُدة، ومنها الى مكة المكرمة، وقد وصفها وصفاً رائعاً، وبعد ان انهى مناسك الحج في مكة، غادرها الى المدينة المنورة، وقد اسهب في وصف المسجد النبوي الشريف. ثم عاود السير مع الركب الى العراق، واول مدينة دخلها من مدن العراق هي مدينة الكوفة، ومن مدن المهمة التي زارها في العراق، الحلة، وبغداد وتكريت، والموصل، وقد افاض في وصف بغداد، فوصف مجالس الوعظ التي شهدها، واعجب بها وذكر معلومات ذات قيمة عن الخلافة العباسية والخلفاء. وبعد ذلك وجه ركبه نحو الشمال، فمر بمنبج، وحلب، وقنسرين، والمعرة، وحماة، وحمص، ودمشق. فقد وصف دمشق، ونعتها بجنة المشرق، وعروس المدن، فقد اولع بها فأفاض في الحديث عنها اكثر من اية مدينة اخرى سوى مكة المكرمة، ثم خرج منها متوجهاً الى عكة، وصور، حيث امتطى مركباً جنوبياً الى الاندلس ـ وقد لاقى من المتاعب، والصعاب، والاهوال، الشئ الكثير، ماراً بعدة جزر حتى ال به المطاف الى جزيرة صقلية، وقد اطال الحديث عن المسلمين، وعلاقاتهم بالمسيحيين في هذه الجزيرة. ومنها توجه الى الاندلس، واخيراً ادرك قرطاجنة، فهبط بها، ومنها الى غرناطة،(٢٧) وفي ذلك يقول ابن جبير عند وصوله الى المنزل كان ذلك «يوم الخميس الثاني والعشرين لمحرم، والخامس والعشرين لابريل الى المنزل بغرناطة.

فالقت عصاها واستقر بها النوى كما قرَّ عيناً بالاياب المسافرُ

وقال ابن جبير:ـ

«فكانت مدة مقامنا من لدن خروجنا من غرناطة الى وقت ايابنا هذا عاملين كاملين وثلاثة اشهر ونصفاً، والحمد لله رب العالمين»(٢٨).

ولايسع الباحث الا ان يتصفح رحلته ليقف على مشاهدته في العراق، والمدن التي وصفها.

ـ العراق في رحلة ابن جبير ـ

ولعل اول مدينة مهمة دخلها في العراق هي مدينة الكوفة فوصفها قائلاً:ـ

«هي مدينة كبيرة، عتيقة البناء، قد استولى الخراب على اكثرها، فالغابر منها اكثر من العامر.... وبناء هذه المدينة بالاجر خاصة، ولا سور لها، والجامع العتيق اخرها... وهو جامع كبير في الجانب القبلي منه خمسة ابلطة وفي سائر الجوانب بلاطان، وهذه البلاطات على اعمدة من السواري الموضوعة من صُمّ الحجارة المنحوتة، قطعة على قطعة، مفرغة بالرصاص، ولا قسي عليها على الصفة التي ذكرناها في مسجد(٢٩) رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهي في نهاية الطول، متصلة بسقف المسجد، فتحار العيون في تفاوت ارتفاعها، فلا ارى في الارض مسجداً اطول اعمدة منه ولااعلى سقفاً، وبهذا الجامع المكرم اثار كريمة فمنها بيت بازاء المحراب عن يمن المستقبل القبلة يقال: إن كان مصلى ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم وعليه ستر اسود صونا له.... ومما يلي الأيمن من القبلة محراب مُحلق عليه باعواد الساج

مرتفع عن صحن البلاط كأنه مسجد صغير وهو محراب امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه. . . . وفي الزاوية من اخر هذا البلاط، المتصل باخر البلاط الغربي، شبيه مسجد صغير محلق علية ايضا باعداد الساج هو موضع مغار التنور الذي كان آية لنوح عليه السلام»[٣٠]

وفي ظهره خارج المسجد بيته الي كان فيه، وفي ظهره بيت آخر يقال: إنه كان متعبد ادريس صلى الله عليه وسلم. ويتصل بها فضاء متصل بالجدار القبلي من المسجد يقال: إنه منشأ السفينة. ومع اخر هذا الفضاء دار علي بن ابي طالب رضي الله عنه، والبيت الذي غسل فيه، ويتصل به بيت يقال: إنه كان بيت ابنة نوح صلى الله عليه وسلم.

وفي الجهة الشرقية من الجامع بيت صغير يصعد اليه فيه قبر مسلم بن عقيل بن ابي طالب رضي الله عنه، وفي جوفيُّ الجامع على بعد منه يسير سقاية كبيرة من الماء الفرات، فيها ثلاثة احواض كبار.

وفي غربي المدينة على مقدار فرسخ منها المشهد الشهير الشأن المنسوب لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه، حيث بركت ناقته وهو محمول عليها مسجى ميتاً. . . ويقال ان قبره فيه ـ وفي هذا المشهد بناء حفيل. . . والفرات من الكوفة على مقدار نصف فرسخ. مما يلي الجانب الشرقي ـ
والجانب الشرقي كله حدائق نخيل ملتفة يتصل سوادها ويمتد امتداد البصر.»[٣١]

ومن الرحالين الذين سبقوا ابن جبير ووصفوا هذه المدينة ـ اليعقوبي[٣٢] الذي اشار الى تأسيسها، وتخطيطها، وذكر القبائل العربية التي سكنتها وسمى هذه القبائل بأسمائها، وافخاذها، كما انه ذكر المنازل بينها وبين المدينة المنورة من جهة، ومكة المكرمة من جهة اخرى[٣٣]

اما ابن خرداذبه[٣٤] فقد ذكر الكوفة في كتابه المسالك والممالك في عدة مواضع. وبين المسافات بينها، وبين المدن العراقية من ناحية، والمدن العربية من ناحية اخرى[٣٥] وقد اشار الاصطخري[٣٦] الى مدينة الكوفة بشيء من الايجاز[٣٧]
اما المقدسي[٣٨] فقد وصفها قائلاً:ـ
«الكوفة قصبة جليلة. . . حسنة البناء، جليلة الاسواق، كثيرة الخيرات. . . ثم يشير الى جامعها الشهير وكيفية بنائه[٣٩].

وحذا ابن حوقل[٤٠] حذو المقدسي فوصفها كذلك قائلاً:ـ

«ومدينة الكوفة قريبة الاوصاف من البصرة وهواؤها اصح، وماؤها اعذب، وهي على الفرات، وبناؤها كبناء البصرة» ثم يشير الى بعض المشاهد الكريمة في هذه المدينة[٤١]
وبعد سنوات زار ابن بطوطة[٤٢] الكوفة فذكرها قائلاً:ـ

«وهي احدى امهات البلاد العراقية المتميزة فيها، بفضل المزية، مثوى الصحابة، والتابعين، ومنزل العلماء والصالحين، وحضرة علي بن ابي طالب امير المؤمنين وبناؤها بالآجر، واسواقها حسان، وجامعها الاعظم جامع كبير شريف بلاطه سبعة قائمة على سواري حجارة ضخمة منحوتة قد صنعت قطعاً، ووضع بعضها على بعض، وافرغت بالرصاص وهي مفرطة الطول».

وبهذا الجامع اثار كريمة[٤٣]. . . الى اخر ما ذهب اليه والجدير بالذكر ان الرحالة الذين سبقوا ابن جبير او الذين جاءوا من بعده كابن بطوطة يجمعون على المعلومات التي ذكرها ابن جبير في رحلته عن هذه المدينة ـ حيث انه ذكر اثاراً عظيمة الشأن، واخباراً في غاية الاهمية عن هذه المدينة العريقة، التي بناها سعد بن ابي وقاص باشارة من امير المؤمنين عمر رضي الله عنه في سنة ١٧ هـ زد الى ذلك فالكوفة وريثة الحيرة، وحاضرة الدولة الاسلامية في خلافة الامام علي عليه السلام. وكانت في القرن الاول والثاني من الهجرة ثانية اثنين من حواضر المدن الاسلامية اعني ـ هي والبصرة ـ المدينتين اللتين كانتا تشعان علماً وثقافة الى الحواضر الاسلامية كافة. حتى جاء دور بغداد في منتصف القرن الثاني الهجري.

والكوفة الآن مدينة عامرة في بنائها، واسواقها وتنظيمها، وهي معتدلة الجو، عليلة النسيم، كثيراً ما يتخذها النجفيون منتجعا لهم. وزيادة على ما ذكر ان حكومة الثورة قد اسست فيها جامعة تسمى جامعة الكوفة، لتعيد الى هذه المدينة العريقة مكانتها العلمية السالفة ـ ومن المدن التي شاهدها ابن جبير مدينة الحلة فوصفها قائلاً:ـ

«هي مدينة كبيرة، عتيقة الوضع، مستطيلة، لم يبق من سورها الا حلق من جدار ترابي مستدير بها. وهي على شط الفرات، يتصل بها من جانبها الشرقي، ويمتد بطولها ـ ولهذه المدينة اسواق حفيلة، جامعة للمرافق المدنية، والصناعات الضرورية، وهي قوية العمارة، كثيرة الخلق، متصلة حدائق النخيل داخلاً، وخارجاً، فديارها بين حدائق النخيل. والفينا

بها جسرا عظيما معقودا على مراكب كبار، متصلة من الشط الى الشط، تحف بها من جانبها سلاسل من حديد كالاذرع المفتولة عظماً وضخامة، ترتبط الى خشب مثبتة في كلا الشطين، تدل على عظم الاستطالة والقدرة.

امر الخليفة بعقدة على الفرات اهتماما بالحاج، واعتناء بسبيلة وكانوا قبل ذلك يعبرون في المراكب. فوجدوا هذا الجسر قد عقده الخليفة في مغيبهم، ولم يكن عند شخوصهم الى مكة شرفها الله، وعبرنا الجسر. . . ونزلنا بشط الفرات على مقدار فرسخ من البلد. وهذا النهر كاسمه فرات هو من اعذب المياه واخفها وهو نهر كبير زخار تصعد فيه السفن وتنحدر.

والطريق من الحلة الى بغداد احسن طريق واجملها، في بساط من الارض، وعمائر تتصل بها القرى يميناً وشمالاً. ويشق هذه البسائط اغصان من ماء الفرات تتسرب بها، وتسقيها فمحرثها لاحد لاتساعه، وانفساحه، فللعين من هذه الطريق مسرح انشراح، وللنفس مراح انبساط وانفساح، والامن فيها متصل»(٤٤)

ومما لا شك فيه ان الحلة الفيحاء تقع في اقليم بابل الذي اشار اليه المسعودي(٤٥) قبل ابن جبير. فذكر ان هذا الاقليم جليل وقدره عظيم، وكانت عناية الملوك به معروفة حيث انهم كانوا يشترون بالعراق، واكثرهم يصيفون بالجبال، وينتقلون في الفصول الى الصرود من الارض والجرود. وكان اهل المروءات في الاسلام كأبي دلف(٤٦) القاسم بن عيسى العجلي وغيره يشتون في الحرور وهو في العراق، ويصيفون في الصدود وهي الجبال.

ولما خص به هذا الاقليم من كثرة مرافقه، واعتدال ارضه، وغضارة عشبه، ومادة الوافدين اليه، وهما دجلة والفرات، وعموم الامن فيه، وبعد الخوف عنه، وتوسطه الاقاليم السبعة. كانت الاوائل تشبهه من العالم بالقلب من الجسد لأن ارضه من اقاليم بابل الذي تشعبت الاراء عن اهله بحكمة الامور، كما يقع ذلك عن القلب، وبذلك اعتدلت الوان اهله، واجسامهم، فسلموا من شقرة الروم والصقالبة وسواد الحبشة، وغلظ البربر، ومن جفاف الامم واجتمعت فيه محاسن جميع الاقطار، وكما اعتدلوا في الجبلة، كذلك لطفوا في الفطنة، والتمسك بمحاسن الامور، واشرف هذا الاقليم مدينة السلام»(٤٧)

وبعد المسعودي اي في نهاية القرن الرابع تقريباً اشير في صورة الارض الى مدينة الحلة، حيث سميت حلة ابن مزيد. وهي مدينة محدثة استحدثها منصور بن مزيد الاسدي(٤٨). في غربي الفرات، وهي مدينة منغصة بالناس، كثيرة الاسواق، دائمة الشري، والبيع، وبها مسجد جامع حسن كبير، وجبايتها ربما زادت على الف دينار.(٤٩)

فلا عجب اذا ما وصفت الحلة او بابل بهذه الاوصاف، ونعت بهذه النعوت، فقد عرفت هذه الارض المباركة اول حضارة، وثقافة في العالم، واثارها الان تدل عليها. وقد أبت حكومتنا الوطنية الا ان تعرف العالم ما لهذه الارض من حضارة، وثقافة، اسهمتا اسهاماً فعالاً في المعرفة الانسانية، ولاقطار العالم كافة، فقامت بمهرجانها الذي اسمته «مهرجان بابل الدولي» في العام الماضي فتوافد العالم الى العراق ليطلع بنفسه على اعجوبة من عجائب الدنيا المتمثلة في هذه الاثار الشاخصة في مدينة بابل.

ولا ننسى ان الحلة كانت منذ سنة ١٣٤٩(٥٠) وحتى سنة ١٨٩٧م(٥١) وما بعدها كانت تناظر مدينة النجف الاشرف في نهضتها الثقافية والعلمية، فظهر فيها الشعراء، والادباء، والعلماء الذين يشار اليهم بالبنان.

اما الحلة الان وفي ـ عهد الثورة ـ فهي مدينة حديثة متطورة في بناياتها، وعماراتها، ومستشفياتها، ومدارسها، ومعاملها الصناعية المختلفة، وفي نظامها، وتنسيق شوارعها كما ان الحلة ـ قديماً وحديثاً ـ وقد لبست ثوباً قشيباً من اشجار النخيل، واشجار الفواكه الاخرى. فهي قطعة خضراء ممرعة. زد الى ذلك جواً ممتعاً، ونسيماً معتدلاً، وهي بعد هذا وذاك متوسطة في قلب العراق الحبيب، قريبة من بغداد، والحواضر العراقية الاخرى، ككربلاء، والنجف الاشرف، والديوانية، والناصرية، وهذا يعزز مكانتها الاقتصادية، والاجتماعية، والعمرانية، لذلك فهي في ثراء ظاهر، وغنى واضح، واحوالها الاجتماعية في الوقت الحاضر تفصح عن ذلك بكل جلاء،

ونظراً لما لهذه المدينة من اهمية عظيمة لقد قررت حكومتنا الوطنية في السنة القادمة فتح كليتي الهندسة، والقانون تكونان تابعتين الى جامعة الكوفة ـ ولعل هاتين الكليتين ستكونان نواة لجامعة شاملة مانعة تقيم كليات اخرى ولمختلف الفروع.

وبعد ان وصف ابن جبير في طريقة من الحلة الى بغداد عدة قرى وارياف وصل بغداد فنعتها قائلاً:ـ

وهذه المدينة العتيقة، وان لم تزل حضرة الخلافة العباسية، ومثابة الدعوة الامامية القرشية الهاشمية[٥١]؟

هي جانبان: شرقي وغربي ودجلة بينهما... وعمارة الجانب الشرقي مُحدثة... وهو يحتوي على سبع عشرة محلة كل محلة منها مدينة مستقلة، وفي كل واحدة منها الحمامان والثلاثة... وفيها ثمانية جوامع - يصلى فيها الجمعة - فاكبرها جامع «القرية»[٥٢] وهي التي نزلنا فيها بربض منها يعرف «بالمربعة»[٥٣] على شط دجلة بمقربة من الجسر فحملته دجلة بمدها السيلي، فعاد الناس يعبرون بالزوارق والزوارق فيها لا تحصى كثيرة فالناس ليلاً ونهاراً من تمادي العبور فيها في نزهة متصلة رجالاً ونساء - والعادة ان يكون لها جسران: احدهما مما يقرب من دور الخليفة، والاخر فوقه لكثرة الناس. والعبور في الزوارق لا ينقطع فيها. ثم «الكرخ» وهي مدينة مسورة، ثم محلة «باب البصرة»، وهي ايضاً مدينة وبها جامع المنصور رحمه الله، وهو جامع كبير عتيق البيان حفيله - ثم «الشارع» وهي ايضاً مدينة فهذه الاربع اكبر المحلات. وبين الشارع، ومحلة باب البصرة «سوق المارستان» وهي مدينة صغيرة فيها المارستان[٥٤] الشهير ببغداد، وهو على دجلة، وتتفقد الاطباء كل يوم اثنين وخميس ويطالعون احوال المرضى به، ويرتبون لهم اخذ ما يحتاجون اليه. وبين ايديهم قومة يتناولون طبخ الادوية والاغذية. وهو قصر كبير فيه المقاصير، والبيوت، وجميع مرافق المساكن الملوكية، والماء يدخل اليه من دجلة. واسماء سائر المحلات يطول ذكرها «كالوسيطة» وهي بين دجلة ونهر يتفرع من الفرات، وينصب في دجلة، يجيء فيه جميع المرافق التي في الجهات التي يسقيها الفرات ويشق على باب البصرة الذي ذكرنا محلته نهر اخر منه، وينصب ايضاً في دجلة.

ومن اسماء المحلات «العتابية» وبها تصنع الثياب العتابية وهي حرير وقطن مختلفات الالوان، ومنها «الحربية» وهي اعلاها وليس وراءها الا القرى الخارجية عن بغداد الى اسماء يطول ذكرها وباحدى هذه المحلات قبر - معروف الكرخي - وهو رجل من الصالحين مشهور الذكر في الاولياء.... وفي الجانب الغربي ايضاً - قبر موسى بن جعفر - رضي الله عنهما، الى مشاهد كثيرة ممن لم تحضرنا تسميته من الاولياء والصالحين، والسلف الكريم، رضي الله عنهم اجمعين. وباعلى الشرقية خارج البلد محلة كبيرة بازاء محلة الرصافة، وبالرصافة كان باب الطاق المشهور على الشط. وفي تلك المحلة مشهد حفيل البيان له قبة بيضاء سامية في الهواء فيه قبر الامام - ابي حنيفة - رضي الله عنه، وبه تعرف المحلة، وبالقرب من تلك المحلة، قبر الامام - احمد بن حنبل - رضي الله عنه، وفي تلك الجهة ايضاً... قبر - الحسين بن المنصور الحلاج.[٥٦] وببغداد من قبور الصالحين كثير، رضي الله عنهم. والغربية هي البساتين والحدائق، ومنها تجلب الفواكه الى الشرقية»[٥٧]؟

واما الشرقية فهي اليوم دار الخلافة، وكفاها بذلك شرفاً واحتفالاً! ودور الخليفة مع اخرها، وهي تقع في نحو الربع او ازيد، لان جميع العباسيين في تلك الديار معتقلين اعتقالاً جميلاً، لا يخرجون، ولا يظهرون، ولهم المرتبات القائمة بهم، وللخليفة من تلك الديار جزء كبير، قد اتخذ فيها المناظر المشرفة، والقصور الرائقة، والبساتين الانيقة. وليس لهم اليوم وزير، انما له خديم[٥٨] يعرف بنائب الوزراء، يحضر الديوان المحتوي على اموال الخلافة، وبين يديه الكتب، فينفذ الامور، وله قيم على جميع الديار العباسية وامين على كافة الحرم الباقيات من عهد جده وابيه، وعلى جميع من تضمه الحرمة الخلافية، يعرف بالصاحب مجد الدين[٥٩] استاذ الدار، هذا لقبه، ويدعى له اثر الدعاء للخليفة، وهو قلما يظهر للعامة، اشتغالاً بما هو بسبيله من امور تلك الديار، وحراستها، والتكفل بمغالقها، وتفقدها ليلاً، ونهاراً...

وقد يظهر الخليفة في بعض الاحيان بدجلة راكبا في زورق، وقد يصيد في بعض الاوقات في البرية، وظهوره على حالة اختصار، تعمية لامره على العامة، فلا يزداد مع تلك التعمية الا اشتهارا. وهو مع ذلك يحب الظهور للعامة، ويؤثر التحبب لهم، وهو ميمون النقيبة عندهم قد استسعدوا بايامه رخاء، وعدلاً، وطيب عيش، فالكبير والصغير منهم داع له. ابصرنا هذا الخليفة المذكور - وهو ابو العباس احمد الناصر لدين الله بن المستضيئ بنور الله ابي محمد الحسن بن المستنجد بالله ابي المظفر يوسف، ويتصل ابي المظفر يوسف، ويتصل نسبه الى ابي الفضل جعفر المقتدر بالله[٦٠] الى السلف فوقه من اجداده الخلفاء، رضوان الله عليهم - بالجانب الغربي امام منظرته به،

وقد انحدرت عنا صاعداً في الزورق الى قصره باعلى الجانب الشرقي على الشط وهو في فتاء في سنة. اشقر اللحية صغيرها، كما اجتمع بها وجهه، حسن الشكل، جميل المنظر، ابيض اللون، معتدل القامة، رائق الرواء، سنه نحو الخمس وعشرين سنة، لابساً ثوباً ابيض شبه القباء برسوم ذهب فيه، وعلى راسه قلنسوة مذهبة، مطوقة بوبر اسود من الاوبار الغالية القيمة، المتخذة للباس مما هو كالفنك واشرف، معتمداً بذلك زي الاتراك، تعمية لشأنه، لكن الشمس لا تخفى وان سُترت. وذلك عشية يوم السبت السادس لصفر سنة ثمانين، وابصرناه ايضاً عشيّ يوم الاحد بعده متطلعاً من منظرته المذكورة بالشط الغربي، وكنا نسكن بمقربة منها.

والشرقية حفيلة بالاسواق، عظيمة الترتيب، تشتمل من الخلق على بشر لايحصيهم الا الله تعالى، الذي احصى كل شيْ عددا. وبها من الجوامع ثلاثة، كلٌ يجمع فيها جامع الخليفة متصل بداره، وهو جامع كبير، وفيه سقايات عظيمة، ومرافق كثيرة كاملة، مرافق الوضوء، والطهور، وجامع السلطان وهو خارج البلد. . . .، وجامع الرصافة، وهو على الجانب الشرقي المذكور، والرصافة تربة الخلفاء العباسيين رحمهم الله. فجميع جوامع البلد ببغداد المجمع فيها احد عشر.

واما حماماتها فلا تحصى عدةً، ذكر لنا احد اشياخ البلد انها بين الشرقية والغربية نحو الالفي حمام، واكثرها مطلية بالقار مسطحة به، فيخيل للناظر انه رخام اسود صقيل. وحمامات هذه الجهات اكثرها على هذه الصفة لكثرة القار عندهم، لان شأنه عجيب، يجلب من عين بين البصرة والكوفة، وقد انبط[61] الله ماء هذه العين ليتولد منه القار، فهو يصير في جوانبها كالصلصال[62] فيجرف ويجلب وقد انعقد، فسبحان خالق ما يشاء، لااله سواه. واما المساجد بالشرقية والغربية، فلا ياخذها التقدير فضلاً عن الاحصاء ـ والمدارس بها نحو الثلاثين، وهي كلها بالشرقية، وما منها مدرسة وهي يقصر القصر البديع عنها ـ واعظمها واشهرها النظامية وهي التي ابتناها نظام الملك،[63] وجددت سنة اربع وخمس مئة، ولهذه المدارس اوقاف عظيمة، وعقارات مُحَبَّسة، تتصير الى الفقهاء المدرسين بها، ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم، ولهذه البلاد في امر هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم، وفخر مخلد، فرحم الله واصفها الاول، ورحم من تبع ذلك السنن الصالح. وللشرقية اربعة ابواب: فاولها وهو في اعلى الشط، باب السلطان، ثم باب الظفرية ثم يليه باب الحلبة، ثم البصلية ـ هذه الابواب التي هي في السور المحيط بها، من اعلى الشط الى اسفله، هو ينعطف عليها كنصف دائرة مستطيلة. وداخله في الاسواق ابواب كثيرة. وبالجملة فشان هذه البلدة اعظم من ان يوصف»[64]؟

وقد وصف ابن جبير كذلك مجالس الوعظ في بغداد فقال:ـ

«فأول من شاهدنا ـ مجلس ـ الشيخ الامام رضي الدين القزويني[65] رئيس الشافعية، وفقيه المدرسة النظامية. . . حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة. فصَعد المنبر، واخذ القراء امامه في القراءة على كراسي موضوعة، فتوقوا وتشوقوا. ثم اندفع الشيخ الامام المذكور، فخطب خطبة سكون، ووقار، وتصرف في افانين من العلوم، من تفسير كتاب الله عز وجل، وايراد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتكلم معانيه. ثم رشقته شآبيب المسائل من كل جانب، فاجاب وما قصر، وتقدم وما تاخر. . فكان مجلسه مجلس علم، ووعظ، وقوراً، هيناً ليناً، ظهرت فيه البركة، والسكينة ولم تقتصر عن ارسال عبرتها فيه النفس المسكينة، ولا سيما آخر مجلسه، فانه سرت حمياً وعظه الى النفوس، حتى اطارتها خشوعاً، وفجرتها دموعاً . . . فبمثل مقام هذا الشيخ المبارك ترحم العصاة، وتتغمد الجناة، وتستدام، والنجاة، والله تعالى يجازي كل ذي مقام عن مقامه، انه المنعم الكريم، لارب سواه، ولا معبود الا اياه»[66]؟

لقد اعطى ابن جبير صورة ناطقة حية عن الحياة الثقافية والدينية في بغداد صاغها باسلوبه الذي يمتاز بنفحة ادبية ممتازة.

ووصف مجلس ابن الجوزي[67] على نهر دجلة كذلك فقال: «ثم شاهدنا مجلس الشيخ الفقيه، الامام الاوحد جمال الدين ابي الفضائل بن علي الجوزي بازاء داره على الشط، بالجانب الشرقي، وفي اخره، على اتصال من قصور الخليفة، وبمقربة من باب البصلية اخر ابواب الجانب الشرقي، وهو يجلس به كل يوم سبت، فشاهدنا مجلس رجل ليس من عمرو، ولا زيد وفي جوف الفرا كل الصيد[68] آية الزمان، وقرة عين الايمان، رئيس الحنبلية، والمخصوص في العلوم بالرتب العلمية، امام الجماعة، وفارس حلبة هذه الصناعة، والمشهود له بالسبق الكريم، في البلاغة والبراعة مالك ازمة الكلام في النظم، والنثر، والغائص في بحر فكره على نفائس الدر، فاما نظمه فرضي الطباع، مهياري الانطباع[69] واما نثره فيصدع بسحر

البيان، ويعطل المثل بقس، وسبحان ومن ابهر اياته، واكبر معجزاته يصعد المنبر، ويبتدىء القراء بالقرآن، وعددهم ينيف على العشرين قارئاً. فينتزع الاثنان منهم او الثلاثة آية من القراء، يتلونها على نسق، بتطريب وتشويق، فاذا فرغوا، تلت طائفة اخرى على عددهم آية ثانية، ولا يزالون آيات من سور مختلفات، الى ان يتكاملو قراءة، وقد اتوا بايات مشتبهات لا يكاد المتقد الخاطر يحصلها عددا، او يسميها نسقاً. فاذا فرغوا اخذ هذا الامام الغريب الشان في ايراد خطبته عجلاً مبتدراً، وافرغ في اصداف الاسماع من الفاظه درراً، وانتظم اوائل الايات المقروءات في اثناء خطبته فِقراً، واتى بها على نسق القراءة لها لا مقدماً، ولا مؤخراً. ثم اكمل الخطبة على قافية اخر اية منها، فلو ان ابرع من في مجلسه تكلف تسمية ما قرأ القراء ايةً اية على الترتيب، لعجز عن ذلك. فكيف بمن ينتظمها مرتجلاً، ويورد الخطبة الغراء، بها عجلاً.

«افسحرٌ هذا ام انتم لا تبصرون»(٧٠) «ان هذا لهو الفضلُ المبين»،(٧١) فحدث ولا حرج عن البحر، وهيهات، ليس الخبر عنه كالخبر! ثم انه اتى بعد ان فرغ من خطبته برقائق من الوعظ، وآيات بينات من الذكر، طارت لها القلوب اشتياقاً، وذابت بها الانفس احتراقاً، الى ان علا الضجيج، وتردد بشهقاته النشيج، واعلن التائبون بالصياح... وفهم من يغشى عليه فيرفع في الاذرع اليه. فشاهدنا هولاً يملأ النفوس انابة وندامة، ويذكرنا هول يوم القيامة، فلو لم نركب ثبج(٧٢) البحر، ونعتسف مفازات القفر، الا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل، لكانت الصفقة الرابحة، والوجهة المفلحة الناجحة، والحمد لله على ان مَنَّ بلقاء من يشهد الجمادات بفضله، ويضيق الوجود عن مثله. وفي اثناء مجلسه ذلك يبتدرون المسائل، وتطير اليه الرقاع، فيجاوب اسرع من طرفة عين. وربما كان اكثر مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل - والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، لا اله سواه». (٧٣)

ان مثل هذه المجالس العامرة بالوعظ، والارشاد، تعطي دلالة واضحة، لما للخلفاء العباسيين من اياد بيضاء في تعظيم شعائر الدين، ونشر الفضيلة، واقامة صروح العدل التي يبنى عليها اساس الملك، فيستقر الامان في النفوس، فيتكامل المجتمع، ويتضامن في ظل من الرخاء، والطمأنينة.
وسبق ابن جبير اليعقوبي في وصفه لبغداد قائلاً:-

«وانما ابتدأت بالعراق لانها وسط الدنيا، وسرة الارض وذكرت بغداد لانها وسط العراق، والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الارض، ومغاربها، سعة، وكبراً، وعمارة، وكثرة مياه، وصحة وهواء، ولأنه سكنها من اصناف الناس، واهل الامصار، والكور، انتقل اليها من جميع البلدان القاصية، والدانية، وآثرها جميع اهل الآفاق على اوطانهم، فليس من اهل الا ولهم فيها محلة ومتجر، ومتصرف فاجتمع بها ما ليس في مدينة في الدنيا»(٧٤).

وقد سبقت الاشارة الى قول المسعودي في وصف اقليم بابل عندما يقول عن بغداد «واشرف هذا الاقليم مدينة السلام». (٧٥) وقد اكدّ معلومات اليعقوبي عن بغداد الاصطخري(٧٦) في وصفه لهذه المدينة كذلك.
اما المقدسي فوصف بغداد قائلاً:-

«بغداد في مصر الاسلام، وبها مدينة السلام. ولهم الخصائص، والظرافة، والقرائح واللطافة، هواء رقيق، وعلم دقيق، كل جيد بها، وكل حسن فيها، وكل حاذق منها، وكل ظرف لها، وكل قلب اليها،... وكل ذب عنها، هي اشهر من ان توصف، واحسن من ان تنعت، واعلى من ان تمدح»(٧٧) وحذا حذو المقدسي في وصف بغداد ابن حوقل في كتابه صورة الارض،(٧٨) وقد أيدّ اوصاف الرحالين الذين سبقوه عن هذه المدينة وبعد سنين خلت اتى ابن بطوطة. ووصف بغداد(٧٩) واحوالها واكد المعلومات التي ذكرها ابن جبير في رحلته، وذكر بعض الشعراء الذي تغنوا ببغداد حيث قالوا:-(٨٠)

طيبُ الهواء ببغداد يشوقني ... قرباً اليها وان عاقت مقاديرُ
وكيف ارحل عنها اليوم اذ جمعت ... طيب الهواءين: ممدوح ومقصورُ

وقالوا ايضاً:-

سلامٌ على بغداد في كل موطنٍ ... وَحُقَّ لها مني السلام المضاعفَ
فوالله ما فارقتها عن قلى لها ... واني بشطي جانبيها لعارف
وكانت كخلٍ كنت اهوى دنوه ... واخلاقهُ تنأى به وتخالفُ(٨١)

ومهما قيل عن بغداد، فبغداد في عصورها الذهبية كانت بغداد تشرئب اليها الانظار. وبعدئذ لحق ببغداد عبر العصور التاريخية حيف لا سيما في القرن السابع اي سنة ٦٥٦ هـ بعد سقوط الدولة العباسية وهجوم التتر عليها. غير ان بغداد ظلت

كالشمس وان حجبها الغمام طوراً من الزمن. غير انها سرعان ما تشرق، وتخرج من هذا الحجاب، لترسل اشعتها الذهبية الى العالم كافة.

اما بغداد اليوم وفي ـ عصر حكومتنا الوطنية ـ وكما نراها فهي ترفل بثيابها القشيبة، حيث ارست اقدامها قوية وراحت منطلقة في مضمار الثقافة، والحضارة، لتلتحق بالركب العالمي، وتسهم في تطور الحياة البشرية. حتى اصبحت الان من المدن الحديثة المتطورة التي يشار اليها بالبنان.

وستظل بغداد عنوان العراق، ورمز العروبة، وحاضرة الاسلام والى الابد.

لقد غادر ابن جبير بغداد مواصلاً رحلته حتى وصل الى سامراء فوصفها قائلاً:ـ

«ونزلنا مع الصباح من يوم الخميس الثامن عشر لصفر على شط دجلة بمقربة من حصن يعرف «بالمعشوق»(٨٢) يقال انه كان متفرجاً لزبيدة ابنة عم الرشيد وزوجه رحمه الله. وعلى قبالة هذا الموضع في الشط الشرقي مدينة «سُرَّ مَنْ رأى». وهي اليوم عبرة من رأى: أين معتصمها، وواثقها، ومتوكلها؟! مدينة كبيرة قد استولى الخراب عليها، الا بعض الجهات منها هي اليوم معمورة. وقد اطنب المسعودي رحمه الله في وصفها، ووصف طيب هوائها ورائق حسنها، وهي كما وصف، وان لم يبق الا الاثر من محاسنها، والله وارث الارض ومن عليها».

ومن المفارقات ان ابن جبير لم يصف ملويتها بل قل انه لم يذكرها في رحلته اطلاقاً. وهي ـ الى الان. . ما دامت شامخة في سامراء تطاول السماء سمواً، وارتفاعاً وهي تحكي للاجيال الصاعدة قصة هؤلاء الاجداد الذين ارسوا قواعد حضارة عريقة في هذه المدينة عرفها العالم كله. وقد اطنب اليعقوبي(٨٣) في وصفها، حتى يكاد هذا الوصف يكون اهم مصدر يعول عليه لتفصيلات هذه المدينة التي تعد المدينة الثانية بعد بغداد عند خلفاء بني العباس، لانهم اتخذوها عاصمة لسلطان خلافتهم.

اما الاصطخري فوصف سامراء قائلاً:ـ

«وهي مدينة اسلامية ابتدأها المعتصم واستتم بناءها المتوكل. . . وهواؤها، وثمارها اصح من بغداد». (٨٤)

وقال المقدسي في وصف سامراء:ـ

«سامراء كانت مصراً عظيماً، ومستقراً للخلفاء في القديم. . . ولها جامع كبير كان يختار على جامع دمشق، قد لبست حيطانه بالمينا، وجعلت فيه اساطين الرخام، وفرش به، وله منارة طويلة، وامور متقنة. وكانت بلداً جليلاً». (٨٥) الى اخر ما ذهب اليه.

وناظره في هذا الوصف ابن حوقل. (٨٦)

اما سامراء اليوم فهي مدينة عامرة في تطور مستمر، وقد اسست حكومتنا الوطنية فيها معملاً ضخماً للادوية يكاد يعول المدن العراقية كافة.

اما جوها فممتع، ونسيمها فعليل حتى كاد البغداديون يتخذونها مصيفاً او قل متكأ للراحة والاستجمام، يقضون في فندقها السياحي اوقات عطلهم. زد الى ذلك ان سامراء فيها مرقدا الامامين العسكريين. لذلك يأتي اليها الزوار من كل حدب وصوب. هذه القدسية جعلتها من المدن المهمة في العراق، فضلاً عن ماضيها المشرف الذي اشرت اليه بشيءٍ من الاقتضاب.

لقد غادر ابن جبير سامراء مستمراً في رحلته حتى وصل مدينة تكريت فوصفها قائلاً:ـ

«وهي مدينة كبيرة، واسعة الارجاء، فسيحة الساحة حفيلة الاسواق، كثيرة المساجد، غاصة بالخلق اهلها احسن اخلاقاً وقسطاً في الموازين. . . . . ودجلة منها في جوفها. ولها قلعة حصينة على الشط، هي قصبتها المنيعة ويطيف بالبلد سور، قد اثر الوهن فيه. وهي من المدن العتيقة المذكورة»(٨٧)

ومن دراستي المتواضعة لادب الرحلات بدا لي ان مدينة تكريت مدينة عريقة في القدم. فقد ذكرها ابن خرداذبة في ثلاثة مواضع في كتابه المسالك والممالك. (٨٨)

كما ان المقدسي اشار اليها فذكر ان مدينة تكريت مدينة كبيرة، تشتهر بزراعة السمسم، وصناعة الصوف. (٨٩) اما ابن حوقل فقد ذكر ان مدينة تكريت تقع على نهر دجلة وانه على الدجلة بها عقد جسر آجر يعبر عليه ايام المياطلة، (٩٠) وادركت اثراً من ذلك يشهد له في سني نيف وعشرين وثلثمائة. »(٩١)

وبعد سنين زارها ابن بطوطة، (٩٢) واكد المعلومات التي ذكرها ابن جبير عن هذه المدينة. اما مدينة تكريت الان وقد اسمتها حكومة الثورة ب «محافظة صلاح الدين» فقد بدأ التطور على هذه المدينة القديمة ملحوضاً في شوارعها، وفي ابنيتها، وفي تنظيمها، وقد قررت حكومتنا الوطنية فتح كلية التربية للبنات فيها، املين ان شاء الله ان تكون هذه الكلية نواة لجامعة عامرة

تضم كل الفروع.

ومدينة «محافضة صلاح الدين» تعد مدينة مهمة لأنها ترتبط بسامراء، وبغداد من ناحية، وبالموصل، وتركيا من ناحية اخرى. فموقعها الجغرافي ساعدها على انتعاش الحركة التجارية الدائبة فيها. زد الى ما اتسمت به هذه المدينة العريقة من سمات اشرت اليها في هذا المقتضب.

وهكذا واصل ابن جبير رحلته حتى وصل الى مدينة الموصل فوصفها قائلاً:-

«هذه المدينة عرتيقة ضخمة، حصينة فخمة، قد طالت صحبتها للزمن، فاخذت اهبة استعدادها لحوادث الفتن، قد كادت ابراجها تلتقي انتظاماً، لقرب مسافة بعضها من بعض، وباطن الداخل منها بيوت، بعضها على بعض، مستديرة بجداره المطيف بالبلد كله، كأنه قد تمكن فتحها فيه لغلظ بنيته، وسعة وضعه، وللمقاتلة في هذه البيوت حرز ووقاية. وهي من المرافق الحربية. وفي اعلى البلد قلعة عظيمة، قد رُصَّ بناؤها رصاً، ينتظمها سور عتيق البنية، مشيد البروج، وتتصل بها دور السلطان - وقد فصل بينها وبين البلد شارع متسع، يمتد من اعلى البلد الى اسفله. ودجلة شرقي البلد، وهي متصلة بالسور، وابراجه في مائها.

وللبلدة ربض كبير، فيه المساجد، والحمامات، والاسواق، واحدث فيه بعض امراء البلدة - وكان يعرف بمجاهد الدين - جامعاً على شط دجلة، ما أرى وضع جامع احفل منه، بناء يقصر الوصف عنه، وعن تزيينه، وترتيبه، وكل ذلك نقش في الاجر. واما مقصورته فتذكر بمقاصير الجنة، ويطيف به شبابيك حديد، تتصل بها مصاطب تشرف على دجلة لامقعد اشرف منها، ولا احسن، ووصفه يطول، وانما وقع الالماع بالبعض، جرياً الى الاختصار، وامامه مارستان حفيل، من بناء مجاهد الدين المذكور.

وبنى ايضاً داخل البلد، وفي سوقه، قيسارية للتجار كأنها الخان العظيم، تنغلق عليها ابواب حديد، وتطيف بها دكاكين وبيوت، بعضها على بعض، قد جلي ذلك كله في اعظم صورة في البناء المزخرف، الذي لا مثيل له. فما ارى في البلاد قيسارية تعدلها. وللمدينة جامعان:

احدهما جديد، والاخر من عهد بني امية، وفي صحن هذا الجامع فيه، داخلها سارية رخام قائمة، قد خلخل جيدها بخمسة خلاخل مفتولة فتل السوار من جرم رخامها، وفي اعلاها خُصَّة رخام مثمنة، يخرج عليها انبوب من الماء، خروج انزعاج وشدة، فيرتفع في الهواء ازيد من القامة كانه قضيب من البلور معتدل، ثم ينعكس الى اسفل القبة. ويجمع في هذين الجامعين القديم، والحديث، ويجمع ايضاً في جامع الربض. وفي المدينة مدارس للعلم نحو الست او ازيد على دجلة، فتلوح كانها القصور المشرقة. ولها مارستان حاشا الذي ذكرناه في الربض.

وخص الله هذه البلدة بتربة مقدسة فيها ومشهد جرجيس صلى الله عليه وسلم»، وقد بنى فيه مسجد وقبره في زاوية من احد بيوت المسجد، عن يمين الداخل اليه، وهذا المسجد هو بين الجامع الجديد وباب الجسر، يجده المار الى الجامع من باب الجسر عن يساره. فتبركنا بزيارة هذا القبر المقدس، والوقوف عنده. نفعنا الله بذلك.

ومما خص الله به هذه البلدة، ان في الشرق منها، اذا عبرت دجلة على نحوالميل، «تل التوبة» وهو التل الذي وقف به يونس عليه السلام بقومه، ودعا ودعوا حتى كشف الله عنهم العذاب. وبمقربة منه على قدر الميل ايضاً العين المباركة المنسوبة اليه، ويقال: انه امر قومه بالتطهر فيها واظمار التوبة ثم صعدوا على التل داعين وفي هذا بناء عظيم، هو رباط يشتمل على بيوت كثيرة، ومقاصر ومطاهر، وسقايات، يضم الجميع باب واحد، في وسط ذلك البناء بيت ينسدل عليه ستر، وينغلق دونه باب كريم مرصع كله، يقال: انه كان الموضع الذي وقف فيه يونس صلى الله عليه وسلم. ومحراب هذا البيت يقال: انه كان بيته الذي كان يتعبد فيه. ويطيف بهذا البيت شمع كانه جذوع النخل عضماً. فيخرج الناس الى هذا الرباط كل ليلة جمعة، ويتعبدون فيه وحول هذا الرباط قرى كثيرة ويتصل بها خراب عظيم، يقال: انه كان مدينة «نينوى» وهي مدينة يونس عليه السلام.

واثر السور المحيط بهذه المدينة ظاهر، وفُرج الأبواب فيه بينة، وأكوام أبرجه مُشرفة. بتنا بهذا الرباط المبارك ليلة الجمعة السادس والعشرين لصفر، ثم صبحنا العين المباركة، وشربنا من مائها، وتطهرنا فيها، وصلينا في المسجد المتصل بها، والله ينفع بالنية في ذلك بمنه، وكرمه. واهل هذه البلدة على طريقة حسنه، يستعملون اعمال البر، فلا تلقى منهم إلاّ ذا وجه طَلْق، وكلمة

لينة، ولهم كرامة للغرباء، واقبال عليهم، وعندهم اعتدال في جميع معاملاتهم ـ فكان مقامنا في هذه البلدة اربعة ايام.»(٩٣)

ومن الرحالين الذين سبقوا ابن جبير ابن خرداذبة فقد ذكر الموصل في كتابه المسالك والممالك في عدة مواضع(٩٤) بيّن فيها المسافات بينها، وبين المدن الاخرى التي ترتبط بهذه المدينة الاثرية. ومن طريف ما قال عنها:ـ (٩٥)

«ومن اقام بالموصل حولاً وجد في قوته فضلاً بيناً، ولعل في هذا القول اصالة، وربما ينم عن حقيقة ثابتة، لان موقع الموصل، وصفاء جوها، واعتدال مناخها، وطيب نسيمها العليل هذه امور تطرب لها النفس، وتنعش الجسم صحة وعافية.

اما الاصطخري فقال عنها:ـ

«واما مدينة الموصل فهي مدينة على غربي دجلة، صحيحة التربة، والهواء، ليس لهم سوى ماء دجلة للشفة(٩٦).. وهي مدينة عامة ابنيتها بالجص والحجارة، كبيرة غناء»(٩٧)

اما المقدسي فقد تحدث عن مدينة الموصل،(٩٨) وذكر تلك المواضع الاثرية في مدينة نينوى التي اشار اليها ابن جبير بعدئذ.

وقال المقدسي عنها: «واما ديار ربيعة فقصبتها الموصل. ومن مدنها الحديثة، وسنجار(٩٩).».

اما ابن حوقل فقد اطنب في وصف الموصل حتى قال:ـ

«فمن ذلك رستاق(١٠٠) نينوى وكانت به مدينة في سالف الزمان تجاه الموصل من الجانب الشرقي من دجلة اثارها بينه، واحوالها ظاهرة، وسورها مشاهد، وكانت البلدة التي بعث الله تعالى الى اهلها يونس بن متى عليه السلام.»(١٠١)

وقال في موضع آخر:ـ

«وكان بالموصل في وسط دجلة مطاحن تعرف «بالعُروب» يقل نظيرها في كثير من الارض، لأنها قائمة في وسط ماء شديد الجرية موثقه بسلاسل الحديد، في كل عربة منها اربعة احجار، ويطحن كل حجرين في اليوم، والليلة خمسين وِقْراً(١٠٢) وهذه العروب من الخشب، والحديد، وربما دخل فيها شيء من الساج»(١٠٣)

وبعد سنوات خلت زار ابن بطوطة مدينة الموصل وحدث عنها حديثاً ممتعاً حتى قال:ـ

وهي مدينة عتيقة، كثيرة الخصب، وقلعتها المعروفة بالحدباء، عظيمة الشأن شهيرة الامتناع»(١٠٤) وكرر المعلومات التي ذكرها ابن جبير، واثنى على اهل الموصل قائلاً:ـ

«واهل الموصل لهم مكارم اخلاق، ولين كلام، وفضيلة ومحبة في الغريب واقبال عليه..»(١٠٥) وبعد ان استقريت اوصاف الرحالين لمدينة الموصل وجدتها مجمعة على المعالم الاصيلة لهذه المدينة العريقة، وتربتها الطيبة، وارضها المباركة ففيها مراقد الانبياء والصالحين التي اضفت على هذه المدينة غلالة من البر والتقوى.

اما اهلها فيمتازون بتفتح اذهانهم، وتوقد عقولهم، فهم قد صنعوا مطاحن ووضعوها في وسط دجلة، وسخروها لخدمة الناس، في حين ان الآلة قد عزت في تلك الحقب القديمة.

اما الموصل الآن فهي نضرة كنضرة ارضها الخضراء، وباسمة كابتسام ازهارها. وهي المحافظة الاولى في قطرنا الحبيب. فراحت تختال زهواً في بناياتها، وعماراتها، ومستشفياتها، وتنظيم شوارعها، فهي تعد من المدن الحديثة المتطورة، وذلك لما فيها من دور العلم، ومعاهد التدريس، فجامعتها العتيدة المشتملة على جميع الفروع العلمية قد اخذت مكانتها بين الجامعات العراقية.

الحق ان الموصل، وماتتمتع به من جو منعش، ومانشيء فيها في عهد الثورة من المصانف، تعدُّ متجعاً للعراقين صيفاً وشتاء.

هذه اهم المدن التي زارها ابن جبير في العراق، التي اسلفت ذكرها في هذا البحث المتواضع.

الهوامش والمصادر

(١) شنتونة: مدينة من مدن الاندلس مائلة الى القبلة/معجم البلدان بيروت دار صادر ١٩٧٥. باب السين والذال ومايليها.

(٢) بلنسية: مدينة مشهورة بالاندلس. تقع شرقي قرطبة/معجم البلدان باب الباء واللام ومايليها.

(٣) شاطبة: مدينة في شرقي الاندلس. وشرقي قرطبة/معجم البلدان باب الشين والألف ومايليها.

(٤) جيّان: مدينة واسعة بالاندلس/معجم البلدان. باب الجيم والياء ومايليها.

(٥) سبته: مدينة لطيفة من مدن المغرب، وموقعها على البحر، وفيها البساتين،

ومازها عذب. انظر/صورة الارض لابن حوقل، بيروت، د. ت ٧٩.

(٦) مالقة: مدينة في الاندلس عامرة تقع على ساحل البحر/معجم البلدان باب الميم والألف وما يليهما

(٧) الذيل والتكملة السفر الخامس. القسم الثاني لابي عبد الله محمد الانصاري الاوسي المراكشي تم د. احسان عباس، بيروت، ١٩٦٥، ص ٥٩٦.

(٨) مجلة التراث الانسانية المجلد الاول السنة الثالثة ابن جبير بحث للدكتور حسين نصار، القاهرة ١٩٦٣ ص ٢٣٧

(٩) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، للمقري تم د. احسان عباس، دار الصادر ١٩٦٨ ٢/٣٨٢

(١٠) الذيل والتكملة، السفر الخامس ٢/٥٩٦

(١١) مجلة التراث الانسانية المجلد الاول السنة الثالثة ص ٢٣٧.

(١٢) الاحاطة في اخبار غرناطة للسان الدين ابن الخطيب تح محمد عبد الله عنان، القاهرة ط ٢، ١٩٧٣ ٢/٢٣٢

(١٣) المصدر نفسه ٢/٢٣٣

(١٤) مجلة التراث الانسانية المجلد الاول السنة الثالثة ص ٢٣٨

(١٥) الذيل والتكملة السفر الخامس، الجزء الثاني ص ٦٠٧، وانظر الاحاطة في اخبار غرناطة ٢/٢٣٢ - ٢٣٣

(١٦) الذيل والتكملة السفر الخامس القسم الثاني ص ٦١٧

(١٧) الاحاطة في اخبار غرناطة ٢/٢٣١، ٢٣٤

(١٨) نفح الطيب ٢/٤٨٨

(١٩) تاريخ الفكر الاندلسي لبالنتيا ترجمة د. حسين مؤنس، القاهرة ط ١، النهضة المصرية ١٩٥٥، ص ٣١٧.

(٢٠) المجلة السلفية. السنة الاولى، الجزء الخامس ص ١٠٨ مصر. مطبعة النهضة ١٩١٧م.

(٢١) التكملة لكتاب الصلة لابن الابار، تحقيق عزة العطار، القاهرة ١٩٥٦م، ٢/٥٩٨.

(٢٢) الذيل والتكملة ص ٥٩٦

(٢٣) النفح ٢/٣٨٢

(٢٤) انظر النفح ٢/٣٨٢

(٢٥) الذيل والتكملة ص ٦٢١

(٢٦) انظر الاحاطة في اخبار غرناطة ٢/٢٣٢

(٢٧) مجلة التراث الانسانية المجلد الاول ص ٢٤١ - ٢٤٥

(٢٨) رحلة ابن جبير تم د. حسين نصار، القاهرة، ١٣٧٤ هـ/١٩٥٥م، ص ٣٣٨ - ٣٣٩.

(٢٩) انظر صفة مسجد رسول الله (ﷺ) في رحلة ابن جبير ص١٧٥-١٨١.

(٣٠) اشار الى الآيتين الكريمتين: «حتى اذا جاء امرنا وفار التنور، قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين، واهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن، وما آمن معه الا قليل». انظر سورة هود ١١/٤٠، وقوله تعالى: «فأوحينا اليه ان اصنع الفلك باعيننا، ووحينا، فاذا جاء امرنا، وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين، واهلك الا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون» انظر سورة المؤمنين ٢٣/٢٧.

(٣١) انظر رحلة ابن جبير ص ١٩٧ - ١٩٩.

(٣٢) اليعقوبي: هو احمد بن ابي يعقوب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبي، توفي سنة ٢٨٤ هـ.

(٣٣) انظر كتاب بلدان لاحمد بن واضح اليعقوبي ط ٣، النجف، ١٣٧٧ هـ/١٩٥٧م، ص ٦٩ - ٧٢.

(٣٤) ابن خردانبة: - هو ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خردانبة، ابريل ١٨٨٩ م.

(٣٥) انظر المسالك والممالك ص٩٩، ١٢٥، ١٢٩، ١٥٥، ١٨٥، ١٩٠

(٣٦) الاصطخري: ابو اسحاق ابراهيم بن محمد المعروف بالاصطخري توفي سنة ٣٥٠ هـ.

(٣٧) انظر المسالك والممالك ص ٥٨ للاصطخري تح محمد جابر عبد العال الحسيني

(٣٨) المقدسي: هو محمد بن احمد بن ابي بكر البناء المتوفى سنة ٣٨٠ هـ.

(٣٩) انظر احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١١٦ - ١١٧ للمقدسي المعروف بالبشاري، ليدن، مطبعة بريل، ١٩٠٩م.

(٤٠) ابن حوقل: هو محمد بن حوقل البغدادي الموصلي المتوفى في حدود ٣٨٠ هـ.

(٤١) انظر صورة الارض ٢١٥

(٤٢) ابن بطوطة: هو ابو عبد الله محمد بن ابراهيم اللوتي. المعروف بابن بطوطة المتوفى سنة ٧٧٩ هـ

(٤٣) انظر رحلة ابن بطوطة ص ٢١٩. بيروت دار صادر، ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤ م.

(٤٤) انظر رحلة ابن جبير ص ١٩٧ - ١٩٩

(٤٥) المسعودي: هو علي بن الحسن بن علي بن عبد الله من ذرية الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود، لذلك لقب بالمسعودي توفي سنة ٣٤٦ هـ.

(٤٦) ابو دلف: القاسم بن عيسى بن ادريس بن معقل من بني عجل. امير الكرخ، وسيد قومه، واحد الامراء الاجواد الشجعان الشعراء، توفي سنة ٢٢٦ هـ. انظر ترجمة في الاغاني لابي الفرج الاصفهاني، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، ٨/٢٢٨. وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي، بيروت بدون تاريخ ١٢/٤١٦.

(٤٧) مروج الذهب للمسعودي تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد القاهرة ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م، ١/٣٧٤ - ٣٧٥.

(٤٨) منصور بن مزيد الاسدي: هو منصور بن دبيس بن علي بن مزيد الاسدي. أمير الحلة. وبادية العراق. انظر ترجته في/الكامل ١٠/٥١ لابن الاثير، وتاريخ ابن خلدون ٤/٢٨٠ بيروت.

(٤٩) صورة الارض ص ٢١٩.

(٥٠) اشارة الى وفاة - صفي الدين الحلي الشاعر المعروف. انظر ترجته في الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة لشهاب الدين ابي الفضل المشهور بابن حجر العسقلاني، حيدر آباد الركن، ط ٢، ١٩٧٢، ٢/٣٦٩، وفوات الوفيات لمحمد ابن شاكر الكتبي تحقيق د. احسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٧٤، ٢/٣٣٥.

(٥١) اشارة وفاة سيد جعفر الحلي وهو شاعر معروف ب وديوانه سجع البلابل، مطبوع. انظر ترجته في البابليات لمحمد علي اليعقوبي ١/١٨٠، معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف اليان سركيس، مصر، ١٣٤٦ هـ/١٩٢٨ م/٦٩٩.

(٥٢) انظر رحلة ابن جبير ص ٢٠٣.

(٥٣). رأس القرية: ما دامت هذه المحلة تعرف بهذا الاسم حتى الان وهي في

شارع الرشيد بالقرب من دجلة.

(٥٤) المربعة: هذه المحلة ما دامت تعرف بهذا الاسم حتى الآن وهي من المحلات المشهورة في شارع الرشيد وبالقرب من دجلة كذلك.

(٥٥) المارستان:ـ المصحة او المستشفى. انظر/المعجم الوسيط ٢/ ٨٧٠ مادة «مرس».

(٥٦) يعد فيلسوفاً تارة. وفي زمرة المتعبدين تارة له ديوان شعر مطبوع انظر ترجته في/الفهرست ص ٢٦٩، والبداية والنهاية لابن كثير، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٥١ هـ. ١١/١٣٢.

(٥٧) انظر رحلة ابن جبير ص ٢١٣.

(٥٨) خديم: اي الخادم.

(٥٩) الصاحب مجد الدين: هو ابو الفتح بن الصاحب تولى منصبه سنة ٥٧٥ ـ ٥٨٣ هـ. لم اجد له غير هذا التعريف وهو تعريف المحقق نفسه. انظر/ رحلة ابن جبير ص ٢١٣ هامش (٢)

(٦٠) خليفة عباسي ولد سنة ٥٥٣ هـ وتوفي سنة ٦٢٢ هـ دامت خلافته ٤٦ سنة. انظر ترجته في/الكامل في التاريخ ١١/١٧٣، ومختصر تاريخ الدول ٤٢١، والسلوك ١/٢١٧ للمقريزي.

الفنك: حيوان فرونه اطيب انواع الفراء واشرفها.

(٦١) انبط: البئر اذا استخرج الحضار ماءها، والاستنباط: الاستخراج. انظر/ اللسان لابن منظور، القاهرة، طبعة مصورة عن طبعة بولاق مادة «نبط» ٩/ ٢٨٧

(٦٢) الصلصال: الطين الحر خلط بالرمل فصار يتصلصل اذا جف فاذا طبخ بالنار فهو الفخار. انظر/ اللسان مادة «صلل» ١٣/ ٤٠٦

(٦٣) نظام الملك: هو الحسن بن علي بن اسحاق، وزير حازم عالي الهمة، توفي سنة ٤٨٥ هـ. انظر ترجة في/ وفيات الاعيان لابن خلكان، تح د. احسان عباس، بيروت، دار الثقافة ١٩٦٨. ١/ ١٤٣ والكامل في التاريخ ١٠/ ٧٠

(٦٤) انظر رحلة ابن جبير ص ٢١٣ ـ ٢١٦

(٦٥) رضي الدين الزويني: هو ابو الحسين احمد بن اسماعيل الطالقاني كان اماماً في مذهب الشافعية، والخلاف، والاصول، والتفسير، والوعظ، والزهد، ولد ٥١٢، او ٥١١، وتوفي سنة ٥٩٠ هـ. انظر ترجة/ في طبقات الشافعية ٤/٣٥، وشذرات الذهب في اخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي للسبكي، تح محمود محمد الطناحي، وعبدالفتاح محمد الحلو، القاهرة، ط ١٣٤ هـ/ ١٩٦٥م القاهرة، مكتبة القدسي، هـ/ ٤/ ٣٠٠.

(٦٦) انظر الرحلة ص ٢٠٦

(٦٧) ابن الجوزي: هو ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، القرشي البغدادي. كان علامة عصره، وامام وقته في الحديث والوعظ، وصنف في فنون كثيرة ولد سنة ٥٠٨ او ٥١٠، وتوفي سنة ٥٩٧ هـ. انظر ترجته/ في وفيات الاعيان ١/ ٢٧٩.

(٦٨) الفرا: الحمار الوحشي. وهذا مثل يريد به ان ابن الجوزي لامثيل له.

(٦٩) رضي الطباع. شبيه في طبعة بالشريف الرضي الشاعر المشهور، ومهياري شبيه بمهيار الديلمي الشاعر ايضاً.

(٧٠) سورة الطور ٥٢/ ١٥

(٧١) سورة النحل ٢٧/ ١٦

(٧٢) ثبج: كل شئ معظمه، ووسطه، واعلاه، والجمع اثباج وثبوج - انظر/اللسان مادة «ثبج» ٣/ ٤٢

(٧٣) انظر رحلة ابن جبير ص ٢٠٨

(٧٤) كتاب البلدان ص ٣ ـ ٢١

(٧٥) انظر مروج الذهب ١/ ٣٧٤

(٧٦) انظر وصف بغداد في المسالك والممالك ص ٥٨ ـ ٦٠ للاصطخري

(٧٧) انظر احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١١٩

(٧٨) انظر وصف بغداد في صورة الارض ص ٢١٥ ـ ٢١٨

(٧٩) انظر وصف بغداد في رحلة ابن بطوطة ص ٢٢١

(٨٠) الذي قال هذه الابيات: هو القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصير الثعلبي له نظم، ومعرفة بالادب انظر ترجته في/ فوات الوفيات ٢/ ٤١٩، وشذرات الذهب ٣/٢٢٣.

(٨١) انظر رحلة ابن بطوطة ص ٢٢٢.

(٨٢) «حصن المعشوق» ما دامت اثاره ماثلة قرب مدينة سامراء.

(٨٣) انظر وصف سامراء في كتاب البلدان ص ٢١ ـ ٣٣.

(٨٤) انظر المسالك والممالك ص ٦٠ للاصطخري.

(٨٥) انظر احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٢٢

(٨٦) انظر صورة الارض ص ٢١٨

(٨٧) انظر رحلة ابن جبير ص ٢١٩

(٨٨) انظر المسالك والممالك ص ٩٤، ٢٤٥، ٢٥٠ لابن خرداذبة

(٨٩) انظر احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٢٣.

(٩٠) المباطلة: اقوام اسيوية من اواسط «منغوليا» وقيل هم اقوام تركية منغولية، وصلوا الى هذه الديار.

(٩١) انظر صورة الارض ص ٢١٩

(٩٢) انظر رحلة ابن بطوطة ص ٢٣٤

(٩٣) انظر رحلة ابن جبير ص ٢٢١ ـ ٢٢٣.

(٩٤) انظر المسالك والممالك ص ١٧، ٩٣، ٩٥، ٩٧٠، ٢١٤، ٢٢٧، ٢٣٢، ٢٤٥، ٢٥١ لابن خرداذبة.

(٩٥) المصدر نفسه ص ١٧٠

(٩٦) الشفة: معنى الشرب.

(٩٧) انظر المسالك والممالك ص ٥٣ للاصطخري.

(٩٨) انظر احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٣٦.

(٩٩) المصدر نفسه ص ١٣٧

(١٠٠) رستاق: وجمعه رساتيق كل موضع فيه مزارع، وقرى. انظر/ معجم البلدان. الباب الثالث. تفسير الالفاظ.

(١٠١) انظر صورة الارض ص ١٩٦

(١٠٢) الوقر: جمعه اوقار وهو الحمل الثقيل. انظر/اللسان مادة «وقر» ٧/١٥٢

(١٠٣) انظر صورة الارض ص ١٩٨.

(١٠٤) انظر رحلة ابن بطوطة ص ٢٣٥.

(١٠٥) المصدر نفسه ص ٢٣٦

* * *

ابن جبير في رحلته
قراءة في الجوانب الجغرافية للرحلة

دراسة
د. فلاح شاكر اسود
جامعة بغداد / كلية الاداب

يكنى بـابي الحسن وهو محمد بن احمد بن جبير الكناني الاندلسي، الذي ولد في العاشر من شهر ربيع الاول من عام خمسمائة واربعين للهجرة (٥٤٠ هـ) المصادف الف ومائة وخمسة واربعين للميلاد (١١٤٥ م) في مدينة بلنسية احدى مدن الساحل الاندلسي، وينحدر من سلالة اسرة عريقة استقرت بالاندلس في عام مائة وثلاث وعشرين للهجرة (١٢٣ هـ) المصادف سبعمائة واربعين للميلادي (٧٤٠ م). وتوفي بالاسكندرية في رحلته الثالثة.[1]

ان ولعه وتمكنه بالادب والشعر لم يكسبانه شهرته التي نالها بصورة مباشرة، الا انها اعانته كثيراً على تدوين رحلة الحج التي قام بها احتساباً لله، باسلوب ادبي رفيع وعلمي دقيق جعلته في مصاف الخالدين والمشهورين، علماً من اعلام الرحلة في الادب الجغرافي العربي.

وقد دخلت اسرته الاندلس مع القائد بلج بن بشر بن عياض القشيري. والتحق ابن جبير وهو في سن مبكرة باعمال الدواوين والكتابة كأبيه، وعمل مدة طويلة كاتباً لحاكم غرناطة من الموحدين.[2]

وغادر غرناطة وما يزال في ريعان الشباب لاداء فريضة الحج برفقة احد الاطباء احمد بن حسان، واستغرقت هذه الرحلة من شباط عام (٥٧٨ هـ) ولغاية نيسان (٥٨١ هـ) (١١٨٣ ـ ١١٨٥ م) وهي اكثر من عامين دون فيها يومياته، وقد حملت هذه الرحلة عناوين مختلفة، مثل كتاب اعتبار الناسك في ذكر الاثار الكريمة والمناسك، وعنوان تذكير بالاخبار عن اتفاقات الاسفار، والعنوان الثالث رحلة ابن جبير.[3]

ثم قام برحلته الثانية عند سماعه بتحرير صلاح الدين الايوبي لبيت المقدس في عام (٥٨٣ هـ ـ ١١٨٧ م). حيث قام برحلة لمدة عامين ٥٨٥ ـ ٥٨٧ م (١١٨٩ ـ ١١٩١ م). ثم قام برحلته الثالثة وهو شيخ كبير بعد وفاة زوجته في عام ٦٠١ هـ (١٢٠٤ م) واستغرقت عشرة اعوام، متنقلاً بين مكة وبيت المقدس والقاهرة، مشتغلاً بالتدريس والادب حتى توفي في الاسكندرية في عام ٦١٤ هـ (١٢١٧ م). ولم يترك لنا في هاتين الرحلتين من اثار علمية مكتوبة مثل ما ترك في رحلته الاولى.[4]

وقد اشار بعض الباحثين الى ان القيمة التاريخية للرحلة اكثر من قيمتها الجغرافية. فقد قدمت معلومات مهمة عن الحقبة التاريخية خلال المدة التي امضاها ابن جبير متجولاً بين بلدان المشرق خلال حكم الايوبيين والغزو الصليبي. ورسم صورة واضحة عن صلاح الدين الايوبي وانجازاته في مصر والشام والحجاز واصلاحاته الدينية والعمرانية وتوطيد دعائم العدل والاستقرار. كما اشار الى العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في بلاد الشام والتسامح بينها ووضع المسلمين في جزيرة صقلية اثناء حكم النورمان. اما قيمتها الجغرافية فهي اقل اهمية فلم يعن بالجانب الطبيعي كالسطح والمناخ والموارد المائية الا اشارات محدودة عن الجبال والصحارى والانهار، كما اهمل المظاهر

الاقتصادية كالصناعة والزراعة واكتفى بوصف عام. وقد ركز على الجوانب الثقافية والدينية.(٥)

ان معاملة رحلة بين جبير على اساس انها مؤلف تاريخي او جغرافي لا تخلو من اجحاف بحقها لان التقويم لابد ان يتم وفق الهدف المرسوم لهذه الرحلة فهي رحلة للحج وكثير ما كان هذا العامل قد استهوى كثير من الناس من المغرب والمشرق لادائها، لما ورد فيها من الايات الكريمة في التأكيد على فضائل مكة والمدينة وما تحوياه من الحرم المكي والمدني. وقد فضل الله مكة المكرمة على سائر البلاد، وذكرها في مواضع عدة ما يقارب من تسع عشر آية من القرآن الكريم. * كما ورد بحقهما عدد لا يحصى من الاحاديث النبوية الشريفة.(٦) *

ان هذا التأكيد الواضح على هذا الفرض من فروض الدين جعلت الرغبة تراود نفس كل مسلم لكي يزور هذه الاماكن المقدسة، مهما بعدت المسافات او عظمت المخاطر. وكان ابن جبير احد هؤلاء الذين وفدوا لزيارة هذه الاماكن المقدسة واداء فريضة الحج وسنة العمرة والمجاورة في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وهذا يدعونا الى التأكيد الى ان ابن جبير اراد من وراء تسجيل مذكراته. ان يرسم طريق الحج بحراً وبراً ليكون كتابه دليل سفر لمن اراد ان يسلك هذا الطريق من القاصدين لبيت الله الحرام. ولهذا كان يؤكد من خلال رحلته على ما يعترض الحاج من المشاق. وان يرسم بدقة صورة صادقة لهذا الطريق ومدنه وقراه وما تحويه من الاثار والمشاهد المباركة والاماكن التي تزار. كما حذر الحجاج الذين يرغبون في اداء فريضة الحج من سلوك طريق الاسكندرية ـ عيذاب جدة ونصحهم رفقة قافلة الامير العراقي. وهو الطريق الذي يرجع فيه ابن جبير، بعد ان قرر عدم العودة على طريق القدوم السابق ولما لاقاه من المعاملة القاسية عند نزوله الى الاسكندرية وطلوع امناء السلطان الى المركب لتقييد جميع ما جلب فيه واخذ الزكاة من الاموال التي لا تستحق الزكاة شرعاً، وتفتيش حاجياتهم بشكل لا يتناسب مع مكانتهم حيث ادخلت الايدي الى اوساطهم بحثاً عما عسى ان يكون قد اخفوه ثم استحلفوا بعد ذلك. وقد ذهب كثير من حاجيات الناس لاختلاط الايدي وتكاثر الزحام.

كما دون مواقف اطلق عليها خزياً ومهانة. وهذا ماتعرض له وفود الرحمن مرة اخرى في اخميم بحثاً عن الاموال والحاجيات بحجة الزكاة وصعود رجال الى المركب بايديهم المسال الطوال ذوات الانصبة لاستكشاف مافي حاجيات الركاب.

وهذا ماجعل ابن جبير ينصح الحجاج سلوك طريق الشام ـ العراق ثم رفقة قافلة الحاج البغدادي. وهذا يوضح بان الرحلة هي دليل لمن اراد السفر قاصداً بيت الله الحرام وزيارة المسجد النبوي الشريف.

ولما كان هدف الرحلة هو الحج. فقد الزمت ابن جبير ان يسلك طريقاً واضحاً، هو الطريق الذي يسلكه الحجاج من الاندلس (اسبانيا) حيث عبر البحر المتوسط الى الاسكندرية ثم نهر النيل ثم البحر الاحمر ثم البادية باتجاه العراق والشام والبحر المتوسط مرة اخرى. حيث الرجوع الى مقر سكناه في الاندلس. وان هذه الرحلات كانت تسير بشكل قوافل مما لا يتيح لابن جبير ان يبتعد كثيراً عن هذا الطريق او التخلف عنها. لذا فانه اقتصر على تدوين ماشاهده خلال هذا الطريق او قريباً منه.

ورغم ذلك فان ماورد في هذه الرحلة من المعلومات الجغرافية كان ذا قيمة كبيرة باعتبار ان ماورد عن طريق جانب من جوانب الدراسة الميدانية وهي المشاهدة الشخصية، والتدوين اليومي لهذه المشاهدة، وخصوصاً ان ابن جبير كان متمكناً من حيث الثقافة والقدرة الفائقة في التدوين والكتابة والتعبير دون ان يطيل او يسهب في العرض، كما ان هذه الرحلة لدقتها خلت تماماً من الاساطير والخرافات، وان القارىء لا يشك في اي شيء ورد فيها. كما لا يشعر ان كاتبها كان متحيزاً لاي جانب من الجوانب.

الطريق الذي سلكه ابن جبير في رحلة

بدأ من غرناطة حتى ساحل الاندلس (اسبانيا) حيث اقلع يوم ٢٩ شوال (٢٤ شباط). مر على مجموعة من الجزر في البحر المتوسط (ميورقة، منورقة * . سردانية صقلية. (قرطيش (كريت) ثم جزائر الحمام (بين السلوم وطبرق). ثم نزل الاسكندرية وقد استغرقت الرحلة ثلاثين يوماً. وصف فيها عواصف البحر المتوسط التي تهب بشكل متقطع، وما تعرضت له المراكب من الاهوال والمخاطر.

وسلك طريق نهر النيل، ومر على مجموعة من المدن والقرى التي تقع على جانبي النهر مثل دمنهور، قليوب، المنية، القاهرة، منفلوط، اسيوط، اخميم، وشنة، دندره، قنا، قوص. وقد استغرقت الرحلة (١٨) يوماً.

ثم تجمع الحجاج والتجار مع حاجياتهم في منطقة واسعة تسمى المبرز تحيط بها اشجار النخيل، فاستبدلوا واسطة النقل

المائية بواسطة النقل البرية وهي الجمال فوزنوا حاجياتهم وتهيأوا لقطع الصحراء بين قوص وعيذاب وهي صحراء قاحلة.

ثم قطع بحر جدة وهو البحر الاحمر بين عيذاب وجدة واستغرق العبور ثمانية ايام بسبب اهوال الرياح والشعاب رغم قدرة الرؤوساء والنواتية وخبرتهم الدقيقة لمعرفة المسالك والطرق.

وبعدها سافر برأً من جدة الى مكة حيث اقام فيها ثمانية اشهر وثلث شهر حيث دخلها يوم ١٣ ربيع الاخر سنة ٥٧٩ هـ، ورحل عنها ٢٢ ذي الحجة سنة ٥٧٩ هـ اي حوالي ٢٤٥ يوماً.

وعاد مع قافلة الامير العراقي من مكة بطريق صحراء البادية الى بغداد، بعد ان ضاق ذرعاً من الاستغلال والتعسف مما اعطاه مبرراً لتصديق بعض فقهاء اهل الاندلس الذين اسقطوا الفريضة عنهم لهذه الاسباب.

وقد مرت القافلة من الزاهر الى وادي بطن ثم عسفان ثم خليص ثم شعب علي حتىٰ المدينة المنورة ومنها الى الكوفة والحلة وبغداد بعد ان مرت القافلة ضمن طريق واضح متبعة موارد المياه الجوفية.

ومن بغداد سلك الطريق الموازي لنهر دجلة الى سامراء وتكريت والقيارة والموصل ونصيبين ثم مدينة رأس العين وحران ومنبج وحلب وقنسرين وحماه وحمص ودمشق وبانياس وعكة وصور ثم عاد الى عكة حيث اخذ مركباً عبر البحر المتوسط الى بر الاندلس ثم الى غرناطة موطنه الذي خرج منه.

المعلومات الجغرافية التي وردت في الرحلة.

المظاهر الطبيعية:

١ - اشار الى عواصف البحر المتوسط ومخاطرها على الملاحة في المنطقة وتعرض المراكب الى الغرق عند هبوبها، وسهولة الملاحة عند هدوئها واستقرارها وكذلك الى الرياح والشعب المرجانية التي تعترض سير الملاحة في البحر الاحمر بين عيذاب وجدة ورغم قصر المسافة فان الرحلة استغرقت ثمانية ايام، ولولا حذاقة الملاحين ودرايتهم ومعرفتهم بالمسالك الضيقة والمتعرجة لتعذر السير في البحر الاحمر.

وقد عبر عن اعاصير البحر المتوسط بانها رياح شديدة اتت بامطار غزيرة وامواج امثال الجبال السائرة حتىٰ لم يثبت شراع فلجأ الى استعمال الشُرُع الصغار، ولما هدأت الاعاصير سكن البحر وطاب السحاب والهواء وظهرت الشمس وان التخلص من بحر سردانية من اصعب ما في الطريق والخروج منه يتعذر في اكثر الاحيان.

٢ - وصف مجموعة من الجبال مر عليها في طريقه مثل جبل صقلية التي فيها بركان اثنا، وقال بعد مغادرته صقلية انه شاهد الجبل الذي فيه البركان وهو جبل عظيم مصعد في جو السماء وقد كساه الثلج.

ثم جبل المقلة شرق النيل على نصف المسافة بين مدينتي مصر وقوص وفي مكة اشار الى جبال ثور وجبل الطبول وجبل ابي قبيس، وبعد المدينة مر علىٰ جبل المحزوق وهو جبل في بيداء من الارض وفي سفحه الاعلىٰ ثقب نافذ تخترقه الريح، وبذلك اشار الى ظاهرة التعرية في المناطق الصحراوية وعند مروره على دمشق وصف جبل قاسيون. ثم جبل لبنان الذي قال عنه انه جبل عالي الارتفاع يتصل من البحر الى البحر ويكون حدوداً بين المسلمين والافرنج.

٣ - اشار الى ظاهرة نحت نهر النيل في الجانب الغربي امام قرية نشأة السودان بعد مدينة اخميم. وقد عالج سكان هذه القرية هذه الظاهرة بانشاء رصيف عال من الحجارة كأنه السور يضرب فيه النيل ولا يعلوه عند فيضه وبذلك استطاعوا الحد من ظاهرة النحت وتآكل الساحل وثباته، كما استطاعوا تعلية هذا الحاجز الصخري بشكل لا يتجاوزه النيل عند ارتفاع المياه وقت الفيضان مما جعل القرية وسكانها يعيشون في أمن واستقرار من مخاطر نهر النيل.

٤ - اشار الى مغاص اللؤلؤ في البحر الاحمر، حيث قال: في بحر عيذاب مغاص على اللؤلؤ في جزائر على مقربة منها، ووقت الغوص شهر حزيران (يونية) والذي يليه، ويستخرج منه جوهر نفيس.

٥ - اشار الى مواضع الوديان والابار والعيون والبرك والصهاريج المملوءة بمياه المطر على طريق البادية بين نجد والعراق، وذلك لاهمية هذه الموارد لانها تحدد المسالك والطرق التي تسلكها قوافل الحجاج والتجار والمسافرين. واشار الى نوعية المياه في المواضع التي مر بها من حيث عذوبتها وصلاحيتها للشرب.

وقد ذكر مشروع زُبيدة ابنة جعفر بن ابي جعفر المنصور زوجة هارون الرشيد وابنة عمه، عندما اوصلت المياه الى مكة وعلى طريق الموصلة اليها، وقد اطلق عليها المصانع، وهي

منتشرة في الطريق بشكل مرافق ومنافع عمت المنطقة ولولا اثارها الكريمة في ذلك لما سلكت هذه الطريق.

٦ ـ اشار الى الانهار المهمة التي صادفها وهي نهر النيل ونهر الفرات ونهر دجلة، حيث قطع النيل بين الاسكندرية وقوص. ثم قطع نهر الفرات بين الكوفة والحلة، ثم سار مع نهر دجلة بالطريق البري بين بغداد والموصل حتىٰ الشام.

كما ذكر الانهار الصغيرة التي مر بها نهر دجيل المتفرع من نهر دجلة، ويسقي القرى والبساتين والاراضي الزراعية الواقعة عليه وكذلك نهر الخابور ونهر العاصي الذي يقع شرق مدينة حماه في بلاد الشام.

اما البحيرات فقد اشار الى بحيرة طبرية التي تقع قرب جبل الطور، وتمتاز مياهها بعذوبتها.

المظاهر البشرية.

اولاً ـ الزراعة

لفت انتباه ابن جبير اتساع الزراعة في دلتا نهر النيل وواديه بشكل كبير، وقد استنتج ذلك من انتشار القرى على جانبي النهر، فالمنطقة المحصورة بين الاسكندرية ودمنهور والقاهرة متصلة وسهلة كلها محروثة يعمها النيل بفيضه والقرى فيه يميناً وشمالاً لا تحصى من كثرتها. والعمارة متصلة والقرى منتظمة في الطريق كله. ولما مر على مدينة قوص صاعداً في النيل على الصعيد ذكر بان القرى متصلة في شطي النيل. وقد اقتصر على ذكر القرى الكبيرة منها فقط، لانه لو ذكر كل القرى والمواضع على شطي نهر النيل لضاق الكتاب لكثرة القرى الصغيرة.

كما اشار الى البساتين التي تحيط بكثير من المدن الواقعة على نهر النيل والى اشتهار مدينة منفلوط بانتاج القمح، حتى ان قمحها يجلب الى مصر لطيبه ورزانة حبته. واشتهار مدينة دندره في صعيد مصر باشجار النخيل وتمورها التي تميزت بطيبها.

وفي طريق عودته باتجاه العراق اشار الى خصب وادي بطن مر وكثرة نخيله مما ادى الى انتشار القرى الكثيرة ومنه تجلب الفواكه الى مكة المكرمة. ثم في منطقة خليص ووادي السمك حيث تنتشر اشجار النخيل.

ولم يشر ابن جبير بعد ذلك الى وجود زراعة في الطريق الصحراوي سوى توفر موارد المياه من الابار والبرك والمصانع في الطريق لتزويد الحجاج والمسافرين والتجار وحيواناتهم بالماء الذي يعينهم على مواصلة السير. ولما اشرف على سهل العراق الرسوبي بدأ ابن جبير يذكر اهمية هذه المنطقة، ففي قرية القادسية اشار الى بساتين النخيل التي تسقى من مشاريع نهر الفرات. ثم مدينة الحلة التي قال عنها انها متصلة بأشجار النخيل. اما الطريق بين الحلة وبغداد فهو احسن طريق واجمله في بسائط من الارض، وعمائر تتصل بها القرى يميناً وشمالاً، وتشقها مشاريع عديدة من نهر الفرات عبر عنها (باغصان من ماء الفرات). تتسرب بها وتسقيها، واوضح بان ارضها الزراعية واسعة وممتدة حيث قال فمحرائها لاحد لاتساعه وانفساحه ثم وصف القرى التي مر بها مثل قرية القنطرة، حيث قال عنها كثيرة الخصب كبيرة المساحة، متدفقة جداول الماء، وافرة الظلال بشجيرات الفواكه من احسن القرى واجملها، وشاهد فيها حصاد الشعير وقرية الفراش كثيرة العمارة يشقها الماء وحوفا بسيط اخضر جميل المنظر. وقرى هذه الطريق بين الحلة وبغداد على هذه الصفة من الحسن والاتساع. ثم قرية بزريدان (المدائن) وهي من احسن قرى الارض واجملها منظراً واوسعها ساحة واختطاطاً واكثرها بساتين ورياحين وحدائق نخل، يسقي دجلة شرقيها، والفرات غربيها وهي كالعروس بينها، والبسائط والقرى والمزارع متصله بين هذين النهرين.

ثم قرية صرصر وهي على ثلاثة فراسخ من بغداد يسقيها نهر كبير متفرع من الفرات وهي من القرى التي تملأ النفوس بهجة وحسناً.

ثم اشار الى الزراعة على طول نهر دجلة من بغداد باتجاه الموصل حيث تنتشر القرى الخصبة.

كما ذكر الزراعة في بلاد الشام فمدينة نصيبين يمتد امامها وخلفها في بسيط اخضر من البصر. اجرى الله فيه مذانب من الماء تسقيه، تحف بها عن يمين وشمال بساتين ملتفة الاشجار يانعه الثمار، ينساب بين يديها نهر انعطف عليها كالسوار، والحدائق تنتظم بحافتيه وتفيء بظلالها الوارفة عليه.

وحول مدينة دنيصر بساتين الرياحين والخضر لتسقى بالسواقي وفي حديثه عن مدينة رأس العين ـ اشار الى ان الله فجر في ارضها عيوناً واجراها ماء معيناً. فتقسمت مذانب، وانسابت جداول تنبسط في مروج خضر، مكأنها سبائك اللجين ممدودة في بساط الزبرجد تحف بها اشجار وبساتين قد انتظمت حافتيها الى اخر انتهائها من عمارة بطائحها.

ومدينة منبج يحف بغربيها وشرقيها بساتين ملتفة الاشجار مختلفة الثمار. وعن مدينة بزاغة ترف بساتينها خضرة ونضارة. وذكر عن مدينة قنسرين بان قراها عامرة منتظمة لانها على محرث عظيم من البصر عرضاً وطولاً. ثم بلاد المعرة مغطاة كلها بشجر

الزيتون والتين والفستق وانواع الفواكه. ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين وهي من اخصب بلاد الله واكثرها ارزاقاً. كما ذكر عن مزارع العنب والبساتين والاراضي الزراعية خارج مدينة حماه. وتحيط مدينة دمشق حلل سندسيه من البساتين، كما امتدت الى شرقها غوطتها الخضراء امتداد البصر، ولمدينة بانياس محراث واسع.

نظام الري

١ ـ الاهتمام بكمية المياه في الانهار من خلال المقاييس المقامة عليها فمقياس نهر النيل يستفاد منه في قياس زيادة نهر النيل عند فيضه كل سنة، وهو عمود رخام ابيض مثمن في موضع يسخر فيه الماء عند انسيابه اليه، وهو مفصل على اثنين وعشرين ذراعاً مقسمة على اربعة وعشرين قسماً تعرف بالاصابع.

فاذا استوفى الماء تسع عشرة ذراعاً منغمرة فيه، فهي الغاية عندهم في طيب العام.

واذا استوفى سبع عشرة ذراعاً فهي المتوسط، ويكون احسن من الزيادة المذكورة.

واذا استوفى ست عشرة ذراعاً فصاعداً يستحق السلطان خراجه في بلاد مصر، وعليها يعطى البشارة الذي يراعى الزيادة في كل يوم، والزيادة في اقسام الذراع المذكورة، ويعلم بها مياومة حتى تستوفى الغاية التي يقضي بها.

واذا قصر عن ست عشرة ذراعاً فلا يجيء للسلطان في ذلك العام ولا خراج وهذا يوضح مدى الدقة في الاهتمام بكمية مياه الري وتوزيعها وعلاقتها بسعة الارض المزروعة وكمية الانتاج من الحبوب والمحاصيل الاخرى، وارتباطها بحياة الناس ومستوى معيشتهم.

٢ ـ القناطر التي توزع المياه في السواقي

ومن هذه القناطر هي المقامة على نهر النيل، بنيت غرب مصر على مقدار سبعة اميال، بعد رصف ابتدىء به من جهة النيل بازاء مصر كأنه جبل ممدود على الارض تسير فيه مقدار ستة اميال حتى يتصل بالقنطرة المذكورة وهي على نحو الاربعين قوساً من اكبر ما يكون من قسيّ القناطر. والقنطرة متصلة بالصحراء التي يفضي منها الى الاسكندرية.

وقد اشار ابن جبير الى ان هذه القناطر رغم استخدامها في الري والزراعة فان لها هدف عسكري حيث تحمي البلد من عدو قادم من جهة ثغر الاسكندرية. حيث تغمر الارض عند فيضان نهر النيل لمنع سلوك العساكر واجتيازها باتجاه البلد.

ثم اشار الى القناطر بين الحلة وبغداد والتي تعترض الطريق كله. فلا تكاد تمشي ميلا الا وتجد قنطرة على نهر متفرع من نهر الفرات فهي اكثر الطرق سواقي وقناطر وتوزع هذه القناطر المياه على السواقي التي تروي الاراضي الزراعية الممتدة وكذلك مدينة دنيصر في بلاد الشام حيث تروى بالسواقي.

٣ ـ الري بواسطة العيون:

ذكر ابن جبير بان مدينة رأس العين اشتق اسمها من كثرة العيون، حيث تتوزع مياه هذه العيون في جداول وسواقي تسقي اراضيها الواسعة الخضراء، واعظم هذه العيون، عينان احدهما فوق الاخرى، فالعليا تنبع من منطقة صخرية، ثم يتجمع ماؤها في صهريج عظيم، حيث ينساب منه نهر كبير ينتهي الى العين الاخرى ويلتقي بمائها. اما الثانية فمنابعه تحت الارض من الحجر الصلد ثم تندفع بقوة الى الاعلى حتى يسيل ماؤها على سطح الارض. ثم تنقسم مياه العينين الى نهرين يلتقيان بعد ذلك.

ثانياً: التجارة

١ ـ الكمارك والمكوس

لقد اشار ابن جبير الى المعاملات الكمركية التي كانت سائدة عند دخول الموانىء. فعند نزوله في ميناء الاسكندرية، طلع الى المركب موظفو الكمارك لتسجيل جميع البضائع التي جلبها المسافرون. وسأل كل شخص عما لديه من السلع والاموال، واستدعى كل مسافر مع حاجياته على انفراد، ثم فتش جميع المسافرين. ورغم اعتراض ابن جبير على المعاملة القاسية التي اتسمت بالاهانة والخزي من قبل امناء السلطان. فان ذلك يوضح بان المعاملات الكمركية كانت سائدة في تثبيت اسماء من دخل البلاد، وما وجد معه من الأموال والبضائع.

وكذلك عند الخروج من البلاد، ما تعرض له المسافرون من الحجاج والتجار في اخيم من التفتيش ومعرفة ما لدى كل منهم من البضائع والاموال.

وفي ميناء عيذاب يؤخذ على كل حمل طعام يحمله الحجاج او التجار ضريبة معلومة خفيفة المؤونة بالاضافة الى الوظائف المكوسية.

٢ ـ المراكز التجارية والاسواق

ذكر ابن جبير وجود اماكن مثلت مراكز تجارية مثل مدينة

قوص، وهي حفيلة الاسواق متسعة المرافق، كثيرة السكان، لكثرة المصادر والموارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنود وتجار الحبشة، فهي مخطر للجميع ومحط للرحال ومجتمع الرفاق، وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والاسكندريين ومن يتصل بهم.

ثم منطقة المبرز الواقعة بين قوص وعيذاب، حيث يتجمع فيها جميع المسافرين مع احمالهم. وهي منطقة منبسطة واسعة تحيطها اشجار النخيل، وفيها يتم وزن البضائع وشدها على الجمال التي تنقلها الى عيذاب عبر الصحراء، كما يستقي منها المسافرون وتنطلق منها القوافل.

وشاهد في طريق عودته من الحجاز الى العراق موضع حصن فَيْد وهي منطقة معمورة بسكان الاعراب، حيث يتم فيها التجارة والمبايعة من قبل السكان وهي على نصف الطريق بين المدينة وبغداد.

كما اشار الى موضع الثعلبية فيه اوسع الصهاريج واعلاها غزيرة المياه، حيث يتجمع فيه جمع كثير من الاعراب رجالاً ونساءً عقدوا فيه سوقاً عظيمة للجمال والكباش والسمن واللبن وعلف الابل.

وذكر عن مدينة عكة بانها ملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الافاق.

٣ ـ السلع التجارية.

هناك انواع كثيرة من البضائع التي ذكرها ابن جبير، شاهدها بنفسه مثل محصول القمح في مدينة منفلوط الذي تميز بجودته وكبر حبته، حيث يقوم التجار بنقله بالمراكب الى القاهرة.

كما شاهد في الصحراء الممتدة بين مدينة قوص وميناء عيذاب على البحر الاحمر، القوافل العيذابية القادمة من البحر باتجاه الداخل والقوافل القوصية القادمة من الداخل باتجاه البحر وهي صادرة واردة، في طريق صحراوي يسوده الأمن. وحاول احصاء عدد هذه القوافل، ولكنه لم يستطع لكثرتها وخاصة القوافل العيذابية التي تحمل البضائع المستوردة عن طريق ميناء عيذاب وهي تحمل سلع الهند الواصلة الى اليمن، ثم تنقل بطريق البحر الى ميناء عيذاب ثم تنقل بواسطة الجمال بطريق البر. حيث تتوزع الى مناطق احتياجها. واكثر ما شاهد من احمال هذه الجمال هي الفلفل حتى قال لكثرته انه رخيص الثمن، يوازي التراب قيمة. ومن عجب ما شاهده بهذه الصحراء انه وجد احمال الفلفل والقرفة وسائر السلع مطروحة لا حارس لها، لاعياء الابل الحاملة لها، او غيرها من الاسباب، وتبقى في موضعها الى ان ينقلها صاحبها مصونة من الافات على كثرة المارة عليها من مختلف الناس.

وذكر عن البضائع المستوردة الى مكة المكرمة، حيث وجد ان البضائع التي تجلب اليها من الهند والحبشة والعراق واليمن وخراسان والمغرب، ما لاتحصى ولا تعد. ومن كثرتها انها تبقى الموسم كله. وما يباع فيها في يوم واحد ما لو فرق على البلاد كلها لأقام لها الاسواق النافعة. ومن البضائع والسلع التي اشار اليها الذخائر النفيسة كالجواهر والياقوت وسائر الاحجار. ومن انواع الطيب كالمسك والكافور والعنبر والعود والعقاقير الهندية وغيرها من البضائع الخراسانية والغربية، اضافة الى الارزاق والفواكه وسائر الطيبات كالتين والعنب والرمان والسفرجل والخوخ والاترج والبطيخ والقثاء والخيار وجميع البقول كالباذنجان واليقطين والسلجم والجزر والكرنب، ومن الرياحين العبقة والمشمومات العطرة. ويجلب لها من اليمن الزبيب الاسود والاحمر شديد الجودة واللوز الكثير وبها قصب السكر ومن الفواكه البطيخ والسفرجل وهي اغلبها مجلوبة من خارج المدينة والفواكه تجلب اليها من الطائف والقرى المحيطة بها.

كما اشار الى تصدير القار من العراق الى ميناء عكة على البحر المتوسط حيث يصدر من هناك الى البلاد البحرية.

٣ ـ طرق ووسائل النقل.

اشار ابن جبير الى طريق الحج الذي قطعه حيث ركب من غرناطة بطريق البر حتى الساحل، حيث استقل مركباً كبيراً من المراكب التي كانت تقطع البحر المتوسط بين موانيه وجزره المنتشرة فيه، ويبدو ان البحر المتوسط كان من البحار المطروقة للمسافرين والبضائع. وان مسالكه كانت واضحة وموانيه تزود هذه المراكب بالماء والحطب والزاد. ولم يشر ابن جبير الى مخاطر قطع الطرق او نهب الركاب. وان الصعوبة الوحيدة التي اشار لها هي هبوب الرياح التي تعرض هذه المراكب الى الغرق واشرعتها الى التكسر. ولكنه اوضح بان المراكب التي تخترقه على نوعين المراكب الصغيرة والمراكب الكبيرة. وان الاخيرة اكثر اماناً من الاولى. فقد اضطر بطريق العودة الرجوع من مدينة صور لانه لم يرغب ان يستقل المركب الصغير الراسي فيها الى مدينة عكا، مرة ثانية حيث اكترى مركباً كبيراً للاقلاع الى مسينة في جزيرة صقلية.

كما قطع نهر النيل من الاسكندرية الى قوص بالمراكب النهرية الصغيرة المعدة لهذا الغرض. ويبدو ان نهر النيل كان مستخدماً للنقل بين الدلتا والصعيد وان المدن الواقعة على شاطئيه كانت مستعدة لاستقبال المسافرين حيث تتوفر فيها الفنادق التي ينزل بها الغرباء.

ثم اشار الى استخدام الجمال وسيلة للنقل في الصحراء وخاصة بين قوص وعيذاب سواء لنقل البضائع الصادرة او الواردة، او نقل المسافرين من التجار والحجاج وغيرهم. ولا تستخدم غيرها لصبرها على الظمأ في هذه الصحراء القاحلة ويكون النقل على نوعين:

١ ـ المسافرون غير المتمكنين حيث يركبون الابل على احمالها فيكابدون من مشقة سموم الحر غماً ومشقة.

٢ ـ المسافرون المتمكنون من ذوي الترفيه واليسار فانهم يستخدمون الشقاديف وهي اشباه المحامل واحسن انواعها اليمانية لانها كالاشاكيز السفرية مجلدة متسعة. يوصل منها الاثنان بالحبال الوثيقة. وتوضع على البعير ولها اذرع قد حفت باركانها، يكون عليها مظلة، فيكون الراكب فيها مع عديله في مكمن من لفح الهاجرة، ويقعد مستريحاً في وطائه ومتكأ ويتناول مع عديله ما يحتاج اليه من زاد وسواه. ويطالع من شاء المطالعة في مصحف او كتاب. ومن شاء ممن يستجيز اللعب بالشطرنج. ان يلاعب عديله تفكهاً واحجاماً للنفس. وبالجملة فانها مريحة من تعب السفر.

ثم استخدم واسطة اخرى لعبور البحر الاحمر بين عيذاب وجدة، اطلق عليها الجلاب. لا يستعمل فيها مسمار البتة. انما هي مخيطة بامراس من القنبار وهو قشر الجوز النارجيل يدرسونه الى ان يتخيط ويفتلون منه امراساً يخيطون بها المراكب ويتخللونها بدسر من عيدان النخيل. فاذا فرغوا من انشاء الجلبة على هذه الصفة سقوها بالسمن او بدهن الخروع او بدهن القرش وهو احسنها. وذلك ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر، وعدد هذه الجلاب والقنبار مجلوب من الهند واليمن.

ثالثاً: المعادن والصناعة

لم ترد عن هذين الموردين سوى اشارات بسيطة شاهدها خلال طريقه المحدود والمرسوم للذهاب الى مكة المكرمة والمدينة المنورة واداء شعائر الحج والعمرة فمن المعادن اشار الى مغاصات اللؤلؤ في البحر الاحمر. وان وقت الغوص عليه شهري حزيران وتموز من كل عام حيث يستخرج الناس الجوهر النفيس.

كما اشار وهو يمر بمدينة القيارة الى معدن القار. حيث قال ان فيها عيوناً كباراً وصغاراً تنبع بالقار. ويقذف بعضها بحباب منه كأنها الغليان، ويصنع منه احواض يتجمع فيها فتراه شبه صلصال منبسطاً على الارض اسود املس صقيلاً رطباً، عطر الرائحة، شديد التعلك، فيلصق بالاصابع لاول مباشرة منه باللمس.

وبمقربة من هذه العيون على شط دجله عين اخرى من القار كبيرة ابصر على البعد منها دخاناً، وان النار تشتعل فيه، اذا ارادوا نقله فتشق النار رطوبته المائية وتعقده، فيقطعونه ويحملونه جميع البلاد الى الشام والى عكة على ساحل البحر المتوسط، ثم ينقل الى جميع البلاد البحرية.

اما الصناعة فقد اشار الى صناعة كبس التمور في مكة المكرمة، حيث عجب من جودة التمور فيها، وعده بمنزلة التين الاخضر في نهاية الطيب واللذاذة لا يسأم التفكه به، ويخرج الناس اليه كخروجهم الى الضيعة او كخروج اهل المغرب لقراهم ايام نضج التين والعنب. وعند نضجه يبسط على الارض قدر ما يجف قليلاً. ثم يركم بعضه فوق بعض في السلال والظروف. ثم تحفظ لحين استهلاكها.

ثم اشار الى صناعة الثياب العتابية المصنوعة من القطن والحرير ذات الالوان مختلفة، والتي اشتهرت في الوطن العربي والاسلامي، وتصنع في احدى محلات مدينة بغداد.

المستوطنات البشرية:

اشار ابن جبير الى كثافة الاستيطان البشري في دلتا نهر النيل وواديه وذلك من كثرة القرى الواقعة بين الاسكندرية والقاهرة وعلى طول وادي نهر النيل حتى الصعيد حيث القرى متصلة وكثيرة مما اضطر ابن جبير الى ذكر القرى الكبيرة فقط وذلك لان ذكر جميع القرى سوف يزيد كتابه ضخامة. كما ذكر بان العمارة متصلة كذلك والقرى منتظمة. وهذا ما يوضح بان دلتا وادي نهر النيل يستأثر بالعدد الكبير من سكان مصر حيث مورد الرزق من الزراعة.

كما اشار الى كثافة الاستيطان البشري عندما اشرف على سهول العراق اعتباراً من الحلة حتى بغداد ثم شمالاً حتى الموصل وفي جميع المراكز الحضرية في بلاد الشام ومدنها الكبيرة.

بينما اشار الى اضمحلال هذا الاستيطان في المناطق

الصحراوية عندما مر بين قوص وعيذاب في الصحراء بين النيل والبحر الاحمر وكذلك عندما غادر المدينة باتجاه بغداد حتى مدينة الكوفة حيث اقتصر المرور على مواضع المياه والمصانع والصهاريج فيتزود منها الحجاج والتجار دون وجود سكن فيها.

اما المدن فقد قسمها ابن جبير حسب اهميتها الى الاقسام التالية :ـ

١ ـ المدن

وهي الحواضر التي تقع في المرتبة الاولى حيث تتميز بما يلي :ـ

أ ـ اتساع مبانيها وعلوها

ب ـ نشاط اسواقها

جـ ـ احتواؤها على كافة المرافق كالمدارس والمستشفيات والحمامات وغيرها.

د ـ كثرة سكانها.

ومن هذه المدن الاسكندرية والقاهرة وقليوب وقوص وعيذاب وجدة ومكة والمدينة والحلة وبغداد والموصل ورأس العين وحران وحلب وحماة وحمص ودمشق وبانياس وعكة وصور.

٢ ـ البلدة

وهي اصغر من المدن واكبر من القرى فيها الاسواق وسائد ما يحتاج اليه من المرافق ولكن اسواقها ومبانيها ونشاطها الاقتصادي اقل من المدن. مثل منفلوط التي قال عنها بلدة في نهاية من الطيب ليس في الصعيد مثلها. وقال عن بلدة بزاغة في مصر انها تصغر عن المدن وتكبر عن القرى.

٣ ـ القرى

وهي على نوعين القرى الكبيرة والقرى الصغيرة وقد اشار الى النوع الاول فقط وقد تميزت هذه القرى باتساع مساحتها وخصوبة اراضيها الزراعية وانتشار بساتينها واراضيها الزراعية وخيرات محاصيلها التي تزود بها المدن بما يحتاجون اليه.

القبائل التي اشار اليها ابن جبير

لقد اشار ابن جبير الى قبائل البجاة وقبائل السرو.

فالبجاة هم اهل عيذاب ولهم سلطان من انفسهم يسكن معهم في الجبال المتصلة بها، ويصل في بعض الاحيان الى مدينة عيذاب ليجتمع بالوالي من الغزءوهم جنس من الاتراك اظهاراً للطاعة اليه.

وهؤلاء البجاة هم الذين يقومون بنقل التجار والحجاج وبضائعهم في الصحراء بين قوص وعيذاب.

وفي طريق عودة الحجاج من جدة الى عيذاب فان الرياح تبعد المراكب الى الجنوب من الميناء بعيداً عن مرسى عيذاب حيث ينزلون في الصحراء فينقلهم البجاة وهم نوع من السودان يسكنون الجبال على الجمال في طريق لا ماء فيه. ويقطع قسم من الحجاج الطريق على قدميه فيهلك قسم منهم عطشاً.

وذكر قبائل السرو وهم من قبائل اليمن الذين يسكنون جبال السراة الحصينة فاشتق اسمهم من اسم بلادهم. وهم قبائل شتى كبجيلة وسواها. وهم يجلبون من الاطعمة ويصلون بالالاف من العدد رجالاً وجمالاً فيجلبون السمن والعسل والزبيب واللوز والحنطة وسائر الحبوب من اللوبياء وما دونها ولولا هذه الميرة لكان اهل مكة في شظف من العيش. وهم يبيعون بالحرفة والعباءات والشمل فيعد اهل مكة الاقنعة والملاحف المتينة وما اشبه مما يلبسه الاعراب ويبايعونهم ويشارونهم.

ولم يذكر ابن جبير غير هؤلاء في رحلته.

الخلاصة

يلاحظ مما سبق ان ابن جبير قد خرج من بلاده حاجاً. وقد التزم بطريق محدد ومرسوم. ومع ذلك فانه قد دون مذكرات يومية عما صادفه وشاهده. ونقل الينا وصفاً دقيقاً لكثير من المدن من حيث عماراتها ونشاط سكانها. فعندما تحدث عن مدينة الاسكندرية قال ومن عجائب هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم بالنهار في جميع احوالهم وهذا القول المختصر يوضح لنا بان نشاط السكان في هذه المدينة مستمر طيلة اربع وعشرين ساعة.

كما لم تقتصر مذكرات ابن جبير على المظاهر الجغرافية وانما تناول كثيراً من الاحداث التاريخية وخصوصاً انه مر في فترة حرجة هي فترة الغزو الصليبي وحكم السلطان صلاح الدين الايوبي الذي اشار الى كثير من اصلاحاته الدينية والادارية والثقافية. وتطرق الى المساجد والمدارس والمستشفيات ولم يتطرق هذا البحث الا الى الجوانب الجغرافية التي اشارت اليها الرحلة.

كما تميزت هذه الرحلة بالدقة في الوصف والتعبير دون اسهاب او تطويل وباسلوب ادبي عال يخلو من الاساطير والخرافات. مما يوضح ان ابن جبير كان على ثقافة عالية وانه دقيق الملاحظة.

ولم يتضح من رحلة ابن جبير انه اقتبس من غيره او راجع المكتبات للقراءة والاطلاع. وانما دون هذه الرحلة مما شاهده بنفسه. وقد اقتبس منه كثير من الرحالة والمؤلفين. لان ما جاء به جديد ولم يتطرق اليه احد غيره. ومن الذين نقلوا عنه العبدري وخالد بن عيسى البلوي وابن بطوطة وابن الخطيب والمقريزي الفاسي والمغربي.

وان الصعوبات التي صادفت ابن جبير في دخوله الى مصر عن طريق الاسكندرية وخروجه عن عيذاب الى جدة، كانت من الامور التي اضفت الى الرحلة معلومات لانها اجبرته على ان يعود عن طريق اخر غير الطريق الذي اعتاد فيه الحجاج المغاربة والمصريين العودة به. فقد سلك طريق المدينة - بغداد - الموصل - دمشق - عكا وبذلك وصف لنا طريقاً جديداً ومرّ على بلاد جديدة هي العراق والشام. اضافة الى اشاراته القيمة عن البحر المتوسط والجزر التي تقع فيه وموانيه التي وقف بها مما جعل الرحلة بحق سفر علمي قيم تضم معلومات تاريخية وجغرافية على حد سواء.

المصادر والمراجع

١ - (ابن جبير) ابو الحسين محمد بن احمد، ابن جبير ط ٢ مطبعة بريل ليدن ١٩٠٧.

٢ - الحسن البصري، فضائل مكة والسكن فيها، تحقيق الدكتور سامي مكي العاني مكتبة الفلاح، الكويت ١٩٨٦.

٣ - خير الدين الزركلي، الاعلام. ج ٦ ط ٢ لا يوجد مكان للطبع او سنة الطبع.

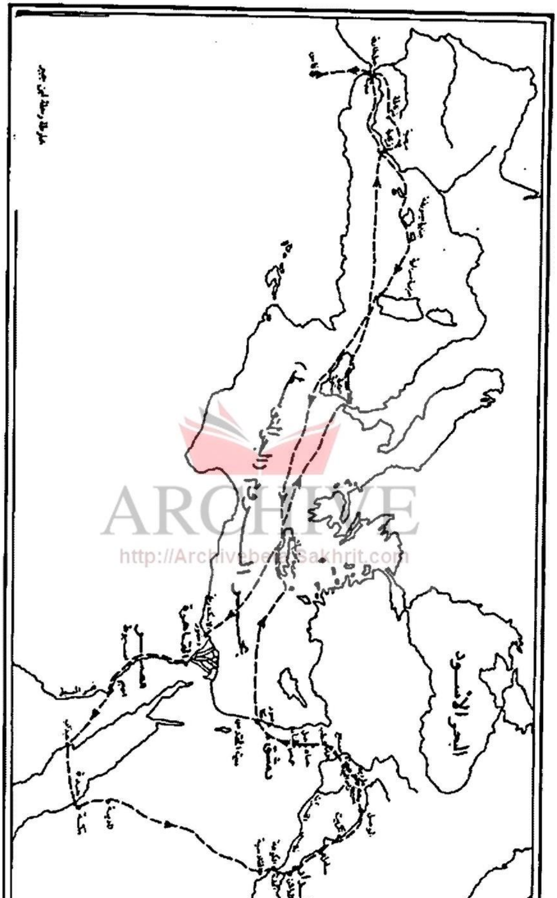
٤ - شاكر خصباك، في الجغرافية العربية، مطبعة دار السلام، بغداد ١٩٧٥.

٥ - كراتشكوفسكي (اغناطيوس يوليانوفتش) تاريخ الادب الجغرافي العربي ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، القسم الاول، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣.

٦ - لجنة من ادباء الاقطار العربية، الرحلات، فنون الادب العربي، الفن القصصي (٤) دار المعارف ١٩٥٦.

٧ - محمد مصطفى زيادة، رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٣٩.

• • •



رحلة ابن بطوطة

دراسة
عبد الجبار السامرائي

ص . ب ٤٦٩ بغداد

في الوقت الذي اختتم فيه (ماركو بولو) البندقي تجواله في أعماق الأراضي والمجتمعات الأسيوية، ودون رحلاته ومشاهداته، ولد بطنجة... ابن بطوطة، وكأنّ الله أراد أن يجعله خلفاً لماركو بولو كيما يستكمل دوره، وقد جاب ابن بطوطة اكثر ماعرف لزمانه من بلاد العالم. وترك لنا كتابة الموسوم (تحفة النُظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) ليكون أصدق وثيقة وتحفة خالدة تزين جيد الأدب العربي.

من هو ابن بطوطة؟

هو اعظم الرحالة العرب قاطبة، واكثرهم طوافاً في الآفاق، وأوفرهم نشاطاً واستيعاباً للأخبار، وأشدهم عناية بالتحدث عن الحالة الاجتماعية في البلاد التي تجوّل فيها. ويشهد بأن ابن بطوطة كان من المغامرين الذين لايقرّ لهم قرار، ومن الذين يدفعهم حب الاستطلاع والرغبة في الاستمتاع بالحياة إلى أن يركبوا الصعب.

وولد ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن يوسف اللواتي الطنجي المعروف بـ «ابن بطوطة» في مدينة (طنجة) سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٤م من أسرة كريمة، أتيح لكثير من ابنائها الوصول إلى منصب القضاء والنبوغ في العلوم الشرعية.[1]

الرحلة

تفتحت مواهب ابن بطوطة حين شبّ عن الطوق، وغدا شاباً رشيداً في الثانية والعشرين، عندما عزم على مغادرة بلاده لأداء فريضة الحج. كما يروي هو نفسه:

(قال الشيخ ابو عبد الله: كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعماية معتمداً حجَّ بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام منفرداً عن رفيق آنس بصحبته وركب اكون في جملته لباعث من النفس شديد العزايم وشوق الى تلك المعاهد الشريفة كان في الحيازيم فحزمت أمري على هجر الإناث من الأحباب والذكور، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور، وكان والدي بقيد الحياة، فتحملت لبعدهما وصباً، ولقيت كما لقيا نصباً، وسني يومئذٍ اثنتان وعشرون سنة).

وقد جاء هذا العزم على الحج الى بيت الله الحرام حدثاً هاماً في حياة ابن بطوطة، دفعه الى أن ينفض عنه ثياب الدعة والاستقرار، ويرتدي ثوب الارتحال والتجوال، مخلّداً اسمه في ميدان الرحلات التي قام بها قبله رجال من المسلمين منذ القرن الثالث الهجري، حين ارتادوا بلاد الدولة العربية المترامية الأطراف، من حدود الهند شرقاً الى المحيط الأطلسي غرباً،

ومن آسيا الوسطىٰ وجبال القوقاز شمالاً إلى صحارىٰ افريقيا جنوباً. وتجدر الاشارة الى أن رحلات اولئك الرحالة الأوّل تختلف عن رحلة ابن بطوطة؛ كونها متخذة صفة رسمية، قام بها مبعوثون وسفراء من قبل السلطات المركزية الاسلامية ببغداد، لوصف الطرف والممالك التي تربط العاصمة بالبلاد التابعة لها، ولدراسة الأحوال التي تساعد أولي الأمر على إدارة هذه الدولة الكبرىٰ، وتطبيق أحكام الشريعة فيها. ومما يسترعي الانتباه حقاً هو ان ابن بطوطة كان آخر الرحالة الكبار الذين انتظمت رحلاتهم محيط العالم الاسلامي بأسره. وبالتالي، فقد بات الرجوع إليه أمراً حتمياً علىٰ أي باحث يود الخوض في تأريخ الأوردو الذهبي، وآسيا الوسطىٰ، رغم أن رواياته عن الصين والهند تحاكي في أسطوريتها «أسفار السندباد» و «عجائب الهند». ومهما اختلفت حوله الأراء، فإن من المستحيل انكار أنه كان آخر جغرافي عالمي من الناحية العلمية، أي أنه لم يكن نقّالة يتكئ علىٰ كتب الأخرين، بل كان رحالة انتظم محيط أسفاره عدداً كبيراً من الأقطار، وقد جاوز تجواله مقدار مائة وخمس وسبعين ألف ميل، فهو بهذا يعد منافساً خطيراً لمعاصره الأكبر منه سناً (ماركو بولو) البندقي. ولعل المقارنة بين الاثنين قد بولغ فيها أحياناً، ولو أنها لاتخلو من الطرافة في بعض جوانبها، فالصياغة الأدبية لكلا الرحلتين مثلاً، لاترجع الى صاحب الرحلة نفسه بل الىٰ شخص آخر، كما أن كلا المصنفين يكمل أحدهما الأخر بالنسبة لمعلوماتنا عن آسيا، فالرحالة البندقي عرف الشرق الأقصىٰ خيراً مما عرفه المغربي، وفي مقابل هذا يُضحي أمراً طبيعياً أن يكون لابن بطوطة احساس ذاتي بظروف حضارة العالم الاسلامي الذي يصفه اكثر مما كان لدىٰ البندقي. ومما يقرب بين الاثنين انهما لاينتميان في المحيط الجغرافي الىٰ الجغرافيين العلماء، ولو أنه يجب الاعتراف بأن وصف المواطن المغربي لخط سير رحلته أدعىٰ إلىٰ الثقة مما عليه الحال مع معاصره البندقي، غير أن هذا يجب الا ينسينا شطحاته، فمما لاشك فيه أن وصفه لـ «أرض الظلمات» الواقعة خلف أراضي البلغار، إنما يرجع فيه الىٰ فكرة غير موثوق بها أو إلىٰ مصدر أدبي أساء فهم روايته، كما أن وصفه لبلاد طوالسي الواقعة في مكان مـا من كوشين ـ صين Cochin — China يتضمن أساطير سمعها عن بلاد أخرىٰ حتىٰ اختلط الوصف لديه اختلاطاً كلياً. إلا أنه كلما تعرّضت الأجزاء المختلفة من وصف رحلته لدراسة دقيقة مفصلة، زادت الثقة في صدق روايته يوماً عن آخر.

لقد بدأ ابن بطوطة رحلته من طنجة ماراً في طريقه علىٰ (بجاية) وتونس وطرابلس حيث تزوج، ومن ثم وصل الىٰ الاسكندرية، وفيها التقىٰ عدداً من العلماء أمثال برهان الدين وأبي عبد الله المرشدي، ولكنه لم يلبث ان انتقل الىٰ دمياط، حيث أعجب بنظامها، ومنها ركب النيل متجهاً إلى القاهرة عاصمة البلاد، مشيراً الىٰ ازدهارها أيام المماليك علىٰ الصعيدين الاجتماعي والعمراني. ومن القاهرة تابع سيره للإلتحاق بقافلة الحجاج من دمشق، بعدما تعذّر عليه ذلك عبر البحر الأحمر بسبب حروب دارت رحاها بين المماليك وقبائل البجة. ومن خلال مطالعتنا لما جاء علىٰ لسان ابن بطوطة نتبين قوة السلطة المركزية في كل من مصر والشام في حفظ سلامة المسافرين، وتأمين الوسائل التي تساعد علىٰ تنقلهم بسهولة؛ وهذا ماشجع ابن بطوطة علىٰ زيارة معظم مدن فلسطين، وخاصة بيت المقدس، حيث أبدىٰ اعجابه بروح الإخاء والمودة التي كانت تسود العلاقة بين المسلمين والمسيحيين في المنطقة الشامية برمتها. وكذلك يشيد بالمسجد الأموي في دمشق كظاهرة فريدة من مظاهر إزدهار الحياة الاجتماعية والاقتصادية هناك؛ في حين اننا نرىٰ روعة المسجد وأهميته لم تختلف عن المساجد الأخرىٰ في العواصم الاسلامية. وقد أشار الىٰ امور عديدية أخرىٰ، كتوزيع مال الأوقاف للفقراء الراغبين في تأدية فريضة الحج، وللبنات اللواتي لاقدرة لأهلن علىٰ تجهيزهن حين الزواج ومن دمشق توجه ابن بطوطة مع الركب الحجازي في الاول من شوال متجهاً إلىٰ مكة. والجدير بالذكر ان وصفه لرحلته هذه هو صورة واضحة تصلح لان تكون دليلاً يتضمن معلومات جغرافية وتأريخية لمن يرغب في زيارة تلك الاماكن المباركة؛ ولم يقتصر تعريفه علىٰ الاماكن الواقعة في مكة والمدينة، بل تعداها الى تلك التي تقع في العراق ومعظم انحاء الجزيرة العربية.

أما أبرز مايلفت الانتباه، الإشادة، بالحياة الاجتماعية في مكة وسط إسهابه في الحديث عن أماكنها المقدسة، والشعائر الدينية التي تقام فيها، فذكر ماتحلّىٰ به أهل مكة من مكارم الاخلاق، وماطبعوا عليه من حميد العادات؛ فكانوا يبالغون في إكرام الغرباء والمنقطعين. ولم يبق ابن بطوطة طويلاً في مكة بعد

أن انتهىٰ من مناسك الحج، إلا انه لم يفكر كذلك في العودة الىٰ وطنه، اذ تحركت في نفسه غريزة التجوال وارتياد البلاد، وبدأ مرحلة جديدة من الرحلات، كانت الدرجة الأولىٰ في سلم طويل ارتقاه حتىٰ وقف علىٰ قمة أحوال العالم المعروف علىٰ عهده، حيث شاهد عجائبه وآثاره، قانعاً بأن يقضي من عمره نحواً من عشرين سنة في أسفار متصلة ورحلات متعاقبة. وهكذا حقق ابن بطوطة فراسة العالم الذي التقاه في مصر برهان الدين، الذي خاطبه ـ كما جاء علىٰ لسان ابن بطوطة ـ: «اراك تحب السياحة والجولان في البلاد» فأجابه بالايجاب. وهنا قال له:

«لابد لك إن شاء الله من زيارة الهند، ومقابلة أخي فريد الدين بها، وكذلك النزول بأرض الصين، والالتقاء بأخي برهان الدين هناك، فإذا بلغت هذه البلاد، فاقرئ أخوتي بها السلام».

ومن مكة التي زارها لتأدية فريضة الحج ثانية، توجه ابن بطوطة الىٰ زيارة أقوام جدد من المسلمين علىٰ ساحل أفريقيا الوسطىٰ، وعزم علىٰ الذهاب الىٰ هذه البلاد ماراً ببلاد اليمن، ثم لم يلبث أن عاد الىٰ مكة ثالثة، فمرّ في طريقه اليها علىٰ اليمامة ثم اجتاز البحر الأحمر الىٰ عيذاب ومنها الىٰ القاهرة.

وهكذا اجتاز ابن بطوطة ـ في دورته الثانية ـ الشام ليصل الىٰ آسيا الصغرىٰ... ومنها وصل الىٰ (سينوب) علىٰ البحر الاسود، ومنها يمم شطر بلاد المغول، حيث رست سفينته في مرسىٰ يدعىٰ الكرش الواقع ضمن دائرة نفوذ القبيلة الذهبية التي تعود الىٰ اصول مغولية. ومن ثغر الكرش انتقل الىٰ ثغر (كافا) وهي فيدوسيا حالياً حيث كان اكثر سكانه من اهل جنوه. ولكنه لم يلبث ان رحل منها الىٰ مدينة القرم حيث اكرم وفادته حاكمها تلكتمور؛ وهنا اسهب ابن بطوطة الحديث عن وسائل المواصلات ومايتصل بها، اذ وصف العربات التي تساعد المسافرين علىٰ التنقل بسهولة فهي متعددة متنوعة قوامها الخيول وغيرها من الحيوانات؛ مما يدل علىٰ التقدم الصناعي في تلك المناطق، ثم وصل ميناء (كفا) الذي يعتبره ابن بطوطة من الموانئ العالمية الخمسة الكبرىٰ الىٰ جانب (ميناء الاسكندرية في مصر وكلم وقاليقوت بالهند والزيتون بالصين).

وقد كان له وقع بارز في نفسه، سمع ولاول مرة في حياته اصوات نواقيس الكنائس وفي طريقه، جال ابن بطوطة في جميع انحاء شبه جزيرة القرم وروسيا الجنوبية، ومن هناك بلغ أرض البلغار الفلفا، ثم خرج من استراخان (حاجي طرخان) مع قافلة الأميرة البيزنطية، إحدىٰ زوجات الخان أوزبك، فبلغ القسطنطينية، ومن هناك، رجع مرة ثانية الىٰ مملكة الأوردو الذهبي، فوصل الىٰ مقر الخان بمدينة سراي، ثم عبر نهر الفلفا، فوصل الىٰ جنوه، وغادرها الىٰ بخارىٰ فافغانستان، ودخل الهند في غرة محرّم من عام ٧٣٤هـ/١٢ أيلول ١٣٣٣م. وبدخول ابن بطوطة بلاد الهند، عادت به الذاكرة الىٰ تلك الفترة الأولىٰ التي أخذ الاسلام يشق فيها طريقه الىٰ هذه الرقعة الحافلة بألوان المدنيات القديمة. فكانت الجهات التي بدأ بزيارتها أولى البقاع التي وصل اليها المسلمون، حين أرسل الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق جيشاً بقيادة ابن عمه محمد بن القاسم سنة ٨٩هـ لفتح السند. وفور وصول ابن بطوطة إلى دلهي التي كانت محجة انظاره، استقبله حاجب الغرباء فيها، ويدعىٰ الشريف «المازنداري» واصطحبه الىٰ دار الضيافة: حيث أعطي مالاً وفيراً ومؤناً بقدر مايحتاج إليه، وقد انتهز ابن بطوطة فرصة غياب السلطان وعمل علىٰ زيارة المدينة الهندية الكبيرة المساحة والعمران؛ تنقسم الىٰ أربعة أقسام يحيط بها سور واحد. «والسور المحيط بمدينة دلهي لايوجد له نظير، عرض حائطه احدىٰ عشرة ذراعاً، وفيه بيوت يسكنها حفاظ الابواب، وفيها مخازن للطعام ويسمونها «الأنبارات»، ومخازن للعدد.. ويمشي في داخل السور الفرسان والرجال من أول المدينة الىٰ آخرها. وفيه طبقات مفتحة الىٰ جهة المدينة يدخل منها الضوء، وأسفل هذا السور مبني بالحجارة، وأعلاه بالآجر، وابراجه كثيرة متقاربة». وقد لفت انتباهه استعداد المدينة لاستقبال سلطانها، بموكب يتقدمه مشاة من عبيده وخلفهم فيلة يرمى من فوقها بالدنانير والدراهم فيلتقطها الناس، وآخرون يوزعون آنية مملوءة بشراب ماء الورد. وانتظر ابن بطوطة فترة وجيزة تعرف خلالها علىٰ عادات وتقاليد استقبال سلطان دلهي، محمد بن طغلق المعروف بمحمد شاه بروارة: ثم لم يلبث أن تقدم لزيارته، فكانت مناسبة لينقل لنا صورة رائعة ودقيقة لقصر هذا السلطان الكبير من جهة، وصورة واضحة لعادات وتقاليد شعوب تلك البلاد اثناء زيارتهم لسلطانهم من جهة اخرى. وقد حظي ابن بطوطة بمكانة مرموقة لدىٰ السلطان، حيث عينه قاضياً في عاصمته «دلهي»، وعضواً في «سفارة» جهزها سلطان الهند الىٰ الصين. لكن ابن بطوطة لم

يوفق في الوصول الى الصين براً عن طريق قندهار، فاضطر الى الابحار من قاليقوت الى جزر الملديف (جزائر ذيبة المهل)، وهناك أمضى زهاء عامين شغل خلالها مرة أخرى منصب القضاء. إلا انه نتيجة لبعض أحكامه القضائية بحق بعض النافذين في تلك الجزيرة أخطر الى مغادرتها متجهاً نحو جزيرة سيلان التي ارتبط بها ـ كما يقول ابن بطوطة ـ أقدم القصص عن آدم أب البشر. (وآثر القدم الكريمة [قدم آدم] في صخرة سوداء مرتفعة، بموضع فسيح، وقد غاصت القدم الكريمة في الصخرة حتى عاد موضعها منخفضاً، وطولها أحد عشر شبراً، وأتى اليها أهل الصين قديماً، فقطعوا من الصخرة موضع الابهام يقصدونها من أقصى البلاد. وفي الصخرة، حيث القدم تسع حفر منحوتة، يجعل الزوار فيها الذهب والبواقيت والجواهر، فإذا وصل الفقراء اليها تسابقوا في أخذها).

واسترعى انتباه ابن بطوطة كثرة احجار الياقوت التي تستخرج من أرض الجزيرة، حيث يتحلى بها جميع نسائها على شكل قلائد ويجعلنه في ايديهن كذلك وارجلهن عوضاً عن الأساور والخلاخيل.

ومن سيلان، انتقل ابن بطوطة الى البنغال [البنجالة] والهند الشمالية واندونيسيا، ومن هناك اتجه الى كانتون بالصين حيث كان يردد وهو في طريقه الى هذه البلاد ماروي عن الرسول الكريم (اطلبوا العلم ولو في الصين). وإذ كانت السفينة تقترب من الشواطيء الصينية، ماراود ابن بطوطة أي شعور بالخوف أو الرهبة، فقد تذكر ترحيب أهل الصين بالمسلمين، ولاسيما التجار منهم الذين كانوا أول من وصلوهم بالدين الاسلامي ودولته. وقد وفد أولئك التجار المسلمون على الصين في عهد دولة تارنج التي حكمت الصين من ٦١٨ إلى ٩٠٧م، وتناقل أهل الصين عن أولئك التجار أنهم يعبدون الله، وليس لهم في معابدهم تمثال ولاصنم ولاصورة، وانهم لايأكلون لحم الخنزير ولايشربون الخمر، وانهم يحرّمون الذبائح التي لايذبحونها بأنفسهم. وقد حصل أولئك القوم من السلطان على إذن بالاقامة في ميناء كانتون، وبنوا دوراً جميلة تختلف عن مباني أهل الصين. وسرعان ماأصبح أعضاء الجالية الاسلامية أغنى الناس في الصين، وكثر الوافدون عليهم من بني دينهم، واستقر آخرون منهم في ميناء خانفو جنوب مدينة شنغهاي الحالية. وحرصت السلطات الصينية على منح المسلمين هناك امتيازات كثيرة لما لهم من أثر كبير في اقتصاديات البلاد؛ من ذلك مثلاً حقهم في اتخاذ قاضٍ مسلم من بينهم، يؤمهم في الصلاة، ويحكم في المشاكل التي يتعرضون لها، وحقهم في الحصول على جوازات تتيح لهم التجارة مع أهل الصين داخل البلاد. وتابع التجار المسلمون نشاطهم حتى وصلوا الى كوريا، وفي هذه الأخيرة كان لهم نشاط واسع حيث تدخلوا في الشؤون السياسية لهذه البلاد. ومما ساعد على هذا التدخل السياسي: العلاقات الحسنة بين حكام الصين وخلفاء الدولة الاسلامية، ومن ثم الاستعانة بخلفاء المسلمين في التغلب على مشاكلهم الداخلية، فعلى سبيل المثال: استنجاد حاكم الصين سوتسنج عام ٧٥٦م بالخليفة المنصور العباسي للدفاع عن عرشه ضد بعض الثوار؛ فأمده الخليفة بفرقة من الجنود المسلمين، آثرت البقاء في الصين بعد انتهاء مهمتها. وظلت أحوال الصين تزداد قوة باتصالها بالمسلمين حتى القرن الثالث عشر الميلادي، قبيل زيارة ابن بطوطة لها بزمن قصير؛ إذ دخل المغول بلاد الصين، وتحولوا الى الدين الاسلامي، وفتحوا بذلك الطريق أمام المسلمين من سائر الأجناس للدخول اليها، فاستقر عدد من المسلمين في مدنها الهامة بشكل نهائي، وغدا لهم كيانهم الخاص. وجاءت زيارة ابن بطوطة الى الصين وتجواله في مدنها سجلاً حافلاً عن حياة المسلمين، ونشاطهم في هذه المرحلة المبكرة من اتصالهم بالشرق الاقصى. وفي طريق عودته استقل سفينة من سومطرة الى ظفار جنوبي الجزيرة العربية فبلغها في عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م.

وهكذا، ومرة أخرى، نرى ابن بطوطة ضارباً في فيافي العراق والشام ومصر، ليؤدي فريضة الحج للمرة الرابعة، ثم يكمل طريقه الى فلسطين، فشهد الطاعون، ذلك الوباء المخيف الذي اجتاحها عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م. وبعد ذلك بقليل، وفي نيسان عام ٧٥٠هـ/١٣٤٩م ألحت عليه رغبة جامحة في الرجوع الى وطنه، ولعل تواتر الأخبار بازدهار مراكش في عهد السلطان أبي عنان من بني مرين، قد مكّن هذه الرغبة في نفسه، فأخذ طريق العودة ماراً بمصر وتونس، حيث واتته فكرة زيارة جزيرة سردينية «سردانية» وفي اثناء هذه الرحلة، تعرّض مرتين لهجوم لصوص البحر «القراصنة». وعلى الرغم من هذا، فقد حالفه التوفيق، فتقدم في طريقه الى فاس ماراً على تنيس وتلمسان، وتازان، التي علم فيها بخبر وفاة أمه. حتى بلغ بلاط السلطان

أبي عنان في تشرين الثاني عام ١٣٤٩م/٧٥٠هـ وهناك انتهى به المطاف، وقوبل بما هو أهل له من التقدير والاجلال. بيد أن تجواله لم يقف عند هذا الحد، فقد بقي قطران إسلاميان لم يكن زارهما بعد، احدهما دولة غرناطة التي وصلها بعد زيارة قبر والدته في طنجة، لكنه لم يمكث في هذه البلاد طويلاً، لأن المسلمين كانوا يعانون أخطر مرحلة في حياتهم، وهو انسحابهم أمام المناوئين من أهل الأندلس، الأمر الذي دفعه للعودة تاركاً وراءه هذا القطر الهام من دار الاسلام.

عزم ابن بطوطة بعد عودته من الاندلس على القيام بزيارة بلاد المسلمين في السودان الغربي، حيث ترك مدينة فاس بعد أن استاذن السلطان أبي عنان في شتاء عام ١٣٥١م لزيارة السودان، وقد نظم سفرة الى سجلماسة الواقعة جنوب شرقي الاطلسي، والتي لم يبق منها سوى الأطلال، كانت حينذاك معبراً حدودياً مهماً يربط الحدود الجزائرية المغربية بمملكة مالي، التي لم يكن مرّ على اعتناقها الاسلام عهد طويل. وبعد خمسة وعشرين يوماً من السفر وصل الى منجم الملح الكبير، الموجود في قرية «تعازا»، إذ يأتي السود من جميع أنحاء السودان لشراء هذا الملح بأسعار مرتفعة نسبياً. فقد كانت السبيكة في «ايوالاتن» مثلاً، المنفذ الجنوبي لموريتانيا حالياً تساوي من ثمانية الى عشرة مثاقيل [أي أونصة ذهب، اقل بقليل من خمس غرامات]، وترتفع لتساوي من عشرين إلى ثلاثين مثقالاً، وأحياناً تصل إلى أربعين مثقالاً في عاصمة مالي. ويستعمل السود الملح بمثابة النقود! كما هو شأننا اليوم مع الذهب والفضة. وقد فقدت (إيوالاتن) تقريباً كل أهمية تجارية اليوم بعد أن كانت عام ١٣٥٢م ساحة تجارية ناشطة، ومرفأ مدخل امبراطورية مالي؛ وفيها أدهش ابن بطوطة ببعض العادات والمفاهيم الاجتماعية، كاختلاط النساء بالرجال، الى درجة أن احدهم يدخل داره فيجد امرأته ومعها صاحبها فلا ينكر ذلك، رغم تمسك أهاليها بالاسلام ومواظبتهم على تأدية الصلوات. ويعزو ابن بطوطة ذلك الى ان هذه المنطقة لم تفهم الاسلام فهماً صحيحاً؛ لقلة الدعاة والمتعلمين وهذه الظاهرة مالبثت أن تبدلت مع مواصلة مسيره نحو الشرق حيث يؤكد ابن بطوطة على التزام أهالي «زاغة» بآداب الدين. والواقع ان هذه المنطقة التي تقع على قلاع النيجر الشمالي الغربي مقر مملكة «تكرور» كانت أول معقل للاسلام بالسودان في بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وكان لها اتصال بمصر، ولاسيما انها كانت تبعث بأبنائها الى الأزهر للتفقه في شؤون الدين.

وفي مالي أقامت الجاليات الأجنبية لابن بطوطة احتفالاً كبيراً، وان دلت هذه الظاهرة على شيء فهي تدل على التقدم الحضاري الذي وصلت إليه مملكة مالي، نتيجة تفاعل الحضارات المصرية والمغربية والسودانية وانصهارها في بوتقة اسلامية، لتشكل حضارة متطورة لأهالي مالي تبرز بشكل جلي في وصف ابن بطوطة المفصل للمناسبات الدينية والوطنية التي يشارك فيها الحكام والمحكومون على حد سواء. وفي طريق العودة، بعد أن زار ابن بطوطة معادن النحاس بـ(تكدا)، بدأ في ١٢ أيلول عام ١٣٥٣م/٧٥٤هـ رحلة شاقة، استغرقت بضعة أشهر في صحبة قافلة من تجار الرقيق، اخترق خلالها هضبة «هكار» Ahagger بعد أن مرَّ في طريقه على واحة (أغدس Agdes) ثم عبر جبال أطلس شتاءً في ظروف قاسية من الشظف الشديد إلى أن بلغ فاس في نهاية عام ٧٥٤هـ/١٣٥٣م. وفي هذه المدينة المغربية أمضى البقية الباقية من حياته، وهي نيفٌ وعشرون عاماً لم يقم خلالها بأي تجوال حتى وافته المنية في عام ٧٩٩هـ/١٣٧٧م[٢].

العراق في رحلة ابن بطوطة

زار ابن بطوطة العراق زيارتين اثنتين، وسلك فيهما طريقين مختلفين أولهما، حين قدومه من مكة المكرمة سنة ٧٢٦هـ، وأما الثاني، فحين عودته من الصين، فجاوة، فالخليج العربي، فالبصرة وبغداد سنة ٧٤٨هـ، وقد وفق رحالتنا في رحلته الثانية لزيارة قدر طيّب من المدن لم يزره في زيارته الأولى كالأنبار وهيت وحديثه وعانه وأثنى على حالتها المعاشية ومنتوجاتها الزراعية حيث يقول:

«من أحسن البلاد وأخصبها.. كأنَّ الماشي فيها في سوق من الاسواق». لكن الزيارة الأولى هي التي تضمنت معلومات ذات جدوى وخطر. وتعد رحلة ابن بطوطة الى العراق أول رحلة يقوم بها رحالة بعد دخول المغول وعبثهم في بغداد، لكن السنوات السبعين التي فصلت بين سقوط بغداد ودخوله

(٦٥٦ ـ ٧٢٦هـ) كانت كفيلة بإعادة الرخاء الى البلاد، لاسيما بعد أن دخل السلطان محمد خدابندة في الاسلام، وأخوه قازغان، وكان حاكم بغداد أبو سعيد بها درخان بن محمد خدابندة، فعمَّ على ايديها الخير والرخاء (واذا كان المغول قد غلبوا المسلمين فإن الاسلام غلب المغول) كما يقول ابن بطوطة.

ومما تجدر الاشارة إليه فضائل حاكم العراق آنذاك (أبو سعيد)، اذ يحدثنا عن الركب الذي ارتحل به ومافيه من نواضح كثيرة لأبناء السبيل، وجمال لرفع المال للصدقة وأدوية وأشربة وسكر، لمن يصيبه المرض، والطعام الذي يطبخ في قدور عظيمة (الدسوت) لإطعام ابناء السبيل، وجمال تحمل من لاقدرة له على المشي، كل ذلك من صدقات السلطان أبي سعيد ومكارمه...

ان الطريق الذي سلكه ابن بطوطة في جولته داخل العراق هو طريق نظيرة، مع أمير ركب العراق، وكان يدعى محمد الحويج، فقصد النجف في ٢٠ ذي الحجة سنة ٧٢٦هـ، لكنه سرعان مافارق الركب الذي قدم فيه، فاتجه جنوباً فشرقاً ثم شمالاً. والرحلة تنبيء عن انه أمضى عاماً منذ خروجه من مكة المكرمة والى عودته اليها ثانية. إذ وَدَّعَ النجف الى واسط فالبصرة ومنها الى اصبهان وشيراز، ثم عاد الى الكوفة والحلة فكربلاء فبغداد ليَخرج الى تبريز، ثم يعود ثانية، ويتوجه الى الموصل وماردين، ويعود ثالثة الى بغداد، ليجد الحاج في اهبة الرحيل، فيصحب ركبهم بأمرة أميرها معروف خواجة. وقد زار ضمناً عدداً من المدن واطلع على احوالهم ومنها: القادسية وبغداد وسامرا، وتكريت والموصل وغيرها. غير أن بغداد (دار السلام)، قد حظيت بأكبر نصيب من الحب لدى ابن بطوطة، ومنذ أن دخل العراق أحبُّ قصد بغداد، والرحلة تُستهل بنص قول ابن جبير الذي يضمنَّه ابن جُزّى في الرحلة، وفيه اشارة الى النوازل والنكبات التي حَلَّت ببغداد... وأبعاد هذه النوازل وأثرها بقلّة الزوايا التي يطعم بها الطعام. ثم ينتقل الى الحديث عن جسري بغداد، وهما على نحو جسر الحلة ويذكر اتصال الناس في العبورعليهما، فهم في ذلك في نزهة متصلة، ويذكر المساجد الجامعة ببغداد، ويتكرر العدد الذي ذكره ابن جبير نفسه، فهي أحد عشر، ثمانية بالجانب الغربي وثلاثة في الشرق، واما مساجدها ومدارسها، فيشير الى كثرتها الا انها خرجت. ويبدو أن التوسع العمراني كان يشمل المساجد لاالجوامع التي حرصوا على قلّتها، رغبة في اجتماع اكبر عدد من الناس في الجمعة وهو مايتحقق بقلّة هذه الجوامع. ويتوقف عند الجانب الشرقي من بغداد ليذكر مدرستيها، النظامية العجيبة التي يضرب المثل بحسنها وهي بأول سوق الثلاثاء، وأما المدرسة المستنصرية المنسوبة الى المستنصر بالله، فهي بآخر السوق، ويعرض لنا صورة عن المدرسة وتوزع فقهائها في مجالسهم وفق المذاهب التي يدرسونها.

ويتحدث ابن بطوطة عن حمامات بغداد البديعة الصنع، إذ هي مطلية بالقار مسطحة به، يخيّل للرائي انه رخام أسود الى نصف الحائط، والنصف الأعلى مطلي بالجص الأبيض الناصع.. فهي تلفت النظر لما اجتمع فيها من الضدّين المتقابلين في الحسن. وفي كل خلوة حوض من رخام فيه انبوبان يجريان بالماء الحار والبارد، والداخل للحمام يُعطى ثلاث فُوَط... (ولم أرَ هذا الاتقان كلّه في مدينة سوى بغداد، وبعض البلاد تقاربها في ذلك).

واذا ماتوقفنا عند أوصاف ابن بطوطة لمدن العراق وجدناه فيها على جانب من الدقة، وهو لايتناقض مع المعلومات التاريخية المتوفرة عندها، اما هذه المدن فهي:

١ ـ النجف:

وهي اول مدينة تستقبل ابن بطوطة من مدن العراق، (مدينة حسنة في ارض فسيحة صلبة، من احسن مدن العراق، واكثرها ناساً، واتقنها بناءً). وفي ذلك إشارة الى تركز القاطنين فيها. ويصف اسواقها بالحسن والنظافة، وتنوع تلك الأسواق على نظام ونسق بحيث افرد لكل حرفة او صناعة سوق خاص. ولايغفل الوقوف عند المشاهد والآثار الاسلامية، فيقدم لنا صورة واضحة لمشهد الامام علي (رض).

٢ ـ واسط:

وفي طريقه من النجف الى البصرة، يمر بواسط فيحدثنا عنها: (حسنة الاقطار، كثيرة البساتين والاشجار). ويبدو انها كانت مركزاً حيوياً لتعليم القرآن الكريم وتجويده، وفيها نحو ثلثمائة خلوة ينزلها الغرباء لتعليم القرآن الكريم.

٣ ـ البصرة:

(مفسحة الأرجاء، موقفة الأفناء، ذات البساتين الكثيرة والفواكه الاثيرة... وليس في الدنيا اكثر نخلاً منها). وحين

يعرّج الأبلّة بقول:

(وبينها وبين البصرة عشرة اميال في بساتين متصلة، ونخيل مظللة عن اليمين واليسار والباعة في ظلال الاشجار يبيعون الخبز والسمك، والتمر واللبن والفواكه). وقد عرفت البصرة بكبار النحاة واللغويين، واليها انتهت رئاسة النحو، لكن الرحالة ابن بطوطة انكر على خطيب الجمعة كثرة لحنه! وشكا ذلك الى القاضي فاعتذر عنه بعدم وجود علماء في النحو! وذلك مايدعو الى التفكير والتدبر، فسبحان مغير الاشياء ومقلّب الامور!

٤ ـ تكريت:

وفي طريقه الى الموصل يكون مرور ابن بطوطة بتكريت، فيصفها بالسعة والكبر، وكثرة الجوامع وجودة الاسواق، وانها عتيقة ذات سور.

٥ ـ الموصل:

مدينة عتيقة، وتتميز بكثرة الخصب، وقلعتها معروفة بالحدباء عظيمة الشأن، شهيرة الامتناع . . . والبلد محاط بسورين اثنين محكمين، ويحدثنا عن ربضها الكبير الذي يحتوي الجوامع والحمامات والفنادق والاسواق، ويذكر مشهد الموصل النبي جرجيس والنبي يونس. ومن مظاهر المدينة التي سجلها مارواه عن جامع الموصل، وان به شبابيك حديد تدور ومساطب في النهاية من الحسن والاتقان.

٦ ـ سنجار:

واذا ماانتقل ابن بطوطة الى مدينة سنجار ذكر خيراتها، اذ هي كثيرة الاشجار والفاكهة والعيون والانهار.

وابن بطوطة معني في رحلته بوصف طبائع الناس واخلاقهم، وهو يسوق ابرز صفات الاقوام المميزة لمدن العراق التي زارها، فمن أهل النجف يقول: «وحاكمهم نقيب الاشراف، وأهلها تجار يسافرون في الاقطار، وهم أهل شجاعة وكرم ولايضام جارهم» وتلك الاوصاف جاءت عن معاناة وتجربة لاعن سماع وتخمين ذلك لأن ابن بطوطة صحبهم في الاسفار فحمد صحبتهم، وحين ينزل واسط، ويختلط باهلها يتبين له انهم اعلام يهدي الخير مشاهدهم، وتهدي الاعتبار مشاهدتهم، وهم خير اهل العراق على الاطلاق! ولعل حكمه هذا بسبب ان اكثرهم يحفظون القرآن الكريم، ويجيدون تجويده، وهو ولاريب اساس العلوم والاخلاق.

وأما أهل البصرة، فلهم مكارم الاخلاق، وأداء لحقوق الغريب، وكذلك الشأن بالنسبة لاهل تكريت فهم معصومون بحسن الاخلاق، وهذه الصورة تستمر مقرونة باهل العراق من جنوبه الى شماله، فهو يصف اهل الموصل بقوله: (لهم مكارم اخلاق ولين كلام وفضيلة ومحبة في الغريب واقبال عليه). كذلك يصف اهل سنجار وجزيرة ابن عمر بالفضل والكرم، واكثر احكامه نابعة عن مخالطته لأبناء تلك المدن ومعاشرته اياهم عن كثب[3].

وعند زيارته لقبر الولي أبي العباس السيد احمد الرفاعي في قرية (ام عبيدة)، على مسيرة يوم واحد من (واسط) يذكر ابن بطوطة ان عرب بني اسد كانوا يقطنون تلك الجهة، وهنا يذكر الذكر الذي أقيم بعد صلاة العشاء: (ولما انقضت صلاة العصر ضربت الطبول والدفوف، واخذ الفقراء في الرقص ـ [اي الرقص المولوي = الصوفي] ـ ثم صلوا المغرب، وقدموا السماط، وهو خبز الارز والسمك واللبن والتمر، فاكل الناس ثم صلوا العشاء الآخر واخذوا في الذكر، والشيخ احمد قوجك حفيد ولي الله ابي العباس الرفاعي قاعد على سجادة جدّه. ثم اخذوا في السماع، وقد اعدوا احمالاً من الحطب فأججوها ناراً ودخلوا في وسطها يرقصون، ومنهم من يتمرغ فيها، ومنهم من يأكلها بفمه حتى اطفئوها جميعاً، وهذا دأبهم، وهذه الطائفة الأحمدية [= تسمى اليوم الرفاعية] مخصوصون بهذا، وفيهم من يأخذ الحيّة العظيمة فيعض باسنانه على رأسها حتى يقطعه)[1].

ويستكمل رحالتنا (ابن بطوطة) الصورة المتعلقة بطبائع العراقيين، فيحدثنا عن عاداتهم واعرافهم، في غير موضع من رحلته، وكثير من هذه الاشارات يوصل ماهو موجود منها في ايامنا هذه، وهي جوانب تفيد المعنى بدراسة الطوابع الشعبية للمجتمعات والامم.

لقد حدثنا ابن بطوطة عن (ليلة المحيا) خلال مروره بالنجف وهي الليلة التي توافق السابع والعشرين من رجب، حيث يحيها الناس بذكر الله والعبادة. ومارواه عنها سمعه من الثقات، وذكر لنا ماشاع عند اهل الكوفة من عادات واعتقاد الناس في الاولياء والصالحين وتقديم النذور لهم، وقدم لنا وصفاً عن الاحتفالات الدينية لبعض الطرق الصوفية والاعمال الخارقة للعادة التي قاموا لها. . . وسجل لنا بعض الخرافات والاعتقادات

الساذجة خلال حضوره مشاهد بعض الصالحين في البصرة. ومن جملة هذه الأوصاف تتضح صورة مشرقة وصفحة ناصعة لأبناء مدن العراق التي زارها ابن بطوطة، اذ تشتمل على خير الخصال وافضل السجايا، وشهادته تؤكد نفاسة معدنهم ورفعة مقامهم وان ازدهار الحضارة في وادي الرافدين ترك آثاره وبصماته المتميزة في ابنائه القاطنين فيه.

ويستدعي الاشارة إليه تعقيبات ابن بطوطة وتعليقاته حول اصل عدد من الاعلام التي وردت خلال حديثه، فعن السلطان التتري - حاكم العراق - الذي اسلم (محمد خدا بنده) يذكر الاختلاف في ضبط اسمه و (خدا) بالفارسية اسم الله عز وجل و (بنده) غلام او عبد او ما في معناه. وقيل (خربنده) و (خر) بالفارسية (الحمار) ومعناه يكون ولد الحمار. ويستطرد في ذكر هذه الأراء في اصل اسمه واصل اسم اخيه (قازغان) وهو القدر، لأنه ولد لما دخلت الجارية ومعها قِدر.

وعن (سُرَّ مَن رأى) يذكر انها تسمى (سامراء) وكذلك (سام راه) أي الطريق السامي[5].

فكرة الكتاب

في مدينة فاس، الواقعة على ملتقى الطرق المؤدية الى الرباط وطنجة ومراكش، والتي كانت عاصمة بلاد المغرب لفترة طويلة من الزمن، القى الشيخ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله... المعروف بـ(ابن بطوطة) عصا التسيار عام ٧٥٤هـ/١٣٥٣م عائداً من بلاد الله الواسعة الى دار السلطان ابي عنان احد افراد السلالة المرينية، حيث أخذ يقصُّ من اخبار معمورة قصصاً اثارت احياناً دهشة السامعين من معاصريه، فانقسموا بين مصدِّق لها وبين مكذِّب؛ لافرق في ذلك بين متعلم وجاهل[1] وأعجب هذا السلطان بما كان ابن بطوطة يقصه من احاديث اسفاره، فأمر كاتبه محمد بن جزي الكلبي أن يدون مايمليه عليه هذا الرحالة. وتولى ابن جزي كاتب السلطان رواية الرحلة وترتيبها واضافة بعض الاشعار إليها وتحقيق بعض اجزائها، مستعيناً بكتب الرحلات المعروفة في ذلك العصر، ولاسيما رحلة ابن جبير. ثم سماها (تحفة النُظّار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار)، وفرغ منها سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م وختمها بعبارة اجزل فيها الثناء على ابن بطوطة، ولم ينس مولاه السلطان، فافتخر بان ذاك الرحالة اختار الاستقرار في دياره دون غيرها.

قال ابن جزي: «انتهى مالخصته من تقييد الشيخ ابي عبد الله محمد ابن بطوطة اكرمه الله - ولايخفى على ذي عقل ان هذا الشيخ هو رحال العصر. ومن قال رحال هذه الملة لم يبعد. ولم يجعل بلاد الدنيا رحلة. واتخذ حضرة فاس قراراً ومستوطناً بعد طول جولاته، إلا لما تحقق ان مولانا ايده الله أعظم ملوكها شأناً، وأعمهم فضائل، واكثرهم إحساناً، وأشدهم بالواردين عليه عناية، وأتمهم بما ينتمي إلى طلب العلم حماية. فيجب على مثلي أن يحمد الله تعالى؛ لأن وفقه في أول حاله وترحاله لاستيطان هذه الحضرة، التي اختارها هذا الشيخ بعد رحلة خمسة وعشرين عاماً»[3].

ويبدو أنه كان للسلطان أبي عنان - كما ذكرنا - الفضل في ظهور كتاب وصف رحلة ابن بطوطة، فهو الذي عثر له على (محرر أدبي) أن صحَّ هذا القول. وتشير قرائن الأقوال الى أن رحالتنا رغماً من ولعه بالقصص، فإنه لم يحس انجذاباً شديداً نحو الكتابة. اما كيف خرجت فكرة الكتاب الى الوجود، فيتضح ذلك جلياً من الفاظ المحرر، فهو في كلامه عن ازدهار فاس في عهد أبي عنان يقول:

(وكان ممن وفد على بابها السامي وتعدّى أو شال البلاد الى بحرها الطامي الشيخ الفقيه السائح الثقة الصدوق جوّاب الأرض ومخترق الأقاليم بالطول والعرض أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة المعروف بالبلاد الشرقية بشمس الدين، وهو الذي طاف الأرض معتبراً وطوي الأمصار مختبراً وباحث فرق الأمم وسبر سِيرَ العرب والعجم ثم القىٰ عصا التسيار بهذه الحضرة العليا... ونفذت الاشارة الكريمة بأن يملي ماشاهده في رحلته من الأمصار وماعلق بحفظه من نوادر الأخبار، ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار وعلمائها الأخيار وأوليائها الأبرار، فأملىٰ من ذلك مافيه نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر من كل غريبة أفاد باجتلائها وعجيبة أطرف بانتحائها وصدر الأمر العالي لعبد مقامهم الكريم المنقطع الى بابهم المتشرف بخدمة جنابهم محمد بن محمد بن جزي الكلبي... ان يضم أطراف ماأملاه

الشيخ أبو عبد الله من ذلك في تصنيف يكون على فوائده مشتملاً، ولنيل مقاصده مكملاً متوخياً تنقيح الكلام وتهذيبه، معتمداً إيضاحه وتقريبه ليقع الاستمتاع بتلك الطرق فامتثل ماأمر به مبادراً وشرع في منهله ليكون بمعونة الله عن توفية لغرض منه صادراً، ونقلت معاني كلام الشيخ أبي عبد الله بألفاظ موفية للمقاصد الى قصدها موضحة المناحي التي اعتمدها، وربما أوردت لفظة على وضعه ولم أخل بأصله ولافرعه وأوردت جميع ماأورده من الحكايات والأخبار، ولم أتعرّض لبحث عن حقيقة ذلك، ولااختبار على أنه سلك في أسناد صحاحها لوم المسالك، وخرج عن عهده سائرها بما يشعر من الألفاظ بذلك وقيدت المُشكِل من أسماء المواضع والرجال بالشكْل والنقط ليكون أنفع في التصحيح والضبط وشرحت ماأمكنني شرحه من الأسماء الأعجمية لأنها تلتبس بعجميتها على الناس ويخطيء في فك مُعَمّاها معهود القياس».

وبعد هذا العرض يتضح لنا أن وصف رحلة ابن بطوطة، ليس من تصنيفه، بل يمثل صياغة أدبية لروايته عملها الكاتب ابن جزي، وقد يبدو ذلك في بعض ماجاء فيها: «. . . وكان ارتحالي في أيام أمير المؤمنين، وناصر الدين، المجاهد في سبيل ربِّ العالمين، الذي رويت أخبار جوده موصولة الأسناد بالاسناد، وشُهرت آثار كرمه شهرة واضحة الأشهاد، وتحلت الأيام بحلى فضله، ورتع الأنام في ظل رفقهِ وعدله . . . » ولايزال موجوداً بالمكتبة الأهلية بباريس قسم من الكتاب بخط يد الكاتب نفسه. ويمكن الحكم على الطابع العام للكتاب من ألفاظ ابن جزي التي استشهدنا ببعضها آنفاً. ومن تحليل شخصيته كاديب، فهو على مايبدو من أدباء عصر التدهور، وقد بقي لنا من آثاره ترجمة لسيرة حياته، ومصنف في نسب النبي (ص). وعلينا أن نأخذ دائماً في اعتبارنا جميع الظروف التي تم فيها تدوين الرحلة بحيث اننا إذا ماقسونا في حكمنا على ابن بطوطة فيجب الّا ننسى ان كثيراً من اللوم الموجه إليه يمكن أن يكون ناشئاً عن ابن جزي[٨].

من هنا، فاستعراضنا للرحلة ربما يمس قبل كل شيء الاطار العام للكتاب الذي هو من وضع ابن جزي، فهو يفتقر في كثير من الأحيان الى التناسب والتناسق؛ ويمكن من خلال المقاطع التي اطلعنا على معظمها، ان نحكم على الاسلوب المتكلف الذي لجأ إليه ابن جزّي، وميله الواضح الى السجع والاطناب، وهي على أية حال من سمات عصر التدهور، ومن حسن الحظ ان اسلوب الكتاب لايسير في جميع صفحاته على وتيرة واحدة، إذ كثير ماتتخلل العرض لغة ابن بطوطة القصصية البسيطة التي تميل احياناً نحو لغة المحادثة، محتفظة في ذات الوقت برزانتها وغناها بالتفاصيل فوق ماتتميز به من الحيوية الدفاقة والعاطفة الجيّاشة. والى جانبها يبدو أسلوب ابن جزي ثقيلاً، يغلب عليه الحشو والتكلف. كما تنعكس فيه على الدوام محاولة واضحة الى جمع قصص ابن بطوطة المتفرقة في وحدة متماسكة، وتزويقها بصورة تجعلها أقرب الى النصوص الأدبية، وهو يقتطف من اشعار مختلف الشعراء، أحياناً دون مناسبة تستوجب ذلك، وبلا ادنى صلة تربطها بموضوع كلامه وغرضه من هذا أن يكسب كلام ابن بطوطة حيوية اكثر؛ ولعلك تقف الى جانبنا من خلال الاطلاع على أبيات الشعر التي ذكرها في سياق وصف ابن بطوطة لبلدة صفاقس ولمدينة قابس، إضافة الى الشعر الذي ذكره ابن جزي، حيث تحدث ابن بطوطة عن بلدة تنيس حيث قال: (وكانت تنيس بلداً عظيماً شهيراً، وهي الآن خراب). وذلك الشعر جاء على لسان ابو الفتح بن وكيع:

قم فاسقني والخليج مضطرب
والريح تثني ذوائب القصب
والجو في حلة ممسكة
قد طرزتها البروق بالذهب

في تضمين الأوصاف المأخوذة من المؤلفين السابقين في سياق عرضه دون أن يهتم بالاشارة الى اسمائهم. ومن الاجحاف اتهام ابن بطوطة بادعاء المعرفة والعلم بالكتب، فهو رجل يحب القصص، لكنه يفضل حكايتها بألفاظه هو، ومن المشكوك فيه ان يكون هو المسؤول عن تضمين قطع كبيرة من كلام ابن جبير في وصف الشام وبلاد العرب دون أن يشير إلى المؤلف، إلا أنه من الطبيعي أن يكون ابن جزي الغرناطي الأصل على معرفة جيدة بالاسلوب المصقول لمواطنه الاندلسي ابن جبير، خاصة وأن الأخير كان بوجه عام محبباً الى قلوب أهل بلده، فلا غرو أن أراد ابن جزي تحلية مؤلفه بإضافة تلك القطع إليه.

والحق، لقد كان لدور ابن جزي في تحرير الكتاب هذا آثار بعيدة، فقد جهد في أن يضفي على المصنف طابعاً فنياً متماسكاً لعله لم يعرف في الاصل أطلاقاً. ومن الواضح ان ابن بطوطة نفسه لم يكن ليستحي من الاعتراف بأنه قد نسي اسم موضع ما او اسم شخص، مثل ذلك القاضي الذي نزل عليه بالشام، او تلك المدينة التي مرّ عليها في طريقه الى تمبكتو؛ وأغلب الظن أنه لم يدوّن مذكرات منظمه، واذا كان قد دوّن شيئاً فلا ريب في أنه قد اضاعه خلال تجواله، أضف إلى هذا أنه لم يهدف إخراج صورة متكاملة الجوانب لوصف أسفاره، بل اكتفى بأن يقص على سامعيه حوادث معينة وقطعاً متفرقة منها. لذا، فحين دعت الحاجة الى الربط بينها في رواية متتابعة، فإن المحرر بذل جهداً ليس بالقليل ليخرج من القصة مما استطاع المؤلف أن يتذكره، سواء كان ذلك عن طريق توجيه الاسئلة أو ربما استحثه بوسائل أخرى. ولم يكن ابن جزي على معرفة بالبلاد التي تحدث عنها ابن بطوطة. لذا فليس غريباً أن يقع في أخطاء عديدة عندما حاول أن يجمع بين هذه القصص المتفرقة في وحدة متماسكة، ويصدق هذا بصورة خاصة على افريقيا الشمالية عندما أخذ ابن بطوطة لأول مرة طريقه الى مصر، فدلائل الأحوال تشير الى ان ابن بطوطة كان قد نسي وصف طريقه تماماً، وذلك لبعد الزمن الذي ينيف على ربع قرن؛ ومن الملاحظ ان وصف هذا الطريق مختصر للغاية لدى مقارنته ببقية وصف الرحلة. أما الخلط الشديد المتعلق بوصف آسيا الصغرى، فيمكن ردّه الى ان ابن جزي الذي حاول أن يستخلص صورة متكاملة الجوانب إزاء العدد الكبير من أسماء الأماكن التي يذكرها ابن بطوطة، وكان هذا الأخير قد قطع على نفسه عهداً بألا يأخذ طريقاً واحدة اكثر من مرة واحدة، ومن ثم، فإن تحديد طريق سيره بدقة يستلزم معرفة جيدة بالأقطار التي سلكها. وعلى نحو ما أراد المحرر، فإن ابن بطوطة قد أسبغ على روايته في بعض الاحيان دقة خيالية لاتمت للحقيقة بصلة، وذلك فيما يتعلق بتحديده للمسافات والأماكن مما كان قد أسدل عليه الزمن ستار النسيان بالنسبة له؛ كما أنه من الصعب مثلاً التصديق بأن عدداً من رحلاته الكبيرة قد بدأ على وجه التحديد في غرّة المحرم من كل عام.

ويعتقد ان ابن جزي لم يمس جوهر القصص نفسها، لذا فلا يزال ينتظر إجابة شافية حتى الآن، سؤال حائر، هو إلى أي حدٍ يمكن الاعتماد على صدق رواية ابن بطوطة حتى ولو وضعنا في اعتبارنا مدى فعالية العنصر الذاتي في هذا المجال. ولقد بدأ هذا التساؤل يأخذ بخناق ابن بطوطة منذ لحظة رجوعه الى أرض الوطن، تماماً كما حدث مع ماركو بولو، بل إنه يمكن استشفاف لون من الحذر حتى عند ابن جزي نفسه، وذلك في قوله (واوردت جميع ماأورده من الحكايات والأخبار ولم اتعرّض لبحث عن حقيقة ذلك ولااختبار. . .).

وأخيراً، وفي القرن العشرين، نلحظ بداية عهد من الاعتراف بقيمته من جديد أخذ يكتسب الانصار يوماً بعد يوم. وتتمثل وجهة النظر الأخيرة في أن ابن بطوطة يعكس بدقة واخلاص العصر والوسط اللذين عاش فيهما، وذلك على ضوء الظروف الحضارية السائدة آنذاك. ومن البديهي القول ان ابن بطوطة رجل مسلم خالص من أهل القرن الرابع عشر، ولكنه اكثر قرباً الى المعتقدات الشعبية منه الى العقيدة الرسمية؛ أعني المعتقدات السائدة في المغرب؛ وقد احتلت المكانة الأولى بالنسبة له المسائل المتعلقة بالعبادة والأولياء والدراويش، فاعتقد في صحة الكرامات التي حكيت له أو التي حدثت له هو نفسه، ولعله من اليسير تفسيرها على ضوء الانخداع النفسي والسلوك الجماهيري الذي شهده بنفسه في الهند أوردها ببساطة الى المبالغة التي ينساق اليها بسهولة جميع الرحالة في كل العصور. فإن اسقطنا من حسابنا هذه العوامل فإن روايته بوجه عام جديرة بالثقة أو أنه على الأقل قد روى مااعتقده الحق[٩].

أخطاء ابن بطوطة

أما الاخطاء التي وقع فيها ابن بطوطة فليست بالقليلة، ويجب الا يغيب عنا أنه لم يكن على معرفة بلغات البلاد العديدة التي زارها، وهو فيما عدا العربية كان ملماً ببعض الفارسية وربما التركية، كذلك إلاّ أن معرفته بلغات وقعت في الواقع عند حدّ ألفاظ معدودة كان يجب أن يعرضها من حين لآخر، ولكن التوفيق جانبه في معظم الأحوال. وفي اتصالاته بالسكان المحليين، لم يكن من النادر أن يلجأ الى الاستعانة بمترجم ما، ولايخفي بالطبع النتائج التي تترتب على هذا، إذ كثير ماتسرب الخطأ الى أسماء البلاد الأجنبية التي يذكرها أثناء سيره، كما أنه

ليس من المستبعد أن يختلط لديه ترتيبها؛ أضف الى هذا ان التتابع الزمني للرحلة غير منتظم، وأن التواريخ تبدو وكأن المحرر قد وضعها خبط عشواء؛ هذه المجموعة من الأخطاء نفسها وجدت طريقها الى الاستطرادات التأريخية. لكل هذا، فإنه يجب ألاّ يغرب عن الذهن أن ابن بطوطة لم يكن عالماً نقّالة، بل اعتمد اعتماداً مطلقاً على ذاكرته، وهو كان يتمتع حقاً بذاكرة ممتازة شأنه في هذا الشأن جميع ممثلي الثقافة العربية لذلك العهد.

وبعد، فيجب الاعتراف بأن مقدار الأخطاء الزمانية (أي في التواريخ) والمكانية (أي في المواضع الجغرافية) ضئيل لديه عند مقارنة ذلك بالعدد الكبير من الوقائع التي يوردها. وقد وجهت حملات النقد بصورة خاصة الى أقسام معينة من رحلته؛ كوصفه للقسطنطينية وحكاياته عن الصين، أما عن الأولى، فقد كان اضطراب التواريخ سبباً في حدوث بعض الخلط لديه، ولكن على الرغم من هذا، تمّ الاعتراف في الآونة الأخيرة بأن وصفه للمدينة نفسها يتسم بطابع الصحة، ولايمكن أن ينتج إلاّ عن معرفة مباشرة بها، فضلاً عن أنه يكشف في هذا الصدد، كما هو الحال دائماً، عن قوة ملاحظة خارقة. ولاتزال زيارته للصين مسألة مستعصية على الحل، حيث تجمع اكثر الآراء الى ان ابن بطوطة لم يزر الصين ـ كما يقول الدكتور محمد ترحيني ـ وقد وصل (فيران Ferrand) ـ وهو خبير في الأدب الاسلامي ـ عن الشرق الأقصى الى نتيجة مؤداها ان ابن بطوطة لم يزر الهند الصينية، كما لم يزر الصين، بل لفق روايته عنها تلفيقاً دون توفيق يذكر من مصادر مختلفة. ولما كان ابن بطوطة لايكشف بوجه عام عن معرفة جيدة بالأدب الجغرافي، واذا ماسلمنا جدلاً بالفرضية القائلة بأن ابن بطوطة انما اعتمد في وصفه على القصص التي سمعها من الآخرين، فثمة تفاصيل معينة تجعل من العسير علينا التسليم التام بهذه الفرضية، فمثلاً، من الصعب القول ان ابن بطوطة من غير أن يزور الصين قد وجد أن هناك مايضطره الى القول بأنه قد التقى فيها برجل من أهل سبتة، ثم يذكر أسمه، كما يذكر أيضاً أنه قابل أخاً لذلك الشخص نفسه بالسودان الغربي. مما لاريب فيه أن الكلام يدور هاهنا عن شخصيات حقيقية كانت معروفة للكثيرين بمراكش عند رجوع ابن بطوطة اليها، فلم يكن بوسعه إذن أن يفكر في تعريض سمعته للثلب من أجل دافع تافه كهذا. ومن عهد ليس بالبعيد، توصل الباحث الياباني (يوماموتو Yamamota) الى رأي حول رحلة ابن بطوطة في الشرق الأقصى فهو يقول: (إنه لمن العسير القول بأن جميع حكايات ابن بطوطة عن الصين هي من نسج الخيال وحده. حقا ان وصفه المفصل لتلك البلاد يشمل عدداً من النقاط الغامضة، ولكنه لايخلو أحياناً من فقرات معينة تعتمد على ملاحظة مباشرة عن الصين، فضلاً عن أنه من المستحيل القول بأن رواياته التي وجدت توكيداً في المصادر الصينية وفي أسفار ماركو بولو قد كانت من تلفيق مخيلته).

ولاعتبارات ذات طابع عام أخضع (ياماموتو) رواية ابن بطوطة عن بلاد طوالسي الغامضة لتحليل دقيق، ولنذكر عرضاً، ان رواية ابن بطوطة عنها قد جرت عليه سخرية بعض الباحثين. فالعلامة (يول Yule) مثلاً قال عنها في زمنه: (يجب البحث عن تلك البلاد في صفحات الأطالس التي تحتوي الخارطات البحرية مما رسمته يد الطبيب الذكر القبطان غليفر)! وعلى الرغم من هذا، فإن عدداً من الباحثين ممن لم يهم التشكك الى الدرجة التي بلغها (يول) قد حاولوا العثور على هذه الجزر، فبحثوا عنها في جزيرة بورينو، وفيما بين اليابان وشامبا الواقعة في كوشين صين، واخيراً وضعوها في تونكين؛ وقد ساق ياماموتو حججاً قوية للتدليل على أن طوالسي انما هي شامبا بعينها التي كانت تقع بلا شك على الطريق بين الهند والصين. ولعل ابن بطوطة كان ضحية القصص الخرافية التي رواها له المترجمون المحليون عن تلك البلاد، وذلك لجهله باللغات المحلية(١٠).

ولعل بعض الاضطراب في اخبار ابن بطوطة يرجع الى أنه لم يدون رحلته بنفسه، وان ابن جزيّ عدّل في بعض أخبارها وغيّر فيها بالحذف أو الاضافة، بعد أن راجع طائفة من كتب الاسفار الأخرى، حتى جاءت بعض الأخبار بعيدة عن الدقة، ولاسيما أحاديث ابن بطوطة عن الصين، فاتهمه بعض النقاد بأنه لم يصل الى تلك البلاد كما قال في رحلته. ولكننا لانميل الى تأييد هذا الاتهام كل التأييد؛ لأن معظم تلك الأحاديث يدعمها مانعرفه عن رحلة ماركو بولو، الذي زار الصين أيضاً، ومكث فيها حوالي سبعة عشر عاماً، ثم أملى أخبار رحلته على كاتب آخر، وتوفي قبل أن يقوم ابن بطوطة برحلته الأولى بسنة واحدة. وقد أشار الدكتور حسين فوزي في كتابه (حديث السندباد القديم) (ص ١١٨ ـ ١١٩) إلى قصة نزول ابن بطوطة ببلاد طوالسي في المحيط الهادي ولاحظ أن وصفه تلك البلاد ـ ولاسيما نسائها ـ ذو صلة بأسطورة جزيرة النساء واسطورة الواق واق.

وقال إن تلك القصة من الحكايات التي دعت كثيراً الى التشكك من سفر ابن بطوطة الى بلاد الصين، وانه ليس ببعيد أن يكون حديثه عن «أودجا» ملكة تلك البلاد (نوعاً من السطو البريء، على قصة علقت بذهن ابن بطوطة عن مطالعاته التي في شرق الصين ونسبها الى نفسه).

وفي رأي الدكتور زكي محمد حسن: (ان هذه القصة وغيرها من القصص الغريبة قد تحملنا على أن نشك في صحة سفره إلى تلك البلاد. والحق أن ماكتبه عن الصين يبدو قائماً على أسس المشاهدات الشخصية، ويجب ألا ننسى في هذه المناسبة أن مثل هذه الرحلة إلى الصين كانت أمراً ميسوراً لابن بطوطة بوصفه سفير سلطان دلهي. وإذا كان حديثه عنها بعيداً عن الاسهاب والإطالة فلعل السبب في ذلك أنه لم يكن يستطيع أن يتذكر الأسماء الصينية أو أن ابن جزي محرر الرحلة أمعن في اختصاره لسبب من الاسباب).

ومهما يكن من الأمر، فإننا نشعر حين نقرأ الرحلة ان ثمة أجزاء يغلب عليها طابع المبالغة، ونرجح ان الرحالة خصب الخيال وأنه قد يكون مصداقاً للمثل المشهور في اللغات الأوربية القائل (ان القادمين من البلاد البعيدة لهم أن يختلقوا ماشاءوا، إذ لارقيب عليهم). ولكن ليس في هذا ماينقص من شأن ابن بطوطة ورحلته[١١] فلكل جواد كبوة.

ابن بطوطة والاستعراب الأوربي

ان معرفة الاستعراب الأوروبي بابن بطوطة، جاءت متأخرة ومتأخرة بكثير عن معرفته بالادريسي، بل وحتى بأبي الفداء؛ ومن العبث البحث عن اسمه في موسوعة دربلو d'Herbelot المعروفة التي جمعت خلاصة المعارف في ميدان الاستعراب حتى القرن الثامن عشر، أو عند اشنو Schnurrer الذي سجل أسماء جميع المؤلفات التي ظهرت في عالم الاستعراب الى عام ١٨١٠م. وفي بداية القرن التاسع عشر فقط تمّ الكشف عن ابن بطوطة لأول مرة، ولم يتم ذلك بواسطة العلماء، ولكن بواسطة اثنين من الرحالة هما سيتزن Seetzen عام ١٨٠٨ وبوكهارت Burekhardt الذين استطاعا بحق أن يقدرا زميلهما المغربي حقَّ قدره، واليهما يرجع الفضل في وصول مخطوطات موجز البيلوني إلى أوربا لأول مرة بمكتبتي غوطا Gotha وكمبردج Cambridge ١٨٢٩، وبهذا أصبح المتن في متناول ايدي العلماء.

وكان أول من تناوله بالبحث العلامة موزغارتن Kosegarten وتلميذه إبتز Apetz فقدم الأول تحليلاً عاماً للرحلة وثلاث مقتطفات من المتن تصحبها الترجمات والتعلقات بعنوان: «الرحلة الفارسية» و «الرحلة الملديفية» و «الرحلة الافريقية» عام ١٨١٨م. وتمثل خطوة إلى الأمام في دراسة ابن بطوطة تلك الترجمة الكاملة للموجز التي قام بها العلامة الانكليزي (لي) Lee الاستاذ بجامعة كمبردج عام ١٨٢٩، وعلى النقيض من هذا، فإن الترجمة البرتغالية التي قام بها (مورا) Moura ١٨٤٠ ـ ١٨٥٥ معتمداً في ذلك على مخطوطة حصل عليها بمدينة فاس في حوالي عام ١٧٩٧ لم تحظ بالعناية الكافية. أما أصل الكتاب؛ فإنه لم يتم العثور عليه إلا بعد فتح الفرنسيين للجزائر واستيلائهم على قسنطينة، وأعقب هذا أن وجدت طريقها الى المكتبة الأهلية بباريس نحو من خمس مخطوطات، اثنتان منها كاملتان، وبعض منها بخط ابن جزي.

وبهذا تمكن العلماء الفرنسيون، بعد محاولات عديدة وترجمة أقسام من الكتاب، من أن يخرجوا أول طبعة كاملة للرحلة مصحوبة بترجمة فرنسية في أربعة أجزاء بقلم المستشرقين «دفريمري Deferemry» و «سانغنتي Sanguinetti ١٨٥٣ ـ ١٨٥٨»، وقد قوبل ظهور الجزء الأول بحماس شديد من قبل العلامة «رنان Renan» الذي نشر بهذه المناسبة دراسة عن ابن بطوطة تتسم بالكثير من الحيوية. ولاتزال الطبعة الفرنسية في جوهرها إلى أيامنا هذه تمثل الأساس الذي قامت عليه جميع الأبحاث عن رحلة ابن بطوطة، وقد أعيد طبعها أكثر من مرة، ولكنها لم تخضع في مجموعها لفحص منظم، على الرغم من أنه لايمكن بالطبع أن ترضي في الوقت الحاضر متطلبات البحث العلمي المعاصر. غير أن الدراسات التي تناولت بحث فصول مختلفة من الرحلة أو عالجت مسائل متعلقة بذلك قد زاد عددها بصورة ملحوظة؛ ويمكن اعطاء فكرة عامة عن الرحلة بأجمعها من خلال الترجمات التي عملت لأقسام مختلفة من الكتاب، اعني بذلك ترجمات «مزيك Mzik» ١٩١١ وجب Gibb ١٩٢٩ المزودة بتعليقات موجزة، والتي يمكن ان تعد القول الفصل الى يومنا هذا في دراسة منافسة (ماركو بولو)[١٢] وان الاهتمام الذي قابلته به أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ليقف برهاناً على صدق قول ابن جزيّ في خاتمة الكتاب: (ولايخفى على ذي عقل أن هذا

الشيخ هو رحّال العصر ومن قال رحّال هذه الملة لم يبعد)[١٣].

ثم ترجمت الرحلة الى اللغة التركية منذ الستينات الأولى للقرن الماضي، وذلك في صحيفة «تقويم وقائع» التي كان يحررها كمال أفندي. أما الترجمة الكاملة التي قام بها الدامار محمد شريف، فقد ظهرت في ثلاثة أجزاء في نهاية ذلك القرن (١٣١٥ ـ ١٣١٩هـ/١٨٩٧ ـ ١٩٠١م). وللعلامة التركي محمد جودت (توفي عام ١٩٣٥) تعليق وافٍ على رواية ابن بطوطة عن تقاليد «الأخي» بآسيا الصغرى ومقارنته لذلك مع تقاليد «الفتيان» عند العرب[١٤].

الخاتمة

والرحلة بعد كل هذه التفصيلات موسوعة علمية ضخمة، فيها من المعلومات ماينتفع بها كل باحث، وفيها من الصور والأخبار مايقفي ثقافة كل معلم تستهويه مغامرات الرحلات وتستأثر باهتمامه أخبار الشعوب والأقوام والملل، وهي تستظل بانظمة متباينة وتحكمها اعداد من الحكام والسلاطين والأمراء، ووجدت في بعض التقاليد التي ورثتها سبيلاً للرضا وطريقاً للقبول بما وجدوا عليه آباءهم. ومن هنا كانت رحلة ابن بطوطة لها أثرها التاريخي والاجتماعي بما قدمته من وثائق، ولها بعدها الديني، لأنها تناولت الأمور في إطار هذا التصور، ولها أهميتها في عالم الرحلات، لأنها أوشكت ان تكون في عداد الرحلات الفريدة في غرابتها وجرأتها وماقدمته من ثمار نافعة[١٥].

وقد وفق ابن بطوطة كل التوفيق فيما أملاه عن رحلته، فخلّف لنا صوراً صادقة، كلها حياة للعصر الذي عاش فيه، ووصف لنا الاشخاص والجماعات وصفاً دقيقاً يجعلنا نشعر كأنهم بين ايدينا، وزار كل الدول الاسلامية في عصره، وقطع في أسفاره مسافة قدّرها بعض الباحثين بخمسة وسبعين ألف ميل، وهي مسافة لايظن أن رحالة غيره قطعها قبل استخدام البحار في وسائل السفر[١٦].

أما وضع ابن بطوطة في تاريخ الأدب الجغرافي فواضح للعيان، فهو لم يكن جغرافياً نقّالة أو من أصحاب الموسوعات أو من الأدباء، بل كان شخصاً عادياً للغاية، لايتمتع بأية مواهب خاصة، ولاتنعكس في رواياته أفكار عميقة أو ملاحظات دقيقة، وكثيراً مانلتقي لديه بأمثلة لتصديق اكثر الروايات الخيالية. وعلى الرغم من كل هذا فهو شخص شاهد الكثير وعرف كيف يصور ماشاهده بدقة وبساطة؛ وقد جعلت منه الأقدار جغرافياً، على الرغم منه إن صح هذا التعبير، وصنعت منه لوناً من الرحالة نادراً عند العرب، ذلك هو الرحالة الذي يستهدف الرحلة لذاتها ويضرب في مجاهل الأرض استجابة لعاطفة لاتقاوم، ورغبة جارفة للتعرف على الأقطار والشعوب.

وابن بطوطة، على نقيض الغالبية العظمى من الجغرافيين العرب، لم يجمع مادته من صفحات الكتب، بل جمعها عن طريق التجربة الشخصية، وعن طريق محادثاته مع شخصيات تعرّف عليها، عرضاً في خلال رحلاته. وقد شغل اهتمامه بالمواضع الجغرافية مكانة ثانوية بالنسبة لاهتمامه بالبشر، وهو بالطبع، لم يفكّر في أن يُجري أي نوع من البحث والتحقيق في مجال الجغرافيا، ولعله نتيجة لهذا، قد أصبح كتابه نسيج وحده كوصف للمجتمع الاسلامي والشرقي عامة في القرن الرابع عشر. فهو خزانة تحفل بمادة غنية لافي مجال الجغرافيا التاريخية أو تاريخ عصره فحسب، بل عن جميع حضارة ذلك العهد، فنراه يعرض لجميع الظواهر الاجتماعية بالسرد حتى تلك يهملها المؤرخون عادة، فتمر أمام انظارنا مراسيم البلاطات الأجنبية وأزياء الشعوب المختلفة وتقاليدها وحرفها وأصناف الأطعمة والأغذية، فهو بهذا ليس كتاباً نظرياً جافاً، بل على العكس من ذلك، يفيض بالانسانية والحيوية، ولايبخل فيه المؤلف بملاحظاته وتعليقاته في أية مناسبة تعرض، وهو لايمثل وثيقة ممتازة لتجربة فردية فحسب، بل يقدم كذلك نموذجاً صادقاً لافكار وتصورات مواطن إسلامي من اهل القرن الرابع عشر، كما يقول الدكتور محمد ترحيني.

الهوامش والمصادر

(١) د. زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ص١٣٦ دار الرائد العربي - بيروت، ١٩٨١.
مجلة (دراسات عربية) - العددان ٦و٧ بيروت/١٩٨٧، اكد في العدد ٦و٧ من مجلة (دراسات عربية) ١٩٨٧ بانه سيخرج (تحفة الانظار، في غرائب الامصار، وعجائب الاسفار) اي رحلة ابن بطوطة مجلّة جديدة. تسلط الضوء على اهميتها التاريخية والجغرافية والادبية على حد سواء.

(٢) د. محمد ترحيني: ابن بطوطة.

(٣) د. منجد محمد مصطفى: مجلة الرسالة الاسلامية - العدد ١٩٤ - ١٩٥.

(٤) الرحلة ص١٢٣ - ١٢٤.

(٥) د. منجد مصطفى بهجت: العراق في رحلتي ابن جبير وابن بطوطة - مجلة (الرسالة الاسلامية) ص ١٨٤ - ١٩٣.

(٦) د. محمد ترحيني: نفس المصدر.

(٧) د. زكي محمد حسن: نفس المصدر ص١٣٧.

(٨) ابن جزي: ولد بغرناطة وشغل منصب الكاتب لدى السلطان ابي الحجاج يوسف من بني نصر (٧٣٣ - ٧٥٥هـ - ١٣٣٣ - ١٣٥٤م) ثم لم يلبث ان اختلف معه فرحل عنه ليشغل نفس المنصب في بلاط السلطان ابي عنان. ولتم ابن جزي عمله في ثلاثة اشهر. فقد انتهى من "تقييد" الفائة ابن بطوطة في كانون الاول ١٣٥٥م/٧٥٦هـ ووافته المنية في نفس العام.

(٩) د. محمد ترحيني: نفس المصدر.

(١٠) د. محمد ترحيني: نفس المصدر.

(١١) د. زكي محمد حسن: نفس المصدر ص١٣٨ - ١٣٩.

(١٢) ماركو بولو (١٢٥٤ - ١٣٢٤) : (رحالة ايطالي، اشتهر بكتابه المعروف (عجائب الدنيا) او (المليون). وقصد به تدوين مذكرات تاجر، يهديها الى التجار، الا ان تسجيله الدقيق لكل ماراى، ولكل ماشد انتباهه في رحلته يفوق هذا الاهتمام. ويثير انتباه جمهور القراء الاوربيين على اختلاف مستوياتهم وبلادهم ومعتقداتهم. فالسرد يقوم اساساً على ذكريات يسترجعها الكاتب وهو في سجنه، بعد خمسة عشر عاماً من عودته من رحلته التي استمرت فترة طويلة قضاها في رحاب الحضارة الشرقية. وكانت السنوات الاربع والعشرين التي قضاها "ماركو بولو" في رحلته تمثل اجمل سني عمره، فهي فترة شبابه، ولذا نجد حماسه لما راى وذكريات الدهشة التي شعر بها امام الغرائب التي شاهدها هي التي الهمته ماكتب...).
راجع التفاصيل في مجلة الهلال - العدد السابع/١٩٧٥ مقال د. سوزان اسكندر: صفحات من ادب الرحلات.. بين ماركو بولو والبرتو مورافيا).
وانظر: مواقف حاسمة/محمد عبد الله عنان.
القاهرة/الطبعة الرابعة، ١٩٦٢

(١٣) د. محمد ترحيني: نفس المصدر.

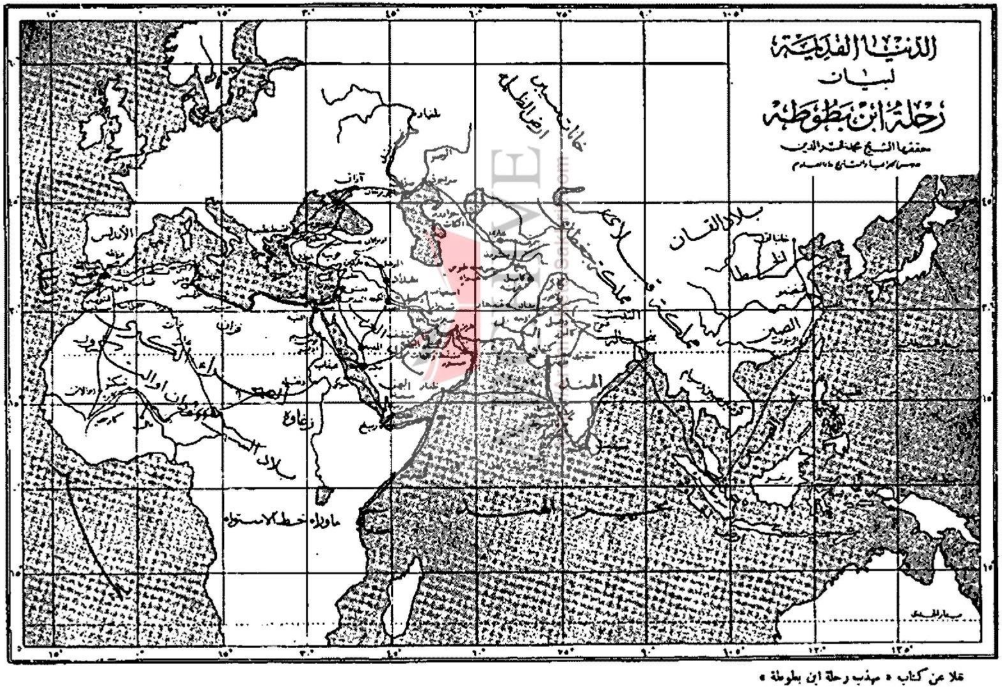
(١٤) د. محمد ترحيني: نفس المصدر.

(١٥) د. نوري حمودي القيسي: من ادب السفر والرحلات في المأثور الادبي - رحلة ابن بطوطة - مجلة معهد البحوث والدراسات العربية - العدد ١٣ ص ٧٧.

(١٦) د. زكي محمد حسن: المصدر السابق ص ١٧١.

• • •

في الفاو مدينة الفداء وبوابة النصر العظيم تحطمت احلام غزاة الارض العربية.



نقلا عن كتاب « مهذب رحلة ابن بطوطة »

رحلة ليونهارت راوولف الى العراق وما انطوت عليه من نبات وشجر

دراسة
عادل محمد علي الشيخ حسين

بغداد - ص . ب ١٧٠٢٦

منذ الحملات الصليبية على الشرق العربي انتبه الاوربيون الى اهمية الشرق عامة والوطن العربي خاصة باعتبار هذه المناطق مفاتيح كنوز كبيرة معدنية وغذائية وبشرية واقتصادية واسواق رائجة لبضائعها. لذا فقد وصل هذه البقاع العديد من الباحثين والمختصين يدرسون ويبحثون وينقبون عما ضمته هذه الاقطار من ثروات هائلة. ومن اقدم تلك الرحلات العلمية الاوربية الى الشرق بل واهمها رحلة العالم والطبيب الهولندي الدكتور ليونهارت راوولف الى الشرق التي وقعت في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي. ومع ان الغاية الاساسية من هذه الرحلة كانت - كما هو معروف جمع النباتات والاعشاب التي لها علاقة بالطب والعلاج والتي تنو في بلدان الشرق، والشرق الاوسط بالذات فان الجوهر الاصلي لما هو حث اوربا على استعمار هذه البقاع وامتصاص خيراتها بكل الطرق والوسائل وهي بداية السيطرة والاطماع الاوروبية للشرق بأكمله. طبعت هذه الرحلة باللغة الالمانية سنة ١٥٨١م في ليدن ثم طبعت باللغة الانكليزية سنة ١٦٩٣م في لندن، ولم تترجم الى اللغة العربية بالنص الكامل لحد الأن بأستثناء ماقام به الاستاذ الفاضل سليم طه التكريتي بترجمة القسم الذي يخص العراق وسوريا وفلسطين ونشر سنة ١٩٧٨ ضمن منشورات وزارة الثقافة والاعلام ومع ان هذا العمل القيم له اهميته ويشكر عليه المترجم الكريم جزيل الشكر فانه لم يصف النباتات الطبية وغير الطبية التي ذكرها الدكتور راوولف وتجشم عناء السفر والصعاب من اجلها وهي اهم مافي الرحلة علمياً وتاريخياً. لذلك فانني سأتناول في هذه الدراسة المتواضعة اهم النباتات والاشجار والشجيرات التي جاءت في سياق رحلة هذا الرحالة الاوروبي والوقوف على فوائدها في اكثر المجالات الطبية والاقتصادية والغذائية.

اهداف الرحلة :

الهدف المعلن لهذه الرحلة التي قام بها الدكتور راوولف الهولندي الى هذه المنطقة من شرقنا العربي هو التعرف وجمع انواع كثيرة من النباتات والاشجار التي تنبت في اراضي هذه البلدان ومن بينها القطر العراقي والتحقق من فوائدها الغذائية وبالاخص الطبية.

وقد حفظت بشكل جيد النباتات التي جمعها راوولف خلال رحلته في اربعة مجلدات ضخمة حيث اعتبرت من اعظم الاشياء النادرة الغالية. واصبحت ملك جامعة ليدن الهولندية.

وحاول راوولف ان يعود لبلده ومعه نماذج كثيرة من نباتات واعشاب بلاد المشرق التي جاءها وركز جلّ اهتمامه على فوائد هذه النباتات الطبية بصورة اساسية للاستفادة منها في صناعة الادوية. وفعلاً تهيأت له بعض المقومات الناجحة لجمع العديد من نماذج نباتات الوطن العربي واعتبرت مصدراً هاماً من مصادر

دراسة النباتات العربية. ومع ان رحلة ليونهارت راوولف كانت علمية بحتة فانها رحلة قيمة تخللها الصدق والامانة في اكثر الاحيان في الوصف لكل شيء شاهده وبذلك فانها تشكل اساساً لدراسة الاحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية للاقطار التي حل فيها ووصف ماشاهدته عيناه من امور عجيبة وماصادفه من معوقات ومشاكل محزنة احياناً. وهي بحق رحلة جامعة وشاملة ومفيدة. ووثيقة موضوعية عن الوضع العام للقطر العراقي ابان حكم الدولة العثمانية له ولباقي الوطن العربي الكبير. ومن فوائد رحلة المشرق بشكل خاص وصفه لما حل ببغداد من كوارث ووباء الطاعون المميت والجوع المرعب والفيضان المدمر الذي اغرق هذه المدينة الجميلة بطغيانه. وهي فترة حالكة مظلمة مرت بقطرنا العزيز.

بداية الرحلة:

عندما خرج الرحالة راوولف في الثامن عشر من ايار سنة ١٥٧٣م من مدينة اوغسبرغ الهولندية كانت محطته الاولى في الشرق العربي مدينة طرابلس في لبنان. ومن بين ماوصفه عن المصنوعات في هذا القطر العربي صناعة الحرير واشار الى توفر كميات كبيرة من الحرير في مدينة دمشق وذلك لكثرة اشجار التوت او التكي. قال ان هناك «... كثرة فائقة من اشجار التوت الضخمة الشامخة ذات الاوراق الكثيرة التي تتغذى عليها دودة القز. علماً ان ثمار التوت هذه تكون بيضاء اللون وتنقل في سلال وتباع للعامة». [١]

التوت[٢] او الفرصاد:

(الاسم العلمي Morus، والانكليزي Mulberry — tree) اشجار برية وزراعية من فصيلة التوتيات، تنتشر في المناطق الحارة والمعتدلة.

وانواعها المعروفة اكثر من ثلاثين نوعاً واشهرها التوت الابيض Morus alba الذي يربى على اوراقه دود القز وهو الذي وصفه راوولف في رحلته. وعندنا في العراق يسمى التكي وهذا النوع صيني الاصل ونقله العرب الى انحاء العالم الاسلامي خلال الفتوحات العربية الاسلامية.

ووصف اعشاباً يستخرج منها مادة بوتاسية تستخدم في صناعة الصابون سماها شوان (Shvan) وهي غير ذلك قال: «ويستخرج هذا البوتاس او القلي من اعشاب يطلق عليها العرب اسم شنان، وهو على نوعين (وقد الصقت شيئاً منه - مع مواد اخرى على الورق).

وأحد هذين النوعين لايختلف عن نبات القلي المعروف عندنا اذ يتألف من نبتة سميكة كثيرة العقد ذات اغصان صغيرة تتفرع منها ولها في رؤوسها عدة عقد ومن تحتها اوراق مدببة.

اما النوع الثاني فتكون سيقانه كثيرة مليئة بالعقد وجذور ملونة.

وينمو هذان النوعان من الاعشاب بكميات هائلة حيث يتم حرقها وتحويلها الى رماد فوق الجبال. وعند حرقها تسيل مادة زيتية تلتصق بالرماد فتصبح صلبة اشبه بالحجارة بعد ان تفقد حرارتها ويجلب المسلمون هذا الرماد من الجبال على ظهور الابل فيبيعونه لبعض التجار الذين يتاجرون به فيصدرون قسماً منه الى البلاد الاجنبية بينما يصنعون من القسم الآخر مادة الصابون». [٣]

والاشنان او الاشنان:

(الاسم العلمي Salicornia والانكليزي (Saltwort) نبات عشبي من فصيلة السرمقيات له ثمانية أنواع مواطنها حوض البحر الابيض المتوسط والمحيط الاطلسي سيقانها مفصلية دقيقة فروعها متقابلة، عديمة الورق ازهارها سنبلية التجميع. ثمارها خفية الشكل صغيرة يستخرج منها ملح القلي بعد الحرق.

والنوع الذي قصده راوولف هو اشنان القلي (ابو قابس، خريس Salicornia harbacea). [٤]

وخلال وجوده في منطقة حلب السورية وصف اهم نباتاتها واشجارها الغذائية والصناعية قائلاً: «حلب محاطة بتلال صخرية واوديتها ذات تربة طباشيرية ومع ذلك فلا تعوزها الحنطة ولاالشعير وغيرهما من الحبوب لأن ارضها خصبة، ويبدأ الحصاد فيها عادة في شهري نيسان وايار. ولايوجد في هذه الاودية سوى القليل من اشجار البلوط، والاعشاب الجافة، ذلك لان الجفاف فيها شديد وارضها رملية في حين ترى التلال وعرة ملأى بالادغال ليس فيها سوى القليل من العشب الجاف، ولذلك وجدنا السكان يعلفون مواشيهم الشعير والتبن الذي تدوسه ادوات الدراسة التي تجرها الثيران. وكذلك وجدنا الاودية مليئة باشجار الزيتون وهذا هو الذي جعل الاهلين هنا ينتجون في كل سنة مئات الالوف من اطنان زيت الزيتون[٥] الذي يستعمل في صناعة الصابون. والى جانب ذلك توجد بساتين كثيرة لاشجار اللوز والتين والسفرجل والتوت الابيض والفستق الذي يجمعه المسلمون في فصل الربيع بكميات كبيرة فيملحونه

ويقشرونه ويأكلونه مثلما نفعل نحن بنبات الجنجل، جنجل: اعشاب عارشة من فصيلة القراصيات لها نوعان الجنجل الشائع والجنجل الياباني تصل الى ارتفاع ٨ أمتار. وهي من النباتات الزراعية الصناعية اسمها العلمي (Humulus) والانكليزي - Hop.

وتكثر بساتين البرتقال والليمون والرمان والخوخ وغيرها غير ان ثمار التفاح والكمثرى تعد قليلة بالنسبة الى الثمار الاخرى وتكون صغيرة الحجم وغير ملونة بالشكل المعروف في بلادنا. ويعقب ذلك وجود كثرة من حاصلات الرقي والبطيخ والخيار وماشاكلها فضلاً عن وفرة انواع الخضار. ولقد شاهدت ثلاثة انواع من الباذنجان تختلف الوانه بين الاسود والبني، والفاصولية وغيرها من الخضار التي تباع بكثرة في الاسواق وتطبخ لتهيئة الطعام اليومي كما انهم كثيراً مايتناولون بعض هذه الخضروات وهي فجة اي دون طبخ.

وهناك نوع من اللوبياء او الكستناء تطبخ او تحمص ثم تنزع قشورها وهم يتناولونها عندما يجلسون في المقاهي، كما يقدمونها على مائدة الطعام بعد انتهاء الوجبات عوضاً عن الحلويات او الفواكه من امثال الزبيب والجوز وغيرها.(٦)

ويستمر راوولف في وصف النباتات التي شاهدها قائلاً: «وهناك عدة نباتات تستعمل طعاماً بالطبخ منها العدس. وهذا ذكرني بنبتة مماثلة يسميها العرب «ماش» وهي في شكلها واوراقها تشبه نبتة الفاصوليا عندنا. ولقد اشار «سيرابيو»(٧) الى هذه النبتة بأسم «مليس» في الفصل ١١٦ من كتابه كما اشار اليها ابن سينا ايضاً بأسم «ميس»(٨) في الفصل ٤٨٨ من كتابه. غير ان العالم النباتي الشهير «كارلوسي كلوفيوس»(٩) سماها في كتابه «موجز النباتات الهندية» بأسم «مونغو» وقد وجدت الاتراك يحبون تناول الماش (اسمه العلمي «P. mungo =» Phaseolus aureus) وبالانكليزية (Mung bean) كثيراً ولاسيما مع الرز(١٠). والماش نبات عشبي زراعي حولي من فصيلة القرنيات الفراشية. تنتشر زراعة هذا النبات في انحاء اقطار الشرق. الساق فرعاء قائمة، اوراقه معنقة مركبة ثلاثية. وريقاتها بيضية النصل. الازهار صفر خضر المواج الثمار قرون اسطوانية ضيقة مستطيلة، بزوره كروية الشكل سمراء اللون او خضراء بالاسود. تحوي البذور على العناصر الغذائية التالية ٢٣,٨٠٪ من المواد الازوتية، ١,٤٦٪ من المواد الدهنية، ٦٢,١٥٪ من المواد النشوية.(١١)

وبعد ذلك تناول راوولف في وصف رحلته الشرقية هذه نباتاً آخر يجلب من بلاد فارس (ايران الحالية) الى مدينة حلب، قال: «وهم يجلبون من بلاد فارس في اكياس من الجلد كميات كبيرة من (المن) يسمونه (طرنجبيل - Trunschibil) ويجمعونه من نبتة يسميها العرب «عاقول» و «الحاجي». والحاجي = عاقول، حاج، زنجبيل العجم، اشترغار، الاسم العلمي (Alhagi man-nifera, Al. maurorum) والانكليزي (Camel thorn, Hebrew manna plant) نبات عشبي ليفي معشوشب معمر من فصيلة القرنيات، الساق شائكة فرعاء تصل الى نحو ١٠٠سم، فروعه نحيلة الشوك، اوراقه بسيطة كاملة مستطيلة، وهو من النباتات التي تفرز المن ويقال ان منّ بني اسرائيل كان من فرزه لانه كثير الوجود في صحراء سينا(١٢) وهذا هو السبب الذي يجعله يمتزج مع اشواك صغيرة وقش احمر اللون. ولهذا المن شيء من الحبوب احياناً على غرار حبات (الكزبرة) عندنا. ولذلك فهو في كل مظاهره يشبه (المن) الموجود في بلادنا والذي نجنيه من شجر «اللاركس» كما ان هذا المن يشبه المن الذي تناوله الاسرائيليون الذي وفره الله فكان على شكل معجزة خارقة للطبيعة. اللاركس = (Larix Deciduamill) ومعنى اللاركس باللاتيني المتساقطة الاوراق او المنفضة. واللاركس شجرة مخروطية ارتفاعها بين ٢٥ - ٣٠ متراً، سمراء القلف راتنجية. وبزوره بيضوية الشكل سمراء اللون. وموطن هذه الاشجار جبال الالب ووسط وجنوب اوروبا.(١٣) وتعرف شجرة اللاركس بالاسم العربي (الارزيّة) وهذا الاسم من وضع الامير مصطفى الشهابي رحمه الله.

اما المن الذي يسقط على الاشواك فقد اكده كل من (سيرابيو) و (ابن سينا) في الفصول التي تناولا فيها هذه المادة من مؤلفاتهم وكانوا يسمونها (تسربابين) و (طرنجبين). كذلك عرفه العالم النباتي الشهير (كارلوس كلوفيوس) واكله في كتابه (موجز النباتات الهندية) ولقد عثرت في اطراف حلب على بعض هذه الشجيرات التي يبلغ ارتفاعها حوالي ذراع وتتفرع منها عدة سيقان مدورة تنقسم بلورها الى عدة اقسام كالزهرة - ويستخدم الاهلون هذه الشجيرات للتنظيف والتعقيم، اذ إنهم يأخذون كمية منها يغلونها بالماء. طرنجبين - ترنجبين - مَنّ (manna) مادة من مزيج من السكر والمنسيت والدكسترين تفرزه بعض النباتات

او بواسطة حز اللحاء او بتأثير وخز بعض الحشرات كقرمزية المن وغيرها والطرنجبين انواع عديدة تختلف باختلاف مصادرها وطرق جمعها. وماخلا ذلك فأن لديهم نوعاً آخر من المن شبيه بالنوع السابق. وهذا النوع يرسل الى بلادنا (كالبرية)[١٤] عن طريق البندقية.[١٥]

وقد جاء في الدراسات العلمية الحديثة ان المن انواع كثيرة منها:- المن الذي يعرف بأسم (ترنجبين) وهو عسل الندى وهو عبارة عن مادة سكرية تفرزها بعض النباتات افرازاً طبيعياً او بتأثير حشرة قرمزية المن القشرية (الاسم العلمي manna Scale in Sect coccus manni ferus) ومن اهم[١٦] هذه النباتات:

١ - الطرفاء النيلية (تكثر في صحراء سيناء) الاسم العلمي (Variety, mannifera) (Tamarix nilotica) - من الفصيلة الطرفاوية.

٢ - الشيح (الاسم العلمي - Artemisia herba — alba) - من الفصيلة المركبة (الانبوبية الزهر).

٣ - الحاج (نوع من العاقول او شوك الجمل) (alhagi) (تكثر في افغانستان وايران) (الاسم العلمي - Alhagi manniferum) من فصيلة القرنيات. وجاء ذكر هذا النبات في النصوص البابلية والنصوص الآشورية (عثر على نص في كركميش قرب حلب).

٤ - شجر الخلاف (الاسم العلمي - Salix Viminalis) الاسم الانكليزي (Osier) (نوع من الصفصاف القصير الورق) وينبت في الاماكن الرطبة. ويقع عليه الشيرخشك وهو نوع من المن.

٥ - شجرة المليز (Melissa) (حبق ترنجاني بادر نجوية) او الترنجان (اغريقية) كما عرفه ابن البيطار، يتبع الفصيلة الشفوية والمستعمل منه الاوراق له رائحة ليمونية ويسيل منه مايسمى (بمن بربانسون).

٦ - الحزاز (نوع من الطحالب) وهي الاشنة او شيبة العجوز كما سماها ابن البيطار. وهذه الاشنات تؤكل وتحتوي نشا كثيراً ويسمى هذا النوع (المن السماوي او المن الساقط من السماء) ويكثر (في ايران وحول جبال ارارات في تركيا).

٧ - الدردار (الاسم العلمي - Fraxinus ornus) وهي اهم مصادر المن في الوقت الحاضر. (تكثر في جنوب اوروبا وبالاخص في ايطاليا). وقد سمى ابن البيطار هذا النبات (لسان العصفور) ولهذه النباتات انواع كثيرة لكن الذي يهمنا هنا النوع الذي يسمى (لسان العصفور المزهرة او الدردار المزهرة) وهي الشجرة التي تنتج المن وتسمى (ديش) كذلك. ويعتبر المن الجيد الذي يجلب من منطقه (كالابريا - في جزيرة صقلية الايطالية) وهذا النوع نفسه الذي ذكره راوولف انه شاهده في حلب. وهذا يؤكد ان هذه الاشجار قد نقلت الى اوروبا عن طريق صقلية وهذا المن يتصف باللون الاصفر الجاف الى البياض وله طعم حلو تتخلله مرارة خفيفة.

ويشير الدكتور جابر الشكري حول تكون المن بقوله: «والمن الذي يؤخذ من بعض انواع اشجار الطرفاء او الاثل او غيرها يسيل من شقوق تحدثها بعض الحشرات التي تعيش على هذه الشجيرات ولايستبعد ان يكون لهذه الحشرات دخل في تكوين المن. وهذا النوع من المن هو المأخوذ من طور سيناء، وورد ذكره في القرآن الكريم.

ويظن بعض العلماء ان المن الذي نزل على بني اسرائيل هو نوع من الاشنات تنبت على الحجر او الشجر، غنية بالنشا، حلو الطعم يؤكل، وليس هذا المن الذي نعرفه الآن.

ان المن من نوع الراتنجات أو الصموغ التي تنضح من النباتات ويحصل عليه من احداث شقوق في لحاء الاشجار التي عمرها بحدود ثماني سنوات، حيث يسيل النضح من هذه الشقوق، ويجمع في أوعية خاصة او يترك على اللحاء حيث يجف ثم يجمع».[١٧] واثناء وصفه مدينة حلب ذكر الدكتور راوولف ان هناك الكثير من نباتات التوابل تجلب لهذه المدينة من بلدان اخرى. قال: «وهم يجلبون الى هنا كثيراً من الافاويه من امثال (الدار صيني) والدار صيني قرفة سرنديب، قرفة سيلان، دارسين (العراق) الاسم العلمي (Cinnamomum Zeylanicum) والانكليزي (Commom Cinnamom tree, Cinnamon).

شجرة زراعية من الافاويه، موطنها سيلان وبعض مناطق الصين المتاخمة للهند. ساقها فرعاء تصل الى عشرة أمتار في الارتفاع ازهارها صغيرة الحجم غبراء اللون. ازهرارها عنقودي التجميع. الثمار عنبية جميع اعضاء الشجرة عطرية تستخرج منها الادهان والطيوب. ويستخرج من لحاء الساق والفروع صنف جيد من الافاويه المسماة بالدارسين عندنا في العراق.[١٨]

الفلفل والفلفل - لهذا النبات حوالي ٦٠٠ نوع ولكن يبدو ان الذي ذكره راوولف في رحلته هو الفلفل المسمى بالحلو او فلفل إفرنجي اسمه العلمي (Pimenta) والانكليزي (Allspice, pimento) وهي شجرة برية وزراعية من فصيلة الآسيات تكثر في

البلاد الحارة ثمارها بقدر حبة الحمص، قرمزية اللون، عطرة، يستخرج منها عطر ويستعمل مسحوقها في الاكل كتابل ممتاز.[١٩]

الهيل والهيل ـ يسمىٰ ايضاً هال، هيلبوا، قاقلة، شوشمة، شوشمير الاسم العلمي (Amomum) نباتات جذمورية طبية عطرية برية وزراعية من فصيلة الزنجبيليات من نباتات المناطق الحارة انواعه عديدة، تنتشر في الهند والهند الصينية وجزيرة جاوة والصين وسيلان. المستعمل منها بذورها المسماة (حب الهال او الهيل). وهي بذورها ضمة ومنبهة للقلب وللقوة الجنسية طاردة للرياح، مسكنة للمغص ومدرة للطمث وكذلك ادهانها،[٢٠] واعتقد ان الهيل الذي ذكره راوولف هو النوع المستورد من سيلان. جوز الطيب وجوز الطيب ـ جوزبوا، بسباسة، الطيب، الاسم العلمي (Myristica Fragrans) والانكليزي (Nutmeg tree) من نباتات البلاد الاستوائية المستعمل من هذا النبات ثمارها شبه الكروية الشكل، لحمية القشور اصفر اللون كالمشمش، قطرها ٥سم قشرة الثمرة تنفلق عند النضج عن جوزة خشبية الغلاف، سمراء اللون. وجوز الطيب. من التوابل العطرية المستحبة دهنها منبه شديد الفاعلية وهاضم وطارد للرياح وهذه النباتات اشجار هرمية الشكل تعلو الىٰ حوالي ١٠ أمتار[٢١]. وقشر جوز الطيب وغيرها من الجذور الصينية التي يستعملها العرب بوفرة جذور ثمينة يسمونها «الراوند»[٢٢] والراوند ـ الاسم العلمي (Rheum) والانكليزي (Rhubarb). نباتات عشبية جذمورية طبية معمرة من فصيلة البطباطيات، انواعه كثيرة، كبيرة الحجم. ضمية الاوراق. ازهارها عثكولية. الثمار عنبية.

وتتابع وصف الدكتور راوولف للنباتات من خلال رحلته المشرقية هذه فيقول:

«من بين المواد التي يجلبها التجار من الهند بعض القصب الطويل الصلب الممتلىء بمادة لزجة ذات لون اصفر. ويكون هذا القصب علىٰ نوعين قصير وطويل. فاما الطويل فهو اصلب ويستعمله الشيوخ والعرج بدلاً من العكاكيز اما النوع الأخر فيصنعون منه القسي والسهام حيث تجد الاتراك يغلفونها باغلفة حريرية مختلفة الالوان ويتباهون بها كثيراً.

كذلك توجد في الحوانيت انواع اخرى من القصب القصير المجوف الصقيل ذي الالوان البنية والحمر. وهذه الانواع يستعملها الاتراك والمسلمون وغيرهم من ابناء الاقطار الشرقية لغرض الكتابة بها، ذلك انهم لايستعملون ريش الاوز لهذا الغرض. وفضلاً عن ذلك يوجد نوع من العصي يجلبها الحجاج معهم من «مكة»[٢٣] حين يذهبون لزيارة قبر نبيهم (محمد «ص»). واهل تلك البلاد ولاسيما العرب يحملونها معهم علىٰ ظهور الخيل بدلاً من الرماح لانها قوية وطويلة وخفيفة. . . .».[٢٤]

ربما قصد هنا الدكتور راوولف القصب الهندي (Canneguin ghan) الذي يصل طوله في النمو الىٰ اربعة امتار في داخل التجويف مادة سكرية صفراء اللون. وعني بوصفه هذا القصب الصيني (Canne dechine) وهو اصفر اللون متوسط الارتفاع ينتشر في الصين والهند والهند الصينية كان التجار العرب يجلبونه من الهند علىٰ متن السفن.

وهناك انواع عديدة يجلبها التجار العرب المسلمون من الهند والصين من القصب الذي كان يستعمل فعلاً لاغراض الكتابة وكسهام ورؤوس للحراب المستعملة في الحروب ومن اشهر هذه الانواع القصب الفارسي (Arundo isiaca).

ويستغرب الدكتور راوولف من وجود شراب غريب عرفه بالقهوة كان في وقته غير معروف في اوروبا. ولنستمع لوصفه: «من بين الاشربة التي يتعاطونها في هذه البلاد، شراب حسن جداً يسمونه «قهوة» اسود اللون كالحبر تماماً، وهو مفيد جداً للمرض ولاسيما امراض المعدة. . . وهم يصبونه في اقداح صينية وهو جداً ساخن فيرفعون القدح الىٰ شفاههم لكنهم لايتناولون منه سوىٰ شفة واحدة بين آونة واخرىٰ.

وتدار عليهم هذه الاقداح حين يجلسون وهم يصنعون في هذا الماء ثمرة يدعونها»[٢٥] (بنرو ـ Bunru)، هي في حجمها وشكلها ولونها تشبه ثمرة التوت، ولها قشرتان رقيقتان تحيطان بها. وقد انبأوني عنها بانهم يجلبونها من الهند».[٢٦]

القهوة أو البن التي ذكرها راوولف هي شجيرات برية وزراعية (الاسم العلمي Coffea) والانكليزي (Coffee tree). موطنها الاصلي الحبشة وقد انتقلت بواسطة العرب الىٰ اليمن والهند وامريكا الجنوبية وهي من نباتات المناطق الحارة الاستوائية. اوراقها دائمة الخضار. وازهارها بيض عطرية. المستعمل منها حبوبها المنبسطة أخدودية من الداخل، لونها اخضر باهت. والقهوة هي نقيع البن المحمص المسحوق المغلي في الماء.[٢٧]

عندما وصل راوولف مدينة الفلوجة الحالية في محافظة الانبار عن طريق نهر الفرات قادماً من حلب قال: «لم ار هنا اية نباتات تستحق الاهتمام سوى الخلجان الذي يسمى عندنا في هولندا باسم (السذاب) وهو ينمو بكثرة في الوديان الجافة. كما شاهدنا على مقربة من الطريق اول نوع من شجرة نسميها نحن (سم الكلب) وهي باوراقها وعذوقها تشبه (شجرة الخالندين) شبهاً كبيراً. كما شاهدنا مساحات شاسعة من الاراضي مزروعة بنوع من القمح التركي ندعوه «جلجان» بالاضافة الى مساحات اخرى زرعت بالقطن وباشجار (الايسولا) المليئة بالحليب وهذه تغطي مساحات واسعة من الاراضي الحالية التي يمكن زرعها بالقمح.

ولقد وجدنا هنا نبتة (السمقونيا) التي يؤتى بها الى حلب والتي يمكن مزجها مع حبات الايسولا. وعلى مقربة من المدينة كانت اشجار (الاكاسيا) تنمو بكميات وفيرة وهم يسمونها هنا باسم (الشوك) والشاموك وثماره اكبر حجماً واكثر وفرة مما رأيت من امثاله في اي مكان آخر.»[٢٨]

والخالنجان او الخولنجان (الاسم العلمي - Alpinia galanga) والانكليزي (galingale) عشب املس ريزومي معمر طبي، له رائحة عطرية طعمه شديد الحرافة، والجزء المستعمل طبياً هو الريزومات. وهو ليس السذاب كما اشار بذلك راوولف واوراقه تشابه اوراق السذاب وبالاضافة الى استعماله الطبي يعتبر قابلاً حسناً ذا نكهة طيبة.

وكان العرب يشربونه مغلياً في اللبن ضد السعال والبرد وكمقوٍ للباه ونقل العقار الى اوروبا وظل يستعمل كمنبه عطري معوي الى عهد قريب.[٢٩]

ونبات (سم الكلب او قاتل الكلب) الذي ذكره راوولف يسمى ايضاً (خوشان، خانق الكلب) اسمه العلمي (Apocynum) والانكليزي (Indianhemp, Dogsbane) شجيرات طبية معمرة من فصيلة الدفليات، ساقها وفروعها ليفية منتصبة، ازهارها صغيرة جرسية، ثمارها نحيلة مستطيلة، بزورها دقيقة. يستفاد من البزور والاوراق في عدة مستحضرات طبية مسهلة ومقيئة. ويستخرج من الالياف خيوط كالقنب.[٣٠]

وذكر راوولف عن قمح سماه الجلجلان وهو ليس بقمح انما هو السمسم او السمسق (الاسم العلمي Sesamum oleifrum) والانكليزي (Sesame, Gingelly, Gingili). نبات عشبي حولي زراعي دهني من السمسقيات، جذوره وتدية يستفاد من بزوره الزيتية التي يستخرج منها بالعصر. والبزور صغيرة الحجم مفلطحة اهليلجية، لونها يختلف بالوانها مابين الابيض والتبني والاصفر والاسمر والاسود. يكثر في الهند وبلاد الشرق العربي.[٣١] وذكر راوولف نباتاً سماه الايسولا (Esula)، وهو عشب يسمى في العراق باسم (الزريقة) بتشديد الراء.

يجمع البدو بزورها السمراء اللون وهي بحجم حبة العدس حيث يحمصونها ومن ثم يأكلونها وتضم اوراق هذه النباتات مادة حليبية.

وذكر راوولف نبات السمقونيا (المحمودة) (الاسم العلمي Convolvulus Scammonia, C. Synacus) والانكليزي (Scammony plant). نبات عشبي طبي ليفي عارش من فصيلة اللبلابيات. ازهاره بوقية الشكل، صفراء اللون مشربة البياض. يستخرج من جذوره عصارة راتنجية صمغية لها استعمالات كثيرة في الطب.[٣٢]

ونوع اشجار الاكاسيا او الاقاقيا التي ذكرها الدكتور راوولف الاكاسيا العربية او سنط عربي او قرظ او شوكية قبطية، الاسم العلمي (Acacia arabica) والانكليزي (Gum — Arabic tree). شجرة برية وزراعية مبذولة تكثر في الشرق العربي.[٣٣] ويستخرج منها الصمغ الاحمر. واغصانها مشوكة مما حدا باكثر الناس ان يعتبروها احد انواع الشوك وازهارها ذات عطر حسن. ووصف راوولف نباتاً يصطاد بواسطة بذوره الاسماك في نهر دجلة عند مكوثه في بغداد قائلاً: «وحين اراد ملاحو قاربنا اصطياد السمك شرعوا يرمون في النهر بحبات ممزوجة بمادة (الكوكولوس - Cocculus) وهو ثمر يسمونه (دم السمك) فبعد ان يطفو السمك على سطح الماء تماماً يقفز الملاحون من القارب ويمسكون باعداد منه».[٣٤] والكوكولوس التي ذكرها راوولف في رحلته نبات يسمى سم السمك او قاتل الحوت (سمي كذلك لانه يقتل السمك اذا خلط بالماء) - سيكران الحوت ويسمى بالفارسية (ماهيزهره - ماهيز هرج اي سم السمك) من العائلة (Menispermacease) واسمه العلمي (Anamirta Cocculus, Anamirta paniculata) والانكليزي (Cocculus indicus plant).[٣٥]

وعندنا في العراق يعرف باسم (الزهر) لثمر هذه العشبة

البرية، وهذا الثمر عبارة عن بذور مثل بزور الفلفل اسمر اللون يحتوي على مادة سامة يستعملها صيادو السمك بعد ان تسحق وتخلط بالعجين او اي مادة اخرى وتلقى في النهر وعندماتتناولها الاسماك تتسمم وتطفو على الماء وهو صيد سهل لكن القانون العراقي يحرم العمل به بشكل صارم.

وجاء في الموسوعة في علوم الطبيعة الجزء الاول، ص ٥٧٠: (سنديل «الاسم العلمي Anamirta paniculata» والانكليزي «Cocklesplant, Coccutusindicus» نبات بري وزراعي معمر وحيد الجنس والنوع من فصيلة القَمَريات. موطنه البلاد الحارة اخصها الأسيوية. ثماره طبية مخدرة، مسهلة ومقيئة شائعة الاستعمال تدعى سم السمك).

وذكر راوولف نبات الزرنب وقال ان جذور هذا النبات تستعمل في معالجة اوجاع الظهر.[٣٦] وهذا النبات المسمى ايضاً (زرنباد، زرنبة اسمه العلمي Zingiber Zerumbet, Amomun Zerumbet) والانكليزي (Wild ginger, Broad — leaved ginger).

هو نبات بري طبي جذموري من فصيلة الزنجبيليات. له عطر نافع للفم ويزيل روائح البصل والثوم منه. وهو كذلك منبه معوي يحلل الرياح ويقوي القلب. الساق منتصبة حولي يصل من ١٠٠ ـ ١٢٠سم بالارتفاع، ازهاره هامية كبيرة الحجم ذات لون كبريتي محمر.[٣٧]

وله ايضاً فوائد طبية اخرى لمعالجة اوجاع المفاصل والظهر وغيرها. واشار الدكتور راوولف اثناء سفره في نهر الفرات في احدى السفن الصغيرة متوجهاً الى العراق قادماً من سوريا الى مجموعة من النباتات قائلاً: «وكنت اغتنم الفرصة حين نزولنا الى اليابسة فاروح افتش عن النباتات القريبة في المكان. ولقد عثرت على انواع خاصة من نبتة «الازهار المحززة» وهي تشبه النوع المعروف منه في بلادنا لكن ليس لها ذات ميزاته، ونوع من شجر (العجرم) من فصيلة ذكرها المؤرخ «كلوفيوس» وهو ذو اوراق سميكة تشبه شجرة (الودنة) فضلاً عن السذاب ونوع غريب من الصفصاف يسميه السكان بأسمه القديم هو (الغرب)، بالاضافة الى الطرفاء وهي من انواع كبيرة وعالية تشبه اشجار التوت والنخيل مما يمكن مشاهدتها من بعيد بسبب ضخامتها وارتفاعها وهي تشبه الطرفاء في بلادنا لكنها اكثر ضخامة وارتفاعاً، واوراقها طرية ذات رؤوس وردية الالوان».[٣٨]

والعجرم = (باقل ـ ثغام «الجزائر» ـ بلبل «بربرية» ـ شعران «العراق» ـ نشمة. (الاسم العلمي Anabasia articulata, Anabasis prostrata) اشجار شائكة من انواع العفص من الفصيلة (Salsolaceae) ونبات الودنة (House leek) شجيرة صغيرة لها سوق سميكة وازهارها وردية اللون.

وجاء ذكر السذاب في وصف راوولف وهو سذاب البر وهو عشب طبي بري (اسمه العلمي Ruta montana) والانكليزي (Mountain rue, wild rue). يرتفع الى حوالي ٨٠سم. ساقه ليفية خيلة اللحاء. الازهار، صفر باهتة.[٣٩]

واندهش راوولف من احد انواع اشجار الصفاف الذي اعتبره نباتاً غريباً. والذي ذكره الدكتور راوولف هو الصفصاف مستح او الصفصاف الرومي وهو غَربٌ (واحدته غربة) وهي (الخلاف ايضاً)، صفصاف رومي (مصر)، إطا (يونانية Itea) (الاسم العلمي Salix babylonica) والانكليزي (Weeping Willow, mourning willow) شجرة متوسطة الحجم تصل الى ارتفاع عشرة امتار، فروعها منبسطة، اوراقها سنانية ضيقة، يحب الاراضي الكثيرة الماء، يستفاد من سيقانها في بعض الصناعات الخشبية.[٤٠]

والطرفة الذي ذكرها راوولف من خلال رحلته هو (الأثل العراقي المسمى طرفة او أثل دجلة ـ Tamarixtigrensis). وهي اشجار وشجيرات من فصيلة الاثليات او الطرفيات اوراقها حرشفية، ازهارها سنبلية التجميع صغيرة بيض أو وردية اللون. ينمو في جميع الاتربة من الرملية الصحراوية الى الطينية ومن الجافة الى المائية وهو يصلح للسياجات الحية قرب الشواطيء فهو لايتأثر بالاملاح البحرية، يستفاد من اخشابه في عدة صناعات زراعية وصناعة السفن الصغيرة والمتوسطة. ويوجد نوع يسمى بأثل المن (Tamarix mannifera).[٤١] اي (الطرفاء) يجني منها مادة سكرية غذائية تسببها حشرة غشائية الاجنحة تؤخز الزهر وجرادة الاملوج فتعسل المن المعروف بالطرفة.

وتحدث عن نبات يبدو على مايظهر انه يشاهده لاول مرة عندما قال: «... كما وجدت بعض الاشجار الاخرى التي يسمونها بالعاقول».[٤٢]

والعاقول (حاج ـ اسمه العلمي ـ Alhagi manniferum, Amaurorum) والانكليزي (camel thorn, Hebrew manna plant) ولم يكن العاقول اشجاراً بل شجيرات عشبية ليفية مخشوشبة معمرة من فصيلة القرنيات ساقه شائكة فرعاء تصل في الارتفاع الى اكثر

من ١٠٠سم. الفروع نحيلة الشوك، اوراقه بسيطة كاملة مستطيلة.[٤٣]

وفي مكان آخر تناول راوولف جانباً آخر من دراسته للنباتات التي بذل من اجلها الغالي والثمين للظفر بمعلومات كافية عنها، قال: «وهناك انواع اخرى لاعشاب لطيفة وغريبة تنمو بكثرة في الرمال. ولكل واحدة من هذه النباتات مابين خمسة وثمانية اسواق يدخل احدها في الآخر ولها مفاصل كثيرة ولذلك تنمو وهي تزحف فوق الارض اكثر مما تنمو قائمة. وتنبثق من كل واحدة ثلاث أو اربع اوراق مدورة تشبه اوراق شجر السماق والزعتر وتظهر فوق كل نبتة من هذه نجمة تشبه الزهرة البيضاء ذات ست اوراق مدببة وهي بهذا تكون شبيهة بنبتة (ورنيثوغالوم) المعروفة عندنا، وكل واحدة منها ذات سوق خاصة، ولم ار فيها اية حبوب وكانت جذورها صغيرة ونسيجية وهي مشابهة في شكلها للنبتة المتعددة الاوراق التي ذكرها ديسقوريدس».[٤٤]

وجاء ذكر السماق في رحلة راوولف وهو يقصد ذلك النوع المسمى (سماق الدباغين، تمتم. الاسم العلمي Rhus coriaria والانكليزي (Sumach, Tanners sumach). وهو النوع المعروف المبذول في لبنان وسوريا، شجيرة تصل في الارتفاع من ١٠٠ ـ ٤٠٠سم، لها ازهار خضراء اللون، البذور شديدة الصلابة مصقولة، اوراقه دباغية، (ثماره من التوابل الحامضة العافصية).[٤٥]

واما الزعتر الذي ذكره راوولف فهو نبات (Origanum) طبي بري عطري. ويسمى ايضاً صعتر او سعتر.

وكان وصف راوولف لنبات شبيه بنبات (الاورنيثوغالوم) انما هو في الحقيقة لنبات يعرف في علم النبات العربي باشراس صوصلاء او صاصل او لبن الطير من فصيلة الزنبقيات.

وهو بالذات (الاشراس الخنثي ـ Ornithogalum Stachyoides, ornithogalum arabicum) والانكليزي (Star of Bethlehem). كبير الازهار الخضراء اللون ينبت برياً في بعض المناطق من سوريا وفلسطين. ويستخرج من بصله نوع من الشراس الجيد.[٤٦]

وعند وصول راوولف الى مدينة (عنه) عن طريق نهر الفرات وصفها وصفاً موضوعياً قائلاً: «تشتهر هذه المدينة بجمالها وذلك لكثرة الاشجار المثمرة فيها من امثال الزيتون والليمون والبرتقال والرمان والليمون الحامض وكذلك اشجار النخيل التي لم ار لها شبيهاً بما شاهدته من امثالها في سفراتي.

فقد كانت هذه النخيل سميكة وصلبة للغاية وحين ذهبت مع بعض رفاقنا الى المدينة وجدنا كميات كبيرة من الفواكه لم تحجبهم اطلاقاً وقد رأينا بينها نوعين من الفواكه التي اعتادوا جلبها الى بلادنا احدهما احمر اللون والآخر اصفر اطلق عليهما «سيرابيو» اسم «هيرون» وذلك في الفصل التاسع والستين من كتابه، ومع انها اقل حجماً مما هو لدينا الا انها من نوع جيد وذي طعم لذيذ».[٤٧]

وهذه الفاكهة التي ذكرها راوولف هي بالاحرى ثمار نبات النبق (السدر) الذي يبدأ باللون الاخضر وبعد ذلك يصفر ويحمر. والنبق اشجار كبيرة ولاوراقها واثمارها فوائد طبية.

ويستمر راوولف في وصف نباتات منطقة الانبار الحالية وهو متجه الى بغداد، يقول: «ولم ار في الطريق من النباتات الغريبة سوى ماشاهدته في حقول القمح من نبات (الماش) العربي الذي اشرت اليه قبلا والذي يظن عنه انه هو نبات (كوركورم) الذي ذكره (بليني) وكوركوروم Corchorum، نبات متسلق ذو ازهار صفراء اللون. كذلك رأيت نبتة اخرى تشبه السمسم الا ان ساقها اطول وامتن، وهي تحمل ازهاراً صفراً ذات عروق حمر او بنية اللون تنتهي بعقد طول الواحد منها بقدر الاصبع وبمقدار سمكه ومدببة عند الرأس، ولها خمسة أصناف تحوي البذور التي تشبه نوعاً من الخباز الذي يسمى (ابو تيلون).

ولقد استفسرت كثيراً عن هذه النبتة فلم اجد لها اسماً آخر غير الاسم الذي يطلق عليها وهو (اللوبيا الهندية)، ولكن طبقاً لمعلوماتي اعتبر هذه النبتة هي (النفل) التي اشار اليها (ثيوفراستس) في اماكن عديدة من كتابه».[٤٨]

ونبات ابو تيلون الذي ذكره راوولف هو اعشاب مخشوشبة الساق من فصيلة الخبازيات. انواعه عديدة تنتشر في جميع انحاء البيئات الحارة والمعتدلة. وهذه النباتات لها اثمار دولابية النفاج عند النضج ويستفاد من اوراقه اللعابية اللزجة كملين ومن بذورها كمدر للبول ومن سوقها والياف تشورها للغزل والنسيج.[٤٩]

واللوبيا الهندية الذي قال عنها راوولف هي نفس اللوبيا او اللوبياء في بلادنا اليوم وتسمى علمياً (Dolichos unguiculatus) والانكليزي (Black eyed dolichos, Asparagus bean). وهي نباتات عشبية زراعية من فصيلة القرنيات الفراشية. انواعها عديدة

تزرع لقرونها الخضر البقلية او لبزورها الجافة. وهي تنمو في جميع الاتربة القليلة الاندماج الممكن ريها.[٥٠]

وقد اخطأ راوولف عندما اعتبر اللوبيا هي نفسها نبات النفل. فنبات النفل (الاسم العلمي Trifolium) والانكليزي (Clover) هو البرسيم نفسه وهي نباتات عشبية من فصيلة القرنيات الفراشية انواعه المعروفة حوالي (١٥٠ نوعاً) اكثرها بري مرعوي وبعضها زراعي علفي ومنها الحولي والمعمر. جذورها تغور في التربة. اوراقها مركبة ثلاثية الوريقات. ازهارها مختلفة الالوان، البذور كلوية الشكل صغيرة الحجم، سمراء اللون.[٥١] واوضح راوولف اهمية بعض النباتات العراقية في بعض الصناعات العسكرية، قال:

«وبارود المدافع هذا لايصنع من ملح البارود[٥٢] مثلما يجري ذلك عندنا في اوربا وانما يستخرج من عصير شجرة من نوع الصفصاف يسميه الفرس (فبر) بينما يدعوه العرب بأسم «الغرب» كما اشرنا الى ذلك قبلا. فهم يقطعون الاغصان الصغيرة من هذه الاشجار واوراقها فيحرقونها ويحولونها الى مسحوق يلقون به في الماء الى ان تنفصل ذرات الملح عنه واذ ذاك يصنعون منه بارود المدافع، ومع ذلك فهذا البارود ليس قويا كالذي نصنعه نحن في بلادنا. ولقد اكد ذلك المؤرخ «بليني» في الفصل العاشر من الجزء الحادي والثلاثين من كتابه اذ قال: «ان الناس في الايام السالفة كانوا يستخلصون «النيتر»[٥٣] من اشجار البلوط».[٥٤]

وقد وصف راوولف نبات الحنظل السام قائلاً: كذلك شاهدت على ضفاف النهر العالية كثيراً من نبات (الحنظل) لم استطع ان المحقق منه عن بعد، الا انه لايزال حتى الآن معروفاً لدى السكان بأسمه العربي القديم وهو «الحنظل».[٥٥] والحنظل او الحدج او مرارة الصحارى ايضاً ـ اسمه العلمي (Citrullus Colocynthis, Cucumis colocynthis) والانكليزي (Colocynth, Bitter apple) نبات حولي من فصيلة القرعيات يمد ويسبر في الارض عند نموه له انواع كثيرة برية وزراعية. ازهارها صفر وثمارها صغيرة الحجم ومختلفة الاشكال فمنها القرعي والبرتقالي والاجاصي والبطيخي. القشر رقيق جامد، لبها اسفنجي التركيب، ابيض اللون، شديد المرارة والحرافة وهو من اشد المسهلات القوية المفعول وهو كان ولايزال من النباتات الطبية العامة.[٥٦] واوضح راوولف عند مكوثه في بغداد انه وجد ان اهالي بغداد يستخرجون الزيوت من الجوز ولنستمع مايقوله: «كذلك استقطرت الزيوت من الجوز، وهو نوع جيد ومتوفر بكثرة، ومن الفستق الذي يحتفظ به السكان ويأكلونه مثلما نأكل نحن الانواع الصغيرة من الجوز في بلادنا. ولقد تناولت هذا الفستق فوجدته جافاً غير مستساغ. وهذا النوع يسميه العرب بأسم «بطم». ولقد شاهدت نوعين منه بحجم كبير وآخر صغير، والكبير منه يشبه جوزة الفستق لكنه اقل استدارة واقصر طولا. اما النوع الصغير فهو ذو قشرة صلبة تشبه حبة الحمص الكبيرة وهذه تماثل في شكلها النبتة المعروفة بأسم (قرن الغزال) او الذرة الهندية. وينمو الكثير من هذه في ايجنيا[٥٧] وفي فارس وبلاد مابين النهرين وأرمينيا وغيرها. فهي بأوراقها الطويلة تشبه تلك الاشجار حيث يمكن تمييزها بيسر عن شجرة الفستق ذات الاوراق المدورة، وهي من النوع الذي قال عنه كل من الرازي وابن سينا انه ينمو في الهند».[٥٨]

وقد خلط راوولف بين اشجار الفستق واشجار البطم حيث اعتبرها شجرة واحدة في حين ان الفستق اشجار زراعية معمرة تعيش اكثر من ٣٠٠ سنة. وهي من فصيلة البطميات. انواعها عديدة منبتها منطقة حوض البحر الابيض المتوسط من اشهرها الفستق الحلبي والتونسي والايراني والصقلي والمغربي والقبرصي وهي اشجار جبلية تتحمل درجات البرودة العالية وتساقط الثلوج. واشجار الفستق تصل في الارتفاع الى حوالي عشرة أمتار ثمارها زيتونية الشكل تتكون عند اكتمال نضجها من غلاف خارجي هش النسيج. ومن غلاف داخلي خشبي المادة مؤلف من مصراعين ينشقان عن صلام اصفر اللون مأكول تلفه قشرة رقيقة لونها الى الحمرة. الاسم العلمي للفستق (Pistacia vera) والانكليزي (Pistachio tree).[٥٩]

اما البطم[٦٠] (ضراوة) فهي شجيرة فرعاء تعلو من ٣ ـ ٥ أمتار الثمر كروية الشكل. يستخرج من لحاء سوقها مادة راتنجية فواحة كثيرة الاستعمال، ثمرته تدعى (الحبة الخضراء). قال ابن سينا: «انه يجلو الجرب والقوباء» وقال الانطاكي:[٦١] «اوراقها تسود الشعر طلاء. والحب يسخن الصدر والمعدة ويقطع البلغم ويزيد القوة الجنسية ويسمن عن تجربة. ودهنه يحلل اوجاع العصب وحصر البول شرباً ويصلحه العسل. وشربته الى عشرة». الاسم العملي للبطم (Pistacia terebinthus P. cabulica) والانكليزي (Turpentine tree, Terebinth tree).

والبطم من فصيلة البطميات. واشهر انواعه البطم الاخضر، برزق (الاسم العلمي pistacia khinjuk) والانكليزي (East Indian masticha) وهذا النوع ينتشر في الهند ومناطق الشرق الاوسط ومن ضمنها العراق. وهناك نوع آخر المسمىٰ بالبطم الشرقي او بطم مستكي (Pistacia lentiscus) وثمرة الاخير اكبر من البطم الاخضر وهذا ما جعل راوولف يذكر هذين النوعين.

وذكر راوولف نباتاً آخر شاهده اثناء رحلته قادماً الىٰ بغداد قال: ولقد اشار «سرابيو» في الفصل الخامس والعشرين من كتابه الىٰ ثمر آخر دعاه بأسم «العنصل» وقد شاهدته انا وهو بقدر جوزة الفستق لين القشر، ولم اعثر عليه لدىٰ اصحاب الحوانيت في هذه الانحاء». [٦٢]

والعنصل الذي جاء في وصف الدكتور راوولف هو[٦٣] إشقيل الخريف او بصل الفأر او بصل الحية، اسمه العلمي (Scilla autumnalis) والانكليزي (Autum nal squill, Winter hyacinth). نباتات بصلية معمرة من فصيلة الزنبقيات. والثمرة بصلة غليظة إجاصية الشكل، بيضاء اللون، اوراقها قرصية مستطيلة ضيقة شديدة الخضار لامعة المواج. ازهارها صغيرة لبدة وردية اللون. وهو طبي ويدخل في تركيب عدة مستحضرات وعقاقير وهو يلدر البول وينعش الصدر. و ينتشر علىٰ سفوح التلال والمرتفعات في المناطق الشرقية من العراق.

واطلق راوولف علىٰ شجرة مجهولة اسم شجرة الموز وقال: «وعن شجرة الموز التي تنمو في الجزيرة العربية وتحمل ثمراً حلواً طيب المذاق يسمونه (واك ـ Wac) وهو مدور الشكل احمر اللون بحجم البطيخ الهندي.

ترىٰ هل كان هذا هو ثمر (المانغا) الذي اشار اليه كلوفيوس في تاريخه عن النباتات الهندية، والذي كان ينقل بسبب جودته الىٰ فارس بحراً؟ فقد تركت ذلك لألم به فيما بعد». [٦٤]

والشجرة التي اعتبرها راوولف مرة موز ومرة اخرىٰ مانغا (العنبة الهندية) هي في الاحرى الخوخ البري او الاجاص البري وهي شجيرات وجنبات حرجية زراعية من فصيلة الراتنجيات، انواعه كثيرة. مواطنها البلاد الحارة. اوراقها صغيرة بارزة العروق. ثمارها مأكولة. الاسم العلمي (Spondias) والانكليزي (Spondias, mombin, Hog plum tree) ومن اهم انواعها خوخ البر الاحمر وخوخ البر الحلو والخوخ الشائك. [٦٥]

واضاف معقباً بهذا الوصف (اما الموز الذي قيل عنه انه معروف في سوريا ايضاً، فهو شجر يحمل ثمراً صغير الحجم مقوساً ورقيقاً اصفر اللون يشبه البطيخ في شكله وهو حلو المذاق شهي الطعم، لكنه مضر بالصحة ولهذا السبب منع الاسكندر الكبير جنوده من تناوله». [٦٦] واثناء توجهه الىٰ كركوك عن طريق نهر دجلة وصف راوولف بعض النباتات التي شاهدها قائلاً: «ورحت في اثناء مكوثي في ذلك المكان أبحث عن النباتات فيه لكنني لم اعثر علىٰ شيء منها لانها في ذلك الوقت كانت قد بدأت تبرز من باطن الارض. علىٰ انني عثرت علىٰ انواع من الخلنجان البري ذي جذور كبيرة ومدورة يسميه السكان (السرو) ويطلق عليه اليونانيون واللاتينيون اسم (سبيرُوس)». [٦٧]

وهنا وقع راوولف في خطأ كبير عندما اعتبر الخلنجان البري هو السرو. في حين ان الخلنجان (الاسم العلمي Erica) والانكليزي (Heath, Heather). شجيرات صغيرة برية وزراعية من فصيلة الخلنجيات انواعه كثيرة تبلغ حوالي ٤٠٠ نوع ـ اوراقه هدبية الشكل قصيرة. [٦٨]

اما السر (الاسم العلمي Cupressus) والانكليزي (Cypress tree) فهي اشجار حرجية كبيرة من فصيلة الصنوبريات لها انواع عديدة اهمها ١٥ نوعاً. اوراقها دائمة الخضرة، اوراقها عروة، فلسية، متقابلة الثمار اكراز كروية الشكل. بزورها صغيرة مجنحة. [٦٩] والجذور التي شاهدها راوولف هي حسب اعتقادي جذور اشجار السرو لانها تتناسب وحجوم وضخامة هذه الاشجار الخشبية التزينية.

وعند وصوله الىٰ مدينة الموصل وصف بعض الانواع من الفاكهة، قال: «ولقد شاهدت نوعين من هذه الفواكه من جنس الجوز باحجام كبيرة وصغيرة يسميه السكان بأسم (البندق) كما شاهدت نوعاً من البطيخ كبير الحجم بقدر قبضتي اليد كثير الانتشار هنا قيل لي عنه انه يؤتىٰ به من أرمينيا، وهو صلب اسمر اللون ليس حلو المذاق وهو كاليقطين ومع ذلك فهو حسن صالح للأكل ويحتوي علىٰ بذور صغيرة حمراء لايشاهد المر، حين تناوله وهو يحل الجسم لكن ليس بالشكل المعروف عندنا من هذا الثمر.

وقد اعتاد السكان ان يتناولوه بكميات كبيرة عند الصباح مثلما يفعل ذلك سكان جبل لبنان بالنسبة الىٰ الجبنة. ولكن هل كان هذا هو (المن الحجازي) الذي اشار العرب اليه، ام هو النوع الذي اشار اليه (ابن سينا) في الجزء الثاني، المقالة الثانية

من الفصل الخامس والسبعين، فذلك امر لم اتحقق منه». [٣٠]

لقد خلط راوولف في وصفه هذا النوع بين فواكه المكسرات فهو يعتبر الجوز والبندق نوعاً واحداً كبيراً صغيراً ولكن لكل من هذين النباتين مميزات خاصة به ويختلف بعضهما عن بعض في امور علمية كثيرة.

فالجوز اشجار كبيرة من فصيلة الجوزيات، اسمه العلمي (Juglans regia) والانكليزي (Walnut tree). انواعه كثيرة، تصل الاشجار الى ٢٤ متراً ارتفاعاً. ثماره لذيذة اللباب المستحب الطعم، قشورها الخشبية غليظة سميكة. ملساء البشرة، سريعة التفكيك ولون الثمر جوزية اللون، اول تكوين الثمرة تكون بجلد أخضر لين وشيئاً فشيئاً يصلب وييبس فيتغير لونه. وينتشر الجوز في شمال قطرنا العراق وبالاخص المناطق المرتفعة. [٣١]

اما البندق فهو اشجار وشجيرات برية وزراعية من فصيلة التبوليات السومليات انواعه قليلة. والنوع الذي شاهده راوولف في مناطق الموصل ومايحيط بها او قريب منها هو البندق البري، الاسم العلمي (Corylus Sylvestris) والانكليزي (Wild filbert). تعلو هذه الاشجار الى حوالي ٦ - ١٠ أمتار.

مواطنها تركية ومنطقة البلقان وشمال العراق وشمال غربي ايران، ساقها ملساء. ثمارها صغيرة خلية القشرة مستطيلة الشكل. [٣٢]

وشاهد راوولف مااسماه بطيخاً أسود اللون وله بذور حمراء. وهو بالحقيقة الرقي كما يسمىٰ في العراق وسوريا نسبة الى مدينة الرقة السورية. وفي بعض الأقطار العربية يسمىٰ بطيخ او بطيخ احمر او دلاع كما في المغرب او بطيخ هندي اوفريز، اسمه العلمي (Citrullusvulgaris, Cucumis Citrullus, Cucurbita citrullus) والانكليزي (Water — melon).

والرقي نبات عشبي حولي بري وزراعي من فصيلة القرعيات يزرع لثماره المأكولة. له انواع عديدة منها الصغير والكبير وباشكال مختلفة والوان مميزة كالاخضر الباهت والمقلم بالاخضر الباهت والغامق والاخضر المسود.

ولون البذور واشكالها مختلفة ايضاً فمنها الاسود والاصفر الباهت الاحمر. ومن المعروف ان احسن انواع الرقي في العراق مايزرع في محافظة نينوى بثماره وبزوره الحمر الكبيرة الحجم المرغوبة المأكل.

والرقي من الثمار المنعشة التي تروي الغليل وتدر البول وتفيد المصابين بالامساك والبواسير. وتبلغ نسبة الماء نحو ٩١٪ في الرقي و٨٪ من المواد السكرية. [٣٣]

وهو ليس المن الحجازي او اي نوع من انواع المن الذي توهمه راوولف وتساءل عنه.

الهوامش والمصادر

١ - رحلة المشرق الى العراق وسوريا وفلسطين سنة ١٥٧٣م، ترجمة: وتعليق الاستاذ سليم طه التكريتي - بغداد ١٩٧٨، ص ٣٣.

٢ - ادوار غالب، الموسوعة في علوم الطبيعة ٣ أجزاء، بيروت، ١٩٦٥، ج ١، ص ٢٢٩.

٣ - رحلة المشرق، ص ٣٤، ومعلومات شخصية للكاتب.

٤ - ادوار غالب: الموسوعة في علوم الطبيعة، ج ١، ص٧١.

٥ - اعتقد ان هذا الرقم مبالغ فيه جداً؟ خاصة اذا علمنا ان المؤلف اراد بذلك انتاج منطقة حلب وحدها في ظروف القرن السادس عشر حين كانت طرق استخراج زيت الزيتون طرقاً بدائية!

٦ - رحلة المشرق: ص ٥٣.

٧ - سيرابو Serapio او سرابيون وسيرابيون ايضاً هو احد مطارنه معبد تميوس في دلتا النيل بمصر. وتوفي هذا الرجل في حدود سنة (٣٥٠ للميلاد) له كتاب في الصلاة.

٨ - يقصد كتاب القانون الشهير لابن سينا وهو من اهم الكتب العربية الذي ظل يدرس في الجامعات الاوربية حتى القرن السادس عشر.

٩ - كارلوس كلرفيوس - Carlus Civius، عالم نباتي ومؤرخ لاتيني معروف له كتاب موسوعي موسوم «تاريخ النبات في البلاد الاجنبية».

١٠ - رحلة المشرق: ص ٥٤.

١١ - ادوار غالب: الموسوعة في علوم الطبيعة، ج ٢، ص ٤٤٣.

١٢ - ادوار غالب: الموسوعة في علوم الطبيعة، ج ٢، ص ١١٨.

١٣ - النباتات الطبية والعطرية عز الدين رشاد، القاهرة، ١٩٦١، ج ١، ص ٧٠.

١٤ - كابرية: منطقة في جزيرة صقلية الايطالية كانت احد مراكز العرب العلمية والثقافية عند حكمهم لها وقد نقلوا الكثير من النباتات المفيدة لها وزرعوها هناك.

١٥ - رحلة المشرق: ص ٧٢ - ٧٣.

١٦ - د. جابر الشكري: المن من السماء، مجلة التراث الشعبي، العددان ٥ - ٦، س ١٥ - بغداد ١٩٨٤، ص ١١٨ - ١١٩.

١٧ - المصدر السابق، ص ١١٩.

١٨ - الموسوعة في علوم الطبيعة الجزء، ص ٢٨٦.

١٩ - المصدر السابق، الجزء ٢، ص ٢٥٠.

٢٠ ـ الموسوعة في علوم الطبيعة، الجزء ٢، ص ٥٩٧ .

٢١ ـ المصدر السابق، الجزء الاول، ص ٢٧٩ .

٢٢ ـ الرحلة المشرقية، ص ٧٥.

٢٣ ـ ولايخفى ان قبر الرسول (ﷺ) في المدينة المنورة، لامكة.

٢٤ ـ الرحلة المشرقية، ص ٧٦.

٢٥ ـ يقصد بها البن.

٢٦ ـ الرحلة المشرقية، ص ٨١.

٢٧ ـ الموسوعة في علوم الطبيعة، الجزء ١، ص ١٦٥ .

٢٨ ـ الرحلة المشرقية، ص ٩٦.

٢٩ ـ عز الدين رشاد: النباتات الطبية والعطرية، الجزء ١، ص ١٩٨ .

٣٠ ـ الموسوعة في علوم الطبيعة، الجزء ١، ص ٣٧٧.

٣١ ـ المصدر السابق، ص ٥٦١ .

٣٢ ـ المصدر السابق، ص ٥٤٤ .

٣٣ ـ المصدر السابق، ص ٥٧٢ .

٣٤ ـ الرحلة المشرقية، ص ٩٩.

٣٥ ـ احمد عيسى: معجم اسماء النبات، بيروت، ١٩٨١ (ط ٢) ص ١٥ .

٣٦ ـ الرحلة المشرقية، ص ١٠٦ .

٣٧ ـ الموسوعة في علوم الطبيعة، الجزء ١، ص ٤٨٧ .

٣٨ ـ الرحلة المشرقية، ص ١١٨ ـ ١١٩ .

٣٩ ـ الموسوعة في علوم الطبيعة، الجزء ١، ص ٥٢٨.

٤٠ ـ احمد عيسى: معجم اسماء النبات، ص ١٦٠، الموسوعة في علوم الطبيعة، الجزء ٢، ص ٦٥.

٤١ ـ المصدر السابق، الجزء ١، ص ١٩.

٤٢ ـ الرحلة المشرقية، ص ١٣٠ .

٤٣ ـ الموسوعة في علوم الطبيعة الجزء ٢، ص ١١٨ .

٤٤ ـ الرحلة المشرقية، ص ١٣١ .

٤٥ ـ الموسوعة في علوم الطبيعة، الجزء ١، ص ٥٥٩ .

٤٦ ـ المصدر السابق، ص ٦٩.

٤٧ ـ الرحلة المشرقية، ص ١٥٠ .

٤٨ ـ الرحلة المشرقية، ص ١٥١ .

٤٩ ـ الموسوعة في علوم الطبيعة، الجزء ١، ص ١١ .

٥٠ ـ المصدر السابق، الجزء ٢، ص ٤٢٩ .

٥١ ـ المصدر السابق، ص ٥٧٥ .

٥٢ ـ ملح البارود ـ Salt — peter هي نترات البوتاس الذي يدخل بشكل اساسي في الصناعات البارودية .

٥٣ ـ النيتر ـ Nitre Niter وتسمى ملح البارود وهي عبارة عن نترات البوتاس او آزوتات البوتاسيوم.

٥٤ ـ الرحلة المشرقية، ص ١٦٠ .

٥٥ ـ المصدر السابق، ص ١٦١ .

٥٦ ـ الموسوعة في علوم الطبيعة، الجزء ١، ص ٣٣٠ .

٥٧ ـ ايجنا ـ سماها ايجما ـ Egemia وهو يقصد ايجين في ولاية ارزنكان التركية على الجانب الغربي من الفرات .

٥٨ ـ الرحلة المشرقية، ص ١٨٨ .

٥٩ ـ الموسوعة في علوم الطبيعة، الجزء ٢، ص ٢٤٠ .

٦٠ ـ المصدر السابق، الجزء ١، ص ١٥١ ـ ١٥٢ .

٦١ ـ الرحلة المشرقية، ص ١٨٩ .

٦٢ ـ المصدر السابق، ص ١٨٩ .

٦٣ ـ الموسوعة في علوم الطبيعة، الجزء ١، ص ٧٠ .

٦٤ ـ الرحلة المشرقية، ص ١٩٠ .

٦٥ ـ الموسوعة في علوم الطبيعة، الجزء ١، ص ٣٨.

٦٦ ـ الرحلة المشرقية، ص ١٩١ .

٦٧ ـ المصدر السابق، ص ١٩٣ .

٦٨ ـ الموسوعة في علوم الطبيعة، الجزء ١، ص ٣٦٨.

٦٩ ـ المصدر السابق، ٥٣٦ .

٧٠ ـ الرحلة المشرقية، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

٧١ ـ الموسوعة في علوم الطبيعة، الجزء الاول، ص ٢٧٩ .

٧٢ ـ المصدر السابق، الجزء الاول، ص ١٦٨ .

٧٣ ـ المصدر السابق، ص ١٥٢ .

* * *

تحرير مدينة الفاو وبوابة النصر العظيم واعادة بنائها معركتان كبيرتان انتصر فيهما العراقيون.

الحيوانات العراقية في كتب الرحالة الاوربيين ايام الحكم العثماني

دراسة
د. عماد محمد ذياب الحفيظ
بغداد

المقدمة:

بعد الفتوحات العربية لنشر الدين الاسلامي وتحقيق الاستقرار، بدأ العرب رحلاتهم من أجل طلب العلم والمعرفة والحصول على معلومات جغرافية وتاريخية واجتماعية سجلتها أدبياتهم العديدة. فنشطت الحركة الفكرية وازداد اهتمام العرب بها وخاصة عند ازدهار بغداد وسامراء. فكتبوا عن الأقاليم وصفاتها ومفاخرها وجعلوا من هذه المعلومات اعداداً كبيرة من المجلدات التي اغنت المكتبة العربية، فقد كانت تحتوي هذه المجلدات على معلومات علمية وادبية متنوعة.

واذا اردنا ان نتحدث عن دور العرب في هذا المجال ومن اسهم منهم في ادب الرحلات، فأننا لن نفي هذه الدراسة حقها. وبعد سقوط الدولة العباسية وسقوط بغداد، توالت عليها عهود وحكومات عانى العراق خلالها الويلات تلو الويلات، فعاشت البلاد فترة مظلمة استمرت لعدة قرون. فأصبحت هذه الفترة، اي من سقوط بغداد وحتى سقوط الدولة العثمانية، فترة نجهل عنها الكثير خاصة في مجال العلوم والمعرفة المختلفة.

لذلك آثرت ان اختار مايتعلق بالحيوانات العراقية خلال القرون الماضية وادرسها شارحاً ومعلقاً من خلال ماكتبه عنها الرحالة الأوربيون خلال هذه الفترة. الا انه من المؤسف ان معظم هؤلاء الرحالة لم يتحدثوا عن الحيوانات في العراق بل اقتصرت معظم كتاباتهم على الوصف الجغرافي والعادات والتقاليد الاجتماعية بالاضافة الى ذكر بعض الأمور السياسية وادارة الحكم. حيث كانت رحلاتهم عادة ذات طابع استكشافي، إلا انها قد لاتخلو من بعض الأساليب التجسّسية.

كان من أهم الرحالة الأوربيين الذين استعنت بكتاباتهم لتوفرها هم:

١ ـ ليونهارت راوولف L. Rouwolf. وهو هولندي زار العراق عام ١٥٧٣م

٢ ـ اولیفيه Olivier وهو فرنسي زار العراق مرتين خلال السنوات ١٧٩٤ ـ ١٧٩٦م.

٣ ـ جيمس ريموند ولستيد J. R. Walstad وهو انكليزي زار العراق عام ١٨٣٠ ـ ١٨٣١م.

اي ان هذه الرحلات كادت ان تتحدث عن كل ماكان شائعاً ومألوفاً في العراق خلال الأربعة قرون الماضية.

وبالرغم من ذيوع صيت هؤلاء الرحالة ورحلاتهم فأنني لاأعرف ولم أسمع او يُذكر ان احداً قد درس ماجاء فيها من حيوانات، بل حتى من ترجم كُتب هؤلاء الرحالة لم يحققوا الحيوانات الواردة في تراجمهم او يشيروا الى شيء عنها في هذا المجال.

كما ان من المؤسف ان الرحالة الأوربيين لم يعيروا اهتماماً الى كثير من النواحي الطبيعية في العراق من سهول وجبال

وصحارى وأهوار والتي لاشك انها كانت مملوءة بالانواع المختلفة من الحيوانات، فلم يذكروا الا القليل، بل وأغلب ماكتبوه هي اسماء لحيوانات داجنة او شائعة وكثيرة الانتشار.

علماً ان هؤلاء الرحالة لم يتحدثوا بشكل تفصيلي عن الحيوانات من حيث وصفها وانتشارها واهمية تواجدها في العراق، بل اقتصروا على ذكر اسمائها فقط عدا بعض الاستثناءات البسيطة. مما زاد في الصعوبات التي واجهتها في تحديد نوع الحيوان المقصود وهل كان هنالك اكثر من نوع واحد يتبع نفس الجنس ام لا.

وانهم كانوا مرّة يتكلمون عن بعض الأمور الجميلة في العراق واحياناً عن القبيحة منها. ولو انهم تحدّثوا عن الطبيعة وماحوته من حيوانات ونباتات لكانوا قد قدّموا معلومات جيدة عن فترة مازالت فيها هذه الجوانب غير معروفة.

رتبت مجاميع الحيوانات او انواعها في هذه الدراسة حسب موقعها التصنيفي الحديث، ابتداءً من أبسطها تركيباً، ووصولاً بأكثرها تعقيداً ورقياً في سلم التطوّر. وتحدثت عن كل مجموعة بنبذة موجزة عن أهم صفاتها وعاداتها وتواجدها وانواعها. كما ذكرت انواع الحيوانات كلاً حسب مجموعته وبترتيب ابجدي، وقد ادرجت ماتيسر لي من شروح وتعليقات حول نوع الحيوان ووجوده في العراق. ثم ادرجت معلومات في جدول يبين اسماء الحيوانات التي جاء ذكرها ومصدرها ورقم الصفحة التي ورد فيه ذكر الحيوان لتسهيل مهمة القاريء والباحث الكريم.

أما عن اسماء الحيوانات التي جاء ذكرها في سياق حديثهم عن وجودها في بلدان او مناطق تقع خارج العراق، فقد تجاوزتها ولم اتحدّث عنها. حيث ان الرحالة لم يشيروا في كتبهم عن مشاهدتهم لها او سماعهم عنها في بلدنا وإن كانت موجودة عندنا في الوقت الحاضر.

ولقد اشرت في الهوامش الى مصادر معلوماتي، وعند عدم الأشارة فيعني ذلك ان المعلومات لي.

شعبة مفصليات الأرجل:

تعتبر اكبر شعب المملكة الحيوانية من حيث عدد انواعها والذي يقارب اليوم المليون نوع. تتميز افراد هذه الشعبة بأن اجسامها مقسمة الى حلقات، جميع انواعها تحمل عدداً من اطراف مفصلية تستعملها في المشي او الامساك بالطعام وغير ذلك. يغطي جسمها هيكل صلب لأحتوائه على مادة الكايتين، لذلك فهي تنمو من خلال عدة انسلاخات. تضم هذه الشعبة عدة اصناف كل منها له صفات خاصة بالأضافة الى تشابهها بالصفات العامة للشعبة، وأهم هذه الأصناف هي:

١ ـ صنف القشريات.
٢ ـ صنف الحشرات.
٣ ـ صنف العنكبوتيات.
٤ ـ صنف عديدة الأرجل.
٥ ـ صنف مزدوجة الأرجل.

وتعتبر جميع الأنواع التابعة لهذه الأصناف من الحيوانات اللافقرية. الا اننا نجد ان الرحّالة الأوربيين لم يذكروا سوى عدد قليل من انواع الحيوانات والتي تعود للاصناف الثلاثة الاولى، ولم يشيروا الى اي نوع يعود للصنفين الأخيرين.

صنف القشريات:

الرأس ملتحم بالصدر ويحمل زوجين من قرون الأستشعار وزوجاً من العيون المركبة، لأفرادها مالايقل عن اربعة ازواج من الأرجل. معظم انواع هذا الصنف بحرية المعيشة وبعضها تعيش في المياه العذبة. وقد ذكر اوليفيه[1] من انواعها السرطان فقط وهو من الحيوانات التي تعيش في المياه العذبة. يتبع السرطان رتبة ذوات الأرجل العشر والذي يتميّز بأن الزوج الأول من اطرافه الصدرية متحور الى ملقطين كبيرين يستخدمها للأمساك بالفريسة. اما الأطراف الباقية فتستخدم في المشي، وهو حيوان مفترس يتغذى على الحيوانات المائية الصغيرة وخاصة الأسماك.

صنف العنكبوتيات:

حيوانات رأسها ملتحم بالصدر ولايحمل قرون الاستشعار وعيوناً مركبة بل بسيطة فقط، ولهذه المنطقة من الجسم اربعة ازواج من ارجل المشي فقط. البطن يكون متميزاً عن المنطقة الاولى، ومعظم انواع هذا الصنف تعيش على اليابسة وقد ذكر اوليفيه الخدران والعقارب فقط.[2]

خدران:

ذكرها اوليفيه مع الحشرات السامة ذات التأثير المشابه للعقرب والرتيلاء، فقال:[3] والجسم مكسو بالفرو بأجمعه، واللون رمادي يميل قليلاً الى الحمرة. أما الأيدي فمكسوة

بأهداب بشكل كامل، ومسلحة بأسنان حادة.

وهي حيوانات من انواع الرتيلاء، تتبع رتبة الرتيلاء. تتميز بأن لها ملامس حسية طويلة مع عدم وجود اي تخصر بين البطن ومنطقة الرأس الصدرية، أجسامها مغطاة بشعر كثيف حتى تجمل الناظر يخشاها. تعيش معظم انواعها في الصحارى والمناطق الأستوائية وشبه الأستوائية.[٤]

عقرب:

حيوان يتبع رتبة العقارب ذات اجسام عريضة مسطحة لها ملقط ينتهي عند الملمس الحسي يستخدم لامساك الفريسة. البطن ينتهي بست حلقات تشبه حبات المسبحة في مؤخرتها ابرة السم. تعتبر هذه الحيوانات ذات نشاط ليلي تكثر في المناطق الحارة، لها في العراق ثمانية انواع اخطرها النوع Hemiscorpius lepturus والذي يتتشر بشكل خاص في منطقتي مندلي وخانقين من محافظة ديالى.[٥]

ويسمىٰ هذا النوع عند اهل المنطقة بالجارور حيث انه لايرفع مؤخرة بطنه الىٰ الأعلىٰ كباقي الأنواع بل يسحبها وهي منبسطة.

صنف الحشرات:

الجسم في انواع هذا الصنف مقسّم الى ثلاثة اقسام هي الرأس والصدر والبطن. تتميّز بوجود زوج واحد من قرون الاستشعار في الرأس وكذلك زوج من العيون المركبة. الصدر له ثلاثة ازواج من ارجل المشي مع زوج اوزوجين من الاجنحة وقد تكون بعض الانواع بدون اجنحة. اما البطن فليس له اطراف او اجنحة. ذكر الرحالة الأوربيون عدداً من مجاميع هذه الحشرات وهي الجراد،[٦] الجنادب،[٧] دودة القز،[٨] النحل،[٩] النمل،[١٠] المن،[١١] وغيرها.

جراد:

جسمها كله أصفر جميل، واجنحتها غمدية منقّطة ببقع وأشرطة غامقة. وللأجنحة شرايين صفراء وغامقة، كما انها شفافة. ولها لون أصفر خفيف في قاعدتها وعلىٰ الطرف الخارجي الذي يضيع دون أن نشعر به ونحن نوجّه النظر نحو وسط الجناح. الساقان الخلفيتان صفراوان كبقية الجسم، غير ان نهاية صلبها أسود جميل.[١٢]

والجراد حشرات من رتبة مستقيمة الاجنحة وليس لها اجنحة غمدية، تتبع عدة فصائل. بعض انواعها مهاجرة والبعض الأخر آبدة، وجميعها تتغذىٰ علىٰ النباتات. اهم الأنواع المهاجرة في العراق هو الجراد الصحراوي Schistocerca gregaria وهو النوع الذي ذكره اوليفييه في رحلته الىٰ العراق. الا انه وقع في خلط فاعتقد ان هذا الجراد يهاجم العراق ليس فقط من عمق الجزيرة العربية بل ومن بلاد فارس أيضاً. في حين ان الجراد الصحراوي يتكاثر في شمال وشمال شرقي افريقيا ثم يعبر الى الجزيرة العربية فالعراق وان اخطر اطواره البالغ. أما الانواع الأبدة والمنتشرة في العراق فأن منها الجراد المصري Anacridium aegyptium.

جندب:

حشرة ذكرها اوليفييه[١٣] علىٰ انها حشرات ليلية النشاط، ولعله كان يقصد حشرات صرصر الحقل والذي يتبع رتبة مستقيمة الأجنحة، فصيلة صراصر الحقل. تنتشر في جميع انحاء العراق ويكثر وجوده في الصيف، حيث تخرج الكاملات ليلاً للتغذية والتزاوج في مواسم التكاثر. وان اهم انواعها الموجودة في العراق هو صرصر الحقل الأعتيادي Acheta domesticus.

دودة القز:

حشرات تعود لرتبة حرشفية الأجنحة وهي فراشة الحرير والتي تعود لفصيلة دودة القز. نوعها المعروف في العراق هو Bombyx Mori والذي يعمل على تربيته لأنتاج الحرير، حيث تتغذىٰ يرقاته علىٰ اوراق اشجار التوت. تمر اليرقة بعدة انسلاخات لتتحول بعدها الىٰ عذراء. وقد جاء ذكرها عند الرحالة الاوربيين في حديثهم عن الحرير وانتاجه في العراق.[١٤]

وقد تم تربية هذه اليرقات لأنتاج الحرير من قبل المديرية العامة لوقاية المزروعات ـ قسم الحشرات النافعة خلال عقد الخمسينات والستينات والسبعينات لهذا الغرض، وفيما عدا ذلك اقتصرت تربيتها بشكل محدود في كل من محافظة ديالىٰ ونينوى والتأميم.[١٥]

من:

حشرات تعود لرتبة متشابهة الأجنحة Homoptera، فصيلة المن. لها انواع ذات قابلية على انتاج مواد دبسة تفرزها عند اصابتها للنباتات، وكمية هذه المادة السكرية المنتجة تتباين من نوع لأخر. فنجد ان بعض الأنواع تنتج كميات لابأس بها

تستخدم لعمل الحلوى من قبل اهل العراق وخاصة في المحافظات الشمالية حيث تتوفر الظروف الملائمة لذلك. الا ان هناك رأياً آخر لدى بعض المختصين والذين يعتقدون ان الأشجار التي تصاب بها هذه الحشرات تتحفز فتفرز هذه المواد الدبسية ومازال هذا الأمر عند اهل الاختصاص غير محسوم. ويعرف عند اهل العراق هذا النوع من الحلوى بأسم «من السما» وقد جاء ذكره في القرآن الكريم بتسمية «المن».[16] ولم يتحدث الرحالة عن انتاج هذه المادة في العراق، واعتمدوا في حديثهم على السماع فقط فقالوا: يكثر في الموصل وبغداد ومن البلاد الجبلية نوع من المنّ تصنع منه حلويات صغيرة بيضاء، طعمها الظاهري اشبه بعجين لوز شديد الحلاوة، او كخليط بديع من العسل مع عجين السمسم، هذا ماخلناه لدى تذوقنا أياه للمرة الأولى.[17]

نحل:

حشرة تعود لرتبة غشائية الأجنحة، لها أنواع تعيش معيشة اجتماعية وخاصة نحل العسل والذي يتبع فصيلة نحل العسل. نوع نحل العسل المعروف في العراق هو Apis mellifera والذي عرف في بلدنا منذ قديم الزمان، وقد جاء ذكره في كتب الرحالة عند حديثهم عن انتاج العسل في العراق.[18]

مجتمع نحل العسل يتكون من عدة طبقات اجتماعية هي الملكة والشغالات (اناث عقيمة) والذكور. وان وظيفة افراد هذا النوع من النحل لاتقتصر على انتاج العسل والشمع فقط بل وتعمل على تلقيح ازهار المحاصيل الزراعية فتعمل على زيادة الأنتاج الزراعي.

نمل:

حشرات تعود لرتبة غشائية الأجنحة، فصيلة النمل والتي معظم انواعها تعيش حياة اجتماعية. الطبقات الأجتماعية لطائفة هذه الحشرات مشابهة لطبقات نحل العسل، الا ان العاملات تكون غير مجنحة كما في النحل. ويمكن اعتبار النمل من الحشرات الكانسة فهو يكاد يتغذى على مختلف انواع الغذاء المتوفر في بيئته. ومن اهم انواع النمل في العراق النمل الأسود الكبير Camponotus sp. والنمل السليماني Salmomnia Monomorium والنمل الأحمر الكبير Dorylus Fulvus.[19]

شعبة الحبليات:

انواع الحيوانات التي تتبع هذه الشعبة تتميز بوجود الحبل الظهري وهو يمثل الهيكل الداخلي للحيوان. الحبل العصبي الذي تحيط به الفقرات وخاصة في الحيوانات الفقرية يكوّن مايعرف بالحبل الشوكي.

بعض انواع حيوانات هذه الشعبة تتنفس الأوكسجين بعد استخلاصه من الماء كما في الأسماك مثلاً، وبعض الأنواع الأخرى تتنفس الاوكسجين الحر من الهواء مباشرة كما في اللبائن، والبعض الآخر له القدرة على تنفس الاوكسجين في الماء او الهواء كما في بعض انواع البرمائيات. وان أهم اصناف هذه الشعبة هي:

١ ـ صنف الأسماك العظمية.
٢ ـ صنف البرمائيات.
٣ ـ صنف الزواحف.
٤ ـ صنف الطيور.
٥ ـ صنف اللبائن.

الا اننا نجد ان الرحالة الأوربيين ذكروا بعض الانواع التي تعود لهذه الأصناف فقط.

صنف الأسماك العظمية:

انواع هذا الصنف هي أسماك ذات هيكل عظمي، يكون جلدها مغطى او غير مغطى بحراشف، ذات زعانف جانبية ووسطية بأحجام وأشكال مختلفة وحسب النوع، وكذلك بالنسبة لشكل وحجم زعنفة الذيل. توجد منها انواع تعيش في المياه المالحة وانواع اخرى تعيش في المياه العذبة، الا ان الرحالة الاوربيين لم يذكروا سوى نوعين من الأسماك العراقية ولعلها كانت اكثر شيوعاً وهي الجرّي والشبوط.[20] واكتفى معظمهم بذكرهم للأسماك دون تحديد انواعها او اشكالها وتسمياتها المحلية، بالرغم من ان اعدادها كثيرة وذات اشكال وأحجام مختلفة.

جرّي:

سمك من الفصيلة السلورية، جسمه خالٍ من الحراشف اسمه العلمي Silurus triostegus وهو مفترس للأسماك الأصغر منه حجماً وكذلك بالنسبة للحيوانات الصغيرة الأخرى والتي تعيش في بيئته، يتميّز بجسم رشيق مضغوط الجانبين. يكثر هذا النوع من الأسماك في مختلف الأنهار والجداول والأهوار

والبحيرات العراقية. فلقد لاحظت انتشاره من مدينة الموصل شمالاً وحتىٰ جنوبي محافظة البصرة عند شط العرب جنوباً. واكثر ماشاهدته من أعداد هذه الأسماك كان في قضاء الجبايش، حيث كانت الآلاف منه مرمية علىٰ ضفاف الأهوار وعلىٰ الطرقات لكونه غير مستحب في الأكل عند أهل المنطقة والمناطق المجاورة عموماً.

شبوط:

سمك يتبع الفصيلة الشبوطية، اسمه العلمي Barbus grypus ذو جسم اسطواني مغطىٰ بحراشف، يكثر وجوده في الأنهار الرئيسة من العراق وخاصة نهري دجلة والفرات وكذلك في بعض البحيرات كبحيرة الثرثار والحبانية، وفي مناطق الأهوار ذات العمق المناسب وغير الضحلة. ولقد ذكر القزويني سمك الشبوط كأحد انواع الأسماك العراقية فقال:[٢١]

«نوع من السمك مشهور، طوله ذراع وعرضه اربع اصابع. طيب اللحم جداً يكثر منه بدجلة».

وتشتهر في العراق انواع اخرىٰ تعود لنفس الفصيلة الشبوطية، اهمها البني B. shorpeyi والقطان B. xanthopterus، الا انها لم تذكر من قبل الرحالة الأوربيين.

صنف البرمائيات:

هذا الصنف لم يذكره اي من هؤلاء الرحالة.

صنف الزواحف:

حيوانات من شعبة الفقريات ذات جلود متقرنة او مغطاة بحراشف، وبعض الأنواع منها جلودها متقرنة ذات حراشف. تعود لهذا الصنف انواع لها اربعة اطراف وانواع اخرىٰ ليست لها اطراف. افراد هذا الصنف واسعة الانتشار في العراق كثيرة التواجد، ومع ذلك نجد ان الرحالة الاوربيين ذكروا عدداً قليلاً جداً من الانواع العراقية.

عظايا:

قيل: ووجدنا في هذه البلاد عدداً من العظايا، بعضها أطول واسمك من ذراع رجل. تتخذ لها في الحقول جحوراً شبيهة بجحور الثعالب. لقد كنا حصلنا علىٰ اثنتين، ولكننا فقدناهما. وكنا أوفر حظاً بالنسبة للنماذج التي وضعناها في خوص النخيل،[٢٢] اذ انها حفظت بشكل جيد. النوع الاول منها نادراً جداً، لم نشاهد مثله الا علىٰ شجيرات في ضواحي بغداد. انه اسمر اصفر، بشوبه شيء من اللون الغامق، حراشفه صغيرة وغير قاسية فوق الرأس، ومميزة علىٰ الجسم، ولحراشف الظهر والذنب خط مرتفع يمتد علىٰ شكل زاوية حادة، وينتهي ببروز واضح جداً في العنق. اما حراشف البطن فملساء.[٢٣]

والعظايا حيوانات فقرية زاحفة تتبع رتبة العظايا والثعابين يتبع لها عدة فصائل ومئات الانواع من هذه الحيوانات والتي تختلف عن بعضها البعض من حيث الحجم والشكل ومحاكاة الطبيعة، من أهمها سام أبرص التركي Hemidactylus turcicus والحرباء Chameleo chamaeleon والورل والذي يسمىٰ عند العامة بأسم الأرول Varanus griseus.

حنب:

حيوان صحراوي زاحف من رتبة العظايا والثعابين، فصيلة العظاء. يغطي جسمه حراشف قوية متقرنة. ومن أهم الانواع العراقية هو النوع Uromastix microlepis. والأرول مرغوب للأكل من قبل البدو في العراق.

سلحفاة:

قال عنها اوليفييه: يبلغ طول هذا الحيوان (الرفش) ثلاثة اقدام. ويبلغ ظهر السلحفاة او القسم العلوي من الصدفة قدماً وسبع بوصات وعشرة خطوط طولاً، وقدماً وبوصتين عرضاً. وهي ملساء، محدبة قليلاً، بيضوية، عريضة في المؤخرة اكثر مما في المقدمة، ولونها اخضر عميق غامق. الوسط منفوخ، ومتين ذو حافتين جانبيتين، والقسم الخلفي رخو وجلدي.[٢٤]

والسلحفاة من رتبة السلاحف ذات هيكل خارجي مدرّع متقرّن من الناحية الظهرية اكثر منه في الناحية البطنية.

اطرافها متحورة للسباحة مضغوطة الجانبين عريضة في طرفها البعيد. النوع الوحيد الذي ذكره الرحالة هو السلحفاة الفراتية والذي يعرف عند العامة من أهل العراق بأسم رفش وأسمه العلمي Trionyx euphraticus، بقي ان نعلم بأن الأهالي يخشون هذا النوع وسمعت بعضهم يدّعون انه يهاجم الانسان عند مواجهته له. وقد شاهدت رفشاً فراتياً عام ١٩٧٤ كبيراً جداً عما وصفه اوليفييه وذلك في احدىٰ بساتين قضاء التنومة من محافظة البصرة، الا انه كان مقتولاً.

صنف الطيور:

حيوانات فقرية يغطي اجسامها الريش، اطرافها الأمامية عبارة عن زوج من الاجنحة والتي تستعمل عادة للطيران، ولها

زوج من الارجل التي تستعملها في الجري والمشي والسباحة وغير ذلك. ذات اشكال واحجام والوان مختلفة، بعض انواعها تكون اجنحتها ضامرة ولاتساعدها على الطيران. وقد ذكر منها الرحالة الباز،(٢٥) الدجاج،(٢٦) الزرزور،(٢٧) حمام الزاجل،(٢٨) وغيرها.

باز:

جاء ذكره في الحديث عند صيد الطيور والغزلان.(٢٩) وهو حيوان من ضواري الطير يتبع فصيلة الصقور. تتميز بمنقار قصير مقوّس، واهم انواعه هو Accipiter albidus اي مايعرف بأسم باز البدو. استخدمه اهل العراق منذ قديم الزمان في الصيد وقاموا على تربيته وتدريبه.(٣٠) ومازال مستخدماً عند القبائل العربية والبدو التي تسكن الصحراء الغربية من العراق لغرض الصيد.

بط بري:

ذكره اوليفييه فقال: ونجد لديهم شتاء البط البري بكميات كبيرة.(٣١) وهو طائر مائي من رتبة الوزيات، فصيلة الاوز. يعرف اسمه عند العراقيين في الجنوب بأسم الخضيري، يكثر في مناطق اهوار محافظة ميسان وهو طعام محبب عند اهل المنطقة فيصطادونه ليباع في الاسواق والمطاعم، فوجدته ذا طعم لذيذ. غذاءه النباتات والاسماك الصغيرة، وهو من الطيور المهاجرة في العراق واسمه العلمي Anas platyrhyncha.

بوم:

من ضواري الطير ذات نشاط ليلي تتبع رتبة البوم، فصيلة البوم. تتميز بأنها ذات رأس كبير ووجه مستدير ذات عينين كبيرتين. يعتبر من الطيور النافعة حيث يفترس اللبائن الصغيرة كالقوارض والطيور الصغيرة والحشرات. الا ان اهل العراق يتشاءمون من ذكر اسمه او رؤيته ولأسباب غير معروفة، بينما نجد الاوربيين يتفاءلون به. وقد ذكر القزويني ايضاً ان الناس تتشاءم منه ايضاً.(٣٢)

من اهم انواعه في العراق البومة البيضاء Tyto alba والبومة الاذناء Asio otus والشبح المخطط Otus scops وهو النوع الذي يئن عند صياحه طوال الليل.(٣٣)

حجل:

طائر من رتبة الدجاجيات، الفصيلة التدرجية. يعتبر من الطيور الأبدة في العراق، الا انه قليل الوجود والانتشار حالياً في العراق. من اهم انواعه العراقية القبج Ammoperdix bonhami.

حمام:

طير ذو شهرة واسعة في المدن والقرى العراقية. يتبع رتبة الحماميات، فصيلة الحمام. غذاؤه الحبوب وثمار اشجار الفاكهة لذلك نجده يكثر في الحدائق المنزلية والبساتين. وان من اهم انواعه في العراق الفاختة Streptopelia decaocto واسم النوع محلياً معروف عند اهل بغداد والحلة وماجاورها بأسم (كوكوختي) ولعله من صوته جاءت التسمية.

ومن الانواع الاخرى التي تتبع فصيلة الحمام الطبان Columba palumbus والطوراني والذي يعرف محلياً بأسم (الطوبرلي) C. livia. ومن اهم سلالات الحمام في العراق هو حمام الزاجل والذي استخدم لغرض نقل الرسائل والمعلومات عبر مناطق شاسعة وبعيدة. ويعتبر الخليفة المهدي ثالث خلفاء العباسيين اول من نظم استخدام حمام الزاجل في البريد الرسمي لدولته. وقد اشتهرت تربية هذا النوع من الحمام في العراق وانتشرت بكثرة ايام الخليفة العباسي المستعصم بالله.(٣٤)

خضّار:

طائر يتبع رتبة الشقراقيات، الفصيلة الوروارية. يتميز بأن لون ريشه يغلب عليه اللون الاخضر ومن هنا جاءت تسميته وعند عامة اهل العراق يعرف بأسم (ابو الخضيّر). غذاؤه المفضّل نحل العسل وخاصة الملكات لذلك يعتبر آفة خطيرة على هذا النوع من النحل في العراق وماجاوره.

ومن اهم انواعه الوروار العراقي Merops superciliosus، والذي يحدث اضراراً كبيرة في مناطق تربية النحل، حيث يستطيع التهام ١٢٥ نحلة يومياً وبالتالي يؤدي الى هلاك خلية النحل وخاصة عند التهامه لملكة طائفة النحل.(٣٥)

دجاج:

ذكره اوليفييه فقال: والطيور منتشرة في بغداد، وبخاصة في القرى الواقعة شرقي دجلة، وعندهم الدجاج.(٣٦) وهو من رتبة الدجاجيات، الفصيلة التدرجية. كان ومازال واسع الانتشار والتربية في المدن والقرى العراقية. له سلالات عراقية محلية متميزة تفضل في التربية المنزلية وقد يعود ذلك الى الوان ريشها الزاهية ومقاومتها للظروف البيئية القاسية. ادخلت خلال القرن العشرين سلالات اجنبية الى العراق الا ان تربيتها

اقتصرت على كونها مصدر للحوم البيضاء وبيض المائدة. الأسم العلمي لهذا النوع من الدجاجيات هو Gallus domesticus اي الدجاج المنزلي.

دجاج الوادي:

طير من رتبة الدجاجيات، الفصيلة التدرجية. كان قديماً يعرف عند اهل العراق بأسم الدجاج السندي.[37] ريشه ذولون اسمر مبقع، سريع الحركة وتفضل اراضي المراعي وان غذاءها الحشائش والحشرات. الا انه قليل الوجود في العراق في الوقت الحاضر واهم انواعه عندنا هو Numida meleagris.

دراج:

قيل عنه: والدارج نوع من الحجول، اكبر قليلاً مما يوجد عندنا في اوربا.[38] طائر من رتبة الدجاجيات، الفصيلة التدرجية. لحومه مفضلة ومرغوبة عند العراقيين ويكثر في الحقول والبراري. اهم انواعه هو الدراج العراقي Francolinus francolinus، الذكر يتميز بالوانه الجميلة عن الانثى. واكثر ماشاهدت من اعداد هذا الطائر كان في محافظات المنطقة الوسطى من العراق، وخاصة في الحقول والبراري الواقعة مابين محافظات بغداد وبابل وواسط.

زرزور:

وصفه اوليفيه فقال:[39] الرأس، والرقبة، وريش الاجنحة والذيل بلون اسود جميل، ذي انعكاسات خضراء وارجوانية. والصدر، والبطن، والظهر، والزمق وردية جميلة المنقار، والرجلان صفراوان. . . الذكر وحده مزين بكشة سوداء محمولة في الخلف.

والزرزور طير يتبع رتبة العصفوريات، الفصيلة الزرزورية. وهو من الطيور المهاجرة الى العراق وخاصة عند الربيع، يقتات على الثمار والحشرات.[40] وقد اعتبره الرحالة الاوربيين من اهم الطيور التي تهاجم الجراد فتقضي عليه.[41] والنوع الشائع منه في العراق هو Sturnus vulgaris.

شقراق:

طير يتبع الشقراقيات، فصيلة الشقراق. يمتاز بتعدد الوانه والتي يغلب عليها اللون الاخضر، بعض انواعه تفضل المعيشة في البساتين كنوع الشقراق البنغالي Coracias benghalensis، وانواع اخرى تفضل المعيشة في التلول والخرائب كالنوع C. garrulus.[42]

غراب:

طائر من رتبة العصفوريات، الفصيلة الغرابية. واسع الانتشار كثير العدد في العراق وخاصة في المناطق الريفية. الا ان العراقيين يتشاءمون من صوته وصورته وهي عادة متوارثة منذ قديم الزمان ولانعرف اسبابها، وقد يعود الى انه يفضل اكل الميتة. كما انه يتغذى على الفضلات وصغار الحيوانات. واهم انواعه في العراق النوع Corvus corone. ولقد اخطأ الاوربيون فاعتقدوا انه من اشباه اللقالق التي تنتشر في بلادهم.[43] وان التشبيه هنا من حيث الالوان وهي الابيض والاسود ليس اكثر.

قطا:

طائر من رتبة الحماميات، فصيلة القطا. وهو من الطيور التي تعيش في المناطق الصحراوية، تتغذى على النباتات الشائعة والمتوفرة في البيئة الصحراوية. اهم انواعه المنتشرة في العراق هو نوع القطا العراقي Pterocles alchata والتسمية اللاتينية مأخوذة من اصل التسمية العربية.

لقلق:

طيور من رتبة اللقالق، الفصيلة اللقلقية. ذات ساقين ورقبة طويلة، يفضل في معيشته وبناء اعشاشه المناطق المرتفعة كالمآذن. الا ان انتشاره في العراق بدأ ينحسر في السنوات الاخيرة ولاسباب غير معروفة. يتغذى على الحيوانات الصغيرة كالضفادع والحشرات ومن اهم انواعه المهاجرة الى العراق هو النوع Ciconia ciconia جاء ذكره في كتب الرحالة من باب التشبيه فقط.

نسر:

من ضواري الطير الكبيرة يتبع رتبة الصقريات، فصيلة النسور. يتميز بمنقاره الكبير والمقوس نهايته الطرفيه، رقبته خالية من الريش. يتغذى على الجيف والحيوانات الصغيرة، قليل الانتشار في العراق ومن اهم انواعه Aegypius monachus.

نعامة:

ذكرها اوليفيه فقال: ومايزال النعام كثيراً حتى اليوم.[44] وهي طائر كبير من رتبة النعاميات، تتميز بأن الرأس والرقبة

والساقين خالية من الريش. كانت النعامة تنتشر في الجزء الغربي من العراق وشمال الجزيرة العربية، ولعلها انقرضت في العراق او اصبحت في حكم المنقرضة.(٤٥) كان في العراق نوع واحد مسجل والمعروف بأسم Struthio camelus، اي ان اسمها باللاتينية هو النعامة الجملية ولعل اصل هذه التسمية عربية، فلقد ذكر القزويني ان لها بعض صفات الجمل من باب التشبيه.(٤٦) ويعرف هذا النوع ايضاً بأسم النعامة العربية.

صنف اللبائن:

من الحيوانات الفقرية، شعبة الحبليات. تتميز اجسامها بأنها ذات جلد مغطى بشعر ولها اربعة اطراف تنتهي بعدد من الاصابع لاتتجاوز الخمسة. لها حواس متطورة عن باقي اصناف الحيوانات، لها هيكل عظمي وعضلات وجهاز عصبي جيد. ترضع صغارها اللبن (الحليب) ولذلك سميت هذه الحيوانات باللبائن. بعض انواعها تعيش في مياه البحار والمحيطات كالحيتان وبعضها يطير كالخفاش، الا ان معظم انواعها برية المعيشة. ذكر الرحالة منها الخيول،(٤٧) الكلاب،(٤٨) البقر الوحشي،(٤٩) الاسد،(٥٠) الغزلان،(٥١) وغيرها.

ابل:

حيوان لبون مجتر من رتبة الظلفيات، الفصيلة الجملية. تتميز بقوة صبرها وتحملها للظروف الصحراوية القاسية. موطنه الاصلي الجزيرة العربية ثم انتقل الى باقي المناطق المعروفة بانتشاره حالياً فيها. حيث ساهمت موجات هجرة العرب من جزيرتهم وكذلك الفتوحات الاسلامية بنشره الى المناطق الاخرى. يوجد منه نوع واحد في العراق هو الجمل العربي Camelus dromedarius والذي يتميز بوجود سنام واحد في اعلى ظهره. يسمى ذكر الابل بالجمل اما انثاه فتسمى ناقة. ويلاحظ ان إسم الجنس لهذا الحيوان مأخوذ عن التسمية العربية. وذكروه الرحالة عند حديثهم عن القوافل فقط.

ابن آوى:

حيوان من رتبة الضواري، الفصيلة الكلبية. تتغذى من خلال اصطيادها للطيور وخاصة الانواع التابعة لرتبة الدجاجيات بالاضافة الى تغذيتها على بعض انواع ثمار الخضر والفاكهة كالخيار والعنب. واهم انواعها الشائعة في العراق هو النوع Canis aureus.

أرنب:

حيوان من رتبة الارانب، فصيلة الارانب. تتميز بوجود قواطع كبيرة مع غياب الانياب وارجلها الخلفية ذات قدرة على الجري والقفز حيث انها اطول وذات عضلات اكثر قوة وبناء من الاطراف الامامية.

على مايبدو انه لم تكن الارانب في العراق مدجنة والنوع الوحيد المعروف هو البري واسمه العلمي Oryctolagus cuniculus، اما السلالات الداجنة التي نشاهدها في العراق حالياً فأنها ادخلت اليه خلال القرن العشرين والتي جميعها مستأنسة.

أسد:

لقد جاء وصف الاسد عند الرحالة فقيل: رأينا في زريبة باشوية بغداد خمسة اسود. . . ، قد جلبت منذ خمس سنوات، اذ اصطيدت وهي صغيرة بعد في اطراف الموصل، وكانت ثلاثة ذكور واثنين، الاولى اضخم من الاخرى، وجميعها شبيهة بالنوع الذي في افريقيا، مع الفارق بكونها اصغر حجماً، وليس لها ذوائب. وقد اكدوا لنا بأنها لم يكن لها ذوائب البتة، وكذلك سائر الاسود في هذه الارجاء. لقد اسفنا كثيراً لاننا لم نسأل الباشا يومها عن اسدين، ذكراً وانثى، ولكي نقارنهما عن كثب بالنوع الافريقي، وحتى الوصول الى يقين، فإن اسد جزيرة العرب ينبغي ان يعتبر نوعاً مختلفاً عن هذا الآخر او انه نوع ادنى منه.(٥٢) والاسد لبون من رتبة الضواري، الفصيلة السنورية. معروف منذ الآف السنين في العراق حيث نشاهده في النقوش الآثارية البابلية والآشورية. الا انه انقرض في العراق وقد يعود ذلك الى الصيد الجائر الذي تعرض له. ولم تسعفنا المصادر المتوفرة بذكر اوصافه وحجمه واوجه المقارنة بينه وبين الاسود التي تستوطن الهند وافريقيا. والاسم العلمي للاسد هو Panthera (Felis) leo.

بقرة:

من الحيوانات المجترة تعود لرتبة الظلفيات، الفصيلة البقرية. حيوانات قوية تصبر على مقاومة الظروف الصعبة. تستخدم بالاضافة الى انتاجها للحليب واللحوم في تنفيذ العديد من الاعمال الزراعية كسحب المحراث وادارة الناعور وخاصة الذكور منها (الثيران). الا انها على مايبدو كانت قليلة الانتشار في ذلك الوقت وقد يعود ذلك الى كثرة الامراض التي تصاب بها فأدت الى قلة اعدادها. اهم انواعها في العراق هو Bos taurus.

Bos indicus واسم النوع الاخير ذو اصل عربي والذي يعرف بالثور ومازالت هذه الكلمة شائعة الاستخدام في اللغات الاوربية ولغات امريكا اللاتينية وغيرها من اللغات الحية وغير الحية.

بقر وحشي:

حيوان لبون من رتبة الظلفيات، الفصيلة البقرية. يكاد ان يكون حجمه بحجم البقر، ذو قرون كبيرة، وكان واسع الانتشار في العراق فجاء ذكره عند الرحالة الاوربيين ان العراقيين كانوا يربّون البقر الوحشي كتربيتهم للابقار والجاموس وهذا امر يستحق الدرس مستقبلاً ويفتح آفاقاً لاصحاب الاختصاص في الانتاج الحيواني للاهتمام بهذا الحيوان.

البقر الوحشي انقرض في وقتنا الحاضر ان لم يكن منقرضاً في العراق وذلك لتعرضه الى الصيد الجائر، لأن لحمه مرغوب في الأكل فوصلت اعداده القليلة في العراق والوطن العربي حالياً الى ماوصلت اليه. يعرف عند العرب بأسم المهاة واسمه العلمي Addax nasomaculata.

ثعلب:

حيوان من رتبة الضواري، الفصيلة الكلبية. يتميز بمكره ودهائه في السلوك وفرائه الكثيف الجميل وهو اصغر من ابن آوى. يوجد منه في العراق نوع شائع هو Vulpes vulpes والذي يسمى عند اهل اوربا بالثعلب الاحمر. الا انه لم يتعرض عندنا للصيد الجائر وعمليات الابادة التي تعرض لها في اوربا طلباً لفرائه الذي يتمتع بسوق رائجة حتى عصرنا الحاضر.

جاموس:

حيوان مجتر من رتبة الظلفيات، الفصيلة البقرية. ينتشر في جنوب ووسط العراق ولاينتشر في شمال العراق باستثناء محافظة نينوى.

يفضل في معيشته الاماكن القريبة من المياه او على ضفافها ولذلك نأن اكثر اعداده عند الاهوار في كل من محافظتي ذي قار وميسان. وهو حيوان صعب المراس والاستئناس. الا انه معروف في العراق ومنذ آلاف السنين حيث يلاحظ في النقوش الأثارية. والنوع المعروف في العراق هو Bulbalus bulbalis.

جرذ النخيل:

تحدث عنه اوليفييه فقال: (٥٣) ثمة في بساتين بغداد نوع من النموس، اكبر من السنجاب، شبيه بالنمس المصري، الا انه اصغر بخمس او ست مرّات، ولكنه اكثر رقة، واجمل، وله لون ألطف، ويأتلف بنوع اسهل. يسمونه في البلد بفارة التمر، او جرذ النخيل، ليس لأنه يعيش فوق اشجار النخيل او يتغذى من ثمرها، بل ربما لأنه يكثر في البساتين المزروعة بالنخيل.

وهذا الحيوان لبون من رتبة الضواري، فصيلة ابن عرس. ينتشر بكثرة في المحافظات الوسطى والجنوبية من العراق وخاصة في مناطق زراعة بساتين النخيل واشجار الفاكهة. جاءت تسميته ايضاً عند الرحالة الاوربيين بأسم فارة التمر، (٥٤) بينما لايوجد مايشير الى انه يتغذى على التمر ولم اتمكن من معرفة اصل التسمية هذه. والاسم العلمي لهذا النوع هو Herpestes auropunctatus.

حمار:

ذكروه الرحالة على انه وسيلة حمل ونقل. (٥٥) وهو حيوان لبون من رتبة وترية الاظلاف، فصيلة الخيل حجمه اصغر من حجم الحصان، يستخدم لحمل الاثقال والتنقل وخاصة في القرى والارياف وقلما يستخدم لهذا الغرض في المدن. منتشر في مختلف انحاء العراق، واسمه العلمي Equus asinus.

خنزير:

قالوا: والخنزير البري منتشر كثيراً في هذه الربوع، فهو طيلة السنة على ضفاف دجلة والفرات. (٥٦)

الخنزير حيوان لبون غير مجتر من رتبة الظلفيات، فصيلة الخنازير. ينتشر في جميع محافظات المنطقة الوسطى والجنوبية وباعداد قليلة في بعض محافظات المنطقة الشمالية من العراق وخاصة في الاحراش القريبة من الانهار والاهوار والبحيرات. ويمكن اعتبار الخنازير آفة زراعية عندنا حيث تهاجم العديد من نباتات الخضر وخاصة القرعيات طالباً ثمارها.

النوع الشائع في العراق هو الخنزير البري Sus scrofa. الا ان لحمه محرّم عند المسلمين كافة.

خيل:

ذكرها الرحالة كأهم وسيلة ركوب في رحلاتهم. (٥٧) حيوان لبون يتبع رتبة وترية الاظلاف، فصيلة الخيل. يتميز بالرشاقة وسرعة الجري، منه سلالات مشهورة ذات اصل عربي وخاصة عند القبائل العربية التي تسكن الصحراء الغربية من العراق ومازالوا يقومون على تربية هذه السلالات ويصدرونها الى مختلف

انحاء العالم.

لها صفات ونعوت عند اهل العراق يتفاخرون بها، استخدمت للرياضة كالصيد والقتال والتنقل وجر العربات. اما الآن فللسباق والفروسية والاستعراضات فقط، اسمها العلمي هو Equus caballus.

سنجاب:

لبون من رتبة القوارض، فصيلة السناجيب حجمها بقدر حجم الجرذ الاعتيادي، تتغذى على البذور والنباتات لذلك نجده منتشراً في مناطق الاحراش والغابات في المناطق الشمالية من العراق ويعرف النوع المنتشر هناك بأسم Sciurus anomalus.[٨٨]

ضأن:

حيوان مجتر من رتبة الظلفيات، فصيلة Bovidae. توجد له تسميات مختلفة منها خراف واغنام وغير ذلك. يكسو جلدها الصوف، السلالات المنتشرة في العراق تتميز بوجود ذيل طويل متضخم يعرف عند العراقيين بأسم (إلية) وهي مكتنزة بالشحوم. تنتشر الاغنام في مختلف انحاء العراق بالرغم من اختلاف الظروف المناخية والبيئية بين منطقة واخرى. من السلالات العراقية الاغنام الجنوبية والنجدية والحمدانية وافضل هذه السلالات هي العواسي، وتعتبر لحوم الاغنام عند العراقيين هي الارغب والافضل كغذاء. اما الاسم العلمي فهو Ovis aries.

غزال:

قال: والغزلان ايضاً التي تصطاد بواسطة الباز لايأكلها ايضاً سوى الفقراء.[٨٩]

حيوان من رتبة الظلفيات، الفصيلة البقرية. والغزلان جميلة المظهر رشيقة الجسم سريعة الحركة. تعرضت لصيد جائر خلال القرن الحالي فأصبحت اعدادها قليلة جداً في العراق، وتبذل الآن جهود من الجهات الرسمية للحفاظ عليها من الانقراض وتكثيرها. اهم انواعه في العراق هو الغزال العربي Gazella arabica واصل التسمية اللاتينية لهذا النوع والجنس مأخوذة من التسمية العربية.

فأر:

من اللبائن التي تعود لرتبة القوارض، فصيلة الفئران. يبلغ عدد الانواع التابعة لها في العراق ستة انواع اهمها فأر المنزل Mus musculus وهو الذي ينتشر في المدن والقرى فيلحق اضراراً بالمباني والمنشآت والمخازن بالأضافة الى اتلافه للأثاث. والنوع الثاني المهم في العراق هو فأر الحقل الاعتيادي Apodemus sylvaticus والذي ينتشر في الحقول ومناطق الارياف فيؤدي الى اضرار اقتصادية كبيرة. كما ان الفأر ينقل العديد من الامراض التي تصيب الانسان.

قط:

حيوان لبون اصغر من الكلب ذو الوان واشكال جميلة يتبع رتبة الضواري، الفصيلة السنورية. يعتبره اهل العراق حيواناً نظيفاً اليفاً ينفع في مكافحة الفئران في المنازل، لذا نجده كثير الانتشار في المدن. اما اسمه العلمي فهو Felis catus، وان جميع السلالات الموجودة في العراق هي سلالات محلية وغير اصيلة.

قوارض:

حيوانات لبونة تتبع رتبة القوارض ولها في العراق ست فصائل، يعود لها ٢٥ نوعاً مسجلاً عندنا. بعضها تعيش معيشة اجتماعية على شكل مستعمرات ولكل مستعمرة قائد هو اقواها واذكاها. ونكاد لانجد منطقة في العراق خالية من احد انواع القوارض، كما نكاد لانجد محصولاً زراعياً في قطرنا الا يصاب بأحد انواع القوارض.[٩٠] وذكرها اوليفييه كأحد أهم آفات التمور في العراق.[٩١]

كلب:

حيوان لبون من رتبة الضواري، فصيلة الكلاب. اهتم به اهل العراق كثيراً وجعلوا منه سلالات اليفة استخدمت للحراسة والصيد، كثير الانتشار في القرى والارياف وعند التجمعات البدوية من الذين يقومون على تربية الاغنام والماعز. الا ان العراقيين يعتبرونه حيواناً نجساً فلا يسمحون له بالدخول الى منازلهم وقد يعود ذلك الى ماجاء عنه في كتب الفقه والسنة النبوية، اسمه العلمي Canis familiaris اي الكلب الاليف.

ماعز:

حيوان مجتر من رتبة الظلفيات، الفصيلة البقرية يتميز بالقوة والصبر على الظروف الصعبة وقوة التحمل في الاراضي

الوعرة، يستفاد منه بشكل اساسي من البانه وشعره في صنع الخيام والمستلزمات الاخرى بالأضافة الى اللحم والحليب واسع الانتشار في العراق من جنوبه الى شماله، وله سلالات معروفة ذات مواصفات جيدة ومنه مايعرف بماعز المرعز والذي يصنع من شعره الجميل البطانيات حتى يومنا الحاضر وهي انواع نادرة وغالية الثمن. اسمه العلمي Capra hircus.

يربوع:

قالوا: وقد ظهر في هذا اليوم اعداد كبيرة من اليرابيع.[٦١]

وهو حيوان من رتبة القوارض، فصيلة اليرابيع. يتميّز بطول أطرافه الخلفية وقصر أطرافه الأمامية، ذو ذنب طويل مقارنة بطول جسمه. يعيش في البراري ويتغذى على النباتات والأعشاب المتوفرة في منطقة تواجده. يستعمله البدو احياناً كطعام لهم. والنوع الشائع في العراق هو اليربوع الفراتي Allactaga euphratica.[٦٢]

الهوامش والمصادر

١ ـ اوليفيه ١٩٨٨. رحلة اوليفيه الى العراق، ترجمة يوسف حبي، المجمع العلمي العراقي، بغداد. ص ٢٣.
٢ ـ نفس المصدر ص ٢٠١ ـ ٢٠٢.
٣ ـ نفس المصدر ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣.
٤ ـ Storer, T. I. and Usinger, R. L. 1965. General Zoology, 4 th. ed. McGraw-Hill and Kogakusha, Tokyo, P. 817
٥ ـ Khalaf, L. 1966. A small collection of scorpions from Iraq. Bull. Iraq Nat. Hist. Inst. 3(6). Baghdad. P. 1 — 8
٦ ـ اوليفيه ص ١٣٤. ٧ ـ نفس المصدر ص ٢٠١.
٨ ـ ولستيد، جيمس ريموند ١٩٨٤. رحلتي الى بغداد، ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي. مكتبة النهضة العربية، بغداد ص ٩٢ واوليفيه ص ١٢٥ ـ ١٧٧.
٩ ـ راوولف، ليونهارت ١٩٧٨. رحلة الشرق، ترجمة سليم طه التكريتي. وزارة الثقافة والفنون، بغداد. ص ١٠٢. واوليفيه ص ٤٨ و ١٢٩.
١٠ ـ راوولف ص ٢٠٣. ١١ ـ اوليفيه ص ٤٨.
١٢ ـ نفس المصدر ص ١٣٥.
١٣ ـ نفس المصدر ص ٢٠١ ـ ٢٠٣.
١٤ ـ نفس المصدر ص ١٢٥ و ١٧٧.
١٥ ـ راوولف ص ١٠٢ واوليفيه ص ٤٨ و ١٢٩.
١٦ ـ سورة البقرة آية ٥٧، الاعراف آية ١٦٠، طه آية ٨٠.
١٧ ـ اوليفيه ص ٤٨.
١٨ ـ Al — Ali, A. S. 1977. Phytophagous and entomophagous insects and mites of Iraq. Nat — Hist. Res. Cent., Pub no. 33, Baghdad. P. 88
١٩ ـ راوولف ص ٤٨.
٢٠ ـ القزويني، زكريا ١٣٦٧هـ. عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات (مطبوع على هامش حياة الحيوان الكبرى للدميري). القاهرة. جـ ١ ص ٢٣٨.
٢١ ـ بنفس المصدر. ٢٢ ـ اوليفيه ص ١٣٩ ـ ١٤٠.
٢٣ ـ نفس المصدر ص ٢١٦. ٢٤ ـ نفس المصدر ص ١٥٦.
٢٥ ـ راوولف ص ١٠٠. ٢٦ ـ اوليفيه ص ١٣٤.
٢٧ ـ راوولف ص ١٧٧. ٢٨ ـ اوليفيه ص ١٥٦.
٢٩ ـ راجع كتاب ضواري الطير للغطريف بن قدامة الغساني. معهد تاريخ العلوم العربية والاسلامية، فرانكفورت. ٣٠ ـ اوليفيه ١٥٦. ٣١ ـ ٢٥٦/٧. ٣٢ ـ اللوس بشير ١٩٦٠ ـ ١٩٦٢. الطيور العراقية. بغداد. جـ ٢ ص ٢١٥ ـ ٢٢٢. ٣٣ ـ الشيخ حسين، عادل محمد علي ١٩٨٨. علم البريد عند العرب. الندوة القومية الاولى لتاريخ العلوم عند العرب، مركز احياء التراث العلمي العربي، بغداد ص ٥.
٣٤ ـ الحنيظ عماد محمد ذياب ١٩٨٦. الآفات الزراعية آفاقها وسبل مكافحتها في العراق. وزارة الزراعة والاصلاح الزراعي، بغداد ص ٧٢.
٣٥ ـ اوليفيه ص ١٥٦. ٣٦ ـ الدميري، كمال الدين ١٣٦٧هـ حياة الحيوان الكبرى. القاهرة. جـ ١ ص ٣٣٤.
٣٧ ـ اوليفيه ص ١٥٦. ٣٨ ـ نفس المصدر ص ١٣٦.
٣٩ ـ اللوس جـ ٣ ص ٢١٣ ـ ٢١٦. ٤٠ ـ اوليفيه ص ١٣٣.
٤١ ـ اللوس جـ ٢ ص ٢٥٩ ـ ٢٦٣. ٤٢ ـ راوولف ص ١٠٠.
٤٣ ـ اوليفيه ص ٢٢٩. ٤٤ ـ اللوس جـ ١ ص ٨٦.
٤٥ ـ القزويني جـ ٢ ص ٢٩٢. ٤٦ ـ راوولف ص ١٧٨.
٤٧ ـ ولستيد ص ٨٤. ٤٨ ـ اوليفيه ص ١٥٥.
٤٩ ـ نفس المصدر ص ١٣٧ ٥٠ ـ نفس المصدر ص ١٥٦.
٥١ ـ نفس المصدر ص ١٣٨. ٥٢ ـ نفس المصدر ص ١٣٨ ـ ١٣٩.
٥٣ ـ نفس المصدر ص ١٣٨. ٥٤ ـ راجع اوليفيه ص ٦٧ و ٢٢١، وراوولف ص ١٧٩، وولستيد ص ٨٤. ٥٥ ـ اوليفيه ص ١٥٥.
٥٦ ـ راجع اوليفيه ص ١٩٣ ـ ١٩٤ و ١٩٩، وراوولف ص ١٧٨، وولستيد ص ٤٦.
٥٧ ـ Mahdi, N. and George, P. V. 1969. A Systematic list of the vertebrates of Iraq. Iraq Nat. Hist. Mus., Pub. no 26, Baghdad. P. 78
٥٨ ـ اوليفيه ص ١٥٦. ٥٩ ـ الحنيظ ص ٦١. ٦٠ ـ اوليفيه ص ٥٤.
٦١ ـ نفس المصدر ص ٢٢٩. ٦٢ ـ الحنيظ ص ٦٢.

رحلات علمية قام بها فلاسفة وعلماء الى الموصل من المشرق والمغرب

دراسة
د. عادل البكري
الجامعة المستنصرية / كلية الطب

الموصل احدى قواعد بلاد العرب المهمة ولها تاريخ حافل بالمآثر فقد كانت محط رحال الركبان ومنها يقصد الى جميع البلدان، وهي باب العراق كما انها تصل بين الشرق والغرب لذلك سميت بالموصل.[1] وكان أول من اختطها ومصّرها واسكنها العرب الفاتحين هو عرفجة بن هرثمة البارقي.[2] ومنذ ذلك الوقت اصبحت الموصل مركزاً من مراكز الحضارة العربية ومقصداً للزوار والرحالة والسائحين على مرّ العصور. فقد زارها الرحالة ابن جبير سنة ٥٨٠ هـ وقال عنها انه مدينة عتيقة ضخمة حصينة فخمة كادت ابراج سورها تلتقي انتظاماً لقرب مسافة بعضها من بعض. وزارها ابن بطوطة في الثلث الاول من القرن الثامن الهجري ووصفها بمثل هذا الوصف. وزارها الشيخ مصطفى بن كمال الدين الصديقي في القرن الثاني عشر الهجري وذكرها بكتابه المسمى (كشف الصدا وغسل الران في زيارة العراق وما والاها من البلدان) ـ نسخة خطية مصورة ـ كما زارها من الاوربيين وغيرهم كل من ليونهارت راوولف سنة ١٥٧٥ م وتافرنييه سنة ١٦٤٤ م ونيبور سنة ١٧٦٦ م ودومينيكو لانزا سنة ١٧٧١ م وابو طالب خان سنة ١٧٩٩م والمنشي البغدادي سنة ١٨٢٢ م وغير هؤلاء من الرحلة والسياح وكتبوا مذكراتهم عنها.

غير ان الموصل كما اشتهرت بأسوارها واسواقها وابنيتها وصناعاتها وفنونها فقد اشتهرت بمدارسها وعلومها وعلمائها. وقد ازدهرت الحركة العلمية في الموصل على ايدي الاتابكة وانشئت فيها مدارس عدة ودور قرآن. وقد ذكر سبط ابن الجوزي انه كان في الموصل سنة ٦٦٠ هـ ٢٨ مدرسة و ١٨ داراً للحديث و ٢٧ رباطاً. ومن هذه المدارس نذكر:

١ ـ المدرسة النظامية: بناها نظام الملك السلجوقي (٤٠٨ ـ ٤٨٥ هـ) قرب الجامع النوري وأول من درّس بها القاضي ابو بكر محمد بن علي الخالدي المعروف بالسديد قاضي الموصل، ولا تزال آثارها باقية[3].

٢ ـ المدرسة الاتابكية العتيقة: بناها سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي ودفن فيها بعد موته سنة ٥٤٤ هـ وكانت المدرسة من احسن المدارس واوسعها وهي مخصصة للفقه الشافعي والحنفي[4].

٣ ـ المدرسة الكمالية: بناها زين الدين ابو الحسن علي بن بكتكين المتوفي سنة ٥٦٣ هـ، وسميت بالكمالية نسبة الى كمال الدين بن يونس الذي قام بالتدريس فيها[5].

٤ ـ المدرسة الزينية: بناها زين الدين بن بكتكين الذي تقدم ذكره، وكان محباً للخير وترك كثيراً من المباني والاوقاف.

٥ ـ المدرسة العزّية: بناها عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود (٥٧٦ هـ ـ ٥٨٩ هـ) بباب دار المملكة وخصصها لتدريس الفقه الشافعي والحنفي[6].

٦ ـ المدرسة النورية: بناها نور الدين ارسلانشاه بن عزّ الدين مسعود الاول (٥٨٩ ـ ٦٠٧ هـ) مقابل دار المملكة، واوقف لها الوقوف الكثيرة ويقول عنها ابن خلكان (قلّ أن توجد مدرسة في

حسنها[٧]

٧ ـ المدرسة الكمالية القضوية: بناها ابو الفضل محمد بن ابي القاسم الشهرزوري الفقيه الشافعي (٤٩٢ هـ ـ ٥٧٢هـ) من اشهر علماء الدولة الاتابكية وقضاتها.

٨ ـ المدرسة اليوسفية: لتدريس فقه الامام الاعظم ابي حنيفة. وقد ورد ذكرها في الجواهر المضية لابن ابي الوفاء.

٩ ـ المدرسة القاهرية: بناها القاهر عز الدين مسعود (٦٠٨ هـ ـ ٦١٥ هـ) وبنى له تربة دفن فيها بعد موته وتقع قريباً من الباب العمادي.

١٠ ـ المدرسة المجاهدية: نسبة الى مجاهد الدين قيماز وتقع جنوب المدينة بالقرب من الجامع المجاهدي والمارستان[٨].

١١ ـ المدرسة المهاجرية: شيدها ابناء مهاجر مع دار للحديث قريباً من نهر دجلة.[٩]

وكان يدرس في هذه المدارس جماعة من كبار العلماء الذين ذاعت شهرتهم في اقاصي البلاد حتى ضربت اليهم آباط الابل وجاءهم الدارسون من كل مكان فكان بينهم الفلاسفة والعلماء والاطباء والفلكيون والرياضيون والشعراء والمتصوفة يتلمذون على هؤلاء العلماء في مدارسهم، وقد أرخ لهم المؤرخون وذكروهم مع من زار هذه المدينة أو اقام فيها، ومنهم:

١ ـ الطبيب الفيلسوف عبداللطيف البغدادي:

وقد قام البغدادي برحلته الى الموصل عام ٥٨٥ هـ من أجل ان يلتقي مع عالمها وفيلسوفها المعروف كمال الدين بن يونس بن منعة الذي كان أوحد زمانه في العلوم العقلية والرياضيات. وكان البغدادي كما يقول ابن ابي اصيبعة معجباً بنفسه وينتقص الفضلاء من العلماء الذين في زمانه، فيقول عن رحلته هذه انه لم يبق من يأخذ بقلبه ويملأ عينه من العلماء أحد لذلك قرر السفر الى الموصل ليجد بغيته في كمال الدين بن يونس. وعندما وصل الموصل اقام في مدرسة ابن مهاجر (المدرسة المهاجرية التي ذكرناها قبل قليل) والتقى بكمال الدين بن يونس فوجده (جيداً في الرياضيات والفقه متطرفاً من باقي اجزاء الحكمة، قد استغرق عقله ووقته حب الكيمياء وعملها حتى صار يستخف بكل ما عداها)[١٠]. وبقي في الموصل سنة كاملة في اشتغال دائم متواصل اطلع خلالها على تصانيف ابن منعة وابتدأ بتأليف كتاب اسمه (غريب الحديث الكبير)[١١]

٢ ـ علم الدين قيصر بن ابي القاسم المصري: وكان اماماً في علوم الرياضيات في مصر وبلاد الشام وتولى التدريس في المدرسة النورية بدمشق، وقد سمع بكمال الدين بن يونس بن منعة فاراد الانتساب في الدراسة اليه كما يقول فرحل الى الموصل قصد الاجتماع به. ويحدثنا عن التقائه بكمال الدين بن يونس فيقول: «سافرت الى الموصل قصد الاجتماع به، فلما حضرت في خدمته وجدته على حلية الحكماء المتقدمين، وكنت قد طالعت اخبارهم، فسلمت عليه وعرفته قصدي له للقراءة عليه. فقال لي: في اي العلوم تريد تشرع ؟ فقلت: في الموسيقى. فقال: مصلحة هو، فلي زمان ما قراه أحد علي، فانا اؤثر مذاكرته وتجديد العهد به. فشرعت فيه ثم في غيره حتى شققت عليه اكثر من اربعين كتاباً في مقدار ستة اشهر... وكان اذا لم اعرف المسألة اوضحها لي، وما كنت اجد من يقوم مقامه في ذلك»[١٢].

٣ ـ ثاذري الفيلسوف الانطاكي الطبيب: يقول عنه ابن العبري انه اتقن اللغة السريانية واللاطينية (اللاتينية) وعلوم الاوائل، وشد الرحال الى الموصل ليدرس ايضاً على كمال الدين بن يونس فقرأ عليه مصنفات الفارابي وابن سينا وحل اقليدس والمجسطي. ثم عاد الى انطاكية ولم يطل بقاؤه فيها فقد وجد نفسه بحاجة الى ان يكمل تحصيله فرجع ثانية الى الموصل وقصد ابن يونس ودرس المزيد من العلوم ثم درس علم الطب في بغداد.

وبعد أن انتهى من ذلك قصد السلطان علاء الدين ولم تطل اقامته عنده اذ رحل الى فريد ريكوس الثاني ملك الفرنج فأكرمه واقطعه مقاطعة. فلما صلح حاله وكثر ماله اشتاق الى بلده وأهله فاستأذن من الملك بالسفر فلم يأذن له واجبره على البقاء الى ان امكنته الفرصة بخروج الملك في بعض غزواته فجمع امواله وركب سفينة كان قد أعدّها لهربه وابحر مع خَدَمِه قاصدين عكا. فبينا هم في البحر اذ هبت عليهم ريح رمت بهم الى مدينة كان الملك قد ارسى فيها لبعض شؤونه فلما علم ثاذري بوجود الملك في هذه المدينة فضل الموت على الحياة خجلا من موقفه مع الملك وتناول سماً كان معه ومات ضحية حبه لبلده.[١٣]

٤ ـ الحكيمان نجم الدين القمراوي وشرف الدين المتاني، وهما من قريتين من قرى صرخد جنوب الشام، اشتغلا بالعلوم الشرعية والحكمية. فلما تميزا واشتهر فضلهما عزما على السفر الى الموصل للدراسة فيها. وعند وصولهما قصدا الشيخ كمال الدين بن يونس وهو في المدرسة يلقي الدرس، فسلما وقعدا مع الفقهاء. ولما جرت مسائل بينهم تكلما فيها وبحثا في اصولها وبان فضلهما على اكثر الحاضرين، فاكرمهما الشيخ وادناهما. ولما كان آخر النهار سألاه ان يريهما كتاباً له كان قد الفه في الحكمة وفيه لغز. فامتنع وقال: هذا كتاب لم اجد

أحداً يقدر على حله وأنا ضنين به. فقالا له نحن قوم غرباء وقد قصدناك ليحصل لنا الفوز برؤيتك والوقوف على هذا الكتاب، ونحن باقيان عندك في المدرسة ونريد أن نطالعه هذه الليلة ونعيده اليك في الصباح، وتكلما كلاماً لطيفاً معه فاخرج الكتاب اليهما. فانصرفا تلك الليلة بكاملها الى دراسته وفهم معانيه ولم يناما قط. وكان كل واحد منهما يملي على الآخر وهو يكتب حتى فرغا من كتابته وقابلاه مع الأصل. وعند طلوع النهار تبين لهما حل اللغز الذي فيه. فحملا الكتاب الى الشيخ وهو في الدرس. فجلسا وقالا: يامولانا ما طلبنا الا كتابك الكبير الذي فيه اللغز، وأما هذا الكتاب فنحن نعرف معانيه من زمان وإن اللغز الذي فيه نعرفه من قديم وإن شئت ذكرناه لك. فقال لهما: قولا حتى اسمع. فتكلما بما جاء في الكتاب وأوردا جميع معانيه من أول الكتاب الى آخره، وذكرا حل اللغز الذي فيه، فتعجب الشيخ منهما وقال: من أين تكونان ؟ قالا: من الشام قال من اي موضع منه ؟ قالا: من حوران. فقال: لا اشك أن أحدكما نجم الدين القمراوي والآخر شرف الدين المتاني. قالا نعم. فقام لهما الشيخ واضافهما عنده واكرمهما غاية الاكرام حتى اكملا درسهما عليه ورجعا الى بلادهما.[14]

٥ ـ ابو علي القالي صاحب كتاب الامالي: وهو اسماعيل بن القاسم اللغوي البغدادي، كان احفظ اهل زمانه اللغة والشعر والنحو وله عدد من المؤلفات من اهمها (الامالي في لغة العرب) وكتاب (البارع) الذي رتبه على حروف المعجم وكتاب (مقاتل الفرسان). طاف البلاد للدراسة على علمائها ثم رحل الى الموصل واقام فيها لسماع الحديث من ابي يعلي الموصلي الحافظ الثقة المشهور، المتوفي سنة ٣٠٧ هـ ثم غادرها الى بغداد سنة ٣٠٥ هـ ومنها الى قرطبة التي استوطنها والف اكثر كتبه فيها. وقد مدحه الشاعر يوسف بن هارون بقصيدة بديعة جاء فيها:

في اي جارحة اصون معذّبي	سلمتْ من التعذيب والتنكيل
وثلاث شيباتٍ نزلن بمفرقي	فطمتُ ان نزولهن رحيلي
فعزلنني عن صبوتي فلئن ذللت	لقد سمعتَ بذلة المعزول
روض تعاهده السحاب كانه	متعاهد من عهد اسماعيل

وقد توفي ابو علي القالي في قرطبة سنة ٣٥٦ هـ ودفن فيها.[15]

٦ ـ ابو حامد التبريزي: ذكره ابن المستوفي فقال هو أبو حامد محمد بن رمضان بن عثمان التبريزي الفقيه الزاهد الصالح الورع، إمام ائمة الزهد.[16] رحل الى اربيل ومنها الى الموصل فنزل في المدرسة المجاهدية جنوب المدينة فزاره وجوه المدينة وعلماؤها وسمع الناس عنه الحديث، وكان شيخاً كبيراً طويلاً قد انهكته العبادة وبلغ منه الاجهاد. وذكرت له عين القيارة التي في جنوب الموصل وهي عين على دجلة يخرج منها ماء حار يزعم الناس انه يرطب الجسم[17]، فنزل الى تلك العين ورآه ابن المستوفي فقال: « فرايته عرياناً فيها، وهو ـ رحمه الله ـ جلدة يابسة على عظام نحيفة. وكان لطيف الاخلاق، غير نافر من احد على ما به من الضعف والكبر ».[18]

وبعد اقامة ابي حامد في الموصل رجع الى بلده تبريز وكانت وفاته فيها بعد سنة ٥٨٨ هـ وقبره هناك.

٧ ـ ابو الحرم مكي بن ريان الماكسيني النحوي: من بلدة ماكسين على نهر الخابور، نشأ فيها فقيراً فهجرها لشدة فقره ولقي عدداً من شيوخ النحو واللغة والحديث، وقصد الموصل واشتغل بعلم القرآن والادب، فعرفه الناس وذاع صيته، ومن شعره قوله:

سئمت من الحياة فلم اردها	تسائلني وتشجيني بريقي
عدوي لا يقصّر في اذاتي	ويفعل مثل ذلك بي صديقي
وقد اضحت لي الحدباء داراً	واهل مودتي بلوى العقيق

وعندما اشتاقت نفسه الى بلدته عاد اليها. وكان جيرانه ومعارفه القدماء يسمونه (مكيك) عندما كان صغيراً، وهو تصغير مكي. فعندما وصل بلدته سمع الناس برجوعه ففرحوا به وصاروا يزورونه. وبات تلك الليلة فلما كان وقت السحر خرج الى حمام السوق وبينما هو في طريقه سمع امرأة في غرفتها تقول

لاخرى: ما تدرين من جاء ؟

فقالت: لا

قالت: مكيك ابن فلانة !

فلما سمعها قال: والله لا اقعد في بلد ادعى فيه مكيك. وسافر حالاً بعد ان كان قد نوى الاقامة بها، وعاد الى الموصل وبقي فيها حتى وفاته سنة ٦٠٣ هـ ودفن بصحراء باب الميدان في مقبرة المعافى بن عمران[19].

٨ ـ الطبيبان مهذب الدين بن الحاجب وموفق الدين عبد العزيز السلمي، من أهل دمشق، درسا الطب فيها. فأما اولهما فقد اشتهر بالهندسة وصناعة الساعات في اول امره ثم درس الطب على مهذب الدين بن النقاش واشتغل في المستشفى النوري بدمشق وخدم تقي الدين عمر صاحب حماة. وأما الثاني موفق الدين عبد العزيز فقد كان في اول امره فقيها في المدرسة الامينية ثم درس الطب على ابن المطران وتميز به

واشتغل ايضاً بالمستشفى النوري ثم خدم الملك العادل بن ايوب. ولما راى هذان الطبيبان حاجةً الى اكمال دراستهما في الطب قررا السفر الى الموصل للدراسة على شرف الدين الطوسي وكان اوحد زمانه في الحكمة وكان يقيم في الموصل. وعندما سافرا للاجتماع به والدراسة عليه وجداه قد غادر الموصل الى مدينة طوس فضاعت عليهما فرصة الدراسة عليه. فاقاما مدة هناك ثم سافر ابن الحاجب الى اربل وكان بها فخر الدين بن الدهان فدرس عليه وحلّ معه الزيج الذي كان قد صنعه ابن الدهان ونقله بخطه، ورجع الى دمشق للاشتغال بالطب وكانت وفاته بحماة اثناء اقامته عند صاحبها الملك المنصور لاصابته بمرض الاستسقاء.

اما موفق الدين عبد العزيز فقد رجع الى دمشق وبقي في خدمة الملك العادل بن ايوب وكان ينال منه المال والتكريم حتى اصيب بمرض القولنج فتوفي سنة ٦٠٤ هـ ودفن بجبل قاسيون وهو في الستين من عمره.[٢٠]

٩ ـ ابو الوليد سليمان بن خلف الباجي، من مدينة باجة في الاندلس، وكان كثيرٌ من الرحالة الاندلسيين والمغاربة قد زاروا الموصل كما زارها المشارقة، فاقاموا فيها ودرسوا على علمائها. وابو الوليد الباجي هو احد علماء الاندلس ومحدثيها الذين رحلوا الى المشرق. فتوجه نحو مكة سنة ٤٢٦ هـ ليقيم فيها ثلاث سنوات ثم يرحل بعدها الى بغداد فالموصل، واقام في الموصل يَدْرس الفقه على ابي جعفر السمناني.[٢١]

ومما يذكر عن ابي الوليد الباجي انه كان فقيهاً شاعراً عالماً صلب العود، فبعد مغادرته الموصل وعودته الى الاندلس اثارَ العامة عليه بمناظرته لابي بكر الصائغ في قضية امية الرسول الاعظم (ص) في حديث الكتابة يوم (الحديبية) الذي ورد في احاديث البخاري، وصنف ابو الوليد رسالة بيّن فيها ان ذلك لا يقدح في معجزات الرسول.[٢٢]

ومما يروى عنه انه كان في ايام طلبه للعلم يؤجر نفسه لحراسة الدروب لشدة فقره وحاجته. وقد جرت في ذلك مناظرة بينه وبين ابن حزم الظاهري تبين همة كل منهما في طلب العلم:

قال ابو الوليد يخاطب ابن حزم: انا اعظم منك همة في طلب العلم لانك طلبته في اكتفاء وثروة تعينك عليه وتسهر بمشكاة من الذهب. وطلبتُه وانا اسهر بقنديل خافت.

فقال ابن حزم: هذا الكلام عليك لا لك، لانك طلبت العلم وانت في تلك الحال وترجو تبديلها بمثل حالي وانا طلبته في غنى، فلا ارجو به الا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة.

ومن شعر ابي الوليد قوله:

لله ايام الشباب وحسنها ... وغصونهن المائساتُ الميَّدُ
اتقنص الظبيات في سبل الصبا ... فيصيدهن لي العذار الاسودُ

وقد توفي ابو الوليد الباجي بالمرية في الاندلس سنة ٤٧٤ هـ ودفن بالرباط.

١٠ ـ ابو عبدالله محمد بن احمد الزهري، وهو اندلسي ايضاً خرج من الاندلس ورحل الى بلاد المشرق واقام مدة في الموصل للدراسة وطلب الحديث، وسمع وكتب، ثم رحل الى بلاد العجم فاقام في بلدة الكَرَج ولكنه كره الاقامة فيها فهجاها بقوله:

انا مأسور بحيطان الكَرَج ... في عناءٍ اسأل الله الفَرَج
ليس بالمغبوط من يسكنها ... انما المغبوط من منها خرج

وقال يصف محبرة لها غطاء من نحاس:

جاءتك من عدد العلا زنجية ... في حلة من حلية تتبختر
سوداء صفراء الحليّ كأنها ... ليلٌ تطرزه نجوم تزهر
خرساء إلّا حين يوضع ثَدْيها ... فتراه ينطق ما يشاء ويخبر

وللزهري شرح كتاب الايضاح وكتاب العتبي. وقد قتل التتر هذا العالم الاديب فمات شهيداً سنة ٦١٧ هـ.[٢٣]

١١ ـ الشيخ ابو بكر محمد بن علي الحاتمي الطائي الاندلسي، المعروف بمحي الدين بن عربي والملقب بالشيخ الاكبر، احد كبار المتصوفة في الاسلام ومن ائمة المتكلمين في كل علم. ولد في مرسية في الاندلس وانتقل الى اشبيلة وقام برحلة الى تونس والحجاز وبغداد والموصل والشام. وفي الموصل عام ٦٠١ هـ كان الشيخ محي الدين بن عربي يدرس في مسجد العماد بن الجلادين وكانت به خزانة كتب موقوفة على اهل العلم، فقد درس على ثابت بن قره الحاوي. وقد ذكر ابن عربي انه قرا على استاذه هذا من كتبه التي الفها.[٢٤] وجاء ايضاً ان ابن عربي الف كتاباً في الجامع النوري بالموصل سماه (التنزلات الموصلية في اسرار الطهارات والصلوات والايام الاصلية).[٢٥]

وقد اختلف الناس في ابن عربي فمنهم من انكر عليه آراءه واقواله حتى دعا الى اباحة دمه، ومنهم من رفعه الى مرتبة الاولياء الصالحين. وقد استقر ابن عربي في دمشق وتوفي فيها عام ٦٣٨ هـ ودفن في الصالحية على سفح جبل قاسيون.

١٢ ـ الامام محمد بن عبد الوهاب النجدي التميمي، صاحب الحركة الاصلاحية السلفية المعروفة باسمه، وهو من ابرز الشخصيات التي رحلت الى الموصل لطلب العلم والدراسة فيها خلال العصر المتأخر. وقد ولد محمد بن عبد الوهاب في

(العيينة) بنجد ورحل الى الحجاز فمكث في المدينة مدة قرأ خلالها على بعض علمائها. ثم رحل الى الشام والعراق والقى عصاه في الموصل ليستقر فيها ويدرس على علمائها المعروفين، وكان منهم آنذاك العلامة احمد الجميلي الموصلي.[26] وهو شاب يافع لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره، واخذ عنه الكثير.[27]

وكانت الموصل عندما وصلها محمد بن عبد الوهاب تخوض معركة فكرية حامية اثارها احد علمائها المجددين ويدعى أحمد بن الكولة الموصلي حول نبوة جرجيس الذي يقول عنه الناس في الموصل انه احد الانبياء بينما انكر ابن الكولة نبوته وقال انه رجل صالح لا يجوز التوسل بقبره للحصول على الرزق وانجاب الذرية او غير ذلك فاثار بقوله عامة الناس فتألبوا عليه وشكوه الى والي الموصل الحاج حسين باشا الجليلي فارسل اليه (يامره بالتوبة من هذا الانكار)[28] ولكن ابن الكولة استمر في حملته ضد البدع والضلالات والتوسل بالقبور والاضرحة حتى ادركته الوفاة سنة ١١٧٢ هـ (١١٥٩ م) فقام ابنه الشيخ محمد بحمل لواء الحركة، وكان هذا مفرط الذكاء متقناً لكثير من الفنون فالتف حوله كثير من المثقفين يؤيدونه في دعوته وانقسم الناس الى فريقين متناحرين يدعم كل فريق حجته بالمؤلفات والقصائد والخطب فكان ذلك باعثاً لحركة التاليف والكتابة وانتشار الافكار السلفية التي تدعو الى استنكار التوسل بالقبور ووضع الستور والعمائم عليها والاستعانة بها من دون الله في طلب قضاء الحوائج وغير ذلك من البدع التي دخلت الدين الاسلامي.

ففي تلك الفترة من تاريخ الموصل والتي بلغت الحركة السلفية فيها اوجها كان محمد بن عبد الوهاب في الموصل يتلقى العلم في مدارسها وقد عاش احداث تلك الحركة التي اثرت في نفسه واسهمت في بناء دعوته الاصلاحية فيما بعد[29]، حيث رجع الى بلاده وتزعم حركة الاصلاح الديني في بلاد نجد حتى كانت وفاته سنة ١٢٠٦ هـ (١٧٩٢ م).

الهوامش والمصادر

(١) معجم البلدان - شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي - القاهرة ١٣٢٣ هـ - ج ٨ ص ١٩٥.

(٢) تاريخ الامم والملوك - محمد بن جرير الطبري - مطبعة الاستقامة - القاهرة ١٣٥٧ هـ - ج ٣ ص ١٤٢.

(٣) تاريخ الموصل - سعيد الديوهجي - بغداد ١٩٨٢ - ص ٣٤٤.

(٤) المصدر السابق - ص ٣٤٤.

(٥) وفيات الاعيان - شمس الدين بن خلكان - تحقيق احسان عباس - دار الثقافة بيروت - ج ٥ ص ٣١١.

(٦) التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل - ابن الاثير الجزري - تحقيق عبد القادر طليمات - القاهرة - ص ١٨٩.

(٧) وفيات الاعيان - ج ١ ص ١٩٣.

(٨) تاريخ الموصل - الديوهجي - ص ٣٤٩. (٩) المصدر السابق - ص ٣٥٠.

(١٠) عيون الانباء في طبقات الاطباء - موفق الدين احمد بن القاسم الخزرجي المعروف بابن ابي اصيبعة - بيروت ١٩٥٦ - ج ٣ ص ٣٣٤.

(١١) المصدر نفسه - ص ٣٣٥.

(١٢) وفيات الاعيان - ج ٥ ص ٣١٥.

(١٣) تاريخ مختصر الدول - غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري المتوفى سنة ٦٨٥ هـ - بيروت - دار المسيرة - ص ٢٧٣.

(١٤) عيون الانباء - ج ٢ ص ٣٣٨.

(١٥) وفيات الاعيان - ج ١ ص ٢٢٦.

(١٦) تاريخ اربل - شرف الدين ابو البركات المبارك بن احمد اللخمي المعروف بابن المستوفي - تحقيق سامي بن السيد خماس الصقار - بغداد ١٩٨٠ - ج ١ ص ١٣٦.

(١٧) وتسمى الآن (حمام العليل) ويقصدها الناس للاستشفاء بمياهها الكبريتية الحارة.

(١٨) المصدر السابق.

(١٩) وفيات الاعيان - ج ٥ ص ٢٧٨.

(٢٠) عيون الانباء - ج ٣ ص ٢٩٨ و ص ٣١٤.

(٢١) وفيات الاعيان - ج ٢ ص ٤٠٨.

(٢٢) نفح الطيب - احمد بن محمد المقّري التلمساني - بيروت دار صادر - الطبعة الاولى - ١٩٦٨ - ج ٢ ص ٦٨.

(٢٤) تاريخ اربل - ابن المستوفي - ج ١ ص ٨٩.

(٢٤) نفح الطيب ج ١ ص ٤٠٤، وفوات الوفيات ج٢ ص ٢٤١، وجامع كرامات الاولياء ج ١ ص ١١٨، وشذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٠.

(٢٥) فهرست المخطوطات المصورة - فؤاد سيد.

(٢٦) الشيخ احمد الجميلي الموصلي، فقيه وقته وعالم عصره، وقد تولى التدريس في مدرسة جامع الباشا وتتلمذ عليه كثير من علماء الموصل، توفي سنة ١١٧٠ هـ (١٧٥٦ م) ودفن في تربة الامام عون الدين. ترجمته في (منهل الاولياء) لمحمد امين العمري (ج١ ص ٢٧١) و (السيف المهند) لياسين بن خير الله العمري و (شمامة العنبر) لمحمد بن مصطفى الغلامي - ص ٣٣٥.

(٢٧) غرائب الأثر في حوادث القرن الثالث عشر - ياسين بن خير الله العمري - تحقيق الدكتور محمد صديق الجليلي - الموصل ١٩٤٠ - ص ٣٤.

(٢٨) الموصل في العهد العثماني - عماد عبد السلام رؤوف - النجف ١٩٧٥ - ص ٤٠٩.

(٢٩) المصدر السابق - ص ٤١٥.

ما تبقى من
رحلة احمد بن الطيّب السرخسي

دراسة وتحقيق
هدى شوكة بهنام

المقدمة :

يتميز ادب الرحلات بأهمية خاصة لانه يكشف عن جوانب كثيرة للمناطق التي تحيط بها كتب الرحلات كما ان تلك المصنفات تعد نوعا من السيرة الذاتية لكاتبها لما تضمه من ملاحظات ومشاهدات ، ومن بين الرحلات التي لها اهميتها التاريخية الرحلة التي قام بها احمد بن الطيب السرخسي الذي رافق المعتضد بالله قبل توليه الخلافة وذلك في سنة ٢٧١ هـ وذلك لحرب خارويه بن احمد الطولوني حيث دوّن فيها كثيرا من مشاهداته في الرحلة التي انطلقت من عاصمة الخلافة العباسية (بغداد) باتجاه الموصل ونصيبين ثم المدن الشامية الرئيسة حتى مدينة الرملة بفلسطين .

١ ـ حياة صاحب الرحلة

هو ابو العباس احمد بن محمد بن مروان السرخسي[١] ـ نسبة الى مدينة سرخس ـ درس على يد الفيلسوف يعقوب ابن اسحاق الكندي ، اتصل بالخلفاء العباسيين فكان احد مؤدبي احمد بن الموفق طلحة الذي اصبح فيما بعد خليفة باسم المعتضد بالله ، فاختص به واصبح احد منادميه الرئيسيين .

وقد اتسم ابن الطيب بحسن المعرفة وجودة القريحة وبلاغة اللسان وحسن العشرة كما كان مليح النادرة ظريفاً ذا اطلاع كبير في علوم اللغة والادب ، كما روى شيئا من الحديث النبوي[٢] وبرز في العلوم العقلية والنقلية[٣] ، واتسمت مصنفاته وتآليفه بجودتها[٤] وشمولها جوانب المعرفة المختلفة .

وكان المعتضد بالله يخصه باسراره ويستشيره بامور مملكته سواء أكان قبل توليه الخلافة او في اثنائها[٥] . لكن تلك العلاقة التي ربطت المعتضد بالسرخسي لم تستمر حتى النهاية بل انها اودت بحياة السرخسي نفسه ، فيذكر ابن النديم وابن ابي اصيبعة بخصوص السرخسي ان علمه قد غلب على عقله ، وقصة مقتله مذكورة في اغلب المصادر التي ترجمت له[٦] .

وكان ابن الطيب قبيل مقتله يتولى الحسبة والمواريث وسوق الرقيق وذلك في سنة اثنين وثمانين ومائتين ، وبعد ذلك

بمام واحد غضب عليه المعتضد حيث عوقب بمئة جلدة وحوّل الى المطبق (السجن) ، وقتل في سنة ست وثمانين ومائة . ويشير ياقوت الى تسرع المعتضد في الحكم عليه وندمه لمقتله بعد ذلك[٦] .

وفيما يخص مؤلفاته فقد فصل بعض المؤرخين في ذكر قائمة طويلة منها تغطي جوانب العلوم المختلفة من فلسفة وطب وموسيقى وغير ذلك ، وهي تمثل جانباً من اهتمامات ابن الطيب ومعالجاته وتبين مدى الصلات الوثيقة التي كانت تربطه بالمعتضد اميرا وخليفه . فمما ألفه في الفلسفة اختصر بعضا من المصنفات اليونانية مثل كتاب قاطيغورياس وكتاب بارميناس وكتاب انالوطيقا الاولى والثانية . ومن امثلة كتب الطب ، صنف كتاب المدخل الى صناعة الطب ، ومقالة في البهق والنمش والكلف ، وفي الحسبة له كتاب الاغشاش وصناعة الحسبة الكبير ، وغش الصناعات ، وفي الموسيقى له كتاب اللهو والملاهي ونزهة المفكر الساهي في الغناء والمغنين والمنادمة والمجالسة وانواع الاخبار صنفه للخليفة المعتضد وله من العمر احدى وستون سنة . اضافة الى اشتغاله بالتصنيف في مجالات المعرفة الاخرى من ضمنها الرحلة التي هي موضوع دراستنا[٧] .

وعلى الرغم من كثرة مصنفاته الا انه لم يصلنا منها شيء بصورة أكيدة ولكن قد يكون كتاب آداب النفس من كلام سيد العرب والعجم الذي الفه للمعتضد الذي لايذكر مؤلفه[٩] ، وكتاب المسالك والممالك الذي يذكره ابن النديم بين مؤلفاته يعد من اقدم المحاولات للتأليف في الجغرافيا العملية[١٠] .

ويعد كراتشكوفسكي ابن الطيب نوعا نادرا من الكتاب في ميدان الادب العربي لجمعه بين الاهتمام بالفلسفة والعلوم الدقيقة من جهة والادب الفني من جهة اخرى ، وهو في ميدان الادب الجغرافي ينضم من ناحية الى المدرسة الرياضية الجغرافية ذات النزعة اليونانية ومن ناحية اخرى يهتم بالجغرافية الوصفية من طراز المسالك والممالك الذي يشير اليه المؤرخون من مثل المسعودي وياقوت الذي ينقل عنه كثيرا خاصة فيما يتعلق بعصر المعتضد الذي صحبه ابن الطيب في بعض اسفاره[١١] .

٢ ـ الرحلة من الناحية السياسية والعسكرية :

تعرضت الخلافة العباسية في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي الى اضطراب واسع النطاق لانفصال الاقاليم في شرقي الخلافة ومغربها وذلك نتيجة ضعف الخلافة وازدياد حركات المعارضة الخارجة على السلطة العباسية ، وقد برز ذلك بصورة واضحة في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري وذلك في خلافة المعتمد على الله التي بدأت منذ سنة ٢٥٦هـ ، واستمرت خلال عهد المعتضد بالله الذي تولى الخلافة سنة ٢٧٩هـ وتوفي سنة ٢٨٩هـ .

حين توفي احمد بن طولون مؤسس الامارة الطولونية في مصر وتولى بعده الحكم ابنه خمارويه ، فكر العباسيون مجدداً في كبح جماح الطولونيين ووقع الاختيار على ابي العباس احمد (الذي اصبح فيما بعد خليفة باسم المعتضد بالله) لقيادة الحملة وذلك لاتصافه بالشجاعة والمقدرة العسكرية[١٢] ، فخرج ابو العباس بالجيش العباسي ويرفقته احمد بن الطيب من بغداد في صيف سنة ٢٧١هـ/٨٨٤م سالكا طريقه الى جهة الموصل ونصيبين على ضفة دجلة الغربية فوصل الى حلب في شهر ربيع الثاني سنة ٢٧١هـ/ايلول ٨٨٤م . ومن حلب اتجه المعتضد الى قنسرين[١٣] ، ثم الى العواصم التي اخضعها المعتضد بعد استلامها[١٤] .

ثم توجه المعتضد صوب شيزر حيث اصطدم الجيش العباسي ببعض القوات التي كان على رأسها ابن كنداج حيث تمكن من هزيمته ثم نزل منها الى حماة وحمص ثم دمشق التي كان فيها قوة للطولونيين حيث لم تستطع الصمود امام جيش المعتضد فانهزمت صوب فلسطين ، وامضى المعتضد في دمشق مدة لاستكمال استحضاراته العسكرية وتنظيم امور وحاجيات جيشه[١٥] .

وفي الوقت الذي كانت جيوش العباسيين تروم دخول الشام كانت الاخبار قد وصلت الى مصر فعقد خمارويه بن احمد الطولوني العزم على ملاقاة الخليفة وقتاله لذا فقد خرج بجيش

كبير بولغ في عدده حيث قدرته بعض المصادر بحوالي سبعين الف جندي وذلك في ١١ صفر ٢٧١هـ/٨ آب ٨٨٤م(١٦) .

وبعد خروج جيش المعتضد من دمشق في عدد لايزيد عن اربعة آلاف جندي كانت قوات خمارويه قد اتخذت مواقعها في فلسطين في شمال بلدة الرملة على مجرى ماء يقال له الطواحين(١٧) حيث التقى الجيشان في ١٦ شوال ٢٧١هـ/ ٦ نيسان ٨٨٥م وكانت الغلبة اولا لجيش المعتضد ثم انقلب عليه الامر وصارت الغلبة لخمارويه فتفرق جيش المعتضد ومضى الى طرسوس مع نفر من اصحابه كما يروي الطبري(١٨) .

وهكذا اخفقت الحملة التي قادها المعتضد ، ولغرض التخفيف من نتائج المعركة على الجيش العباسي توجه المعتضد بجيشه صوب دمشق لغرض تعزيز سيطرة الخلافة العباسية عليها ، الا ان اهالي دمشق رفضوا فتح ابوابها فتركها متوجها صوب مناطق شمال الشام الساحلية قاصداً مدينة طرسوس(١٩) ، حيث لم يفلح المعتضد في بسط سيطرته على طرسوس وذلك بسبب تأييد واليها لخمارويه كما ان انتصاره زاد من موقعه في الشام علاوة على المساعدات التي كان يتلقاها من الطولونيين فخرج المعتضد من طرسوس يريد بغداد(٢٠) .

وفي رجوع المعتضد مرّ بمدن انطاكية وكيسوم وسميساط ثم عبر الفرات ، الا انه لم يمر بحلب وذلك لوجود خلاف بينه وبين حاكمها(٢١) ، وبعد ان اجتازت الرحلة الشام عادت الى العراق من الطريق نفسه الذي كانت قد سلكته في ذهابها عن طريق الموصل وصولا الى بغداد ، حيث كان دخول المعتضد الى بغداد في يوم ٢١ جمادى الأخرة سنة ٢٧٢هـ(٢٢) .

وبذلك اخفقت هذه الرحلة في تحقيق اهدافها الرئيسة في بسط نفوذ العباسيين على الشام ، والحد من نفوذ الطولونيين بل بالعكس ادت الحملة الى سيطرة الاخيرين على الشام مما دفع العباسيون الى الاقرار بالامر الواقع والاعتراف بسيادة كافور على الشام ، وبعد ارتقاء المعتضد الخلافة سنة ٢٧٩هـ تزوج الخليفة من بنت خمارويه قطر الندى وذلك في سنة ٢٨٢هـ(٢٣) .

٣ ـ ياقوت الحموي ونصوص رحلة ابن الطيب :

المعروف ان المصنف الخاص بالرحلة قد فقد وما وصلنا منها يبقى في حدود ما ضمنه ياقوت في معجمه ، ويبدو ان السبب الرئيس في ايراد ياقوت موادا كثيرة من رحلة ابن الطيب هو سبقها التاريخي وانفرادها بنصوص تاريخية وجغرافية مهمة لم ترد في كتب البلدان الاخرى ولهذا تم جمع تلك النصوص والنقولات من معجم ياقوت ، وذلك لما لها من اهمية لكونه شاهد عيان للنصف الثاني من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي . واذا كان ياقوت قد بلغ الاوج في فن المعاجم فإنه يمكن ان يعتبر السرخسي من اوائل من كتب في البلدان والرحلات .

ومما يجدر ذكره ان اسم ابي الطيب لم يرد في مقدمة معجم ياقوت حين اشار الى المصادر التي استعان بها في معجمه على الرغم من كثرة النصوص التي استقاها من الرحلة ، ونقله لجانب مهم من بعض فقراتها مطولاً حتى ان بعض تلك النقولات غلبت على مادة ياقوت او تعليقاته في بعض البلدان . الا انه اشار بصراحة واضحة في متن المواد التي نقلها عن السرخسي . اما الطريقة التي اشار اليها ياقوت في استخدامه للرحلة فقد تفاوتت صيغتها بين توضيح كامل لاستخدامه لها ، وبين الاشارات العرضية الواضحة لصاحب الرحلة ويمكن ان نحصر الصيغ التي افصح بها عن استخدامه للرحلة بالشواهد التالية :

١ ـ الاشارة الكاملة الى الرحلة وصاحبها كما في مادة (الكحيل) حيث يقول : (قال احمد بن الطيب السرخسي الفيلسوف . . . ذكر ذلك في رحلة المعتضد لحرب خمارويه في سنة ٢٧١هـ) . وكذلك في مادة (حوّار) و (سبسطية) .

٢ ـ الاشارة الكاملة الى صاحب الرحلة دون ذكر الرحلة ، كما في قوله في مادة (برقعيد) : (قال ذلك احمد بن الطيب السرخسي) ، وكذلك في مادة (الهرماس) و (ربض الدارين) و (الاردن) و (دمشق) ، و (البردان) . ثم الاكتفاء بذكر اسمه واسم ابيه دون نسبته اي (احمد بن الطيب) كما في مادة

(طرسوس) و (اودن) و (الرافقة) و (الأكام) و (الاسكندرونة) و (رأس العين) .

٣ ـ الاشارة الى النسخة الخطية التي رجع اليها ياقوت الحموي حيث نجده يقول في مادة (الخشبية) : « كذا نقلته من خط ابن كوجك عن احمد بن الطيب» .

وقد بلغ عدد المواد التي احال فيها ياقوت الى الرحلة (احدى وعشرين) مادة بلدانية ، لكننا لانستطيع ان نبحث عن مواد الرحلة الاخرى في مادة المعجم مادام ياقوت لم يشر الى ذلك صراحة ، مع العلم بان ياقوت شأنه شأن اي كاتب في تلك الحقبة التاريخية لم يكن بالضرورة يحيل الى المصادر في كل مواده البلدانية ، ومع ذلك يمكن القول ان ياقوت كان من بين رجال عصره القلائل الذين يتميزون بالاستخدام الواضح للمصادر ، وتطبيق القواعد الرئيسة لشروط البحث العلمي ومتطلباته ، لذا فلا غرابة ان تكون هناك مواد اخرى لم يصرح فيها بالاحالة الى رحلة السرخسي من ذلك مثلا ذكره لواقعة الطواحين حيث انتهت الرحلة فقال ياقوت « الطواحين : موضع قرب الرملة من أرض فلسطين الشام كانت عنده الوقعة المشهورة بين خمارويه ابن احمد بن طولون والمعتضد بالله ، انصرف كل واحد منهما مفلولاً كانت اولاً على خمارويه ثم كانت على المعتضد »(٢٤) وهناك ملاحظة اخرى ان ياقوت قد ركز على المواد البلدانية التي سلكتها الرحلة في ذهابها الى فلسطين ، واكتفى باشارات عرضية لطريق العودة كما في قوله في مادة طرسوس (رحلنا من المصيصة نريد العراق الى اذنه ومن اذنه الى طرسوس)(٢٥) .

يتضح مما سبق ان ما اورده ياقوت من رحلة السرخسي كان عبارة عن مجتزآت ، وهنا تكمن الصعوبة في ترتيب الرحلة وتحديد طريقها وضبطه بصورة جيدة خصوصاً في مناطق شمال الشام ، حيث يظهر من خلال اعتماد مادة الرحلة نفسها التي اوردها ياقوت وبالاستعانة بالمصادر التاريخية الاخرى عدم وجود خط سير مباشر وواضح في مناطق شمال الشام ، ويمكن ان نعزو ذلك الى الفشل والاخفاق الذي لحق بالخليفة جراء خسارته في المعركة واخفاقاته المتكررة في دمشق وطرسوس مما جعل مسيرته في تلك المناطق تتسم بالغموض على الرغم مما تفيض به الرحلة من ملاحظات حيوية لم تأت من كتاب وانما جاءت نتيجة مشاهدات ومعاناة متاعب الرحلة والطريق والمعركة .

ويمكننا القول ان خط سير الرحلة معروف وواضح من اللحظة الاولى لانطلاق المعتضد بجيشه الا ان خيط الرواية ينقطع في كثير من الاحيان ويضطرب احيانا اخرى تبعاً لاقتناص النصوص من قبل ياقوت ، فقد خرج السرخسي من بغداد مرافقا للمعتضد ماراً في طريقه على جميع المدن الواقعة على غرب دجلة باتجاه الموصل ، وطيلة هذه الرحلة لانجد اقتباسا من السرخسي الا في موضع واحد قبل وصوله الى الموصل اي ان النقل يبدأ من مدينة الكحيل التي تقع بين تكريت والموصل وبعد اجتياز الموصل تكثر النقولات عن الرحلة وخاصة في مواد برقعيد وأذرمة ونصيبين والهرماس ورأس العين والرقة والرافقة . وعلى الرغم من كل الصعوبات التي واجهتني في ترتيب خط مسار الرحلة . فقد حاولت اخيرا ترتيبها على اساس مواقع المدن في تلك الفترة التي كانت فيها الرحلة ، وقد استعنت بالاستاذ يوسف جرجيس الطوني لتوضيح مسار هذه الرحلة وتحديد مواقع المدن التي مرت بها فله كل الشكر والامتنان ، ومن الله التوفيق .

هوامش المقدمة

١ ـ سرخس : يقول ياقوت مدينة قديمة من نواحي خراسان كبيرة واسعة وهي بين نيسابور ومرو في وسط الطريق بينها وبين كل واحدة منها ست مراحل . (معجم البلدان طبعة دار صادر ، بيروت ١٩٥٧ ، ٣/٢٠٨)

٢ ـ عيون الانباء في طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة ، دار الفكر ، بيروت ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م ، ٢/١٩١ .

٣ ـ اخبار العلماء باخبار الحكماء لجمال الدين القفطي ، تصحيح محمد امين الخانجي ، مطبعة السعادة ١٩٠٨ ، ص ٥٥ .

٤ ـ الفهرست لابن النديم تح د. جوهانس روديجر و د. اوكست مولر ، بيروت ١٩٦٤ ، ١/١٦١ .

٥ ـ الأعلام لخير الدين الزركلي ط ٢ ـ ١/١٩٥ .

٦ - الفهرست ١/٢٦١ - ٢٦٢ . اخبار العلماء ٥٥ .
لسان الميزان لابن حجر العسقلاني ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات بيروت ط ٢ ، ١٩٧١م/١٣٩٠هـ ، ١/١٨٩ عيون الانباء ٢/١٩١ - ١٩٢ . مروج الذهب للمسعودي تح : محمد محي الدين عبد الحميد ط ٥ ، ١٩٦٧ ، ٤/٢٥٩ .

٧ - معجم الادباء ، مطبوعات دار المأمون ، ٣/٩٩ - ١٠٢ .

٨ - الفهرست ١/٢٦٢ ، عيون الانباء ٢/١٩٣ ، الزركلي ١/١٩٥ .

٩ - حاجي خليفة : كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون (الطبعة الاولى ١/٢٢٤ : ٣٤ ، الطبعة الثانية ١/٤٩ في مخطوط الاسكندرية : مواعظ ٤) .

١٠ - كرامرز ، ملحق دائرة المعارف الاسلامية ٦٥ ، تاريخ الادب العربي لبروكلمان ترجمة د. السيد يعقوب بكر و د. رمضان عبد التواب . دار المعارف بمصر ١٩٧٥ ، ٤/١٣٦ - ١٣٧ .

١١ - تاريخ الادب الجغرافي ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، القسم الاول ، موسكو ، ١٩٥٧ ، ١/١٣١ .

١٢ - مروج الذهب ٤/١٦٧ ، ١٨٢ - ١٨٨ .

١٣ - ينظر ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب تح : سامي الدهان ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ١٩٥١ ، ١/٨١ .

١٤ - ينظر الكندي : ابو عمر محمد بن يوسف ، كتاب الولاة والقضاة ، تح رفن كست ، بيروت ، ١٩٠٨ ، ص ٢٣٥ .

١٥ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٥ ، ٧/٤١٠

١٦ - كتاب الولاة والقضاة ص ٢٣٥ . وينظر ايضا ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة مصورة عن دار الكتب المصرية ٣/٥٠ .

١٧ - ابن الاثير ٧/٤١٤ .

١٨ - تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري ، تح محمد ابي الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر ١٩٦٩ ، ١٠/٨ الكامل في التاريخ ٧/٤١٤ - ٤١٥ .

١٩ - الكامل في التاريخ ٧/٤١٥ .

٢٠ - الطبري ١٠/٩ ، ١٨ ابن العديم ١/٨٢ .

٢١ - ابن العديم ١/٨٢ .

٢٢ - الطبري ١٠/٩ .

٢٣ - المصدر السابق ١٠/٣٠ ، ٣٩ .

٢٤ - معجم البلدان (طبعة دار صادر) ٤/٨٤٥

٢٥ - راجع مادة طرسوس .

نص رحلة
احمد بن الطيب السرخسي

الكُحيل[١] : « قال احمد بن الطيب السرخسي الفيلسوف : الكُحيل مدينة عظيمة على دجلة بين الزابين فوق تكريت من الجانب الغربي ، ذكر ذلك في رحلة المعتضد لحربه خمارويه في سنة ٢٧١ .

١ - ياقوت معجم البلدان ، تحقيق فردينانتد وستفلد ، طبع ليبزك ، ١٨٧٣ ، ٤/٢٤٠ وفيه : « الكُحَيل تصغير الكحل موضع بالجزيرة وكان له يوم للعرب . . . واما الان فليس هذه المدينة خبرٌ ولا أثر ، والكحيل في بلاد هليل » .

بَرْقعيد[١] : قال احمد بن الطيب السرخسي : برقعيد بلدة كبيرة من اعمال الموصل من كورة البقعاء وبها آبار كثيرة عذبة وهي واسعة وعليها سور ولها ثلاثة ابواب : باب بلد ، وباب الجزيرة ، وباب نصيبين ، وعلى باب الجزيرة بناءٌ لأيوب بن احمد وفيها مائتا حانوت .

١ - ياقوت ١/٥٧١ ، وفيه : «برقَعيد بالفتح وكسر العين وياء ساكنة ودال بليدة في طرف بقعاء الموصل من جهة نصيبين مقابل بافَزّى» . وفي بلدان الخلافة الشرقية تأليف لسترنج ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، مطبعة الرابطة ، بغداد ١٩٥٤ ، ص ١٣٠-١٣١ : «وعلى طريق نصيبين مما يلي باعيناثا : برقعيد ، وهي بلدة يضرب المثل باهلها في اللصوصية فكانت القوافل اذا نزلت بهم لقيت منهم الامرّين . وكانت في المئة الثالثة (التاسعة) بلدة كبيرة عليها سور ولها ثلاثة ابواب وفيها مئتا حانوت وبها آبار كثيرة عذبة وما حلت المئة السابعة (الثالثة عشرة) حتى تجنبتها اكثر القوافل لكثرة الاعاجيل اهلها فاصبحت قرية صغيرة حقيرة» .

أذْرَمَة[١] : قال احمد بن الطيب السرخسي الفيلسوف في كتاب له ذكر فيه رحلة المعتضد الى الرملة لحرب خُمارويه بن احمد بن طولون وكان السرخسي في خدمته ذكر فيه جميع ما شاهده في طريقه في مضيه وعَوده فقال ورحل يعني المعتضد من برقعيد الى أذرمة وبين المنزلين خمسة فراسخ وفي اذرمة نهر يشقُّها وينفذ الى آخرها والى صحرائها[٢] يأخذ من عين على رأس فرسخين منها وعليه في وسط المدينة قنطرة معقودة بالصخر والجص وعليه رحى ماء وعليها سوران واحد دون الأخر وفيها خرابات وسوق قدر مائتي حانوت ولها باب حديد ومن خارج السور خندق يحيط

بالمدينة وبينها وبين السُّميعية قرية الهيثم بن المعمر فرسخ عرضا وبينها وبين مدينة سنجار في العرض كورة تعرف بين النهرين بين كورة البقعاء ونصيبين ، ولم تزل هذه الكورة من اعمال نصيبين ، وأذرمة اليوم قرية ليس فيها مما وصف شيء .

١ - ياقوت ١/١٧٧ - ١٧٨ وفيه : وأذرمة بفتح اوله وسكون ثانيه وفتح الراء والميم قال احمد بن يحيى بن جابر : أذرمة من ديار بلاد ربيعة قرية قديمة اخذها الحسن بن عمر بن الخطاب التغلبي من صاحبها وبنى بها قصراً وحصنها »

وفي بلدان الخلافة الشرقية ص ١٣١ : ان أذرمة تقع في منتصف المسافة بين برقعيد ونصيبين ، وكانت مثل برقعيد كبيرا ، وهي من كورة تعرف بين النهرين ، وهنا يذكر لسترنج ان المعلومات التي استقاها عن هذه المدينة هي من رحلة ابن الطيب طبيب المعتضد .

٢ - في ياقوت : صحراها

نصيبين[1] : «وهي مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل الى الشام وفيها وفي قراها على ما يذكر اهلها اربعون الف بستان بينها وبين سنجار تسعة فراسخ وبينها وبين الموصل ستة ايام وبين دُنَيْسر يومان (و)[2] عشرة فراسخ ، وعليها سور وكانت الروم بَنَتْه وأتمه انو شروان الملك عند فتحه اياها وقالوا كان سبب فتحه اياها انه حاصرها وما قدر على فتحها فامر ان تُجمع اليه العقارب فحملوا العقارب من قرية تعرف بطيرانشاه من عمل شهرزور بينها وبين سمرداذ مدينة شهرزور فرسخ ، فرماهم بها في العرّادات والقوارير وكان يملأ القارورة من العقارب ويضعها في العرّادة وهي على هيئة المنجنيق فتقع القارورة وتنكسر وتخرج تلك العقارب ولا زال يرميهم بالعقارب حتى ضج اهلها وفتحوا له البلد واخذها عنوةً وذلك اصل عقارب نصيبين ، واكثر العقارب في جبل صغير داخل السور في ناحية من المدينة ومنه تنتشر العقارب في المدينة كلها ، ذكر ذلك كله احمد بن الطيب السرخسي في بعض كتبه» .

١ - ياقوت ٤/٧٨٧ - ٧٨٨ : «وفيه : نصيبين بالفتح ثم بالكسر ثم ياء وعلامة الجمع الصحيح ومن العرب من يجعلها بمنزلة الجمع فيعربها في الرفع بالواو وفي الجر والنصب بالياء والاكثر يقولون نصيبين ويجعلونها بمنزلة ما لا ينصرف من الاسماء»

في بلدان الخلافة الشرقية ص١٢٤ : تقع نصيبين في اعالي نهر الهرماس وهي من اعظم مدن الجزيرة شأنا ، وهي نسيبس الرومانية ، وقد زارها الرحالتان ابن جبير سنة ٥٨٠هـ وابن بطوطة في المئة الثامنة ووصفاها .

٢ - زيادة اقتضاها السياق

الهِرْماس[1] : الهِرْماس وهو نهر نصيبين مخرجه من عين بينها وبين نصيبين ستة فراسخ مسدودة بالحجارة والرصاص وانما يخرج منها الى نصيبين من الماء القليل لان الروم بَنَتْ هذه الحجارة عليها لئلا تغرق هذه المدينة ، وكان المتوكل لما دخل هذه المدينة سار اليها وامر بفتحها ففتح منها شيء يسير زيادة على ما هو عليه فغلب الماء عليه غلبة شديدة حتى امر باحكامه واعادته الى ما كان عليه بالحجارة والرصاص والى الآن هذه العين في اعلى المدينة وفاضل مائها[2] يصب الى الخابور ثم الى الثرثار ثم الى دجلة قال ذلك احمد بن الطيب الفيلسوف .

١ - ياقوت ٤/٩٦٢ وفيه : «الهِرْماس بالكسر وآخره سين مهملة والهرماس الأسد الجريء وقيل ولد النمر» .

وفي بلدان الخلافة الشرقية ص١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٤ ، ١٢٧ : ان مخرج نهري الهرماس وخابور نصيبين من جانب دجلة الغربي في سمت جزيرة ابن عمر كورة طور عابدين الجبلية ، ويصب في اسفل نهر الخابور الكبير ، ومياه نهر الهرماس نفسه تصب في يمين دجلة عند تكريت بعد ان تجري في واد يقال له الثرثار .

٢ - ياقوت : ماءها .

رَأسُ عَين[1] : وهي مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حرّان ونصيبين ودُنيسر وبينها وبين نصيبين خمسة عشر فرسخاً وقريب من ذلك بينها وبين حرّان وهي الى دنيسر اقرب ، بينهما نحو عشرة فراسخ ، وفي رأس عين عيون كثيرة عجيبة صافية تجتمع كلها في موضع فتصير نهر الخابور ، واشهر هذه العيون اربع : عين الآس ، وعين الصرار ، وعين الرياحية ، وعين الهاشمية ، وفيها عين يقال لها خسفة سلامة فيها سمك كبار ينظره الناظر كأن بينه وبينه شبرٌ ويكون بينه وبينه مقدار عشر قامات وعين الصرار هي التي نثر فيها المتوكل عشرة الآف درهم ، ونزل اهل المدينة فاخذوها لصفاء الماء ولم يُفقد منها شيءٌ فانه يبين مع عمقها ما في قعرها للناظر من فوقها وعمقها نحو عشرة اذرع وربما اخذ منها الشيء اللطيف لصفائها[2] ، كذا قال احمد بن الطيب . . . وقال احمد بن الطيب وفيها عين مما يلي حرّان تسمى الزاهرية كان المتوكل نزلها وبنى بها بناءً وكانت الزواريق الصغار تدخل الى عين الزاهرية والى عين الهاشمية ، وكان الناس يركبون فيها الى بساتينهم والى قرقيسياء ان

شاءوا . . . وقال وبالقرب من عين الزاهرية عين كبريت يظهر ماؤها[3] اخضر ليس له رائحة فتجري في نهر صغير وتدور به ناعورة يجتمع مع عين الزاهرية في موضع واحد فيصبان جميعاً من موضع واحد في نهر الخابور» .

١ ـ ياقوت ٢/٧٣١ ـ ٧٣٢ . وفيه «ويقال رأس العين»
وفي بلدان الخلافة الشرقية ص ١٢٥ : «وكانت رأس عين قرب منابع الخابور ، وهي رأس اينا الرومانية على نهر خابوراس مشهورة بكثرة عيونها البالغة ٣٦٠ عينا على ما يقال . وتجتمع هذه العيون فتسقي بساتينها وتجعلها كأنها بستان واحد ، وقد مر بها ابن جبير سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) » .
(ويلاحظ على كلام لسترنج عن اصل كلمة رأس عين انها آرامية الاصل من ريش اينا)
٢ ـ ياقوت : لصفائها .
٣ ـ ياقوت : مائها .

باجَدّا[1] : وقال احمد بن الطيب : عليها سور ، وكان مسلمة ابن عبد الملك اقطع موضعها رجلا من اصحابه يقال له أُسيد السُّلَمي فبناها وسوّرها ، وفيها بساتين تسقيها عين تنبع من وسطها يشربُ منها الناس ، وما فضل يسقي زروعها ، وهي قرب حصنْ مسلمة بن عبد الملك .

١ ـ ياقوت ١/٤٥٣ : وفيه «باجَدّا بفتح الجيم وتشديد الدال ، والقصر قرية كبيرة بين رأس العين والرَّقة»
وفي بلدان الخلافة الشرقية ص ١٣٦ : ان باجّدا تقع في جنوب حرّان على مقربة من شرق نهر البليخ ، وفيه يعتمد لسترنج في استقاء معلوماته عن هذه القرية عما نقله ياقوت عن ابن الطيب اضافة الى مصادر اخرى .

الرافقة[1] : وقال احمد بن الطيب : الرافقة بلد متصل البناء بالرقة وهما على ضفة الفرات وبينهما مقدار ثلثمائة ذراع قال : وعلى الرافقة سوران بينهما فصيل وهي على هيأة مدينة السلام ولها رُبُضٌ[2] بينها وبين الرقة ، وبه اسواقها وقد خرب بعض اسوار الرقة» .

١ ـ ياقوت ٢/٧٣٤ وفيه «الرّافِقَةُ الفاء قبل القاف» ويعلق ياقوت على كلام ابن الطيب : «قلتُ هكذا كانت اولاً فاما الآن فإن الرقة خربت وغلب اسمها على الرافقة وصار اسم المدينة الرقة وهي من اعمال الجزيرة مدينة كبيرة كثيرة الخير» .
وفي بلدان الخلافة الشرقية ص ١٣٢ ـ ١٣٣ : في خلافة بني العباس في المئة الثانية كانت الرقة من اهم مدن ما بين النهرين الاعلى ، وتسيطر على تخوم الشام ، وشرع الخليفة المنصور في سنة ١٥٥ (٧٢٢) ببناء مدينة الرافقة على نحو ثلاثمئة ذراع من الرقة ، ويقال ان الرافقة بنيت على غرار مدينة السلام فكانت مدينة مدورة ، ولكن سرعان ما خربت الرقة القديمة وشيدت ابنية جديدة في الارض الفضاء بين الرقة والرافقة ، وغلب اسم الرقة على الرافقة .
٢ ـ ربض : ربض المدينة : ما حولها .

ربض الدّارَيْن[1] : وقال احمد بن الطيب الفيلسوف : كان محمد ابن عبد الملك بن صالح بناه وبنى فيه داراً اعني الربض ولم يستتمه واتمّه سيماءُ الطويل ورمَّ ما كان استهدم منه وصيّر عليه باب حديد حذاء باب انطاكية اخذه من قصر بعض الهاشميين بحلب يسمى قصر البنات وسمى الباب باب السلامة وبنى سيماء[2] فيه داراً ايضا مقابلة لدار عبد الملك بن صالح فسمى ربض الدّارين لذلك» .

١ ـ ياقوت ٢/٧٥٠ ـ ٧٥١ وفيه : «رَبَضُ الدّارَيْنِ بحلب امام باب انطاكية في وسطه قنطرة على قُويق» .
٢ ـ ياقوت : سيما

حماة[1] : وقال احمد بن الطيب فيما ذكره من البقاع التي شاهدها من مسيره من بغداد[2] مع المعتضد الى الطواحين فقال بعد ذكره حمص[3] : وحماه قرية عليها سور حجارة وفيها بناء بالحجارة واسع ، والعاصي يجري امامها ويسقي بساتينها ويدير نواعيرها» .

١ ـ ياقوت ٢/٣٣٠ ـ ٣٣١ . وفيه يعقب على كلام ابن الطيب فيقول : «وكان قوله هذا في سنة ٢٧١ فسماها قرية» وقبل ذلك يصف ياقوت حماة فيقول : «حماة بالفتح بلفظ حماة المرأة . . . وحماة مدينة كبيرة عظيمة كثيرة الخيرات . . يحيط بها سور محكم وبظاهر السور حاضر كبير جدا فيه اسواق كثيرة وجامع مفرد مشرف على نهرها المعروف بالعاصي» .
٢ ـ ياقوت : مغداد .
٣ ـ لم اجد ذكرا لاحمد بن الطيب حين شرح ياقوت حمصا .

دمشق الشام[1] : وقال احمد بن الطيب السرخسي بين بغداد ودمشق مائتان وثلاثون فرسخاً[2] ، وقالوا في قول الله عز وجل [وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين][3] قال هي دمشق ذات قرار ، وذات رخاء من العيش وسعة ، ومعين كثيرة الماء ، وقال قتادة في قول الله عز وجل [والتين] قال الجبل الذي عليه دمشق ، والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس ، وطور سينين شعب حسن ، وهذا البلد الامين مكة ، وقال ارم ذات العماد

دمشق[1] . . . واهل الاسطوان قوم من الحكماء الاول كانوا ببعلبك حكى ذلك احمد بن الطيب السرخسي الفيلسوف .

١ - ياقوت ٢/٥٨٧ - ٥٩٢ ، وفيه : «دمشق الشام بكسر اوله وفتح ثانيه هكذا رواه الجمهور والكسر لغة فيه وشين معجمة وآخره قاف البلدة المشهورة قصبة الشام وهي جنة الارض بلا خلاف»

وفي بلدان الخلافة الشرقية ص ٣٧ : «كان العرب مغالين في اطلاق التسميات فكان ذلك علة كثير من الارتباك ، فالقاعدة عندهم ان يسموا عاصمة اقليم باسم ذلك الاقليم حتى ولو كان لتلك العاصمة اسم آخر ، فدمشق مثلا ما زالت تعرف عندهم بالشام وهي عاصمة الشام» .

٢ - في ياقوت : مايتان وثلاثون فرسخ

٣ - سورة (المؤمنون ٢٣) آية ٥٠ ك .

٤ - سورة (التين ٩٥) آية ١ ك من الآية (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الامين)

الأُردن[1] : «قال احمد بن الطيب السرخسي الفيلسوف هما أُردنان : أُردنُّ الكبير وأُردنُّ الصغير ، فأما الكبير فهو نهر يصب الى بحيرة طبرية ، بينه وبين طبرية لمن عَبَرَ البحيرة في زورق اثنا عشر ميلا تجتمع فيه المياه من جبال وعيون فتجري في هذا النهر فتسقي اكثر ضياع جند الاردن مما يلي ساحل الشام وطريق صور ، ثم تنصب تلك المياه الى البحيرة التي عند طبرية ، وطبرية على طرف جبل يُشرف على هذه البحيرة ، فهذا النهر اعني الاردن الكبير بينه وبين طبرية البحيرة ، واما الاردن الصغير فهو نهر ياخذ من بحيرة طبرية ويمر نحو الجنوب في وسط الغَور فيسقي ضياع الغور واكثر مستغلتهم السُكرُ ومنها يُحمل الى سائر بلاد الشرق وعليه قرى كثيرة منها بَيسان وقراوا واريحا والعوجاء وغير ذلك ، وعلى هذا النهر قرب طبرية قنطرة عظيمة ذات طاقات كثيرة تزيد على العشرين ويجتمع هذا النهر ونهر اليرموك فيصيران نهرا واحدا فيسقي ضياع الغور وضياع البثينة ثم يمر حتى يصب في البحيرة المنتنة في طرف الغور الغربي ، وللاردن عدة كور منها : كورة طبرية وكورة بيسان وكورة بيت رأس وكورة جدر وكورة صفورية وكورة صور وكورة عكا وغير ذلك مما ذكر في مواضعه .

١ - ياقوت ١/٢٠١ - ٢٠٢ وفيه : «الأُرْدُنُّ بالضم ثم السكون وضم الدال المهملة وتشديد النون ، واهل السير يقولون ان الاردن وفلسطين ابنا سام بن ارم بن سام بن نوح (ع) وهي احد اجناد الشام الخمسة وهي كورة واسعة منها الغور وطبرية وصور وعكا وما بين ذلك» .

الأسكندرونة[1] : «قال احمد بن الطيب : هي مدينة في شرقي انطاكية على ساحل بحر الشام بينها وبين بغراس[2] اربعة فراسخ وبينها وبين انطاكية ثمانية فراسخ ، ووجدت في بعض تواريخ الشام ان اسكندرونة بين عكا وصور» .

١ - ياقوت ١/٢٥٤ وفيه : « الاسكندرونة بعد الذال راء ، وواو ساكنة ونون»

٢ - بغراس : بالسين مكان الزاي : مدينة في لحف جبل اللكام ، بينها وبين انطاكية اربعة فراسخ على يمين القاصد الى انطاكية من حلب ، في البلاد المطلة على نواحي طرسوس (معجم البلدان ١/٤٦٧ ، طبعة بيروت) .

الأكام[1] : «قال احمد بن الطيب : ويكون امتداد جبل الأكام نحو ثلاثين فرسخاً وعرضه ثلاثة فراسخ وفيه حصون ورستاق[2] واسع» .

١ - ياقوت ١/٣٤١ وفيه : «هكذا وجدته بخط بعض الفضلاء ولا ادري المراد جبل اللكام ام غيره الا انه قال : جبل لثغور المصيصة ، واللكام متصل به ، ولا شك في انها جبل واحد لان الجبال قد تسمى باسم وتسمى في موضع آخر باسم آخر ، وان كان الجميع جبلا واحدا» .

٢ - الرُستاق : اعجمي معرب ، ويقال ، رزداق ورسداق والجمع الرساتيق وهي السواد .

الخشبية[1] : «الخَشَبِيَّةُ بلفظ النسبة الى الخشب : جبل قرب المُصيصة بالثغور كان به مسلحة للمسلمين وهي مسلحة الثغور ، كذا نقلته من خط ابن كوجك عن احمد بن الطيب»[2] .

١ - ياقوت ٢/٤٤٥ . اكتفى ياقوت بمعلوماته عن هذا الجبل بما نقله عن ابن الطيب .

٢ - يبدو ان الرحلة التي هي احد مصادر ياقوت في كتابه المعجم كانت مكتوبة كتبها ابن كوجك لكنها لم تصل الينا .

حُوّار[1] : «وذكر احمد بن الطيب في رحلة المعتضد الى الطواحين[2] حُوّار : جبل في غربي جيحان من ثغور الشام قال سمي بذلك لبياض تربته[3] وبذلك سُمي الدقيق الحُواري» .

١ - ياقوت ٢/٣٥٤ : وفيه «حُوّار بالضم وتشديد الواو وهو الابيض ومنه الخبز الحُوّاري ، والحُوار والبشر موضعان بالجزيرة عن ابي منصور . . . . واخبرني من اثق به من اهل حلب ان الحُوّار كورة كبيرة مدينتها البَلاط وهي الآن خراب

ويقولونه خوّار بفتح الحاء» .

٢ ـ الطواحين : جمع طاحونة الدقيق : موضع قرب الرملة من ارض فلسطين بالشام كانت عنده الوقعة المشهورة بين خمارويه ابن طولون والمعتضد بالله في سنة ٢٧١ ، انصرف كل واحد منهما مفلولا كانت اولا على خمارويه ثم كانت على المعتضد «(ياقوت : ٤/٤٥ طبعة بيروت) ».

٣ ـ ياقوت : قربتها

أذنة[1] : وقال احمد بن الطيب : «رحلنا من المصيصة راجعين الى بغداد الى اذنة في مُرج وقرى متدانية جدا وعمارات كثيرة وبين المنزلين اربعة فراسخ ، ولاذنة نهر يقال له سيحَان وعليه قنطرة من حجارة عجيبة بين المدينة وبين حصن مما يلي المصيصة وهو شبيه بالربض والقنطرة معقودة عليه على طاق واحد قال ولأذنة ثمانية ابواب وسور وخندق» .

١ ـ ياقوت : ١/١٧٩ . وفيه «أذنة بفتح اوله وثانيه ونون بوزن حَسَنة وأذنة بكسر الذال بوزن خَبِئة ، وأذنة ايضا بلدٌ من الثغور قرب المصيصة مشهور» .
وفي بلدان الخلافة الشرقية ص ١٦٢ ـ ١٦٣ : «أما المدن الثلاث للمصيصة وأذنة وطرسوس وكلها من بناء الروم ، فما زالت قائمة . . ومدينة اذنة وهي قرب المصيصة تقع على نهر سيحان (نهر سارس) » .

طرسوس[1] : «قال احمد بن الطيب السرخسي رحلنا من المصيصة نريد العراق الى أذَنَة ومن اذنة الى طرسوس وبينها وبين أذنة ستة فراسخ وبين اذنة وطرسوس فندق بُغا والفندق الجديد ، وعلى طرسوس سوران وخندق واسع ولها ستة ابواب ، ويشقها نهر البَردان وبها قبر المأمون عبد الله بن الرشيد جاءها غازيا فادركته منيته فمات قال الشاعر :

هـل رأيت النجـوم اغنَتْ عن المـأ
مُـون في عـزّ مـلكـه المـاسـوس
غـادروه بـعَـرْصَـتي طَـرسُـوس
مـثـل مـا غـادروا ابـاه بـطوس

وما زالت موطناً للصالحين والزهاد يقصدونها لانها من ثغور المسلمين ثم لم تزل مع المسلمين في احسن حال وخرج منها جماعة من اهل الفضل الى ان كان سنة ٣٥٤ فان نقفور ملك الروم استولى على الثغور وفتح المصيصة كما نذكره في موضعه ثم رحل عنها ونزل على طرسوس ، وكان بها من قبل سيف الدولة رجل يقال له ابن الزيات ورشيق النسيمي مولاه فسلما اليه المدينة على الامان والصلح على ان مَن خرج منها من المسلمين وهو يحمل من ماله مهما قدر عليه ، لايعترض من عَين ووَرق او خُرثي وما لم يطُق حمله فهو لهم مع الدور والضياع واشترط تخريب الجامع والمساجد وانه من اراد المقام في البلد على الذمة واداء الجزية فعل وان تنصّر فله الحباء والكرامة وتقر عليه نعمته قال فتنصر خلق فأقرت نعمهم عليهم واقام نفر يسير على الجزية وخرج اكثر الناس يقصدون بلاد الاسلام وتفرّقوا فيها وملك نقفور البلد فاحرق المصاحف وخرب المساجد واخذ من خزائن السلاح ما لم يسمع بمثله مما كان جُمع من ايام بني أُمية الى هذه الغاية» .

١ ـ ياقوت ٣/٥٢٦ ، وفيه : «طرسُوس بفتح اوله وثانيه وسينين مهملتين بينهما واو ساكنة بوزن قربوس كلمة عجمية رومية ولا يجوز سكون الراء الا في ضرورة الشعر وهي مدينة بثغور الشام بين انطاكية وحلب وبلاد الروم» .
وفي بلدان الخلافة الشرقية ص١٦٤ ، ١٦٥ ان مدينة طرسوس كانت من اجل الثغور ، وتشرف على المدخل الجنوبي للدرب المشهور عبر طوروس المعروف بابواب قليقية ، وكان يشق المدينة نهر البردان (نهر كودنس) .

البَرَدان[1] : «والبردان ايضا نهر يسقي بساتين مَرعش وضياعها مخرجه من اصل جبل مَرعَش ويسمى هذا الجبل الاقرع ، وذكر هذين النهرين احمد بن الطيب السرخسي» .

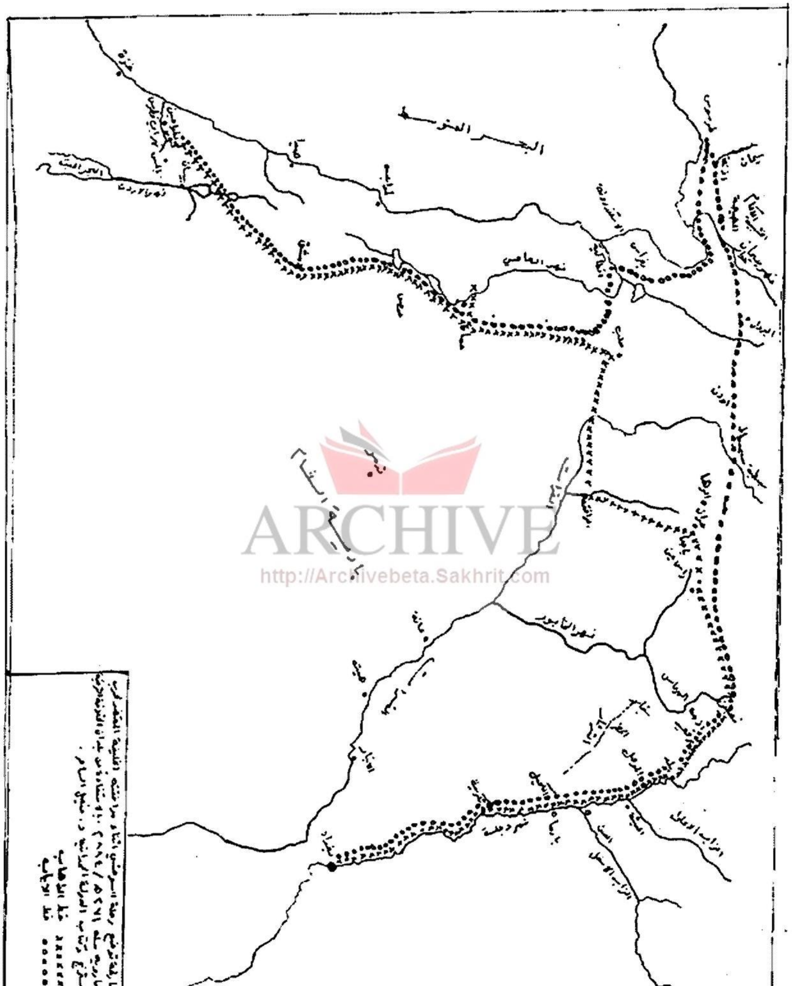
١ ـ ياقوت ١/٥٥٣ ـ ٥٥٤ . وفيه ان «البردان ايضا نهر بثغر طرسوس مجيئه من بلاد الروم ويصب في البحر على ستة اميال من طرسوس ولا اعرف بالشام موضعا او نهرا يقال له البردان غيره فهو الذي عناه الزمخشري» .
في بلدان الخلافة الشرقية ص ٥٠ ، ان من طرق بغداد الطريق الشمالي الذي يخترق محلة الشماسية لباب البردان في بغداد الشرقية ، ثم يصل الى بلدة البردان التي تقع على ضفة دجلة الشرقية ثم يتابع سيره بسار النهر فيبلغ سامراء ومدن ما بين الشمالي (اقليم الجزيرة) .

أودن[1] : «وقال احمد بن الطيب : اودن قرية كبيرة تحت جبل بين مرعش والفرات» .

١ ـ ياقوت : ١/٣٣٩ وفيه «اودن بالنون» .

سُبَسْطِيةُ[1] : «قال احمد بن الطيب السرخسي في رسالة وصف فيها رحلة مسير المعتضد لقتال خُمارَوَيه وعوده . قال : سبسطية : مدينة قرب شُميساط محسوبة من اعمالها على اعلى الفرات ذات سور» .

١ ـ ياقوت ٣/٣٣ وفيه : «سبسطية بفتح اوله وثانيه وسكون السين الثانية وطاء مكسورة وياء مثناة من تحت خفيفة» ويعلق ياقوت على قول ابن الطيب «قلتُ المشهور ان سبسطية بلدة من نواحي فلسطين بينها وبين البيت المقدس يومان» .


البحر المتوسط
نهر العاصي
نهر الخابور
نهر دجلة
بغداد

رحلة الى بغداد
تأليف
نواب حميد يار جونك بهادر

ترجمة
كاظم سعد الدين
بغداد

تمهيد

يخامر كل امريء يعرف، او يخال انه يعرف، كيف يكتب، طموحٌ اعتيادي في ان يصبح مؤلفاً. ولابد لي في معرض اعترافي باني لست استثناء من هذه القاعدة، ان أبين مدى ادراكي مواطن ضعفي. ولما لم يكن في نيتي نشر هذه اليوميات عندما بدأت تدوينها، وبما انها لاتعدو ان تكون الا مجرد سجل لاحداث طرأت في غضون الرحلة التي قمت بها في صحبة والدي، فاني ليحدوني الامل ان يغض قرائي الطرف عن الشوائب التي تكتنفها. واذا ماحالفني التوفيق في نقل كل ماأصبو الى نقله عن الرحلة التي اثارت في نفسي غاية الامتاع، واذا ماوجد قرائي شيئاً من التسلية بما سجلته، فان ذلك سيزيل شيئاً من تهيبي في المغامرة بما يليق بهذه المدونة الصغيرة.

المؤلف

رحلة الى بغداد

الخميس ٢١ آذار ١٩٠٧، غادرت «حيدر آباد» الى «اجمير» بصحبة والدي العقيد نواب افسر المُلك، بهادر[١] فبلغناها في الليلة الثالثة من رحيلنا، وقد استقبلنا في المحطة اخي الاصغر محبوب الذي يدرس في «كلية مايو». ومكث والدي مع مستر وودنكتن، رئيس «كلية مايو» الذي دعاه الى ضيافته اثناء زيارته الى «اجمير»، ونزلت مع محبوب في «دار تونك» في كلية مايو.

الاحد ٢٤ آذار - ركبنا في الصباح متوجهين الى دولة باغ: كانت الحدائق جميلة، لطيفة الترتيب. وزرنا ايضاً خزان اناساگار البارع الجمال، وقد اقيمت على السد مقاصير من المرمر الخالص، شيدها الامبراطور شاه جهان[٢] سنة ١٦٣٧. والمبنى بالغ الاناقة يضفي على الخزان مظهراً جليلاً. اصطحب مستر وودنكتن ابي عصراً الى الكلية حيث رأى الدور المختلفة التي يبلغ عددها جميعاً عشرة للاقسام الداخلية، وهي تعود لولايات مختلفة، فضلاً عن مبنى الكلية. وتضفي تلك المباني مظهراً بديعاً للكلية.

الاثنين ٢٥ آذار - غادرنا اجمير مساء ووصلنا بومبي في صباح الاربعاء الباكر، وذهبنا بعد الافطار لرؤية سفينتنا، المسماة دواركا العائدة الى شركة .B.I.S.N. وبالرغم من ان دواركا لم تكن باخرة كبيرة جداً، فقد الفينا كل شيء فيها نظيفاً، وقد ابدى ربانها وضباطها غاية اللطف والأنس.

وامضيت بقية النهار في استحصال التذاكر والجوازات وغيرها. واودعنا مالنا الذي سنأخذه معنا لدى شركة B.I.S.N. واخذنا منها اعتماداً به الى وكلائهم في بغداد: السادة ستيفن لنج وشركائه[3]. وفي اليوم التالي ذهبنا الى رصيف فكتوريا في حوالي الساعة الثامنة صباحاً. وكان البحر هادئاً. وكان الجو في الليل شديد البرودة وعندما نهضنا في الصباح كان البرد كنهاية موسم البرد في حيدر آباد تقريباً. وفي حوالي الساعة العاشرة صباحاً ابصرنا ارضاً في الجهة الشمالية. واستطعنا ان نستبين، بمعونة منظار، مدينة صغيرة ومنائر معبد. وعلمنا لدى استفسارنا من الضباط ان المعبد يدعى دواركا وقد سميت السفينة باسمه وانه مكان مشهور لعبادة الهندوس. ووصلنا خليج كو في الساعة الواحدة وتوقفت باخرتنا ساعتين في ماندفي حيث نزل خمسون راكباً تقريباً وصعد اليها قلة آخرون. واستأنفنا السفر في الساعة الثالثة عصراً ووصلنا «كراجي» في صباح اليوم التالي، الساعة السادسة منه. ومكثنا فيها نهار ذلك اليوم كله. ولم يسمح لأحد ان يدخل المدينة نظراً لقيود الحجر الصحي. واخذوا جميع ركاب الدرجة الثالثة وخدم السفينة الى مخيم الحجر الصحي حيث تم فحصهم ثم اعيدوا الى السفينة. وتركنا كراجي في حوالي الساعة الثامنة مساء واخذنا معنا البريد الانكليزي الذي وصل في الوقت المحدد في باخرة اخرى.

الاحد ٣١ آذار ـ كان البحر مثل صفحة مرآة. ووصلنا في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي الى مسقط حيث رست السفينة ساعتين لكي تسلم الرسائل والرزم وغير ذلك. تقع المدينة في اسفل صخور جبارة. وفيها بيوت ذوات طبقتين او ثلاث طبقات تواجه البحر وهي قريبة من حافة المياه. وكان بيت السلطان، الذي دلونا عليه بالاشارة، مبنىً مهيباً يرفرف عليه علم احمر، والى جانبه مقر المندوب السامي الذي يميزه علم المملكة المتحدة الخافق فوقه.

الثلاثاء ٢ نيسان ـ دخلت سفينتنا الخليج (العربي) في حوالي الساعة الثانية. وعندما صعدنا الى ظهر السفينة في الصباح وجدنا السماء ملبدة بالغيوم وكانت ترسل رذاذاً خفيفاً. كان الساحل الشرقي على جهة منا والساحل العربي على الجهة الاخرى وسفينتنا تسير بينهما. في الصباح الباكر عندما هب نسيم بارد وصوت الامواج الرقيق يبعث الهدوء في النفس. وكان ابي لايشعر بالراحة، عموماً، في اية رحلة بحرية، غير انه في هذه الرحلة استمتع كثيراً، لان البحر كان هادئاً تماماً. وكان يرافقه الدكتور عناية علي الذي اهتم به اهتماماً كبيراً. وكان ينصحه كل مساء عندما يصبح الهواء بارداً ان ينزل لئلا يعرض نفسه للهواء الرطب.

الاربعاء ٣ نيسان ـ وصلنا بوشهر في حوالي الساعة الثامنة من الصباح. والقت سفينتنا مراسيها بعيداً عن الساحل وماان تم تسليم البريد حتى استأنفنا السفر مرة اخرى. وبعد قليل هبت فجأة ريح قوية واضطراب البحر. واصيب كل من على السفينة تقريباً بدوار البحر. ومكث ابي في مقصورته طوال النهار.

ووصلنا الكويت في الساعة السابعة مساءً، والقت باخرتنا مراسيها هاهنا طوال الليل، ثم غادرنا في الساعة الثامنة بعد ان نزل خمسون مسافراً، كلهم تقريباً من العرب. تقع الكويت على ساحل الجزيرة العربية واغلب سكانها من التجار العرب. وسلطان الكويت يتمتع باستقلال تام، وله تأثير عظيم في شعبه، وهو غني جداً ويمتلك عدداً كبيراً من بساتين النخيل على ضفتي شط العرب. وفي الكويت يقيم قنصل بريطاني ـ هو الميجر نوكس، الاوربي الوحيد فيها.

الخميس ٤ نيسان ـ وصلنا الفاو في الساعة الواحدة ورسونا فيها قرابة ساعتين. وسلم البريد فيها ثم استأنفنا السفر. ودخلنا من هذا المكان شط العرب. وكان الحاج ابراهيم مرشد السفن قد اخذ على عاتقه مسؤولية السفينة. مدخل النهر، الذي يسمى السد في حالة سيئة بسبب الرمال التي يجرفها ولايجري تنظيفها. وبعد ان توغلنا في النهر مسافة قصيرة، اخذ يضيق تدريجاً وكانت الضفتان على بعد يتراوح بين مئتين او ثلاث مئة ياردة عن الباخرة. تغطي الضفتين بساتين النخيل التي اضفت عليهما منظراً خلاباً. وكنا نرى بيوتاً صغيرة من الطين، يسكنها عربي وعائلته ممن يهتمون بالبساتين. وكنا نرى حصاناً عربياً اوحصانين امام هذه البيوت ترعى مع الماشية. وكانت الحنطة تزرع بين صفوف النخيل. فالتربة خصبة جداً والمياه وفيرة. كان على ظهر الباخرة قليل من اهل البصرة وعلمنا منهم ان لاشيء انفع من بستان نخيل؛ وتشتهر تمور البصرة في جميع انحاء العالم بجودتها. وبما انها تنمو بكميات وفيرة فانها تصدر الى اوربا وامريكا والهند. ولم يكن النخيل في هذا الوقت يحمل تمراً. فهو يبدأ في ايار بالحمل وينضج في ايلول. فيكون منظر الاشجار بديعاً. في شهري ايلول وتشرين الاول اشد شهور السنة حرارة[4]، يجنى التمر ويعبأ في صناديق من

الخشب، او اكياس او حصران (خصاف) لنقله بالسفن. وتغل كل شجرة مامعدله ٣٠٠ ليبرة[٩] من التمر سنوياً بربح قدره ٨ ربيات[١٠] يحصل عليها مالكها.

وصلنا في الساعة السابعة الى المحمرة وهي بلدة صغيرة على ضفة النهر. ويصب هنا نهر الكارون احد روافد الفرات[١١]، وتسير فيه باخرتان الى الاحواز، والمدن التجارية الاخرى في ايران تمتلكها شركة بريطانية. ورست باخرتنا في هذا المكان طوال الليل، ثم غادرنا في الصباح عند الساعة السابعة الى البصرة التي تبعد عشرين ميلاً من هنا. ولما مرت باخرتنا بقصر شيخ المحمرة اطلقت اطلاقة مدفع واحدة تحية واعترافاً ببعض الخدمات التي قدمها الشيخ الى شركة .B.I.S.N قبل سنوات: فتطلق كل باخرة عائدة لهذه الشركة تحية لدى مرورها بمنزل الشيخ: وشاهدنا، لدى مرورنا من المحمرة الى البصرة، بعض المباني الكبيرة ذوات طبقتين على ضفتي النهر، تخص الاثرياء الذين يسكنونها اثناء الصيف.

وصلنا البصرة في مدة ساعتين ورسونا امام المحجر الصحي. وانشغل نوتية الباخرة طوال النهار بافراغ حمولتها التي يكوّن الخشب والحنطة نسبة عالية جداً منها.

السبت ٦ نيسان ـ غادرنا الباخرة في حوالي الساعة الرابعة الى مخيم الحجر الصحي في زورق اعاره متلطفاً الكابتن هرست. ورافقنا الضابط الاقدم، مستر ستوكويل الى الشاطيء. ودلنا طبيب المحجر الصحي، الذي رافقنا، على مقرنا الذي يتكون من بيت لطيف ونظيف جداً فيه حجرتان على كل جانب وحجرة طعام في الوسط. يقع البيت على بعد ثلاثين ياردة من النهر، وفيه حديقة صغيرة امامه، يغلب فيها اشجار العنب.

طبيب المحجر من رومانيا اسمه فريد مان. عينته الحكومة التركية. وكان الطبيب والموظفون الآخرون في المحجر لطفاء للغاية. ووضع دكتور فريد مان زورقاً حكومياً تحت تصرفنا واخبر ابي اننا نستطيع الخروج بالزورق متى ماشاء، على ان لاندخل مدينة البصرة.

سمعنا كثيراً عن المشكلات والمصاعب التي يجب تحملها اثناء فترة الحجر الصحي، غير اننا، على نقيض ذلك كله، الفينا كل شيء مريحاً غاية الراحة. وبالرغم من ان الحجرات لم تكن فسيحة، فانها كانت نظيفة، وعلى النوافذ ستائر خضر، كان البيت مؤثثاً خير تأثيث بالاسرة وستائر البعوض، والمناضد والكراسي، ومجهزاً بالسكاكين والشوكات وغير ذلك.

وقبل ان نغادر حيدر آباد اعطى حضرة السيد عبد الرحمن افندي البغدادي ابي رسالة توصية الى ابن اخيه السيد رجب افندي نقيب الاشراف الذي يسكن البصرة، ولدى وصولنا اليها، بعث ابي بالرسالة اليه. جاء في اليوم الثاني ابن نقيب الاشراف في زورقه لرؤية والدي، واخبره ان السيد النقيب خارج الى الصيد في الريف، ولكنه سيعود في المساء، وسوف يعرج لرؤية ابي في اليوم الثاني. وكان يرجو بعد انقضاء فترة الحجر الصحي في صباح الاربعاء ان نحل ضيوفاً عليهم في البصرة حتى يحين موعد رحيلنا الى بغداد. فقبل ابي هذه الدعوة الكريمة. وخرجنا في الساعة الرابعة عصراً الى صيد البط، واصطحبنا رجلاً من المحجر ليدلنا على البط. ورأينا قليلاً منه ولما لم يكن لنا مكمن على ضفتي النهر، لم نكن قادرين على الوصول ضمن المدى المناسب، ولذلك لم نملأ كيساً كبيراً.

الاثنين ٨ نيسان ـ حضر نقيب الاشراف صباحاً الى المحجر الصحي لرؤية ابي. كان يتكلم الانكليزية بطلاقة، وتحدثنا طويلاً.

الاربعاء ١٠ نيسان ـ حزمنا امتعتنا تأهباً للذهاب الى شاطيء النهر. وحضر الى مقرنا في حوالي الساعة الثامنة يوسف بك وهشام بك افندي ابن نقيب الاشراف السيد رجب افندي وابن اخيه. كان والدي يتناول افطاره في ذلك الوقت، لذلك دعوناهما الى مشاركتنا. وقال هشام بك افندي لابي اثناء الحديث ان نقيب الاشراف اخبر والي البصرة عن وصولنا، ورجاه ان يبعث عربته الى رصيف المرفأ لتنقل والدي. وعندما سمع والي البصرة ان نقيب الاشراف يريد العربة من اجل آمر قوات سمو النظام اوضح ان من تقاليد الامبراطورية العثمانية اذا ماوصل «سره عسكر» اي لواء عسكري الى اي موقع عسكري رافقه حرس الشرف، لذلك فانه لن يرسل عربته الخاصة حسب وانما سيأمر قائد البارجة الحربية «اقليد البحر»، اي مفتاح البحر، الراسية قرب المرفأ ان يجهز حرساً للشرف. وامر والي البصرة ايضاً «امير البحر» ان يذهب في احد زوارق السفينة الى موقع المحجر الصحي ليصحب ابي في عبور النهر.

بعد الافطار، وعندما كان ابي ويوسف بك وهشام بك افندي يتمشون على الشاطيء وصل امير البحر وعبد الوهاب افندي - امين السر الخاص لوالي البصرة وعبد الله باشا عضو مجلس الوالي وعوني بك وألاي قومندانى اي مفتش الشرطة العام، وجاءوا لمقابلتنا. قدم يوسف بك هؤلاء الموظفين الى ابي وتكلم اليهم قليلاً باللغة العربية. واعجب امير البحر ببدلات جنديينا من حرس الخيالة الافريقي وببدلة جمدار[1] غلام مرتضى من حاملي الرماح الماسية.

ثم دخل ابي ومحبوب وانا في زورق امير البحر وتبعنا في زورق آخر الدكتور عناية علي خان وجنديان مع مفتش الشرطة العام وكانت البارجة التركية «اقليد البحر» راسية قرب بناية في طبقتين هي دائرة امير البحر. وجذفوا الزورق حتى صرنا امام البيت تشكل حرس شرف من حوالي عشرين بحاراً تركياً مسلحين ببنادق مارتيني - هنري، وكانوا واقفين على السدة وتقابلهم الجوقة الموسيقية العائدة للبارجة نفسها. وعندما نزل والدي، اطلق ضابط حرس الشرف امراً يشبه «سلام دره»[2].

وامتثالاً لامره جعل حرس الشرف بنادقهم في وضع يشبه ماعندنا من «سلاحك، قدّم». وفتش ابي حرس الشرف ثم تقدّم مع نقيب الاشراف والموظفين الأخرين الى دائرة امير البحر حيث جلسنا حوالي عشر دقائق وتحدث ابي حديثاً قصيراً مع امير البحر، ثم غادرنا المكان. وصعد ابي ونقيب الاشراف ومحبوب وانا في عربة ارسلها والي البصرة، وتبعنا بقية الجماعة ورافقنا حرس الوالي وعددهم اثنا عشر رجلاً.

تشبه سترات حرس والي البصرة سترات مدفعية سمو النظام كثيراً. ويلبسون سراويل فضفاضة منتفخة كالاكياس وطرابيش تركية واحزمة عبر اكتافهم يحملون فيها عتاد مارتيني - هنري.

كانوا جميعاً ضخاماً، بشرتهم لطيفة ولحاهم حليقة، تبدو عليهم البسالة، غير ان جلستهم على ظهور الجياد لم تكن بالغة حد الكمال. يمتطون جياداً عربية اصلية، عليها سروج، وركابها من حديد عريض، وسيور اللجام اشرطة قطنية عريضة.

سرنا خلال مدينة البصرة الى بيت نقيب الاشراف، ومررنا في طريقنا باسواق ضيقة وازقة. كانت الطرقات موحلة بسبب المطر الذي هطل ليلة امس. هيأ مضيفنا بيتاً مستقلاً لاستقبالنا، مؤثثاً على الاسلوب الاوربي. وارسل السيد النقيب كلمة يخبرنا ان الافطار[3] سيقدم في الساعة السادسة، دهشنا لدى سماعنا ذلك لان الساعة كانت الحادية عشرة آنذاك، ولكن الرجال العرب المرافقين لنا اخبرونا بالفرق العظيم بين توقيت البصرة والتوقيت الانكليزي: فحسب التوقيت الاول تكون الساعة الثانية عشرة عند غروب الشمس وعند شروقها ايضاً، وبهذا تعني الساعة السادسة قبل الظهر في الحقيقة الثانية عشرة ظهراً بتوقيتنا.

وذهبنا في الساعة المعينة الى مقر نقيب الاشراف. وجاء مضيفنا لاستقبال ابي وقادنا الى «الديوان خانة» او غرفة الاستقبال، وهي بهو فسيح، حوفها دواوين (ارائك) وبسط نفيسة مفروشة على الأرض. وجلسنا فيها، وبعد ان وصل جميع الضيوف اصطحب نقيب الاشراف ابي الى بهو الطعام حيث مدت منضدة واسعة وعليها السكاكين والشوكات وغير ذلك مرتبة وفق ترتيبها الصحيح. ووضعت انواع مختلفة من المخللات والمربيات في صحون صغيرة على المائدة. وبعد ان اتخذنا مقاعدنا قدم لنا حساء طماطة، ثم جلب خروف كامل مشوي ومحشو بالرز والكشمش واللوز وغير ذلك على طبق كبير. انها طبخة جديدة تماماً بالنسبة الينا، ولذيذة غاية اللذة، تشبه «البلاو» الهندي. وسألنا عنها فقيل لنا انها تدعى «قوزي» وهي كلمة تركية تعني حَملاً، ثم تلا ذلك دجاج مشوي وحلْويات ومعجنات حلوة ورز متبل بالكاري. استغرقت وجبة الطعام نحو ساعة، ثم استأذنا مضيفنا بالانصراف وذهبنا الى مقرنا. وقال نقيب الاشراف لوالدي اثناء مغادرتنا ان من دواعي المجاملة زيارة الوالي، مادام قد ارسل له عربته وحرسه. ولما كان وقت رحيلنا قريباً، فقد اقترح ان نذهب اليه عصر اليوم نفسه، فوافق ابي، مسروراً، على ذلك.

ذهبت عند الساعة الواحدة الى لنچ وشركائه لترتيب امر سفرنا الى بغداد، في الوقت الذي ذهب ابي ومحبوب بصحبة نقيب الاشراف لزيارة والي البصرة. حكى لي محبوب في مابعد ان الوالي استقبل ابي استقبالاً قلبياً، وتحدثا طويلاً وقال الوالي اثناء حديثه ان رغبة عظيمة تعمر قلبه لرؤية الهند، وانه يأمل في نهاية خدمته في البصرة، التي ستنتهي بعد حوالي خمس سنوات، ان يحقق هذه الرغبة ويزور حيدر آباد ايضاً. وعند مغادرة والدي، اخبره الوالي انه مدعو لدى نقيب الاشراف الى العشاء حيث يأمل لقاءه مرة اخرى. وكنت في ذلك الوقت قد رتبت امر كل شيء بخصوص رحلتنا، ولدى عودتي رأيت السوق الكبير وغيره الذي يقع على

ضفة شط العرب. اغلب البيوت من طبقتين وهي مبنية من اللبن. ولايستعمل الرخام هنا كثيراً لغلائه الفاحش، لذلك كانت البيوت تبنى كلها من الطابوق واللبن.. والمطر خفيف والا لاصيبت هذه البيوت باضرار جسيمة. طرق البصرة ضيقة جداً ومهملة وليس ثمة تنظيم في انارة الشوارع. يتكون السوق الكبير من طريق طويل ضيق يغطيه سقف وعلى جانبيه صفوف من الحوانيت ـ تشبه محطة السكة الحديد من بعيد. السوق مغطى بسقف لتيسير التسوق اثناء اشهر الصيف عندما تكون الحرارة لاتطاق. وكل اصحاب الحوانيت تقريباً من العرب فيما خلا قلة من حوانيت الفاكهة والمخابز التي تعود لليهود. ولايوجد في البصرة، فضلاً عن هذه الحوانيت الصغيرة في السوق، مخازن او حوانيت كبيرة. ويتم كثير من النقل بالزوارق بسبب وقوع المدينة على ضفة النهر. ويمكن استئجار العربات ايضاً غير انها ليست في حالة جيدة نتيجة لسوء حالة الطرق. ولايوجد في البصرة، على ماأعلم، اي نادٍ او بهو للبلدية تعقد فيها اجتماعات لاهل البصرة. للاوربيين، طبعاً، ناديهم. ويوجد عدد من المقاهي (قهوة خانة) التي تؤمها العامة من الناس. وتكثر البساتين حول البصرة ويقولون انه يمكن الحصول على كل انواع الفاكهة من شهر حزيران لمدة اربعة شهور، حيث يسود الجو الحار، الذي لايطاق فيلجأ الاثرياء، عموماً الى منازلهم الصيفية التي تقع على ضفة النهر وتحيط بها البساتين، او انهم يلوذون بحجرات تحت الارض تدعى السراديب، بنيت خصيصاً للاستعمال في اشهر الصيف. كانت اغلب الحوانيت قد اغلقت عند عودتي في الساعة الرابعة، ولما استفسرت عن ذلك عرفت ان الناس اعتادوا ان يغلقوا حوانيتهم مبكرين.

ارسل نقيب الاشراف في المساء كلمة يقول فيها ان العشاء سيقدم في الساعة الثانية عشرة وهذا يعني حوالي الساعة السادسة والنصف زوالية، وانه سوف يبعث خبراً بوصول الوالي. كان ابي جالساً في حجرته لكتابة رسائل، وكان في نيته ان يذهب الى حجرة الاستقبال في مابعد لدى سماعه بوصول الوالي. وكان جامدار محمود من حرس الخيالة الافريقي واقفاً قرب والدي عندما دخل احد خدم السيد النقيب وطلب اليه ان يخبر سيده ان الوالي قد وصل. والتبس الامر على جامدار محمود فاخطأ في فهم كلمة والي وظنها «مالي» اي بستاني، فرأى ان من غير الحكمة ازعاج سيده وهو في عمله بخبر وصول شخص لااهمية له. فوقف دقائق معدودات يفكر محاولاً معرفة الامر ثم عاد خادم النقيب الذي كان ينتظر متلهفاً، وذكّره مرة اخرى برسالته. ولما سمع ابي كلام خادم السيد النقيب، رفع نظرة وسأل ماالامر؟ فتقدم جامدار محمود بكل احترام وقال:

«اخبرني هذا الرجل بوصول المالي ولاادري لماذا جاء؟ لذلك لم اشأ ازعاجك.» فلما سمع ابي ذلك ادرك الخطأ الذي وقع فيه محمود واسرع الى حجرة الاستقبال حيث قابل الوالي والسيد النقيب.

كان العشاء يشبه الوجبة السابقة في الغداء. عاد الجميع بعد العشاء الى حجرة الجلوس حيث قدمت القهوة. وحان بعد قليل موعد الصلاة، فمدت السجاجيد في الحجرة نفسها وادى الصلاة جميع من كان حاضراً، وبعدها قدمتْ القهوة والسيكاير مرة اخرى. وقبل ان نغادر قال الوالي لابي انه سمع من النقيب ان ابي سيذهب الى الزبير في اليوم التالي وانه ايضاً سيذهب لرؤية الاماكن التي تربى فيها الخيل. وبما ان الزبير تبعد حوالي عشرين ميلاً عن البصرة وان الطريق يمر بجداول وارض صحراوية، فمن المستحسن ان يصحبه حرس وانه سيكتب الى «السر عسكر» طاهر باشا ليرسل الحرس لوالدي. وعندما انفض جميع الضيوف، ودعنا نحن ايضاً السيد النقيب وتمنينا له ليلة سعيدة، وقال لنا اننا سنبدأ غداً صباحاً سفراً الى الزبير قبل الشروق.

عدنا الى حجراتنا في حوالي الساعة التاسعة مساءً. وتحدثنا طويلاً عن الخيول العربية. اراد ابي الذهاب الى الاماكن التي تربى فيها الخيول العربية بكثرة ومنها تصدر لاالى بومبي وحدها بل اماكن عديدة اخرى، وكان راغباً في المكوث لدى القبائل التي تمتلك اكبر عدد من الافراس، مثل نجد، وفي رؤية الخيول العربية في مواطنها الاصلية من اجل الاطلاع عن كثب على طرائق توالدها وتربيتها. وكان السبب الرئيس الذي دعا والدي الى اصطحابي واصطحاب محبوب هو ان نحصل على معلومات كاملة عن الحصان العربي. واخبرني قبل ان تبدأ سفرتنا ان آخذ محاضرته عن الحصان العربي لكي نتدارسها اثناء رحلتنا ونكون متأهبين للدرس الذي سنتلقاه في مابعد. وسوف اشير الى ذلك الدرس الذي تلقيناه في نهاية هذه الرحلة.

نهضنا انا ومحبوب مبكرين في صباح اليوم التالي. وبعد ان لبسنا ذهبنا الى حجرة والدي ووجدناه متأهباً. وارسل نقيب الاشراف بعد قليل كلمة يقول انه متأهب لبدء السفرة.

سرنا نحو ميل يصحبنا حرس والي البصرة وتوقفت عرباتنا قرب ضفة نهر حيث كانت زوارق بانتظارنا. تركنا عرباتنا وصعدنا في الزوارق التي سيّرها بعض الرجال بالتجذيف اذ لم تكن الريح كافية لرفع الاشرعة. وظن ابي ان الحرس سيعودون من هنا ولكنه دهش عندما رأى الحرس يدخلون الماء بخيولهم ويصاحبون الزورق. وعندما سأل: هل يتبع هؤلاء الرجال الزورق طول الطريق، اوضح له نقيب الاشراف: بما ان الوالي امرهم ان يحرسوه حتى الزبير، فانهم سيظلون يتبعوننا مادام الماء ضحلاً والنهر عريضاً، وعندما يضيق النهر فانهم سيسيرون على اليابسة. كان هذا الطريق قبل سنوات يعتبر خطراً لوجود قطاع الطرق ولكنه اصبح الآن اكثر أمناً، ولكن يفضل ان لايخرج المسافرون دون حراسة. ودخل الزورق بعد فترة جدولاً ضيقاً جداً، فبدل الحرس موضعهم: اذ تقدمونا مشي وساروا امامنا على خيولهم بمسافة تقرب من ٣٠٠ ياردة. يبدو انهم قد اتخذوا نظام الكشافة ترتيباً لهم، وساروا بهذه الطريقة في الصحراء لكي يستطيعوا التطلع الى كل جهة. وبعد ان امضينا قرابة اربع ساعات صرنا نرى على يميننا ضريح طلحة وامامنا ضريح الزبير. وقص لنا ابي بناء على طلب محبوب حكاية مقتلهما في واقعة الجمل. . . ورأينا على مسافة قصيرة من هذين الضريحين منارة صغيرة. . .

وبعد ان قطعنا مسافة قصيرة، خرجنا من زوارقنا وركبنا الى الزبير القريبة جداً. استقبلنا شيخ الزبير، خالد باشا، ودعانا الى بيته، ومنه ذهبنا الى ضريح الزبير وقرأنا الفاتحة، ثم زرنا ضريح الحسن البصري ومحمد بن سيرين، في الوقت نفسه، وهو مجاور له. عاش هذان الوليان في ايام حكم الخليفة هارون الرشيد. واشتهر محمد بن سيرين بتفسير الاحلام. ويقال ان زبيدة خاتون[1] زوجة هارون الرشيد رأت حلماً غريباً ذات ليلة فارسلت في صباح اليوم التالي احدى وصيفاتها الى محمد بن سيرين تقول له انها (اي الجارية) نفسها قد رأت ذلك الحلم. فلما استمع اليها محمد بن سيرين قال لها ان الحلم ليس لها، بل لاحدى الشخصيات من ذوات المقام الرفيع. وعندما بلغت الجارية رسالتها الى سيدتها امرتها ان تعود اليه وتقول ان زبيدة خاتون هي التي رأت الحلم في المنام، فقال محمد بن سيرين ان زبيدة خاتون ستقوم في وقت قريب بعمل جليل وكريم ويعم نفعه على بني الانسان والحيوان على حد سواء. وبعد وقت قصير شقت زبيدة خاتون قناة من سوريا الى الكعبة[2]، ومازالت الى يومنا هذا تزود المسافرين والحيوانات بالماء، وهي المصدر الوحيد للماء في تلك الصحراء الخالية من الماء.

ثم ذهبنا لرؤية خيول خالد باشا. ولما وصلنا الى هناك وجدنا ان خالد باشا لايستولد الخيل النجدية بل يحصل عليها قريب له يعيش في نجد. كان نحو اربعين حصاناً مربوطة بحبال في اسطبل يتكون من مبنى مربع يحيط به جدار من طين. وبما ان اغلب هذه الحيوانات قد وصلت اليه من نجد منذ وقت قريب ولم تستعد قوتها تماماً، فانها كانت مرهقة من طول الرحيل ولم تكن في حال طيبة. تفحصها ابي جميعاً وبين اهم مزاياها. كان بينها بعض الخيل العراقية ايضاً، لذا استطعنا ان نقارن بين الفئتين. وعندما اوشكنا ان نغادر دعا نقيب الاشراف خالد باشا الى ضيعته الريفية التي كنا ذاهبين اليها. فرافقنا بعربته الخاصة يتبعه عشرون عربياً ممتطين صهوات الجياد التي رأيناها تواً وبالرغم من حداثة وصولها فانها كانت حسنة التدريب وتطيع فرسانها تماماً.

انه لمنظر رائع ان ترى العرب ممتطين خيولاً نجدية ويسيرون خبباً امامنا. وكان العرب ينشدون معاً في فترات قصيرة اناشيد حربهم التي تتغنى ببطولات اجدادهم. سرنا على هذا المنوال ساعة ثم وصلنا ضيعة نقيب الاشراف التي تدعى الربضية. وفيها نصبوا لنا خياماً. وتفقدنا، قبل كل شيء، خيول نقيب الاشراف. وكان عددها حوالي اربعين، ولد اكثرها في هذا المكان. وتفقدنا ايضاً بعض فحول الخيل التي افردت عن الاناث. ولم تكن هذه الخيول نجدية صرفاً، بل تجري فيها دماء عراقية.

ذهبنا الى الخيام المخصصة لنا، وبعد ان غسلنا جئنا الى خيمة الغداء. ارتحنا بعد الطعام حتى الساعة الرابعة، ثم خرج ابي ومحبوب وانا معهما يصحبنا ابن نقيب الاشراف الاصغر حميد بك، راكبين خيولاً في السهل الفسيح الذي يمتد حولنا. وكنا قد جلبنا معنا عصي البولو وكراتها [اي الكرة والصولجان]، واوتاد خيام ورماح، واجرينا سباق رفع الاوتاد امام مخيمنا، ثم قمنا انا ومحبوب

وغلام مرتضى بلعبة البولو على خيول النقيب. وعندما كنا نتسابق برفع الاوتاد تجمع جمهور من المشاهدين لرؤية شيء جديد تماماً بالنسبة اليهم ولايعرفونه. ولاريب انها المرة الاولى التي تجري فيها لعبة البولو في الجزيرة العربية.

وجلبت في صباح اليوم التالي نياق الى المخيم وحلبت امامنا. حلبت انا ومحبوب هذه النياق ايضاً. عملية الحلب سهلة جداً اذا ماقورنت بالبقر او الجاموس. شربنا جميعاً شيئاً من الحليب الذي كان طيباً جداً. وقال لنا نقيب الاشراف ان هذه النياق مخصصة للحلب ويجري اطعامها وفقاً لذلك. واشار الى ناقة قال انها فقدت وليدها بعد ولادته مباشرة، فاولعت بصبي عربي، ابن راعيها، واعتبرته صغيرها. وبالرغم من مرور ثلاثة اشهر على فقدانها صغيرها، فانها ماتزال متعلقة بالصبي العربي، وتتبعه اينما سار. واذا ماتظاهر احد من الناس باذية الولد فانها تظهر غضبها وتركض وراء مؤذيه. ولاتدر الحليب في الصباح والمساء مالم يحضر الولد ويلمس ضرعها اولاً. انه لمن الممتع حقاً ان ترى ناقة تحب صبياً عربياً كأنه وليدها.

وبعد ذلك غادرنا الربضية ووصلنا البصرة في حوالي الساعة الثانية عشرة. وبعد اداء صلاة الجمعة، ذهب ابي لرؤية الفريق طاهر باشا.

السبت ١٥ نيسان ـ غادرنا البصرة في حوالي الساعة الثانية عشرة ظهراً على الباخرة النهرية «مجدة». وتوقفنا في اليوم التالي ساعتين في العمارة حيث نزل قليل من ركاب الدرجة الثالثة. يبدو ان هذه المدينة واسعة جداً وفيها بيوت ذات طبقتين تواجه النهر.

الثلاثاء ١٨ نيسان ـ وصلنا الكوت هذا الصباح. وقد تغيرت المناظر تماماً هاهنا على ضفتي النهر. كنا نستطيع رؤية خيام سود على مقربة تعود للبدو ـ حوالي عشرين او خمس وعشرين خيمة مجتمعات ـ وكانت خيول ترعى العشب حول هذه الخيام.

وكان رجلان يرقبان كل قطيع من اربعين او خمسين فرساً. كانت الخيول طليقة تماماً، وكان على ظهر كل واحد منها غطاء اتقاء للبرد والذباب. وعلمنا من العرب الذين في الباخرة ان هذه الخيل جميعاً اناث، وقد ربطت الفحول بعيداً عنها. وكنا نرى كل اربعة او خمسة اميال خيام بدو سود مع خيولهم. وعندما رأينا قطعان هذه الخيول ترعى العشب، تلهفنا لمغادرة الباخرة والذهاب لرؤيتها، ولكن لم يكن في طوقنا ايقاف الباخرة. وكانت النواظير الميدانية في ايدينا دوماً. وكانت المشاهد على ضفتي النهر اروع مايمكن منذ ان غادرنا البصرة، ولكن اكثر ماامتعنا هي قطعان الخيول العربية التي كنا نراها كل مسافة اميال قليلة.

الخميس ٢٠ نيسان ـ مررنا هذا الصباح بسلمان باك. كان يعرف هذا المكان قديماً بالمدائن. وقد كانت مدينة واسعة جداً فيها مقر للحكم، ولم يبق منها الآن سوى جدران قليلة مهدمة. قريب الى هذه الخرائب مرقد سلمان. وقد كانت هذه المدينة قبل قرابة ١٣٠٠ عام واحدة من اكثر مدن البلاد العربية كثافة بالسكان. واشتهرت المدائن في جميع انحاء البلاد العربية بحكمائها وشعرائها ومؤلفيها ومركزها العلمي. اما اليوم فلا يرى فيها الا قليل من الاكواخ الطينية وبعض القطعان من الاغنام، بينها ذهل الرحالة قبل ثلاث مئة عام بثراء هذه المدينة الرائعة وجمالها وابهتها وفخامتها ومجدها.

وصلت الباخرة بغداد في حوالي الساعة الثانية بعد الظهر. كان على ضفتي النهر بيوت من طبقتين ملحقة بها حدائق صغيرة حسنة العناية جميلة الترتيب، فيها مختلف انواع الزهور واشجار الفاكهة، وكان الناس جالسين في شرفات بيوتهم يستمتعون بالمنظر الذي امامهم.

مررنا بعد فترة وجيزة بمختلف القنصليات الاوربية وعرفنا المباني التي تخص اماً مختلفة من اعلامها. رست باخرتنا امام دار الگمرك. وجاء لاستقبال والدي السيد داود افندي (ابن المرحوم نقيب الاشراف السابق) والسيد محيي الدين (ابن نقيب الاشراف الحالي) والسيد محمود افندي، واصطحبونا الى دار نقيب الاشراف. وكنا قد سمعنا ان موظفي الگمرك يسببون كثيراً من المشكلات للمسافرين بفتح جميع حقائبهم وفحص محتوياتها بدقة. وكنا نحمل معنا بعض المسدسات والبنادق وتوقعنا ان نواجه شيئاً من المزعجات، ولكن لم يتعرض احد لامتعتنا. وبعد ان قابلنا السيد النقيب ذهبنا الى مرقد «الغوث الاعظم»[٣٠]، وقرأنا الفاتحة، ركبنا الى الدار الذي وضعه نقيب الاشراف تحت تصرفنا. وكان من طبقتين يحيط به بستان كبيرة. ودهشنا لما دخلنا حجرة الاستقبال لما وجدناها مؤثثة حسب الطريقة الاوربية ويتجلى فيها الذوق والترتيب. كانت الارائك والكراسي مغطاة بحرير من طراز لطيف جداً، وينسجم لونها مع لون الستائر. وكانت طنافس نفيسة مفروشة على الأرض، وزينت الجدران بالرسوم الملونة.

وكانت الى جوار حجرة الاستقبال حجرة نوم والدي التي كانت تحتوي على كل وسائل الراحة والى جوارها حجرة الطعام حيث وضعت منضدة لاربعة اشخاص عليها ملاءة بيضاء ومناديل مائدة ـ كان كل شيء في الحقيقة كاملاً.

نزل ابي في صباح اليوم التالي تمشى في البستان الجميلة. فيها مختلف انواع اشجار الفاكهة، ولكنها لم تكن تحمل ثمراً، اذ ان الموسم هنا يبدأ في شهر تموز. وتحتوي البستان ايضاً على انواع مختلفة من الزهور. وكانت اشجار البرتقال مزهرة امتزج عطرها الفواح بشذا الورود. تنمو اشجار البرتقال الى ارتفاع عظيم في هذه البلاد، ويكاد يبلغ ثلاثة اضعاف ارتفاعها في حيدر آباد. وعندما دخلنا ذلك الجزء من البستان حيث زرعت شجيرات الورد، ذهلنا بحسنها فوقفنا طويلاً بلا حراك نتملى المنظر الأخاذ امامنا. انحنت اغلب الغصون حتى كادت تنكسر تحت ثقل الورود التي لاتحصى، كانت متفتحة بلون الدم. قال لنا ابي ان يأخذ كل واحد شجيرة ويحصي الورود المتفتحة فيها. حسبتُ ستين وردة وابي ستاً وخمسين ومحبوب خمسين. ان الامر في الحقيقة يتطلب مراجعة القاموس دوماً بحثاً عن نعوت مناسبة لوصف حسن هذا المكان من شجيرات الورد حيث بدا جزء كبير من تحت الاشجار احمر اللون من ورق الورد الساقط من الزهور. واني لن اتولى هذه المهمة التي انا موقن اني لن افيها حقها اذ انها تتطلب قلماً متمكناً في الوصف نابضاً بالحياة ابرع من قلمي المتواضع هذا الذي ليس الا مبتدئاً في فن الادب. اينما توجهت في البستان وجدت دلائل هبات الطبيعة السخية وكان كل شيء يتعلق بها مكتملاً، ولكن كتب من الناحية الاخرى الاهمال وعدم الاهتمام بحروف كبيرة. وبدت الطبيعة محرومة من يد البستاني الماهر التي تقدم لها العون. وكانت الاشجار كثيفة والارض بينها مليئة بالادغال ـ ولقد تحدث، في الحقيقة، الف شيء، صغير آخر عن الاهمال والحاجة الى العمل. الارض خصبة للغاية والمياه وفيرة. واني موقن ان مجال التطوير في هذه البستان فسيح، لو وجد الاهتمام بمعونة الطبيعة.

ذهبنا في الساعة الثانية عشرة الى المسجد المجاور لمرقد «الغوث الاعظم». وتوجد فسحة صغيرة على جهة من المسجد محاطة بتعريشة، يجلس فيها نقيب الاشراف ووالي بغداد والسر عسكر (اي القائد الاعلى للجيش) عند صلاة الجمعة.. واخذنا السيد النقيب الى ذلك المكان. وبعد الصلاة قرأنا الفاتحة في المرقد ثم تمشينا الى دار السيد النقيب الذي يقابل المرقد، وكان الوالي والقائد الاعلى يؤدي مع جميع الموظفين وشخصيات بغداد صلاتهم في هذا المسجد في ايام الجمع ثم يذهبون بعد ذلك الى منزل نقيب الاشراف ويمكثون قليلاً.

يطلق اسم نقيب الاشراف على الشيخ الاكبر القائم بامور مرقد حضرة «الغوث الاعظم» وله نفوذ كبير في بغداد ويحتل مركزاً مهماً في ادارة البلاد. وقد عين نائب رئيس مجلس بغداد، والرئيس هو الوالي. وثمة ثلاثة اعضاء آخرين، وبهذا تدير اللجنة المكونة من هؤلاء جميع شؤون ولاية بغداد، وتعقد ثلاثة اجتماعات في الاسبوع.

وذكر ابي في بغداد للوالي والموظفين الأخرين رغبته في رؤية خيول من سلالات نبيلة مختلفة. فقالوا له ان كاظم باشا معروفٌ بامتلاكه افضل الخيول في بغداد، ولكنه لسوء الحظ مسافر الأن. وتعهد الوالي وشخصيات أخرى ان يرسلوا خيولهم اليه لمعاينتها، وطلبنا ايضاً ان يجلب بائعو الخيل مايرغبون في بيعه من الخيل. وصرنا من اليوم التالي نرى جموعاً من الخيل امام بيتنا، بعضها تخص شخصيات مختلفة وبعضها تعود للبائعين انفسهم. اشترى والدي ثلاثة افراس لكي نستطيع الخروج راكبين عليها. وعندما رأى البائعون ان ابي كان يريد ان يشتري خيلاً، بدأوا يتقاطرون علينا زرافات، واهتبلنا فرصة رائعة في رؤية خيول عربية وعراقية، وبيّن لنا ابي المحاسن والمساوىء في الخيل بشكل واضح. وصرنا نرى كل يوم، طوال اسبوعين، عدداً كبيراً من الخيل، ولكننا لم نرَ، باستثناء فرس واحدة، اي حصان لايضاهيه حصان في اصطبلات صاحب السمو. الفرس التي المعنا اليها آنفاً تعود الى داود بك بن محمد باشا، القائد العام. واعجب ابي بها كثيراً كان ارتفاعها ١٥ قبضة[١] واصيلة، مليحة جداً، ذات رقبة جميلة وترفع ذيلها بشكل ممتاز عند عدوها. وبذل والدي قصارى جهده لكي يشتري هذه الفرس، غير ان داود باشا لم يبعها.

فكر ابي بعد ذلك بالذهاب الى الاماكن التي تربى فيها الخيول العربية. وعلمنا بعد استفسارنا ان اعداداً كبيرة من الخيول تربى في الموصل ومابين النهرين[٢]. يقتضي الوصول الى هذه الاماكن سفراً يستغرق عشرة ايام. فتحتم علينا ترك الفكرة وفكرنا بالذهاب الى اماكن قريبة كالمحمودية والمسيب والحلة، الخ... ولما علم مضيفونا واصدقاؤنا اننا ذاهبون الى داخل الجزيرة

العربية، جاءوا الى ابي واخبروه انه بسبب فيضان نهري الفرات ودجلة فان الريف قد غمرته المياه، وان الرحلة التي ازمع القيام بها ستسبب له كثيراً من المضايقات. غير ان ابي قال انه جاء الى البلاد العربية مصادفة وان لم يذهب الى داخل البلاد الآن فلعله لن يكون قادراً على رؤيتها ابداً.

اهل مدينة البصرة وبغداد وكربلاء والنجف الاشرف والكوفة والحلة والمسيب والمحمودية الذين شاهدناهم في سفراتنا، يلبسون ثياباً تتكون من سترة طويلة تصل الكاحلين وحزام حول الخصر - وفوق ذلك معطف فضفاض يدعى العباءة. اما لباس الرأس فيتكون من قطعة قماش مربعة، صنعت خصيصاً لهذا الغرض، تطوى في شكل مثلث فتعرف بالزبون(١)، وتغطي الرأس وتنحدر على الظهر وتغطي الاذنين ايضاً. وتثبت في مكانها بحبل سمكه نصف عقدة من وبر الجمال، ويضغط على الزبون (كذا) في دائرتين ويسمى العقال. اما لباس الترك الذين رأيناهم فيتكون من ملابس انكليزية اعتيادية مع الفيز(٢) على الرأس. اما علماء الدين والمتعلمون فيلفون قطعة قماش حول الطربوش.

تتألف البيوت عموماً من طبقتين، وتؤثث الغرف بارائك (تخوت) تصف قريباً من الجدران الاربعة، ويغطي الارض بساط نفيس، وليس من المعتاد في هذه الاماكن ان يجلسوا على الارض. الفئة المرفهة من العرب والاتراك يتناولون الطعام على منضدة ولاتقدم صحون الاكل واحداً بعد آخر بل ترتب على المائدة قبل بدء الاكل. ويستعمل الاتراك سكاكين وشوكات. اما اهل العراق فلايستعملونها. والقهوة منتشرة الاستعمال بشكل واسع.

السبت ٤ أيار - في الساعة السابعة صباحاً، انطلقنا من بغداد. وارسل الألاي قومنداني، اي مفتش الشرطة، شرطيين حراستنا قائلاً ان الطرقات غير آمنة تماماً ومن المستحسن ان يكونا معنا. ركبنا من بيوتنا عربات حتى جسر بغداد الذي يربط ضواحي بغداد القديمة بالجديدة الواقعة على ضفتي نهر دجلة. ولما كان الجسر مكوناً من زوارق فلم يكن من الامان عبوره في عربة. وقد كانت خيلنا حاضرة هنا، فتركنا العربة وعبرنا راكبين الخيل. كان في الواح الجسر صدوع واسعة مما تعرض الخيل للخطر بوقوع حوافرها فيها، غير اننا عبرنا بحذر شديد. وبعد ان اخترقنا بغداد القديمة، وصلنا الى منبسط من الماء (نتيجة الفيضان)(٣) فتركنا خيلنا وعبرنا في قوارب مدورة تشبه السلة تماماً تسمى محلياً «قفة» ثم مشينا مسافة تقارب الميل ووصلنا الى منبسط آخر من الماء عبرناه بالزوارق ووصلنا الى محطة البريد حيث وجب علينا ان نسافر في عربات البريد التي تشبه الحافلة الكبيرة وفيها عريش اضافي قوي واذرع عريضة شدت بها اربعة خيول جنباً الى جنب بعُدتها. دهش ابي بفكرة اربعة دواب تجر بهذه الطريقة وقال انه سيتخذ هذه الوسيلة في عربات نقل امتعة صاحب السمو لدى عودته الى الوطن. وعندما قطعنا مسافة قصيرة في هذه العربات، اعترض طريقنا واد عريض(٤) أقيم عليه قنطرة عرضها اربع اقدام تقريباً لعبور العربات. وصل الماء في الجدول بسبب فيضان نهر دجلة الى مستوى القنطرة التي كانت في حالة سيئة، ولما قطعت عربتنا نصف المسافة تقريباً انزلقت العجلة اليمنى وغاصت في الجدول وبقيت العجلة اليسرى على القنطرة. وانزلق بغلان في الماء وبقي واحد على المنحدر والرابع في الطريق. وخشينا ان تنقلب العربة ولكنها لحسن الحظ لم تنقلب وبقيت في توازن قلق ودهشنا للسبب الذي منعها من الانقلاب. خف الينا بعض الناس الواقفين على الجانب الآخر وحملونا على اكتافهم ثم اخرجت البغال وسحبت العربة بصعوبة بالغة، ثم استأنفنا السفر، وكان علينا ان نعبر جدولاً بين كل ميلين او ثلاثة اميال، وكان بعضها جافاً، بينما كانت الاخرى تحتوي ماءً.

المسافة بين بغداد وكربلاء قرابة ستين ميلاً، وفيها اربع مراحل حيث تستبدل البغال. وصلنا كربلاء في الساعة العاشرة مساء بعد رحلة مضنية، وكان نقيب اشراف بغداد قد هيأ لنا بيتاً مكثنا فيه. وفي صباح اليوم التالي ذهبنا الى «الدورغاه» اي المرقد وصلينا هناك.

مرقد الامام الحسين محاط ببناء منيف فسيح مربع الشكل، في كل جهة منه باب عملاق قوي جداً. وحول الساحة بيوت جليلة من طبقتين يسكنها علماء الدين والطلبة. ضريح الامام ومنائره الاربع المذهبة في وسط الفناء المربع، وحول القبر سياج مربع من الفضة المشبكة.

وبعد ذلك ذهبنا الى مرقد حضرة العباس القريب وهو اصغر من الاول في بنائه. وبعد ان قرأنا الفاتحة فيه عدنا الى بيتنا في الساعة التاسعة. وفي المساء ركبنا الى الموضع الذي كان فيه مخيم الامام الحسين اثناء المعركة، ثم ذهبنا الى مرقد حضرة الحر.

وفي صباح اليوم التالي غادرنا بعربات البريد الى النجف الاشرف وهي تبعد خمسين ميلاً من كربلاء. كان الطريق في الصحراء جيداً جداً نوعاً ما. وتوجد «خانات» في كل اثني عشر ميلاً لراحة المسافرين. وكانت المياه في كل هذه المناطق بسبب الفيضان في الاسبوع الماضي. وبالرغم من انه جف الآن الا ان الطريق مازال رخوا جداً وتغوص عجلات العربات عميقاً في الاوحال ولذلك فقد كانت البغال تسير ببطء ومشقة. كانت الحرارة اثناء النهار شديدة جداً، ولحسن الحظ كان النسيم لطيفاً فلم نشعر باثر الحرارة كثيراً. وصلنا النجف الاشرف في الساعة العاشرة مساء ونزلنا في الدار الذي هيأه لنا نقيب اشراف بغداد.

ذهبنا في اليوم التالي الى مرقد حضرة علي المرتضى الذي يشبه المرقدين في كربلاء من حيث بناؤه. وفي الضريح ثلاثة قبور لـ: علي المرتضى وآدم ونوح. وبعد قراءة الفاتحة تمشينا في المدينة قليلاً ثم عدنا الى بيتنا. واردنا الذهاب الى مدينة الكوفة ولكننا لم نستطع لان الطريق اليها غمرتها مياه الفيضان.

وزارنا عصراً قائم مقام او طالقدار النجف الاشرف مصطفى باشا. وسمعنا منه ان النهر قد فاض مرة اخرى في ليلة امس، وغرقت معظم الطرق كما حصل قبل اسبوعين، ولهذا السبب فان عربات البريد، التي كان مفروضا ان تصل في الصباح، تأخرت لهذا السبب وسوف تتعطل وسائط النقل اياماً قلائل. وعندما سمع والدي ذلك قال انه لاينوي البقاء اكثر من هذا بعد ان ادى الزيارة الى اضرحة الائمة، واذا كان من الممكن اجراء ترتيبات لتهيأة عربتين، فانه يود الرحيل في المساء. وكما قيل لنا في بغداد اننا لانستطيع وصول غايتنا بسبب الفيضان، فاننا وصلنا النجف الاشرف بطريقة او اخرى. وقال مصطفى باشا ان من الممكن جداً تدبير امر العربات، غير اننا سنواجه مصاعب كبيرة في الطريق بسبب الامطار الغزيرة التي ستجعل العربات عرضة ان تغوص عجلاتها في الطين، ولكن ابي كان قد عقد العزم. فارسل مصطفى باشا العربات وغادرنا النجف الاشرف في الساعة الثالثة عصراً. سرنا طوال الليل ووصلنا كربلاء في صباح اليوم التالي، ثم غادرناها في التاسعة زوالية الى المسيب. وبقينا نسير في طرق جيدة حتى الساعة الثانية صباحاً، عندما وصلنا الى بقعة طغى عليها ماء الفيضان بشكل غزير مما صعب على البغال ان تسحب العربة في هذا الجزء المغمور بالماء بالرغم من المحاولات الممكنة في مساعدتها، لذلك فككنا عدتها واخذناها الى مرتفع من الارض. وباءت جميع جهودنا بالفشل في سحب العربة في هذه الارض المغمورة بالماء من الساعة الثانية حتى الرابعة. وقررنا في الساعة الرابعة، مادام الامر مستحيلاً علينا ان نخرج العربات، ان افضل مانقوم به هو ارسال رجل الى المسيب التي تبعد مسافة اربعة اميال لكي يجلب لنا بعض الحمالين لنقل امتعتنا اليها. وعلى هذا فقد ارسلنا صوبه دار⁽¹⁾ عبد القادر (من فوج ميساراِم) واسماعيل افندي في هذه المهمة.

وصل الصوبه دار قبل شروق الشمس مع بعض الموظفين والحمالين ونقلنا الحمالون على ظهورهم الى ارض يابسة وتركنا العربات في محلها، وتوجهنا الى المسيب على خيل وبغال. وقررنا ان نتجه جنوباً الى الحلة وبابل، فقد كنا نرغب في رؤية الآثار المهملة لمدينة بابل القديمة، وقد سمعنا ايضاً ان العشائر العربية التي تمتلك اعداد كبيرة من الخيل تسكن في تلك المنطقة. توجهنا الى الحلة التي تبعد ٢٤ ميلاً من المسيب في الساعة التاسعة صباحاً في زورق شراعي، وبما اننا كنا نسير مع التيار فان تقدم الزورق كان حسناً. في الساعة الثالثة عصراً وصل زورقنا قرية تقع على ضفة النهر. لاحظنا سحباً سوداً في السماء باتجاه الغرب، وشاهدنا ايضاً عاصفة ترابية تتقدم نحونا، ولم نر شيئاً على مد البصر غير الغبار.

قال ربان الزورق الشراعي الذي يسمى صاحب السفينة ان عاصفة ترابية ستمر علينا فحول الزورق الى الشاطيء بسرعة عظيمة. وماكدنا نلتجيء الى مقهى قريب حتى اجتاحت العاصفة، التي تنبأ بها صاحب السفينة، المكان وظلت محتدمة شيئاً من الوقت. واظلمت الدنيا ولم نستطع رؤية شيء غير الغبار في كل مكان.

كانت الريح تهب بقوة شديدة بحيث بدت اشجار التوت التي امامنا كأنها ستنقلع من جذورها. وماكادت العاصفة تهدأ

قليلا، حتى انذر رعد بعيد باقتراب المطر الذي انهمر مدراراً فابتلت الاشياء التي تركناها في السفينة. ولحسن حظنا فان العاصفة، بالرغم من عنفها، كانت قصيرة وانجلت سريعاً، ومع ذلك لم يوافق صاحب السفينة على المسير اذ انه كان يخشى غرق السفينة. على انه بعد مساع كثيرة في اقناعه، استأنف الرحلة دونما رغبة منه. وكانت الريح مواتية، فرفعت الأشرعة وتقدمنا مسافة قصيرة بسرعة عظيمة، ولكن الريح غيرت اتجاهها فجأة وبدلاً من ان تسير السفينة في وسط النهر اتجهت نحو الشاطىء. وحاول العرب انزال الاشرعة وهم يتحدثون كثيراً ويصيحون، صاخبين، قبل ان ينجحوا في مسعاهم ارتطمت السفينة بقوة بالشاطىء. ولحسن الحظ لم تكن على ضفة النهر صخور، بل طين وتراب انهمرا في السفينة. ومرت الازمة دونما ضرر خطير، وفرح صاحب السفينة وهتف قائلاً بالعربية: مسنا الضر ومرّ ولم يترك فينا اثراً. ثم صار النواخذة يسحبون السفينة بالحبال ويدفعونها بالمرادي في الوقت نفسه.

وصلنا بابل في حوالي الساعة التاسعة مساء. والحلة على بعد اربعة اميال من بابل وكان عملدار[١] المسيب قد خابر من اجل تأمين راحتنا. وامضينا الليلة في راحة تامة في بيت احد اصحاب الاراضي اسمه ملا ابراهيم. وزرنا في صباح اليوم التالي آثار بابل التي انشأت في سنة ٢٢٣٢ ق. م عاصمة لارض شنعار. وبلغت اوج مجدها اثناء حكم نبوبولاصر وابنه نبوخذنصر. وكما يقول هيترو دانسن[٢] انها كانت مربعة الشكل طول كل ضلع منها اربعة عشر ميلاً. ويجري الفرات من وسط المدينة، وعلى ضفتيها مرافىء. وكانت المدينة محاطة بسورين، وعلى الضفتين تحصينات ثانوية. وقد جرت في السنوات الأخيرة الماضية تنقيبات وكشف عن بعض القصور والبيوت الخربة، وعن تماثيل ونقود قديمة، نقل اغلبها الى متحف اسطنبول والى بعض المتاحف الاوربية الكبيرة، ولكن بعض التماثيل الكبيرة مايزال يرى بين الآثار واشهرها تمثال اسد تحته انسان، ويظن ان ذلك يمثل قوة نبوخذنصر. اخذنا قليلاً من الطابوق من هذا المكان للذكرى، وعليها كتابة غريبة، لعلها اسم الملك نبوخذنصر، فيقال ان كل طابوقة مكتوبة تحمل اسمه.

تركنا بابل في الساعة التاسعة صباحاً في عربات البريد ووصلنا المحمودية في حوالي الثانية عشرة. وعلمنا ان على بعد قريب غمرت المياه قسماً كبيراً من الطريق، واستعملت الزوارق هناك للعبور. وصلنا الى ذلك المكان في الساعة الرابعة عصراً وتركنا عرباتنا وذهبنا في الزوارق. فاض ماء الفرات وغمر هذه المنطقة، استغرق عبورنا الى الجهة الاخرى حيث الارض اليابسة ساعة ونصف الساعة. ولسوء حظنا فاتتنا عربات البريد في هذا المكان فقد وجدنا انها غادرت قبل ساعة من وصولنا. وعندما سمع والدي ذلك، قال لحبيب عبد القادر ان يذهب الى خيم البدو التي يمكن رؤيتها على بعد قريب ويتفق معهم على نقلنا. ذهب عبد القادر في مهمته وعاد بعد نصف ساعة تقريباً ومعه فرس وحماران حصل عليها بمشقة من احد البدو وهو مالكها الذي جاء يصحبها.

تركنا جميع خدمنا وامتعتنا في البرية بمسؤولية الدكتور عناية علي خان. ركب والدي المهرة البدوية وعليها سرج عتيق شد به حبل رفيع بدلاً من الركاب. وركبنا انا ومحبوب الحمارين. وبدأنا رحلة العشرين ميلاً الى بغداد، التي كانت متعبة، مليئة بالمغامرات. ونصب صبي بدوي، يدعي بمعرفة الطريق، نفسه دليلاً لنا. كان تقدمنا بطيئاً بسبب المشاة الذين معنا. وبعد ان قطعنا نصف الطريق خيم الظلام وكان علينا ان نستدل طريقنا في ضوء النجوم الباهت. ولاحت في الساعة التاسعة اضواء بغداد من بعيد، وفرحنا بفكرة وصولنا الى بيتنا بعد وقت قصير والجلوس الى تناول عشاء شهي، ولكن لسوء حظنا لم يتحقق ذلك لان دليلنا الصغير ضيع طريقه في الظلام ووجدنا انفسنا نسير في سواقٍ وحقول مزروعة حديثاً ولهذا كانت الارض موحلة وساء الطريق جداً بحيث لم تستطع الفرس التي كان يمتطيها والدي والحمير التي كنا نركبها خطوة واحدة دون ان تكبو فترجلنا وواصلنا السير على ارجلنا. وكان من المستحيل علينا تمييز طريقنا بسبب الظلام، فجعلنا انوار بغداد نجومنا الدالة. وبعد مشي ثقيل في الحقول فترة من الزمن وصلنا الى منبسط من الماء في وسطه حائط ارتفاعه قرابة اربعة اقدام وعرضه قدم ونصف القدم، وكان في اغلب الظن حداً فاصلاً بين بساتين غمرتها مياه الفيضان.

قال لنا دليلنا انه ينبغي علينا ان نصعد الحائط، وكنا مضطرين لاتباع ارشاداته فصعد ابي اولاً وتبعناه. وقاد البدوي الآخر وحبيب عبد القادر الفرس والحمارين في الماء والطين قدر طاقتها.

لم يكن من اليسير قط السير على هذا الجدار الضيق في الظلام، اذ ان زلة قدم واحدة توردنا الماء. بدا نصف الميل هذا كأنه لن ينتهي ابداً. وكانت الريح في الوقت نفسه قارسة البرد، فكان ذلك مرهقاً لأبي الذي كان مايزال ضعيفاً بسبب حادث سيارته. وبعد مرورنا في بعض الازقة الضيقة والمظلمة في حوالي الساعة العاشرة مساءً وصلنا الجسر على نهر دجلة، حيث كان في الجهة الاخرى منه مقهى كبير، جلس فيه مئات من العرب يشربون الشاي والقهوة.

دخلنا المقهى وشرب كل منا قدحاً ساخناً من الشاي، مما اعاد الحياة الينا، ثم وصلنا مقرنا في الساعة الحادية عشرة ليلاً. ولما كنا قد ارهقنا طول السفر في ذلك اليوم فلم نتوان عن الذهاب الى الفراش بعد العشاء. وجلب رجالنا امتعتنا التي تركناها خلفنا في اليوم التالي.

في زمن الخليفة المنصور، كانت الكوفة مقر الحكومة العربية، وبما ان مناخ الكوفة لم يكن صحياً وكان الماء نزراً في تلك البقاع، ارسل الخليفة عدداً من رجالاته الى اماكن مختلفة من البلاد العربية ليختاروا موقعاً مناسباً لبناء عاصمة جديدة. فخرج، بناء على ذلك، كثيرون يبحثون، وبعد زمن عاد رجل منهم يدعى علي بن يقطين باخبار بقعة خصبة من الارض على ضفة دجلة، لامسكن فيها سوى معبد يقيم فيه برهمي. وقال ان المكان بديع المنظر وان مناخه يساعد على الصحة وفيه اشجار فاكهة كثيرة تنمو على ضفتي النهر. فلما سمع الخليفة بهذا الوصف، خرج بنفسه ليلقي نظرة الى المكان - الذي تقع فيه بغداد اليوم. استحسن المكان كثيراً وامر مهندسيه ان يرسموا خطة المدينة الجديدة.

وتأهب المنصور للعودة الى الكوفة من اجل ان يُرسل المواد منها لاقامة عاصمته الجديدة. وكان احد الامراء خارجاً للصيد فمر بالمعبد الذي قرب النهر ووجد برهمياً منهمكاً في عبادته. وعندما رأى البرهمي الرجل يقترب منه، سأله عن سبب اقامة المنصور مخيمه قرب دجلة. فاجاب الامير ان الخليفة المنصور اعجب بالمكان كثيراً وانه يتأهب لبناء مدينة عليه. فلما سمع البرهمي العجوز ذلك، قال: «اذهب وقل له انه لن يستطيع تحقيق امله، لانني سمعت من اسلافي ان الرجل الذي قدر له بناء مدينة في هذا المكان الجميل اسمه مقلاص». فدهش الامير كثيراً لدى سماعه ذلك، فقد كان مقلاص مشتهراً في البلاد العربية قبل مئتي سنة. فتقدم الامير الى المنصور ووقف امامه متفكراً. وعندما رآه الخليفة في هذه الحال سأله عن سبب تفكره فقص عليه ماسمع من البرهمي، فدهش المنصور كثيراً وقال: «اما والله الذي خلقني انا مقلاص». فتعجب الامير من قول الخليفة، فروى المنصور له الحكاية كما يأتي: عندما كنت صغيراً اتفقت مع ابناء عمومتي الصبيان ان يدعو كل واحد منا اصحابه الى طعام العشاء بالتناوب. فكان الصبي يدخر دنانير قليلة ليشتري طعاماً يدعو اليه الأخرين. جاءت نوبتي لضيافتهم ذات ليلة فلم اجد مالاً انفقه على شراء طعام. وكنت اعلم ان عمتي تخفي قليلاً من الدنانير، فلم يكن لي معدى من اخذ تلك الدنانير واشتريت طعاماً بها دعوت ابناء عمومتي اليه. وبعد ايام قلائل احتاجت عمتي دنانيرها التي اخفتها فلم تجدها. وحامت شبهاتها حولي وعندما رأتني صاحت بي: «يامقلاص انت سرقت نقودي»، فافضيت لها بما فعلته. وبينت لها ماوجب علي عمله لضيافتي ابناء عمومتي. وظلت منذ ذلك اليوم حتى نهاية حياتها تناديني مقلاصاً، ولكن لم يعلم بذلك احد سواها وسواي».[٣٣]

ولما رويت القصة للبرهمي الحكيم، اخذ طالع المنصور في النجوم، فقال: «هذا هو حقاً من قدر له ان يؤسس المدينة على ضفة دجلة». وبعد سنوات قليلة اكتملت المدينة وسميت بغداد، او بستان العدل، ونقل المنصور اليها مقره وعاش فيها سنوات عديدة.[٣٤]

رأى والدي اغلب الخيل في بغداد ورغب كثيراً في شراء حصان بني محمر نجدي، غير ان صاحب الحصان، وهو عربي ثري، رفض رفضاً قاطعاً بيع الحصان قائلاً: «يمكنك ان تأخذ اي مايعجبك من هذه الخيل. ولكنني لااسمح لأي حصان من نسل الصقلاوي الجدرانية ان يخرج من هذه البلاد، هذا النسل الخاص، من تربية فخذ عشيرتنا، الذي لم يحصل العرب على مثيل له». ولما رأى والدي عدم امكان اقناع هذا العربي بالتخلي عن الحصان، فلم يجد افضل من ان يطلب الى حضرة السيد محمود

افندي (ابن حضرة نقيب الاشراف)، المرشد الديني بجميع القبائل العربية الذي يكنون له احتراماً عظيماً، ان يتوسط في القضية. وعندما ذهب هذا الرجل الديني بنفسه الى صاحب الحصان وطلب منه، لم يجد العربي مناصاً من الاذعان، وهكذا اتيحت الفرصة لوالدي ان يشتري الحصان بـ ٢,٥٠٠ ربية. كان اسمه «فالح» وينتمي الى نسب خيل التوسية الصقلاوية الجدرانية عبيان الشرق. واعطى العربي الى والدي نسب «فالح»، مبينا ان هذا النسب محفوظ فترة طويلة لدى عائلته - منذ ايام الخلافة العباسية في بغداد. وظل يتحدث عن موضوع الخيل بعض الوقت، وقال انه، حسبما يعلم، لايعرف اي حصان من هذا النسب الخاص قد ارسل الى اي بلد اجنبي قبل هذا.

اطلق العربي الحصان بلا سرج او لجام فراح يجري حولنا مرفوع الرأس والذيل، وبدا كأنه رسم كالصورة الفوتوغرافية المنشورة هنا.

واشترى ابي حصاناً آخر، رمادياً جيلاً اصيلاً من شخص اسمه صالح بن سعيد وكان معروفاً في بغداد كلها. ينتمي هذا الحصان بنسبه الى خيل عنزة الحمدانية، واسمه «سامر». وقال صالح بن سعيد ان اخاه ارسل الى اسطنبول قبل سنتين، لسلطان تركيا.

ودع والدي في ١٢ أيار اصدقاءه العرب جميعاً، وكذلك الميجر رمزي، المقيم البريطاني في بغداد، والسيدة رمزي، زوجته.

قبل يوم رحيلنا، ارسل حضرة السيد عبد الرحمن (نقيب اشراف بغداد، مع والدي حصاناً كهيتنا جيلاً هديةً الى صاحب السمو النظام؛ وقد ارسل مع خيلنا الاخرى في الباخرة في ١٢ أيار. وابحرنا الى الهند في ١٣ أيار في الباخرة «خليفة». وفي اليوم الثالث من رحيلنا اي يوم ١٦ أيار رست الباخرة في البصرة.

وجاء السيد رجب افندي الى باخرتنا واخذ والدي في زورق الى قصره القريب، ثم جلبت باخرة صغيرة بقرب باخرتنا ونقلت جميع خيلنا الى باخرة كبيرة مسافرة الى الهند. وفي ١٩ أيار غادرنا البصرة الى بومبي. ووجدنا البحر هائجاً والجو مكفهراً. وصلنا بومبي، بعد رحلة استغرقت تسعة ايام، في ٢٨ أيار. وارتحنا فيها يوماً ثم امضينا اسبوعين في مهابلشوار في بيت جميل خصص لوالدي يشرف على منظر بديع وكان الجو لطيفاً صحياً.

غادرنا مهابلشوار في ١٧ حزيران ووصلنا حيدر آباد سالمين، وفي اليوم الخامس توجهت الى نظام آباد لاستأنف مهام وظيفتي قائم مقاماً لتلك المنطقة.

الحصان العربي

اشرت في قسم سابق من الرحلة الى الارشادات التي تلقيناها عن الحصان العربي وعاهدت ان اقدم تفصيلاتها وهانذا افي بعهدي.

كانت طريقتنا اليومية في تلقي المعلومات كما يلي: اولاً، نأخذ قسماً من الحصان، ونناقش محاسنه ومساوئه بالتفصيل. ثم نعرج على الامراض التي يرثها فندونها ونشرح اعراضها مع ذكر المعالجة التي يجريها البيطري والصحي المغولي، ويتم علاج هذا الثاني بادوية السوق التي يتيسر الحصول عليها في كل مكان تقريباً في الهند. وسادون هنا ماشرحه لنا والدي عن فم الحصان العربي وعينه.

الحصان النجدي، بين الخيول العربية، يستدق فمه حتى يبلغ حجماً صغيراً، لذلك فان من الصفات الرئيسة في الخيول العربية النجدية صغر خطمها. فمحيط خطم الحصان النجدي العربي الجيد ٢ - ١٤ او ٣ - ١٤ وينبغي الا يزيد على ١٤.٢/١ عقدة. وليس من اصناف الخيول الاخرى، باستثناء الاسترالية والعراقية، حتى العربية الاخرى مايمكن ان تضاهي النجدية بمثل هذه الافواه المستدقة. ويستحب ان يكون المنخزان واسعين والجحفلتان (الشفتان) رقيقتين لطيفتين، وان تنطبق العليا على السفلى

تماماً، والا تتهدل السفلى، وان يكون الفك الاسفل عريضاً مع اتساع بين عظام الفك والا يحتوي لحماً كثيراً. ويتناقل العرب حكاية عن عربي لديه حصان نجدي اعتاد ان يسقيه بالقدح الصغير الذي يشرب منه، مما يدل على جمال فم الحصان العربي النجدي. وشرح لنا ايضاً امراض الفم ومعالجتها، ولكن نظراً لضيق المجال، فاني مضطر الى تركها.

يعتمد الحكم على الحصان العربي كثيراً على عينه. وفي الوقت الذي يمكن تحديد النقاط الاخرى في الحصان، ليس من الممكن وضع قواعد دقيقة وثابتة للحكم على الحصان من عينه. يمكن للحكم الجيد ان يحكم على الحصان من عينه نتيجة للخبرة والتجربة فقط، ويمكن في الوقت عينه ملاحظة الصفات الآتية:

١ ـ هل الحصان هادىء ام شرس؟
٢ ـ هل هو طيّع سهل الانقياد وقابل للتعليم، ام يحتاج وقتاً طويلاً للتعلم؟
٣ ـ هل الحصان عصبي المزاج ام جفول، وخجول؟
٤ ـ هل هو بصحة جيدة ام لا؟

يقدم لون غشاء باطن عين الحصان معلومات نافعة في تشخيص بعض انواع الامراض. ويتضح تماماً انه لايمكن الحصول على معلومات كثيرة من اي جزء آخر من اجزاء الحصان بملاحظة مايخص صحته ومزاجه كما يمكن ذلك من العين.

ظل ابي ثلاثة ايام يناقش الخصائص ويعين محاسن ومساوىء الخيل العربية المولودة في اجزاء مختلفة من البلاد، كالخيول العربية النجدية والعنزية التي حرصنا انا ومحبوب على تدوينها. وبيّن لنا ابي ايضاً ان تجار الخيل العربية يطلقون على جميع الخيل التي يجلبونها الى بومبي اسم الخيول العربية، وهذه ليست صحيحة، لان كثيراً منها ولدت قرب بغداد وتعرف بالعراقية، وهي طبعاً عربية ولكنها ليست من ضرب رفيع. ومن العسير جداً تعيين صنف الحصان العراقي الذي اختلط دمه ونسله، ولكن لايوجد حصان كامل الصفات.

يمكن تقسيم مناطق تربية الخيل في البلاد العربية الى ثلاثة اقسام كما يأتي:

١ ـ في الشامية او بادية الشام وفيها تربى افضل الخيول العنزية، ويؤخذ عدد منها الى دمشق لبيعها.
٢ ـ الارض الواقعة شمال القسم الاوسط من بين النهرين العظيمين دجلة والفرات التي يطلق عليها العرب اسم الجزيرة وفيها الخيل الشمرية.
٣ ـ العراق او ارض دجلة وتشمل ولايتي بغداد والبصرة حيث يغرم البدو كثيراً بخيولهم ويهتمون بها كأنها اولادهم ويحرصون كثيراً على عدم ادخال دم غريب فيها يتلقيحها باي نسل آخر.

واني لااستطيع ان اقول اني ومحبوب لم نستطع ان نلم بجميع تفاصيل المعلومات الثمينة التي قدمها لنا والدي ولكننا سعينا الى فهم كل شيء قاله جهد مستطاعنا. ولكننا اذا ماذهبنا الى البادية ورأينا الخيول من الانساب النجدية والعنزية والطقلانية والغزلانية في مواطنها ونلاحظ اقسامها المختلفة فان التعليم الذي تلقيناه، نظرياً لحد الآن، سيكون تطبيقياً واني على يقين انه سيضيف كثيراً الى معرفتنا بالخيول العربية.

واني اسعى الى الاحتفاظ بكل المعلومات التي منحني اياها والدي عن الخيول العربية، وكل ماسمعناه ورأيناه في بغداد ومما افدناه من رحلتنا الى كربلاء والنجف الاشرف والحلة وغيرها.

يقع في وسط الصحراء العربية الجبل وحايل وشمر والى الجنوب منها عنزة ونجد. اعتاد سكان هذه المناطق قبل قرن تقريباً ان يمتلكوا الخيول العربية الفارهة التي كانوا يركبونها في جماعات كبيرة ويتجهون الى المدن على ضفاف نهري دجلة والفرات، والى المنطقة الواقعة بينهما المعروفة بالنهرين ويفيدون مما بها وينتقون افضل خيولها وبهذا صاروا يمتلكون الصفوة المختارة من خيول العراق. ومما هو مشهور ان اهل البادية حريصون في انسابهم، فلا يتزوجون خارج اهليهم من اجل المحافظة على نقاء النسب.

ويسلكون السلوك نفسه في مايخص تربية خيولهم، ويفضلون ترك الفرس دونما مهر على تلقيحها من حصان غير اصيل، ولهذا فانهم يمتلكون انقى الاعراق من الخيول العربية حتى الوقت الحاضر.

ويتخذ البدو الطريقة الآتية في رعي خيولهم: يبذرون المرطمان ويطلقون دوابهم في الحقل عندما يبلغ طول النباتات ٩ او ١٠ عقد لكي ترعى فيها، وتظل فيها مدة ثم تمنع عنها حتى يترك النبات ليعاود نموه. وتكرر العملية مرتين او ثلاث مرات قبل ان يترك الحاصل نهائياً لكي ينمو. وتبدو هذه العملية ممارسة جيدة جديرة بالتجريب في الهند وفي غيرها.

اما في مايخص بيع وشراء الخيول، فيقال انه قبل سنوات عندما لم يكن ثمة طلب عظيم على الخيل العربية، فان اهل شمر وعنزة ونجد كانوا يأخذون خيلهم الى بغداد والبصرة وبيروت ودمشق والمدن الكبيرة الاخرى لبيعها. اما في السنوات الخمسين او الستين الماضية فان الطلب ازداد تدريجاً، وصارت خيول اكثر تصدر الى بومبي. واخذ تجار الخيل في بومبي او وكلاؤهم يذهبون الى داخل الجزيرة العربية ويشترون الخيل من البدو.

اخبرنا السيد محمود افندي ابن نقيب الاشراف في بغداد انه اذا اراد مالك ارض عربي ثري او تاجر يحب الخيل، حصاناً عربياً من اي نسب امثال صقلاوي جدران او صقلاوي بير او غيرهما فانه يرسل وكيله الى الصحراء واذا وجد الحصان من النسب الذي جاء يبحث عنه، فانه يشتريه ـ ويدفع في الغالب ثمناً طويل الاجل، ولكنه اذا لم يعثر على بغيته فانه يبحث عن فرس يلقحها حصان من النوع الذي يريده ويتفق على ثمن المهر الذي لم يولد بعد ويدفع المبلغ لصاحبه، ويبقى مع الفرس حتى يولد المهر. واذا صادف ان كان مهراً فانه يأخذه واذا كانت مهرة فان صاحب الفرس يعيد المال الذي دفع مقدماً اليه. ويستطيع المرء ان يحكم من هذه الحقيقة ان العرب يقدرون انساب الخيل الجيدة.

استقيت المعلومات الآتية من عربي محترم من قبيلة شمر في مايخص تربية الخيل لدى البطون النجدية والشمرية والعنزية. من بطون العشائر الكثيرة التي تقسم اليها نذكر اهمها:

١ـ السلوم ٢ـ خبيث ٣ـ عفاريت ٤ـ جودي ٥ـ جدران ٦ـ فداجة ٧ـ جرداوة

٨ـ زواج ٩ـ تومان ١٠ـ ماجود

ومن البطون التي ذكرت آنفاً فداجة وزواج وهما اكبرها وتمتلكان قرابة ٢٠,٠٠٠ فرس. اما الباقون فيمتلكون قرابة ٥,٠٠٠ او ٦,٠٠٠ لكل منه.

وهذه البطون تمتلك اعداداً كبيرة من مختلف انواع الخيل، ولكن الآتية منها هي اكثرها شهرة.

١ ـ صقلاوي جدران ٢ ـ ميان ٣ ـ مريقي ٤ ـ نجمة الصبح ٥ ـ عبية الشرق ٦ ـ شواي مهنل الصبح

ويعزل البدو الفحول عن الافراس. وهم يحفظون نسب كل فحل بحرص شديد وحماسة عظيمة لدرجة ان بعض الفحول ترقى بانسابها الى خيل الخلفاء الراشدين وخلفاء بني العباس. وتبقى الفحول لدى شيخ القبيلة ويكون مسؤولاً عنها. ويحاول بعض الناس احياناً تسفيد افراسهم من هذه الفحول سراً، غير انهم لايفلحون عادة.

واغرب شيء، انهم لايدونون نسب الفحول الا نادراً، ولكن لكل شيخ ثلاثة او اربعة من العرب الثقات الذين يعرفون نسب كل حصان عن ظهر قلب. وثمة حقيقة أخرى أشد غرابة وهي انه عندما يسفد فحل فرساً فلا يحفظ بذلك سجل مدون، ولكن العرب ذوي الحافظة المذهلة المعروفين بأسم «قول باذ»(**) يتذكرون هذا ايضاً. ذاكرتهم عجيبة جداً بحيث اذا جاء احد الى شيخ القبيلة يبغي شراء خيل فان الشيخ يأمر النسابين ان يجلب كل منهم مالديه من خيل تتراوح مابين مئتين الى ثلاث مئة حصان،

وكلما مر حصان بالشيخ فان العربي الواقف قربه، وبيده عصا طويلة بربح عليها يديه والسلسلة، ويهتف بأسم أب الحصان. وقلما لايعرف الرجل اسم اب مهر او مهرة، واذا حدث ان كان يجهل اسم الحصان الذي سفد الفرس ولايعرف اسم والد الحصان لذلك فانه يخجل من جهله يطرق مخاطباً الشيخ قائلاً: الله وحده يعرف اسم ابيه.

سيعجب القاريء لحقيقة امتلاك عربي غير متعلم يسكن الصحراء مثل هذه الحافظة فيذكر اسماء وعلامات ثلاث مئة او اربع مئة حصان انجبت من سلالات مختلفة ويعرف شجرة انسابها ايضاً، غير اننا لو نظرنا الى تاريخ البلاد العربية قبل الف وثلاث مئة عام فسنجد ان راعياً اعتيادياً امياً من عرب البادية في تلك الايام يستطيع ان ينشد الآف الابيات من الشعر عن ظهر قلب، كل راع يحفظ قصائد وابياتاً جميلة الفكر والمشاعر بلغة بديعة. بدوي اليوم سليل اولئك حفظة الشعر، فلا عجب اذا استطاع سليل الاجداد ذوي الذاكرة القوية ان يتذكر انساباً طويلة للخيول التي يحبها كثيراً.

اعتدنا ان نسمع ان العلف في الجزيرة العربية نادر وانهم يعانون من الحاجة اليه، ولكن الامر في الحقيقة ليس كذلك، عدا مايخص القبائل التي تربي الخيل المستقرة حول الجبل وفي شمر. على انهم في الخمسين او الستين سنة الماضية سكنوا منطقة النهرين (جزيرة الموصل) فتوفر العلف لخيلهم منذ ذلك الحين. لان موطنهم الحالي يقع بين نهري دجلة والفرات الذي لايجف في اي وقت من اوقات السنة، وتنمو التمور والحبوب بوفرة على طول ضفاف النهرين.

مناخ العراق الذي تقع فيه بغداد والبصرة وكربلاء والنجف الاشرف ينقسم الى الفصول الآتية:

الخريف	ـ شباط وآذار ونيسان
الجو الحار	ـ ايار وحزيران وتموز
فصل الامطار	ـ آب وايلول وتشرين الاول
الجو البارد	ـ تشرين الثاني، كانون الاول، كانون الثاني(٦)

ولايكون علف الخيول في الحر وفيراً، لذلك فان اولئك الناس في ذلك الفصل يرحلون الى ضفاف الانهار حيث يوجد العلف. وتتغذى الامهار والمهرات على حليب امهاتها ستة شهور وتعطى احياناً حليب الماعز ايضاً. وتتجول طليقة مع امهاتها في الصحراء.

اكتشفت شيئاً غريباً للغاية وهو ان الخيول اذا بلغت سنة ونصف السنة او سنتين، ذكوراً او اناثاً، فانها تتزاوج في هذا العمر الصغير وان الافراس تلد ذكوراً بشكل ثابت. ولهذا فان الامهار اذا بلغت عمراً يمكن ان تستغني فيه عن حليب امهاتها، فانها تعزل عن بقية الافراس، وتباع جميع الخيل التي تزيد على سنتين عمراً الى التجار الذين يتوافدون من جميع انحاء العالم.

سمعت من عرب محترمين، ثقات، يعتمد على معلوماتهم ان تجار الخيل العربية لايشترون الخيل في الجزيرة العربية بثمن بخس كما يتصور بعض الناس الذين يذهبون لشرائها في بومبي. تكلف البديلة الجيدة الجيش عادة من اثنتي عشرة ليرة الى خمس عشرة ليرة. (الليرة عملة تركية تساوي نحو اربع عشرة رُبيّة) فهذه الخيول البديلة تكلف في البلاد العربية حوالي ١٦٨ الى ١٩٦ رُبيّة لكل حصان. ويتوقف ثمن النوع الافضل من الخيول العربية على النوع ونقاء الدم.

عندما زرنا الزبير رأينا حصاناً من نسل نجدي، عمره سنتان، يعود الى خالد باشا. سأل ابي عن كلفته، فقال له خالد باشا انه دفع ٨٠ ليرة ثمناً له او نحو ١١٢٠ رُبيّة. واعجب ابي بذلك الحصان ودفع ١٥٠ ليرة عنه ولكن خالد باشا لم يوافق على بيعه حتى بمثل ذلك الثمن.

وسأل والدي عن اسعار الخيل في بغداد ايضاً ووجد ان الخيول العنزية او الشمرية الاصيلة لايمكن شراؤها باقل من ٥٠ ليرة. ويمكن بطبيعة الحال شراء خيل عراقية جيدة نوعاً ما باسعار متهاودة.

حكى عربي محترم لوالدي ان نوع الخيول العربية قد تدهور، بصورة عامة، في صفاته اثناء السنوات القليلة الماضية. وان الجزيرة العربية لم تعد تنتج خيولاً عربية اليوم كما كانت في الايام الخوالي. وكان ابي متلهفاً لمعرفة السبب لعدم ارسال خيل عربية

اصيلة حقاً الى بومبي كما كانت ترسل سابقاً. واستفسر من عدة اشخاص ـ ذوى سلطة عليا، امثال السيد محمود والسيد ابراهيم افندي، البغداديين، وتلقى ايضاحاً ان الخيول العربية الاصيلة بلغت اوج كمالها في ايام الخلافة الاموية، ثم بعد ذلك جرى تهجين الخيول الاصيلة النقية الدم بخيول غير اصيلة ظناً منهم انهم سيحصلون على خيل اجمل واكبر حجماً، فاختلطت بذلك الانساب بصورة غير مفيدة.

وتعرف ذرية الخيول العربية والعراقية كما يأتي:

١ ـ اذا كان الاب عربياً والام عراقية فان المهر يعرف بالمجين.

٢ ـ اذا كان الاب عراقياً والام عربية فان النتاج يعرف بخبرو.

٣ ـ اذا كان الاب والام غير عربيين فيعرف الحيوان بالاعجمي.

٤ ـ واذا كان كلا الوالدين من نسل عربي صرف فان المهر يدعى عتيقاً.

دخل نتيجة لهذا التزاوج كثير من دماء الخيل العراقية في دماء الخيل العربية الاصيلة وخصوصاً في بغداد والبصرة والمسيب والحلة وغيرها، بيد ان قبيلتي عنزة وشمر. حافظوا على انساب خيولهم نقية تقريباً. ومن الحقائق المعروفة ان الخيول العربية التي اشتهرت في الهند بكونها خيل قتال وركوب وسباق، تتراوح بين ١ ـ ١٤ او ٢ ـ ١٤ وقلما تزيد على ٣ ـ ١٤ قبضة بشكل ثابت، وذلك هو القياس للخيول العربية الاصيلة من نجد وشمر وعنزة.

في المناطق المحيطة ببغداد والبصرة والحلة والمسيب، عندما ادخل دم الخيل العربية في الخيل العراقية، تحسنت في ظرف سنوات قليلة نتاجات الحيوانات في ارتفاعها، وجلب عدد كبير منها الى بومبي وباعها تجار الخيل، على انها خيل عربية اصيلة، الى افواج فرقة حيدر آباد وفيالق اخرى.

وحكى لي والدي ان فوجه القديم، حملة الرماح الثالثة التابعة لفرقة حيدر آباد، كان مقره في سنة ١٨٧٥ في اورانكاباد، فذهب من هناك الى بومبي لشراء خيل، ورأى فيها بعض الخيل العربية التي كان ارتفاعها ١٥ قبضة تقريباً، وعندما سأل التجار كيف تم انجاب هذه الخيل اجابوه ان بعض الضباط طلبوا اليهم استيراد قليل من الخيل العربية بهذا الارتفاع، وعاهدوهم ان يدفعوا لهم ثمناً جيداً لها، فجلبوها من بين النهرين، قرب الموصل بعد سفاد خيل عراقية كبيرة الحجم افراساً من عنزة وشمر.

وبعد ان لاحظ العرب ان الخيول التي ارتفاعها من ١٥ الى ٢ ـ ١٥ قبضة عليها طلب عظيم في بومبي واثمانها جيدة، بدأوا يستولدون خيلاً بهذه المواصفات، ونجحوا في انتاج خيل اكبر حجماً. وراح بعض العرب ايضاً يقلدون مربي الخيل الاستراليين بوسم الخيول على اكتافها، مع ان بعض مربي الخيل من عنزة وشمر يستنكرون هذه الممارسات ويبذلون جهودهم من اجل المحافظة على انساب خيلهم، غير ان اكثر من نصف القبيلة اخذوا يربون خيلاً كبيرة الحجم، وصاروا في محاولتهم كسب مال اكثر يدمرون انساب خيلهم.

ذكر لي والدي ان البولو (الكرة والصولجان) بدأت تصبح لعبة شعبية في الهند نحو عام ١٨٨٠، ونتيجة لذلك صار الطلب لخيول صغيرة للضباط وللاعبين الآخرين، ولكن في ذلك الوقت لم يُجلب الى بومبي الا عدد ضئيل من الخيول العربية الصغيرة. واستورد طوال الموسم كله حوالي ثلاثة او اربعة آلاف حصان، ولم يكن بينها من الخيل الصغيرة إلا اربعة او خمسة. وعندما اخذت هذه الخيل تنال الاستحسان في الهند، توجه تجار الخيل العربية في بومبي الى اماكن مختلفة لتربية الخيل في الجزيرة العربية وطفقوا يقنعون مربي الخيل بانتاج هذا الصنف من الخيل. لذلك فان الفحول والاناث الصغيرة الحجم في مابين النهرين (قرب الموصل) عزلت لاجل استيلاد خيل اصغر حجماً، وبعد سنوات اخذت بومبي تستورد مئات الخيل بارتفاع ٢ ـ ١٣ و ٣ ـ ١٣ قبضة. كانوا باديء ذي بدء يميلون الى انتاج نوع من الخيل كبير الحجم وقوي، ولكن الطلب لخيل البولو المفاجيء شجع انتاج دواب اصغر. ونظراً للانتقال من طرف الى طرف آخر، فقد عانت الخيول العربية كثيراً، لذلك فان نوعية الخيول الاصيلة التي كانت ترى سابقاً

في بومبي لاتجدها اليوم فيها. واخبرني ابي ايضاً ان الخلطة نفسها كانت السبب في تدمير جميع السلالة المحلية في الهند ونعني بذلك مثلاً خيول مناطق خاتياوار كونكاتيري، ماروار، مالاكاون، بوندي، والدكن. فقد اخذوا يضربّون الخيول العربية والاسترالية بهذه الاصناف ظناً منهم انهم بعملهم هذا يحسنون السلالة الهندية، ولكن النتيجة التي حصلت هي التدمير الكامل للسلالات العريقة، ولم يتحسن نسلها قط. اخبرني ابي انه عندما كان في الثانية عشرة من عمره كان لديه حصان دكني اصيل كستنائي اعتاد ركوبه عند الصيد، وان بنيته وشكله وهيكله تشبه تماماً الخيل العربية من الطراز الاول في ايامنا هذه. وقال ايضاً ان خيول خاتياوار في تلك الايام كانت وسيمة، سريعة الجري. ولو كانت تلك السلالة النقية موجودة اليوم لفاقت الخيول العربية في البولو، وفي السلالات الكونكاتيرية والدكنية خيول ممتازة ايضاً.

في الدكن، استغنى علي بن عبد الله عن جميع فحول السلالة الاصيلة لخيول لمالاكاون وكونكاتيري، واستبدلها بخيول عربية وكانت النتيجة ضياع السلالة القديمة في الدكن، ولم يكن النسل الجديد بافضل حالاً قط.

وكنا في بغداد ذات مساء نناقش مسألة الخيول بعد تناولنا العشاء، وذكر ابي في معرض الحديث انه قبل اثنتين واربعين سنة، عندما كان في الثانية عشرة من عمره، اخذه جدي الى «جاترة»[17] في مالاكاون حيث يعرض نحو خمسة آلاف حصان للبيع. ويحضر عدد كبير من الناس من حيدر آباد لشراء الخيل، وقد بيعت بعض الخيل في معرض الخيل ذلك بـ ٢٠٠٠ ربية الى ٢٥٠٠ ربية.

مالاكاون قرية بين حيدر آباد واوراكاباد حيث تقام جاترة ومعرض للخيل ايضاً. قال ابي ان اغلب الخيل في المعرض كانت من سلالة دكنية صرف ـ وسيمة، حسنة الشكل، جيدة الهيكل، ولم نعد نجد ذلك النمط وتلك السلالة اليوم. كانت فرقة حيدر آباد وكل افواج خيالة صاحب السمو النظام تملك في ذلك الحين خيولاً دكنية ومالاكاونية، غير ان تلك السلالة ضاعت تدريجاً، وكان سبب ذلك الاختلاط الدائم الناقص في الارومات.

كانت الخيول العربية الاصيلة في السابق تعرف باسماء آبائها، فيقال مثلاً عن مهر انه صقلاوي جدران وان اسم ابيه كذا وكذا، غير ان الاسلوب قد تبدل اليوم واتخذت بعض القبائل طريقة جديدة، فتركوا اسم الأب وصاروا يميزون المهر باسم امه، واذا استمرت جميع القبائل العربية في تبني هذا النظام فان ضرراً سيصيب انساب خيلهم.

التعليق والهوامش

اهمية الرحلة:

تتجلى اهمية الرحلة في كونها تثبت في يوميات شاهد عيان ذكر فيها مارآه في بداية هذا القرن منذ دخوله البصرة، وقبلها ايضاً، حتى وصوله بغداد، ووصف بعض احوال العراق الادارية والاجتماعية وطرق المواصلات ووسائلها النهرية والبرية، ومافعله فيضان عام ١٩٠٧ فيها. ويولي اهتماماً خاصاً بالخيول العربية وصفاتها وانسابها وتربيتها وتسويقها داخل العراق وخارجه. ويرد فيها ذكر شيخ المحمرة خزعل، امير عربستان العربية من ١٧٩٧ ـ ١٩٢٥. وعبد الرحمن النقيب رئيس اول وزارة عراقية عام ١٩٢٠. وكان حاكم حيدر آباد في الدكن يعتبر من تابعي نقيب بغداد، ويقال ان للشيخ عبد القادر الگيلاني ابنا اسمه عبد الرزاق هاجر الى الهند ومازال هذه العائلة القادرية هناك. وكانت تُرسلُ اموالٌ طائلة وملابس موشاة بالذهب هدايا الى نقيب بغداد من حيدر آباد. وحيدر آباد من مراكز التراث العربي الاسلامي الذي حفظ ونشر فيها.

الهوامش

١ ـ ترد في عنوان الرحلة وغضونها اصطلاحات عسكرية وغيرها ليست عربية ، رأيت من المناسب اعطاء معانيها .

أ ـ نواب :

من القاب ابناء الملوك وهي من العربية وتعني الوصي او الحاكم . وهي ايضاً لقب لامير مسلم في الهند ، ويطلق ايضاً على شخص مسلم من ذوي المنزلة السامية وليس له وظيفة .

ب ـ يار جونك :

يار الشجاع وجونك المحارب فهي تعني المحارب الشجاع .

جـ ـ بهادر :

اي البطل .

د ـ افسر الملك :

وتعني تاج المُلك وهي رتبة عسكرية تعني الضابط .

هـ ـ النظام :

وهي من العربية وتعني لقب حكام حيدر آباد المسلمين بالهند من عام ١٧١٣ الى عام ١٩٥٠ .

٢ ـ شاه جهان :

هو الامبراطور المغولي المتوفى عام ١٦٦٦م حكم من ١٦٢٩ الى ١٦٥٨ وفتح كثيراً من بلاد جنوب الهند . وبنى صرحاً او ضريحاً فخماً لزوجته ارجمند يعرف بتاج محل في اكرا . وشاه جهان هو لقب خُرّم ابن الامبراطور جهانجير بن تيمور نال مكافأة على انتصاره في بلاد الدكن عام ١٦١٦ .

٣ ـ ستيفن لنج :

كان اول امر ستيفن لنج تشغيل باخرتين في المياه العراقية بعد عام ١٨٤١ ، وقام لنج وفيلكس جونز وآخرون بعمليات المسح ورسم الخرائط في العراق وظلت هذه الخرائط تستعمل حتى سنة ١٩١٤ ، وكان لشركة لنج فروع في الهند ودول الخليج العربي والعراق للنقل البحري . واستعملت باخرتين حديثتين في سنة ١٨٦١ وكانت تنافس بواخر «ادارة عُمان العثمانية» . وكان ستيفن لنج قد اشتغل في العراق ستتين وغرق اخوه في الباخرة «دجلة» في شهر مايس ١٨٢٦ لهبوب عاصفة وغرقها في نهر الفرات وكانت شركة لنج يطلق عليها الاهالي «بيت لنج» وكان مقرها في البناية القريبة من عمارة البدوي الحالية وقد اصبحت الآن سوقاً عصرية وكانت فيها مكتبة تبيع الكتب الانكليزية وتسمى مكتبة مكنزي .

٤ ـ ذكر ان النخل يبدأ بالحمل في ايار وينضج في ايلول ويكون منظر الاشجار بديعاً في شهري ايلول وتشرين الاول ، اشد شهور السنة حرارة . غير ان الصحيح ان النخل يبدأ طلعه في شهر آذار وينضج في شهر تموز اما اشد الشهور حرارة فهما تموز وآب .

٥ ـ الليبرة هي وحدة وزن رومانية قديمة تساوي ٣٢٧,٥ غراماً وتسمى ايضاً باون اي الرطل الانكليزي ويساوي ٤٥٣ غراماً .

٦ ـ الرّبية هي عملة عثمانية تساوي بعملتنا اليوم خمسة وسبعين فلساً . كانت مستعملة في بغداد في عام ١٧٥٠م وهي عملة هندية او متأثرة بها واصل الكلمة من السنسكريتية .

٧ ـ نهر الكارون احد روافد شط العرب وليس الفرات .

٨ ـ جدار = من جاما اي ثوب ، ودار اي حامل فيكون المعنى حامل ثياب السلطان او الامير او المسؤول عنها .

٩ ـ ذكر تعبير «سلام دره» فاخطأ لانه من الايعازات العسكرية وصوابه «سلام خذ» .

١٠ ـ ترد كلمة الافطار بمعنى وجبة الطعام او الطعام عموماً وهي هنا تعني الغداء .

١١ ـ زبيدة خاتون اي السيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد وهي طبعاً غير زبيدة خاتون زوجة السلطان ملكشاه السلجوقي . ويطلق ايضا على زمرد خاتون اسم زبيدة خاتون وقبتها في كرخ بغداد .

١٢ ـ لم تشق زبيدة قناة من سوريا الى الكعبة فهو امر مستحيل وغير منطقي ، بل دعت خازن اموالها وامرته ان يدعو المهندسين والعمال من انحاء البلاد وقالت له : «اعمل ولو كلفتك ضربة الفأس ديناراً» .

ووفد على مكة اكفأ المهندسين والعمال ووصلوا منابع الماء في الجبال واعتمدوا على عين حنين فارسلوا منها الماء تحت الصخور حتى تغلغل من وادي النعمان على مسيرة ١٠كم من مكة وصار اهلها وحجاج البيت يستقون من مائها التي سميت بأسم «عين زبيدة» ولايزال هذا الماء يجري الى مكة بعد تطويره حديثا . كما ان السيدة زبيدة مهدت طريق الحج من العراق الى الحجاز عبر الصحراء وبنت عليه المرافق والمنازل وحفرت الآبار ومازال يعرف بأسم «درب زبيدة» .

١٣ ـ يقصد بالغوث الاعظم الشيخ عبد القادر الكيلاني ولاينبغي هذا الوصف الا لله وحده . واليه تنسب العائلة القادرية التي ينحدر منها عبد الرحمن النقيب .

١٤ ـ القبضة وحدة قياس ارتفاع الخيل وتساوي اربع عقد (انجات).

١٥ ـ يرد ذكر مابين النهرين بأسم النهرين ويقصد بذلك الجزيرة اي مابين دجلة والفرات في شمال العراق قرب الموصل.

١٦ ـ الزبون بلغة اهل العراق يطلق على الرداء الطويل الذي يشبه المعطف ويصل الكاحلين. وقد مر ذكره في الرحلة بتعبير سترة طويلة. اما ماذكره هنا فهو المقصود به الكفية او الفترة او «الشماغ». وكلمة زبون مستعملة في العراق ونجد وشمال افريقيا. ولعلها من (زبن) اي كف او دفع ـ البرد ـ وتعني ايضاً المكان الضيق فهو اذن ثوب ضيق بالنسبة الى العباءة والقباء.

١٧ ـ الفيز هو الطربوش الاحمر من صنع مدينة فاس المغربية وهو لباس الرأس لدى العثمانيين والمغاربة.

١٨ ـ فيضان عام ١٩٠٧ الذي بدأ إثر هطول الامطار وذوبان الثلوج يوم الخميس ٢٨ آذار.

١٩ ـ يقصد بالوادي العريض النهر الدارس.

٢٠ ـ صوبه دار اي الحاكم او الوالي او الأمر.

٢١ ـ عملدار صوابها علمدار اي صاحب العلم.

٢٢ ـ هيترو داتس صوابه هيرو دوتس، المؤرخ اليوناني المعروف.

٢٣ ـ ذكر د. حسن ابراهيم حسن في كتابه تاريخ الاسلام الجزء الثاني ط ٧ بيروت ١٩٦٤ ص ٣٦٥ ومصادره الطبري وابن الجوزي في مناقب بغداد، والفخري، انهم ذكروا حكاية تظهر عليها مسحة الاختلاق. ذلك ان راهباً من رهبان الدير القريب من بغداد سأل اصحاب المنصور عن الرجل الذي يريد ان يبني المدينة فقيل له امير المؤمنين الخليفة المنصور، فسأل الراهب عن اسمه فقيل عبد الله، فسأل عما اذا كان للخليفة اسم غير هذا فقيل: اللهم لا، الا ان كنيته ابو جعفر ولقبه المنصور. فقال الراهب للرجل: اذهب اليه وقل له لايتعب نفسه في بناء هذه المدينة، فإنا نجد في كتبنا ان رجلاً اسمه مقلاص يبني ههنا مدينة ويكون لها شأن من الشأن، وان غيره لايتمكن من ذلك. فجاء الرجل الى المنصور، فقص على الحاضرين قصته وهو صغير: «أما والله كان اسمي مقلاصاً وكانت تضرب به الأمثال. وكان لنا عجوز تربيني فاتفق ان صبيان المكتب جاءوا يوماً الي وقالوا لي نحن اليوم اضيافك، ولم يكن معي ماانفقه عليهم. وكان للعجوز غزال، فاخذته وبعته بما انفقه عليهم. فلما علمتْ اني سرقت غزالها، سمتني مقلاصاً، وغلب علي هذا اللقب، ثم ذهب عني والآن عرفت اني ابني المدينة.

٢٤ ـ اطلق ابو جعفر المنصور على المدينة التي شيدها اسم «مدينة السلام» تيمنا بالجنة وتثبيتاً لذكر الله الوارد في القرآن الكريم بأسم «السلام». وصار الناس يسمونها «مدينة المنصور» نسبة الى الخليفة الذي شيدها، وسميت ايضاً «الزوراء» و «المدينة المدورة». واطلق عليها وعلى ماشملته من ابنية اخرى عند توسعها اسم «بغداد» الذي كان يطلق على هذه المنطقة منذ ايام البابليين ـ العراق في التاريخ ـ بغداد ١٩٨٣.

٢٥ ـ قول بان اي النسابون وهنا هم نسابو الخيل.

٢٦ ـ تقسيمات الفصول هنا وتسمياتها غير مضبوطة ولها عند ابناء الشعب تقسيمات واسماء اخرى.

٢٧ ـ جاثرة اي سوق.

ذكر المؤلف ان الزبير تبعد عن البصرة عشرين ميلاً. وهي اليوم تبعد عنها نحو عشرين كيلو متراً، ولعل تقديره ذلك ناجم عن الطريق الملتوية آنذاك.

وذكر ايضاً انهم لعبوا لعبة «البولو». واقول كان يسميها العرب في ايام العباسيين «لعبة الكرة والصولجان» وكلمة صولجان كلمة اجنبية تعني بالعربية العصا المعقوفة الرأس. وأصل اللعبة من التبت التي جاءت منها كلمة پولو.

وذكر كذلك ان لضريح الامام الحسين اربع منائر مذهبة، وهي في الحقيقة منارتان وقبتان.

طبعت هذه الرحلة في بومبي في مطبعة جريدة بومبي سنة ١٩٠٨ وقد اهداها مؤلفها ـ الذي كان في القوات المسلحة لصاحب السمو النظام ـ الى العقيد نواب الملك بهادر أفسر المرافق الاقدم لصاحب السمو وامر الجيش النظامي والنظام دليلا على الاحترام والمحبة. فكان يعد نفسه ايضاً مطيعاً له.

• • •

صدام حسين تقدم الرجال في معركتي التحرير والبناء.

الرحلة الشرقية للاب فيليب الكرملي (١٦٢٩م)

ترجمة وتعليق
الاب د. بطرس حداد
بغداد - الجمهورية العراقية

مقدمة المترجم:

هذه واحدة من اقدم الرحلات التي نجد فيها بعض الاخبار والمعلومات عن قطرنا العراقي في النصف الاول من القرن السابع عشر، اقدمنا على ترجمتها لفائدة المؤرخ العراقي المعاصر.

وصاحب الرحلة راهب كرملي، ولد قرب افينيون (فرنسة) سنة ١٦٠٣، وكان اسمه «اسپري جوليان» Esprit Julien ودخل دير الكرمليين في ليون سنة ١٦٢١ وهناك ابدل اسمه على عادة الرهبان فاتخذ اسم «فيليب» Philippe de la Trinité وقد نسبه رؤساؤه للعمل في ديرهم في بلاد فارس، فغادر بلاده ورحل الى الشرق، وقدم الى العراق سنة ١٦٢٩ عن طريق حلب ثم عانه فبغداد، ومنها الى بلاد فارس. وفي السنة التالية عاد الى العراق فنزل في البصرة ثم أبحر الى الهند، وبعد عشر سنوات رجع الى اوربا. وهناك تسنم مختلف المسؤوليات الكنسية، حتى اصبح رئيس الرهبنة الكرملية العام (١٦٦٥) وتوفي في نابولي في ٢٥ شباط ١٦٧١.[1]

له مؤلفات عديدة تاريخية دينية، ومايهمنا منها هو كتاب «الرحلة الشرقية» الذي نشره باللغة اللاتينية سنة ١٦٤٩ ونظراً الى اسلوبه الشّيق، واهتمام الغرب بمعرفة مايدور في الشرق من احداث فقد تُرجمت الرحلة الى الفرنسية ونشرت سنة ١٦٥٢ (وطبعت ثانية ١٦٥٩) كما ترجمت الى الايطالية ١٦٦٦ (وطبعت من ثم في البندقية ثلاث مرات) والى الالمانية فطبعت في فرنكفورت ثلاث مرات (١٦٧١ - ١٦٧٣ - ١٦٩٦).

وقد ترجمنا الرحلة عن الطبعة الاولى بالنص اللاتيني التي نشرت في ليون سنة ١٦٤٩ في حياة المؤلف، واكتفينا بترجمة مايخص العراق من الرحلة.

كلمة في الرحلة:

نرى ان المؤلف وضع كتابه لالغاية علمية، بل كتقرير مبسط لرحلته، واضاف الى ذلك بعض الاخبار والمعلومات السطحية لاشباع فضول اصدقائه الغربيين بعد عودته الى بلاده، فهو يعد القراء في عنوان الكتاب انه يتكلم: «عن حوادث الرحلة واقاليم الشرق وعن الجبال والانهار والامراء والسكان... وعن الحيوانات والاشجار والنباتات والاثمار...».

وهذه طريقة لجذب اكبر عدد من القراء. لكننا عندما نتصفح الكتاب نراه مختصراً جداً، وان افكاره غير متسلسلة، ونلاحظ جهل المؤلف بعادات الشرق فهو بعيد عن البحث العلمي ويكتفي بقوله «رأينا قرية.. او مدينة» ولايجهد نفسه بالسؤال عن اسم تلك القرية او المدينة، ولم يكلف نفسه عناء ضبط التواريخ رغم قربه الزمني من حدوثها فيكتفي بالقول: «قبل مدة... او قبل سنوات» وماشابه ذلك.

حصة العراق في الرحلة قليلة، بينما يتوسع المؤلف في الامور التي تخص بلاد فارس والهند. ورغم مرور السائح بالعراق في فترة حرجة من تاريخ قطرنا، اذ كانت بغداد ترزح تحت نير الاحتلال الفارسي، فانه اكتفى بالتنويه باخبار عامة.

الرحلة الشرقية
للاب فيليب الكرملي (١٦٢٩م)

السفر الى الشرق[*]

. . . وصلنا[١] الى حلب في ١٨ نيسان [١٦٢٩] وغادرناها في ٦ ايار.

يجدر القول ان البادية التي تفصل حلب عن بغداد هي صحراء قاحلة خطرة. ولذا لايجازف التجار بالسفر فيها منفردين بل يتجمعون في قافلة كبيرة. وقبل رحيلهم يجب عليهم ان ينالوا اذناً بالسفر من باشا حلب، بعد ان يقدموا له مالاً وهدايا. وعليهم ايضاً ان يرسلوا وفداً الى «ملك البادية» يطلبون منه السماح بالمرور عبر اراضيه، فيمنحهم كتاباً خطياً مشفوعاً بكلمة شرف للمحافظة على سلامة المسافرين وارواحهم، بشرط ان يدفع تجار القافلة ضرائب عن بضائعهم. . .

اتفقنا مع رجل ليُعِدّ لنا المؤن والمطايا ويقوم على خدمتنا من حلب الى فارس لقاء ستين سكودو[٢] عن الشخص الواحد. . . فاعدّ لنا جملين تتدلى على طرفي الجمل محفّتان، واحدة لكل راهب اذ كنا اربعة. . .

تتخذ القافلة قائداً يسمى «كروان باشي» اي رئيس القافلة. فهو يدير امورها، ويحل المشاكل التي قد تحدث بين التجار، ويعاقب المذنبين، ويتخذ القرارات الحاسمة، ويرشد الى الطرق الامنية، ويقرر اوقات السير او التوقف.

. . . هناك طريقة عجيبة للمراسلة بين حلب وبغداد وذلك بواسطة الحمام الزاجل.

عانه.

وصلنا الى عانه وهي عاصمة البادية، وتقوم على ضفتي الفرات. هناك امضينا شهراً كاملاً رغماً عن ارادتنا. فبعد ان دفع التجار الضرائب عن بضائعهم، واستعدت القافلة لاستئناف الرحلة، جاءنا موفد جديد من الملك يطالب بالبضائع والامتعة الخاصة بالرجال الذين ماتوا في الطريق، لانه يرث كل من يموت في اثناء السفر، وكان عارفاً بالقتال الذي نشب بين بعض رجاله وجماعتنا ومات من جرائه بعض المسافرين. . . وبعد اخذ ورد استغرق اياماً تمت التسوية بمبلغ قدره ٢٠٠ سكودو حمله اثنان من القافلة الى الملك[٣] فرضي بذلك واذن لنا بالرحيل. وجدنا في عانه قافلة مسافرة من بغداد الى حلب والتقينا برجلين اوربيين احدهما جراح فرنسي يدعى «دوماج» يلبس الزي العربي، وكان ملك العرب قد دعاه لمعالجته من مرض ألمّ به، وبعد ان انهى مهمته كان في طريق عودته الى حلب حيث يقيم، والثاني تاجر الماني اسمه برنارد. . .

عبرنا النهر الى ارض مابين النهرين، ومن هنا الى بغداد لاتزال امامنا مسيرة اثني عشر يوماً. وكنا نسير بمحاذاة الفرات، وفي طريقنا رأينا قرى عديدة مابين كبيرة وصغيرة قائمة على ضفة النهر. كما شاهدنا موقعاً يخرج القار من باطن الارض. وقد استعمل البابليون هذه المادة قديماً في بناء برجهم الذي رأيناه يوم وصولنا الى بغداد.[٤]

بغداد:

في الايام الثلاثة السابقة لوصولنا الى بغداد، ابتعدنا عن الفرات واخذنا نقترب من دجلة، فنرى الاراضي الخضراء وغابات النخيل. وفي اليوم السادس من تموز [١٦٢٩] ظهرت لنا مدينة بغداد الشهيرة، فلم يتمالك بعض الرجال الارمن انفسهم فعبّروا عن فرحهم باطلاق العيارات النارية تحية لبغداد، وحمداً لله على السلامة.

لكن بغداد الشهيرة هي نصف خراب حالياً.[٥]

نزلنا في دار الآباء الكبوشيين،[٦] وبقينا عندهم الى ٢٢ تموز. وكان الحر شديداً لايطاق، رغم ان الآباء بذلوا جهداً مشكوراً لتخفيف ألمنا والترويح عنّا بمختلف الطرق.

اضطررنا للبقاء في بغداد هذه المدة الطويلة لان التجار ابدلوا الجمال بالبغال، كما انهم ارغموا على تبديل الريالات الاسبانية[٧] بالعملة الفارسية، وفي هذه العملية يستفيد حاكم بغداد كثيراً.

السفر من بغداد:

تركنا بغداد في ٢٣ تموز عند الغروب ووجهتنا بلاد فارس. وفي تلك الليلة قطعنا خمسة وعشرين ميلاً. لان الارض سهلة منبسطة، والبغال اسرع من الجمال في السير. فوصلنا الى بلدة تقع على نهر ديالى، وعبرنا النهر على جسر من القوارب. وفي الليلة التالية قدمنا الى قرية كثيرة الجداول عامرة بالنخيل. وفي الليلة الثالثة توقفنا في قرية يمر بها جدول. وفي الليلة الرابعة قربنا من نهاية منطقة كلدية ونزلنا في قرية قائمة على نهر صغير ورأينا جسراً من الآجرّ شيده الشاه عباس(١) عندما استولى على بغداد، فاراد بذلك ربط ارض كلدية بارض فارس.

الفرس والعثمانيون:

مضت تسعة اشهر على وجودي في فارس، عندما وصلني ايعاز لمغادرتها. وفي تلك الفترة كان السلطان الاعظم قد اعدّ جيشاً عرمرماً قيل انه يبلغ ثلاثمئة الف محارب، وذلك لاسترجاع بغداد من قبضة الفرس. لكنه قبل ان يتوجه الجيش الى بغداد سار لاكتساح الفرس في عقر دارهم(٢) لان القتال في ارض كلدية صعب في فصل الصيف.

فتوغل الجيش في فارس حتى وصل الى همدان التي تبعد عن اصفهان مسيرة ستة ايام، وقيل ان قائد الجيش الفارسي زنيل خان تواطأ مع الاتراك، فنال جزاءه بالموت.

لم يستطع الفرس مقاومة الاتراك فهؤلاء اقوى منهم بكثير، لكن الفرس اكثر منهم مكراً في خطط الحرب. فكانوا يتقدمون نحو مواقع الاتراك ويخيمون، وماان يبلغهم خبر استعداد هؤلاء للهجوم حتى كانوا ينسحبون تاركين الارض قاعاً صفصفاً، ويضعون السم في موارد المياه. وعندما يصل المهاجمون الاتراك بعد جهد جهيد وافتقاد المؤن الضرورية للجنود والعلف للحيوانات فيعودون ادراجهم خاسرين.

فالقتال الطويل في ارض فارس اضعف الجيش التركي، بحيث انه عندما وصل الى بغداد وحاصرها من جميع جهاتها مدة اربعين يوماً ثم ضرب اسوارها، اضطر في آخر الامر الى الانسحاب لقلة المؤن وحالة العوز التي احس فيها، فعاد دون ان يحقق شيئاً.(٣)

السفر الى البصرة:

عندما اقتربت جحافل الاتراك من اصفهان فاصبحت في خطر السقوط... اجتمع رهبان الدير للمشاورة ثم قرروا ان يبتعد بعضنا عن المدينة، وكنت من بين الذين تقرر سفرهم حالاً الى البصرة. فغادرت اصفهان في ١٧ ايار، وفي ٢٥ منه كنت في شيراز وبقيت هناك اربعة ايام ثم انحدرت الى البحر، وفيه لاقينا صعوبات جمة فقد القت الرياح بقاربنا بعيداً وكدنا ان نغرق، ونفذت مؤونتنا. وعندما اقتربنا من قرية على الشاطيء ونزلنا الى اليابسة لنستريح استقبلنا الاعراب بلطف عظيم وكرم بالغ واعطونا كل ماكنا نحتاج اليه...

واخيراً وصلنا الى البصرة في ١٥ تموز [١٦٣٠] فاستقبلنا الرهبان الكرمليون(٤) بمحبة ونزلنا في ديرنا. ومكثت هناك خمسة عشر شهراً منكباً على دراسة اللغتين العربية والفارسية. ثم اوعز الي الرؤساء بالسفر الى الهند...

من عادة التجار البرتغاليين الاقلاع من البصرة في اواسط تشرين الاول بعد الانتهاء من قطف ثمار النخيل. لكنهم في هذه السنة ١٦٣١ قدموا موعد سفرهم بضعة ايام بسبب شاب نصراني كان اسيراً عند الفرس واتخذه امام قلي خان حاكم شيراز لخدمته. وقد اوفده في مهمة خاصة الى الحويزة القريبة من البصرة. واذ كانت الفرصة مواتية للتخلص من العبودية فقد هرب الى البصرة. وكان مطلعاً على مخططات سيده ضد البرتغاليين. فلما جاء الى البصرة نزل عندنا. وبلغ خبر هروبه الى سيده فارسل الى حاكم البصرة(٥) يطلب منه اعادة الشاب الهارب. وكان الباشا على علاقة طيبة بالآباء(٦) فدعاهم وطلب احضار الشاب، وفي

الطريق خطفه رجال الباشا . . .

وفي زيارة لاحقة رافقتهم تاجر برتغالي غني، وكعادة اهل البلاد فانه لم يحضر خالي اليدين بل قدم هدايا معتبرة للباشا، طابت نفسه لها، فلبّىٰ طلبهم واطلق سراح الشاب واعاده اليهم.

لقد اطلعنا الشاب علىٰ نوايا خان شيراز ومخططاته، وقال انه كتب الىٰ باشا البصرة طالباً منه تسليم الاسطول البرتغالي كشرط لعقد السلام معه. وكان الاسطول مؤلفاً من خمسة وعشرين سفينة. وكان الفرس بأمسّ الحاجة اليها لانهم لايمتلكون سوىٰ بعض القوارب الصغيرة التي لاتصلح للقتال. لهذا السبب اسرع البرتغاليون فاخرجوا سفنهم من القنال الفرعي لنهر الفرات الذي يمر بالبصرة وتقدموا الىٰ اواسط الشط ولبثوا هناك فترة تحت حراسة شديدة، الىٰ ان انتهوا من تحميل مراكبهم بالتمور فأقلعوا في ٤ تشرين الاول في شط العرب وانحدروا الىٰ البحر.

كلمة عن البادية العربية:

تقسم بلاد العرب الىٰ ثلاثة اقسام: البادية، والارض السعيدة، والارض الصخرية. ولن اتكلم عن القسم الثالث لاني لم احل به بل رأيته من بعيد فقط.

هناك مدن وقرىٰ صغيرة في بادية العرب. . . فبعد حلب بسبعة ايام نشاهد «طية» وهي حالياً قصبة صغيرة جداً، لكن الخرائب القريبة منها تشير الىٰ انها كانت مدينة كبيرة فيما مضىٰ. . . ثم «الرحبة» وتقع علىٰ بعد يومين عن طية، وتقوم علىٰ مرتفع وهي غير بعيدة عن الفرات. وبعد مسيرة ايام اخرىٰ نمر بقرىٰ ثم نصل الىٰ «عانه» وهي اكبر مدن البادية، وكانت كبيرة وشهيرة قبل ان يخربها الفرس منذ سنوات. وتقوم علىٰ ضفتي الفرات ويبلغ طولها نحو ميل، وتحدها الجبال. وفي وسط الفرات جزيرة فيها قلعة. . . وتكاد تكون عانه حالياً نصف خراب وخالية من السكان، والذين فضّلوا البقاء فيها هم عرب ويهود. ومن بعد عانه حتى بغداد هناك بعض القرىٰ علىٰ الفرات.

وفي البادية مدينة عجيبة غريبة في نوعها هي مدينة ملك العرب. منازلها ليست مشيدة بحجارة بل هي خيام سهلة النقل. قيل لي ان ملك العرب هذا عندما يتسنم الرئاسة يقسم بان لايعيش في المدن الثابتة التي تخضع له ولكن في هذه المدينة المتنقلة في أرجاء البادية، ولايعرف موقعها الا قلة من الناس خوفاً من الاتراك، لان الملك علىٰ خلاف مستمر معهم، ولذلك يغيّر مقامه دائماً فينقل مدينته حيث الامان لاتباعه والكلأ لحيواناته. وهذه المدينة منتظمة جداً، فسرادق الملك يقوم في الوسط ويتشعب منها اربعة طرق الىٰ الجهات الاربع، ولكل خيمة موقعها المحدد في احد الطرق، فاذا انتقلت المدينة الىٰ موقع جديد يعاد تشكيلها بنفس النظام فتحتل كل خيمة موقعها ذاته. ويبلغ عدد السكان في هذه المدينة المتنقلة بضعة الأف من جملتهم حرس الملك وهم نحو الفي رجل.

تتكون واردات الملك مما يؤديه له سكان القرىٰ الخاضعة له، ومن الضرائب التي يستوفيها من قوافل التجار، فهو علىٰ اطلاع بكل مايجري في اراضيه بواسطة عيونه الذين يبثهم في طول البادية وعرضها، فما ان يبلغه خبر دخول قافلة الىٰ اراضيه حتى يرسل رجاله لجمع الاتاوات. واذا كانت القافلة مهمة فيذهب بنفسه لجمع الاتاوات المقررة اضافة الىٰ هدايا متنوعة يقدمها التجار له. اذ ان العادة الجارية في الشرق انه لايجوز لقاء الامراء والملوك بايادٍ فارغة. ويعمد - الملك - عادة الىٰ المماطلة في جمع الضرائب اياماً عديدة. ليفسح المجال لرعاياه فيبيعوا ماعندهم من ثمار وخبز ولبن واشياء اخرىٰ للمسافرين. واذا حدث ان توفىٰ احد المسافرين في اراضيه فانه يستولي علىٰ امواله وبضائعه.

يهبط في هذه البادية «منُّ السماء» فيجمعه الاعراب ويحملونه الىٰ البصرة، ويباع هناك بأسعار بخسة اذ يستعمل كدواء، ويشتريه البرتغاليون فيتاجرون به.

تنبت علىٰ ضفاف الفرات اشجار مثمرة كالكروم والتين. وهناك البطيخ وماشابه ذلك. وقيل لي ان النخيل كان يغطي النهر الىٰ قبل عشرين سنة لكن الشتاء القارص الذي تكرر بضعة اعوام قتلها فلم يعد لها وجود.

حيوانات البادية:

تعيش في البادية مختلف انواع الوحوش، فهناك الاسود والنمور والحمير الوحشية التي تركض بمجموعات، وقطعان الغزلان التي رأيت منها عند ضفة الفرات. كما رأيت في قفص حديد حيواناً يسميه العرب «دليل الاسد» وهو يشبه القط،[٦٦] ولذا يسميه البعض «القط السوري» وقد رأيت واحداً منه في مدينة فلورنسة، وكانوا يسمونه هناك بهذا الاسم، وهو حيوان وحشي تعلو اذنيه ذوائب من الشعر. اما تسميته «دليل الاسد» فترجع الى ان حاسة الشم عند الاسد ضعيفة بعكس ماهي عليه عند هذا الحيوان، لذلك يتعاونان على قنص الفريسة ويترك الاسد حصة لدليله . . . وهناك الذئاب والافاعي التي تتكاثر في هذه الارض الفادئة.

تستغرق الرحلة من حلب الى بغداد شهراً كاملاً، والى البصرة شهرين، لان الجمال المحملة لاتقدر على قطع اكثر من خمس مراحل وفي الاكثر ست مراحل في اليوم الواحد.

بلاد العرب السعيدة:

يجب الا تسمى هذه المنطقة «سعيدة» ابداً، لان سكانها فقراء وهم في اشد حالات البؤس والتعاسة، والارض قاحلة، ومصادر العيش قليلة.

يُجمع في هذه المنطقة «مَنّ السماء»، واللبان؛ وفيها نخيل كثير، ومختلف انواع الفواكه. المناخ حار جداً.

في هذه المنطقة قرى كثيرة ومدن عديدة، اهمها البصرة. وهي مدينة واسعة، كثيرة الخيرات والبضائع التي تردها من الهند. تبعد نحو ميل عن النهر، ويتفرع منه قنال كبير يمر حول اسوار المدينة. وفيها من الفواكه: العنب والتين والتفاح والرمان. ويكثر النخيل فيها على مد البصر في جميع الجهات وذلك بسبب مناخها الحار.

معظم سكان البصرة عرب ويتكلمون العربية، وفيها اتراك خاصة من العسكريين. ويفدها الفرس باعداد كثيرة للتجارة، ويطلقون على الفارسي اسم «عجمي». لذلك نرى اللغتين التركية والفارسية منتشرتين في المدينة.

ولقد نمت هذه المدينة وتوسعت منذ سنوات قليلة على اثر سقوط بغداد وهرمز، لان اعداداً كبيرة من الناس من العامة والتجار قدموا اليها.

فيها من النصارى طوائف عدة: الارمن والنساطرة واليعاقبة. وهناك جماعة يطلق عليها اسم نصارى القديس يوحنا وهم ليسوا بنصارى، اذ يسمون انفسهم مندائيين، ويعرفهم الآخرون باسم الصائبة.

تتبع منطقة البصرة قرى صغيرة عديدة. والفواكه فيها كثيرة كما ذكرت آنفاً واهمها التمور، كما يوجد الرز فيها، اما القمح فيجلب من فارس.

ان الباشا الذي يحكم البصرة قد شق عصا الطاعة على السلطان قبل بعض الوقت. وهو على علاقة جيدة بنا، ويزور بيتنا مراراً، ويتصدق علينا بهبات كريمة. وله نية نقل مدينة البصرة الى ضفة الفرات، ولهذا شرع ببناء قلعتين جميلتين هناك، واسواراً ودوراً كثيرة، وحفر حولها خنادق عريضة وعميقة.

تطبق هذه الشعوب العدل على الطريقة الاسلامية، لابواسطة محامين بل امام القاضي الذي يطلقون عليه اسم «الافندي».

تأتي السفن البرتغالية الى البصرة حاملة البضائع الهندية ثم تعود محملة بالتمور والفواكه على انواعها والسجاد، وخاصة الجياد العربية الرائعة. والعادة المتبعة ان من يحمل عشرة جياد يعفى من دفع الضرائب عن بضائعه، فان نفق جواد في الطريق يعمد صاحبه الى قطع ذنبه لعرضه على الجباة فيتخلص من دفع الضرائب.

وصف مابين النهرين:

هي الارض الخصبة جداً الواقعة بين النهرين: الفرات ودجلة. وفيها قرى ومدن كثيرة مأهولة بالسكان، وهي سهلة

منبسطة قليلة الجبال. ولقلة السكان فيها فان معظمها غير مزروع اللهم قرب المدن والقرى.

من مدنها القديمة نينوى عاصمة الأشوريين... وتزال بعض اثارها قرب دجلة، وقد قامت مدينة تسمى الموصل. وبابل الواسعة العظيمة... وبغداد الواقعة على دجلة وفيها قسم ضمن بين النهرين لكنه هدم منذ بعض الوقت من قبل الفرس.

وصف كلدية:

ان كلدية او دولة الأشوريين هي اقدم مملكة في تاريخ العالم، ازدهرت منذ عهد نينوس اول ملوكها. اما اهم المدن في هذه المنطقة حالياً فهي بغداد وتعني البستان لكثرة البساتين العامرة فيها، وتسمى ايضاً بابل الجديدة لانها شيدت بمواد بابل القديمة. وكانت مدينة واسعة قائمة على حدوتي نهر دجلة قبل ان يدنسها ويخربها شاه الفرس قبل سنوات قليلة. اما الآن فان ضاحيتها المشيدة على جانب البادية قد دمرت واصبحت قاعاً صفصفاً. اما القسم الآخر منها لايزال قائماً وهو باتساع مدينة افينيون.

ان المساحات المزروعة بالنخيل داخل المدينة وخارجها تضفي على بغداد جمالاً أخاذاً. ولقد اعاد الفرس بناء سورها وابراجها من اجل تحصينها لامن اجل تجميلها. دروبها ضيقة كسائر المدن الاسلامية. بيوتها مشيدة بالطين او بالطابوق.

احوال بغداد:

عندما مررت ببغداد كانت في قبضة الفرس الذين استولوا عليها لابقوتهم ولكن من جراء الخيانة، لان حاكمها الذي يقال له الباشا، حلّ عليه سخط السلطان، واذ خاف ان يأمر السلطان بقتله، قدم الارض للشاه عباس الفارسي، ثم انقلب عليه وغير خطته مستهزءاً بالشاه الذي جاء ليتسلم المدينة ويضمها الى دولته. فغضب الشاه جداً من هذا التحدي وحاصر المدينة مستخدماً الخبث والغدر وخيانة ابن الباشا نفسه حتى استولى عليها. وعندما سقطت القى القبض على الباشا، واذ كان قد خان الطرفين اي السلطان والشاه فانه لم يجد من يشفع له، فمات اشنع ميتة بعد عذاب طويل ومرير وغريب في نوعه؛ اذ نال في اول الامر رعاية خاصة ولمدة ثلاثين يوماً كانت وجباته اشبه ماتكون بالولائم، لكنهم حرموا عليه النوم فما ان يداعب النعاس اجفانه حتى يوقظوه بضربات حادة، وبهذه الطريقة المهولة لقي حتفه فنال جزاء خيانته.[17]

بقيت المدينة بحوزة الفرس سنوات قليلة. لكن مكانتها الكبيرة في نفوس الاتراك تجارياً ومعنوياً، لاتليق بكرامتهم ان تبقى تحت الاحتلال، لذا جهز السلطان حملتين او ثلاثاً لاسترجاعها، لكن العساكر هلكت دون ان تحقق نتيجة، واخيراً تحرك السلطان مراد نفسه على رأس جيش جرّار يعد اربعمئة الف رجل، وقد سمعت انه استعادها مؤخراً[18] وقيل لي انه لم يفتحها بالقوة والشجاعة، ولكن من جراء خيانة حاكمها. ومات في الحرب مئة وثلاثون الفاً من جانب الترك، ولقي ثمانية عشر الف فارسي حتفهم على يد الاتراك بعد سقوط المدينة.[19]

بابل:

على مسيرة يوم جنوب هذه المدينة توجد خرائب بابل القديمة في موقع بين دجلة والفرات، اذ لايبعد مجرى الواحد عن الآخر كثيراً في ذلك الموضع. كانت بابل القديمة واسعة جداً تكاد تحتل كل المساحة بين النهرين، ولاتزال آثار عظيمة تشاهد في اماكن عديدة الى الآن. كما توجد خرائب برج بابل على بعد ستة فراسخ فوق بغداد كما اخبرني بعض الأرمن الخبيرين بشؤون هذه البلاد والذين نستخدمهم كمرشدين. لقد ظهر لي البرج الذي اشاروا اليه عالياً رغم اننا القينا نظرة عليه من بعيد، ولو فكرنا ملياً فان قولهم لايخلو من حقيقة محتملة لانه غير بعيد عن ينبوع القار، وقد جاء في الكتاب المقدس ان الذين شيدوه استعملوا القار عوضاً عن الملاط في بنائه.[20] يقال ان ارتفاعه يبلغ ميلاً واحداً، لكن النصارى المحليين يؤكدون ان ارتفاعه يبلغ ٣٩٢ ذراعاً، ونظراً لقيامه في موقع قفر فانه يبان اعلى مما هو في الواقع.

سكان بلاد بابل هم كلدانيون يتكلمون اللغة العربية، ومعظمهم مسلمون، ولكن هناك عدداً من المسيحيين من ارمن ويعاقبة ونساطرة، والنساطرة هم اكثر عدداً واهم مكانة من الآخرين... وقد اظهروا لطفاً معنا واستعداداً للتقرب منّا،

ويسكنون في قرى بلاد بابل، ولهم بطريركهم وهو راهب من اتباع القديس باسيليوس، ويسكن في دير شهير في بين النهرين. وكان قد دعا قبل سنوات وطلب بالحاح احد رهباننا المدعو الاب باسيل للقديس البرتغالي الاصل وهو راهب فاضل رفيع الخصال عالم باللغات الشرقية كالعربية والفارسية والتركية والكلدانية فلبى دعوته وتبادلا وجهات النظر في امور الديانة. قسسهم متزوجون كسائر الطوائف الشرقية اما اساقفتهم فلا. يستعملون في مراسيمهم الدينية اللغة الكلدانية.

في السنين الاخيرة عثروا قرب بغداد (بابل) على مقالع للرخام فاخذوا يستخدمونه في تجميل اماكن العبادة.

شذرات متفرقة:

[ص ٩٨]... وكنت قد توهمت اعلاه كيف استولى الشاه على بغداد ومنطقة كلدية... وكان مصمماً على ارسال حملات اخرى للاستيلاء على مناطق اخرى كالبصرة مثلاً، ولكن حدث ان وافاه الاجل المحتوم في اثناء حصارها.

★ ★ ★

عندما كنت في البصرة وصل خبر تداعي جامع مكة الشهير وسقوطه فعم الحزن ارجاء المدينة ولم يتمالك الناس انفسهم عن البكاء.

★ ★ ★

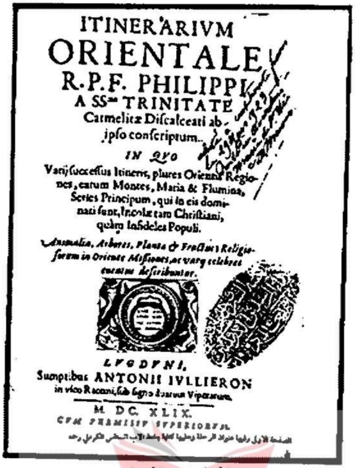
[ص ٣٢١] بينما كنا في البادية العربية في طريقنا من حلب الى بغداد، شرع العرب بمراقبة القمر ولاحظوا خسوفه، فجمعوا الاواني النحاسية واخذوا يقرعون عليها بقوة محدثين ضجيجاً هائلاً، اذ انهم يعتقدون ان قتالاً ضارياً قد نشب بين القمر والشمس ويريدون بهذا الضجيج ايقاف القتال.

★ ★ ★

يقدم عرب البصرة ضيافة لامثيل لها نحو الغرباء بكرم ولطف عاليين. وهذا ماحدث لي ولرفاقي عندما قدمنا اليها بحراً من فارس ونفذت مؤونتنا وكدنا نموت جوعاً وعطشاً. وماان وصلنا الى احدى قراهم حتى قدموا لنا خبزاً ولبناً وتمراً وكل ماكان عندهم في ذلك الموسم. وبعد ان اكلنا وشبعنا طلبنا منهم المزيد على سبيل الشراء فاعدوا لنا حالاً كل ماطلبنا ورفضوا رفضاً باتاً استيفاء ثمن ماقدموه لنا وقالوا باعتزاز ان الضيافة لكل عابر سبيل اياً كان واجبة. واذ اردت ان اقدم شيئاً لقاء ذلك فعند خروجي اعطيت مقداراً من المال بيد الاولاد. ولم تكن هذه حادثة وحيدة بل صادفتنا اكثر من مرة.

★ ★ ★

[ص ٤٠٢] للآباء الاوغسطينيين دير في البصرة، وللآباء الكبوشيين رسالة في بغداد واخرى في الموصل.



ITINERARIVM ORIENTALE R.P.F. PHILIPPI A SS.ma TRINITATE Carmelitæ Discalceati ab ipso conscriptum.

IN QVO

Varij successus Itineris, plures Orientis Regiones, earum Montes, Maria & Flumina, Series Principum, qui in eis dominati sunt, Incolæ tam Christiani, quàm Infideles Populi.

Animalia, Arbores, Plantæ & Fructus; Religiosorum in Oriente Missiones, ac varij celebres eventus describuntur.

LVGDVNI, Sumptibus ANTONII IVLLIERON in vico Racoani, sub signo duarum Viperarum.

M. DC. XLIX.

CVM PERMISSV SVPERIORVM.

الصفحة الاولى وفيها عنوان الرحلة وعليها كتابة بخط الأب انستاس الكرملي رحمه

الهوامش والمصادر

١ - مع الشكر الجزيل للاب ميشيل الكرملي (بغداد) الذي زودنا بهذه المعلومات عن صاحب الرحلة.

٢ - هذه العناوين من وضعنا.

٣ - هذا مطلع الفصل الخامس من الرحلة وهو في ص ٢١ منها.

٤ - لفظة اطلقت على النقد الذي يحمل صورة ترس منذ عهد الرومان، واللفظة لاتينية Scutum.

٥ - نوه السائح اكثر من مرة «بملك» البادية وعاصمة البادية، وهو يشير الى اسرة «ابي ريشة» المسيطرة آنذاك على البادية، و «الملك» في تلك الفترة كان مطلق او مدلج ابو الريشة.

٦ - انه يشير الى موقع عقرقوف.

٧ - سكينة بغداد يتلاعب بها الاغراب. انها «نصف خراب» بسبب الاحتلال الفارسي لها.

٨ - رهبان من اتباع طريقة فرنسيس الاسيزي، قدموا الى بغداد سنة ١٦٢٦، وغادروها سنة ١٧٠٢.

٩ - وهي النقود الملكية الاسبانية، فكلمة «ريال» تنسب الى «الملك».

١٠ - عباس الصفوي (١٥٨٧ - ١٦٢٩).

١١ - كلشز خلف ص ٢٢٤ ومايليها.

١٢ - د. علاء نورس: العراق في العهد العثماني (بغداد - ١٩٧٩) ص ٤٤ ومابعدها.

١٣ - من رهبان الكنيسة الكاثوليكية في الغرب، وينسب اسم رهبنتهم الى جبل الكرمل في فلسطين. قدموا الى العراق سنة ١٦٢٣.

١٤ - وهو علي بن افراسياب. انظر: الكعبي: زاد المسافر ولهنة المقيم والحاضر (بغداد - ١٩٥٨) ص ١٨ - ١٩.

١٥ - كان علي باشا على علاقة طيبة بالاوربيين عامة ويكنّ احتراماً للآباء الكرمليين. وقد ذكر الرحالة «دبلافاليه» الذي زار العراق في نفس الفترة شيئاً كثيراً عن هذا الباشا وعلاقته بالآباء المذكورين. وقد ترجمنا هذه الرحلة الهامة الى العربية ولم تنشر الى اليوم.

١٦ - هو عناق الارض، وبالتركية قرهقولق. انظر: معجم الحيوان لأمين المعلوف ص ٤٩ - ٥٠. وقد ذكر وجوده بالعراق رحالة آخر هو بتغنو وقد ترجمنا مقتطفات في هذه الرحلة الى العربية (مجلة بين النهرين ٢: ٣٨٧ - ٤٠٥).

١٧ - يشير الى بكر صوباشي، واسم ابنه محمد وكان المسؤول عن الدفاع عن القلعة فتواطأ مع الفرس طالباً الامان لنفسه لقاء تسليمه القلعة فسقطت بغداد.

١٨ - استعاد السلطان مراد الرابع مدينة بغداد في ٢٥ كانون الاول ١٦٣٨.

١٩ - انظر التفاصيل في: لونكريك: اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث (بغداد - ١٩٦٨) ص ٦٦ - ٦٨.

٢٠ - سفر التكوين ١١ : ٣.

٢١ - انه على وهم اذ لم يكن في العراق رهبنة تتبع قوانين القديس باسيليوس.

٢٢ - هو دير الربان هرمزد قرب القوش (الموصل)

٢٣ - الاب باسيل (١٥٩٦ - ١٦٥٤) قدم الى البصرة سنة ١٦٢٣ وفتح فيها مبعثاً لرهبنته وشيد كنيسة بمساعدة الوالي.

٢٤ - عزيز جاسم الحجية: بغداديات (بغداد - ١٩٦٧) ص ١١١.

٢٥ - اعضاء رهبنة كاثوليكية ينسب اسمهم الى القديس اوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠).

٢٦ - نوهنا بهم في الهامش ٨.

رحلة فيدريجي الى العراق
(القرن السادس عشر)

ترجمة وتعليق
الاب د. بطرس حداد
بغداد

المقدمة:

هذه رحلة تاجر ايطالي من اهل البندقية. قدم الى العراق في طريقه الى الهند والشرق الاقصى، بحثاً عن الاحجار الكريمة. وهي من اقدم الرحلات، ولم تنقل الى العربية على حد علمنا، ولذا رأينا ان نتحف بها قراء «المورد» خدمة للباحثين والمؤرخين.

صاحب الرحلة:

هو تشيزاري (اي قيصر) بن جيرولامو فيدريجي (ويرد احياناً: دي فدريجي). من اهل «ايربانو» من المدن التابعة للبندقية. ولد نحو سنة ١٥٣٠م لانه عندما شرع بالرحلة سنة ١٥٦٣ لابد انه كان ابن الثلاثين عاماً او نحو ذلك، وقد اكتسب خبرة في التجارة وطموحاً خفره على المغامرة في رحلة طويلة الى الشرق.

كان يتعاطى تجارة الجواهر ويسعى الى اقتناء النفيس منها، ولهذا سافر في رحلة امتدت به ١٨ سنة، اي مابين ١٥٦٣ الى ١٥٨١، وعاد الى موطنه يحمل بضاعة ثمينة.

طاف في الشرق مروراً بسوريا والعراق والهند حتى وصل الى بورما (ويسميها برمانيا) والى ماليزية وهي ملقة. ولم تكن الرحلة سهلة ولاالتجارة هينة. فكم من مرة اصابته الحمى، وباغته اللصوص وقطاع الطرق. وكم فاجأته العواصف العنيفة واضاع من بضائع، حتى اضطر احياناً على البدء من جديد! لكنه عندما عاد الى وطنه في ٥ تشرين الثاني ١٥٨١ كان يحمل بضاعة جيدة استطاع بواسطتها ان يحتل مركزاً مرموقاً في سوق البندقية ويكون على صلة تجارية بشركاء ومعتمدين له في كل من صقلية واسطنبول.

اما سنة وفاته فغير معروفة لكنها تقع بين ١٦٠٠-١٦٠٢، ففي سنة ١٦٠٠ حرر وصيته، وفي سنة ١٦٠٢ حرر كاتب العدل تركته، فقد وافاه الاجل بين هذين التاريخين.

رحلته:

غادر البندقية سنة ١٥٦٣ فوصل الى قبرص، ومنها الى طرابلس ثم حلب ودخل العراق عن طريق بيره‌جك، وانحدر في الفرات حتى الفلوجة، ثم واصل الطريق البري الى بغداد ونزل الى البصرة في نهر دجلة ومن هناك اتجه بالمركب الى الهند.

في سنة ١٥٦٩ قرر العودة الى وطنه بعد ان حقق ارباحاً طائلة، فرجع الى غوا في الهند على امل الابحار الى البصرة، لكنه لم يبحر لسببين: اولهما مرض خطير الم به اجبرة على ملازمة الفراش اربعة اشهر، ثم حصار المدينة الذي حال دون مغادرتها؛ فخسر مالاً كثيراً من جراء المرض وغلاء المؤن في اثناء الحصار، فقرر العودة الى التجارة في الشرق. ولما حصل على مال جزيل وقرر العودة الى ايطاليا رحل الى هرمز ثم البصرة ومنها الى بغداد فحلب، وبعد زيارة قصيرة للاراضي المقدسة في فلسطين، اكمل الرحلة الى وطنه فوصل البندقية في ٥ تشرين الثاني ١٥٨١.

ونزولاً الى طلب الاصدقاء المتلهفين الى اخبار الشرق قرر نشر اخبار رحلته، وكان يحتفظ خلال السفر باوراق يدوّن فيها ملاحظاته. لكن عندما إنكب على الكتابة شعر بعدم استعداده اللغوي للكتابة فطلب من احد اصدقائه الرهبان القيام بهذه المهمة ـ كما نقرأ في آخر الرحلة ـ فلبى الطلب، وهكذا ظهرت الرحلة للنور عام ١٥٨٧م وطبعت في البندقية تحت هذا العنوان الطويل: «رحلة السيد تشيزاري دي فدريجي في الهند الشرقية وماوراء الهند. وتحتوي على اشياء مسرة عن طقوس تلك البلاد وعاداتها وفيها وصف للعقاقير والتوابل والجواهر واللآلي وكيف تُستخرج. مع ارشادات مفيدة لاولئك الناس الذين يبغون القيام بمثل هذه الرحلة» طبعت في البندقية سنة ١٥٨٧م.

يلاحظ من هذا العنوان الطويل ان المؤلف او الناشر اراد تشويق الناس الى مطالعة الكتاب. وقد اعيد طبعه سنة ١٦٠٦.

اما الطبعة التي اعتمدناها في الترجمة فهي تلك التي نشرتها وحققتها الباحثة الايطالية «اولغا پينتو» Olga Pinto في روما سنة ١٩٦٢ وقد طبعت مع رحلة «غسبارو بالبي» الذي مرّ بالعراق ايضاً، وهي من الرحلات المهمة، ولذا فقد اعددنا ترجمتها ايضاً وسنقدمها قريباً للنشر.

ترجمت الرحلة الى الانكليزية سنة ١٥٨٨ واعيد طبعها اكثر من مرة، كما نُقلت الى الهولندية وطبعت في مطلع القرن الثامن عشر، وقد ذكرت الباحثة پينتو مختلف الطبعات الكاملة والجزئية في سائر اللغات في الكتاب المذكور اعلاه ص ٤١ ـ ٤٢ من مقدمتها.

وزيادة بالفائدة نذكر العنوان الاصلي:

Viaggio di M. cesare dei fedrici, nell' India Orientale, et oltra L. India: Nel quale si contengono cose dilettevoli de iriti, et de icostumi di quei paesi, et insieme si discriveno le spetiarie, drogho, gioie, e perle che d'essi si cavano, con alcuni avertimenti utilissimi a quelli, che tal viaggio volessero fare. In Venezia MDLXXXVII.

اما الطبعة الاخيرة التي نشرتها الباحثة اولغا پينتو، فعنوانها:

Viaggi di C. Federici e G. Balbi alle India Orientali, a cura di Olga Pinto, Ist. Polig. dello Stato, Roma — 1962.

وظهر الكتاب ضمن سلسلة من الكتب اسمها:

le Nuovo Ramusio, IV.

ان قيمة هذه الرحلة ليست في كثرة معلوماتها، فهي والحق يقال قليلة. لكن قيمتها تكمن في قدمها، اذ تعود الى القرن السادس عشر. وفيدريجي هو اقدم من وصف الطريق بين حلب وبغداد ثم البصرة من الرحالة الغربيين. ولعل الباحث العراقي يجد هنا او هناك في الرحلة ملاحظة تفيده، وبهذا الكفاية.

لم يكن صاحبنا دقيقاً في وصفه خاصة فيما يخص المواقع والمسافات، كما لم يكن لطيفاً في بعض تعابيره عن الشعوب الاخرى.

رحلة فيدريجي الى العراق

المقدمة:

في سنة ١٥٦٣ مسيحية، اذ كنت انا تشيزري دي فدريجي بالبندقية، وقد عصفت بي الشوق لزيارة الشرق، ركبت البحر مع بضائع مختلفة، على متن السفينة «كرادينجا» المتوجهة الى قبرص، بقيادة «جاكامو فاتيكا».

وعندما وصلتُ الى قبرص توجهت الى طرابلس الشام بسفينة اصغر، ولم اتوقف هناك، بل تابعت السفر الى حلب ضمن قافلة من الجمال، فوصلتها بعد مسيرة ستة ايام.

وفي حلب يتم الاتفاق مع التجار الارمن والمسلمين للذهاب سوية الى هرمز، وهكذا بارحت في ركابهم فوصلنا بعد يومين ونصف الى بيرهجك.[1]

بيرهجك:

ان بيرهجك مدينة صغيرة، لكنها مليئة بالسلع. يجري حول اسوارها نهر الفرات. وفي هذا الموضع يؤلف التجار مجموعات سفر، حسب البضائع التي معهم، وتوصي كل مجموعة على قوارب، او بالاحرى تشتري هذه القوارب المعدّة سلفاً للسفر الى بغداد.[2] ويدفع كل تاجر مقداراً محدداً يتلاءم مع مايحمله من بضائع الى ربابنة القوارب وخدامها.

وهذه القوارب مسطحة الارضية، قوية، لاتستعمل الآ لسفرة واحدة، اي انها تنحدر مع مجرى النهر، ولاتستعمل في الصعود ضد التيار بسبب قوة انحداره ووجود اماكن صخرية احياناً. ولهذا فبعد ان تستعمل في الوصول الى قرية الفلوجة، تباع هناك بمبلغ يسير اقل من سعرها في بيره‌جك، فهناك تقتنى باربعين الى خمسين زكيناً[٧] بينما تباع هنا بسبعة او ثمانية لااكثر.

عندما يعود التجار ادراجهم، فلهم ان يسلكوا احد الطريقين حسب ظروفهم: فان كانت لهم بضاعة خاضعة للضريبة فهم يأخذون طريق البادية الذي يستغرق اربعين يوماً، ونفقاته اقل.[٨] ولكن ان لم تكن معهم بضائع خاضعة للضريبة فهم يسيرون في الطريق المتجه الى الموصل، اذ من هناك تنطلق قوافل كثيرة.

يستغرق قطع المسافة مابين بيره‌جك والفلوجة حيث تتوقف القوارب، مابين ١٥ الى ١٨ يوماً عادة، اي عندما تكون المياه عالية. والفلوجة تقع [على نهر الفرات] في منطقة مقابلة لبغداد. وحدث لنا في هذه الرحلة ان الامطار لم تهطل اياماً عديدة ولذا هبطت مناسيب المياه جداً، فاستغرقت رحلتنا ٤٤ يوماً، وكثيراً ماكانت القوارب تصطدم باليابسة فنضطر الى النزول منها وانزال البضائع ثم نسير قليلاً ونعود فنحمل البضائع من جديد على القوارب.

ولايستحسن السفر من بيره‌جك بقارب واحد بل يجب اصطحاب قاربين او ثلاثة. ففي حالة تحطم احد القوارب يكون الأخر حاضرا للتحميل حتى يتم اصلاح القارب المتكسر. اذ ليس من المعقول ترك البضائع على اليابسة خلال فترة اصلاح القارب فمن الصعب حراستها من الاعراب الذين يتجولون هناك باعداد كبيرة خلال الليل محاولين السرقة.

وعندما نتوقف في الليل قرب الشاطىء ونربط القوارب اليه، فلابد من التناوب على الحراسة... والاعراب لايقتلون لكنهم يكتفون بالنهب والفرار. واستعمال البنادق في مواقف كهذه مفيد جداً لانهم يخافونها كثيراً.

هناك مواقع في طريق النهر بين بيره‌جك والفلوجة يجب دفع ضريبة بضع قطع من فئة المؤيدية،[٩] عن كل حمل، وهذه ضريبة خاصة بابن «ابو ريشة»[١٠] سيد الاعراب وتلك البادية الشاسعة. وله في تلك المنطقة بعض المدن والقرى تقع على شواطيء النهر.*

بين فلوجة وبغداد:

تتوقف القوارب القادمة من بيره‌جك في الفلوجة، وهي قرية تنطلق القوافل منها الى بغداد مستغرقة يوماً ونصف اليوم.

اما بغداد فهي مدينة غير كبيرة، لكنها عامرة بالسكان، يكثر فيها الغرباء من التجار، لأنها نقطة انطلاق الى بلاد فارس وتركيا والى بلاد العرب. فان القوافل القادمة اليها والراحلة منها الى مختلف الجهات تكثر فيها والمدينة مليئة بالبضائع والمؤن التي

اما بغداد فهي مدينة غير كبيرة، لكنها عامرة بالسكان، يكثر فيها الغرباء من التجار، لانها نقطة انطلاق الى بلاد فارس وتركيا والى بلاد العرب. فان القوافل القادمة اليها والراحلة منها الى مختلف الجهات تكثر فيها. والمدينة مليئة بالبضائع والمؤن التي تأتيها من ارمينيا بواسطة النهر الذي يحيط باسوارها. وتنقل هذه المواد الى بغداد محملة على متن اكلاك عائمة فوق قرب منفوخة ومربوطة الى بعضها، ويطرحون فوق القرب الواحاً يضعون الاحمال عليها وهكذا ترسل الى بغداد. وعند وصولها تنزل الاحمال وتفرغ الزقاق من الهواء وتحمل على جمال وترسل الى مصدرها لتستعمل من جديد في سفرات اخرى.

تقع هذه المدينة ضمن الحكم الفارسي، لكنها منذ وقت والى الآن تخضع للحكم التركي.[١١] وللمدينة قسم مقابل في الجانب الأخر من النهر، في الجهة التي تواجه بلاد العرب، وفي هذا القسم سوق حسن، وفنادق،[١٢] حيث يحل معظم التجار الغرباء الذين يفدون الى المدينة. ويتم العبور من هذا القسم الى المدينة على جسر مشيد من جملة قوارب مربوطة الى بعضها بسلاسل غليظة. ولكن عندما تهطل الامطار بغزارة ويرتفع منسوب المياه، فانهم يقطعون الجسر ويجرون قسماً منه الى هذه الجهة، والقسم الأخر يسحب امام سور المدينة. وفي هذه الحالة يعبرون النهر بالقوارب. ولك ان تتصور خطر العبور في هذه الاحوال؛ لان القوارب

صغيرة، ويبالغون في تحميلها، والتيار قوي، ولذا تنقلب القوارب احيانا فيبتلعها النهر ويغرق الناس، كما شاهدت ذلك بام عيني غير مرة عندما كنت في هذه المدينة.

برج بابل:

يقع برج نمرود،(١٠) في الجانب الآخر من النهر، في سهل واسع. ويبعد عن المدينة نحو سبعة اميال او ثمانية. وقد تهدمت اطرافه كلها، فاصبح اشبه مايكون بجبل، لاصورة له. ولو ان قطعة كبيرة منه لاتزال قائمة تحيطها تلك الخرائب، او بالاحرى تغطيها.

شيد هذا البرج بطابوق مجفف بحرارة الشمس. واما طريقة البناء فهي كما يلي: لقد وضعوا طبقة من الطابوق ثم طبقة من القصب الذي لايزال قوياً عجيباً حتى الآن، مع طبقة من الطين عوض الملاط.

لقد طفت حول البرج عند اقدامه، فلم اجد فيه مدخلاً. ويبلغ محيطه في تقديري نحواً من ميل او اقل، ولكن لااكثر.

يترك هذا البرج انطباعاً يختلف عن اي شيء آخر يشاهد من بعيد. فالاشياء تظهر من بعيد صغيرة وبقدر مايقترب المرء منها تظهر اكبر حجماً. بينما هذا البرج يظهر عظيماً وبقدر مانقترب منه يفقد تدريجياً هذه العظمة. وسبب هذا الانطباع في رأيي: ان البرج يقوم في وسط سهل واسع، وليس بقربه اي شيء مرتفع، اللهم تلك الانقاض المتساقطة منه. ولهذا السبب فمن ينظر اليه من بعيد، والى ماحواليه من اكوام متساقطة يخرج بانطباع العظمة، ولكن يختلف المنظر عند الدنو منه.

السفر الى البصرة:

رحلت من بغداد الى البصرة بواسطة المراكب التي تنتقل في نهر دجلة، بين بغداد والبصرة، وبالعكس. وهذه المراكب مصنوعة بمقدمة متينة، وكوثلها(١١) مغطى، ولم يتركوا في اسفلها فراغاً منهم لايحتاجون اليه اذ لايخافون تسرب الماء، لانها مطلية بطبقة كثيفة من القار، نظراً لكثرة ماعندهم من القار. فعلى بعد مسيرة يومين من بغداد، وعند نهر الفرات، تقوم مدينة اسمها هيت، وبقربها سهل فسيح مليء بالقير الذي ينبثق من الارض. ومااعجب منظر العين التي ينبثق منها القير الى الجو مصحوباً بدخان خفيف، ثم ينتشر القير على الارض، فتجد منه دائماً كميات كبيرة. ويقول المسلمون ان تلك العين هي فوهة الجحيم؛ والحق يقال ان المنظر جدير بالمشاهدة. ولهذا السبب فتلك الشعوب تحصل عليه بسهولة وتستعمله بكثرة في طلي القوارب. ويطلقون على تلك المراكب اسم الدانك(١٢) او السفينة.

تستغرق المسافة مابين بغداد والبصرة ثمانية ايام او تسعة عندما يكون نهر دجلة عالياً. اما نحن فقد امضينا ضعف هذه المدة لان المياه كانت هابطة، وكنا نسير في النهار والليل حسب مستويات الماء.

هناك اماكن يجب دفع الضرائب فيها، بضع قطع من فئة «المؤيدية» عن الحمل الواحد. وبعد تسعة عشر يوماً وصلنا اخيراً الى البصرة.

البصرة:

البصرة من مدن بلاد العرب. وكان يحكمها قديماً العرب [ابناء] الجزيرة، اما الآن فهي تخضع للسيطرة التركية التي وضعت فيها ادارة كبيرة تنفق عليها الكثير.

اما العرب الجزائريون فلهم بلد كبير، ويرفضون الخضوع للحكم التركي الذي لايستطيع اخضاعهم لما في بلدهم من قنوات كثيرة تتصل بالبحر، بين كبيرة وصغيرة، بحيث تتكون مواقعهم من جملة جزر، لايستطيع الجيش التوغل فيها، لاعن طريق الماء ولاعن طريق اليابسة، وسكان هذه المنطقة رجال قتال.

قبل الوصول الى البصرة بيوم واحد على ماأذكر، رأينا قلعة صغيرة تسمى القرنة، تقوم في نهاية الارض حيث يلتقي دجلة

بالفرات فيكونان نهراً عظيماً هادراً تصب مياهه جنوباً في الخليج.

تبعد البصرة عن البحر نحو خمسة عشر ميلاً. وفي هذه المدينة تجارة واسعة بالتوابل والعقاقير التي تأتيها من هرمز. وفي المدينة ايضاً كميات عظيمة من القمح والرز والبقول والتمور التي تنمو في المنطقة نفسها.

السفر من البصرة:

ركبت البحر من البصرة متوجهاً الى هرمز. وتبلغ المسافة بينهما ٦٠٠ ميل. ويتم السفر في سفن مصنوعة من الواح مخيطة الى بعضها بحبال دقيقة. ويتركون بين لوح وآخر مسافة يدسون فيها نوعاً من التبن، ولذلك يتسرب الماء. فهي والحالة هذه وسائط خطرة جداً.

بعد مبارحة البصرة نمخر نحو ٢٠٠ ميل في الخليج ويكون البحر من جهة اليمين حتى نصل الى جزيرة خرج، ويتم الانطلاق من هناك الى هرمز، فتكون ارض فارس عن يسارنا وارض العرب عن يميننا. ونلقى في طريقنا عدداً لاحد له من الجزر.

[ويكمل الرحالة طريقه الى هرمز ثم الهند والشرق الاقصى، وفي طريق عودته الى بلاده يمر بالبصرة: ص ٦٣ من النص الاصلي ومايليها].

طريق العودة الى البصرة:

... لنعد الآن الى سرد احداث رحلتي. فقد التقيت في هرمز بالسيد فرانشسكو برتين البندقي فاشتركنا في استئجار سفينة تقلنا الى البصرة لقاء سبعين دوكاة.[٣١] وقبلنا معنا بعض التجار ليساعدونا في دفع المبلغ المذكور. فوصلنا بسهولة الى البصرة حيث مكثنا اربعين يوماً منتظرين اعداد قافلة المراكب التي تتوجه الى بغداد. اذ لايذهب الى بغداد قاربان او ثلاثة، بل يجب ان يتجمع عدد كبير منها، مابين عشرين الى خمسة وعشرين او ثلاثين. واذ لاتقدر المراكب على السفر في الليل بل عليها الرسو عند الشاطيء، لذا يجب ان تقوم حراسة شديدة، عالية التسلح خوفاً عليها من اللصوص الذين يتسللون لسرقة التجار.

تسير المراكب في طريقها الى بغداد في اول الامر بقوة الاشرعة، ومن ثم بواسطة الحبل المربوط الى السارية.

استغرق السفر الى بغداد خمسين يوماً. وفي بغداد اضطررنا الى البقاء اربعة اشهر حتى تجمعت القافلة المتجهة الى حلب عبر البادية. ورافقنا من هذه المدينة ستة تجار، خمسة منهم من اهل البندقية وواحد برتغالي... فتزودنا بالمؤن الضرورية لنا، وعلفاً لحيواناتنا، تكفي اربعين يوماً، واشترينا جياداً وبغالاً، فهذه الحيوانات رخيصة هنا. فقد اشتريت حصاناً باحد عشر زكيناً، وبعته من ثم بحلب بثلاثين دوكاة. واشترينا خيمة للسفر، كنا نجد الراحة فيها.

اما الاحمال فقد كان عندنا ٣٢ جملاً. وقد دفعنا سبع دوكاه لحمل الجمل الواحد. ولكل عشرة جمال نستأجرها يقدمون جملاً مجاناً، فعندما نطلب عشرة جمال نحصل على احد عشر، فهذه عادة البلد. واعتقد ان هذا الجمل الزائد هو للقيادة. كما اصطحبنا ثلاثة حمالين ممن اعتادوا مرافقة المسافرين في ذلك الطريق، وهكذا ارتحنا من جهة الخدمة، ولم يعكر سفرنا اي مكروه. وعندما تتوقف القافلة، كانت خيمتنا من الخيم الاولى التي يتم نصبها. والقافلة لاتسير كثيراً في اليوم، بل تكتفي بقطع نحو عشرين ميلاً. وكانت تبدأ السير قبل مطلع النهار بساعتين وتتوقف نحو التاسعة عشرة. ولحسن حظنا امطرت السماء اكثر من مرة خلال رحلتنا فلم يعوزنا الماء، كما كنا نلقى ماء عذباً كل يوم تقريباً، ولم نجد صعوبة، فلنا جمل محمل بالماء للحالات الطارئة. مهما يكن من امر فاننا لم نحتج الى شيء في رحلتنا لامن جهة الماء ولاالى شيء آخر. فكل شيء متوفر، بحيث كنا نأكل كل يوم لحماً طرياً: ففي القافلة قطيع من الاغنام مع رعاتها. وقد اشترينا الاغنام في بغداد، وكان كل تاجر قد وسم اغنامه بعلامة خاصة. وكنا نعطي للراعي «مؤيدية» واحدة عن كل شاة يقوم بذبحها، وكان الراعي يأخذ اضافة الى تلك القطعة: رؤوس الاغنام وجلودها وكروشها. ولايذبح الرعاة خروفاً الا على طلب التجار. وعلى سبيل المثال فان جماعتنا المكونة من ستة انفار - المنوه بهم اعلاه - اشترينا عشرين خروفاً. ولما وصلنا الى حلب كان لايزال معنا سبعة خرفان. وهذه الخراف من النوع الكبير والسمين.

ورغم عددنا الكبير كان الخروف يكفينا ليومين. ومن عادات السفر ان جماعات القافلة تتبادل اللحوم الواحدة مع الاخرى لكي لاتحمل معها لحماً طرياً، وهذا حل مريح لهم. فمن يذبح خروفاً في هذا اليوم يعطي نصفه لجماعة ثانية فيعاد اليه حقه في اليوم التالي.

يستغرق السفر من بغداد الى حلب اربعين يوماً، منها ستة وثلاثون يوماً في البادية حيث لايشاهد الا الارض الخالية وليس فيها اثر طريق. يسير الادلاء في المقدمة وتتبعهم القافلة لانهم يعرفون الطرق والمواضع التي تتوقف فيها القافلة حيث توجد آبار. فمتى ماتوقفوا توقفت القافلة حلاً.

قلت اننا نقضي ستة وثلاثين يوماً في البادية، لاننا بعد ان نغادر بغداد نسير يومين في مواضع مأهولة حتى نعبر الفرات. وهكذا ايضاً قبل الوصول الى حلب بيومين نجد قرى ومواضع مسكونة من الناس.

يسير في القافلة دوماً قائد يحل مشاكل المسافرين، ويعين الحراس اثناء الليل فيطوفون حول القافلة.

بعد وصولنا الى حلب، ذهبت الى طرابلس. . . حيث اخذنا مركباً بغية زيارة القدس، فرحلنا من طرابلس الى يافا، لكن الرياح القوية رمت بنا الى قبرص، فعبرنا الخليج الى يافا، ومن هنا يستغرق السفر في البر يوماً ونصف. وقد طلبنا من صاحب المركب ان ينتظرنا هناك حتى عودتنا من القدس. وهناك امضينا اربعة عشر يوماً في زيارة الاماكن المقدسة على راحتنا، ثم عدنا الى يافا واقلعنا الى طرابلس فصعدنا على متن السفينة «راكاتسونا» فوصلنا بعون الله وبعد اتعاب جمة الى البندقية في الخامس من تشرين الثاني ١٥٨١.

ان كان احد يبغي السفر الى تلك الاطراف من الهند فلا يتراجع عند اطلاعه على الصعوبات الكبيرة اوالصغيرة التي لاقيتها. فقد توقعت ان اجد مثل ذلك لاني غادرت البندقية وانا فقير ليس معي سوى ١٢٠٠ دوكاء استثمرتها في بضائع، فلما وصلت الى طرابلس تمرضت. . . فارسلت بضاعتي في قافلة صغيرة متوجهة الى حلب، لكن القافلة تعرضت للسطو وتفرقت اموالي ومنها اربعة صناديق مليئة بالزجاج كلفتني سبعين دوكاء، وجدتها فيما بعد وقد تكسرت معظم محتوياتها، لان اللصوص عند فتحهم لها لم يجدوا فيها سوى الزجاج فكسروا بعضها على امل ان يعثروا فيها على المال وتركوها. وبهذا رأس المال استطعت التجارة مالتبادل فعدت بمال وفير.

في دون برتولوميو ديوبيجي من اهل فانو، استخرجت اخبار هذه الرحلة من مذكرات السيد تشيزاري وكتبتها بامانة، جمعها المؤلف اكثر من مرة للتأكد من حقيقة الكلام وصحته، فاراد نشرها للفائدة العامة.

---

* الهوامش *

١ ـ وردت في الاصل «البيره» وهي مدينة على الفرات الاعلى.

٢ ـ دعاها بابل على عادة الرحالين الاوربيين.

٣ ـ قيل ان هذه اللفظة هي تصحيف لكلمة «سكة» العربية. وهي نقد من الذهب، اختلفت قيمته مع الزمن.

٤ ـ يشير الى الطريق مابين نهري الفرات ودجلة.

٥ ـ نسبة الى المؤيد شيخ من الملوك المماليك في مصر (١٤١٢ ـ ١٤٢١). ذكر المقريزي هذه النقود في «كتاب النقود القديمة الاسلامية» لمحقق الاب الكرملي (القاهرة ١٩٣٩) ص ٦٣. وقد تشوهت اللفظة على يد السائح فكتبها «مدين» فظنها البعض اسم نقد (انظر يعقوب سركيس: نظرة في كتاب النقود العربية وعلم النميات مجلة المجمع العلمي العراقي ١ [١٩٥٠] ص ٢٩٢).

٦ ـ هي عملة بندقية الاصل سكها الدوق باربار يكو (١٤٨٦ ـ ١٥١١).

٧ ـ في الاصل «ابو ريزة»، ولم يذكر اسمه. نوه بهذه الرحلة الاستاذ سعاد هاوي العمري في كتابه: «بغداد كما وصفها السواح [كذا] الاجانب في القرون الخمسة الاخيرة» (بغداد ١٩٥٤) ص ١٦ ـ ١٧.

٨ ـ في غفلة من الزمن استولى الفرس على بغداد في عهد الشاه اسماعيل الصفوي، فعاثوا فيها فساداً. واستعادها العثمانيون سنة ١٥٣٤م (٢٤ جمادي الاخرة ٩٤١هـ).

٩ ـ وردت الكلمة بلفظها العربي.

١٠ ـ يشير الى آثار عكركوف.

١١ ـ الكوثل: مؤخر السفينة.

١٢ ـ وهو ضرب من السفن الشراعية. يجمع على دوانيك ودوانيج. انظر: حبيب زيات: المراكب والسفن في الاسلام (مجلة المشرق البيروتية) ١٩٤٩: ص ٣٣٤.

١٣ ـ نسبة الى الدوق وهو سيد البندقية في ايام عزها في المئة الثالثة عشرة للميلاد.

رحلة جوستن بيركنس عبر شمال العراق

الارض الكلاسيكية عام ١٨٤٩م

ترجمة
د. ستار الجميل
كلية الآداب/ جامعة الموصل

مشروع العمل : رسائل جوستن بيركنس

إن جزءا كبيرا من الكتابات الميدانية حول «العراق» ، والتي كتبها ونشرها العديد من الرحالة الغربيين في فترات متباينة . . . لم تزل حتى يومنا هذا ، بعيدة عن الانظار العربية ، كونها محفوظة في لغاتها الاجنبية الام . . . وان ما ترجم منها ، او كتب عنها يعد قليلا جدا بالنسبة لما تضمه جامعات الغرب ومكتباته ، ومؤسساته . . من الكتابات القديمة المنشورة وغير المنشورة عن العراق ، سواء كانت تلك الكتابات على شكل مذكرات يومية او يوميات او رسائل او تآليف او مقالات . . . نشرت في فترات متباينة في حوليات مختلفة ، او على شكل كتب منفصلة . . . كلٌ في المجال الذي يعنيه ، والموضوع الذي يحتويه .

ولعل ما يلفت النظر ضمن ذلك التشكيل الواسع من الكتابات «الاجنبية» عن العراق : تلك الرحلة التي قام بها الراهب المبشر الدكتور جوستن بيركنس ــ Rev. D.D. Justin Perkins ــ ، والتي اخترق بها شمال العراق قادما اليه من شمال غرب ايران ، وذلك في سنة ١٨٤٩م[١] . وقد نشرت تفصيلات رحلته هذه على شكل رسائل في الحولية ومجلة الجمعية الاستشراقية الامريكية» (Journal of the American Oriental Society) العدد الثاني ، الصادر في سنة ١٨٥١م[٢] .

ونظرا لاهمية رحلة بيركنس ، وما تضمنته «رسائل صاحبها» من معلومات مفصلة من الناحية التاريخية والجغرافية والطبوغرافية والديموغرافية . . ولما لها من المتعة الادبية ، فقد عمدت الى وصفها بهذا المقال ، معتمدا في ذلك على «الرسائل» نفسها (= الاصول) ، ومعلقا على بعض ما رأيته يستوجب الملاحظة والاهتمام في ملحق بنهايته .

ومما تجدر ملاحظته حول هذه «الرسائل» الهامة ، انها بقيت مجهولة عند جميع المؤرخين والدارسين والباحثين من العرب والاجانب الذين كتبوا في جغرافية العراق وطبوغرافيته . . او اولئك الذين كتبوا في تاريخ عراق القرن التاسع عشر . . . لقد استفاد العديد من الكتاب العراقيين المحدثين من «قائمة المصادر الاجنبية» التي ضمنها المؤرخ الانكليزي ستيفن هيمسلي لونكريك لكتابه الشهير : «اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث» . . ولكن هذا الاخير لم يستخدم «رسائل بيركنس» ولم

يشر اليها في «قائمة مصادره الاجنبية» المشار اليها اعلاه . علما بانه استعمل واشار الى ما هو اضعف منها «مادة» ، واضعف منها «معلومات»[1] !

لقد توضح لنا بعد دراستنا لـ«رسائل» جوستن بيركنس ، بان معلوماتها الجغرافية تطغى على «معلومات» الاحداث التاريخية .. لكنها بحّد ذاتها ، إنما تضيء جوانباً نحن بأمسّ الحاجة الى معرفتها ، من احوال المجتمع والتراكيب السكانية عصر ذاك ، ناهيك عن تبيان طبيعة العلاقات السياسية المحلية التي حكمت اوضاع المنطقة .. ثم مدى فاعلية السياسة الادارية التي إتبعتها باشوية بغداد ، في اطار القضاء على حالات التمرد والعصيان ضد «حكومة السلطان العثماني» .. ثم الوصف الدقيق والمعبر للموجودات الاثارية التي كانت قد اكتشفت ضمن اعمال التنقيبات ... والتي شوهدت في المناطق الاشورية لكلٍّ من العواصم الغابرة : نينوى والنمرود وخرسباد وآشور .. والتي كانت قد غدت محط أنظار العالم قاطبة خلال النصف الاول من القرن الماضي .. وعدت تلك العمليات والاكتشافات الآثارية ، ظاهرة «متقدمة» لذلك العصر . واخيراً ، ماذا توضّح لنا ؟ يستشف قارىء «الرسائل» طبيعة الاسلوب والاداة والتفكير لـ«صاحب الرسائل» (جوستن بيركنس) كأحد الذين دفعتهم الاجهزة «الاستعمارية» الى المنطقة ... ملاحظاته وتعليقاته التي توضح لمن يقرأ رسائله : امانيه وطموحاته وهو يجتاز اصعب المناطق في مسالكها الوعرة والخطيرة التي ينعلم فيها الامن والاستقرار . وهذا ما توضح جلياً من ثنايا هذه الرحلة .

ولكن ماذا عن النوايا والاغراض ؟

لقد كان قصد «جوستن بيركنس» قد بيّنه هو نفسه بجلاء .. إن الاغراض التي قصد صاحبها تحقيقها هي متنوعة ومتعددة ، مثلها مثل غيرها من الرحلات التي سبقتها او لحقتها من قبل الغربيين لمنطقة الشرق الاوسط عموما .. ويظهر جلياً بأنّ الهدف التبشيري كان من اساسيات تفكير الرحالة بيركنس ، باعتباره مبشرا امريكيا كان يعمل ضمن الهيئة الامريكية العاملة في ايران إبان تلك الحقبة .. وانه كان أحد مراسلي «المجلة الاستشراقية الامريكية» ـ المذكورة اعلاه ـ . وقد توضّح كلّ ذلك جلياً في بعض الفقرات التي كتبها في رسائله . اما الهدف الآخر ، والذي اولاه الكاتب اهميته وعنايتهُ في رحلته هذه .. انهّ ابتغى الوصول الى مدينة الموصل ، بغرض الاطلاع على الآثار الاشورية التي تتعالى قبالتها على الضفاف اليسرى من نهر دجلة ، والتي كانت قد اكتشفت حديثاً .

ولكن ما اهمية الاثار ؟

تعتبر الاكتشافات الآثارية الكبرى تلك . ظاهرة «غربية» لذلك العصر الباحث عن «حقائق الماضي اللاهوتي القديم» .. وقد برزت وتشكلّت وتجسدّت تلك الظاهرة في رحلات وتنقيبات الرجال الآثاريين الغربيين امثال : لايارد وراولينسون وبوتا ورسّام وغيرهم[2] ، وتمثلت امام العالم من خلال كتاباتهم سواء كانت نشريات ام مراسلات .. أم كتبٌ ورسوم .. الخ ومن المعلوم لدى الباحثين والعلماء ان نتائج تلك الاكتشافات كانت «ايجابية» كونها أمدت التاريخ والعلم والحياة والناس والجامعات .. بما كان ينقصهم من جوانب خفيّة عن الحضارات الانسانية الاولى في دنيا وادي الرافدين ، وعن دُولِه العالمية القديمة . اما النتائج المباشرة لتلك الاكتشافات الآثارية ، فانّ علينا نحن ابناء العراق ان ننظر اليها نظرة المالك لاثارة وموروثاته وموجوداته فقد كانت الاكتشافات ذات وجه سلبي ، اذ أن أعمالها الاساسية العامة ومن ضمنها عمليات التنقيب .. قد جرت في عصر ، كان اصحابها من ابناء «العراق» يوم ذاك غافلين عمّا يجري من حولهم ، نظراً لعقم ثقافتهم وضعف تحسسهم وقلة وعيهم بقيمة تلك المواريث والموجودات ، اذ انهم لم يقيموا وزناً يذكر لقيمة تلك الكنوز والنفائس التي نقلت الى اوربا على مرأى ومسمع منهم عملا بنظام «الامتيازات العثمانية» الذي منح للاوربيين في السياسة والدبلوماسية والتجارة والتنقل ... ففقدوا والاجيال البعيدة من بعدهم اعظم ما خلفه التاريخ لهم من تراث حضاري يمثّل بنماذجه المختلفة المتوزعة في متاحف اوربا ، شموخ اقدم المدنيات البشرية في العراق .. هذا البلد الذي يعتبر : «الارض البكر الاولى من حياة التحضر

الانساني، وهي الارض التي اطلق عليها الرحالة بيركنس بـ «الارض الكلاسلكية» ، او «المهد البكر من عرق الانسان في الوجود» - على حد تعبيره -(٤) . وماذا عن «الرسائل» ؟

تتصف «رسائل» جوستن بيركنس ، كونها تتحرّى خطّ الرحلة التي ضمّت كاتبها مع جماعته خطوة خطوة في المناطق التي جاسها عبر شمال العراق . . داخلا اليه من البوابة الحدودية الاستراتيجية الجبلية (= كاليه شين)(ب) ، بعد قطعه مسافات ايرانية ، ثم يخترق السلاسل الجبلية العراقية ، وسهل اربيل وسهل الموصل حتى يصل الى ضفاف نهر دجلة . وتتفاوت الرسائل في حجومها ، ما بين رسالة قصيرة تتألف من عدة اسطر الى اخرى مُسهبة في تفاصيلها . . تزيد على صفحتين وثلاث او اربع صفحات . اما تواريخها ، فتكاد تكون يومية «كتسجيلات» ، اذ تبتدىء الرسالة الاولى في ٢٥ ابريل (= نيسان) ١٨٤٩ ، وتؤرخ آخر رسالة في ١٨ مايس (= ايار) من نفس السنة ، ومجموع الرسائل كاملة ٢٤ رسالة ، اما العنوان الذي نشرت تحته في «مجلة الجمعية الاستشراقية الامريكية» فهو :

'Artical IV: Journal of a tour from Oroomiah to Mosul through the Koordiah Mountains, and a visit to the ruins of Nineveh', By Rev. Justun Perkins D.D., Missionary of the American Board in Persia, (Read May 24, 1850).(هـ)

وماذا عن الاسلوب الادبي الذي تميّز به بيركنس ؟

تمتاز رسائل جوستن بيركنس ، باسلوبها الرومانتيكي الأخاذ الذي يطغى عليه الجانب الوصفي . أما بناؤه . فهو مُحكم وذو تراكيب ادبية خصبة غاية في الجمال . يشعر القارىء ، وكأنه يعيش رحلة صاحبها لحظة بلحظة ، ويعيش المناطق الموصوفة ذاتها . . تلك التي اخترقها الكاتب ، بطبيعتها الخلابة : جبالها وسهولها ، عيونها وانهارها ، مزارعها وحقولها ، ليلها ونهارها . . وتجعله مشتدا لها ، متحمساً بِرَوعتها ، مجذبا لِسحرها ، تلك المناطق القصية من اعالي الجبال ، او السهول القريبة المتاخمة لها والممتدة حتى نهر دجلة . ولا غرابة ان يكون الاسلوب على درجة من هذه الصنعة ، فهو احد الوان الادب الرومانسي الذي كان مزدهرا في اوربا إبان القرن التاسع عشر .

من جانب آخر : هل هناك اشياء اخرى ؟

لا يفوت ان نذكر بان صاحب الرحلة قد تعّرض في رسائلهِ بالمسِّ من حياةِ وصِفات بعض الجماعات والقبائل في الجبال . . حينما يكون مرتاعا من موقف يملأ قلبه دهشة ورهبةً وانفعالاً ، نتيجة للاضطرابات التي كانت تحيط المناطق التي اجتازها في تلك الظروف الصعبة من حياة «العراق» .

وماذا بعد ؟

قبل ان انقل القارىء للتعريف بصاحب الرحلة ، أوّد ان اطلعهُ على بعض الامور . فثمة إشارات في «اسلوب البحث والعمل» لابد من ذكرها :

١ - لقد اكدت على بعض الامور المذكورة في الرحلة من خلال «التشديدات» التي استخدمتها . . اذ لم تكن موجودة اصلا في النصوص ، واقصد «التشديدات» .

٢ - لقد تجاوزت عن ذكر امور وجدتها ليست بذي فائدة . . وخصوصا تلك الانشائيات اللفظية في الوصف والتي غالى فيها صاحبها .

٣ - اعتمدت على بعض المراجع المهمة في تخريج ومعرفة بعض المصطلحات والاماكن للتأكد من مَعرفتها . . ولم تسعفني تلك المراجع المعتمدة في التعرف على بعض القرى المغمورة التي ذكرها بيركنس في رساله ، وربما عرفها غيري بواسطة المشاهدة الميدانية بالعيان . . او من خلال اطلاعهِ على خرائط ثمينة وخاصة للمنطقة .

٤ - هناك بعض «الملاحظات» على هامش الرسائل . . اظن انها تعود الى هيئة تحرير «مجلة الجمعية الاستشراقية الامريكية» كـ «تصويبات» منها على رسائل مندوبها بيركنس . . حافظت عليها ، وذكرتها في باب ملاحظاتي على الرحلة .

تعريف موجز بالرحالة جوستن بيركنس(د) :

ولد جوستن بيركنس في غرب المقاطعة الامريكية (Westfield) التي تسمى الان بمنطقة (Holyoke)، وذلك بتاريخ ٥

آذار=مارس ١٠٨٥م . وقد لازم حلقات (Andover) الدراسية اللاهوتية للفترة ١٨٣٠ - ١٨٣٢م . وتزوج من المس جارلوت باس في ٢١ تموز =يوليو ١٨٣٣م ، وأنجبَ منها سبعة اطفال . سمي كاهنا في الكنيسة الابرشية الكهنوتية في سنة ١٨٣٣م ، ثمّ مبشراً ، وارسل كمبعوث اجنبي ضمن رحلات التجارة الامريكية الخارجية . وكان تخصصه في موضوع «المسيحيين النساطرة في شمال غرب ايران» والتي عمل هناك للفترة ١٨٣٣ - ١٨٦٩م . وقد اسس مركزا تبشيريا في مدينة اورمية بايران .. كما وأسّس فيها أول مدرسة لانكاستريانية في آسيا الوسطى .

ويعتبر بيركنس أوّل من حوّل اللغة النسطورية العامية الى السريانية الحديثة كتابة ، وأسس دار طباعة في سنة ١٨٤٠م ، واشتغل محرراً في مجلة «شعاعات الضوء»[٥] للفترة من ١٨٤٠ - ١٨٦٩م . ومن اعماله : ترجمته لـ«العهد الجديد» للغة السريانية سنة ١٨٤٦م . وايضا «العهد القديم» سنة ١٨٤٣م . والف كتابا بعنوان «اقامة ثمان سنوات في ايران»[٦] ، وكتاب «الحياة التبشيرية في ايران»[٧] ، وكتاب «مخطط تاريخي للبعثة التبشيرية نحو النساطرة»[٨] .

وتوفي جوستن بيركنس في ٣١ كانون الاول =ديسمبر سنة ١٨٦٩م[٩] .

الرحلة

البداية

تحرك بيركنس ، مغادرا محل اقامته في سير — Seir — ، وذلك في الساعة السابعة من صباح يوم ٢٦ نيسان ١٨٤٩ ، متوجها الى الموصل ، محطّ انظار عالم الغرب آنذاك ، والتي بدأ من اجلها رحلته ، مخترقا الزاوية المحورية للطرف الشمالي الغربي من ايران ، ليدخل عابرا بعدها السلاسل الجبلية الشاهقات الذرى ، والتي تمتد مواقعها ، وفجواتها ، ومنافذها الحية في المنطقة الشمالية من العراق ، وقد سلك بيركنس الطريق الستراتيجي - التاريخي الذي مر من خلال ثغوره العديد من عظماء التاريخ ، مجتازا القرى والمدن المحلية التي تمتد عبر طول هذا الخط الجغرافي=والذي يصل مدينة اورمية بهذه السلسلة .

ولم يتوضح لنا كم كان عدد جماعته التي كانت ترافقه في رحلته هذه ، ولكنه يعلمنا انه اصطحب بعض الادلاء من السكان المحليين ، ليكونوا عونا له في الطريق الذي سيسلكه ، وليفيد كذلك من خبرتهم عبر المسالك[١٠] .

في اراضي كردستان ايران

واصل بيركنس رحلته ، حين عبر جسرا مقاما على نهر باراندوز — Barandoos — ، ذلك الجسر الذي يكاد يلامس صفحة الماء الصافي .. ثم انحدر مع جماعته نحو البحيرة الكائنة غربي تلك الجبال ، التي تشترك في سلاسلها بين العراق وتركيا وايران ، وتنحصر هنا على محور عريض في فجوة جغرافية مستطيلة من اراضي ايران . توقف بيركنس ليلا قرب قرية كرجان — Garjan — ونلقى دعوة من قبل صاحبها كريم خان ، قلباها بشغف عميق وها هو جالسا مستجما في الغرفة العليا من بيت هذا الخان ، وليرى كم كان منظر البحيرة خلابا .. ولم يعكر صفو استجمامه ذاك الا صوت اطلاقات نارية دوت في الافق[١١] .

ويمضي في طريقه القريب من البحيرة ، قاطعا تلك الحقول الخضراء ، ثم يجتاز سلسلة من تلال صخرية منخفضة ، ويعبر مقاطعة سولدوز — Suldus —[١٢] ، ومدينتها الرئيسة نيقاديك — Niqaddik — ، ثم يذكرنا بالخطر المحدق في ذهابهم من خلال هذا الطريق ، ولا سيا من الجماعات التي تسيطر على القمم ، وتتوزع بين الكهوف الغائرة ، وهم من الاكراد الذين كانوا قد قتلوا العديد من الايرانيين في تلك المناطق .

هكذا يعدد مصاعبه اثناء تقدمه في سولدوز ، ويصف لنا كم كانت الدهشة كبيرة تلك التي ارتسمت على وجوه الناس الذين صادفوه في هذا الطريق ، وعلى درجة مخيفة من الغرابة .

كانت الثلوج بيضاء وفيرة وهي تعلو سلاسل ومنحنيات الجبال التي كانت تحتضن طريق القافلة ، وقد وصلوا نهر جيدير — Jidir — بعد انهمار المطر . وكان النهر يبسط صفحته المائية عرضا كلما ازدادت القافلة تقدماً ، وعند حافته الجنوبية اخذت الرحلة طريقا مباشرا طوله ميلان ، اوصلهم الى قرية راختانا — Rakhtana — ، التي تضم ست عوائل نسطورية ، وهم

الناس الذين توقف بينهم بيركنس وقد اعتبرهم من ملتّه ـ على حد تعبيره ـ .

بعد ان يصف بيركنس مقاطعة سولدوز ، وما يتخلل طبيعتها ، وما يزخر مزارعها[13] .. يواصل مسيرته بقطعه ٥ فراسخ ليصل بعد ذلك الى مدينة ساوج بلاق — Sawj — Bulak[14] حيث اصبح الان مع ركبه بين الجبال الكردية ، وصعدوا اعلى قمة في تلك السلسلة الجبلية ، وقد تركوا المدينة قائمة مباشرة تحت هامة ذلك الجبل المطل من فوقها ، ثم انحدروا وعبروا نهرها بواسطة جسر حجري عال ، مبنيا باربع قناطر وقد تلفت بعض احجارها ، وكان طوله حوالي ١٥٠ قدما .. وعلى جنوب النهر تنتشر مزارع القمح والكهوف الحجرية . ويستطرد بيركنس قائلا : من المحتمل ان اسم هذه المدينة قد اشتق من طبيعتها ، والذي يعني (الربيع البارد) .

تبدّت قمم جبلية مخضوضرة ، عدا ما يكسو البعض منها ثلجا ، متنشرا هنا وهناك ، وكان الفصل سائغا ، ومناخه صافيا لمن يؤثر السفر فيه ، الا ما يزعج من انهمار المطر احيانا .. ورغم ما يحيط بالمدينة من جبال الا انها ستكون ذات حرارة لاهفة صيفا . ويسكنها الاكراد ، وفيها حوالي مائة بيت من اليهود . البيوت حمراء داكنة ، واسطحها صغيرة ، كما ان فيها اربع عوائل ارمنية ، وهي ذات تعامل تجاري جيد مع اماكن مهمة تستقطب اتجاهاتها ، فقد شاهد بيركنس في السوق تجارا من تبريز والموصل واورومية ، كما يمر عبرها الترانسبورت الى اسطنبول واوربا عن طريق ارضروم ، والى اذربيجان وروسيا عن طريق بحر قزوين[15] .

في مساء ٢٩ ابريل ، انزلت الرحال بعد ان توقّف الركب عند قرية دارلك — Darlik — التي يسكنها خمسة عشر عائلة ارمنية ، وعشر عوائل نسطورية . وانهمرت الامطار ليلا ولكن تغير الطقس ، اذ هبّ الهواء عليلا ، ونشرت شمس النهار اشعتها على اطراف تلك البقاع .. وبينما كانت القافلة تمضي في طريقها ، كان بيركنس يسجل المعلومات الاساسية الهامة عن الموصل والمسالك الجبلية المؤدية لها ، وعبر مناطق الثلوج العميقة التي قدر صعوبة اجتيازها في ذلك الفصل من السنة ... فكيف اذا ما كان الفصل في بواكيره ؟ ان الثلوج الطامية في المسالك هي عقبة كأداء تعيق الحركة والتنقل بين اقصر الطرق[16] . اما المسلك الذي سيتبعه بيركنس نحو العراق ، فهو من خلال القمة العليا التي تدعى بـ (كاليه شين) — Galeh Shin —[17] اي الدعامة اللازوردية الزرقاء ، والواقعة على المسلك بين اوشنو ورافاندوز — Ravanduz — . وهي دعامة رخامية غامقة علوها ثمانية او عشرة اقدام ، ويصفها بيركنس وصفا دقيقا ، ويذكر بان الميجر راولنسون — Rawlinson —[18] قد زارها منذ عدة سنين ، وكان قد نسخ منها نقوش الحروف المسمارية . ويعتبر هذا المسلك ذا موقع استراتيجي ، وله تاريخه العريق فقد مر من خلال ثغوره الاسكندر المكدوني في حركاته الحربية مع داريوس الملك الفارسي[19] .

يواصل بيركنس رحلته في ٢ مايس ، على المسلك الذي يقوم بين طرابزون ـ ارضروم فيسهب في وصف هذا الطريق ، ويصّور لنا مروجه ، والطيور التي تتلاعب في سمائه ، وبساتينه المزدهرة بثمار الكمثرى والمشم . ونهره ، والاشجار الوارفة المتناثرة على حافة ذلك النهر ، وكأنها حاشية شريطية خضراء ملتحمة مع زرقة الماء الشفافة . وبعد خمسة اميال ، يصل الى قرية صغيرة تدعى بايرام شاه — Bayram Shah — التي يتركها منحرفا نحو الغرب ، ويرى ينابيع الماء تنضح في الوديان رقراقة صافية او ترسمها الطبيعة على صفحة الجبال ، خطوطا متوزعة متعرجة بعد ذوبان الثلوج .. وعند احد تلك الوديان الكبيرة ، افترش بيركنس الارض مع جماعته ، وكانت متعته كبيرة بمشاهد الواح الطبيعة ، وهو يتنسم عبقات الزهور الطرية ، وروائح اشجار الجوز والتفاح .. وكانت نغمات الطبيعة تتبدد في خفوت وتبقى سقسقات العصافير المنبعثة عن قرب تموسق سكون ذلك الوادي الجميل . اما الشمس فتسقط حليها كلّ يوم على تلك الجبال المتلبّسة بالبياض . ويتحدث بيركنس عن الشمس الساطعة والثلج والجليد ... وقدرته ـ هو نفسه ـ على تذوق الحليب الرائب .. اللبن والقيمر — Kimak — الذي اهدى اليه

من الجيران الذين كان يخيّم لبعض الوقت بالقرب منهم[٢٠] .

مضت الرحلة في طريقها ، وهبّت الريح فاخذت الاشجار تتراقص ، ثم انهالت الامطار ثقيلة مترعة ، واستمرت نحو ساعة من الوقت .. قطعت فيها الجماعة حوالي ميلين .. ولازالوا في الطرف الغربي المباشر وتتراءى لهم على الحدود الجنوبية نقطة جبلية عظيمة تشكّل الحدود العامة بين العراق وايران[٢١] ، وقد غطيّت بالثلوج البيضاء الوفيرة .. وبدت نهاياتها لا يحدها شيء سوف الافق .

انحرفت الرحلة الان لاربعة او خمسة اميال نحو الجنوب الغربي ، ووصلت سهل لوجان — Lujan — وهو ذو تربة غنية ، ومياه وفيرة .. ويجري في شماله الشرقي نهر صغير يدعى (روبرى — Rubari —) ، وهناك نهر آخر بالعوض يسمىّ (ليفان — Livan —) والذي يدخل السهل من جنوبه الغربي . نهران تجري على جانبيها جداول صغيرة تروى جميع القرى التي تتوزع في تلك المنطقة ، وتصل الجنوب حتى المنطقة الايرانية من سرادشت — Serdasht —[٢٢] . كانت الاشجار الصنوبرية كثيفة تظلل عددا من الكهوف ، والصخور الممتدة من سولدوز متنشرة على طريق السلسلة المنخفضة للجبال . وتقطن هذه المنطقة قبيلة البلباس[٢٣] . وعلى ما يقرب من تسع ساعات ، قطعت الرحلة ما يقرب من ثلاثين ميلا بين احراش الاستبس . ثم خيّم الركب ليلا في الجنوب الغربي من السهل عند قرية هانيه — Hanee — التي تعتبر محل اقامة قرەيناغا ، ذلك الرئيس البارز لقبيلة البلباس صاحبة النفوذ ، وهو الذي قاد القبائل الكردية الرحّل التي غزت ارومية في الخريف المنصرم ، ونهبت خمس عشرة قرية جنوب السهل ، فكانت له سمعته في الاماكن التي اجتازتها الرحلة .. على ايّة حال ، فقد صرف بيركنس نظره عن رؤية هذا الرجل الذي كان غائبا عن قريته في ذهابه الى اوشنو . فكان ان استضافهم ولده الاكبر مراد اغا ورحّب بهم بحرارة . كان يناهز الثلاثين من العمر ، وقد جالسهم واكرمهم بعشاء سخي ، وقضوا ساعات المساء عنده . ويذكر بيركنس بانه قد عومل من قبل هذا الرجل بمنتهى الاحترام والرقة . وبسط له القول كونه لم يشاهد ابدا من الاوربيين اناسا قد عبروا سهل ليجان قبل هذا التاريخ .

يعبر بيركنس بعد ذلك عن هواجسه وقد ملأ الخوف قلبه حين يشرح لنا كيف تسرب بعد ذلك مع جماعته بصورة خاطفة حوالي عشرة اميال من المكان الذي توقف فيه عند مقابلته لرئيس البلباس ، الذي نصح لهم باتخاذ الحيطة والحذر ومراقبة انفسهم من الناس الذين «لايخافون الله» لَنَهمْ في الخارج صمت قاتل ، وكان يوما غائما حين تسابق فيه المساء عليهم ، وانه لمكان ملائم ، ووقت مناسب جدا للرجال الدمويين ، وللاعمال اللعينة المخزية ـ على حد ذكر صاحب الرحلة ـ . ويستأنف قائلا واننا نؤمل ان ندخل (العراق) غدا ، وهو المكان الذي يعتبر اكثر امنا ، نظرا لتواجد حكومة فعالة على اراضيه ، وعليه فخطر القبائل قليل . ولقد صرح لنا مضيفنا الشاب ـ رئيس البلباس ـ عن الرغبة القوية المتواجدة لدى الجميع ، والتي تريد العيش تحت ظل حكم الاتراك بدلا من الحكم الايراني[٢٤] . ولقد بقي مراد اغا برفقة بيركنس حتى صباح الرابع من نيسان ، وقد اكرمهم فيه كعادته بمائدة افطار شهية تضمنت الخبز واللبن والدوشاب المغلي اي (دبس السكر) . وتقدم معهم حوالي اربعين ميلا من رحلتهم المتواصلة .. بالوقت الذي وصلت الاخبار عنها الى القنصل الانكليزي في الموصل[٢٥] عن طريق استخباراته .

الدخول الى (العراق)

وفي اثناء مسيره ، عرف بيركنس المزيد من المعلومات عن كيفية عبور الحدود العراقية ـ الايرانية ، وما يتخللها من مناطق جبلية ، وقرى جبلية ، كما والم بطبيعة (كاليه شين) ، والمرور عبر هذا المفصل التاريخي ـ الجغرافي بين البلدين ، والذي يعتبر اشبه بنافذة جبلية حادة ، التي دخلوا العراق منها ، ووصلوا (شيخ محمد) — Shaikh Muhammad — ذلك المكان الرائع الذي يتصل بالمسلك الجبلي ، وهو احد الاضرحة الكبيرة الذي تؤمه الزوار

داخل بناء صغير تحتويه ظلال اشجار الصنوبر ، وهو مقدس من قبل الاكراد ، وحوله قبور وزهور جميلة . ثم وصلوا قرية (بالك) — Balak — التي تقع ضمن اقليم راواندوز الذي يرتبط اداريا بباشوية بغداد — Baghdad Pashaliq ، وقد قطعت الرحلة هذا اليوم ما يقرب من ثلاثين ميلا ، ولا زالت في طريقها الذي بدأ ينحرف قليلا نحو الجنوب الغربي .

بعد الدخول الى الاراضي الكردية من العراق ، يأخذ الطريق بالالتواء نزولا ، وهو ضيق وشاهق ، وعلى جانبيه واد صخري سحيق ... الثلوج تذوب على الجبال من حوله لتؤلف جدولا كبيرا يتهادى ماؤه ليصل الى واد مشابه له يقع على الطرف الاخر من الطريق ليكون بعد ذلك نهر راوندوز . النهر الذي يعتبر من اهم روافد الزاب (زاباتوس — Zabatus — عند اكرانافون) — Xenophon) ، وتراءت لبيركنس بعض الحقول الصغيرة القمحية ، وكانت يانعة الاخضرار ، وعلى البعد منها تتفرق شجيرات البلوط ، واشجار السنديان والغرب بشكل مجاميع على سفحات الجبل .

انحدرت الجماعة الى اسفل قاع الوادي . واصبحت الجبال في الطرف الاخر نافذة حادة وتغشاها قطع الغيوم المتفرقة في عليائها ، وقطعوا مسافة اوصلتهم الى قرية رايات — Rayat — وقد ظن اصحابها ان للقافلة سلعها وبضائعها ، ولم يصدقوا ما اعلن من امر هذه الرحلة ، اذ توقعوا العكس تماما ، فبادروا الجياد ليقفوا ويفحصوا صناديق المؤن المحمولة ، وتراشقوا الكلمات الحادة مع الادلاء ، وكاد يعصف الامر بينهم لولا التهديد الذي مورس معهم . . وقد اثار موقف احد الادلاء المرافقين الارتياح عند بيركنس ، كونه نجح في تجاذبه العنيف مع بني قومه بجلجلته اللغوية التي لم يفهمها بيركنس - على حد تعبيره - .

قرية رايات ، قلعة قوية ، مبنية بالحجر والكلس ، وتتشابه مع غيرها من القرى في هذا الوادي الذي يعتبر منطقته هذه ذات تحصينات قائمة ، ومتواجدة بما يقرب من عشرين عاما ، وذلك من قبل محمد باشا او كورمير(٣٦) ، الرئيس الاعلى لراوندوز ، والذي تمرد ضد حكومة السلطان العثماني ونشر الخراب في كل مكان من مقاطعته ، كما نشر الرعب في جميع الاقسام المتاخمة لها(٣٧) .

نزلت القافلة في طريقها حتى صارت الى قرية (ديربنت) — Derbent — ، القرية اللطيفة ، التي هي رغم صغرها مأوى ينعم بالدفء ، ومنحجب تماما عن الانظار . وتقع على مفرق طويل ما بين نهر راوندوز ورافد اكبر يدخل من الشمال ، ويتحدر هذا النهر كثيرا مما يجعل مياهه تندفع بقوة عظيمة جدا . ويقف بيركنس معلقا على هذا بقوله : «انه لو كان ذلك متواجدا في بلد متمدن ، لتحولت قوة النهر هذه عبر آلاف الدواليب للاغراض الصناعية ، والاستفادة من طاقتها في المعامل ، ساحبة الصوف من اصل عشرات الآلاف من قطعان الخراف المتواجدة في كل مكان من هذه المقاطعة لتنتج بعد ذلك سلعة مصنوعة ، وهذا ما يقال نفسه عن عدة انهر اخرى شبيهة تتدفق ما بين الجبال» .

ان موقع ديربنت شاهق جدا ، والبيوت مبنية بالحجارة وقريبة فيما بينها . الاشجار خضراء جميلة نحو الاعلى من حافة النهر ، وتتوزع حقول القمح نحو الادنى من القرية ، اما الجبال الصخرية الجانبية فقد غطيت في هذا الوقت من السنة بطبقة ثخينة من الطحالب التي نادرا ما «كنا نراها» في ايران ، ومن المحتمل ان نموها يتأتى عن حالة الجفاف التي يتمتع بها الغلاف الجوي في هذه المنطقة - على حد قول بيركنس - .

انحدرت القافلة بعض الاميال تحت بيرميت ، وكان طريقها صخريا ووعرا ، حتى وصولها الى واد ضيق ، ذلك الذي تقوم عنده قرية (ميميحال) — Memehall — ، وقد تحدث الى بيركنس البعض من المسافرين الاكراد الذين مروا به عن الجيش التركي الجرار الذي كان محتشدا عند راوندوز ، وفعلا عند وصولهم هذه المدينة ، علموا ان الف جندي قد جاؤا من المركز بغداد الى المنطقة المجاورة لـ(خوى) — Khoy —(٣٨) لتقوم بعمليات تأديبية للخارجين عن القانون ، والذين جاءوا الى ايران اثر تقدم الجيش التركي الذي كان يحتوي الآلاف من الجنود

النظاميين ، وقد اهتاج منهم اولئك القرويون الاكراد ، والاكراد هم الذين اعلموا بيركنس بتأجج الموقف[29]

كانت القافلة قد نصبت خيامها في الليلة الماضية على بعد نصف ميل من قرية (ميمحال) هناك حيث براري كردستان الموحشة ، ولكن اصحابنا كانوا مطمئنين في نومهم ، دون مراقبة للموقف او خشية من احد ، فيتبدد في رقادهم كل ما علق بهم من وعثاء السفر واتعابه ، ويعود الامر في هذا كله لتواجد الحكومة الفعالة عكس ما عليه الحال في ايران ، وخلال خمسة عشر عاما لم يستطع احد من الاوربيين الاحتكاك بهذا الاقليم ، اما الان فقد اثمرت الجهود المكثفة لكل من الاتراك والايرانيين في قهر تلك الرهبة التي كان قد زرعها كورمير ، وساد الامن والاستقرار الى ربوع هذه الجبال .

واصلت الرحلة طريقها غربا لما يقرب من ثلاثين ميلا ، متبعة في نزولها نهر راوندوز ، وذلك من خلال طريق صخري ضيق يبلغ طول قاعدته ١٠٠ قدم ، وله ارتفاع شاهق على جانبه الاخر يعلوه بمئات الاقدام ، اما الجبال - هنا - فقد لبست سفوحها اشجار البلوط ، وكسيت الارض بالمروج الملونة الجميلة التي تتماوج على حافة النهر ، اما اشجار الصنوبر الطبيعية الكثيفة فانها تنتشر على مد البصر ، التي نادرا ما تتواجد في الجبال الايرانية ، تلك الجبال التي وصفها بيركنس بالجبال الصحراوية .

تابعوا سيرهم بعد ان انحدروا غربا بموازاة هذا النهر المتدفق بحوالي اربعة اميال ، ثم عبروا جدول ماء بواسطة جسر خشبي ، وانحرفوا الى الجنوب الغربي من الضفة ، ومروا بثلاث قرى تدعى على التوالي (جومان) — Choman — ، و (ريزان) — Rizan — ثم (عمرافا) — Omarava — وتحيط هذه القرى اشجار الفواكه ومزارع القمح . . وعند القرية الاخيرة عبروا الى الجانب الاخر من النهر ، ثم اخذوا بالصعود الى قمة الجبل العالية المكسوة بغابة كثيفة من البلوط ، حتى وصلوا قرية (جاماركين) — Chamarkin — الشبيهة بتلك التي مروا بها سابقا ، ومنها وصلوا قرية (ديركالا) — Dergala — ، وهي قلعة قوية وكبيرة ، ويقطنها اليهود ، وقد هرع العديد من الاطفال راكضين الى الطريق ليروا موكبنا ، وخاطبوا بيركنس بالسريانية - كما يذكر - التي تعتبر لغتهم البلدية . . وبدأت السماء تمطر مطرا ثقيلا على طول الطريق ، فسبب للرحلة مصاعب جمة ، ثم يقدم بيركنس بعد صعوده مئات بل الاف الاقدام منذ دخوله منطقة الرعب التركي - كما يسميها - يقدم وصفا لغلال اشجار العفص ، وكيفية جمعه من قبل سكان تلك الجبال ، رجالا ونساء واطفالا وذلك خلال الموسم المحدد من كل سنة[30] .

تلألأ بريق الشمس اللامع ، وانتشر على تلك البقاع صباح يوم ٦ مايس ، وانحدر الركب من القرية نحو مركز الوادي ، وكان المنظر رائعا لما يعلوه ويدنوه ، والتقوا مرة اخرى مع نهر راوندوز وقد قطعوا خلال ذلك خمسة او ستة اميال ، واقتربوا من مدينة راوندوز[31] ، بعد مصادفتهم لبعض المتاعب في الطريق ، اذ انكسرت (العجلة) من جراء الامطار .

راوندوز[32]

هذه المدينة التي توضحت حالتها من ثنايات ذلك الوادي المنخفض ، وقد ذكر لصاحب الرحلة انها حارة وغير مريحة ولكنها بلدة صحية ، ويبلغ عدد سكانها ١٥٠٠ عائلة ، وهناك من بين هذا الاجمالي ٨٠ عائلة يهودية ، والبقية اكراد ، اضافة الى وجود يهود اخرين ايضا في عدد من القرى المجاورة ،وهناك قرية صغيرة تدعى (پاپال) — Papal — ويسكنها النساطرة . ويتكلم اليهود اللغة السريانية . وعبثا حاول بيركنس ان يحرز عينة من منطقهم ، اذ يقول ان نزعتهم الى الشك القديم الذي مرده حاخاماتهم ، لن تجعلهم يتقبلوا حتى الكتابة لمن يملي عليهم فصلا من فصول العهد الجديد (= الانجيل) .

لقد تمركز في راوندوز اربعمائة جندي تركي ، ليساعدوا في حكم هذه المدينة واقليمها . بيوتها مبنية على درجات ، اضافة الى الاسطح المسطحة التي يعلو الواحد منها الاخر . هذا ، اذن ، شكل راوندوز ، الاسم الذي كان يقلق تلك الاقاليم الايرانية التي مرت بها الرحلة لاول مرة . . وهي بالذات مكان

محمد باشا او كورمير ، كما كان يدعى عشائريا[٣٣] ، والذي كان لديه ٢٠ الفا من الاتباع البدائيين ـ على حد قول بيركنس ـ ، وقد قهر كورمير في نهاية الامر سنة ١٨٣٦ ، من قبل الجهود المكثفة لكل من الجيشين التركي والايراني . ويتابع قوله فيصف كورمير انّه في الحقيقة رجل دم ، ويروى عنه مثلا انه في احدى المناسبات عندما كان هاجعا يغط في نومه على سطح قلعته المتغطرسة العالية صيفا ، في ساعات الليل الحالك ازعجه بكاء طفلته اليافعة التي كانت محزومة في المهد بجانبه ، فاستيقظ ونهض حانقاً واخذ الطفلة بيده وقذفها الى النهر الهادر في اعماق القاع السحيق ، وذاع توحشه بين بني قومه الذين ظلوا يذكرون هذه المأساة المريرة .

لقد نجح رسول باشا اخو كورمير مؤخرا في حكومة راوندوز ، الا ان الترك وجدوا ان ثقتهم به في غير موضعها ، في حين انه على مدى ثلاث سنين مضت ، كان مجبرا لان يتفادى العصيان ، وذلك قبل زحف الجيش التركي الى ايران ، وبواسطة التدخل الانكليزي رخص بتواجده راجعا كشخص اعتيادي ليسكن في بغداد .

ان الحاكم الحالي لراوندوز هو التركي المخلص ، حاجي محمد اغا الذي اخضع هذا الاقليم المتطرف بفعالية بالغة ، وتحول الاكراد في سنوات قليلة الى قرويين هادئين ـ على حد قول بيركنس ـ ويذكر انه من الاستحالة ان يدخل احد من الاوربيين هذه الجبال ، بدون خطر محدق واكيد . . ثم يورد اخبارا عن كورمير ، وحركاته الدموية للقرى المنتشرة حول راوندوز واخضاعه للتيارية ـ Tiyārī —[٣٤] ، كما بدد القرى النصرانية حيث وجدت بدون رحمة او تحيز لذرائعه ، وحطم القرية البابوية الكبيرة القوش ـ Alqūsh —[٣٥]

في راوندوز ، وعلى جانب من مخيمه ، تهادى صوت الموسيقى المارشالية ـ الحربية مساءا كان ينبعث رخيما من ثكنات الجنود ، قد استساغ هذا الصوت ـ كما يذكر ـ ونقلته تلك المقطوعات الموسيقية التي يعهدها الى وطنه واهله . . . ويتابع كلامه بالقول : «وهنا نتذكر ايضا طبيعة التكتيك الاوربي ، وماجرى من العمليات على مدى الثلاثين سنة الاخيرة في سبيل ان يرقى الامن والتقدم الحضاري في تركيا(هـ) ، ولقد جعلتنا هذه الاطراف الاكثر تطرفا نحس انها ليست في مركز قلب الامبراطورية ، مع انكارنا من طرف آخر لايمان الجيش وفاعليته وتنظيمه بالنسبة الى كل ذلك» .

في زيارته للمدينة ، نستمع معا الى وصفه لها كما يراها . فبيوتها مبنية بصورة مجزأة من قطع الصخر والآجر . الذي يصنع من الطين الممزوج مع كمية كبيرة من التبن على الاسلوب المصري القديم[٣٦] . . الشوارع ضيقة ، متعرجة ملتوية ، وقذرة . . وفي الاسواق البعض من تجار الموصل الصغار ، وقد بان الآن ان عددهم هنا قد كثر بصورة واضحة .

ودعي بيركنس عند حاكم الاقليم الذي وصفه بذلك الرجل البغدادي الذكي الذي يتمتع برقة عالية ، الذي انسجم معه ، واهتم به ، ووجه رسالة بصدده لتكون عونا له ولجماعته في تسهيل ما قد يعترضهم في الطريق ، يقول بيركنس : «وقد هنأناه على خططه ، وتقدمه في اقليم كردستان ، وقد عبر لنا عن امله لان يبقى التغييرات الاعظم ، ويطورها نحو الاحسن دوما» . ويذكر بيركنس ، انه صادف احد التجار الاكراد في راوندوز ، واسمه محمد امين اغا ، ووصفه بالرجل المحب والذكي . . والذي كان قد زار استانبول وتبريز ومدن اخرى ، ولم يستطع بيركنس ان يقنع نفسه ، كيف ان رجلا متحضراً كهذا يعيش في جبال موحشة كهذه . ويستطرد قائلا : بان هذا الرجل كان ثائرا في اطرائه للتغيير من الكردية الى الحكم التركي مع انه كردي المنبت . . وهو نفسه الذي كان قد صاحب كورمير في محاولات اعتدائه غير الناجحة على مناطق عديدة[٣٧] .

وتبدأ الرحلة من جديد :

في ٨ مايس ، تبدأ الرحلة من جديد في طرق ملتوية صعبة . . كان تقدمها ضئيلا الى الجنوب الغربي من راوندوز ، وقد عبروا جسرا يقوم على نهر المدينة ، التي حمل بيركنس بيده توصية من حاكمها القدير للقرى التي سوف يمر بها ، اضافة الى ذلك فقد انتدب هذا الحاكم للقافلة بعض الحراس ليكونوا عينا

ساهرة لها حتى اخر الليل . ويرجع لنا بيركنس ، ليصف المكان الذي يمر به ، وذلك النهر وحافاته الصخرية ، وبمجراه واتجاهه نحو اليمين من ممر ضيق ، تتعلق فوقه قلعة الحكام الجاثمة على ضفته الصخرية التي يقدر علوها بمائة وخمسين قدما . لقد صاحب بيركنس خارج المدينة تجار الموصل ويذكر مستطردا : «بان هؤلاء التجار اضافة الى مصاحبتهم لنا ، فانهم اطلعونا على بعض الامور ، وارشدونا ، واهتموا بنا ، ورافق ذلك مزيد من الكياسة واللطف الشرقي الاصيل» .

ان حكومة هذا الاقليم التي تديرها باشوية بغداد ، تمتاز بقدرتها ، وضبطها ، وفاعليتها على جميع الاطراف ـ على حد تعبيره ـ ، وكيف استطاعت في وقت قصير ان تغمر السعادة بين جميع الطبقات والملل التي تتعايش جنبا الى جنب ، موظفة اليهود والاكراد في الدوائر المسؤولة ، وخصوصا في دوائر الكمارك ، وكم يتراءى الاطفال لدى هذا المجتمع سعداء اكثر بكثير من اطفال ايران ، تراهم لاعبين ، فرحين حتى ساعة متأخرة من ساعات المساء .

بعد ان غابت اسوار راوندوز وبساتينها المزهرة الجميلة عن عيون القافلة ، اخذهم ذلك الطريق الجبلي العميق الى منطقة (زك زاك) — Zig — zag — ، التي تمتاز بصخورها الانكسارية البارزة . اما الطريق هنا فانه صعب في الاجتياز . . اما الذي يلفت النظر حقا فانها تلك الاعداد العظيمة من الاشجار والشجيرات التي تتوزع في كل حدب وصوب . . ثم جماعات من الاكراد ، كانوا يتحركون مع عوائلهم ، ومواشيهم من المناطق الدافئة الادنى ، تلك الامكنة التي قضوا فيها فصل الشتاء ، قدموا لينشروا انفسهم ـ الان ـ فوق الجبال المتاخمة . وكانت هذه الجماعات الكردية من الحركية ـ — Harkis ، والذين عادة ما يتحولون شتاءا نحو اراضي باشوية الموصل — Mosul Pashalik — ثم ينتقلوا صيفا الى الجبال فوق تركور — Tergawar —(٣٨) . ان المخاطر كبيرة في العبور من قمة الجبل ، داخل ثغرة ضيقة ، تعبر منها العوائل الكردية ، مع مواشيهم واحمالهم ، وذلك بطريقة بارعة ، اذ يتخللون هذا الممر الواحد باتجاهات متنوعة في آن واحد . ولكن . . كم هو الخطر المحدق من العلو الشاهق نحو الوادي السحيق ؟؟

يصل بيركنس هاوية خليفان ـ — khalifan التي يتسرب حجمها المنجرف العظيم من الطرف الجنوبي الغربي ، متخللا الاعماق المثنية مع ضفاف شبيهة بتلك التي رآها هذا الرحالة عند نهر راوندوز . . الطريق الان ينعطف حول جوف مفتوح نحو الجنوب ، يأخذ القافلة ليوصلها الى الحافة المقابلة . فتصبح جوانب الجبل على اليد الاخرى ، اما اتجاهها فقد بدا الان معاكسا تماما . . وكانت اللواحق الاخرى من الاقسام الدنيا لهذه الهاوية ملبسة باشجار الجوز الثقيلة ، وشجيرات خضراء صغيرة زاهية اما حوافي ذلك المجرى فقد كانت غنية بالحشائش والاعشاب ، وبقربها تنسج الطحالب اليافعة التي تطفو في المياه الصافية . ويتجمع الاكراد باعداد غفيرة قرب شواطىء هذا النهر ، لكي يرعوا قطعانهم من الماشية ، وقد جلسوا هم ليتنعموا بالظل البارد .

لقد عبرت القافلة الى الضفة الغربية من هذا الرافد بواسطة جسر مبني بدعامات حجرية ، وواصلت مسيرتها الهادئة لاكثر من ميلين ، بعد تركها قرية «خليفان» التي تبعد نصف ميل اعلى النهر ، وهي القرية الوحيدة التي رأتها الرحلة في هذا اليوم ، وقد اكتمل ممر السلسلة الجبلية العظيمة . ويحكي بيركنس لنا نتفا من صور الحياة الاجتماعية التي رآها(٣٩) ، فالعائلة الكردية متماسكة فيما بينها ، ومترابطة في تكوينها ، يتصف الرجل بصلابته ، والمرأة بقوتها . . وكيف انها تحمل مهد طفلها على ظهرها ، وهي تراقب بقية اطفالها الذين حواليها ، وهم يسيرون معها ؟؟ ثم ما اكثر الرعاة والفقراء في هذه المناطق . .

خيم بيركنس ليلا الى الجنوب الغربي من جبل عال ، وقد تسلّقه ثلاثة جنود من راوندوز ، ودخلوا علينا ـ كما يذكر ـ ليقصوا لنا الروايات الهامة عن فرار كورمبر ، وهروبه من الطريق القريب منا ، وملاحقة الجيش التركي له ، بالتعبئة العسكرية المنظمة . . كان الجنود ينتزعون ـ على سبيل المثال ـ مدفعهم بواسطة الحبال ، ثم يحفروا قليلا في الثلوج المتوجة العالية ،

ويغمروه فيها ، حتى اذا ما تحركوا في تقدمهم ثانيا ، نقلوا ذلك من اماكن تواجدها الى طريق اخر . وقد مرّ الجيش عبر المسلك الذي اجتازته القافلة ، حسب رواية اولئك الجنود .

رحل الجيش التركي هذا اليوم في قوة كبيرة من خوى ـ Khoy ـ ، بغرض مطاردة رئيس النافركورد ، الذي ساد سابقا على تسعين قرية ، كان خائفا ، فلاذ بالفرار طائرا كالحجل بين تلك الاقاليم ، ولا يزال مرتكبا السرقات خلال المطاردة المحكمة(٣٩) .

هذا هو اليوم التاسع من مايس ، تقدمت فيه الرحلة نحو الجنوب الغربي لاكثر من عشرين ميلا ، وعبرت سلسلة جبال انكسارية ، وامتداداتها تقدر بستة او ثمانية اميال ، وتدعى بعض اماكنها بالجبال المنخفضة ، ولكن تعتبر هذه التسمية مغايرة في صورتها لتلك الطبيعة الصعبة القاسية فقد كان الطريق صخرياً ووعراً من خلال ارتفاعات حادة الاطراف . . ان هذه السلسلة مغطاة بشجيرات البلوط الشبيهة بتلك التي كانت متكاثرة على الجبال العالية ، اضافة الى هذا ، تنتشر هنا حقول قمح صغيرة ، وشجيرات الكروم الجميلة المبعثرة هنا وهناك .

بعد قطعه لهذه المسافة ، لاح لمرأى بيركنس سهل عظيم متماوج على امتداد ثلاثين ميلا كاملة او اكثر . ويتقاطع من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي اما عرضه فيبلغ عشرة اميال على الاقل . وقد تركت الجبال الانكسارية وراءه .

نهر الزاب الاعلى ومواصلة الرحلة :

تعبر القافلة في القسم العريض من هذا السهل ، نهرا كبيرا هو نهر الزاب ، ذلك المجرى العريق الذي مر بنا حديثه ، يسمى هذا النهر ايضا بـ«زاباتيوس» ـ Zabatus ـ في التاريخ القديم ، والذي عبره اكزانافون مع عشرة الآف من البشر كانوا تحت قيادته . يخترق نهر الزاب طريقه من اعالي تخوم الجبال العالية ، منحدرا على طول الجانب الشمالي لهذا السهل ، ثم ينحرف غربا لتبقى الجبال من ورائه ، وهو ليس ببعيد جدا عن تلك التخوم ، والتي تعتبر اماكن رئيسية مثل جيلو ـ Jīlū ـ ، وبـاس ـ Bās ـ ، وتيخـومـو ـ Tekhomo ـ ، وتيـاري ـ Tiarre ـ .

قرب المنطقة السفلى لتلك السلسلة الصخرية التي عبرتها القافلة هذا الصباح من خلال منحدر وعر ، مرت في طريقها باكثرية من الاكراد الذين كانوا يحتشدون من حولها ، وهم من عشيرة الهركي الكبيرة ، ويتواجد هنا وهناك كذلك قليل من عشيرة الشقاقية ـ Shiqāqīs ـ من ارومية ، كان هؤلاء قد انساقوا في السنة الماضية بهذا الاتجاه نظرا لما دعت اليه مسألة النقص في المؤن ، وقلتها بسبب طغيان الجراد على ذلك الاقليم . والذي اصبح مشابها لغيره من الاقاليم فقد انسحب اليه الجراد من السهول الحارة : (سهل الموصل وسهل اربيل) الى السلاسل الجبلية المعتدلة المغطاة بالثلوج . . يقول بيركنس : «ولم نستطع ان نقدم أيّ دعم او مساعدة للجماعات التي مررنا بها ، وقد خلفوا في انفسنا اثارا محزنة رغم الثراء الذي ينعم به رؤساء ـ اغوات ـ الاكراد ، والذي تبدّى واضحا لنا من خلال اجتيازنا بين الاف القطعان من اغنامهم ، والمئات من خيولهم» .

غادرت القافلة مخيم باياك ـ Bayāk ـ اثر عبورها السلسلة الصخرية ، والسهل الواسع الذي يعتبر جزءا من مقاطعة حرير ـ Harir ـ وسكانه الاكراد من قبيلة الزوركي ـ Surkie ـ(٤٠) وتتوزعه عدة قرى التي تمتاز بفلاحتها الجيدة ، وحقولها الواسعة الغنية بمحاصيل الحنطة ، كان موسم الحصاد قد اقترب ، فيا لها من حقول ثرية بالسنابل الذهبية المتماوجة مع حركة الريح هنا وهناك .

كانت الشمس دافئة جدا ، عندما قطعت القافلة واديا عميقا يقع في قلب هذا السهل ، ثم دنت رويدا نحو الزاب ، لمسافة ميل قرب قرية كنديل ـ Kandīl ـ ، وتعتبر هذه القرية من احد المسالك التي تقطع النهر الى الموصل ، ثم توجهت القافلة الى الجنوب الغربي باعتباره الطريق الاقرب ، وقد نصبت خيامها قرب السلسلة الجبلية المنخفضة ، والتي تجاور سهل حرير في الجنوب ، قرب قرية هارش ـ Harāsh ـ ، بنحو ميل . . . اما هذه السلسلة فقد غطيت بشجيرات البلوط الصغيرة ، والتي كانت نادرة في ربوع السهل نفسه . «ولقد كان مهما جدا ان نجد

انفسنا الان قريبين جدا من نهر الزاب المشهور على امتداد التاريخ» - على حد تعبير صاحب الرحلة - .

على جانب ذلك المكان ، حيث خيم الركب ، توزعت عدة مخيمات كردية ، وظهر فجأة رئيس عشيرة تلك المنطقة - باياز اغا - ممتطيا صهوة حصانه الرشيق ، وحاملا حربته في يده وقد احيط بحاشيته . . فاسرع نحوه دليل الرحلة ، واطلعه على رسالة حاكم راوندوز - حاجي محمد اغا - التي صرح فيها لمن يعنيه الامر بمراقبة ركب الرحلة ومخيماته ليلا من فضول القرويين . . بعد وهلة من الوجوم ، كان الرعب مرتسما في وجوه خدم باياز اغا ، ويتابع بيركنس حديثه قائلا : ولقد كنا لعبة جيدة في يده . . ثم عاد دليلنا بعد ان اشبع بكلمات مؤذية . . وفي نهاية الامر امر هذا الاغا اربعة من رجاله ليتظاهروا بحمايتنا ، ولكن مع كل ذلك فانهم تراءوا لنا كونهم ابعد من مراعاة منزلته الرفيعة ، وبدلا من ان يرحب بنا مع جماعته ذوي النظرات الحادة ، فانهم تبختروا في طريقهم وراء التلول عندما اخذنا بنصب خيامنا ، وقد خشينا منه كثيرا ، اذ ربما يضمر جديا فكرته الخافية ، ليلعب بنا في الليل لعبته او لربما يفعلها من خلال الحراس الذين انتدبهم لحمايتنا . وبناء على ذلك فقد قوّضنا خيامنا بمجرد طلوع الشمس» .

هكذا تحركت الرحلة ، مرة اخرى وقد قطعت حوالي ميلين عبر - زك زاك - لتصل بعد خفوت الشمس بفترة قصيرة قرية بابجيجك - Babajjik - ، وقد سادها الظلام ، وعلى سطح احدى بيوتها الصغيرة ، توزعوا في رقادهم ، وذهبوا نائمين منعمين بالهواء الطلق ، وذلك لغرض ان يبكروا في مغادرتهم صباحا ، وقبيل اشتداد حرارة الشمس في رابعة النهار.

يصف - بيركنس - هذه القرية . فهي تقع في جنوب السلسلة الجبلية ، وتتكون من اربعين بيتا مبنية بالصخر . . وتحميها قلعة عالية ، وفيها جامع ذو حجم مناسب . وهناك على علو واضح من القرية يتواجد مدفن مقدس جدا يدعى - مون صوفي قره سولي - Munsufi Qara Suli ، الذي تظلله الاشجار الباسقة ، وفي الحقيقة ، فان هذه القرية تبدو هادئة ، ويغشاها السكون ، ويعتمرها روح الايمان نظرا لمكانتها الدينية وفي رحاب ذلك المكان يعيش المتصوفة والاولياء الصالحين[11] .

ان الكتخدا — Kathodeh — ، هو نفسه الشيخ الذي يقيم مع جماعته من الدراويش ، الذين كانوا يصلّون ويرتلّون بعذوبة ، في هذا الجامع لساعة متأخرة من الليل ، وما ان ينهوا صلواتهم حتى يبدأوا بترجيع (لا اله الا الله) وذلك في صوت واحد ، متناغم في انسجامه وضبطه وموسيقاه . . . بعد ذلك تبدأ تلاوة اسم (الله) مائة مرة ، وبنفس الصوت والنغم[12] .

استيقظ بيركنس مع جماعته في تمام الساعة الثانية صباحا ، ليأخذوا طريقهم ، ممتطين ظهور البغال ، وقطعوا مسافة خمسة عشر ميلا قبل طعام الفطور . . كان النصف الاول من الطريق يمتد باتجاهه نحو الجنوب الغربي ، ثم ينحرف نصفه الاخر لينحى الى الغرب قليلا وفوق سلسلة جبلية ، لتمر الرحلة بعد ذلك بواد وعر عميق تتخلله الاعمدة الصخرية ، وعند تلك النقطة وصلت الرحلة الى واد اخر ذي دائرة استعراضية ومجرى ينحدر من الجنوب الشرقي نحو الزاب . يدعى كل من الوادي ونهره بـ - بره برووش -

وتتراءى لميل على الجنوب من هذا الطريق ، قلعة تدعى بـ ديفيرى - Deveere — وتعتبر من احدى القواعد الامامية للمتمرد محمد باشا الراوندوزي في عصيانه على الاتراك .

بعد هذا كله يتحدث بيركنس عن عبوره لذلك القاطع من النتوء الجبلي ، ويصف لنا صخوره الهشة وترابه الداكن ، وقد قطع مسافة كبيرة مع جماعته خلال هذا الصباح ، ووصلوا اخيرا الى القمة العليا من تلك السلسلة ، وباطلاعه نحو ذلك الامتداد من الاعلى ، توضحت له تلك المناظر الخلابة لكل من السهلين العظيمين . . سهل الموصل ، وسهل اربيل . ويتابع كلامه حين يذكر : بان تلك الجبال التي كنا قد قطعناها في بضعة ايام . . كانت غالبا ما تملأ احاسيسنا بالسمو الذي لا يوصف ! اما الان فان اتساع رقعة السهول المستوية قد اسرنا واخذ بالبابنا ، حيث كانت رؤاها بعيدة عن مخيلتنا ، وها هنا اصبحنا لا نجد شيئا يحول امام نواظرنا الا الارض والسماء .

سهل اربيل

يمتد سهل اربيل المائل الخصيب ، او اربيلا — Arbila —(٣) ، والتي انتزعها الاسكندر المكدوني — Alexander — من داريوس — Darius — على اليسار من امتداد مسلك الرحلة وجانبه الجنوبي ، وعلى اليمين منه يمتد سهل نوكر — Noker — الكبير ، وتتوزع الخصوبة بين الاثنين على حد سواء ، وتعتبر عقرة — Aqra — مدينة هذا السهل(٤) .

اما نهر الزاب الكبير المتدفق فكان يتماشى على بعد واضح من المسلك . وكان الجبل المنخفض يحاذي مجراه على نطاق صغير ابعد مسافة الى الغرب . . وقد توضّح الان موقع الموصل على سهل الموصل ، وتوضحت ايضا نينوى القديمة .

يعلن بيركنس بعد ذلك بقوله : «كم هو اصيل وعريق ، اضافة الى كونه ساميا رفيعا . . منظر هذه الارض الكلاسيكية التي نجيل فيها عيوننا ، كونها المهد البكر من عرق الانسان وقد اجتلدت ركاما هائلا من الحوادث الخطيرة ، والاثار الحية في تاريخه ، وكلها منضوية بين نطاق كل من الدين والدنيا» .

يستمر بيركنس في حديثه ، حين يصل الى قرية بواهلين — Bawahallen — التي يتناول فطوره فيها . لقد كانت هذه القرية تتربع على مكان ساحر ، وتتعلق مستقرة عالية مطلة فوق واد اصطبغت سفوحه بالخضرة الوارفة ، وتكلل جرفه باشجار الفواكه منها التين والرمان ، وكرمات الاعناب . . ثم يصف بيركنس بيوتات القرية ، والتي يمر بين جدرانها في ذلك الصباح الباكر . . في القرية خمس عشرة عائلة كردية ، وثلاث عوائل يهودية . وقد تحدث سكانها معه وكانت ملابسهم سوداء اعتيادية والتي تدعى بـ كازيك — Kasik — . وفي هذه المنطقة لاحظ بان اشجار الجوز بدت اقل منها مما كانت عليه في المناطق العالية .

تريث صاحبنا بعد ساعات قليلة من الفطور مع جماعته تحت ظل رائع نشرته اشجار العرعر (الصنوبر) الكثيفة ، وزودت الخيول بالطعام والراحة ثم امتطيت ومضت في سيرها لاكثر من خمسة عشر ميلا ، ولم تتوقف حتى قرية ريشوان — Reshwan — . وكان تقدم الرحلة العام اثناء ذلك اليوم متجها نحو الجنوب الغربي ، وقد انتشرت حقول القمح والشعير في تلك المناطق التي تمتاز بترابها الاحمر ، عدا ما كسا البعض منها صخورا واحجارا . . . .

في نهاية ذلك الطريق التدريجي المنحدر ، لاح بيركنس منظر شامل وعريض لمدينة اربيل ، والتي بدا ارتفاعها واضحا للعيان ، وكانت تبعد بما يقرب من عشرين ميلا ، وقد احتضنها ذلك السهل العظيم الذي يطلق عليه نفس الاسم ، وكان الطريق ممتدا اليه على طرفي الجنوب والغرب لما استطاع البصر التقاطه حيث تنطبق السماء بالافق البعيد .

بينما كانت الرحلة تجتاز تلك التموجات الخصبة . . كان ظبّيان جيلان قد طفرا فوق التلول وغابا من امامهما مع لمح البصر . وقد ذكر لبيركنس بان مثل هذه الحيوانات البرية تنتشر بصورة كبيرة في اطراف هذه الربوع كالذئاب والدببة والخنازير البرية .

في نهاية مغادرتها الاراضي المتموجة ، انحدرت الرحلة الى ذلك السهل الغريني الكبير ، وهو احد السهول الخصبة العظيمة في الشرق ـ كما يذكر بيركنس ـ ، وقد اختفت ـ هنا ـ الاشجار الا ما كان منها قليلا عند الطرف الشمالي من هذا السهل ، مع استثناء نادر لبعض الاماكن منه . اما ما يمتاز به هذا السهل فهي تلك الحقول الكبيرة الشاسعة الامداء ، والغنية بمحاصيل القمح والشعير ، في هذه الايام حيث تتماوج السنابل الذهبية نحو كل اتجاه يحركها النسيم اليه حين يسري ، وهي متلبسة بثمارها المكتنزة من الحبوب . . اما الحشائش فقد كانت كثيفة حيثما كان التراب قد ترك دون زرع ، ولكن ما اقصر حياة هذا الضرع الطبيعي الدسم ، فسوف يسفح بحرارة الشمس ليذبل بعد ايام . . وتعتمد هذه الارض على الامطار فهي لم تسق اثر زراعتها او خلال ايام النمو .

يعود بيركنس ليصف لنا القرية التي كان قد توقف عندها ، حيث خيم عندها الركب ليلا ، هي قرية رشوان الكردية التي تتألف من حوالي مائة بيت ، مع بيتين اثنين لليهود الذين كانوا يتكلمون النسطورية . ولها اطيانها ، واسطحها الصغيرة ، وحيطانها المتشابهة ، وسقوفها الخشبية ، وهناك نهر

بوستورا — Bostora — الصغير الذي ينحدر من الجنوب الشرقي ، ليفصل اقليم راوندوز عن هذا المكان من مقاطعة اربيل ، حيث ان رشوان تبعد عنها ما يقرب من خمسة عشر ميلا ، اذ تقع اربيل على الطرف الجنوبي من هذه القرية .

اربيل وبستورا وعبور الزاب الاعلى

ان جزءا من مدينة اربيل ، مبني على تل مستدير ، ويطوق هذا الجزء بحائط او سور ، وينتشر ما يتبقى منها حول قاعدة ذلك التل الكبير . يعيش في اربيل حوالي ٢٥٠٠ او ٣٠٠٠ عائلة من الاكراد والاتراك ، مع عشرين عائلة نسطورية ، نصفهم يعاقبه(**) ، والنصف الاخر نساطرة يتبعّون التعاليم البابوية(١٦) . ويعلق بيركنس بعد ذلك بقوله : «ان ذلك يعتبر نقصا محزنا في مقدار سكانها على ما كانت عليه هذه المدينة في العصور القديمة» ويتردد عليها في اعمال التجارة الاكراد والعرب .

لم يدخل بيركنس مدينة اربيل ، بل مضى في طريقه ، مسترسلا في رؤاه الرومانتيكية ، اذ كان للطبيعة روعتها . اثرها الكبير في ازدياد تشوقه للمزيد من الاماكن الهادئة الجميلة ، بعد ان تعبت افكاره واعصابه في الجبال العالية ، رغم ما منحته تلك الجبال من آيات جمال الطبيعة ، ويعود بيركنس ليواصل حديثه ذلك ان الرئيس الكردي لمنطقة بستورا هو سيد حسن — Saiyed — Hasan — الذي يقيم في قرية رشوان : «ولكن عند مرورنا بقريته كان هو في زيارة راوندوز . وكان ولده قد خيم مع الناس في القرية التي تقع على ضفة النهر ، لنصف ميل الى الاعلى من مسلك الرحلة . لقد اعتنى ولده هذا بحراسة الركب من خلال اثنين من رجاله في اثناء الليل ، وقد بدا انه ميال للمساعدة اكثر بكثير من غيره ذلك الذي توقفنا عنده البارحة» .

يعيش الناس في هذه المنطقة في مخيمات لعدة اسابيع خلال هذه الفترة ، ثم تتراجع جماعاتهم الى البيوت الاولى ، وقد القوا بخيمهم ارضا ، او حجبوها عن الحرارة الشديدة التي ستلفح هذه المناطق بعد ايام ، وهذا ما يتميز به الطقس .

نهض جمع القافلة ، في الصباح الباكر من يوم ١١ مايس ، متقدما خمسة او ستة اميال على حواشي وادي بستورا الخصب ، وفي معابر وثنيات حقوله الثرية قمحا وشعيرا ، ثم وصلوا ضفة نهر الزاب الكبير . وقد لوحظ من خلال مرورهم باحدى تلك الحقول ، بان الناس كانوا مستعدين لحصاد الشعير ، وقد جلبت نظر بيركنس تلك الطريقة الخاصة في حصادهم ، ذلك انهم لا يحزمون الحبوب داخل اكياس ، ولكنهم يتركوها مودعة في اكوام ، وبصورة طليقة على نفس الارض ، حيث تبقى عدة اسابيع ، بغرض دوسها على الحقل نفسه في فترة لاحقة . وقد اعلمهم دليلهم بانها الطريقة المستعملة في الحصاد ، وانها تمارس على نحو كبير في تلك المنطقة ، وعند جميع المزارعين .

لا تزال القافلة سائرة في طريقها ، وقد اصبحت قريبة من كنديل — Kandil — وستأخذ مسلكها المنحدر نحو الموصل ، ثم تقطع نهر الزاب الكبير الذي يمجد بيركنس تاريخ تدفقه منذ عصور سحيقة ، ذلك التاريخ الموغل بالقدم . وتعبر القافلة في طريقها قرية كيردا ماميش — Girdamamish — التي يتدفق عندها نهر الزاب بقوة كبيرة ، خصوصا في هذا الفصل . ومن المحتمل ان يمتلىء مجراه بالماء لاكثر من نصفه ، ثم ينخفض منسوبه في بعض الاحيان ، وفي هذا المكان بالذات ، وعن عبور هذا النهر ، يصف بيركنس العوّامات ، ورجالها الذين يعبرون النهر بطريقتهم الخاصة . وقد رآه البعض يسجل بعض ملاحظاته التي من جملتها ذكره بان هذه المناطق قد سكنها في القدم الفرنج — Frank —(١٧) (كذا) .

ان الاكراد قليلون في هذه المناطق ، على اية حال فانهم كانوا على درجة واضحة من القلق لتلك المخاوف المرتقبة ، ويتابع بيركنس ذلك بقوله : «انهم ارادوني ان اسجل اسماء بعضهم على سبيل الذكرى . . ويجب عليّ ان استجيب ـ على الاقل ـ مع مطلب رئيسهم الذي كان يتكلم بينهم ، والمدعو باخير — Bakhir — ، وهو صاحب العوامة التي عبرنا عليها» . وقد ذكر هذا الشخص لبيركنس بانه نفسه قد كان مسافرا او سائحا كبيرا قد رأى بغداد والبصرة (وبوشير الايرانية) .

قضى بيركنس مع جماعته عدة ساعات في العوامة ، وخلال ذلك الوقت كانت الصحبة عالية في روحيتها ، وكان الحديث مشوقا ولطيفا ، اما الشمس فقد اشتدت حرارتها ، وشعروا بالتغير الواضح في المناخ ، ثم نصبوا خيامهم في جانب

من شمال غرب الزاب ، ولم تعد الاشجار العالية تتراءى للناظر في هذه الاماكن ، وقد اشعرهم الجو فعلا بما يشبه الصحراء .

كان عبورهم للزاب لاول مرة عند مرورهم في اقليم راوندوز ، ذلك النهر الذي تتصل منابعه بالعمادية — Amadiyya —[٤٨] ، وهو نفسه الذي يتوزع بين باشويتي بغداد والموصل ، وتستوطن على امتداده اقوام كل من السوران — Suran — وبعدها بادينا — Badina — وذلك ضمن الامتداد الجغرافي لكل من الباشويتين ، وعلى رقعتها الواحدة تستقطب كل من راوندوز في الشمال الشرقي ، والعمادية ذات الاتصال اللاحق بالموصل الى الشمال منها .

يقلب بيركنس صفحة التاريخ مرة اخرى وهو في طريقه حين يذكر : «بانني ساكون مهتما جدا ، للتعرف فقط ، على المكان الذي عبر منه اكزانافون ورفاقه الزاب ، مع جيشه الذي يتقدمه رماة الاسهم ، وقاذفوا المقالع .. ولكن ليست لدينا اية معلومات عن تلك النقطة التي توقف عندها ذلك المؤرخ ، ولربما كانت في موقع ادنى من مكاننا هذا ، وقد كان نهر دجلة قريبا الى جهة اليسار قليلا» .

ان النهر الذي عينه اكزانافون ذو عرض يقدر باربعمائة قدم[٤٩] ، ولابد انه قد كان منخفضا في ذلك الوقت ، ولم يكن عرض المجرى ذا اتساع كالذي قطعه بيركنس ، اذ يعتقد الاخير بان اتساعه هذا اليوم يبلغ سبعمائة قدم ، ولم تتواجد اية جسور على نهر الزاب - على حد تعبيره - .

تنتاب بيركنس افكار عديدة ذات تأصل ديني اسطوري للمراثي الغنائية الكلاسيكية ثم يعلق على اسم الزاب كون الاكراد يدعونه (زاى) — Zay — ، والنساطرة يدعونه (زافا) — Zava — ، اما العرب فيدعونه (الزاب) — Zab — وهو ما يشتهر به هذا النهر الاصيل.

تتشابه في هذه المنطقة ملابس اهاليها ، فازياؤهم عربية ، وهي ملابس سميكة فضفاضة مع اثواب قطنية بيضاء ، متكيفة مع الطقس ، وهي متغايرة في سمكها ، وعباءات ثقيلة يتغطون بها ولكنها متماثلة مع الاثواب ، وقد ضمت عدة الوان مبهرجة . وكل هذا وذاك قد عكس صورة ما راه بيركنس من ملابس رثة بالية عند اكراد المناطق العالية .

غادر ركب القافلة ضفاف نهر الزاب الكبير عند غروب الشمس ، ومضى بارتفاعه في سيره خلال الوادي وعبر مجاريه ، ويصف بيركنس ذلك الوادي الحجري ، والحقول المحيطة به والحشائش التي تنمو في مداخله . ثم اعقبه النعاس بعد مسيّرة ثلاث ساعات ونصف الساعة ، قطعت خلالها ما يربو على عشرة اميال .. واخيرا انتشروا وافترشوا الارض ، ولم ينصبوا خيامهم ، اذ جرى كل ذلك سريعا حيث اخذهم النوم ، وغطّوا به عميقا[٥٠] .

الارض الكلاسيكية

عبرت القافلة اثناء مسيرتها في يوم ١٢ مايس ، السهل الحشائشي الذي كانت قد خيمت عليه في دجى الظلام ، ووصلت الى حقول مزروعة حنطة وشعيرا .. فضمتهم تلك السنابل الناضجة وسيقانها النباتية المثقلة . ثم جنحت القافلة نحو الغرب بعد قطعها ١٢ ميلا ، ووصلت نهر الخازر — Khazir —[٥١] ، ذلك النهر الذي ينساب صافيا رقراقا ، وجاريا من نواحي الجبال ، وقاطعا سهل نوكر — Noker — . ويتدلى هذا النهر ، على بعد اميال عدة للجنوب من خط الرحلة ليتحد مع نهرالزاب الكبير ، ويبلغ عرض هذا النهر حوالي ١٥٠ قدما وقد سهل عبوره على القافلة . وهو نهر قديم ، وتاريخي ايضا فقد اقتتل على احدى جوانبه الفسيحة كل منْ الاسكندر المكدوني وداريوس في معركة فاصلة .. ويؤكد بيركنس بانه من المستحيل تعيين او ضبط الموقع الصحيح لتلك المعركة او تحديده على وجه الاجمال .. ولكن من المحتمل بان هذه المعركة قد وقعت على بعد اميال قليلة لليسار من مسلك الرحلة ، بمسافة تقدر بنحو ٣٥ ميلا للشمال الغربي من اربيل .

يقول المؤرخ اريان — Arrian — : «ان نقطة كاوكاميلا — Gaugamela — تقع في اشوريا — Assyria — ، تلك النقطة التي تورط فيها كل من داريوس والاسكندر في قتالهما ، ومعركتهما العنيفة ، لقد كان مكانا صغيرا ، وذا اهمية ضئيلة جدا ، وتدعى تلك المعركة بمعركة اربيل ، اما المدينة فقد كان تواجدها حيا في قربها الى حقل المعركة ، وقرية كوكاميلا تقع في سهل اربيل على

نهر بامادوس — Bumadus — . وهي القرية التي اختارها داريوس ، ونصب عليها خيمته الملكية منتظرا الاسكندر الذي سحقه فيها ، وتركاها وقد اصطبغت ارضها بصفحة حمراء من الدماء القانية ، وتراكمت عليها الجثث[٥٢] .

واصلت رحلة بيركنس مسيرها ، وارتفعت من ضفاف نهر الخازر ، وقطعت مسافة تقَدر بميلين ثم توقفت على تل مفروش بالحشائش ، وزودت الجياد بالطعام ، واستراح الركب بعد ان تناول الجميع طعام الافطار ، وكانت قد وصلتهم جماعة من النصارى اليعاقبة من قرية برطلة — Birtilla —[٥٣] وتبعد هذه القرية ما بين ١٢ ـ ١٥ ميلا عن الموصل ، اما عن مسار الرحلة فانها تبعد حوالي اربعة اميال نحو جهة اليسار ، وكانت تلك الجماعة تتكلم السريانية الحديثة على نمط مفهوم من صاحب الرحلة بيركنس والذي يذكر بان الاختلاف قليل بينها وبين اللهجة العامية المتداولة في ارومية . . لقد كان بين افراد تلك الجماعة اناس عرب من نفس القرية ، والذين كانوا بدورهم يتكلمون السريانية ايضا ، ومنذ ذلك الحين تعرف بيركنس على العوائل العربية القليلة في برطله ، ومن هذه القرية توّجهت الرحلة صوب مدينة الموصل التي تبعد حوالي ٣٠ ميلا .

سهل الموصل

كان هنالك جبل منخفض يقع لميلين الى الشمال من المكان الذي توقفت عنده القافلة ، اما على الطرف الشمالي الغربي فتتواجد عدة قرى يزيدية[٥٤] . . وهناك جبل صغير يبعد بعض الاميال القليلة نحو الجنوب من خط سير الرحلة[٥٥] .

واصلت القافلة طريقها حتى الساعة الواحدة بعد الظهر ، وقد قطعت سلسلة من التلول الحشائشية المرتفعة . وكان انقياد بيركنس مع ركبه فيها سهلا ومريحا وميسورا ، وقد بدت جماعات من العرب متوزعة فيها ، كونها منطقة مألوفة لاغراض الرعي والكلأ لقطعانهم من الاغنام في فصل الصيف . بعد ان صعدت قافلة بيركنس قمة المرتفع والذي عبروه بيسر انفتح امام اعينهم المنظر الجلّي الكامل لسهل الموصل او نينوى الشرقية بكل انفساحاته ، واطرافه المتحاورة مع الشمال والغرب والجنوب . . كان سهل الموصل ذا اتساع كبير في امدائه لابعد ما تصل اليه العين حيث يترامى بعيدا فلا يحدّه الا السماء . يقول بيركنس : ولقد منحني هذا السهل الفسيح الارجاء انطباعا قويا عن وجود شيء ضخم عظيم على الرغم من ان وصولي اليه قد جاء متأخرا» . ويتابع هذا الرحالة قوله : «دخلنا في هذا السهل المفتوح على رحبه ، وكانت حقول القمح نامية ومزهرة ومزدهرة ، وبدأنا نحث الخطى نحو الجنوب الغربي ، وكنا في اثناء عبورنا لهذا السهل متأثرين بحدة وشغف لامتناه. مع احوال نينوى القديمة ، تلك المدينة العظيمة التي تتوسط قلب سهل الموصل ، هذا السهل العظيم ، الهائل الخصوبة والمياه القادر ان يغذي الملايين من البشر» .

بينما كان افراد القافلة يجتازون هذا السهل ، ولا تزال امامهم عشرة اميال الى مدينة الموصل ، اخذهم الليل في طياته ، ولمّا تتراءى لهم هذه المدينة بعد ، اذ حجب الظلام مرءاها عنهم حيث كانوا يحتاجون لاجتياز المزيد من المسافة، ولا سيما وان الموصل تتبوأ مكانها بانخفاض نسبي على الضفة الغربية من نهر دجلة ، وترتفع امامها الروابي الأثارية شاهقة عالية على الطرف المقابل . . تلك هي آثار نينوى التي يعتبر علوها عائقا يحجب الانظار امام المدينة العريقة والحديثة من جهة الشرق .

اخذ بيركنس مع جماعته بالارتفاع مجتازا المسافة المذكورة على تلك الروابي ذات الشهرة الواسعة والصيت المفتوح في الدنيا . . واخيرا وصلوا ارضا انكسارية[٥٦] ، وقد ميزها بسهولة نظرا لقربها من آثار نينوى العظيمة . يقول بيركنس : «والغريب بان انفعالاتنا كانت في تلك اللحظات جياشة مضطرمة على الرغم مما اكتنفنا من ظلمات المساء حين اختراقنا هذا الطريق على الارض الكلاسيكية» . ومذ دخلوا تلك البقاع المحيطة بنينوى ذات التموجات المنكسرة ، فانهم لاحظوا السلاسل النظامية التي لايمكن تجاهلها كبقايا الاسوار القديمة المتبقية في خرابها ، والمتحاذية مع موازاة خط التلول . . . تلك الاسوار التي اشارت بوضوح الى مكان نينوى كالطلل القديم .

واخيرا ، وصل الركب المتعب الى قرية تقع عالية بين الاثار القديمة ، تدعى باللغة التركية (يونس بيغامبر Yunus Pegamber—) ، اما في اللغة العربية

فتدعى بـ (النبي يونس — al — Nabi Yunus). تحتوي هذه القرية على جامع كبير، قائم على رابية عالية في سفحها مقبرة قديمة. ان الاعتقاد الراسخ بين القاطنين من الناس بان ضريح النبي المبجل يونس — Jonah — محفوظ في هذا المكان المقدس.

لم يتوقف الركب عند هذه القرية، بل قطعوا ميلا واحدا، ووصلوا الى الضفة الشرقية من نهر دجلة، وحطوا رحالهم وكانوا متعبين، ولم يستطيعوا ان يتبينوا ما كان يحيط بهم من مناظر الا مياه دجلة المتماوجة مع حركاتها على نحو باهت من الضوء الخافت.. فخيّموا على الارض لقضاء ساعات الليل[٣٧].

جسر الموصل[٣٨]

اخذهم النوم عميقا بعد انتهاء رحلتهم الدراماتيكية.. كان النسيم عليلا منعشا على حافة نهر دجلة، لم يفيقوا حتى مطلع الفجر حين كشف عليهم ضوء الصباح بنوره الوهاج بعد ان ارتفعت الشمس من مهجعها وغلبت على السماء زرقتها الجميلة بعد ان خفتت وبسرعة الالوان المبهوجة.. ولاح لاصحاب الرحلة ذلك النهر المهيب بانسيابه الهادىء.. انه النهر الشهير في الدنيا ذو العراقة التاريخية المتأصلة المتزامنة مع عصور سحيقة في القدم. وبدت امامهم مدينة الموصل على الساحل المقابل لنهر دجلة، وهي ذات مظهر شرقي.. مع جوامعها العظيمة ومنائرها الشاهقة، وابنيتها المتراصة. اما على جانبهم الشرقي فقد امتدت اطلال مدينة نينوى القديمة التي كانوا قد مرّوا من خلالها في الليلة المنصرمة[٣٩].

يرتبط كل من جانبي النهر بجسر يمتد من قلب مدينة الموصل غربا نحو الحافة الشرقية... ويقوم هذا الجسر على زوارق مرتبطة بعضها بالاخر بصورة متراصة قاطعة النهر. وتتميز هذه الزوارق بانها قديمة مبنية على نحو بدائي وبصورة ضخمة ومسطحة، مع علو بارز لقيدومها اذ ترتفع رؤوسها المدببة بشكل ملفت للنظر، ورغم ان كل زورق لم يكن متروكا على الشاطىء بدون دعامة او سند، الا انه يعوم منحدرا لاكثر من نصف ميل، وعندما يراد سحبه فان ذلك يجري بواسطة ستة او ثمانية رجال يقفون صفا واحدا في رتل طويل على شاطىء النهر الممتد نحو الجسر[٤٠].

وتعوم الزوارق الخشبية المشتدة بعضها مع البعض الاخر بواسطة الجلود المنفوخة الشبيهة بتلك الجلود المستعملة على نهر الزاب، ولكنها اكبر بكثير. اما من الناحية الاخرى فان تلك الجلود المنفوخة تخضع لاستعمالات هامة اخرى، فانها تستعمل لنقل المسافرين في نهر دجلة من الموصل الى بغداد، كما وتستعمل ايضا في نقل البضائع التجارية والمؤن الذاهبة الى مدينة بغداد الواقعة الى ثلاثمائة ميل جنوبي الموصل. كما وتمتد في استعمالاتها الى اماكن اخرى، وقد حدد تخم بغداد الكولونيل وليامز Col. — Willams — المعّين والقائم باعمال التفويض الانكليزي في الموصل، وهو الذي كان قد ذهب جنوبا الى بغداد منذ فترة قصيرة وذلك بواسطة عوّامة تحتوي على مائة قربة جلدية منفوخة قاطعا المسافة المذكورة اعلاه بطريق نهر دجلة في ستة ايام، متوقفا على شواطئه خلال ساعات الليل، وكان قد سافر معه بعض ابناء البلد من الموصليين الذين يستعملون الاخشاب الطوافة، وكان لدى الكولونيل وليامز ثلاث او اربع كابينات صغيرة نصبها على تلك العوامة الكبيرة التي اشغلها هو وجماعته الكبيرة من المرافقين.

ذلك هو جسر القوارب الشهير لعبور نهر دجلة في الموصل، والذي يستعمل عندما لم يكن النهر ذا منسوب عال، بالوقت الذي تسحب هذه القوارب هنا وهناك متحاذية متوازية مع الساحل لترسو هناك وذلك في ظروف استثنائية طارئة عند ارتفاع مناسيب مياه دجلة.

ان نهر دجلة على العموم ذو مجرى منحدر، وسريع الجريان الى حد بعيد، متدفقا كنهر الزاب الاعلى، وعليه فان اسمه — Tigris —[٤١] يدل معناه على ما يميّزه اذ يعني هذا الاسم (السهم) دالا على سرعته. ونهر دجلة ذو حوض رحب جدا.. وفي هذا المكان يشقّ النهر هذه الارض الكلاسيكية العريقة شقّين فيفصل بها الموصل عن نينوى.

اطلال نينوى[٤٢]

تقابل آثار نينوى مدينة الموصل بالضبط، وذلك بطول يقرب من ٣/٤ الميل. وتتباعد هذه الآثار عن نهر دجلة الفاصل

بمساحة منحسرة متداخلة ذات ارض غرينية منخفضة . لكنها تبدو مرتفعة بنحو بسيط عن المجرى . وربما كان قد تواجد هذا السطح الغريني وبهذا الشكل الطبيعي منذ عصر نينوى ، وربما كان نهر دجلة في مجراه القديم قريبا جدا من المدينة القديمة نينوى . اما في هذا العصر فانه يجري محاذيا لاسوار الموصل .

تتألف آثار نينوى من سلسلة تلال ، شبيهة باسوار قديمة ، وهي مشتملة على مساحة داخلية ربما تقدّر باربعة اميال طولا ، وحوالي الميلين عرضا .. وتبدو هذه المساحة مسطّحة وهي على الاغلب محروثة ومستغلة . وهناك على الجانب الغربي من هذه المنطقة المذكورة رابية طولية ونظامية الشكل (هي المسماة تل النوبة) ، واخرى على مقربة من الوسط وهي ذات شكل رباعي الزوايا ، ويقدّر علوها بخمسين قدما ، يتوضح ظاهرها كمعبد مربع من الاعواد . وهذه الرابية قريبة من السطح الداخلي نحو القمة ، وتتميز بانحدارها الشديد من الخارج (هي المسماة تل قويونجوق)[٦٣]. ان المظهر الخارجي هذه الرابية المتميزة منتظم الى حد بعيد .. وثمة افكار تجول حديثا عن القلعة والبلاطات والقصور المطوقة والمدفونة في قمة الرابية .

ان الحفريات الأثارية تواصل الان عملياتها في التنقيب عن البقايا القديمة ، ورغم النتائج العديدة والمهمة التي احرزت لحد الان ـ على حد ذكر جوستن بيركنس ـ الا ان هنالك عددا من الرجال الذين لازالوا يعملون حتى هذا اليوم ، وهم من الذين كانوا قد استخدموا من قبل المستر رسام H. Rassam[٦٤] ، والمستر لايارد — Layard —[٦٥] وزوجته ويعتبر المستر لايارد قائدا لهذا المشروع الكبير ، رغم انه شخصيا غائب الان في زيارته لانكلترا .

يذكر بيركنس في حديثه عن الحفريات والآثار في نينوى قائلا : «لقد انتابنا الذهول بمجرد فحصنا لتلك الحفريات ، اذ كانت بالنسبة لنا ذلك النوع النادر الذي كرّسنا له اوقاتنا .. اما التحدر من الاعلى والنزول الى باطن الارض فقد تمّ ذلك بواسطة الدرج الارضي الذي نظّمه الحفارون ، والمتألف من عشرين او ثلاثين قدما . وعلاوة على ذلك فان هناك نفقا عابرا من تحت الارض له شكل افقي ، وقد انحدرنا في داخله ، وفاجأتنا تلك القصور الرخامية القديمة فكانت الجدران المنحوتة بصورة جميلة جدا ، وقد انشرحت صدورنا وملأنا الاعجاب والسرور الذي لا يوصف .. فكل ما نراه في مشاهداتنا لهذه المتاحف العريقة جديد وغريب ومدهش لاعيننا .. وقد مررنا في الصالونات العظيمة المزينة بالواح رخامية شتّى مطبقة الواحدة فوق الاخرى ، علو كل لوحة حوالي ستة اقدام ، وطولها ثمانية اقدام ، اما سمكها فيتراوح بين ٧ ـ ٨ بوصات . ان التماثيل جميعها منحوتة ومنقوشة تصور مناظر روحية مختلفة ، كما وانها تحتوي مشاهد علمية متباينة فهناك المطاردة في المعارك ، وهناك تسلّح المحاربين بانواع عديدة من الاسلحة : الرماح ، الاقواس والسهام ، المقالع والسيوف .. اما المتصرون فانهم غالبا ما يحملوا رأسين في يد واحدة ، احد الرأسين من لحيته ، والاخر من خصلة شعر الجمجمة ، ويهددون عدوهم بالسلاح في اليد الاخرى . وهناك مشاهد عديدة لقلاع محصنة ومطوقة .. كما وتبدو مشاهد عديدة اخرى لقافلة من الجمال ، والخيل والبغال .. وتجرى الانهار على جوانب تلك القلاع العالية الفخمة ، في حين تتلاعب الاسماك في مياه تلك الانهر .. ويبدو واضحا ذلك الطريق الحجري الواسع للقوافل والذي يترامى وراء تلك القلاع العظيمة ، ثم ينحجب عن الابصار .. وعلى جانب من خضم هذا العالم ، تتعالى شجرة نخل باسقة وهي متلبّسة باوراقها ، ومكتنزة بانمارها» . ويتابع الرحالة بيركنس حديثه عن اشوريات نينوى ووصفه لآثارها الثمينة فيقول : «ثم مضينا لمشاهدة الواح اخرى ، فوجدنا عددا اخر منها مخطوطا بالاحرف المسمارية ، وقد كانت واضحة وعلى نحو اعتيادي ... ان الخطوط المسمارية اقل في نينوى ممّا هي عليه في النمرود — Nimrood —[٦٦] . لقد عبرنا عدة صالونات اطوالها اكثر من مائة قدم ، وتتماثل في اشكالها واجوائها الروحية ، وكانت بعض الواحها مشوبة بالسواد ، وكأن هذه البلاطات قد تساقطت محترقة ، وكانت هناك قطع من الفحم . لقد كان صعبا علينا جدا ان نحرّك تلك الصخور من اماكنها في هذه الحفريات وعملياتها ، وهنا يقوم العمال بتحطيم الصخور قطعا ليسهل بعد ذلك تحريكها .. ومن المحتمل ان نجد الصخور في النمرود

اقرب كثيرا الى السطح . وعلى أيّة حال ، فان فنون النحت هنا في نينوى وعلى اسوارها كاملة جدا ونظيفة[٦٧] . ان الملاحظة الجديرة بالذكر هي ان الصالونات والغرف ليست لها شبابيك ، وعليه فلابد ان سكانها كانوا يتلقّون النور من السقوف . اما الشيء الاخر الذي جلب انتباهنا وانظارنا هو ملاحظة تلك التماثيل الاشورية التي كانت معلقّة في الاعلى ، تستشرف القاعات وصحون الغرف . وكانت تلك التماثيل مخروطية الرؤوس ومرصوفة الذوائب» .

ويستطرد الرحالة بيركنس في حديثه عن آثار نينوى فيحكي لنا عن اثنين من التماثيل العظيمة ، هما على شكل ثورين كبيرين كانا في نينوى[٦٨] ولفترة ليست بطويلة منذ ذلك الحين ، اذ انهما كانا قد اكتشفا في خرسباد — Khursubad من قبل القنصل الافرنسي (المسيو بوتا[٦٩]) الذي باعهما بدوره الى الميجر رالبوتسون — Major Rawlinson[٧٠] . وكانا من اكبر الثيران المكتشفة . . لقد قطعت التماثيل على كتل رخامية بمساحة ١٥ قدم مربعّة ، وبسمك ٢ قدم ونصف . وكان كل تمثال يتألف من اربع قطع ، وذلك لغرض نقلها عن طريق نهر دجلة جنوبا الى بغداد . ومن ذلك المكان الى انكلترا .

جامع النبي يونس[٧١]

غادر بيركنس موقع الحفريات التي كانت تجري عملياتها على تلك الرابية العالية والمتكونة من قلمة البلاطات ، وتابع سيره جنوبا متوجها نحو السور الشرقي لمسافة تقرب من نصف ميل ، ووصل الى رابية اخرى (تل التوبة)[٧٢] وكانت بنفس مقياس الرابية الاولى ولكنها كانت تبدو ذات هيئة نظامية وادنى مستوى وانها تتحولق حول قاعدة تلك المقبرة . وتقوم قرية على حافة منحدرها ، وفي الطرف الشمالي من هذا التل ، وعلى القمة بالذات ، يتعالى ذلك الجامع العظيم الذي يحوي ثاوياً ضريح النبي يونس (ع) ، ويطلق اسم (النبي يونس) على كل من الجامع نفسه والقرية التي تقوم معه . يقول الرحالة بيركنس : «لقد زرنا ذلك الضريح المقدس ، وهو ضريح صغير تحتويه غرفة معتمة في ذلك الجامع الكبير . ويتكون الضريح المقدس من صندوق كبير مقوّس الجوانب ، طوله عشرة اقدام ، وعرضه خمسة اقدام ، ويتراوح علوه بين ثلاثة الى اربعة اقدام ، ويبدو الصندوق مكسوا باغطية متدلّية تؤلفها طيّات من الحرير والجوخ . اما اعمدة الزوايا الاربع فقد كانت مرتفعة قليلا فوق ذلك الصندوق ، وقد ذيّلت اواخر تلك الاعمدة ببكرات كبيرة من الذهب . . اما حيطان غرفة ذلك الضريح المقدس للنبي المبجل يونس (ع) فقد كانت موشاة بالفسيفساء فيبدو منظرها رائعا لما احتوت عليه من اشكال ورسوم جميلة . اما ارضية ذلك المكان فقد كانت مفروشة بالسجاد النفيس ، كما هو عليه الحال في جميع رحاب ارض ذلك الجامع الكبير» .

ويتابع الرحالة بيركنس وصفه الدقيق لهذا الجامع الشهير فيقول : «ان هذا الضريح مبجل من قبل الجميع ، وينظر اليه باحترام واجلال نظرا لقدسيته العظيمة ، ولا يسمح بالدخول اليه الا للقليل ، وبصورة مطرّدة من قبل الموصليين . وقد كانت حظوتنا بالدخول اليه قد احرزناها بواسطة المستر رسام ومساندته ورعايته ، واسبغ علينا هذا الرجل المزيد من لطفه وفضله ومعروفه . ويظن البعض بان هذا الجامع الكبير كان قد بني على اسس معبد قديم . . ومن غير ريب فاننا لم نتعرض للاعتقاد الشديد او الثقة العالية في الرأي السائد هنا كون هذا الصندوق العظيم يحتوي على رفاة النبي يونس (ع) ، كما كنت قد ذكرت سلفا ، اذ اننا لا نشك ابدا في موقع نينوى ونحسب ذلك في تقديرنا لمكان هذا المرقد فربما كان متواجدا في منطقة مجاورة . . . المهم بان هناك العديد من كبار المؤرخين لمعظم الفترات التاريخية القديمة يوافقوننا ، وهذا ما يجعلنا مطمئنين باننا قد قدمنا قدرا كبيرا من البراهين المرضية من خلال وقوفنا على اطلال نينوى» .

خرسباد واماكن اخرى

تشتمل احاديث الرحالة بيركنس على ذكر خرسباد ، اذ يذكر بان المستر بوتا[٧٣] كان مواصلا ابحاثه في موقع خرسباد — Khursubad[٧٤] . وتقع خرسباد على بعد حوالي ١٦ ميلا شمال شرق الموصل ، وتشكل رابية منفردة ذات ابعاد محددة في تخومها الى حد بعيد ، وتقع المنطقة كاملة على بعد ١٨ ميلا من

نهر دجلة شرقا ، في حين تبعد النمرود ميلين عنه وللشرق ايضا .

يقول بيركنس : «وتعطينا محصلة الجهود التي قام بها كل من المستر لايارد والمستر رسام افتراضا يطرحه الاخير لمشاهد الاماكن الثلاثة نينوى وخرسباد والنمرود كونها مواقع لعدة مدن مختلفة ، ولكن الادلة الحاضرة تشير الى اتجاه ذي علاقة مركزية يربط جميع المنطقة بنينوى ، فهي اسم عام لها . فالاسم نينوى هو الاسم العظيم في العصور المتقدمة والشبيه بـاسم لندن في عصرنا الحاضر ، فقد استطاعت نينوى ان تبتلع وبصورة كبيرة نسبيا العديد من الضواحي المتاخمة والمذكورة آنفا . وقد قدّر لنينوى ان تكون مدينة عظيمة واستثنائية لما فوق العادة لاينتهي السفر فيها لمدة ثلاثة ايام كاملة . ومن الضروري ان تمتد لتتسع اكثر من الوقت المذكور ، وتشمل المسافة الحقيقية على الاقل للمدن المحلية الثلاثة واحدة تجاه الاخرى . هذا ما ينظر اليه المستر رسام ، والى هذا الحد من الواقع القائم نسبيا ، والذي يعني بوضوح ما يلاحظ من الموصل لاطلال نينوى المقابلة لها على الطرف الاخر من نهر دجلة .. اما رسن ـ Resen — فتراءى آثارها واضحة من النمرود ..

اما الكالح — Kallh —[٣٥] في الشرقاط التي تبعد حوالي ٦٠ او ٧٠ ميلا جنوبي الموصل ، وعلى ضفة نهر دجلة ، فانها تحتل مع آثارها مساحة تقدّر بثلاث مرات الرقعة التي تغطيها نينوى . وتقع على الجانب الغربي من النهر ، وهي مدينة قديمة ، تحتوي في داخلها على اقسام متعددة من الاسوار ، والتي ترتفع عاليا في عزلتها شبيهة في تراكيبها بالمآذن ..

اما الرحبة[٣٦] ، فانها قائمة على نهر الفرات ، وهي التي يطلق عليها — Rehoboth —.

يعود بيركنس ليحدثنا مرة اخرى عن قرية النبي يونس فيقول : «لقد وجد المستر ريج — Rich —[٣٧] العديد من الآثار المقدّسة والمهمة جدا في رابية النبي يونس ، مقابل الموصل ، مع المزيد من الكتابات المنقوشة . ولو كانت عمليات الحفر والتنقيب في ذلك المكان قانونية او مشروعة الى حد كالذي جرى في غيره من الاماكن التاريخية ، فربما يعثر ضمن موجوداته على المزيد من التحف والانتيكات الثمينة ، ولكن تعتبر هذه الرابية ذات اعتبار مقدس جدا»[٣٨] .

بين آثار النمرود[٣٩]

بدأ الرحالة بيركنس مع صحبه مبكرا في زيارته للنمرود ، وقد ازمع على ان يكون رجوعه في ذلك اليوم نفسه . تبعد نمرود ١٨ ميلا عن الموصل ، وتقع مباشرة على الضفة الشرقية من نهر دجلة . ويتابع حديثه فيذكر بانهم عبروا في طريقهم الى نمرود بثلاث قرى صغيرة ، ولم يكن مظهر تلك القرى على مستوى من الاهمية ، ويقطنها العرب . ثم عبروا عدة مخيمات كبيرة (بيوت شعر) للعرب من البدو المنتشرين على الطريق الى نمرود . لقد كان سهل الموصل العظيم الواقع الى شرق نهر دجلة والمتاخم لشرق المدينة وعلى جانبه الجنوبي مأهولا بصورة متفرقة ، ويقال ان السكان قد تناقصوا كثيرا عن السابق بصورة ملفتة للنظر ... ان البلاد مستوية ، وتغطيها خلال هذا الفصل خضرة القمح الثرية وبصورة شاملة ، وقد ابتهجت الحياة فيها اثر الحصاد . وفي النصف الاخير من طريقهم تألقت امامهم تموجات عديدة من احجار الكلس ، ولم تكن تلك القطع المرمرية الجميلة ذات مساحات صغيرة ، بل كانت تحتل ابعادا كبيرة من المنطقة . وعبروا في طريقهم مجرى صغيرا من الماء والذي كان متجانسا مع النماذج الطبيعية التي لم ار مثلها ابدا ـ كما يقول الرحالة بيركنس ـ .. فالماء يقطع قنالا يمتد في اخدود ذي عمق يقدر بقدمين تؤلفها طبقة من طبقات الحجر الكلسية البيضاء وحولهم التلال التي كانت تتلألأ هي الاخرى ايضا ، مع انكساراتها بفعل الشعاعات المضيئة للشمس الساطعة .. وهناك ايضا حيث الينابيع الكبريتية القابعة في جوار هذه السلسلة المرمرية ، والتي ربما كان لها القوة الفعالة في تكويناتها البنيوية .

اخذهم الطريق بعد ان واصلوا سيرهم لميل واحد بهذا الاتجاه عند قرية السلاّمية[٤٠] وحوالي ثلاثة اميال الى الآثار في النمرود ، التي برزت فجأة امام اعينهم ، وظهر العديد من ابرازاتها العالية الواضحة والتي كانت مخروطية ورفيعة ويبلغ علوها على الاقل ٧٠ قدما ، وهي اهداف ذات منظر اخاذ يجلب

الانظار . اما نهر دجلة فانه ينحدر لميلين على الاقل من الآثار المذكورة ، ولكن الفسحة الواقعة بين الاثنين تعتبر منخفضة ، وهي ذات تربة غرينية الفتها التكوينات الحديثة الظاهرة والمتباينة .

ويتابع بيركنس احاديثه في رسائله قائلا : «هناك شك كبير بان نهر دجلة كان يجري ضيقا او حبيسا تحت اسوار المدينة القديمة ـ نمرود ـ ، كما كان ظني الذي ذكرته مسبقا عن حال نينوى مقابل الموصل» . ويصل بيركنس مع مرافقيه منطقة النمرود ، فيبدأ بوصف تلك الآثار المدهشة التي رآها على حين غرة . . . وما تتضمنه من الاسوار ، والصالونات القديمة ، والقطع المعمارية البهية والتي منحته انطباعا كونها لازالت جديدة ، ولامعة وكاملة . . ثم ينتقل الى ما يراه داخل تلك الاسوار المغلقة ، فيصف الحروف المسمارية ، ورؤيته لمعلومات كاملة عن الرجال والمقامات العملاقة ، ثم يرى ثورين يشبهان الى حد ما فيلين كبيرين ، ولكل من الثورين الكبيرين جناحان ورأس انسان . . . جماعات متنوعة ، ومشاهد كما لو انها كانت تقابل جمهور ملكي الافتحام ، دفاع القلاع ، الرجال الجبابرة ، الرؤوس والاجنحة والنسور . . وتماثيل تحكي عن رجال تحمل ازهار الاناناس في ايديهم . . وكانت جميعها طبيعية وواقعية في تصويراتها ، ومشتركة في تناسقها الفني .

ان المكتشفات الاولى كانت قد ارسلت الى انكلترا ، اما المكتشفات الاخرى فلنها تنتظر دورها وهي لازالت تحت التراب لم يكشف النقاب عنها . . ويشرف المستر لايارد ايضا على عمليات الحفريات في النمرود .

ويزيد بيركنس من شروحاته بعد رجوعه من النمرود الى الموصل في مساء اليوم نفسه (١٦ مايس) ، عندما يلتقي بمسافر انكليزي كان يقوم باعمال المسح والفحص والمعاينة في نفس المكان ، والذي يشرح له عن مشاهداته في البلاط وصالوناته وموجوداته ، وصوره ، وتماثيله . . . الازهار ، الحيوانات ، الملوك ، الجدران ، النقوش ، الاجسام البشرية الطويلة ، ورؤوس بشرية اخرى باجسام حيوانية . . كلها باقية ومحفوظة منذ اكثر من ثلاثة آلاف سنة ، وكلها تنشق عنها الارض الان لتنهض من تحت التراب جديدة ومضيئة وفي هذا الفجر بعد ان نامت طويلا ولقرون عديدة ـ على حد تعبير صاحب الرحلة ـ .

ويتابع تسجيلاته فيقول بان مدينة النمرود تختلف عما وجدناه في تلك الرقعة المقابلة للموصل ـ نينوى ـ ، فالقطع الفخارية الطينية المتواجدة في النمرود تبدو اكبر للعيان ، وكذلك التماثيل والمنحوتات التي كان بعضها صغيرا في الموصل ، واكثر صغرا من الحياة نفسها بينما تكاد تكون الصورة معكوسة في النمرود ، كل شيء اكبر ، فمثلا الثيران والاسود تبدو اكبر في احجامها من احجام الفيلة . وينتقل بيركنس ليشرح عن طبيعة البناء في النمرود ليصل متسائلا فيقول : «ولكن من هم اولئك الرجال البناة ؟ وما نوعهم ؟ اولئك الذين انجزوا كل هذه الاعمال الخارقة الجبارة . . من الموجب حقا انهم كانوا فنانين بكل ما تعنيه الكلمة من معان . . في تلك الايام الغابرة والمبتدأة من عمر التاريخ البشري ، والحضارة الانسانية ، فلقد كانت لهم طرائقهم والأتهم الوافرة الواسعة» . ثم يستطرد معقبا على كلامه هذا بالمقولة الشهيرة بان : «ليس هناك جديد تحت الشمس» . ثم يكمل قائلا : «نحن نتباهى فخرا واعتزازا بالاختراع الحديث للزجاج ، ولكن حتى هذه المادة قد وجدت في آثار نينوى»

على بعد مسافة تقدّر بـ ١٢ ميلا جنوب شرق النمرود ، يقع هناك مصب لقناة مائية قديمة تبدو آثارها من اوصال الصخر ، وينقاد مجراها نحو نهر الزاب (الاعلى) ، والذي ربما كان مستعملا لايصال المياه الى المدينة التي احتلت موقع هذه الاثار واطرافها(٨١) .

النهايـــة

قبل ان يختم بيركنس تسجيلاته ويغيب عن موضوع هذه المتاحف الطبيعية التي تّم اكتشافها وما يتواجد فيها من انتيكات ثمينة ، وما تحفل به من كنوز هذه الارض الكلاسيكية . . يقول بيركنس : «ويمكنني ان اذكر بانه يتواجد على بعد حوالي خمسين او خمس وخمسين ميلا جنوبي غرب مدينة الموصل آثار مدينة قديمة هي الحضر او مدينة — Hatra —(٨٢) ، والتي تتعالى فيها الاثار

الصخرية ظاهرة على السطح او تلك التي تمتد تحت طيات الثرى . ولقد زار تلك الآثار مؤخرا الكولونيل وليامز والمستر رسام .

واخيرا ، يختم الرحالة بيركنس احاديثه وتسجيلاته هذه كلها من خلال رسائله فيوصي جميع اولئك الذين يشعرون بالاهمية للوصول الى حد ابعد من المعرفة والاطلاع على آثار نينوى الاشورية ، والارض الكلاسيكية بالرجوع الى الكتاب الذي كتبه وطبعه مؤخرا المستر لايارد[٨٣] ، ويتابع قوله : «ورغم اني لم ار الكتاب لحد الآن ، ولكن تتأتى ثقتي بذلك من خلال معرفتي للرجل ، فان كتابه له في طبيعته ، واتساع مداه ، ووفرة مواده ، ما ليس عندي اي شك بانه الكتاب الذي سيحظى بالاهمية ، وقصب السبق في هذا المضمار[٨٤]

ملاحظات وتعليقات

١ ـ شملت هذه الرحلة ٤٩ صفحة من المجلة المذكورة في المتن ، والتي سأشير اليها في هذه الملاحظات بـ(JAOS) .

٢ ـ هي مجلة استشراقية امريكية ، تأسست في بوستن سنة ١٨٤٧م ، وعنيت بالقضايا التبشيرية والاستشراقية بواسطة مراسليها الذي اختصوا بمواضيع الشرق الحساسة والمتنوعة .. وتوزعوا في انحاء مختلفة منه عصر ذاك . ولا زالت هذه المجلة تصدر حتى هذا اليوم بعد ان صبغت بالطابع الاكاديمي ، وذلك عن «الجمعية الاستشراقية الامريكية» ذاتها ، وساهم في تحريرها والكتابة فيها العديد من المستشرقين الغربيين . لقد ورد ذكرها عند نجيب العقيقي في كتابه «المستشرقون» ، الجزء ٣ ، وتحت بند ٦× (= الجمعيات والمجلات الشرقية) في حديثه عن استشراق الولايات المتحدة الامريكية (= الفصل العشرون) . قال العقيقي : بان مجلة : 'Journal' of the American oriental society' هي صحيفة الجمعية الامريكية الشرقية ، تأسست سنة ١٩٠٦ ، وهي تصدر كل ثلاثة اشهر في نيوهيفن بالولايات المتحدة الامريكية (انظر : العقيقي ، المرجع اعلاه ، جـ٣ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥ ، ص ٩٩١ . لقد اخطأ العقيقي في ذلك ، وربما قصد غيرها .. ولكنه في كل الاحوال لم يذكر «المجلة» التي نحن بصدد الاعتماد عليها .

٣ ـ كتب عن ذلك بمزيد من التفصيلات : المطران سليمان صايغ في كتابه «تاريخ الموصل» (نفائس الآثار : درس الاثورولوجي) ، لبنان ، ١٩٥٦ ، ص ٩ ـ ٥٦ .

٤ ـ JAOS, vol. 2, 1851, pp. 70 — l.

٥ ـ 'Rays of Light'

٦ ـ 'Residence of Eight Years in Persia', 1843.

٧ ـ 'Missionary Life in Persia', 1861.

٨ ـ 'Historical Sketch of the Mission to the Nestorions', 1862.

٩ ـ هذه هي الترجمة الحرفية الكاملة لحياة الرحالة جوستن بيركنس التي تضعها الموسوعة :

'Who was who in America : Historical Volume 1607 — 1896, Chicago, ed. 1967, p. 467.

١٠ ـ The Letter No. 1, dated 25/04/1849; JAOS, op. cit., p. 71.

١١ ـ The Letter No. 2, dated 26/04/1849; ibid., pp. 71 — 2.

١٢ ـ سولدوز : مقاطعة كبيرة ، لها امتداداتها الواسعة ، وتجمعها خليط من عشائر كردية هي : الزازا والمامش والمكري .. راجع عنها :

W.R. Hay, Two Years in Kurdistan, London, 1921, p. 126.

١٣ ـ The Letter No. 3, dated 27/04/1849; JAOS, op. cit., pp. 72 — 3.

١٤ ـ راجع عن ساوج بلاق» في :

The Encyclopeadia of Islam, vol. 3 p. 188.

١٥ ـ The Letter No. 4, dated 28/04/1849; JAOS, op. cit., pp. 74 — 5.

١٦ ـ The Letter No. 5, dated 29/04/1849; ibid., p. 75; see also, Letter No. 6, dated 30/04/1849, loc . cit.

١٧ ـ مسلك كاليه شين : كان لهذا المسلك الاستراتيجي (= اشنو ـ راوندوز) شأن كبير في تاريخ الحروب الرومانية ـ الفارسية سنة ٥٩٨م ، وذلك بين نرسيس القائد الروماني وخسرو برويز الفارسي (عن منسوخات الاركولوجست راولنسون ، ص ٧٤ ـ ٨٠) . من طرف آخر فقد كانت القوات المغولية مستفيدة من هذا المسلك الهام في حركاتها الحربية وتنقلاتها بين الاقاليم . (انظر : ع . العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، جـ١ ، ط١ ، بغداد ١٩٣٩ ، ص ٣٧٧) . لقد اكتشف البعض من الآثاريين العديد من الآثار التاريخية في مضيق كاليه شين ، وهي عبارة عن مشارات والواح مكتوبة باللغة الآشورية ، وتوضح تلك الاثار اخبار عن الخلديين في حركاتهم الحربية ومناوشاتهم مع الآشوريين ابان عهد الملك الاشوري شلمنصر الثالث ٨٢٤ ـ ٨٤٩ ق.م ، واحلال اللغة الخلدية محل الاشورية التي كانت تعتبر اللغة الرسمية ولغة الآداب في الامبراطورية . راجع التفاصيل التاريخية عن ذلك :

'Cambridge Ancient History', vol. I, (Khuldiyeen), pp. 211 — 225; see also, Morris Jastrow, The Civilization of Babylonia and Assyria, London, 1915, p. 245.

ويمر خط الحدود بين العراق وايران بمضيق كاليه شين البالغ من الارتفاع ٣٤٨٠م (عن : طه الهاشمي ، جغرافية العراق ، ط٢ ، بغداد ١٩٣٦ ، ص٢٩) .

١٨ - هو الكولونيل (السير - فيما بعد -) هنري كرويسويك راولنسون ، من اشهر المنقبين الآثاريين البريطانيين في القرن التاسع عشر . . . والمقيم بشؤون شركة الهند الشرقية ببغداد للفترة ١٨٣٤ - ١٨٥٥م ، وكان قد اخذ على عاتقه مسؤولية الاتجاه العام للحفريات الآثارية في العراق ، والخاصة بالمتحف البريطاني بعد الدور الذي كان مناطا بالآثاري البريطاني الشهير هنري لايارد . اشترى راولنسون للمتحف البريطاني ثوران مجنحان «برأسي انسان» . وهما من تماثيل خرسباد الهائلة . . (المعلومات عنه في النشرة الحديثة لقسم آثار غرب اسيا في المتحف البريطاني ، سنة ١٩٧٩ - منحوتات البلاط الاشوري -)

(British Musuam : Dept. of Western Asiatic Antiquities) .

١٩ - The Letter No. 7, dated 01/05/1849; JAOS, op. cit., pp. 75 — 6.

عند هذه العبارة تخطىء هيئة تحرير المجلة (JAOS) الدكتور بيركتس بالاعتماد على منشورات الميجر رولينسون وتحيل القارىء الى الحوليتين التاليتين .

Journal of Royal Asiatic Society, vol. X, p. 25; and Journal of Royal Geographical Society, vol. X, p. 21. See, JAOS, op. cit., p. 76 n.

وللاستزادة والتأكد من صحة الاحداث والتفاصيل التاريخية ، راجع :

Arrian, The Campaigne of Alexander, tr. by Aubrey de Selincourt, Introduction and Notes by J.R. Hamilton, Reprinted in Britian, 1978.

٢٠ - The Letter No. 8, dated 02/05/1849; JAOS, op. cit., pp. 77 — 8.

٢١ - للمزيد من التفاصيل الجغرافية وطبيعة منطقة الحدود العراقية+الايرانية+التركية ، انظر : طه الهاشمي ، المرجع السابق ، ص ٢٧ - ٢٩ .

ولتوخي الدقة في المعلومات والشروح والخرائط ، راجع :

Major Lloyd 'The Geography of the Mosul Boudary', Geographical Journal, vol. lviii (1926).

٢٢ - للمزيد من التفاصيل عن اقليم (سرادشت) ، انظر :

Walter, B. Harris, From Batum to Baghdad, London, MDCCCXCVI, pp. 219 — 225.

٢٣ - البلباس : من العشائر الكردية التي تقطن في قضائي اوشنو وراوندوز في محافظة اربيل . . وتنقسم الى اقسام كبيرة : بيران ومنكور ومامش والتي يقطن معها في منطقة رانية . وقد تعرض الميجر راوليشون لذكر هذه العشائر اثناء دراسته القيمة لعاصمة (ميديه) القديمة ، وذلك اثناء رحلته المفيدة للمنطقة وفحصها ميدانيا سنة ١٨٣٦ هـ . . .

Notes on a marche from Zohab at the foot of Zagros, a long the mountains to Khuzistan (Susiana) and from the nee through the provinces at Luristan to Kermanshah in year 1836 by Major Rawlinson, of the Bombay army serving in persia, p. 33.

٢٤ - The Letter No. 9, dated 03/05/1849; JAOS, op. cit., pp. 78 — 82.

٢٥ - لم اجد للكولونيل وليامز ترجمة خاصة به . . اما ارتباطه السياسي فيكون مع القنصل البريطاني العام المقيم في بغداد ، والاخير يرتبط دبلوماسيا بالسفير البريطاني المتواجد في مقر عمله بالعاصمة العثمانية (استنبول) . ومن المؤكد ان للكولونيل وليامز اوراق سياسية ، ورسائل دبلوماسية ، ووثائق تاريخية اثناء تواجده في الموصل . . وربما سيأتي اكثر من باحث بعدي ليبحث في ذلك مستقبلا ويستخلص معلومات نادرة عنه وعن الموصل .

٢٦ - محمد باشا الذي اشتهر بـ «كور» اي «الاعور» ، نظرا لاصابته بعلة في احدى عينيه . راجع اخباره المقتضبة عند المؤرخ لونكريك في كتابه الشهير : «اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث» ،

S.H. Longrigg, Four Centuries of Modern Iraq, Oxford, 1925, pp. 282 — 6.

٢٧ - للمزيد من التفاصيل التاريخية - التحليلية عن محمد باشا كورمير (الراوندوزي) ، ودوره المؤثر السالب في الاحداث السياسية الهامة لعراق القرن التاسع عشر ، انظر بالالمانية ؛ الاطروحة الاكاديمية الرصينة : («دكتوراه) عن جامعة هامبورك بالمانيا الغربية :

Jemal — eddin Nebez, aus Sulaimani, Kurdistan Der Kurdische Furst Mer Muhammed — i Rawandizi genannt Mir — i Kora im Spiegel der Morgenlandischen und Abendlandischen Zengnisse (Ein Beitag Zur Kurdischen Geschichte) : Dissertation Zur Universitat Hamburg, 1970.

(هذه الاطروحة تحتفظ بها مكتبة جامعة هامبورك في المانيا الغربية)

٢٨ - تعتبر (خوي - Khoy) من المراكز الاستراتيجية الشهيرة التي لعبت دورا مهما في التجمعات العسكرية في فترات متلاحقة وعديدة من التاريخ . كما ان لها اهميتها البارزة كحلقة وصل لخطوط التجارة الشرقية ، انظر :

The New Encyclopeadia Britannica, vol. v, London, 1974, p. 796.

٢٩ - The Letter No. 10, dated 04/05/1849; JAOS, op. cit., pp. 82 — 6.

٣٠ - The Letter No. 11, dated 05/05/1849; Ibid., pp. 86 — 9.

٣١ - The Letter No. 12, dated 06/05/1849; Ibid., pp. 89 — 90.

٣٢ - مدينة راوندوز : هي مدينة قديمة تمتاز بموقعها الاستراتيجي الفريد . . كانت ذات مركز بجمع خطوط المواصلات التجارية التي تربط الموصل - باشنو نحو اذربيجان . وراوندوز ، هي المدينة القلعة التي شهدت على مقربة منها انتصارات الروم على الفرس سنة ٦٢٧م . ولهذه المدينة مكانتها في العصور العراقية الحديثة ، اذ كانت تعتبر احد المراكز العسكرية - الاستراتيجية لترابط الجيوش العثمانية ضد الفرس . واسمها (روان) ولفظ (دز) - في اللغة الفارسية القديمة - معناه «القلعة» وتسكنها عشيرة الراوندي التي اختلطت بها عشائر اخرى . راجع عنها : (محمد امين زكي ، تاريخ الكرد والكردستان ، القاهرة ، ١٩٣٦ ، ترجمه عن الكردية : محمد علي عوني ، ص ٣٩٣ . اما الاصل ، فقد طبع ببغداد عام ١٩٣١) .

وللمزيد من التفاصيل الطوبوغرافية والمعلومات الاجتماعية والانثروبولوجية عن راوندوز، انظر :

A.M. Hamilton, Road Through Kurdistan : The Narrative of an Engineer in Iraq, with a foreward by Major — General Row An — Robinson, London, (n. d.), pp. 270 — 9.

٣٣ - يصف المؤرخ البريطاني لونكريك ، القسوة التي اتصف بها محمد باشا كورمير كونها «قسوة عادلة» - على حد تعبيره ، دون ان يلتفت ليدرس ملياً القطائع التي اقترفها كورمير ، انظر : S.H. Longrigg, op. cit., pp. 285 — 6.

للاستزادة عن شخصية كورمير وسياسته القبلية والمحلية ، انظر الفصل الاول والفصل الثاني من اطروحة جمال الدين السليماني المذكورة آنفا (راجع الملاحظة ٢٧ اعلاه) .

٣٤ - راجع عن جماعات «التيارية» بالتفصيل في كتاب لايارد الشهير :

H.A. Layard, Nineveh and its Remains, ed., intro., and nots: H.W.F. Saggs, London, 1970, p. 156.

٣٥ - القوش : هي القرية النصرانية التي وصفها المستر لايارد في كتابه آنف الذكر (= م . رقم ٣٤) ، وذكر بانها تقطن من قبل الكلدانيين الاقحاح الذين تحولوا إلى المذهب الكاثوليكي - الروماني ، بموجب التحدار العام للعرف الديني . وتحوي القوش معبدا للنبي ناحوم الالقوشي - كما يدعي - ، والمكان مقدس من قبل المسلمين والنصارى واليهود ، ويقع بالقرب منها دير الربان هرمزد الذي يقوم على سفح جبلها ، انظـــــر Ibid., p. 185.

٣٦ - ان هذا الاسلوب الكلاسيكي في البناء ، انما يرجع الى العصور العراقية الغابرة والسحيقة في القدم . وهو الاسلوب الذي تمثله طرز البناء المتنوعة عند البابليين والاشوريين ، انظر التفاصيل : M. Jastrow, op. cit., p. 216.

٣٧ - The Letter No. 13, dated 07/05/1849; Jaos, op. cit., pp. 90 — 4.

اظن ان هذا الممر الضيق الذي يقصده بيركنس هو الممر الشهير الذي يعرف اليوم بـ«مضيق كلي على بيك» والواقع بالقرب من راوندوز .

٣٨ - تركور : كانت تحتل مركز امارة تحت ايدي عشيرة «برادوست» ولكنها ضعفت فتلاشى شأنها ، وتقلص عدد سكانها ، انظر : م. أ. زكي ، المرجع السابق ، ص ٣٩٢ - ٣٩٣ . اما بخصوص العائلة الكردية ومواصفاتها ، فقد كتب توماس بويس فصلا كاملا عنها ، انظر :

Thomas Bois, Connassance des Kurdes, Beyrouth — Khayats, 1962, chap. No. 7.

٣٩ - The Letter No. 14, dated 06/05/1849; JAOS, op. cit., pp. 94 — 9.

٤٠ - عشيرة السورجي من العشائر الكردية الكبيرة التي تنتشر في محافظة اربيل ، ويبلغ عدد عوائلها ٤٣٠٠ اسرة . وتنتشر مستقرة فيما بين الشاطىء الشمالي لنهر الزاب الصغير وراوندوز ، ولهم خمسون قرية ، انظر : م. أ. زكي ، المرجع السابق ، ص ٤٠٨ .

٤١ - راجع عن المتصوفة الاكراد ، كتاب المؤرخ الانكليزي :

J.S. Trimingham, The Orders in Islam, Oxford, 1971, pp. 124 — 5.

٤٢ - The Letter No. 15, dated 09/05/1849; JAOS, op. cit., pp. 99 — 102.

٤٣ - يقول صاحب الرحلة في احد هوامش رسائله : - في معرض حديثه عن سهل اربيل : - «يدعى هذا السهل من قبل الاكراد والنساطرة هولير — HOLER — ، ويدعى من قبل (الاتراك) اربيل — ARBIL — ، (انظر : Ibid., p. 103 n.) . ان التسمية عريقة منذ القدم ومأخوذة من لفظ «دار بيلو» . ومن دون شك فان صاحب الرحلة قصد بالاتراك سكان المنطقة بمختلف انتماءاتهم العرقية والذين كانوا تحت حكم السيطرة العثمانية عصر ذاك .

٤٤ - راجع بشأن مدينة عقرة : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ٤ ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ١٣٦ .

٤٥ - اليعاقبة هم من السريان الارثوذكس الذين يؤمنون بان المسيح ذو طبيعة وحدوية متكاملة امتزج فيها عنصر الاله بعنصر الانسان . التفاصيل عند الشهرستاني : الملل والنحل ، جـ٢ ، ص ٤٥ .

٤٦ - النساطرة البابويين : هم من النصارى الكاثوليك الذين يتبعون الكنيسة الكاثوليكية في روما ، وقد تكثلكوا في بداية القرن التاسع عشر . للمزيد من التفاصيل التاريخية ، انظر :

Sayyar K. Al — Jamil, A Critical Edition of al — durr al — Maknun fi al — Ma' athiral — Madiya min al — Qunin of Yasin al — Umari (920 — 1226 A.H. 1514/1515 A.D. — 1811/1812 A.D.) ; ph.D. Thesis, St. Andrews Univ., Scotland, 1983, 3 vols., (The Library of St. Andrews Univ.).

٤٧ - الفرنكيون : هم «فرنجة» اوربا عند الاغريق والعرب . ان الرأي الذي يطرحه بيركنس هنا ، هو رأي خاطىء ؛ فالعراق لم يشهد خلال حياته التاريخية الطويلة ، اي شكل من اشكال استيطان الاوربيين سواء كانوا من «الفرنجة» ام غيرهم . . او استقرارهم . ولم تشهد هذه البلاد العريقة ، الا بعض الحملات الاغريقية والرومانية التي مرت عبر شمال العراق لحرب الفرس . . وسرعان ما تبدد ، ولم تترك آثارها على تاريخية العراق . اذن ، نستنتج بان البلاد العراقية لم تتأثر سكانيا بالرومان او الاغريق قديما . . ولا بالفرنج خلال عصور الحروب الصليبية في التواريخ الوسيطة ، ولا حتى الحملة النابليونية في التاريخ الحديث . . اذا استثنينا حركة التجار الاوربيين المتنوعين الذين كانوا افرادا ، فلذا كان من هؤلاء من استقر في دمشق وحلب فان بغداد والموصل لم تشهدا استقرار وتوطن اي «اوربي» . ان العراق اول ما شهد من جماعات اوربية انكلوسكسونية على ارضه ، انما جاء ذلك بعد الاحتلال البريطاني للعراق خلال الحرب العظمى الاولى في التاريخ المعاصر .

٤٨ - العمادية قلعة قديمة وعريقة في تاريخها الوسيط ، تقع على بعد ١٦٨كم شمال الموصل . اشتهرت كثيرا في العصور الوسطى بعد ان بنى قلعتها عماد الدين زنكي على انقاض قلعتها القديمة «امات» وسميت باسمه . اتخذت في اوائل القرن التاسع الهجري مركزا لامارة البهدينان التي ينتسب امراؤها الى الخلفاء العباسيين في بغداد . راجع التفاصيل عند : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ٦ ، ص٢١٤ .

٤٩ - وانظر كتاب Anabasis ، الجزء ٢ ، الفصل ٥٤ ، والجزء ٣ ، الفصل ٣ وهامش بيركنس : (JAOS, op. cit., p. 108)

٥٠ ـ The Letter No. 17, dated 11/05/1849; JAOS, ibid., pp. 108 — 9.

٥١ ـ الخازر : نهر بين اربل والموصل ، ينبع من جبلي حلبتا والعمرانية وهو الموضع الذي جرت عنده وقعة تاريخية شهيرة بين عبيد الله بن زياد وابراهيم بن مالك الاشتر النخعي في ايام المختار ، وفيها قتل ابن زياد سنة ٦٦هـ ، عن : ياقوت . . ، معجم . . ، جـ٣ ، ص٣٨٨ . وانظر : ياسين العمري ، منية الادباء في تاريخ الموصل الحدباء ، تحقيق : سعيد الديوه‌جي ، الموصل ، ١٩٥٥ ، ص ١٤٤ .

٥٢ ـ انظر : «كتاب اريان — ARRIAN — الجزء ٧ ، الفصل العاشر والحادي عشر . ثم الجزء ٣ ، الفصل الثامن والحادي عشر» هامش صاحب الرحلة : (JAOS, op. cit., p. 110) .

لابد لي ان اقدم للقارىء نبذة مختصرة عن المؤرخ اريان — Arrian — هو فلافيوس اريانوس اكزينوفون — F.I. Xenophon — الاغريقي الشهير ، ولد في نوكوميديا عاصمة اقليم بثينيا الروماني لسنوات خلت قبل سنة ٩٠ ب.م. درس الفلسفة ، واستفاد من تجاربه ودوره في السياسة الرومانية في الكتابة والسياحة والتقدم العسكري في السنين اللاحقة ، وله مأثورات عديدة ، وقد تقاعد عن عمله قبل موت الامبراطور هادريان في سنة ١٣٨ ب.م. ، وقضى بقية عمره في الكتابة . اصبح مواطنا اثينيا في سنة ١٤٥ ب.م. ان تاريخ موته غير معروف ، ولكن يعتقد انه مات حوالي سنة ١٨٠ ب.م. ان في كتاباته عن الامبراطور الاسكندر المكدوني في حروبه مع داريوس . . آثارا قيمة في تاريخ العراق القديم ونهر دجلة . . مع وصف دقيق وممتع لبعض الاماكن العراقية العريقة الضاربة اصيتها في القدم ، وهي محفوظة في ثنايا كتابه عن الاسكندر المؤلف من سبعة اجزاء .

اجتزأت هذه الترجمة عن المقدمة التي حررها ب. راديك لكتاب اريان : «حملة الاسكندر» (The Campaigns of Alexander) الذي ترجمه عن الاغريقية الى الانكليزية : اميري دي سيلين كورت ، ونقحه وقدم له جـ.ر. هاملتون ، لندن ، ١٩٧٨ .

٥٣ ـ قرية «برطلة» عرف بها المؤرخ الموصلي ياسين العمري : المرجع السابق ، ص ١٣١ .

٥٤ ـ ربما قصد الرحالة د. بيركنس بهذه القرى : بعشيقه وبحزاني . . من قرى الموصل .

٥٥ ـ ربما قصد صاحب الرحلة بهذا الجبل الصغير : جبل مقلوب الواقع ليس الى الجنوب من خط سير الرحلة . . بل الى الشمال من ذلك . وربما قصد غيره .

٥٦ ـ يقصد الرحالة بيركنس بهذه الارض الانكسارية : منطقة «الدملماجة» ، الواقعة شرق نهر دجلة قبالة مدينة الموصل . وهي المنطقة التي ذكرها صاحب رحلة المنشىء البغدادي بـ «دملجة» . . ينبع منها الماء الصلب . واصل الكلمة «دامله مه جه» تركية تعني بالعربية «الترشيح» ، انظر عنها : ع . العزاوي في ترجمته لرحلة «المنشىء البغدادي سنة ١٨٢٢م» ، عن الفارسية ، بغداد ١٨٤٨ ، ص ٨٠ .

٥٧ ـ The Letter No. 18, dated 12/05/1849; JAOS, op. cit., pp. 109 — 111.

٥٨ ـ للمزيد من المعلومات عن وصف «جسر الموصل» الشهير ، انظر :

E.S. Stevens, By Tigris and Euphrates, London, 1923 (Chap. XIII MOSUL).

٥٩ ـ The Letter No. 19, dated 13/05/1849; JAOS, op. cit., p. 111.

٦٠ ـ عن تفصيلات تاريخ «جسر الموصل» : راجع مقالة المؤرخ سعيد الديوه‌جي : «جسر الموصل في مختلف العصور» ، مجلة «سومر» ، العدد ١٠ ، سنة ١٩٥٦ .

٦١ ـ نهر دجلة : من الانهار العظمى في العالم ، ويعد اقدمها قاطبة . ينتسب لفظ «دجلة» الى اللفظ العبراني «جي دكل» الذي يعني : شدة جريانه وسرعته على حد سواء . واما اللفظ اللاتيني 'Tigris' فقد جاء من 'Tighal' الزندية والناشئة من كلمة (تيز = Tig) السنسكريتية ، بمعنى «حاد» . يبلغ طوله ١١٤٦ ميلا . . تفصيلات وافية عن تاريخية نهر دجلة وجيولوجيته وطبوغرافيته . . نجدها في :

The New Encyclopaedia Britannica, vol. 18, ed. 1974, pp. 402 — 6.

٦٢ ـ تعتبر نينوى من اشهر المدن التاريخية في حياة حضارات العالم القديم . وهي العاصمة الاخيرة والكبرى من بين عواصم الامبراطورية الاشورية . . . . يبدأ عصر نينوى منذ بداية القرن السابع قبل الميلاد ، وخلال عهود حكم كل من : سنحاريب (٧٠٤ ـ ٦٨١ ق.م.) ، وآشور بانيبال (٦٦٨ ـ ٦٢٧ ق.م.) ، حتى انهيار الامبراطورية في سنة ٦١٢ ق.م. انظر : طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، بغداد ، ١٩٥٥ . ايضا : د. سيار الجميل ، «الاشوريون في الضمير التونسي للتاريخ» ، مجلة «بين النهرين» ، العدد ١٣ ، الموصل ، ١٩٧٦ ، ص ٥ ـ ١٧ .

٦٣ ـ كوينجوق : هي مجموعة من التلول الحالية التي تقوم في موطن نينوى العاصمة الأشورية القديمة ، ولازالت هذه التلول تحتوي على ذخائر تلك العاصمة ، انظر الملاحظة رقم (٦٨) ، والملاحظة رقم (٧٢) .

٦٤ ـ يعتبر المستر هـ . رسام احد ثلاثة رجال آثار كبار ، والذين تعتبرهم بريطانيا من عظمائها . . اولئك الذين كانت لهم اليد الطولى في كشف الستار عن اعظم الأثار الاشورية القديمة ، والقاء الضوء على مجاهل التاريخ القديم الذي يحتل العراق قوته ومكانته وعظمته فيه . . وتزين لوحات مصورة زيتية لهؤلاء الرجال الثلاثة القاعة الاشورية السفلى من المتحف البريطاني بلندن ، وهم : لايارد وراولنسون وهرمزد رسام ، اضافة الى لوحة اخرى في مكان آخر لكلوديوس ريج . جاء عن هـ . رسام في نشرة «المتحف البريطاني» الصادرة سنة ١٩٧٧ : هرمزد رسام ، الشاب الموصلي المسيحي الذي عمل تحت ادارة راولنسون ، وبصورة مستمرة للفترة ١٨٥٢ ـ ١٨٥٤م . ويعتبر مساعدا قويا للمكتشف الآثاري الاول لايارد في تنقيباته ، والذي اكتشف في النمرود معبد الاله والحكمة والكتابة ، واتضح في نينوى البلاط الشمالي للملك آشور بانيبال مع مكتبة معبد نابو ـ Nabu — المتنوعة التي اكتشفت من قبل لايارد في بلاط سنحاريب . وفي خلال الفترة ١٨٧٨ ـ ١٨٨٠م رجع هـ . رسام الى حقل التنقيب بعد انقطاع ليعمل في النمرود ونينوى واشور وغيرها من الاماكن واكتشف على يديه العديد من المأثورات الثمينة ـ البرونزية التي تعود للبلاط الصغير لاشور ناصر بال الثاني وشلمنصر الثالث . ويذكر العالم البريطاني — H.W.F. Saggs — في مقدمته لكتاب لايارد بأن هرمزد رسام قد تخرج من انكلترا بعد ان اصطحبه لايارد معه

اليها ، اضافة الى مشاركته لايارد في سفرته عبر جبال شمال العراق سنة ١٨٤٦م . وهرمزد رسام هو اخو كريستيان رسام نائب القنصل البريطاني في الموصل . انظر :
H.A. Layard, op. cit., the Introduction by H.W.F. Saggs, p. 7.

٦٥ - المستر اوستن هنري لايارد (الذي اكتسب لقب السير بعدئذ) : يعد المكتشف الاول للعديد من البلاطات الاشورية المتواجدة - اليوم - في اروقة المتحف البريطاني . اجرى عملياته في التنقيب خلال الفترة ١٨٤٥ - ١٨٤٧م ، والفترة ١٨٤٩ - ١٨٥١م . وقد اكتشف في النمرود البلاط الشمالي الغربي للملك آشور ناصر بال ، وملاحق معابد اشتار ونينورتا والبلاط المركزي لـ تغلاث - بليصر الثالث (٧٤٤ - ٧٢٧ ق.م.) . وفي نينوى ، ادت اكتشافاته في تلول قوينجوق الى الحقل الاساسي الآثاري الاول لنينوى والتي قادت الى ظهور البلاط الجنوبي الغربي للملك سنحاريب ، وغيرها من البنايات وما تزخر به من اللوحات التي تحكي بصورة جذابة وامينة مشاهد الحروب وعمل لايارد كذلك . منقبا في آشور ، وخرسباد ، وشريف خان (=تربيصو) وتل النبي يونس وهو الحقل الرئيسي الآثاري الآخر من نينوى . رحل لايارد في ايلول =سبتمبر سنة ١٨٤٦م قاطعا شمال العراق .... واخيرا ، رجع الى بلاده متقاعدا ليدخل كعضو في البرلمان البريطاني سنة ١٨٥١ ، ليأتي بعده دور المجبر (السير لاحقا) هـ.ك راولينسون مقيم شركة الهند الشرقية في بغداد ١٨٤٣ - ١٨٥٥م . انظر التفاصيل :
(Ibid., the Introduction by H.W.F. Saggs, pp. 4 — 13).

لم يكتف لايارد بنقل الآثار الاشورية (= العراقية) من مهدها الى بلاده (= بريطانيا) ، بل لقد وجدت ان زوجته المسز لايارد قد نقلت الى المتحف البريطاني العديد من مخطوطات الموصل الهامة .. لقد ظهر ذلك لي من اطلاعي على تواقيعها في تلك المخطوطات . وهناك مخطوطات اخرى من الموصل نقلها الى لندن كل من لايارد نفسه وصاحبه هرمزد رسام .

٦٦ - النمرود : هي العاصمة الاشورية الثانية بعد آشور . عاشت النمرود ايامها على عهود كل من الملك اشور ناصر بال الثاني (٨٨٣ - ٨٥٩ ق.م.) والملك شلمنصر الثالث (٨٥٨ - ٨٢٤ ق.م.) ، والملك شمش ادد الخامس (٨٢٣ - ٨١١ ق.م.) ، والملك ادد - نيراري الثالث (٨١٠ - ٧٨٣ ق.م.) واخيرا الملك تيغلات - بليصر الثالث (٧٤٤ - ٧٢٧ ق.م.) ، حتى اواخر القرن الثامن قبل الميلاد . والنمرود تقع شرقي نهر دجلة ، وجنوب شرق الموصل بنحو ١٨ ميلا ، وتعتبر - اليوم - قرية من اعمال الموصل . ويعتبر كتاب الاركولوجست «مالاوان» عن النمرود بمجلدين كبيرين من احدث واوسع واهم الكتب ، وذلك من نواح شتى : وصفها ، وآثارها وتواريخ عهودها ، ولوحاتها وكتاباتها ونقوشها ... مستعينا بعشرات الصور الفوتوغرافية . كما ويعتبر هذا الكتاب من اهم كتب علم الآثار ، وحري بالعلماء العراقيين - اليوم - ترجمته الى العربية وتقديمه الى ابنائهم .
M.E.L. Mallowan, NIMRUD and its Remains, 2 vols., London, 1966.
المعلومات المختصرة ، تراها في :
The New Encyclopeadia Britannica, vol. VII, ed. 1974, p. 349.

٦٧ - The Letter No. 20, dated 16/05/1848; JAOS, op. cit., pp. 112 — 115.

٦٨ - تسمى هذه المنطقة التي تقع اليوم في قلب الجانب الايسر من مدينة الموصل بـ«تل قوينجوق» وهو التل الرئيس من مجموعة كبيرة من التلول الواسعة التي تشكل حلقة لها استداراتها المتراميه والحاوية اطلال العاصمة العظمى الكلاسيكية (نينوى) ، وهي ذات شكل مستطيل غير منتظم الابعاد ، وآثار سورها الداخلي واضحة ، وطوله (١٢) كم ويجري مخترقا هذه العاصمة التاريخية (= مجموعة التلول) نهر الخوصر اما اليوم ، فتقوم على الطرف الشمالي من اطلال العاصمة نينوى ابنية المركز الجامعي لكليات واقسام جامعة الموصل الحديثة . راجع تفصيلات مادة 'Nineveh' في :
The New Encyclopeadia Britannica, vol. VII, ed. 1974, p. 351.
اضافة الى معلومات وافية عن «محافظة نينوى» .

٦٩ - القنصل الفرنسي في الموصل هو المسيو ب.ي. بوتا ، انظر ترجمته - عندي - لاحقا ، رقم (٧٣) .

٧٠ - مُنِحَ راولينسون بالاشتراك مع لايارد درجة الشرف كمؤسسين لعلوم «الاشوريات» ومحتويات عصورها التاريخية والحضارية لـ«اشورلوجيات» المتحف البريطاني . ويعتبر راولينسون عالما كلاسيكيا من الطراز الاول ، - حسب تصنيف الدوائر البريطانية - ولكنه لم يكن بمقدر لأي فن آخر كالذي تحتويه المعلومات الاغريقية . وكان اكبر من لايارد سنا بسبع سنوات ، تلقى علومه العسكرية في شركة الهند الشرقية في عام ١٨٢٧ وتعلم بصورة جلية اللغات الشرقية ، وتنقل في اماكن عديدة من الشرق الادنى . اخباره التفصيلية في مقدمة د. ساكس لكتاب لايارد ، انظر :
H.A. Layard, op. cit., introduction by H.W.F. Saggs, pp. 19 — 20.

٧١ - جامع النبي يونس : من اكبر واوسع جوامع الموصل على مر تاريخها العربي الاسلامي . يقوم حاليا على التل الذي يدعى بـ«تل التوبة» بني بعد التحرير العربي للموصل على انقاض «كنيسة» قديمة .. ثم جددت بناؤه في القرن الرابع الهجري جيلة بنت ناصر الدولة الحمداني واوقفت له . وتطور في القرن السادس الهجري تطورا مشهودا ليشتمل على بيوت ومقاصير ومطاهر وسقايات ، كما يذكر ذلك ابن جبير في زيارته له سنة ٥٨٠هـ - وفي سنة ٧٦٧هـ ، جدده ووسعه جلال الدين ابراهيم الختني . وتعرض الجامع للنهب والسلب وتلفت محتوياته من قبل الايرانيين اثناء غزو نادرشاه وجيوشه للعراق ، وذلك خلال حصار نادرشاه للموصل سنة ١٧٤٣م الذي خاب بالفشل ، فجدد آثاث الجامع وسجاده والي الموصل الجليلي حسين باشا بعد رحيل نادرشاه الى بلاده منخذلا مدحورا ، انظر ما كتبه عنه المؤرخ سعيد الديوه‌جي في كتابه : «جوامع الموصل» ، بغداد ، ١٩٦٣ ، ص٧٣ - ١٠٧ .

٧٢ - تسمى هذه الرابية ، بالتل الثاني الكبير بعد تل قوينجوق . وتدعى بـ «تل التوبة» (انظر الملاحظة رقم ٧١) ورد ذكرها عند : المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج١ ، مصر ، ١٣٤٦هـ ، ص ١٣٣ .

٧٣ - المسيو باول اميل بوتا (P.E. Boota) : القنصل الفرنسي في الموصل الذي اتاها بعد ان كان يشغل نفس المنصب في الاسكندرية واليمن . شارك بوتا ضمن اعمال لايارد ، وكان عمره آنذاك ٤٠ سنة ، وقد حصل على نتائج عديدة ضمن نطاق تنقيباته في خرسباد ونينوى . تعلم بوتا الكثير من اعمال التنقيب وافضلها الحفريات والعمليات والفحوصات التي تجري لحفظ «الانتيكات» الاشورية ، وتقدير اعمارها من لايارد لملازمته اياه ، اذ بموجب ما ذكره لايارد ، فان بوتا لم يكن عالما ولا بمؤرخ كلاسيكي (= مشتغل على العصور القديمة) ، لذا فقد استفاد من

لايارد الكثير ، ولم يوفق في بداية عمله ، ولكنه نجح بصورة كبيرة بعد ان تقاعد لايارد وقادته اعماله في تل قوينجوق بنينوى الى اكتشاف آثار خرسباد . هذا الى جانب عمله كقنصل لفرنسا في الموصل ، وقد جرت تنقيباته تحت رعاية الحكومة الفرنسية . . راجع عنه في كتاب «لايارد» المذكور آنفا . ولمزيد من التفصيلات عن بوتا ، انظر :

Seton Lloyd, The Archaeology of Mesopotamia, London, 1978, p. 139.

وهذا الكتاب هو من احدث الاعمال المختصة بحقل «الاركيولوجي» المتعلق بشؤون آثار العراق . وهو الكتاب المحدث الثاني الذي اود ان الفت اليه نظر زملائي المؤرخين والآثاريين العراقيين ، بغرض العمل على ترجمته الى اللغة العربية .

٧٤ ـ خرسباد : واسمها القديم (= دور شروكين) اي « مدينة سرجون »، هي العاصمة الآشورية الثالثة بعد آشور والنمرود ، قامت حياتها الآشورية على عهد الملك سرجون الثاني (٧٢١ ـ ٧٠٥ ق.م.) الذي اتخذ له فيها قصرا ومعبدا . واصل بوتا حفرياته فيها حتى سنة ١٨٤٤ ، ثم جرت تنقيبات اخرى فيها للفترة ١٨٥٢ ـ ١٨٥٤م ، واكتشفت فيها العديد من الآثار المهمة ، ولكن معظمها فقد في شط العرب عندما غرق القارب الذي يحملها قرب البصرة في مايس ١٨٥٥ ، وذلك اثناء استلابها من مواطنها الاصلية وارسالها الى اوربا . للمزيد من التفاصيل انظر مقدمة « ساكس » لكتاب لايارد السابق ذكره . وراجع ايضا :

The New Encyclopeadia Britannica, vol. v, ed. 1974, p. 793.

٧٥ ـ تقع اطلال كالح قرب منطقة الشرقاط جنوبي الموصل ، وتسمى بـ«آشور» ، وهي العاصمة الاولى للامبراطورية الآشورية في عصرها الاول حتى سنة ١٠٠٠ ق.م. ، وتحاذي ضفاف نهر دجلة . . . وقد وصفها المؤرخ الاغريقي اكزانالون (= اربان) ، وذكر بان آثارها تعود لعصور قبل الاغريق بفترة ٢٢ قرنا . وهي المدينة الاصلية لبدء الامبراطورية الآشورية وتاريخها وحضارتها . . وهي شبيهة بالنمرود ، وتتواجد قريبا منها غابة كثيفة قطعها لايارد في سفرياته الى كالح ـ الشرقاط . راجع كتابه المذكور اعلاه .

٧٦ ـ يقصد بها : «الرحبة من بلاد الشام ، والواقعة على شاطىء نهر الفرات اسفل قرقيسياء ، انظر عنها : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ٤ ، ص ٢٣٤ .

٧٧ ـ للمزيد من التفاصيل عن نينوى والموصل في بداية العقد الثالث من القرن التاسع عشر ، انظر ما كتبه كلوديوس ريج ، المقيم البريطاني في بغداد ١٨٠٨ ـ ١٨٢١م :

C.J. Rich, Narrative of a Residence in Koordistan, 2 vols., London, 1836.

وهناك كتاب هام وشيق ايضا ، كتبه ك . م . الكساندر عن كلوديوس ريج : السائح والفنان واللغوي ورجل الانتيكات ، المقيم البريطاني في بغداد لسنوات طويلة ١٨٠٨ ـ ١٨٢١م ، وقد خصص مؤلف هذا الكتاب احد فصوله عن نينوى والموصل للفترة ١٨٢٠ ـ ١٨٢١ ، انظر :

Constance M. ALexander, Baghdad in Bygone Days, (From the Journals and Correspondence of Claudius Rich, Traveller, Artist, Linguist, Antiquary, and British Resident at Baghdad, 1808 — 1821), London, 1928, (Chap. No. XVIII: Nineveh and Mosul 1820 — 1821.

٧٨ ـ The Letter No. 20, dated 16/05/1849; JAOS, op. cit., pp. 112 — 115.

٧٩ ـ انظر : الملاحظة رقم ٦٦ اعلاه .

٨٠ ـ قرية السلامية : من اعمال الموصل ، تقع على نهر دجلة للجنوب الشرقي منها . وقد كانت فيما مضى تعد من اكبر قرى الموصل ، وفيها كروم ونخيل وبساتين ، وعدة حمامات وقيسارية وجامع . . . وعلى جانب منها تقع اطلال «النمرود» . وقد اصاب السلامية خراب شامل ، ثم بدأت تعمر قليلا مرة اخرى . وصفها بدقة : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ٥ ، ص ١٠٤ . وكتب عنها المؤرخ ياسين الخطيب العمري في : المنية . . . ، المرجع السابق ، ص١٥١ .

٨١ ـ ذكر على هامش الرسالة ٢٠ لصاحب الرحلة :
'Ezekiel, xxiii, 14, 15 — 16; JAOS, op. cit., p. 119.

٨٢ ـ الحضر (Haria) عاصمة مملكة « عربايا » اي بلاد العرب . يعود اصل التسمية استدلالا من الكتابات التي وجدت فيها بحجر « بهستون » انها : كانت ضمن اسماء الاقاليم التي كانت تسيطر عليها الامبراطورية الفرثية في عهد الملك دارا الاول (٥٢٢ ـ ٤٨٦ ق.م.) ، ثم صار حكامها في القرنين الثاني والثالث الميلاديين يلقبون في الكتابات «الحضرية» بـ « ملوك العرب » . راجع تفاصيل تاريخها وآثارها عند : فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى في كتابهما : الحضر مدينة الشمس ، بغداد ، ١٩٧٤ ، ص ١٧ .

٨٣ ـ The Letter No. 21, dated 18/05,1849; JAOS, op. cit., pp. 115 — 119.

٨٤ ـ كتاب لايارد : هو الكتاب الذي تقدم ذكره في ملاحظاتي واستخداماتي له ، انظر اعلاه : الملاحظة رقم (٣٤) .

(أ) See, S.H. Longrigg, Four Centuries of Modren Iraq, Oxford, 1925, p. 328 — 334

يقول السيد عبود الشالجي المحامي في مقالته التي ترجمها عن الانكليزية بعنوان : «احوال بغداد في القرن التاسع عشر» ، ما يلي : « السيد وليم بيري فوك اول سائح اميركي زار العراق ، فقد غادر اميركا في اول سنة ١٨٧٤م قاصدا مصر» (انظر : مجلة سومر ، جـ ١ ـ ٢ ، المجلد ١٦ ، بغداد ، ١٩٦٠ ، ص ١٣) ! في حين يثبت البحث ان جوستن بيركنس هو اقدم من بيري فوك بربع قرن في زيارة اول اميركي للعراق ! وربما كان هناك من هو اقدم من بيركنس !

(ب) انظر : الملاحظة رقم ١٧ (ملاحظات وتعليقات) .

(جـ) انظر : الملاحظة رقم ١ ، الملاحظة رقم ٢ (ملاحظات وتعليقات) .

(د) See, Who was who in America : Historical Volume 1607 — 1896, Chicago, ed. 1967, p. 467.

(هـ) يقصد بها «الدولة العثمانية» التي كانت تسمى بـ«تركيا» عند اغلب الرحّالة من الغربيين .

(و) للاستزادة في المعلومات عن هذا الموضوع ، اشير الى مقالة فريدريك بارث والموسومة بـ : «دراسة في الحياة الاجتماعية في كردستان» ، مجلة سومر ، جـ١ ، المجلد ٨ ، بغداد ، ١٩٥٢ ، ص ٩٦ ـ ٩٨ .

«الروض الخصيب في رحلة السيد النقيب»
مصطفى نور الدين الواعظ

تحقيق
ظمياء محمد عباس

دار صدام للمخطوطات

اهمية هذه الرحلة :

ساهمت الرحلات في استكمال جوانب من الدراسات التاريخية والحضارية للمجتمعات التي تتناولها الدراسة ، وتبرز قيمة الرحلات كمصدر لوصف الثقافات الانسانية ولرصد بعض جوانب الحياة اليومية في مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة[1].

وانطلاقا من هذا تأتي اهمية الرحلة التي بين ايدينا ، فهي تعد وثيقة مهمة تؤرخ لفترة قصيرة من تاريخ البصرة في العهد العثماني للفترة بين ١٢٩٧هـ ـ ١٢٩٩هـ/١٨٧٩ ـ ١٨٨١م التي شهدت تأسيس بلديتها وتولي بعض اعيانها لعضوية ورئاسة المجلس البلدي ، بالاضافة الى انها تعطينا لمحة سريعة للاوضاع الاجتماعية والادارية السائدة .

وكما قيل عن الرحلات «انها كشف للذات وفهم للاخر وانفتاح عليه وهكذا يصنع التاريخ نفسه»[2] ، فان هذه الرحلة تفصح عن ثقافة العصر واهتمامات مثقفيه من خلال الاسلوب الادبي المستخدم في كتابة الرحلة ، اذ مال الكاتب الى استخدام اللامباشرة في التعبير عن وجهة نظره مثل تشبيه البصرة بعروس ورئيس بلديتها عريس غير كفء لها[3] . ومال كاتب الرحلة الى استخدام السجع على حساب دقة وسلامة الالفاظ كما في كلمة «حسان» ، «يهداك»[4] ، اضافة الى كثرة استشهاد الكاتب بابيات شعرية لكبار الشعراء مثل ابي نواس ، والشريف الرضي ، ومهيار الديلمي ، وحمدونة ، وغيرهم مما يوحي بثقافته وسعة اطلاعه .

وتكشف الرحلة جانباً من العلاقات الاجتماعية بين كاتب الرحلة ومعاصريه ، وعمق علاقاتهم ، وكما يشير مصطفى الواعظ مقدماً للنص المنشور في الروض الازهر ، اذ يقول : «وكنت اذ ذاك في مدينة البصرة رئيسا في دائرة الجزاء سنة ١٢٩٧هـ وبعد مدة من الزمان توجهنا مع حضرة السيد محمد سعيد افندي «رحمه الله تعالى» الى زيارة سيدنا الزبير ثم الى سفوان قريب الكويت للتنزه زمن الربيع وكان اذ ذاك حضرة آلوسي زادة الاخ شاكر افندي سلمه الله تعالى نائبا في البصرة ، فحررت له كتابا هذه صورته : «الروض الخصيب في رحلتنا مع السيد النقيب . . . .»[5]

«البصرة في اواخر القرن الثالث عشر الهجري»

كانت البصرة ولاية تابعة لبغداد حتى سنة ١٢٨٨هـ (١٨٧١م) بعد عزل الوزير مدحت باشا ، انفصلت البصرة عن ولاية بغداد وربطت بالعاصمة الاستانة وصار السلطان يرسل

اليها المتصرفين او الولاة مباشرة .

وفي سنة ١٢٩٢هـ (١٨٧٥م) نصب ناصر باشا السعدون والياعلى البصرة وجعلها ولاية بعد ان كانت متصرفية ، ثم عزل السعدون سنة ١٢٩٤ هـ (١٨٧٧م) وارجعت البصرة متصرفية وظلت هكذا حتى سنة ١٣٠١ هـ (١٨٨٢م) اذ جعلت ولاية عثمانية[٦] .

عانت البصرة خلال هذه الفترة من تعسف الولاة وتعدد الولاءات وانتشار الامراض الفتاكة (الهيضة ، والطاعون) ، وارتباك الامن ونتج عن ذلك انحطاط العمران وتدني المستوى الثقافي ، وارتباك التجارة ، واستمرت الاوضاع مرتبكة في البصرة حتى اعلان الدستور العثماني سنة ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م) فدخلت البصرة رحلة جديدة من النهضة السياسية والثقافية[٧] .

وقد تم تشكيل بلدية البصرة لتتحمل بعض المسؤوليات الخدمية (التنظيف ، والقضايا الصحية) على ضوء زيارة والي بغداد مدحت باشا للبصرة سنة ١٢٨٦هـ وان لم يكن جهازها الاداري مكتملاً في اول الامر[٨] .

صاحب الرحلة :

هو ابو اسماعيل مصطفى نور الدين بن السيد محمد امين الواعظ بن السيد محمد الادهمي .

ولد في بغداد في محلة باب الشيخ سنة ١٢٦٣هـ (١٨٤٦م) .

ثقافته :

تلقى العلم على مشاهير عصره ، وتثقف بآدابهم ، قرأ القرآن ثم قرأ النحو والصرف والفقه والمنطق وآداب البحث وعلمي التفسير والحديث وكتب (السنن) والاثار والسير وله اجازة في الحديث والاخبار بطريقة المراسلة من المحدثين الشيخ عبد الغني الغنيمي الميداني والشيخ احمد مسلم الكزبري

كان يجيد الخط وله آثار خطية كثيرة ، اتبع الطريقة القادرية ، وجعل من داره في الحلة مدرسة علمية باشرافه ونصب من تلاميذه المتقدمين مدرسين للمبتدئين ، وتخرج من هذه المدرسة علماء افاضل .

ونصب مصطفى الواعظ مدرساً وواعظاً وخطيباً في مدينة البصرة في الجامع المسمى (بابي المنارتين) سنة ١٢٨٩هـ (١٨٧٢م) ثم عين عضوا في محكمة تمييز الحقوق بالبصرة واستمر فيها حتى سنة ١٢٩١هـ (١٨٧٤م) ، وفي سنة ١٢٩٧هـ (١٨٧٩م) عين رئيسا لمحكمة جزاء البصرة وبقي فيها حتى استقاله منها سنة ١٢٩٩هـ (١٨٨١م) وعاد الى بغداد الى ان كلف بمنصب افتاء الحلة ثم مديرا لاوقاف الحلة سنة ١٣٠٢هـ (١٨٨٤م) ، ومديرا لمعارف الحلة . وكانت مدة تدريسه في الحلة والديوانية قد تجاوزت الخمسة والعشرين سنة .

من ابرز مؤلفاته[٩]

١ - العنصر الطيب في نسب ابي الطاهر الطيب ، وهو اول كتاب الفه .

٢ - البرهان الجلي في بيان الفرق بين الرسول والنبي والولي .

٣ - الدر النضيد في احكام الاجتهاد والتقليد .

٤ - كشف الستور عن مطالع البدور .

٥ - الفوائد النورانية والقواعد النورية (مجموع) .

٦ - عنوان الهداية في ردع ارباب الغواية .

٧ - عقد النحر في الحكم المخالف لنفس الامر .

٨ - الروض الازهر في تراجم آل السيد جعفر

٩ - التعليمات في آداب المدارس والتدريس (طبعت وترجمت من التركية سنة ١٣١٠هـ) .

١٠ - بلوغ النيل من الكلام على آية واتموا الصيام الى الليل (رسالة)

١١ - سل الحسام على كشف اللثام (رسالة) .

١٢ - عقد القلب الى معرفة الرب (رسالة) .

١٣ - خلاصة المقال في شد الرحال (رسالة) .

١٤ - المطالب المنيفة في الذب عن الامام ابي حنيفة .

١٥ - القول السديد في رد مناقضات ابن ابي الحديد .

١٦ - الارشاد لمن انكر النبوة والمبدأ والمعاد . وضعها في الاستانة سنة ١٣٢٧هـ وهي آخر مؤلفاته .

توفي في ٢٣ جمادى الثاني سنة ١٣٣٢ هـ (١٩١٣م) ودفن في التكية البكرية[١٠] .

وصف المخطوطة :

اعتمدت في تحقيق هذه الرحلة على مخطوطة فريدة محفوظة في دار صدام للمخطوطات ببغداد تحت رقم (٣٠٣٨٦) ، وهي رسالة ضمن مجموع تملكه احمد شاكر الالوسي كتبه بخطه بين سنة ١٢٩٢ - ١٢٩٩هـ (١٨٧٥ - ١٨٨١م) شغلت هذه الرحلة الصفحات من ٨٦ - ٨٨ منه كتبت بخط التعليق بمداد اسود على ورق اخضر . والمخطوط في الاساس كشكول لاحمد شاكر الالوسي(١) ضمنه اوراقه الخاصة ومراسلاته مع معاصريه ومنقولات مختلفة تعكس ثقافته واهتماماته .

ورمزت لهذه النسخة بالحرف (أ) . والنسخة الثانية التي اعتمدتها في المقابلة ورمزت لها بالحرف (ب) ، فهي النص المطبوع من الرحلة والمنشور ضمن كتاب المؤلف الموسوم الروض الازهر من تراجم آل السيد جعفر في الصفحات ص ٣٠٢ - ٣٠٦ منه .

وقد اعتمدت على النسخة (ب) في اضافة بعض النصوص الساقطة من النسخة (أ) والتي تقتضيها الضرورة

نص الرحلة

بسم الله الرحمن الرحيم

اما بعد احمد الله تعالى على نعمه ، ومنه ، وكرمه ، والصلاة والسلام على من اسرى به الى المحل الاسنى ، والمقام الاسمى ، وعلى آله وصحبه وجنده وحزبه ، فانا نعرض لدى مولانا الحاكم (الحاسم)(٢) وقاصم الظالم ابي المحاسن وذي المكارم (وسليل الاكارم)(٣) ومن لا تأخذه في الله تعالى لومة لائم ، اعلى الله تعالى مقداره ، ورفع في الدارين مناره ، اننا نتلو عليكم من نبأنا خبراً (لتحيطوا بذلك خبراً)(٤) ، ازال الله تعالى عنا وعنكم ضيراً وضرراً . لما ودعناكم وعند الله تعالى اودعناكم ، وفي القلب حُرقة من ألم النوى والفرقة .

وتلفتت عيني فمذ خفيت

عنيّ الطلول تلفّت القلب(٥)

حثثنا السير حتى وصلنا بعد ساعتين مسجد الجامع المقابل لضريح سيدنا طلحة الخير(٦) ، ووجدنا ثمة جمعاً من اجله الاحباب(٧) . وانجاب الاصحاب ، جاؤا الينا مستقبلين وبقدومنا فرحين مستبشرين ، وعقب ان شربنا قهوة البُن وحصلت لنا الراحة والبركة واليُمن بادرنا الى المسير حتى دخلنا بلد سيدنا الزبير(٨) من الباب المقابل(٩) لضريح سيدنا حسن البصري ، وحللنا دار النجيب الاجل عبد الله جلبي المشري ، فزارتنا كافة الاحبة وتم لنا الاستئناس برؤيا محيا جناب الاجل الشيخ عيسى القرطاس واغتنمنا ولله تعالى الحمد هناك الزيارة ، ودعونا للمحبين بنجاح التجارة وللحاسدين (اللئام)(١٠) بالخذلان والخسارة ، وبتنا ونحن بأنعم عيش ، وأتم راحة ، ورأينا بعد النَصَب كمال الاستراحة وعقب صلاة الفجر حمد القوم عند الصباح السري ، نشدنا الرواحل وقطعنا (الفيافي)(١١) والمنازل ، وكلّ الجواد ، (وطار السهاد)(١٢) ، واستولت على العين سنة الكرى ثم حططنا الثواقل عند وادي النساء(١٣) ، قبيل المساء ، (وريثما استرحنا)(١٤) ، سرنا وعن بعض الرفاق بعدنا ، وفي وادي الابرقين(١٥) نزلنا ، وللصلاة حذر الفوات تيمنا ، ثم (نحونا نحو وادي النجم ،(١٦) فاذا هو واد فيه حياض وغياض ، وازهار ورياض ، وقبل ان تتوارى بالحجاب)(١٧) يممنا سفوان(١٨) ، وتتابع الرُكّاب ، حيث شاهدناه وكحلنا ابصارنا بأثمد عياه .

نزلنا دوحة فحُنت علينا
حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ضماءٍ زلالا
ألذ من المُدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا
فيحجبها ويأذن للنسيم
يَروعُ حصاه حالية العذارى
فتلمس جانب العقد العظيم[29]

ولقد صدق من قال من ارباب الفضل[30] :

ياحبذا سَفْوان من متربّع
ولربما جمع الهوى سفوان

فسفوان وما ادراك ما سفوان ، روح وريحان ، وحدائق وبستان ، ونخل ورمان ، وافنان واغصان ، وازهار واطيار ، عيون ساقيه ، وانهاره جارية ، وروض خصيب ، ومحل واسع رحيب ، واقع في سفل جبل يدعى سنام[31] لشبهه بسنام الجمل ، وبالجملة نسيمه يعطر المشام ، وزهره الرند والخزام :

فالارض ياقوتةٌ والجو لؤلؤة
والنبت فيروزج والماء بلور
من شم طيب رياحين الرياض يقل
لا المسك مسك ولا الكافور كافور[32]

ثم (نصبت)[33] الخيام ، وكسى الجو بحلل الغمام ، وبعد ان اكلنا العشاء (وادينا)[34] ، صلاة العشاء جادت السماء بالحيا ، فتذكرت قول القائل من ادبائنا الاوائل .

ان فصل الربيع شيء عجيب
تضحك الارض من بكاء السماء
ذهب اينما ذهبنا وورد
حيث ردنا وفضة في الفضاء[35]

فاهتزت الارض وربّت ، ومن كل شيء بهيج انبتت ، فاهتل وجه السيد النقيب ، والسند النجيب ، مزحاً وسروراً ، وازداد بهجة وحبورا ، واستبشر من هذا الغيث المنهمر على هذا الوادي الرحيب ، وقال ، ومن العجيب اني كلما نحوت هذا الحي تجود السماء بالوابل باذن الملك الحي ، وفي الحقيقة ليس في ذاك عجب واستسقاء الغمام بوجهه المبارك لا يستغرب ، اذ هو سليل من يستقي الغمام بوجهه وطلعته ، وعمت الرحمة على الانام ببعثته (وصلى الله على ذاته وصفاته)[36] والى ذلك اشار ابو طالب[37] بقوله :

وابيض يستسقي الغمام بوجهه
فمال اليتامى عصمة للارامل
(يلوذ به الهُلاك من ال هاشم
فهم عنده في رحمة وفواضل[38]

وكلما حللنا في روضة من رياضه ؛ ذكرناكم ،
وحينما كرعنا من زلال حياضه ، تمنيناكم .

فاذكروا مثل ذكرانا لكم
رُبَّ ذكرى قربت مَنْ نزحا[39]

وقد صحبنا في سفرنا هذا مَنْ تم انسنا به ، وابتهجنا بقربه الملا محمد آل عُمَير ، فلم نجد بمفاكهته الم السير ، وقد امتطى حصاناً يدعى «عبيان» وفي الحقيقة هو من الصافنات الجياد بل من خيل مضر واياد . ثم اني اعود واقول سائلاً عن المخدرة المصونة والدرة المكنونة (رياسة البلدية[40] في البصرة المحمية)[41] ، (هل)[42] كمل جهازها ؛ فتم فرحها ، وزال ترحها ، اذ لم ترض ان يكون رئيسها السابق لها بعلاً ، ولم تر نفسها له كفوأ واهلاً ، كم مرة استغاثت فلم تغث ، فصار عياطها وصياحها لغوا او عبثاً ، وكم مرة نادت فلم تُجب ، فالتفتت يميناً وشمالاً فلم تجد سبيلا لكشف مادهاها الا ابا رجب ، وخاطبته بقولها :

ولكم ادعو فمالي سامع
وكأني عندما ادعو أبح

(فلبى دعاها)[43] ، ورحم شكواها ، ودفع بلواها ، هذا وهي تغازل الفها القديم أبا (يس)[44] ويغازلها ، حيث لا تصلح الا له ولا يصلح الا لها ، فشمر السيد (المومى)[45] اليه ، اسبغ الله تعالى نعمه (الظاهرة والباطنة علينا)[46] وعليه ، وعن ساعد الجد ولا غرو فكم له من حزم وعزم وجد ، فخطبها وخاطب ولاة امرها فاعرضوا صفحاً وطووا كشحاً فاخذته العزمة الاحمدية والغيرة العلوية والبسالة الهاشمية ونادى بعلها السابق بلسان فصيح صريح ناطق :

فطلقها فلست لها بكفوء
والا يعلو مفرقك الحسام

فتلجلج لسانه ورجف جنانه ، وتزلزلت اركانه ، وتفرقت (ايادي سبا)[47] اعوانه ، فلم يجد بدأ من التحلف ، فطلقها بتاتاً وهومتأسف متلهف ، (ثم)[48] ان حضرة مولانا الحاكم الماجد هو السائق والقائد ، وجناب (المولى)[49] ابو نعمان (تأتي به وقد)[50] شمر عن ذراعيه وهزّ بيديه قائلاً ان لم (يطلق فسوف احاسبه)[51] حساباً عسيراً ، (واناقشه على ما اختلسه)[52] فتيلا ونقيراً وعزيزا وحقيرا ، واسلم دور ابي ياسين تسليما يسيرا[53] ، واقام جناب الحاج محمود جلبي في ميدان المحاسبة يجول ويصول وبذل المجهود بحصول المأمول ، وجناب الحاج سالم جلبي[54] (البدر له اليد البيضاء)[55] ، وهو الذي روج سوق الحق ، وازهق الباطل ، برأيه الصائب اي زهق ، فيناجي هذا ويحرض ذاك ، ويعقب كل لفظه من الفاظه قوله « الله يهديك»[56] ، (وقد تم العقد ، ولله الامر من قبل ومن بعد)[57] ، فيا ادرى حتى تكون ليلة الدخول[58] ، وحتى يحظى ابو ياسين بهذا السؤال[59] ، وحتى يجمع بين القرط والخلخال ، ويفوز بكافة الآمال ، بلغنا الله تعالى واياه (ما نرومه)[60] وما نتمناه ، آمين (بحرمه من اشرقت الدنيا بنور سناه (ﷺ) ما اجتمع المحب بالمحب ونال الشرف بالقرب)[61] قرة عين الخلائق اجمعين ، ثم اننا (الان)[62] في سفوان مقيمون ، وعن قريب

منه ان شاء الله تعالى ضاعنون ، والى كويت آل صباح وذوي الوجوه الصباح قاصدون ، ويحصل لنا برؤياهم الفوز والنجاح ، (ولم نزل مع الاحبة نتذكر محاسنكم في المساء والصباح ، جمعنا الله تعالى واياكم على احسن الاحوال واجملها ، وافضلها واكملها ، والحمد لله حمداً غضاً ، والشكر له سبحانه حتى يرضى)[12] ، ومولانا السيد النجيب ومخدومه احمد افندي الاريب يهديان[14] لكم الدعاء ويتذاكران[15] محاسنكم في المساء والصباح ، وبلغ عني التحية والسلام ، والشوق المستام الى مفتي الانام والى الباسل الضرغام امين الفتوى ، وآل باش اعيان الكرام ، والى الوفي حسن افندي ، والصفي المستقيم الحاج ابراهيم قنديل زادة[16] ، واقبل احداق مخاديمكم ، محمد درويش . وحسين وخادمكم اسماعيل[17] حفظهم الله تعالى .

بلغ كلٌ منا مراده ، لازلتم اولياء الامر والارادة .

٧ جمادى الاول سنة ١٢٩٩ في سفوان الداعي

واعظ زادة السيد مصطفى نور الدين

الهوامش والمصادر

١- د. حسين محمد فهيم : ادب الرحلات ، دراسة تحليلية من منظور اثنوجرافي (الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ١٣٨ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م) ص١٩ .

٢- المصدر السابق ، ص ٢٤٩ .

٣ - انظر النص ، ص ؟

٤ - انظر النص ، ص ١٠ ، ١٣ . ؟

٥- مصطفى نور الدين الواعظ : الروض الازهر في تراجم ال السيد جعفر . تحقيق واضافة : ابراهيم الواعظ (الموصل ، ١٣٦٨هـ/١٩٤٨) ص٣٠٢ .

٦- علي ظريف الاعظمي : مختصر تاريخ البصرة (بغداد ، مطبعة الفرات ، ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م) ص١٥٢

٧- عبد القادر ال باش اعيان العباسي : البصرة في ادوارها التاريخية (بغداد ، مطبعة البصري ، ١٣٨١هـ/١٩٦١م) ص ٥٧ - ٥٨ .

٨- رجب بركات : بلدية البصرة ١٨٦٩ - ١٩٨١ (البصرة ، ط١ ، ١٩٨٤) ص٨٨ .

٩- انظر ، مصطفى الواعظ : الروض الازهر ، ص ٣٢٨ ، الرسالة التي كتبها محمد شريف بهاء الدين السكوتي سنة ١٣٢٩هـ عن مؤلفاته .

١٠- انظر عن ترجمته :

السهروردي ، محمد صالح : لب الالباب (بغداد ، مطبعة المعارف ، ١٣٥١هـ ١٩٣٣م) ص ٢٣٢ - ٢٣٩ . مصطفى نور الدين الواعظ : الروض الازهر في تراجم ال السيد جعفر . تحقيق واضافة : ابراهيم الواعظ (الموصل ، ١٣٦٨هـ/١٩٤٨م) ص ٣٥٩ - ٤٧٤ .

الدروبي ، ابراهيم : البغداديون اخبارهم ومجالسهم (بغداد ، ١٩٥٨) ص ٢٦٨ .

١١- هو : احمد شاكر بن ابي الثناء محمود بن عبد الله الالوسي ، ولد سنة ١٢٦٤هـ (١٨٤٧م) . تقلد عدة مناصب منها ، قضاء البصرة ، ثم عين عضواً في مجلس معارف استانبول ، وتوفي هناك سنة ١٣٣٠هـ (١٩١١م) . انظر ترجمته .

الالوسي ، محمود شكري : المسك الاذفر في مزايا رجال القرن الثاني والثالث عشر (مخطوطة دار صدام ببغداد برقم ٨٥٧٧) ص ٦٨ - ٦٩ .

١٢- ناقصة في الاصل ، ضيفت من (ب) ، ص ٣٠٢

١٣ - ناقصة في الاصل ، اضيفت من (ب) ، ص ٣٠٢

١٤- ناقص في الاصل ، اضيفت من (ب) ، ص ٣٠٢

١٥- البيت للسيد الشريف الرضي ،

انظر : ديوان السيد الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ) (بغداد ، دار صدام للمخطوطات) مخطوطة برقم ١٠٠٤٧ ، ص ١٠١ .

١٦- هو : طلحة بن عبيد الله بن عثمان التيمي القرشي المدني ، صحابي احد العشرة المبشرين بالجنة ، توفي سنة ٣٦هـ (٦٥٦م) ، ودفن بالبصرة .

الزركلي، خيرالدين : الاعلام (بيروت ، دار العلم للملايين ، ط ٤ ، ١٩٧٩) ٢٢٩/٣ .

١٧- وردت في ب ص ٣٠٣ هكذا (جملة من الاحباب الاجلة) .

١٨- نسبة الى الزبير بن العوام بن خويلد الاسدي القرشي ، ابو عبد الله احد العشرة المبشرين بالجنة ، توفي سنة ٣٦هـ (٦٥٦ م) الزركلي : المصدر السابق ، ٤٣/٣ .

١٩- في الاصل «المقابلة» ، وفي (ب) ص ٣٠٢ كما اثبتناه اعلاه .

٢٠- ساقطة في الاصل ، اضيفت من (ب) ، ص ٣٠٣.

٢١- ساقطة في الاصل ، اضيفت من (ب) ، ص ٣٠٣ .

٢٢- ساقطة في الاصل ، اضيفت من (ب) ، ص ٣٠٣ .

٢٣- وادي النسا ، هو غير مدينة النسا احدى مدن خراسان والتي ينسب اليها النسائي صاحب السنن . ولم نجد لهذا الموضع اشارة في كتب البلدان او الكتب المهتمة بخطط البصرة .

٢٤- ساقطة في الاصل ، اضيفت من النسخة (ب) ، ص ٣٠٣ .

٢٥) و ٢٦) واديان لم نجد لهما ذكراً في كتب البلدان .

٢٧- ساقطة في الاصل ، اضيفت من (ب) ، ص ٣٠٣

٢٨- سَفَوان : (بفتح اوله وثانيه واخره نون) ماء على قدر مرحلة من باب المربد بالبصرة وبه ماء كثير ، تبعد عن البصرة مسافة اربعة اميال ، وهي نفس سفوان الحالية .

انظر : ياقوت الحموي شهاب الدين ابي عبد الله ياقوت بن عبد الله . معجم البلدان ، (بيروت ، دار صادر ، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م) ٢٢٥/٣

٢٩ - ينسب اهل المشرق هذه الابيات الى المنازي ، احمد بن يوسف السليكي ، ابو نصر ، الكاتب ، توفي سنة ٤٣٧هـ .

انظر عن ترجمته

ابن خلكان ، احمد بن محمد (ت ٦٨١هـ) : وفيات الاعيان وانباء الزمان (القاهرة ، منشورات مكتبة النهضة المصرية ، ط١ ، ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م) ١٢٦/١ .

وينسبها بعضهم الى حمدة ، وهي حمدونة بنت زياد بن عبد الله العوفي المؤدب من وادي آش ، وهي خنساء المغرب وشاعرة الاندلس توفيت في حدود ٦٠٠هـ ، انظر عن ترجمتها :

الكتبي ، محمد بن شاكر (ت ٧٦٤هـ) : فوات الوفيات (بيروت ، منشورات دار الثقافة ، ١٩٧٣) ٣٩٤/١ .

٣٠ - البيت من قصيدة لابي نواس في المدح . انظر : ديوان ابي نواس الحسن بن هاني . تحقيق : ايفالد فاغنر ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م . ١٠٦/١

٣١ - سنام : جبل بين البصرة واليمامة ، الى جانبه ماء كثير ، وهو ابرز معلم طوبغرافي في المنطقة لايزال محتفظا باسمه القديم . انظر عنه بتفصيل :

ياقوت : معجم البلدان ، ٢٦٠/٣ وصالح احمد العلي : خطط البصرة ومنطقتها ، دراسة في احوالها العمرانية والمالية في العهود الاسلامية الاولى (بغداد ، المجمع العلمي العراقي ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م) ١٠٥ - ١٠٦ .

٣٢ - البيت للصنوبري من ابيات يفضل فيها الربيع على سائر الازمنة انظر

الطباخ ، محمد راغب : الروضيات (حلب ، ١٩٣٢) ص ٨٠

٣٣ - وردت في (ب) ، ص ٣٠٤ ، (ركزت) .

٣٤ - ساقطة في الاصل ، اضيفت من (ب) ، ص ٣٠٤ .

٣٥ - ورد البيتان بدون نسبة هكذا :

طاب الهواء وازداد حتى
ليس يزداد طيب هذا الهواء
نعب حيث ما ذهبنا وورد
حيث ردنا وفضة في الفضاء

انظر : الثعالبي ، ابو منصور : احسن ما سمعت . صححه · محمد افندي صادق (مصر ، المكتبة المحمودية ، ط٢) ص ٥٧

٣٦ - ساقطة في الاصل ، اضيفت من (ب) ، ص ٣٠٤ .

٣٧ - البيتان من قصيدة لابي طالب بن عبد المطلب (توفي سنة ٣ هـ) تقع في (٩٤) بيتاً في الدفاع عن النبي (ﷺ) ترد في سيرة ابن هشام ٢٩١/١ بتحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي (مصر ، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م) .

وانظر : ديوان ابي طالب ، جمع : أبو هِفّان عبد الله بن احمد (ت ٢٥٧هـ) ، بغداد ، مخطوطة في دار صدام للمخطوطات برقم ٢/١٢٤٢ ، ص ٨٩ .

٣٨ - ساقطة في الاصل ، اضيفت من (ب) ، ص ٣٠٤

٣٩ - البيت من قصيدة لمهيار الديلمي في النيروز الواقع سنة ٤١٤هـ

انظر : ديوان مهيار الديلمي . القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ط١ ، ١٣٤٤ هـ (١٩٢٥م) ٢٠٢/١ - ٢٠٣

٤٠ - انظر بتفصيل عن تشكيل بلدية البصرة رجب بركات : بلدية البصرة ، ص ٨٨

٤١ - ساقطة في الاصل ، اضيفت من (ب) ، ص ٣٠٥ .

٤٢ - ساقطة في الاصل ، اضيفت من (ب) ، ص ٣٠٦ .

٤٣ - ساقطة في الاصل ، اضيفت من (ب) ، ص ٣٠٥ .

٤٤ - ساقطة في الاصل ، اضيفت من (ب) ، ص ٣٠٥ ، لعله (محمد افندي الياسين الذي انيطت له رئاسة بلدية البصرة مرتين في السنوات (١٢٩٢ (١٨٧٤م) - ١٢٩٤هـ (١٨٧٦م) وفي المرة الثانية سنة (١٢٩٩هـ (١٨٨١م) - ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م) ، وقد تولى رئاسة البلدية رغم عدم وجود الامكانيات لتحقيق واجبات البلدية وانجز بعض المهام الخدمية وعالج بعض المشاكل التي كانت تعانيها المدينة (امراض ، اوبئة) . للمزيد حول نشاطاته وانجازاته . انظر :

رجب بركات : بلدية البصرة ، ص ٩٣ - ٩٥

٤٥ - ساقطة في الاصل ، اضيفت من (ب) ، ص ٣٠٥ .

٤٦ - ساقطة في الاصل ، اضيفت من (ب) ، ص ٣٠٥ .

٤٧ - ساقطة في الاصل ، اضيفت من (ب) ، ص ٣٠٥ .

٤٨ - في (ب) و . ص ٣٠٥

٤٩ - في (ب) المقفي . ص ٣٠٥

٥٠ - ساقطة في الاصل ، اضيفت من (ب) ، ص ٣٠٥

٥١ - في (ب) (ان لم تطلق فسوق احاسبك) . ص ٣٠٥

٥٢ - في (ب) (واناقشك على ما اختلسه) . ص ٣٠٥

٥٣ - لم يرد هذا النص في المطبوع .

٥٤ - تولى رئاسة بلدية البصرة سنة ١٢٨٧هـ - ١٨٧٠م في دورتها الاولى التي انتهت سنة ١٢٩٠هـ ١٨٧٣م ، من عوائل البصرة المعروفة بالفضل والمكانة . انظر عنه :

ابراهيم فصيح الحيدري : عنوان المجد في بيان احوال بغداد والبصرة ونجد (بغداد ، مطبعة دار البصري ، ط١) ص ١٦٩ ، وايضاً بتفصيل : رجب بركات : بلدية البصرة ، ص ٨٨ .

٥٥ - ساقطة في الاصل ، اضيفت من (ب) ، ص ٣٠٥ .

٥٦ - في الاصل «يهداك» ، والافضل ما اثبتناه

٥٧ - ساقطة في الاصل ، اضيفت من (ب) ، ص ٣٠٥ .

٥٨ - ورد النص في (ب) ص ٣٠٥ هكذا : «فما ادري متى تجلى تلك الفيداء والطبول افيفاء» .

٥٩ - ورد النص في (ب) ص ٣٠٥ هكذا : «ايويس بالدخول ويبلغ السول»

٦٠ - ساقطة في الاصل ، اضيفت من (ب) ، ص ٣٠٥ .

٦١ - ساقطة في الاصل ، اضيفت من (ب) ، ص ٣٠٥ - ٣٠٦ .

٦٢ - ساقطة في الاصل ، اضيفت من (ب) ، ص ٣٠٦ .

٦٣ - ساقطة في الاصل ، اضيفت من (ب) ، ص ٣٠٦ .

(٦٤ ، ٦٥) في الاصل (يهدون . . . ويتذاكرون) والصحيح ما اثبتناه .

٦٦ - هو ابراهيم المنديل النجدي ، من عشائر الروس من عشائر نجد ، كانت له تجارة مع الهند ، وله بيوت في البصرة والزبير .

الحيدري : عنوان المجد ، ص ١٧٠ .

٦٧ - اسماعيل هو الابن الاكبر لمصطفى الواعظ (صاحب الرحلة) توفي سنة ١٣٦٣هـ (١٩٤٤ م) ودفن في مقبرة الامام الغزالي ، من مؤلفاته الدر النفيس في الوعظ والتدريس .

انظر : مصطفى الواعظ : الروض الازهر ص ٣٥٩ - ٢٧٤ ، السهروردي : لب الالباب ، ٣٦٧/٢ - ٣٦٩ .

* * *

رحلة اللحافي البغدادي من بغداد الى القسطنطينية سنة ١٢٩٧هـ/١٨٧٩م

تحقيق
د. عماد عبد السلام رؤوف
كلية التربية ـ جامعة بغداد

قام بهذه الرحلة، في سنة ١٢٩٧هـ/١٨٧٩م، رجل بغدادي سمى نفسه «السيد احمد افندي اللحافي» قاصداً استانبول لشأن من شؤونه لم يشأ ان يذكره في رحلته، ومن المحتمل انه اراد التوصل الى بعض الوظائف الشرعية من خلال توسطه شيخ الاسلام في الدولة العثمانية، فانه قصده بالزيارة، وتقرب اليه، على ما يفهم من كلامه. وعلى الرغم من عدم وقوفنا على ترجمة له. فان في وسعنا ان نكون تصوراً عاماً لثقافته من خلال رحلته نفسها، فهو كما يفهم من لقبه، كان ممن يمتهن صناعة «اللحفان» (جمع: لحاف) ببغداد، الا انه نال، بعد ذلك، قسطاً من التعليم اهله للتعرف على عدد من الشخصيات البارزة في مدينته، كما انه شغف بدراسة الاسطرلاب، وفنون «الهيئة» القديمة، حتى انه كان يصطحب معه اصطرلابا في رحلته، يستخدمه لاشباع هوايته في قياس ارتفاعات الارض، ومن الراجح انه عمل «موقتاً» في بعض مساجد بغداد، وهي مهنة كانت تختص بضبط اوقات الصلاة، فان ولداً له، اسمه عبد الحليم، كانت له اهتماماته نفسها، وعمل مؤقتاً في جامع السراي ببغداد(١)

ويفهم من قصيدة اثبتها بعض معاصريه في آخر كتاب رحلته، بعض اهتماماته الاخرى، وابرزها الموسيقى وربما الغناء ايضا فهو «بلبل الالحان» وله ايضاً شعر «ممتاز»(٢) ولكن لم نقف على شيء من هذا الشعر، ونحن نستكثره على الرجل، فان لغته التي كتب بها رحلته واسلوبه، وافكاره، لا تدل على علو كعب في اي من تلك المجالات، كما لا تشير محاوراته مع معارفه، مما اثبته في ثنايا رحلته، على نباهة خاصة، او دقة فكر، وعلى الرغم من انه عمل في اثناء اقامته باستانبول مدرساً في بعض مدارسها، الا انه لم يكن معدوداً بين المدرسين المبرزين، فعمله ذاك لم يكن الا بتوسط من شيخ الاسلام نفسه، ومعظم من التقى بهم في اثناء رحلته لم يتعرفوا عليه الا بجهد، بل انه اضطر الى تعريفهم بنفسه احياناً. ولسنا نعلم انه كتب شيئاً غير تدوينه وقائع رحلته من بغداد الى استانبول، وحتى هذه تكاسل عن وضع مقدمة لها ـ كما ذكر ناسخ مخطوطتها السيد احمد شمس الدين الألوسي ـ مما دفع بالاخير الى القيام بهذه المهمة وكتابة مقدمة مناسبة.

لم يحدد اللحافي زمن قيامه برحلته، بيد ان من الميسور معرفة ذلك، فانه اشار الى لقائه بوالي دمشق مدحت باشا، ومن المعلوم انه تولاها سنة ١٢٩٥ رومية ١٢٩٧هـ/١٨٧٩م، وصرح بانه التقى بواليها الجديد احمد احمدي باشا وقد تولاها في ذلك العام.

وتكشف رحلة اللحافي عن الطريق المتخذ في اواخر القرن التاسع عشر للسفر الى العاصمة العثمانية، مع تحديد لمراحل هذا الطريق ومحطاته، وذلك على النحو الآتي:

السير براً من بغداد الى بيروت ، عن طريق: ابو غريب - الصقلاوية - الرمادي - هيت - جبة - حديثة - الفحيمي - عانة - النهية - القائم - البوكمال - الصالحية - الميادين - الدير - تدمر - عين قباقب - صخنة - ابو الفوارس - القريتين - عطنة - جرود - دوما - دمشق - زحلة - بيروت. ثم الابحار منها الى استنبول مروراً بقبرس - رودس - ازمير - مضيق كالي بولي.

ولم يكن هذا الطريق يختلف - بوجه عام - عما كان يسلكه بعض البغداديين في سفرهم الى استانبول منذ عهد بعيد، الا انه صار - في هذه الحقبة - الطريق الاكثر استقرارا، واستخداماً، من الطرق البرية الاخرى التي كانت تجتاز جبال طوروس في مسالك عدة، وليس من العسير توضيح اسباب هذا التغيير، فتوفر حداً ادنى من الامن، وتنامي سلطات المدن، وتحسن السفن، واستقرار خطوط الملاحة البحرية، كانت كلها، وراء ارجحية هذا الطريق لدى مسافري تلك العهود.

ومن ناحية اخرى فان الرحلة تحفل باسماء الاشخاص الذين التقى بهم المؤلف اثناء رحلته، ومنهم ولاة وقادة عسكريون وموظفون رسميون آخرون وعلماء واعيان وغيرهم . وهي لا تخلو من انطباعات شخصية عما مر به من معالم، وما لقيه من صعوبات.

والنسخة الوحيدة المعروفة اليوم من هذه الرحلة، تحتجنها خزانة دار صدام للمخطوطات، برقم (٣٣٤٦) وهي بخط السيد احمد شمس الدين الألوسي، نقلها عن نسخة المؤلف «التي املاها وصنفها» نقلاً حرفياً بما فيها «من املاء وتحرير واعراب وبناء وتقرير وتسطير» ولذا لم يصلح منها شيئاً من الاخطاء الاملائية والنحوية العديدة التي تحفل بها، بيد انه اضاف عليها مقدمة من انشائه «جريا على العادة، لتكون عند ذوي الالباب مستجادة».

وكان لابد لنا ، عند نشرها هذه الرحلة، ان نصلح من اخطائها الظاهرة ما وسعنا اصلاحه، الا اننا نبهنا الى ذلك في مواضعه، ومنها عبارات واستطرادات قليلة قد اخلت بالسياق واربكته، فحذفناها واشرنا الى ذلك ايضا.

نص الرحلة

الحمد لله الذي خلق الانسان وعلمه البيان، ومنحه عقلاً امتاز به عن سائر الحيوان، وعلمه مالم يعلم، وفهمه مالم يفهم. والصلوة والسلام على من اسرى به ليلاً الى المسجد الاقصى، وعَرّج به الى حظيرة القدس فكان قاب قوسين ، ورأى من آياته الكبرى ما لاتكاد تحصى ، فعاد منشرح الصدر قرير العين، وعلى آله واصحابه نجوم السائرين[1] الى طريق الهدى، والمرشدين الى سواء الطريق ما اظلم ليل ولاح ضوء صبح وبداه.

وبعدُ، فقد رأيت رحلة الفرد الذي ما تثنى في مرآة الزمان لناظر، والاوحد الذي كَلَّ كل لسان عن سر مناقبه ، لما حازه من جم المآثر، ذي الذهن الوّقاد، المُجمع على فضله على رغم انف الحساد ، الذي عز عن شبيه في الظاهر والخافي، حبيبنا وانيسنا السيد احمد افندي اللحافي، احد المدرسين المشار اليه في بغداد المحمية، بلغه الله كل امنية، وذلك فيما جرى له وعليه عند سفره الى فروق[2]، فكان الفرق بين رحلته وبين رحلة غيره من الفضلاء كفرق الصبح يروق. بيد انه بعد ان اتمها ، ورصع جيدها بلآليها[3] ونظمها، لم يجلها بديباجة، ولم يكمل بالحسن نسجه وديباجه، فهي كعروس لم تزين بخضاب ، ولا جُليت على منصة الانس كالغادة من الاتراب، فحليتها بهذه الديباجة ليروق حسنها، ويعلو قدرها وشأنها، لدى من رام ان يكحل ناظره باثمد سوادها عند مطالعته لها ،ويقف على ما اودع فيها من البلاغة وسكب العبارة فيزداد بها شغفاً وولها.

فقال ، لا فض فوه ، ولا برح من يجفوه :

بسم الله الرحمن الرحيم

خرجنا يوم الخميس بكرة من النهار غرة شعبان(١) من الزوراء فتوجهنا الى الشام، مرفقين معنا خمسة انفار من طرف الحكومة لمحافظتنا، وكان معي ولدي عماد الدين يشيعنا، فبينما نحن سائرون نزلت عن مطيتي، وركبت يعفور(٢) عبد الحليم، وعبد الحليم عماد الدين ركب مطيتي.

[ابو غريب]

فلما دنينا من ارض ابو غريب، رأى الجنود بطيخاً اخضر، وساروا اليه حتى يجنوا منه للاكل، وهو معمول في الخدود وجداول الماء تجري. وانا قلت لهم: تنحوا عن هذا الطريق، ولا يجوز لكم الاكل من هذا البطيخ، قالوا: ياسيدنا نبتاعه بالدراهم، فدخلت خيل الجنود في الجداول، وهربت مطية عبد الحليم في جدول من الجداول، فوثب عبد الحليم عن ظهرها كأنه فهد، والجمّال يقول: وا جملي! وا جملي! انكسر جملي، وانا قلت له: علي بالظمان، لا تخف ولا تحزن ان الله معنا. ثم نهضت المطية وخرجنا سالمين غير ان الغرار(٣) الذي فيه متاعنا، والخبز والسكر صار عجيناً، ثم القيناه، فاقبل عليه الجنود يأكلون منه، ويقولون:

يا سيدنا هذا دقيق ملتون بسكر، فقلت لهم: هنيئاً مريأً.

فبعدما قضوا وطرهم بالعجل، ركبنا مطايانا وتوجهنا الى مدير «ابو غريب» محمد شواف زاده، فاتينا اليه، ونوخنا مطايانا بباب خيمته، فقابلنا بالترحيب والتكريم والتبجيل، ومعه ولده عبد الرزاق. فقال لي: يا جدي، ما هذه الساعة المباركة التي أتت بك؟ ثم قبلت بين عينيه، فكان جلوسنا عندهم ست ساعات، ثم صلينا المغرب، وودعت ولدي عبد الحليم وعبد الرزاق ووالده محمد علي افندي.

[الصقلاوية]

وتوجهنا نحو الصقلاوية(٧)، فلما اتيناها نوخنا مطايانا عند مدير النيل(٨) حيدر افندي؛ فجلسنا مع حيدر افندي برهة من الزمان، واذا حسن بك قائمقام من امراء العساكر(٩) المنصورة مقبل من الشام (و) دخل علينا، فلما رأيته نهضت وقبلت بين عينيه، فجلسنا معه مقدار ساعتين من الزمان، ثم نظر الى ولدي محمد، (وقال:) ما هذا الشبل الذي معك؟ فقلت: هذا ولدي محمد اخو عبد الحليم.

(عبور الفرات)

وسرنا نحو الفرات، ثم اتينا الفرات، فقدموا لنا فلكاً حتى نعبر نحو الشامية فلما دخلنا مطايانا في الفلك، واذا قوم من عشيرة(١٠) الدليم يريدون ان يدخلوا(١١) معنا للعبر، والجنود ما رضوا ان يدخلوا(١٢)معنا، وصارت منازعة بين الفرقتين، الجنود يقولون: لاتدخلوا(١٣) وهم يقولون: ندخل، فاخذ(١٤) الجنود ايديهم الى سلاحهم وكذلك القوم، وانا اصلح بينهم(١٥)، واذا عجوز شمطاء زلاء(١٦) منطيق تقول: الفتنة من هذا الشويخ. فلما قالت هذا الكلام، وابنها كذلك تفوه في هذا الكلام، وكان معنا خادم اسمه محمد جاويش متوجهاً الى استانبول، لما سمع الكلام من ابن العجوز، وكان في يده دنبوس(١٧) فضربه تحت ابطه فاغمي عليه، فسمع بوز باشي الجنود(١٨) حيدر اغا، فقال: يا شيخ ما هذا الامر؟ فقلت: الجناية من الجنود. ثم بدّل الجنود، فقال(١٩)

القوم: جزنا[19] عن دعوانا ولو الف رجل يموت لحسن كلام الشيخ. ورئيس القوم كان محمد الاعرج المعروف بالطوبال[21]. فبعد ما عبرنا ركبنا مطايانا وتوجهنا الى الطوبال فنزلنا عنده وبتنا ليلتنا وكانت بئس الليلة لانه رجل دني ما يلتفت الى حق[22] الضيف.

(الرمادي)

وتوجهنا نحو الرمادي[23]، ونزلنا عند قائمقام الدليم احمد افندي، فقام مستقبلاً لنا بالترحيب والتبجيل، وكان الوقت الشمس في رابعة النهار، فجلسنا معه، ثم اتانا بغداء، فاكلنا وشربنا معه، فسمع بنا طه افندي شواف زاده[24] فقال: مرحباً بكم، فذهب بنا الى بيته، فبتنا عنده تلك الليلة، فلما مضى ثلثا الليل، قدمت لنا مطايانا، وتوجهنا نحو هيت وقد رفقوا معنا اربعة فرسان من طرف الحكومة، فبعد ما مضت ثلاث ساعات من النهار قال[25] رئيس الفرسان علي آغا: انتم تفوزون بهذه المفازة، ونحن نورد خيلنا ونتبعكم، فلما فارقناهم واذا رجل اعنزي[26] راكب على مطية شعلاء وبراء ومعه شاب رديفه، ظهر علينا من الوهد، والكمين في الوهدة، فلما رآه سعد، جَمّالنا، قام ينادي بالويل: وا جمالي! لقد ذهبت روحي وجمالي. قلت له: لاتحزن، اصبر ان الله مع الصابرين. فقلت لهما: يا اخا العرب ما انتما، وما تكونا، ومن اي العرب انتما؟ فقالا: نحن (من) عنزة. فلما توسموا فيّ وفي ولدي جعلوا ينظرون الينا شزراً. فقلت لهم: اتعلمون ما هذا الغلام الذي معي؟ قالوا: لا، قلت لهم: هذا ابن اخت لكم، فقالوا: كيف هو الحضري يصير ابن اخت لنا؟ فقلت لهم: لما عبد الله الفاضل[27] كان في الشام، وتزوج بالشام، (فان) هذا من تلك المرأة، وقصته معلومة لا تخفى على ذوي الالباب. فلما قلت لهما هذا ابن اخت لكما فكانوا بين المصدقين والمكذبين، فقالوا:

يا سيدنا اسلك هذا الطريق حتى نرجع الى قومنا منذرين ومخبرين. فقلت لهما: اذهبا قبل ان يخبرا بكما الجنود، فوجهوا مطيهم الى نحو قومهم مجنبين مسرعين، فلحق بنا الجنود. وهذا الكلام الذي جرى بيني وبينهما، وعلى ارتكابي[28] هذا الكلام، ضرورة الجائني اليه، لا الكذب شيمتي، ولا ارضى به لكن احوج [اليه].

(هيت)

ثم اتينا هيت قبيل المغرب، فنزلنا عند ياسين الذياب باب محط الفواصل والافاضل، رجل كريم، وما وجدناه[29] في داره، بل وجدنا اخاه [30] عبد الله يفوق[31] حاتماً في الكرم، لانه كان شيخ العرب، كسّاباً وهّاباً، وهذا يجود بكد يمينه، ياله من رجل كريم، ولايوجد[32] الان في العراق مثله، رجل تقي نقي.

(جُبّة)

ثم سرينا في الليل وتوجهنا نحو جُبّة، فلما اتينا جبة، وهي جزيرة في نهر الفرات، نوخنا[33] مطايانا، ونزلنا في حصن متخذ للجنود المحافظين لابناء السبيل...

(حديثة)

ثم سَيَّر معي محافظ القلعة اربعة فرسان، فخرجنا من جبة نحو حديثة سائرين ليلاً، فاصبحنا في حديثة، وكذلك هي، جزيرة في نهر الفرات. نزلنا في حصن متخذ للجنود المحافظين لابناء السبيل، واجتمعنا باناس من اهلها فقراء، كل رجل منهم

عمامة قد لفها رحوية الشكل خضراء، والمغزل في يده يغزل ويتكلم في الحيل[33] الشرعية، كل حيلة عملة المحكمة[34] عندهم[35]، واذا برجل اتى اليَّ وقبل يدي، ولحيته كأنها عرض تسعين، فقال: يا سيدي هل تعرفني من انا؟ فقلت له: لا يا اخي. فقال: ابن سيد حديد، وسيد حديد كان خادماً في جامع المصرف[35] في بغداد في محلة محمد خليل[36].

(الفحيمي)

وسرنا نحو الفحيمي، فأتيناه صباحاً، فنوخنا مطايانا بباب الحصن، وكان ذلك اليوم عبوساً قمطريراً من شدة الحر والسموم وقد قتل رجال كثر، فقضينا ذلك اليوم ولم نر مكروهاً.

(عانة)

ثم قدمت لنا مطايانا ليلاً وسرنا نحو عانة، فلما دخلناها اقبل عليَّ[36] اهل عانة يهرعون، كل واحد منهم يقول: انا مضيف لك، واذا ناقتي بباب قائمقام عانة ناخت، فقلت لهم: يا اخوان خلوها حبسها حابس الفيل، لاني مستن بسنته صلى الله عليه وسلم (فانه) لما هاجر من مكة الى المدينة اتى[37] المدينة فتلقاه[38] الانصار، كل واحد يقول له: المنزل عندي يا رسول الله. فبركت ناقته العضباء عند باب ابي ايوب الانصاري فقال: اتركوها حبسها حابس الفيل.[39].

ثم اتانا القائمقام حقي افندي فقبل يدي، وقبلت بين عينيه، فبعد التحية قلت له: اتركني يا اخي حتى اخذ راحتي لاني اليوم سائر ليلي مع نهاري، فانفردت بحجرة للقيلولة، فبعد برهة من الزمان واذا رجل من قبله يناديني: يا سيدي قم للغداء، فقمنا وتغدينا مع حقي افندي.

(النهية)

وسرنا نحو النهية مع اربعة فرسان مرفقين معنا، فلما وصلنا النهية، وهي كذلك حصن متخذ للجنود المحافظين لابناء السبيل، ولم ننزل فيها.

(القائم)

فبقينا ليلنا سائرين حتى دخلنا القائم[40]، فنزلنا عند المدير السيد محمد سعيد افندي نجل السيد عمر افندي نقيب برصة[41] وجيل زاده وهو رجل كريم، حلو الشمائل، ذو عقل ودراية. ثم قال: يا سيدي هذا المحل محلك، وانا ذاهب للتعشير، وولدي مصطفى افندي هو ههنا، فهو مقيم بضيافتكم فكان الامر كذلك.

(البو كمال)

ثم بتنا ليلتنا، وخرجنا سائرين سحراً نحو ابي الكمال[42] فدخلناه وقت القيلولة، واذا خارج البلدة سقيفة مبنية لابناء السبيل، فوجهنا مطايانا نحو المضيف، فخرج رجل من نحو المضيف مرحباً، فاخذ بخطام مطيتي، وقال: المنزل عندي، ونزلت عنده، وكان حاتماً. وقبل هذا ذكرنا ياسين الذياب حاتماً، فذاك يصرف بماله، وهذا كساب وهاب صفة حاتم، فصيح اللسان حلو الشمائل، قده كأنه عود بان، فلما جلسنا معه وبدأنا بالمنادمة، واذا بقائمقام ابي الكمال مع عبد الحكيم افندي البغدادي فقال القائمقام: يا مولانا لأي شيء ما شرفتنا؟ فقلت له: المقام مقامك يا سيدي. ثم قضينا ليلتنا في راحة حتى انفلق الصبح.

(الصالحية)

وتوجهنا نحو الصالحية[٣] فأتيناها قبل الظهر، وقيلنا فيها وبردنا بالظهر.

(الميادين)

وتوجهنا سائرين نحو الميادين[٤]، فبينما نحو سائرين في القيظ واذا باسد له صولة، فجفلت ونفرت الابل منه، ولم نضبط اخطامها، والفرسان معنا غائرون[٥]، فزادها جفلاً ونفوراً، فلما سكنت الابل وخيل الجنود، قلت[٦] لولدي: السلامة، وهو كذلك يقول: السلامة يا ابتي.

فلما وصلنا الميادين، استقبلنا القائمقام شاكر افندي بالترحيب والتبجيل، فانزلنا في مكان داره ـ وكان خير المنزلين ـ وجرت بيننا المنادمات الى المغرب، فلما جن الليل قدمت لنا مطايانا [و] سرنا نحو الدير.

(الدير)

ثم سرنا ليلنا كله، وكانت[٧] الابل تخفضنا طوراً وترفعنا طوراً، لان الارض نجد ووهاد، فلما انفلق الصبح اتينا الدير صباحاً، وانخنا مطايانا بباب المتصرف السيد محمد علي باشا ابن السيد شريف، فلما دخلت عليه قام على قدميه مرحباً، وقال لي: من اين القدوم يا مولاي؟ فقلت له: من بغداد. فقال: مع من اتيت؟ فقلت له: انا وولدي مع فرسان مرافقين معنا من مرحلة الى مرحلة، فقال لي: الى اين الذهاب؟ فقلت له: الى القسطنطينية العظمى. [قال]: وعلى اي طريق تذهب، على[٨] طريق حلب او على طريق الشام؟ فقلت له: على طريق الشام. فقال لي: اما ذهابا على طريق الشام لا يمكن السلوك فيه الآن لان الزمان قيظ وحر شديد. فقلت له: يا سيدي، لابد [ان] اذهب من هذا الطريق، فاطرق برأسه[٩] ثم رفعه، وقال: عليّ بابن هديب العكيلي. فاتى بابن هديب، فقال له: الشيخ يريد الذهاب على طريق صنخنة، فقال: ياسيدي: بوجود همتكم يمكن هذا، الفرسان الذين[١٠] نركبهم معه يحملون الماء، ثم امر بخمسة فرسان فقال لهم: توصلوه الى القريتين، وبعدما جلسنا معه خمس ساعات قدمت لنا مطايانا وركبناها وتوجهنا نحو الشام، وارفق معنا ابلاً حاملة الماء لنا وللفرسان، وكان المسير ليلاً فسرنا ليلتنا ونهارنا. وذهبوا مسرورين، فلما انقضى النهار ومد الليل اطنابه امر شيخ الحمل بالرحيل.

(تدمر)

فرحلنا سائرين في البيداء ليلنا مع نهارنا الى ان اتينا تدمر، فانخنا خارجها، فلما نظرت اليها فاذا هي بلدة عظيمة، ورأيت بعض دورها خاوية على عروشها وبعضها قائمة على حالها. ورأيت الى الاساطين منها صنف ابيض وصنف احمر وصنف ازرق وهي من الرخام. يا لها من بلدة! واكثر ما قال المؤرخون انها لسليمان ابن داود. ثم اتى جار الله شيخ تدمر اليَّ وقال لي: يا سيدي ادعوك للمضيف حتى نتبرك فيك، فذهبت معه للمضيف وبت ليلتي في ارغد عيش، وكان فيها خطيباً، فقال لي: تبقى ههنا في رمضان حتى نستفيد منك، فقلت له: لا يمكنني يا اخي. فقال لي: تشرف[١١] يا سيدي علينا بكم موعظة، فكتبت له موعظات لاربع[١٢] جمع.

(عين قباقب)

واتينا الى عين قباقب، وهي محل كرامة اجدادنا، فروينا مطايانا وكذلك الفرسان اوردوا خيلهم، فمضينا سائرين اربعاً وعشرين ساعة.

(صخنة)

واتينا صخنة، ورأينا الحمل ناشخاً هناك، ورأينا[٣٣] خيمة مضروبة خارج القرية، فانخت بباب الخيمة، فخرج من بابها[٣٤] رجل مع خدامه فاذا هو العثمان العكيلي شيخ الحمل. فبعدما حيّانا باحسن تحية اقبل[٣٥] الفرسان اليَّ يقبلون اياديَّ، يقولون: هل ترخصنا ولمشي مع الحمل، اونذهب معك الى القريتين، فقلت لهم: لكم الرخصة، لان بقيت اربع مراحل للابل، فهذه الاربع مراحل نسير مع الحمل، فقبلوا يديّ وذهبوا مسرورين.

(ابو الفوارس)

ثم رحل الحمل واناخ بابي الفوارس، وهو بمسافة ساعة عن تدمر، فقمنا نحن وصلينا الصبح، وركبنا مطايانا وتوجهنا نحو ابي الفوارس فلما وصلنا الحمل رأينا[٣٦] الخيمة مضروبة حول البئر. وهذا المكان ذو[٣٧] ابار وقنوات، وكذلك هذه، من آثار سليمان، فمنها معطلة ومنها غير معطلة يشرب[٣٨] منها ابناء السبيل، وهذا المكان واقع بين جبلين، وهو مفازة يسمونه الدوة، وهو الى القريتين بمسافة[٣٩] عشرين ساعة. ولكل جبل فيه بعض عيون يبطل منها الماء لكن لا يخرج الى مكان، وانا اخذت الاسطرلاب لازن[٤٠] بعض الارض التي يخرج منها الماء، وهي قابلة للتعمير لكن محتاجة الى قوة دولة.

(القريتين)

ثم رحلنا نحو القريتين[٤١]، فسرنا يومنا وليلتنا، فلما وصلناها نزلنا عند شيخ القرية فياض اغا، وهي قرية ذات اشجار واثمار، فيها تفاح[٤٢] وكمثرى لم ار مثله لا في بغداد ولا في الشام ولا في جميع الدنيا. ثم فارقنا الحمل وسار معنا فياض اغا، وهو رجل جليل تنجب له النجائب، فشيعنا كم ساعة[٤٣] وودعنا وسيرّ معنا فرساناً حافظين لنا.

(سدوم وعطنة)

فسرنا اتينا سدوم، وهي بلدة قوم لوط، طولها ثلاث ساعات وعرضها ساعتين، وبقربها قرية يقال لها عطنة، فقالوا لي: يا سيدي ننزل في هذه القرية للاستراحة؟ فقلت لهم: لا انزل في هذه القرية لانها قرية قريبة من قرى الذين ظلموا، الا تتأسى بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لانه في غزوة تبوك لما اتى الى مدائن صالح قال: لا تناموا فيها ولا تجلسوا فيها واذكروا الله لانها ديار الذين ظلموا. ثم الحوا عليَّ فاتيت شيخ القرية مصطفى الغزال، فانخنا مطايانا عند بابه، وهو مع بنت له خماسية يقبلها ويلاعبها، فقلت له: ما هذا التقبيل لعلها زوجة لك، قال: هذه بنتي، ثم رجعت رفقتي، وقالوا لي: ما هذا التقبيل؟ فقلت لهم: لعله تقبيل كرامة، لا يظن بالمسلم الا هذا. ثم قلت لهم: اركبوا مطاياكم حتى نخرج من هذه القرية لانها قرية بقرب قرية لوط.

(جرود)

فركبنا مطايانا وسرنا حتى اتينا جرود[٤٤]، فنزلنا عند محمد اغا الجرودي، فلم يكن، بل كان نسيبه فارس اغا التنصري، فقام بضيافتنا واكرمنا واحسن مثوانا، وهو رجل كريم حاتمي الصفات عنتري[٤٥] الشجاعة ذو عقل ودراية. وجرت المنادمة بيننا الى الصباح.

(دوما)

وركبنا متوجهين نحو دمشق، فطال علينا المسير، فنزلنا دون دمشق في دوما[٤٦] عند القاضي الشيخ محمد سعيد افندي، وهو سبط الجابي محمد افندي، وهو يفصل [بين] الخصوم في دار الحكومة. فلما سمع بنا اتى مهرولاً، فحيانا بتحية القدوم، وجلسنا

معه، وجرت المنادمة بيننا فقلت له: يا اخي اسألك عن محمد افندي الجاي، كيف حاله؟ قال: هو جدي. فقمت اليه وقبلت بين عينيه، وقلت له: ذاك اخي، وابن ابن بنت اخي[٦٦]. ثم رجعت الكلام عليه. وقلت له: ما حاله الآن؟ فقال لي: وهن العظم منه لكن لم يكن بدعاء ربه شقياً. ثم اقمنا عنده تلك الليلة مع اناس عنده من اهل الشام خارجين للنزهة، فلما انفلق الصبح سرنا الى دمشق.

(دمشق)

فدخلناها، ثم اتينا الصالحية، فانخنا مطايانا عند باب الوالي مدحت باشا[٦٧]، فدخلت عليه، فقام على قدميه وقال: اهلاً بالشيخ احمد اللحافي.. ثم سألني على اي طريق سلكت، فقلت: سلكت[٦٨] طريق الشامية، وقلت: يا مولاي كذبت كذبات على العرب ترهيباً لهم قلت لهم الوزير مدحت باشا باعث عليَّ، ثم ضربني على يدي تلطيفاً، وقال: لله درك [من] رجل داهية زمانه. فالتفتُ الى ولدي وقلت: يا بني هذا تأويل رؤياي من قبل، قد جعلها ربي حقاً، فجرت المنادمة بيننا برهة من الزمان، ثم خيرني وقال لي: ياشيخ اين تريد ان تضيف، هل تريد ان تضيف ههنا، او في بيت سعيد باشا، او في بيت المفتي؟ فقلت له: ضيافتي تكون عند سعيد باشا لان بيننا حقوقا قديمة، فاتينا الى دار سعيد باشا فجلسنا فيها، وكان الرجل يتنزه في جنينة له، فلما سمع بنا اتى مبادراً الينا، ثم قال لي: يا مولاي قدومك إلي نعمة غير مرتقبة، الحمد لله الذي مَنَّ[٦٩] بقومك عليَّ. ثم قال لي: يا سيدي الرخصة لاستقبال المشير الذي جاء من استانبول. فقلت له: ومن يكون المشير؟ فقال: مشير العراق سابقاً حسين فوزي باشا، فزادني سروراً بقدومه، ثم اخذت استراحتي برهة من الزمان، ثم ذهبت اليه فدخلت عليه في المقصورة، فوجدته جالسا مع احمد ايوب باشا المشير[٧٠] السابق، فلما رآني قام ناهضاً على قدميه وهو يرطن بالتركي، ومعناه بالعربي: اهلاً وسهلاً بقدومك علينا، فاجلسني عن يمينه وولدي جالس[٧١]. فقال: من هذا الغلام الذي معك؟ فقلت هذا ولدي شقيق عبد الحليم، فقال: ما رايته في بغداد، فقلت له: يا مولاي، هذا كنز مخفي، اذ وجد عبد الحليم اختفى، واذا لم يوجد عبد الحليم ظهر، فضحك المشيران. ثم قال: الى اين الذهاب؟ فقلت له: الى القسطنطينية، فقال: صم رمضان ههنا. فقلت: اصوم في القسطنطينية، فقال احمد ايوب باشا رطنة بالتركي معناها بالعربي: تريد ان تشتت رمضان، فقلت له: يا مولاي، هذا كلام اهل العراق قبلك.. ثم قال لي المشير حسين فوزي باشا: كيف يكون ولدك عبد الحليم، وعلى اي حال يكون وهو على هوسه القديم في نشر العلوم، فقلت له: بل يزيد على ذلك يا سيدي. فقال لي: اكتب له من لساني لا يفتر عن سعيه. ثم نمت منه ذاهباً الى دار الضيافة، وكان اليوم يوم الجمعة اول رمضان[٧٢]، ثم اخذت راحتي، ثم بعد برهة من الزمان، واذا بالشيخ السيد عبد القادر افندي نجل المرحوم السيد مراد افندي الكيلاني اتى اليَّ فحياني بتحية القدوم، وسررنا[٧٣] بقدومه غاية السرور واستأنسنا معه وقتاً من الزمان، فذهب الى داره، وانا ذهبت الى الجامع[٧٤] الاموي فرايت شيخاً على كرسي جالساً يعظ الناس[٧٥]، وهو يتكلم في قدوم رمضان .. ثم في اليوم الثالث ذهبنا الى شيخ مسلم الكزبري فدخلت فاذا هو جالس على كرسي فجلست في الحلقة وهو يتكلم .. وفي اليوم الثامن اتيت الى جامع الاموي فودعتهم فرداً فرداً، ودعوا لي بالسلامة وقالوا: راشداً مهدياً. ثم اتيت الى دار ضيافتي. ففطرت مع سعيد باشا فلما مضى برهة من الليل ودعته، وذهبنا الى العربة فركبنا فيها، وقلنا: بسم الله. وودعنا[٧٦] اناس من اهل الشام، وركب[٧٧] معنا اربعة من النصارى، وهم خليل وموسى ومحب كرامة ويوسف، فلما جلسنا واخذنا بالمنادمة فاذا كل واحد منهم افلاطون زمانه. وكان موسى بيده عصا فطفقت استخبره، فقلت له: ما تلك [التي] بيمينك يا موسى؟ فقال: هي عصاي، وعلى قراءة: عصي، اتوكأ عليها واهش بها غنمي ولي فيها مآرب اخرى[٧٨]. ثم قال خليل: اين المكان [الذي] قال [فيه] موسى هذه الآية؟ قلت: في وادي المقدس. ثم قال لي: يا سيدي ما هذا الغلام الذي معك؟ قلت: هذا

ولدي. ثم قال موسى: لا شبه له بك. قلت له: بل هو ولدي وامه عرسي. فقال خليل: لاتنظر الى سمرته [فانما] له شبه بالعينين والوجنتين والمنكبين. ثم قالوا لي: يا مولانا من اي البلاد انت، ومن تكون؟ قلت لهم: انا عراقي [واسمي] الشيخ احمد اللحافي. ثم قالوا: الى اين الذهاب؟ قلت لهم: متوجهاً الى القسطنطينية العظمى والخلافة الكبرى. قال خليل: ياسيدي كيف تسميها الخلافة الكبرى وقال نبيكم ـ صلى الله عليه وسلم ـ الخلافة بعدي ثلاثون ثم تكون امارة او ملكاً عضوضاً؟ فقلت له: الخلافة الكاملة ثلاثون. ثم رجع موسى اليه وقال: صدق الشيخ وبالحق نطق.

(زحلة)

ثم لما اتينا قريب زحلة[٧٩] في جبل لبنان خرج[٨٠] الثلاثة الى زحلة الا موسى [فانه] بقي معنا الى ان اتينا ببيروت.

(بيروت)

فلما اتيناها ونزلنا من العربة قبل يدي [وهو] يقول: العذر من التقصير محروساً راشداً مهدياً، فمشيت الخطا سائراً، وولدي على اثري، واذا الناس يتحدثون[٨١] بان والي الشام الان اتى وقد نزل في دار عمر غزوة، فقلت لولدي: اين منزلنا يكون الليلة؟ فقال: الليلة ننزل الخان. فتوجهنا نحو الخان المسمى خان حمزة فانفردنا بحجرة، ولم ينافسنا احد باجرة. ثم لما جلسنا [قلت له] اذهب فابتع لنا فطوراً، فراح وابتاع لنا فطوراً واتى، فلما فطرنا حمدنا الله، ثم قلت له: يا بني قم نذهب الى والي الشام حمدي باشا[٨٢]، والدار النازل فيها قريبة من الخان لان معنا حقوقاً قديمة. فلما اتينا اليه دخلنا عليه وهو قاعد على الطعام، فجلست ولم اسلم وانا بهيئة السفر بالبسة رثة، لم يعرفني. فقال لي: تفضل الى الطعام، فاشرت اليه بيدي [اني] على كفاية حتى لايعرفني في اثناء تناول الطعام، ثم لما قضى وطره من الاكل والشرب بدأ[٨٣] بغسل يديه. فلما قام من المغسل توجهت[٨٤] اليه وصافحته وحييته بتحية، وهو لم يعرفني، فقلت له: يا سيدي لم تعرفني، فقال: من انت؟ فقلت: انا السيد الشيخ احمد اللحافي، فقال: والله شبهت بك من عينك وانت جالس، ثم بدأ بالترحيب واجلسني عن يمينه، وجرت المنادمة بيننا، فقلت له: يا سيدي لِمْ لَمْ تعرفني؟ قال: يا سيدي مضى قرن من الزمان لم ارك[٨٥] على قول من قال [ان] القرن ثلاثون سنة[٨٦]، وانت طعنت في سن الشيخوخة[٨٧]، وكانت رؤيتي لك وانت كهل[٨٨] وودعناه فبعد برهة من الزمان توجه هو الى الشام، ونحن توجهنا الى الفلك المشحون المنسوب الى نمسة، ورئيس الاول[٨٩] كان [اسمه] بتروفج، وكان مسيحياً[٩٠] ذا عقل ودراية لله دره من رئيس، كان ذا[٩١] عدالة عرفية. ثم لما رآني حياني باحسن تحية، [و] كان معظماً لي ولولدي.

(قبرس ولدس)

ثم بدأت السفينة بالمسير، فقلت: بسم الله مجريها ومرسيها[٩٢] فسارت ليلتها ويومها حتى اتت قبرس، ثم ارست محاذية الى جزيرة قبرس، فبقيت راسية ثماني[٩٣] ساعات، ثم سار الفلك متوجهاً نحو لدس[٩٤]، فلما وصلناها بقي الفلك راسياً ساعتين.

(ازمير)

ثم جرى الفلك، وتوجهنا نحو ازمير، فلما وصلناها بقي الفلك راسياً يوماً وليلة. ثم خرجت منه الى مدينة ازمير انا وولدي نمشي في ازقتها، وننظر يميناً وشمالاً فاذا هي كأنها پارس محل لانه يوجد فيها من جميع المِلل. ثم بقينا نتخطى في ازقتها ساعتين، ثم رجعنا الى الفلك ودخلنا فيه، واذا بقادين خانلى زاده حافظ محمد افندي ازميرلي رأيته داخلاً في الفلك، فنظرت اليه، فاذا هو ذو

عقل ودراية ، فسألته عن فنون كثيرة ، فاجابني . ثم جرت بيننا مذاكرة [في] العلوم ونحن متوجهون نحو جزيرة مدلي[٩٦] فارست السفينة مقدار ساعتين .

(جناق قلعة وكلي بولي)

ثم توجهنا نحو جَنَه قلعه[٩٧] ، وهي متخذة على حافتي[٩٨] البحر ، لله در من اسسها ، وفيها مدافع عظام . ثم جرت السفينة نحو كلي بولي[٩٩] ، فلما اتت رست محاذية البلدة ، وهذه البلدة مدفون فيها محمد افندي اليازجي[١٠٠] تغمده الله بالرحمة . ثم تهيأنا - انا وولدي - وتوجهنا نحو مرقده الشريف ، فقرأنا الفاتحة ، ثم رجعنا الى الفلك .

(القسطنطينية)

وجرى نحو القسطنطينية ، فوصلناها صباح الاثنين السابع عشر [من] رمضان ، ثم خرجنا[١٠١] ، ودخلنا القسطنطينية متوجهين نحو «آيه صوفية» ، فلما اتيناها وضعنا متاعنا عند امامها ، وذهبنا نمشي في ازقة القسطنطينية حتى اتينا جامع بايزيد ، فصلينا الظهر هناك ، ثم ذهبنا الى [جامع] السليمانية لنصلي العصر ، فبعدما انقضت صلاة العصر - وكان في كل من اركانها الاربعة واعظ يعظ[١٠٢] - توجهنا[١٠٣] نحو الركن الشمالي لنسمع واعظه ، واذا بحقي افندي من امراء العسكرية ، وقبل هذا كان في بغداد من المعلمين[١٠٤] [في] مكاتب[١٠٥] الدولة العلية العثمانية . وكانت لنا معه رفقة وصحبة قديمة ، فلما رآني قام على قدميه [و] قبل يدي ، وقبلت ما بين عينيه ، فقال لي : المنزل عندي ، فقلت له : بل ذاهب الى شيخ الاسلام ، فقال : ما يمكن ! يا سيدي هذه الليلة ضيافتك عندي ، وكانت داره في «ابي ايوب الانصاري»[١٠٦] ، ثم خرجنا متوجهين نحو ابي ايوب الانصاري ، فقال لي : يا سيدي نركب في الفلك؟ فقلت له : يا مولاي هذا اليوم خرجت من الفلك [و] لا طاقة لي بالركوب في الفلك لان معي وجع رأس من الركوب في الفلك . فذهبنا نمشي في الطريق ، فاطبقت السماء بالسحاب وانزل الماء من المزن كأفواه القرب . وكان الوقت قيضاً ، فقال حقي افندي : نمضي الى بيت اقارب جمال افندي رئيس مكتب اعدادية بغداد ، فذهبنا الى ذلك المنزل ، وخرج صاحب المنزل وقال : الافطار عندي . فقال حقي افندي : لا يمكن ، اعطنا شمسيات حتى نمضي الى دارنا ، فاتى الينا بشمسيات ، وذهبنا الى داره ، فلما اتينا المنزل تجردنا[١٠٧] عن ثيابنا واتى الينا بثياب لبسناها فبتنا تلك الليلة بارغد[١٠٨] عيش ومسامرة . فلما انفلق الصبح اتى الينا بماء فتوضأنا وصلينا .

ثم توجهنا نحو القسطنطينية ، وهو مشيع[١٠٩] لنا ، حتى خرجنا [عن] دور الايوبية[١١٠] ثم رجع عنا ونحن راجلون حتى دخلنا جامع با يزيد لنصلي العصر . واذا بسيد سلمان افندي نقيب الاشراف القادري[١١١] فلما رآني توسم[١١٢] فيَّ ، فقال : السيد احمد؟ قلت : نعم يا سيدي . فاقبل عليَّ وعانقني ، والناس في الجامع الوف ينتظرون تقبيل اياديه ، فاخذني واجلسني بين يديه وهو يسألني عن احوالي ومجيئي ، فقلت له : يا سيدي بخير . والناس يقولون : ما هذا الصعلوك يعظمه ولم يلتفت الى هؤلاء الوزراء والعلماء المنتظرين الى تقبيل يديه . فقال لي : اذهب الى منزلنا هذه الليلة ، فقلت له : ابغي الذهاب الى شيخ الاسلام هذه الليلة فقال : راشداً مهديا [و] بلغ السلام عليه ، ثم ذهبت اهرع الى نحو داره ، فلما اتيت الى داره دخلتُ[١١٣] على وزيره المسمى الآن بكتخدا ، فقلت له : يا سيدي [اريد] المواجهة مع شيخ الاسلام ، فقال : بعد الافطار . فلما آن وقت الافطار قدموه لنا[١١٤] ، فاتى الى الافطار بذاته شيخ الاسلام ، واقبل كل واحد منا يناوله[١١٥] الطعام ، وهو ينظر اليَّ ويظن اني من المدعوين على هذه السفرة ويتوسم فيَّ[١١٦] ولم يعرفني ، فلما طعمنا انتشرنا عن السفرة ، ثم بعدما توضينا وتوضى شيخ الاسلام ، فلما اتم الوضوء اقبلتُ عليه مصافحاً له ، فنظر الى مستشاره وقال[١١٧] : من يكون الافندي؟ فقال له : من مدرسي[١١٨] بغداد السيد احمد اللحافي . فقال لي : اهلا بك ، ثم

قال: آتوا له بقهوة ودخان. فقلت له: يا سيدي ما ابتليت بالدخان. ثم التفت الى ولدي فقال: ما هذا الغلام الذي معك؟ فقلت له: هذا ولدي وابن عرسي. ثم قال لي: اين [انت] نازل؟ فقلت له: يا سيدي بين السماء والارض، فقال: كل واحد منا بين السماء والارض، فقلت له: ياسيدي انتم لكم منازل، وانا لم يكن لي منزل. فقال: ضيافتك عندي، فقلت له: ياسيدي لا يمكن لان الضيافة ثلاثة ايام. ثم التفت الى درس وكيلي[١١٩] مصطفى افندي [وكان] جالساً عنده، فقال له: هيىء له مكاناً[١٢٠]، فقال لي: في الخرقة الشريفة او في اسكدار؟ فقلت له لا يمكنني لان المحل بعيد، ثم قال: في مدرسة ابراهيم باشا؟ فقلت له: نعم ياسيدي «ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه»[١٢١] فانفردنا منها بحجرة فسكنا فيها اياماً، ثم سمع بنا الشيخ السيد احمد بيا افندي الموصلي فاتى اليّ فقال: ياسيدي كيف تجلس هنا وانا في استانبول وما تنزل عندي؟ قلت له: يا سيدي هذه مدرسة الابراهيمية، قال لي: ياسيدي، التي انا فيها كذلك ابراهيمية. ثم امر بنقل متاعنا الى التكية، وكان هجوعنا في الليل بالتكية وكنا في النهار بالمدرسة وايام التعطيل تذهب الى الاصدقاء، منهم صفوت باشا، ونزهت افندي، والى باب المشيخة، والى رؤوف باشا والى ادرنه، والى قدري باشا صدر اعظم سابق[١٢٢] والى منجم باشي الحاج كامل افندي، والى نصيف باشا ناظر الاوقاف، والى درويش الحيدري، ومن[١٢٣] أشبه ذلك، لاسيما سيدي الشيخ سيد سليمان افندي الكيلاني، فمضت ايام[١٢٤] [وانا] على هذا الدأب. ثم [ان] سيدي سيد سلمان افندي عزم على الرحيل الى بغداد، فاتيته وودعته وقلت له: راشداً مهدياً، وكذلك ودعت اخاه[١٢٥] السيد احمد افندي وكاتب سره ملا حمادي افندي، ففارقته، وتوجهت الى القسطنطينية العظمى فهطلت دموعي على خدّي، فاتيت مكاني وجلست في غرفتي، وناديت[١٢٦] ولدي السيد محمد، فقلت له: يا ولدي آتني بماء، فنظر اليّ متغير اللون، وقال[١٢٧]: يا ابتي ما اصابك؟ فقلت له: يا ولدي فراق سيدي السيد سلمان! فأتاني بماء ممزوج بسكر، فقلت له: ياولدي انا امرتك بماء، كيف تأتيني بماء ممزوج بسكر؟ فقال لي: يا ابتي؛ لما رأيتك متغير اللون خرجت لآتي لك بالماء، فرأيت جمال افندي الحكيم، فقلت له: ان ابي اعتراه[١٢٨] عشق وصبابه لمفارقة سيده سيد سلمان افندي، فقال: اعطه ماءً ممزوجاً بسكر، فلما اخذت الكاس من يد ولدي واوردته على شفتي لم يسغ لي الشراب، وكنت اتجرعه كشارب الحميم، وكان جالساً عن شمالي الشيخ محمد وهبي، وعن يميني الشيخ عبد الغني الطرابلسي، فصببت الكأس عن شمالي وناولته محمد وهبي، فانشد الشيخ عبد الغني الطرابلسي:

صببتِ الكأس عنا يا أم عمرو   وكان الكأس مجراه اليمينا

ثم اتى[١٢٩] امير من العساكر المنصورة فاجلسني، واتكيت على شجرة شمسية فرطن بالتركي [بما] معناه بالعربي: ما دهاك؟ فقلت له: لمفارقة سيدي السيد سلمان افندي: كذلك رطن بالتركي [بما] معناه يحق لك ذلك، فنزل عن فرسه واركبني. وقال لخادمه: اذهب به الى القسطنطينية، ولم اثب عن صهوة الجواد، وكان الخادم يسندني حتى لا اسقط عن الجواد، واتى بي الى المدرسة، فلما انزلني اغمي عليّ. ثم اجتمع عليّ المدرسون[١٣٠] والطلبة، وجاء[١٣١] ولدي محمد فقال: وا ابتاه، فلما[١٣٢] سمعت صوت محمد اتتني الافاقة، ثم قالوا آتوا له بحكيم، فذهب ملا حسن الى باب سر عسكر[١٣٣] واخبر صفوت باشا بذلك. فبعث بالعربة[١٣٤] واركبت فيها، فذهبت الى دار صفوت باشا واذا بالحكيم واقفٌ في الدار ينتظر مجيئي، فمد الحكيم يده الى يدي ونظر الى العرق الضارب، فقال: لمن يكن فيه شيء الا عشق وصبابة، فقال: ارقوه، ونطق محمد: قيل من راق اذا بلغت التراق[١٣٥]. واذا بكريم افندي قال: صدق الطبيب: هي صبابة ومحبة لولده عبد الحليم، ففتحت عيني، ثم تكلم من هناك، الحاج كامل افندي منجم باشي. قال: بلغنا عنك تقول: عاشق لسيدي سيد سلمان افندي، فقلت له: نعم ذاك مجازي وهذا حقيقة، ثم قال محمد: امس البارحة اتانا كتاب من تلقائه فقال: اتوني بالكتاب. ثم ناوله ولدي محمد الكتاب، فاخذت راحتي واندفع عني اعلام العشق والله اعلم[١٣٦].

الهوامش

١) لقب عبد الحليم نفسه بالحافي، او الحافاتي، بحذف اللام الاولى، وعمل ايضا مدرساً في جامع السراي حتى وفاته سنة ١٩٤٢م، وكان يحوز على اصطرلابات منها ثلاثة من البرونز، محفوظة اليوم في المتحف العراقي.

٢) الرحلة، الورقة ١٤

١) في الاصل : السادين ٢) فروق : اسم للقسطنطينية ٣) في الاصل لواليها

٤) الموافق ٩ تموز ١٧٨٩ ٥) البعفور : الضبي، يريد به الجمل الذي كان يركبه ابنه.

٦) جمع قراره ، وهي القرية.

٧ ـ وصف الاب انستاس ماري الكرملي الصقلاوية في اثناء رحلة له سنة ١٨٨٦ بقوله «هي قرية صغيرة، فيها قليل من الخضر تزرع في بساتين صغار بلا اشجار، وبضعة اسواق، وهي مبنية على نهر الفرات على شكل الازج» وقال في الهامش «في الصقلاوية ٢٤٩ نسمة، و ٤٥ داراً، و ٣ خانات و ٤ قهاوي، وهي مديرية الحكم، ليس فيها جامع البتة، وفيها مركز للتلغراف، وبعض اهلها ينامون في دكاكينهم» (مخطوط في مكتبة الدراسات العليا بآداب بغداد، برقم ٢٤٤، الورقة ٨)

٨) اي مدير التلغراف ٩) في الاصل : عساكر ١٠) في الاصل : عشيرت

١١)-١٢) ١٣) في الاصل : يدخلون، تدخلون

١٤) في الاصل : فاخذوا ١٥) في الاصل : بينهما

١٦) الزلاء : الخفيفة الوركين، او هي القوس التي يزل السهم لسرعة خروجه، كناية عن سرعتها في الكلام.

١٧) مراوة فيها مسامير.

١٨) اسم رتبة عسكرية عثمانية مركبة من يوز : مائة، باشي : رئيس، قائد، مقدم،

١٩) في الاصل : فقتلوا ٢٠) جزنا : عامية، معنى تركنا

٢١) طوبال، تركية، وتعني : اعرج ٢٢) في الاصل : يحق

٢٣) حينما مر اللحافي بالرمادي لم يكن قد مضى على اطلاق هذه التسمية غير اربع او خمس سنين، فالرمادي مدينة حديثة سميت بهذا الاسم في عهد الوالي مدحت باشا (١٨٦٩ ـ ١٨٧٢ م) وكانت تسمى قبل ذلك قلعة الرماد نسبة الى تل الرماد الذي يثبت حلب، وهو تل اثري قديم لونه الرماد. فرحان الحديثي: تاريخ الحديثة ٢٦/١

٢٤) هو الشيخ طه بن عبد الرزاق الشواف، كان عالماً تقلد قضاء البصرة مدة طويلة، وتولى التدريس في مدارس بغداد، وكان شاعراً ايضاً. توفي في ١٤ صفر سنة ١٣٢٨هـ/١٩٠ ودفن في مقبرة الحسن البصري في الزبير. ابراهيم الدروبي: البغداديون، بغداد ١٩٥٨، ٣٩

٢٥) في الاصل : قالوا

٢٦) نسبة الى عنزة، كما سيذكر المؤلف، القبيلة المعروفة

٢٧) هو الشيخ عبد الله الفاضل احد شيوخ قبيلة الحسنة احدى القبائل العربية الرحل في منطقة الجزيرة وبادية الشام. عرف بشعره الجزل من نوع (العتابا) الذي صور فيه مأساته الشخصية، من اصابته بالجدري او الجذام، ونبذ قبيلته اياه، ومنهم زوجاته، ثم نجاته، والتحاقه بقبيلته، بعد مكابدات جمة. انظر عن حياته وشعره رضا محسن القريشي: الفنون الشعرية غير المعربة ج٤ (بغداد ١٩٧٩) ٣٣ ـ ٤٦

٢٨) كذا في الاصل. ٢٩) في الاصل : وما نجده ٣٠) في الاصل : اخيه

٣١) في الاصل : يغيق (٣١أ) في الاصل : ولم ٣٢) في الاصل : فتوخنا

٣٣) في الاصل : حبلى (٣٣أ) كذا في الاصل ٣٤) كذا في الاصل

٣٥ مسجد لما يزل قائماً، قريب من شارع الخلفاء، شيده احمد افندي المصرف سنة ١٢٢٧هـ/١٨١٢م، وكانت فيه بعض الحجر ومدرسة وخزانة كتب، (محمود شكري الآلوسي: مساجد بغداد وآثارها، بغداد ١٣٤١هـ، ٧٣)

٣٦) يقع هذا المسجد في طريق لا ينفذ، سمي بشارع المصرف نسبة اليه. وعد في بعض العهود من محلة الباروديه. وليس فيما بين ايدينا من مصادر ما يشير الى محلة بهذا الاسم.

٣٦أ) في الاصل : اقبلوني ٣٧) في الاصل : لما ان ٣٨) في الاصل : فتلقوه

٣٩) انظر سيرة ابن هشام ٣/١٢٢ ـ ١٣٣

٤٠) كانت القائم في اواخر القرن التاسع عشر، تتألف من مخفر للشرطة وخان واسع اتخذ مركزاً للناحية، وهو يقع على ضفة الفرات اليمنى.

٤١) في الهامش (بروسا) ٤٢) هكذا يكتبها المؤلف، والمشهور (البو كمال)

٤٣) بلدة على الفرات، الى الشمال من البو كمال

٤٤) مدينة على الفرات في جنوب دير الزور ٤٥) يريد : هاجرن

٤٦) في الاصل : فقلت ٤٧) في الاصل : وكان ٤٨) في الاصل : الى على

٤٩) في الاصل : طرق رأسه ٥٠) في الاصل : الذي ٥١) لعله يريد : نقل

٥٢) في الاصل : اربع ٥٣) في الاصل : رأينا ٥٤) في الاصل : بابب

٥٥) في الاصل : فاقبلوا ٥٦) في الاصل : فرأينا

٥٧) في الاصل : ذات ٥٨) في الاصل : يشربون

٥٩) في الاصل : وهو بمسافة

٦٠) في الاصل : وزان، ووزن الارض قياس مستوى ارتفاعها

٦١) بلدة الى الشمال الغربي من دمشق، كانت تعد من اعمال حمص. ذكر ياقوت ان بينها وبين تدمر مرحلتان. معجم البلدان ٤/٣٣٦

٦٢) في الاصل : تفاحاً.

٦٢أ) يريد : عدة ساعات

٦٣) بلدة الى الشمال الشرقي من دمشق، قرب صيدنايا

٦٤) نسبة الى عنزة القبيلة المعروفة. ٦٥) بلدة الى الشمال من دمشق.

٦٦) كذا في الاصل : ولعله اراد: ابن بنت اخي

٦٧) تولى دمشق سنة ١٢٩٥ رومية/١٨٧٩م، ولبث فيها سنة واحدة وثماني اشهر (صلاح الدين المنجد: ولاة دمشق في العهد العثماني، دمشق ١٩٤٩، ٩٣) وكان قد تولى ـ قبل ذلك ـ بغداد كما هو معروف.

٦٨) هنا استطراد لا وجه له فحذفناه.

٦٩) في الاصل : من الله ٧٠) في الاصل : شبر

٧١) في الاصل : جالساً ٧٢) ويوافق ٧ آب ١٨٧٩

٧٣) في الاصل : استرينا ٧٤) في الاصل : جامع

٧٥) في الاصل : يوعظ للناس ٧٦) في الاصل : وودعونا

٧٧) في الاصل : وركبوا ٧٨) سورة طه آية ١٨

٧٩) في الاصل : رحلة ٨٠) في الاصل : غرجوا

٨١) في الاصل : يتحدثون الناس

٨٢) هو احمد حمدي باشا والي الشام سنة ١٢٩٢ رومية/١٨٧٦ وفي سنة ١٢٩٦ رومية/١٨٨٠م (ولاة دمشق ٩٣) وكان قد اقام ببغداد سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م حين وجهت اليه رئاسة اركان الفيلق السادس (عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ٧/ ٢٢١، ٢٢٣) ويظهر ان تعرف المؤلف عليه كان في اثناء اقامته تلك

٨٣) في الاصل : فبدأ ٨٤) في الاصل : فتوجهت

٨٥) في الاصل : اراك

٨٦) في الاصل : ثلاثين . وفي الحقيقة فانه لم يكن قد مضى على اقامته ببغداد غير ست سنوات على اكثر تقدير .

٨٧) في الاصل : الشيحوخة . ٨٨) في الاصل : كهلاً

٨٩) لعله يريد : ورئيسه الاول ٩٠) في الاصل : مسيحي

٩١) و ٩٢) في الاصل : قو ٩٣) هود ٤١

٩٤) في الاصل : ثمانية ٩٥) لعلها : رودس

٩٦) جزيرة مقابلة لخليج ادرميد، ازاء الساحل الغربي للاناضول .

٩٧) كذا يكتبها المؤلف، والصحيح : جناق قلعة ، حصن ضخم شامخ في مدخل المضيق المسمى باسمها، النافذ من البحر المتوسط الى بحر مرمرة، وكان يسمى بالقلعة السلطانية.

٩٨) في الاصل : حافتين

٩٩) مدينة شهيرة على الساحل الاوربي لمضيق جناق قلعة.

١٠٠) هو الشيخ محمد بيجان اليازجي، من كبار الصوفية في عصره، من آثاره شرحه لفصوص ابن عربي، و «انوار العاشقين» توفي سنة ٨٥٥هـ.

١٠١) يريد : خرجنا من السفينة

١٠٢) في الاصل : في اركانها الاربعة كل واعظ يوعظ

١٠٣) في الاصل : فتوجهنا ١٠٤) في الاصل : معلمين

١٠٥) في الاصل : المكاتب

١٠٦) محلة شهيرة في القسطنطينية ، كانت تعد يومذاك من ضواحيها

١٠٧) في الاصل : فتجردنا ١٠٨) في الاصل : بارقد

١٠٩) في الاصل : شيئاً

١١٠) محلة ابي ايوب الانصاري التي تقدمت الاشارة اليها

١١١) هو السيد سلمان بن علي بن سلمان القادري، نقيب اشراف بغداد، ولد سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م ودرس العلوم في المدرسة القادرية ببغداد، وتبوأ وظائف قضائية عدة، وفي سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م اختير نقيباً للاشراف ومتولياً للاوقاف القادرية، وتوفي سنة ١٣١٥هـ/١٨٩٧م. محمد صالح السهروردي: لب الالباب ١ (بغداد ١٩٣٣) ١٢٨ وابراهيم الدروبي: البغداديون ٦

١١٢) في الاصل : فتوسم ١١٣) في الاصل : فدخلت

١١٤) في الاصل : قدموا لنا الافطار ١١٥) في الاصل : بناول

١١٦) في الاصل : يتسوم في ١١٧) في الاصل : فقال

١١٨) في الاصل : مدرسين

١١٩) اي وكيل الدرس ، وهو الموظف المختص بالاشراف على شؤون التعليم الديني وكالة عن شيخ الاسلام الذي يرتبط به هذا النوع من التعليم آنذاك .

١٢٠) في الاصل : مكان ١٢١) البقرة ١٣٠

١٢٢) في الاصل : سابق صدر اعظم ١٢٣) في الاصل : وما

١٢٤) في الاصل : اياماً ١٢٥) في الاصل : اخيه

١٢٦) في الاصل : فناديت ١٢٧) في الاصل : فقال

١٢٨) في الاصل : لقد اعتراه

١٢٩) هنا كلام للمؤلف في وصف شوقه الى السيد سلمان القادري، فحذفناه .

١٣٠) في الاصل : اجتمعوا على المدرسين ١٣١) في الاصل : ثم

١٣٢) في الاصل : ثم لما ١٣٣) سر عسكر: قائد الجيش ١٣٤) في الاصل : العربة

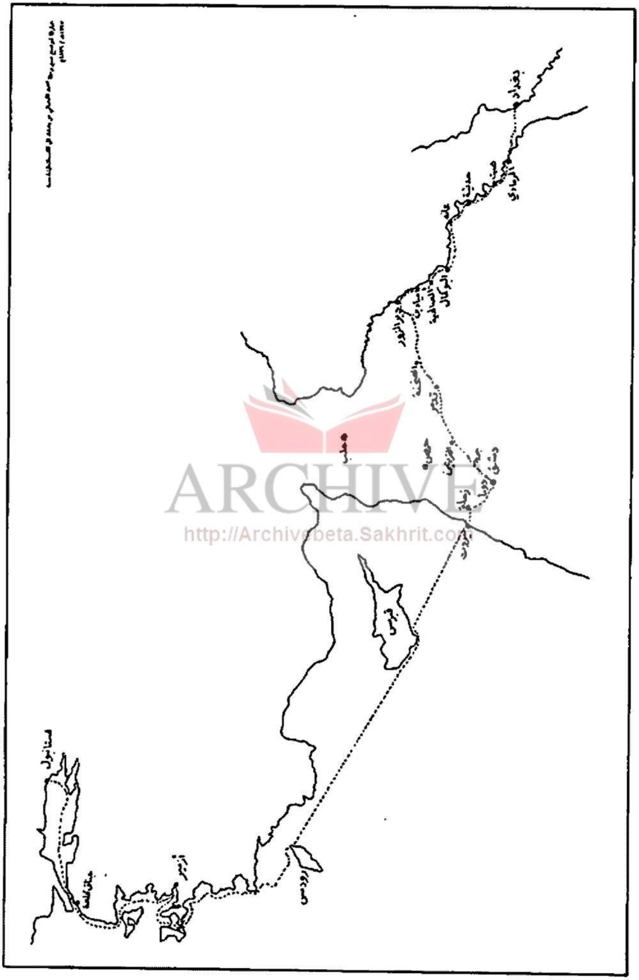
١٣٥) اشارة الى الاية ٢٦ ـ ٢٧ من سورة القيامة «واذا بلغت التراقي، وقيل من راق»

١٣٦) في آخر المخطوط تعليقه للناسخ احمد شمس الدين الآلوسي هي:

«قد كتبت هذه الرحلة على نسخة المؤلف التي املاها وصنفها ذو الفضل الوافي، والادب الوافر الكافي ، السيد احمد افندي اللحافي، كما عليه مسودة الاصل من املاء وتحرير واعراب وبناء وتقرير وتسطير، غير انه عليه الرحمة لم يعنون رحلته بديباجه كاشانها جرياً على عادة نظائرها واشكالها، وذلك اما كان سهواً منه وتكاسلاً، او تسويفاً وتماهلاً، واني طالما سمعت منه يذكرها تبجحاً بها ، والى ما حوته من اللطائف مشيراً ومنبهاً، فاحببت ان اعنونها بديباجة جرياً على العادة لتكون عند ذوي الالباب مرغوبة مستجادة، وذكر ابياتاً في تقريضها، فيها شطب وتعديل.

* * *

الشهداء... معنا في عيد مدينة الفداء وبوابة النصر العظيم.


بغداد
البوكمال
حلب
حمص
دمشق
قبرص
رودس
أزمير
استانبول

«ببليوغرافيا» عن الرحلات التي قام بها اصحابها الى العراق

اعداد
كوركيس عواد
المجمع العلمي العراقي

تمهيد :

هذا بحثٌ واسعٌ فسيح الأرجاء ، متشعب الجوانب ، امضينا في تتبّع مواده زمناً طويلاً ، وراجعنا في سبيل ذلك ما لا يُحصى من مؤلفاتٍ عربية قديمة وحديثة ، ويدخل في ذلك : الكتب والمجلات والصُحُف . وبين الكتب ما كان مخطوطاً او مطبوعاً ، وبينها ما كان مؤلفاً بالعربية ، او منقولاً اليها من لغاتٍ اخرى : شرقية او غربية .

رتبنا هذه المواد جميعاً . وفق السياقة الهجائية لعناوينها ، ثم ذكرنا اسمَ المؤلف : وسنةَ وفاته ان كان قد تُوفي ، ونوهنّا بعنوان الرحلة ، ومظانّ وجُودِها إن كانت مخطوطة ، ومحلّ وسنة طبعها إن كانت قد طُبعت . وأشرنا الى غير ذلك من البيانات والايضاحات التي تُفصح عن امرها .

ورأينا ، التماساً للاختصار ، أن نتخذ في هذا البحث ، الرموز الآتية :

ت تُوفي ، المتوفى سنة

جـ جزء .

خ خارطة .

د دكتور .

دت دُون تاريخ (أي أنّ الكتاب غير مؤرخ) .

ص صفحة .

ط طبعة . (ط٤ = طبعة اولى ، ط ٢ : طبعة ثانية) .

طر طبع بالرونيو .

ظ انظره .

ع عدد

ل لوح . لوحة .

م سنة ميلادية .

مط مطبعة . (المط = المطبعة) .

هـ سنة هجرية .

والله من وراء القصد .

ـ الآثار النفسية للرحلة البغدادية عند رَهين المحبَسَينْ : (أبي العلاء المعَري) .

بقلم : يُسرى محمد سلامة .

مجلة «الاقلام» (بغداد ١٩٦٩) جـ ٨ ، ص ٤ ـ ١٢) .

ـ ابو العلاء في بغداد .

تأليف : طه الراوي ، ت ١٩٤٦ .

(مط التفيض الاهلية ـ بغداد ١٩٤٤ ؛ ٧٢ص) .

رحلة ابي العلاء المعرّي الى بغداد .

- احوال البصرة في اواخر القرن التاسع عشر.
بقلم: د. شرف الدين بن عارف.
ترجمة: حسين علي الداقوقي.
(مجلة «الاخاء» قارداشلق» ٨ (بغداد ١٩٦٨) ع ٣، ص ١ - ٣، ع ٤ - ٥، ص: ١ - ص).

- احوال بغداد في القرن التاسع عشر.
بقلم: وليم بيري فوك.
ترجمة: عبود الشالجي.
(مجلة «سومر» ١٦ (بغداد ١٩٦٠) ص ١٣ - ٢٤).

- احوال العراق في القرن التاسع عشر.
بقلم: وليم بيري فوك.
ترجمة: عبود الشالجي.
(مط الرابطة - بغداد ١٩٦٠). مستل من «سومر» ١٦ (١٩٦٠) جـ ١ - ٢.

- الاديرة في رحلة الماضي والحاضر.
استطلاع: جميل روفائيل.
تصوير: محمود علي حسن.
(جريدة «الثورة». بغداد ٣/٥/١٩٧٨، ص٦).
رحلة الى: دير مارمتّى، دير ماربهنام، دير مار كوركيس، دير مار اوراها، دير السيدة، دير الرّبان هرمزد، الدير الكهنوتي بالدورة.

- اربعون سنة في مُهمته: ١٨٥٨ - ١٨٩٨م.
وهي رحلة الاب مارية يوسف الكرملي الى العراق، واقامته فيه حتى وفاته سنة ١٨٩٨، وقد كان رئيس بعثة الاباء الكرمليين في العراق.
تأليف: الاب بطرس الاسباني.
نقلها الى العربية: الاب انستاس ماري الكرملي، ت ١٩٤٧، وجعلها بتوقيع مستعارٍ له، وهو «ساتسنا» مقلوب «انستاس» وقد طبعت هذه الترجمة العربية بعنوان: «ترجمة حياة الاب ماري يوسف، رئيس الرسالة الكرملية ببغداد من سنة ١٨٥٨ الى سنة ١٨٩٨».
(المط السريانية - بغداد ١٩٢٨؛ ١١٩ص).

- ارجوزة في الرحلة
تأليف: نجيب الدين علي بن محمد بن علي العاملي، وتُعرف ايضاً بـ«الرحلة المنظومة». وهي في نحو الفين وخمسمائة بيت، نظمها حين كان يطوف بلاد اليمن والحجاز وايران والهند والعراق. ظ: الذريعة الى تصانيف الشيعة: للشيخ اغا بُزُرك (١: ٤٧٤، ١٠: ١٦٧ الرقم ٣١٣).

- ارجوزة في الرحلة الى المَشْهَدَين: الحائر الشريف والكاظمين، وذكر ما رآه من عادات بعض مجاوريها.
تأليف: مهدي بن علي بن محمد الغريفي، ت ١٩٢٤.
ظ: الذريعة (١: ٤٧٤، الرقم ٢٣٦٢).
الاعلام: للزركْلي (٧ «ط٤» ص ٣١٤).

- اسبوع المعارف في النجف.
(مجلة «الغري» ٤ (النجف ١٩٤٣) ص ٥٢٠ - ٥٣١).
رحلة وفد الثقافة من بغداد الى النجف، سنة ١٩٤٣، وقد كان مؤلفا من: ابراهيم سلامة، محمد محمود غالي، محمد مبروك نافع، يوسف مجلي، المستر ملر، المستر هستد، المستركيتن، محمد حسن سلمان.

- اسبوعان في العراق.
بقلم: رياض عبد الله حلّاق.
(مجلة «الضاد» ٢٩ (حلب ١٩٧٩) ع ٤؛ ص ٤١ - ٤٨).

- اسبوعان في العراق.
بقلم: محمد قره علي.
(ضمن كتابه: «رأيتُ وسمعتُ». مط الكشاف - بيروت ١٩٥١؛ ص ٢٥٧ - ٣٠٠).

أُقدّم اصدقائي العرب.
تأليف: جون فانيس، ت ١٩٤٩.
ترجمة: جليل عمو.
(مط بغداد - بغداد ١٩٤٩؛ د+٣٤٦ ص).
عاش المؤلف مدةً طويلة في البصرة. وعنوان كتابه بالانكليزية:
VAN Ess (JOHN), MEET THE ARAB. (LONDON, 1947)

ـ الى بغداد.

وهي رحلة الدكتور زكي مبارك الى العراق، سنة ١٩٣٧.

(ظ. كتاب: «زكي مبارك». تأليف: فاضل خلف. ص ٥٨ ـ ٨٤).

ـ الى عاصمة الرشيد.

وهي رحلة الى بغداد، بقلم الخوري الاسقُفي، اغناطيوس سعد،

(مجلة «الشهباء» ٨ (حلب ١٩٣٣) ص ٢٩٥ ـ ٣٠٠، ٣٤٤ ـ ٣٤٨).

ـ الى العراق.

(دار العودة ـ بيروت ١٩٧٧؛ ١١٦ص).

سلسلة: «رحلات الى الوطن العربي».

ـ الى عُكْبَرى وقنطرة حَرْبَى (في اواسط العراق).

بقلم: د. مصطفى جواد، ت ١٣٨٩ هـ=١٩٦٩م.

(مجلة «لغة العرب» ٨ (بغداد ١٩٣٠) ص ٣٢١ ـ ٣٢٤).

(المط العصرية ـ القاهرة ١٩٣١؛ ١٠٤ص).

في رحلة: «مارية تريزا اسمر» العراقية، الى لبنان، في اواسط القرن التاسع عشر

ـ امين الريحاني في العراق.

تأليف: روفائيل بُطي، ت ١٩٥٦.

(مط دار السلام ـ بغداد ١٩٢٣؛ ٢٢٨ ص).

ـ الانبار حين زُرتُها عام ١٩٤١.

بقلم: حسن الامين.

(مجلة «العرفان» ٦١ (١٩٧٣) ص ٨٧٤ ـ ٨٧٦).

ضمن بحث «الانبار»، المنشور في نفس المجلة، ص ٨٧١ ـ ٨٧٦.

ـ اهوار العراق: لؤلؤة العراق الساحرة.

بقلم: غافين يونغ.

(مجلة «المختار»، كانون الاول ١٩٨٠؛ ص ٣٦ ـ ٤٦).

ـ الاهوار عرس الماء.

تحقيق وتصوير: معد فياض.

(مجلة «كلّ العرب». ع ١٤٩ (باريس ٣ تموز ١٩٨٥)

ص ٣ ـ ١١).

رحلة الى الاهوار في جنوبي العراق.

ـ ايام بغداد.

رحلة الى العراق، تأليف: امين سعيد، ت ١٩٦٧.

(مط عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ١٩٣٤؛ ٢٧٤ص).

ـ ايام فِلْبي في العراق.

رحلة، ألّفها بالانكليزية: هـ. سنت جون فيلبي، ت ١٩٦٠.

نقلها الى العربية: جعفر خياط، ت ١٩٧٣.

(مط الكشاف ـ بيروت ١٩٥٠؛ ٦٥ ص).

ـ ايام في كردستان العراق.

بقلم: علي هاشم.

(جريدة «النهار» البيروتية، يوم ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ تموز ١٩٧٤).

ـ البصرة قبل تسعمائة سنة، كما شاهدها الرحالة ناصر خسرو.

بقلم: ميخائيل عواد.

(مجلة «أهل النفط» ٤ (١٩٥٥) ع ٤٥ ص ١٨ ـ ٢٠، ٦٥).

ـ بعثة جسني رائد الفرات في العقد الرابع من القرن الماضي.

بقلم: يعقوب سركيس، ت ١٩٥٩.

(مجلة «دار المعلمين العالية» ٢ (بغداد ١٩٤٥) ع ٤١ ص ٩٢ ـ ٩٥).

ـ بغداد: ذكريات ومشاهدات.

تأليف: علي الطنطاوي.

(مط دار الفكر ـ دمشق ١٩٦٠، ١٦٠ ص).

ـ بغداد سنة ١٨١٦ كما يصفها الرحالة الانكليزي بكنغهام.

تلخيص وتعليق: ابن العراق (وهو اسم مستعار).

(مجلة «بغداد» ١ (كانون الاول ١٩٦٣) ع ١٨ ص ٨ ـ ٩، ٣٥).

ـ بغداد العباسية: رحلة في المكان والزمان.

استطلاع : مصطفى نبيل.
تصوير : عبد الناصر شقرة.
(مجلة «العربي»، ع ٢٤١ (كانون الاول ١٩٧٨) ص ٧٢ - ٩٠).

- بغداد في رحلات الاجانب في العهد العثماني.
بقلم : د. علاء موسى كاظم نورس.
(مجلة «المورد» ٥ (بغداد ١٩٧٦) ع ٣؛ ص ١٣ - ٢٤).

- بغداد في رحلة ابن بطوطة.
بقلم : حبيب الراوي.
(مجلة «الكتاب» (التي اصدرتها جمعية المؤلفين والكتّاب العراقيين) ٢ بغداد ١٩٦٣) ع١؛ ص ٨٣ - ٨٧).

- بغدا د في رحلة نيبور.
ترجمة : د. مصطفى جواد، ت ١٩٦٩.
(مجلة «سومر» ٢٠ (١٩٦٤) ص ٤٩ - ٦٨).

- بغداد في سنة ١٥٧٣م، كما يصفها الرحالة الهولندي الدكتور ليونهارت راوولف.
ترجمة وتعليق : سليم طه التكريتي.
(مجلة «المورد» ٥ (بغداد ١٩٧٦) ع ٢؛ ص ٧٤ - ٨٢).

- بغداد في سنة ١٨٥٣م.
للرحالة الانكليزي : جيمس فليكس جونز.
ترجمة : عبد الوهاب الامين.
(مجلة «المورد» ٣ (١٩٧٤) ع١، ص ٣١ - ٤٦؛ ع٢، ص ٦٧ - ٨٠).

- بغداد في القرن السابع عشر كما وصفها الرحالة الفرنسي تافرنيه.
نقلها الى العربية : بشير فرنسيس، وكوركيس عواد.
(مجلة «الرابطة» ١ (بغداد ١٩٤٤) ع٢؛ ص ٤١ - ٤٢).

- بغداد في كتابات الرحالة الاجانب.
(جريدة «العراق»، بغداد ١٩٨٣/٥/٧؛ ص ٧).

- بغداد في كتب البُلدانيين والرحالة العرب.
جمع وتحقيق : كوركيس عواد.
(مخطوط ، مُعَد للنشر).

- بغداد كما شاهدها الرحالة العرب.
بقلم : يعقوب افرام منصور.
(جريدة «الثورة»، بغداد ١٩٨٦/٨/٢٨؛ ص ٤٧. وهي الحلقة الثالثة من سلسلة: «بغداد بين الماضي والحاضر» التي تصدر باشراف : حميد المطبعي.

- بغداد كما وصفها الرحالة الانكليزي ويستلد سنة ١٨٤٠.
بقلم : د. عماد عبد السلام رؤوف.
(مجلة «صوت الاسلام» ٢ (بغداد ١٩٦٦) ع ٦٢؛ ص ٨ - ١٠).

- بغداد كما وصفها السوّاح الاجانب في القرون الخمسة الاخيرة.
نقلها من الالمانية الى العربية: سُعاد هادي العمري، ت ١٩٧٢.
(مط دار المعرفة - بغداد ١٩٥٤؛ ١٢٢ص).

- بغداد كما يصفها الرحالة الانكليزي الشهير بكنغهام.
بقلم : ابن العراق (وهو توقيع مستعار).
(مجلة «بغداد» ١ (بغداد ١٩٦٣) ع ٧؛ ص ٤ - ٧).

- بغداد: مدينة الاقواس.
تحقيق : شربل داغر.
تصوير : حميد العراقي.
(مجلة «كل العرب»، ع ١٠٥ (باريس : ٢٩آب ١٩٨٤) ص ٣ - ٩).

- بغداد : مشاهدات وذكريات.
تأليف : علي الطنطاوي.
(دمشق ١٩٦٠؛ ١٦٠ ص).

- بلوغ غاية الاشواق في ذكر السفر الى ارض العراق.
تأليف : القاسم بن الحسين العزّي.
منه نسخة خطية في صنعاء باليمن . راجع :
١ - فهرس مخطوطات المكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء : لمحمد سعيد المليح، واحمد محمد عيسوي. (الاسكندرية ١٩٧٨؛ ص ٦٢٩، الرقم ٥١) (جغرافيا)، الورقة ١٦٥ - ١٨١).

٢ ـ حميد مجيد هدّو، في فهرسه: «مخطوطات عربية من صنعاء» الرقم ٢٦٥٢(٣).

٣ ـ عبد الله محمد الحبشي، في كتابه: «مَراجع تاريخ اليمن» دمشق ١٩٧٤؛ ص ٦٣). قال إنّ منها نسخة مخطوطة ضمن مجموع برقم ٩٦ في المكتبة المتوكلية بصنعاء.

ـ بَيرسِفي: القرية والهدوء والمناظر الخلابة.

بقلم: جالاك.

(جريدة «العراق». بغداد ١٩٧٨/٦/٢٩؛ الصفحة الاخيرة). جولة في هذه القرية الجميلة القريبة من بلدة زاخو في شمالي العراق.

ـ بين آثار البصرة القديمة واطلالها.

بقلم: امين سعيد، ت ١٩٦٧.

(مجلة «الرابطة العربية» ١ (القاهرة ١٩٤٦) ص ١٠٠٠ ـ ١٠٠٢، ١١١٢ ـ ١١١٣ و ١١١٨).

ـ بين بغداد وطُوس.

تأليف: احمد حامد الصرّاف، ت ١٩٨٥.

(رحلة مخطوطة. ذكرها في آخر الطبعة الثالثة من كتابه «عُمَر الخيّام»)

ـ بين الخَوَرْنَق والسَّدير.

بقلم: محمد علي اليعقوبي، ت ١٩٦٥.

(«ديوان اليعقوبي» ١ (مط النعمان ـ النجف ١٩٥٧) ص ٩٦ ـ ٩٧). قصيدة فائية، قالها حين اجتاز باطلال الخورنق الواقعة بين النجف والحيرة ونشرت في جريدة «النجف» سنة ١٣٤٣هـ.

ـ بين دجلة والفرات.

قصيدة تائية، نُشرت بتوقيعٍ مستعار، وهو «ابن العراق».

(مجلة «المقتطف» ٣٣ (١٩٠٨ ص ٢٥ ـ ٢٧).

ـ بين دجلة والفرات وعلى ضفاف الخابور.

بقلم: الاب يوحنا دَوْلَبَاني، ت ١٩٦٩.

(مجلة «الحكمة» ٥ (القدس ١٩٢٨) ص ٤٨٥ ـ ٤٨٨).

ـ بين الشام والعراق.

بقلم: علي ناصر الدين.

(ضمن كتابه: «هكذا كُنّا نكتب» ١ (بيروت ١٩٥٢) ص ٢١٤ ـ ٢٤٤).

ـ بين الشام والعراق.

(مجلة «المقتبس» ٩ (١٩١٤) ص ٥٣).

ـ بين ضفاف دجلة وعنادل النيل.

تأليف: ابراهيم الواعظ، ت ١٩٥٨.

رحلة، ذكرها في جملة مؤلفاته المخطوطة، في غلاف كتابه: «أسبوعياتي».

ـ بين النهرين: دجلة والفرات.

وهي رحلة في العراق، تأليف: محمد علي الحَوْماني، ت ١٩٦٤. افرغها في رسائل، بعث بها الى عبد الله العلايلي.

(مط الكشافة ـ بيروت ١٩٤٦؛ ٣٨٥ ص).

ـ تأليف الرحّالة (عن ريّ العراق).

للدكتور احمد سوسه، ت ١٩٨٢.

(ضمن كتابه: «المصادر عن ري العراق». مط الحكومة ـ بغداد ١٩٤٤؛ ص ٨٧ ـ ١٣١).

ـ تأثير الاسفار على التراث الشعبي في الموصل.

بقلم: عبد الغني الملّاح.

(مجلة «التراث الشعبي». ع ١ (١٩٧٦) ص ١٠٥ ـ ١١٠).

ـ تاريخ حَمّام علي، او ثلاث ليالٍ فيها.

تأليف: اسماعيل فرج، ت ١٩٤٨.

(مجلة «الجزيرة» ٣ (الموصل ١ شباط ١٩٤٩) ع ٣٤؛ ص ٤).

ـ تجَوّل بطريرك السريان الارثوذكس: اغناطيوس الياس الثالث في قُرى الموصل.

(مجلة «الحكمة» ٢ (القدس ١٩٢٨) ص ٣٨٩ ـ ٣٩٢).

ـ تحت اقدام شيرو ملكتا: نص سرياني في رحى مار ميخا.

بقلم: بنيامين حَداد.

(مجلة «قالا سُريايا» (الصوت السرياني) ٤ (بغداد: آذار ـ حزيران ١٩٧٧) ع ١٣ ـ ١٤؛ ص ١٠٥ ـ ١١٤) رحلة الى الموقع الاثري المعروف بـ «شيرو مَلكتا» الكائن في غربي بلدة القوش، من اعمال الموصل بالعراق.

ـ تحقيقات بلدانية ـ تاريخية ـ اثرية في شرق الموصل.

بقلم : كوركيس عواد.
(مجلة «سومر» ١٧ (بغداد ١٩٦١) ص ٤٣ ـ ٩٩). ثم افرد في كتاب. (مط الرابطة ـ بغداد ١٩٦١؛ ٥٧ ص).
ـ تسعة ايام في بغداد.
بقلم : د. زكي مبارك، ت ١٩٥٢.
(ضمن كتابه: «الاسمار والاحاديث». القاهرة ١٩٣٩؛ ص ٢٠٢ ـ ٢٦٧).
ـ تطواف في جوار بغداد والمدائن.
بقلم : فرنسيس جبران، وهي رحلته سنة ١٩١١.
(مجلة «لغة العرب» ٣ (بغداد ١٩١٣) ص ١٣٦ ـ ١٤١).
ـ تعالوا معي الى البصرة.
بقلم : علي البصري.
مقالات في رحلته الى البصرة، نشرها في جريدة «الحوادث» البغدادية.
ـ تعليق على ترجمة رحلة جس بكنغهام الى العراق عام ١٨١٦.
بقلم : عبد الله امين اغا.
(مجلة «بين النهرين» ١ (الموصل ١٩٧٣) ص ٣٦٩ ـ ٣٧٤).
ـ تقريظ على الرحلة الحسينية التي وضعها محمد حسين بن حمد الحلي.
تأليف : محمد مهدي البحراني النجفي، ت ١٩٢٥.
لم يُطبع، ذكره علي الخاقاني، في كتابه «شعراء الغري» (١٠ (النجف ١٩٥٦) ص ١٣٣).
ـ الثغر الباسم.
قصيدة رائية، نظمها علي الشرقي، ت ١٩٦٤، حين زار البصرة سنة ١٩٣٣.
(ضمن ديوانه : عواطف وعواصف». مط المعارف ـ بغداد ١٩٥٣؛ ص ١٣٥ ـ ١٣٦).
ـ ثلاث ساعات في الاخيضر.
بقلم : عبد الرزاق الحسني.
(مجلة «المرشد» ٤ (بغداد ١٩٢٩) ص ٤٤٧ ـ ٤٥١).
ـ ثلاثة اعوام في بغداد (١٩٢٠ ـ ١٩٢١ ـ ١٩٢٢).

بقلم : سليمان فيضي، ت ١٩٥١.
(ضمن كتابه : «في غمرة النضال». بغداد ١٩٥٢؛ ص ٢٣١ ـ ٢٧٣).
ـ ثلاثة ايام في حَمّام العليل.
تأليف : اسماعيل فَرج، ت ١٩٤٨.
(رحلة ، لم تطبع).
ـ الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء.
الفه بالفرنسية، المستشرق شارل بلّات CH. PELLAT نقله الى العربية: د. ابراهيم الكيلاني.
(مط فتى العرب ـ دمشق ١٩٦١؛ ح +٤٧٠ ص).
ـ جامع الخِضر . . . والرحّالة.
بقلم : هاني حمدي احمد
(مجلة «الجامعة»، تُصدرها جامعة الموصل ٣ (الموصل ١ حزيران ١٩٧٣) ع ١٧؛ ص ٣٢ ـ ٣٩).
يتناول بالبحث ، «جامع الخضر» في الموصل، واقوال الرحالين فيه.
ـ جولات تاريخية بين مَوَاطن الآثار في شمالي العراق.
تأليف : طه باقر، ت ١٩٨٤.
(بغداد ١٩٧٩ ، ٢٥ ص).
مستل من «مجلة المجمع العلمي الكردي».
ـ جولة استطلاعية في مَوَاطن الآثار في الالوية الشمالية.
للدكتور ناجي الاصيل ، ت ١٩٦٣.
(«سومر» ٥ (بغداد ١٩٤٩) ص ٣٠٦ ـ ٣٢١).
ـ جَولة داخل المصايف (العراقية) الجميلة.
تحقيق: هالة البدري.
تصوير : عبد الله حَسون.
الصور الملونة: حليم الخطاط.
(مجلة «الف باء» ١٠ (٣ آب ١٩٧٧) ع ٤٦٣؛ ص ١٨ ـ ١٩).
ـ جولة في الالوية : البصرة.
تأليف : ضاري ابراهيم.
(مط الصباح ـ بغداد ١٩٤٩ ؛ ١٤٠ص).

- جولة في انحاء القائم.

بقلم : صبري شكري.

(مجلة «سومر» ٦ (بغداد ١٩٥٠) ص ٢٤٤ - ٢٤٨).

القائم : بلد عراقي في اعالي الفرات، قرب الحدود العراقية السورية.

- جَولة في الاهوار.

تأليف ، محمد حسين فوزي، وابراهيم جاسم القرملي.

(مط اسعد - بغداد ١٩٦٨؛ ٤٨ص).

- جولة في ديار التركمان في العراق.

تأليف : احمد خليل رشيدية لي.

مخطوط ، ذكره المؤلف في مجلة «الاخاء - قاردا شلق» (٨ بغداد ١٩٦٨) جـ ١ - ١٢ ص٦٧) . وانظر هذه المجلة ايضاً (١٠ (١٩٧٠) ع ٧ - ٨؛ ص ٣) .

- جولة في رُبُوع الشرق الادنى: بين مصر وافغانستان.

تأليف : محمد ثابت، ت ١٩٥٨ .

(ط ١: مط سعد - القاهرة ١٩٣٤؛ ١٩٤ ص.

ط ٢: مط لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٥٢؛ ٢٨٤ص. العراق - الافغان - الاناضول - الشام .

- جولة في ربوع عراق التراث وعراق العصر.

تأليف : ابراهيم مهدي الشبلي.

(بغداد ١٩٧٩؛ ٨٨ص).

- جولة في الفرات الاوسط.

بقلم : ع. ح. (= عبد الرزاق الحسني).

(جريدة «الفضيلة». الاعداد ٧ و ٨ و ٩ الصادرة في بغداد، يوم ١١ و ١٨ و ٢٥ تشرين الاول ١٩٢٥).

- جولة كنائس الموصل القديمة.

بقلم : ماهر حربي.

(مجلة «الفكر المسيحي» ٢٢ (شباط ١٩٨٦) ع ٢١٢؛ ص ٧٤ - ٧٩) .

- جولة في لواء العمارة.

بقلم : علي الخاقاني، ت ١٩٧٩ .

(مجلة «البيان» ٢ (النجف ١٩٤٧) ص ٦٨٥ - ٦٨٨) .

- جولتي في الالوية (العراقية) البصرة.

تأليف : ضاري ابراهيم.

(مط الصباح - بغداد ١٩٤٩؛ ١٤٠ ص) .

- جولتي في الالوية (العراقية) : العمارة.

تأليف : ضاري ابراهيم.

(ط ١ : مط شط العرب - البصرة، دت؛ ٤٨ص.

ط ٤ : مط اللواء - بغداد ١٩٥٠؛ ١١٠ص).

- الحاج ركان : عرب الاهوار.

تأليف : «فُلانين». وهو اسم مستعار لمؤلفي هذا الكتاب، وهما: المستر هجكوك وزوجته MR. AND MRS. S. E. HEDGE-COCK وقد توفي المستر هجكوك سنة ١٩٦٦.

نقله من الانكليزية الى العربية : د. جميل سعيد، د. ابراهيم شريف. (مط العاني - بغداد ١٩٦٦؛ ٢١٩ص).

رحلة المؤلفين الى منطقة الاهوار في جنوبي العراق، وقد وصفا فيها احوالها الاجتماعية.

- حلاوة الفراق في العراق.

تأليف : عبد الحميد اللاذقي.

(مط صادر - ريحاني: بيروت ١٩٤٤؛ ٨٤ص).

(يصف رحلته الى العراق.

- الحياة في العراق منذ قرن (١٨١٤ - ١٩١٤).

تأليف : بيير دي فوصيل.

ترجمة : د. اكرم فاضل.

(بغداد ١٩٦٨؛ ١٨٤ ص).

- خاطرات مسافر.

تأليف : ياسر ابو الغربان.

(بغداد ١٩٥٠؛ ٥٨ص).

- خلاصة سَفَر المستر انطوان نوريس كروفس، ووصوله الى بغداد وإقامته فيها.

لم تطبع . منها نسخة خطية في ٨٦ص، في مكتبة الدراسات العليا بجامعة بغداد، منقولة بالألة الكاتبة، لم يذكر فيها اسم

المترجم ، وقيل لي انه الاستاذ عَبود الشالجي .

ـ خمسة عشر يوماً في البصرة.

بقلم : علي الخاقاني ، ت ١٩٧٩ .

(مجلة «البيان» ١ (النجف ١٩٤٧) ص ٦٣٢).

ـ ٢٥ يوماً في الاهوار.

بقلم : عبد القادر اسماعيل.

نشرها بين سنة ١٩٣٣ و ١٩٣٦ في جريدة «الاهالي» لصاحبها كامل الجادرجي ، ثم جمعها في كتاب طُبع في بغداد.

ـ ٥٠ صحفياً ومصوراً وباحثاً في ضيافة اهل الكهف.

استطلاع : إنعام كجه‌جي.

تصوير : محمود علي حسن.

(جريدة «الثورة». بغداد ٢٥ شباط ١٩٧٦).

هذا الكهف ، يُسمى «كهف كونه با». ويقع بالقرب من سد دربندي خان. فيه بحيرة خلابة ، وصخور متكلسة رائعة الجمال.

ـ خواطر في النجف والكوفة وكربلاء.

تأليف : عباس العزاوي ، ت ١٩٧١.

(مخطوط ، في المتحف العراقي ، برقم ٢٣٣٥٥).

ـ دار السلام في حياة ابي العلاء المعري.

للدكتورة عائشة عبد الرحمن (= بنت الشاطىء) .

(بغداد ١٩٦٤).

ـ النَشتَة.

تأليف : عبد الرحمن بن محمد العيدروس، ت ١٧٠١م . وهو كُنّاش في مجلد ضخم ، دوّن فيه رحلته الى الحجاز والعراق وغيرهما ، وفنوناً مختلفة من الادب والتاريخ . انظر: الاعلام لخير الدين الزركلي (٣ (ط٤) ص ٣٣٢).

ـ دير مار بهنام لدى الرحّالة.

بقلم : د. عماد عبد السلام رؤوف .

بحث القي في الاحتفال عام ١٩٨٥ ، بمناسبة مرور ١٦ قرناً على تاسيس هذا الدير الاثري ، القائم في شرق الموصل .

ـ ذكريات عن زيارتي الى اهوار العراق: رحلة فوق زَوْرَق من قصب وسط طبيعة عبر نهر الفرات

بقلم : حسن الامين.

(مجلة «السياحة» ٤ (بيروت ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨) ع ٤٧ ـ ٤٤٨ ص ١٦ ـ ١٨).

ـ ذكريات عن العراق .

تأليف : عبد اللطيف يونس.

ـ ذكريات عن وادي الفرات عام ١٩١٦ .

تأليف : احمد وصفي زكريا، ت ١٩٦٤ .

حققها ونشرها : عبد القادر عَيّاش ، ت ١٩٧٤ .

(دير الزور: سورية ١٩٦٨، ٥٦ ص).

ـ ذكرياتي في سُوق الشيوخ .

تأليف : مصطفى الفائزي آل طعمة .

(مخطوطة).

ـ الرحالة ابن جُبير في العراق.

بقلم : عبد اللطيف نوري .

(مجلة «البيان» ٢ (النجف ١٩٤٨) ص ١٢٠٤ ـ ١٢٠٥).

ـ رحالة عرب والرتبع زاروا وادي الفرات .

تأليف : عبد القادر عَيّاش، ت ١٩٧٤ .

(طُبع في دير الزور، د.ت. ظ: الاعلام للزركلي ٤ (ط٤) ص ٤٢).

ـ الرحّالة الفرنسي اوليفييه (G. A. OLIVIER) يصف بغداد عام ١٧٩١م .

ترجمة وتقديم : د. يوسف حَبي .

(مجلة «المورد» ١١ (بغداد ١٩٨٢) ع ٤ ص ١٧ ـ ٢٦).

ـ الرحالة المؤلفة : المس بل.

بقلم : يوسف رزق الله غنيمة، ت ١٩٥٠ .

(مجلة «لغة العرب» ٤ (بغداد ١٩٢٦) ص ١٣٣ ـ ١٣٦).

يُكتب اسم هذه الرحالة الانكليزية ، بصورة:

GERTRUDE MARGRRET LOWTHIAN BELL. (1868 — 1926).

ـ الرحالة النرويجي (هيردال) وسفينته دجلة .

(مجلة «الخليج العربي». يصدرها «مركز دراسات الخليج

العربي: جامعة البصرة، ع ٩ (آذار ١٩٧٨) ص ١٣٩ ـ ١٤١).

نُشر هذا التحقيق اولاً في مجلة «الف باء» الاسبوعية.

ـ الرحالة النرويجي هيردال يستعد للابحار من القرنة.

(جريدة «العراق». بغداد ٧/١١/١٩٧٧، ص ٨).

(القرنة: بلدة تقع عند اقتران نهري دجلة والفرات في جنوبي العراق.

ـ رحالة هولندي في العراق.

بقلم: مير بصري.

(مجلة «الاقلام» ٦ (بغداد: آذار ١٩٧٠) جـ ١٦ ص ٩٢ ـ ٩٥).

هذا الرحالة هو: تنكو مارتينوس ليكلاما انيهولت، وقد زار العراق في اواسط القرن التاسع عشر، ويكتب اسمه بالافرنجية:

JONKHEER TINCO MARTINUS LYCKLAMA A NIJEHOLT.

ـ الرحالون في العراق.

بقلم: الأب انستاس ماري الكرملي، ت ١٩٤٧، وقد نُشرت غُفلاً من اسمه. (مجلة «دار السلام» ٣ (بغداد ١٩٢٠) ع ١٢٣، ص ٣٥٨ ـ ٣٦٠).

ـ رحلات.

تأليف: عبد الوهّاب عزّام، ت ١٩٥٩.

(١ ـ ٢، مط الرسالة ـ القاهرة ١٩٣٩ ـ ١٩٥١، ٨ + ٣٦٨، ٤٢٤ص).

وصف فيها رحلاته الى البلاد العربية والاسلامية: الحجاز، العراق، الشام، تركية، وقد بدأها عام ١٩٢٩.

ـ رحلات احمد الصافي.

بقلم: سلمان هادي الطعمة.

(ضمن كتاب: «احمد الصافي: شاعر العصر» مط العاني ـ بغداد ١٩٨٥، ص ١١٦ ـ ١٣٠).

توفي احمد الصافي النجفي، عام ١٩٧٧.

ـ رحلات الى سوريا والعراق.

بقلم: عزيز المصري، ت ١٩٦٥.

نشرها في «السياسة الاسبوعية» من صحف القاهرة. ظ: انور الجندي: «اضواء على الادب العربي المعاصر». (القاهرة ١٩٦٩، ص ٧٨).

ـ رحلات الى العراق.

بقلم: امين سعيد، ت ١٩٦٧.

(جريدة «البلاغ». القاهرة: نوفمبر ١٩٣٣). ظ: انور الجندي: «اضواء على الادب العربي المعاصر». (ص ٧٨).

ـ رحلات الى العراق.

تأليف: سر وَلِيْس بَدْج، ت ١٩٣٤.

نقلها الى العربية وقدم لها وعلّق عليها: فؤاد جميل، ت ١٩٧١.

(جـ ١: مط الزمان ـ بغداد ١٩٦٦، ٣٨٤ ص. جـ ٢: مط شفيق ـ بغداد ١٩٦٨، ٣٢٨).

اصل الكتاب بالانكليزية، وعنوانه.

BUDGE (E.A. WALLIS), BY NILE AND TIGRIS: A NARRATIVE OF JOURNEYS IN EGYPT AND MESOPO — TAMIA ON BEHALF OF THE BRITISH MUSEUM BETWEEN THE YEARS 1886 AND 1913. (2 VOLS., LONDON, 1920)

وما نقله المترجم، يخص رحلات بَدْج في العراق.

وراجع ما كتبه الشيخ جلال الحنفي، بشأن الترجمة العربية، في مجلة «الاديب» (٢٩ (بيروت ١٩٧٠) جـ ٥ ص ٤٢ ـ ٤٤).

ـ رحلات البارون اوبنهيم الالماني في سورية وحلب والعراق.

بقلم: عيسى إسكندر المعلوف، ت ١٩٥٦.

(مجلة «الآثار» ٣ (زحلة ١٩١٣ ـ ١٩١٤) ص ١٩ ـ ٢١، ١١٩ ـ ١٢٢، ٢٢٤ ـ ٢٢٥، ٣٠٩ ـ ٣١٢).

ـ الرحلات الداخلية في عهد الاتراك من بغداد الى الجبال الشرقية بطريق الكوت ومنها الى جهات بدرة وجصان ثم الى وادي باكسايا والعودة بالطريق نفسه الى مدينة الناصرية بالمنتفق ومنها الى ميدان حرب الشُعيبة.

تأليف: الشيخ محمد رضا الشبيبي، ت ١٩٦٥.

(لم تطبع).

- رحلات سبستياني الى العراق في القرن السابع عشر.

نقلها من الايطالية الى العربية : الاب الدكتور بطرس حداد.

(مجلة «المورد» ٩ (بغداد ١٩٨٠) ع ٣، ص ١٦٧ - ٢١٢).

عنوان الاصل الايطالي:

SPEDITIONI ALL' INDAIE ORIENTALI DI MONSIGNOR SEBASTIANI. (2 VOLS., ROMA, 1666 — 1672).

- رحلات السيد محسن الامين.

تأليف : السيد محسن الامين العاملي، ت ١٩٥٢.

(نشرتها : دار الغدير للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، دت؛ ٢٨٠ص).

تشتمل على : رحلتين الى الحجاز، ورحلة الى العراق؛ ورحلة الى ايران؛

- رحلات الشمال الى كركوك ومنها الى الزاب الكبير ومنابعه.

تأليف الشيخ محمد رضا الشبيبي، ت ١٩٦٥.

(لم تطبع).

- رحلات في انحاء الموصل.

تأليف : كوركيس عواد.

وهي سبع رحلات قصيرة، قام بها سنة ١٩٣٠ - ١٩٣٤م ولم تطبع.

- رحلات في ربوع كردستان.

بقلم : احمد مرزوق.

القسم الثاني : رحلة السليمانية.

(جريدة «التآخي» بغداد ١٤/٤/١٩٧١؛ ص ٣ و ٦).

- رحلات في الوطن العربي : الى العراق.

(دار العودة - بيروت ١٩٧٧؛ ١١٧ص).

- رحلاتي الى البلاد العربية: العراق - الكويت - البحرين - الاردن.

تأليف : فريد مخلوف.

(دار الروائع - بيروت ١٩٥٩؛ ٢١٨ص).

- رحلة الاب فنشنسو الى العراق (القرن السابع عشر).

تأليف : الاب فنشنسو مارية دي سانتا كاترينة دي سيينا.

نقلها من الايطالية الى العربية: الاب الدكتور بطرس حداد.

(مجلة مجمع اللغة السريانية ١ (بغداد ١٩٧٥) ص ١٧٩ - ٢٠٣). ثم افردت في رسالة. ونشرت بقية هذه الرحلة في مجلة «المورد» (٥ (ع ٣: بغداد ١٩٧٦) ص ٧١ - ٨٩).

- رحلة الاب لويس شيخو من بيروت الى الهند : نقد ما ورد فيها عن بغداد.

بقلم : الاب انستاس ماري الكرملي، ت ١٩٤٧.

(مجلة «لغة العرب» ٢ (بغداد ١٩١٣) ص ٥٧٢ - ٥٧٦).

- رحلة ابن يحيى العراقي الكردي.

تأليف : محمد طه بن يحيى بن سليمان بن محمد العراقي الكردي، من اهل القرن ١٢ هـ = القرن ١٨م.

طوّف في مدن الاكراد العراقية، والشام ، ومصر.

(مخطوطة في دار الكتب المصرية برقم ٤٨٠ جغرافيا).

- رحلة ابي طالب خان الى العراق واوربة سنة ١٢١٣هـ = ١٧٩٩م.

نقلها من الفرنسية الى العربية: د. مصطفى جواد، ت ١٩٦٩. (مط الايمان - بغداد ١٩٦٩؛ ٤٣٢ص).

- رحلة ابي الطيب المتنبي من مصر الى الكوفة.

بقلم : احمد رمزي.

(مجلة «الرسالة والرواية» ١٩ (القاهرة ١٩٥١) ص ١٢٢١ - ١٢٢٤، ١٢٧٨ - ١٢٧٩).

- رحلة ابي العلاء المعّري الى بغداد.

بقلم : عبد العزيز الميمني الراجكوتي: ت ١٩٧٨.

(ضمن كتابه «ابي العلاء وما اليه». المط السلفية - القاهرة ١٣٤٤هـ؛ ص ١٠٢ - ١٧٢).

- الرحلة الاخيرة التي حصلت لمؤلفها عبد الرحمن بن ابراهيم المصري، وهي رحلة الشتاء والصيف، مُذ برح من بغداد الى ان عاد اليها سنة ١٣٢٨ - ١٣٢٩هـ.

(مط الآداب - بغداد ١٣٢٩هـ؛ ٦٠ص).

ـ رحلة الى آثار دير المعلق (في شمال مدينة «بَلَد» المندرسة، المسماة اليوم «اسكي موصل»).

بقلم: المطران غريغوريوس بولس بهنام، ت ١٩٦٩.

(مجلة «لسان المشرق» ٣ (الموصل ١٩٥١) ص ٢١٤ ـ ٢٢٠). جَرَت هذه الرحلة في ١٣ نيسان ١٩٥١.

ـ رحلة الى البصرة وجوارها.

(مجلة «المقتبس» ٨ (دمشق ١٩١٣) ص ٤٤٣).

ـ رحلة الى بغداد.

بقلم: المطران غريغوريوس بولس بهنام، وقد نشرت غُفلاً من اسمه.

(مجلة «المشرق» ١ (الموصل ١٩٤٧) ص ٧٩٩ ـ ٨٠١).

ـ الرحلة الى بغداد سنة ١٨٣٤م.

تأليف: ج بيلي فريزر

نقلها الى العربية: جعفر خيّاط، ت ١٩٧٣.

(اعدها للنشر في مناسبة احتفالات بغداد والكتدي سنة ١٩٦٢).

ـ رحلة الى بغداد سنة ١٣٦٠هـ = ١٩٤٠م.

بقلم: مصطفى الشهابي، ت ١٩٦٨.

(«الشذرات». بيروت ١٩٦٦؛ ص ٢٨٧ ـ ٣١٨).

ـ رحلة الى بلاد الرافدين.

تأليف: محمد بن علي الاكوع الحوالي.

(ورد ذكرها في نشرة «اخبار التراث العربي». ع ٩٧ الصادر في ١/١١/١٩٧٦؛ ص ٢).

ـ رحلة الى بلاد الهند، ابتداءً من الموصل فبغداد فالبصرة سنة ١٨٦٣ والعودة اليها سنة ١٨٦٥.

تأليف: المطران قورلس بولس دانيال، ت ١٩١٦.

منها نسخة، بخط المؤلف، لدى الاستاذ سُهيل قاشا في الموصل، ضمن مجموع لمؤلف الرحلة (ص ٢٤ ـ ٦٤). ولم تُطبع.

وقد نوّه فيليب طرازي بهذه الرحلة، في كتابه: «اصدق ما كان من تاريخ لبنان وصفحة من اخبار السريان» (٢ (بيروت ١٩٤٨) ص ٣٥١).

ـ رحلة الى جبال المكارية سنة ١٨٨٥.

تأليف: الاب شموئيل جميل، ت ١٩١٧.

ذكرها المطران سليمان الصائغ، في «تاريخ الموصل» (٢: ٢٧٧)

ـ رحلة الى الحيرة.

تأليف مهدي بن علي البحراني، ت ١٨٢٧.

ظ: الذريعة ١٠: ١٦٩؛ الرقم ٣٣٠.

ـ رحلة الى رجال شُجعان في كردستان.

تأليف: دانا آدمز شمدت.

تقديم ويليام و. دوغلاس.

نقلها الى العربية وعلق عليها: جرجيس فتح الله.

(دار الطليعة ـ بيروت ١٩٧٢؛ ٤٦٤ ص).

ـ الرحلة السهلة.

ارجوزة، نظمها: محمد سعيد بن محمود الحكيم النجفي، المعاصر، في نحو ١٨٠ بيتاً. (ظ: الذريعة ١٠: ١٦٧ ـ ١٦٨، الرقم ٣١٦) قلنا: السهلة، مسجد بالكوفة. انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، مادة «السهلة».

ـ رحلة الى شفاثا وقصر الاخيضر واحمد بن هاشم.

للاب انستاس ماري الكرملي، ت ١٩٤٧.

(مجلة «لغة العرب» ٣ (بغداد ١٩١٣) ص ٢٥ ـ ٣٩).

ـ رحلة الى عبرتا.

بقلم: محمد جاسم البهرزي.

(مجلة «صوت الاسلام» ٤ (بغداد ١٩٦٨) ع ٢٧ ـ ٢٨: ١٥ شباط ١٩٦٨، ص ٢٦ ـ ٢٧؛ ع ٢٩ ـ ٣٠: ٢٩ شباط ١٩٦٨، ص ١٨ ـ ١٩؛ ع ٣١ ـ ٣٢: ٢٨ آذار ١٩٦٨، ص ٢٦؛ ع ٣٣ ـ ٣٤: ١٥ نيسان ١٩٦٨، ص ٢٦ ـ ٢٧؛ ع ٣٥ ـ ٣٦: ٢ أيار ١٩٦٨، ص ٢١ ـ ٢٢).

جاء في معجم البلدان (٣ (ليبسك ١٨٦٨) ص ٦٠٤): «عَبَرْتا: قرية كبيرة من اعمال بغداد، من نواحي النهروان، بين بغداد وواسط».

ـ رحلة الى العتبات المقدسة.

بقلم: د. صلاح الدين المنجد.

(مجلة «البلاغ» ١ (بغداد ١٩٦٦) ع ٢ ؛ ص ٧٧ - ٨٥)

- رحلة الى العراق.

بقلم : احمد امين ت ١٩٥٤ .

(ضمن كتابه : «حياتي»، ط٢ : دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٧١؛ ص ٢٢٧ - ٢٣٢).

- رحلة الى العراق .

تأليف السيدة : دْيولافوا.

ترجمة : علي البصري .

قدّم له: د. مصطفى جواد.

(مط اسعد - بغداد ١٩٥٨؛ ١٨٦ص).

- رحلة الى العراق (سنة ١٩٤٤).

تأليف : مصطفى الشهابي، ت ١٩٦٨.

(رسالة طُبعت في دمشق سنة ١٩٤١، كملحق للجزء الثالث من المجلد الثاني لمجلة «دمشق» (١٩٤١) ص ٢١٨).

ونُشرت في «محاضرات المجمع العلمي العربي» ٣ (دمشق ١٩٥٤) ص ٣٣١ - ٣٦٢).

- رحلة الى كركوك.

للمطران بولس بهنام ، ت ١٩٦٩.

(مجلة «لسان المشرق» ١ (الموصل ١٩٤٩) ع ٦ - ٧؛ ص ٧٧ - ٨٠).

- رحلة الى الكوفة.

تأليف : مهدي بن علي البحراني، ت ١٨٢٧ .

ظ : الذريعة ١٠ : ١٦٩، الرقم ٣٣). وفيها ذكر فضل مسجد الكوفة.

- رحلة الى ما بين النهرين في مطلع القرن التاسع عشر .

تأليف الرحالة الانكليزي: وليم هود WILLIAM HEUDE . نقلها الى العربية، عن الترجمة الفرنسية لها ، المنشورة في باريس سنة ١٨٤٠م، ووضع حواشيها وعناوينها: الاب ألبير أبونا. (مجلة «بين النهرين» ٢ (الموصل ١٩٧٤) ع ١٥ ص ٧٥ - ٩٦).

- رحلة الى النجف.

تألي : ابي الثناء شهاب الدين محمود الألوسي، ت ١٨٥٤ .

منها نسخة خطية، في ورقتين، ضمن مجموع، برقم ٢٤٢٧٢[٣]، في مكتبة الاوقاف العامة ببغداد - ظ: عبد الله الجبوري: فهرس المخطوطات العربية في مكتبة الاوقاف العامة ببغداد (٤ (بغداد ١٩٧٤) ص ٤٤٩ - ٤٥٠، تسلسل ٢٤٣ تاريخ).

- رحلة الى النجف الاشرف.

بقلم : محمد هاشم عطية .

(مجلة «البيان» ٢ (النجف ١٩٤٧) ص ٨٩١ - ٨٩٢).

- رحلة اولياء جلبي في العراق.

ألفها بالتركية اولياء چلبي، وعنوانها: «اولياء جلبي سياحَتْنا ملسي» القسم المتعلق منها بالعراق، نقله الى العربية: يعقوب نَعّوم سركيس، ت ١٩٥٩، ولم يطبع.

- رحلة اوليفيه الى العراق.

نقلها : الاب الدكتور يوسف حَبّي، الى العربية.

- رحلة اوليفيه: القسم الخاص بالموصل.

نقلها من الفرنسية الى العربية: د. داود الجلبي، في سنة ١٩٥٣، ولم تُنشر، منها نسخة خطية في مكتبة الاوقاف العامة بالموصل (خزانة الدكتور داود الجلبي). راجع: سالم عبد الرزاق احمد: فهرس مخطوطات مكتبة الاوقاف العامة في الموصل (٦ الموصل ١٩٧٧) ص ١٨٩)، وما ذكره د. فيصل دبدوب، في ترجمته للدكتور داود الجلبي في «مجلة معهد المخطوطات العربية» ١٣ (القاهرة ١٩٦٧) ص ٧ الرقم ١٠).

- رحلة ايناتًا الى اريدو.

بقلم : د. عبد الهادي الفؤادي.

(مجلة «سومر» ٢٧ (بغداد ١٩٧١) ص ٥٣ - ٦٢).

- رحلة بترو ديْلا ڤاله الى العراق في مطلع القرن السابع عشر للميلاد.

نقلها الى العربية: الاب الدكتور بطرس حداد.

(جاهز للطبع).

- رحلة البحارة الشجعان.

تأليف محمد شاكر السبع .

(مط الشعب - بغداد ١٩٨٥؛ ٩٦ص).

قصة حقيقية وقعت احداثها على نهر دجلة، سنة ١٩٤١.

ـ رحلة البطريرك اغناطيوس افرام الاول برميوم الى العراق.

(«النشرة السريانية لابرشية حلب السريانية الارثذكسية» ١ (١٩٤٥) ص ٤٤٩ ـ ٤٥٣).

ـ رحلة البطريرك اغناطيوس الياس الثالث الى العراق.

(مجلة «الحكمة» ٢ (القدس ١٩٢٧) ص ١٥٣ - ١٦٢).

ـ رحلة بغداد.

تأليف : ابي القاسم بن زين العابدين بن كريم.

(مط السعادة ـ كرمان ١٣٧١هـ؛ ٨٢ص).

ـ الرحلة البغدادية.

تأليف : عبد الله السويدي، ت ١١٧٤ هـ = ١٧٦١م.

نسخنها الخطية ، لدى الاسرة السويدية في بغداد.

ـ رحلة بكنكهام الى العراق سنة ١٨١٦م.

بقلم : سليم طه التكريتي.

(مجلة «بغداد». ع ٢١ (آب ١٩٦٥) ص ١٣ ـ ١٥).

ـ رحلة بكنكهام : وصف بغداد.

تأليف : الرحالة الانكليزي : ج. س. بكنكهام، ت ١٨٥٥.

ترجمة : محمد علي حلاوي.

(مجلة «سومر» ١٠ (١٩٥٤) ص ٢٦٧ ـ ٢٧٩؛ ١١ (١٩٥٥) ص ٨٥ ـ ٩٥).

وكان سليم طه التكريتي، قد ترجم هذا الفصل بشيء من التلخيص، ونشره في مجلة «بغداد». (ع ٧ و ٨ لسنة ١٩٦٣).

ـ رحلة بنيامين.

للرحالة الاندلسي بنيامين التطيلي، وقد قام برحلته في حدود سنة ١١٦٥ ـ ١١٧٣م.

نقلها من العبرية الى العربية وعلق عليها: عزرا حداد، ت ١٩٧٢.

(المط الشرقية ـ بغداد ١٩٤٥، ٢٣٦ ص).

تتصدرها مقدمة كتبها عباس العزاوي، ت ١٩٧١.

ـ رحلة البيتوشي الاولى (سنة ١١٧١ هـ) الى الاحساء ورجوعه الى كردستان.

بقلم : محمد الخال.

(ضمن كتابه : «البيتوشي». (مط المعارف ـ بغداد ١٩٥٨؛ ص ٢٣ ـ ٢٨).

ـ رحلة البيتوشي الثانية (سنة ١١٨٠ هـ) الى الاحساء ونزوله في البصرة ورجوعه الى كردستان للمرة الثانية.

بقلم : محمد الخال.

(ضمن كتابه : «البيتوشي». ص ٢٨ ـ ٣٠).

ـ رحلة البيتوشي الثالثة (سنة ١١٨٨ هـ) الى الاحساء ونزوله بالبصرة.

بقلم : محمد الخال.

(ضمن كتابه : «البيتوشي». ص ٣١ ـ ٣٥).

ـ رحلة تايلر الى العراق (سنة ١٧٨٩ ـ ١٧٩٠م).

نقلها الى العربية: الاب الدكتور بطرس حداد.

(مجلة «المورد» ١١ (بغداد ١٩٨٣) ع ١: ص ٢٥ - ٤١؛ ع ٣: ص ٥٧ ـ ٨٤).

ـ رحلة تجارية الى الشرق : البصرة.

بقلم : خليل الاسود.

(«المجلة التجارية السورية الاميركية» ٤ (نيويورك : حزيران ١٩٢٢) ص ١٤ ـ ١٧).

ـ رحلة تشيزاري فيدريجي.

نقلها الاب الدكتور بطرس حداد، من الايطالية الى العربية، وستنشر في مجلة «المورد»، العدد الخاص بالرحلات.

ـ رحلة تقدح زناد العصيان.

تأليف : سليمان فيضي، ت ١٩٥١.

(ضمن كتابه: «في غمرة النضال». بغداد ١٩٥٢؛ ص ٨٩ ـ ٩٦). وهي رحلته سنة ١٩١٠ ـ ١٩١١ الى : البصرة ـ الخليج العربي ـ جدة ـ مكة ـ المدينة ـ دمشق ـ بيروت ـ استانبول ـ العودة الى البصرة.

ـ رحلة تكريت.

بقلم : حسن الامين.

(مجلة «العرفان» ٣١ (١٩٤٢ ـ ١٩٤٥) ص ٤٩١ ـ ٤٩٧).

ـ الرحلة الجوادية الى جسر الكوفة.

تأليف : محمد مهدي البحراني، المتوفى في النجف سنة ١٩٢٥ لم تُطبع. ذكرها علي الخاقاني، في «شعراء الغري» (١٠ (النجف ١٩٥٦) ص ١٣٣).

ـ رحلة حديثة الى الشيخ هادي والرّبان هرمزد.

للمطران سليمان الصائغ، ت ١٩٦١).

(مجلة «المشرق» ٢٠ (بيروت ١٩٢٢) ص ٨٣١ ـ ٨٤٥).

ـ الرحلة الحسينية.

تأليف : محمد حسين الجباوي الحلي، ت ١٩٣٣. وصف فيها رحلته من النجف الى كربلاء سنة ١٩٠٣. نشرها : كاتب الطُّريحي، ت ١٩٠٨.

(مط الحبل المتين ـ النجف ١٣٢٩هـ، ٣٢ص).

ثم نشرها برمتها تقريباً : علي الخاقاني ، ت ١٩٧٩ ، في كتابه : «شعراء الحلة» (٤ (النجف ١٩٥٢) ص ٤٢١ ـ ٤٣٨).

ونوّه بها: محمد هادي الاميني ، في «معجم رجال الفكر والادب في النجف خلال الف عام». (النجف ١٩٦٤، ص ٤٨٠، الرقم ٢٠٧٢).

ملاحظة : الجباوي، نسبة الى محلة الجباويين بالحلة.

ـ الرحلة الحضرية.

قصيدة، نظمها: عبد الصاحب الملائكة، في وصف رحلةٍ قام بها بعض اعضاء جمية المؤلفين والكتاب العراقيين، الى اطلال مدينة «الحضر» في العراق.

(مجلة «الكتاب» ٥ (بغداد ١٩٧٠) ع ٢ ـ ١٣ ص ١٦٣ ـ ١٦٥).

ـ رحلة ديلاّ فاله.

للسائح الايطالي : بترو ديّلا فاله PIETRO DELLAVALLE ت ١٦٥٢.

سائح سياحة واسعة ، استغرقت خمسة اعوام (١٦١٦ ـ ١٦٢١م) ، زار خلالها بلاد اشور وبابل وايران وبعض الاصقاع المجاورة الاخرى.

نقل المطران جرجس دلاّل (ت ١٩٥١) بعض ما يخص بلاد العراق منها ، ونشره في مجلة «نشرة الاحد» التي كانت تصدر في بغداد (اعداد السنة الاولى ١٩٢٢).

كما ان الخوري عبد الأحد جرجي ، السرياني (ت ١٩٥٠)، نشر في تلك المجلة نفسها (١ : ٩٢)، نبذة من رحلة هذا الرحالة ، بعنوان: «السفر من حلب الى بغداد».

ونقل سُعاد هادي العمري (ت ١٩٧٢)، وَصْفَ بغداد حسبما جاء في هذه الرحلة . راجع كتابه: «بغداد كما وصفها السوّاح الاجانب في القرون الخمسة الاخيرة». بغداد ١٩٥٤، ص ١٩ ـ ٢٠).

ـ رحلة ديّلا فالّه الى العراق.

نقلها من الايطالية الى العربية : الاب الدكتور بطرس حداد، واعدها للنشر جرت هذه الرحلة، سنة ١٦١٦ ـ ١٦٢٥م . (راجعها في العدد الخاص بالرحلات من مجلة «المورد».

ـ رحلة ديالى .

بقلم : حسن الامين.

(مجلة «العرفان» ٣١ (١٩٤٢ ـ ١٩٤٥) ص ١٣٥ ـ ١٤٠).

بعقوبة والضواحي. النهروان. الخالص والعنبكة. خانقين. معامل تكرير البترول في حدود ايران. الاياب.

ـ رحلة ريج في العراق عام ١٨٢٠ .

تأليف : لوديوس جيمس ريج .

نقلها الى العربية : بهاء الدين نوري، ت ١٩٦٠ .

(المجلد الاول (ولم يصدر غيره): مط البيك ـ بغداد ١٩٥١، ٢٥ + ٣٥٩ص).

الاصل بالانكليزية، وعنوانه :

RICH (CLAUDIUS JAMES), NARRATIVE OF A RESIDENCE IN KOORDISTAN AND ON THE SITE OF ANCIENT NINEVEH. (2 VOLS., LONDON, 1836).

تعريف ونقد، بقلم : عبد القادر المغربي، ت ١٩٥٦ («مجلة المجمع العلمي العربي» ٢٨ (١٩٥٣) ص ٢٨٩ ـ ٢٩٣).

ـ رحلة السائح الايطالي غسبارو بَلبي ١٥٧٩ ـ ١٥٨٨م.

وصف فيها سياحته من حلب الى العراق ، ماراً بالفلوجة

وبغداد والبصرة نقلها من الايطالية الى العربية: القس (هو المرحوم البطريرك الكلداني) بولس شيخو. ونُسختها الخطية كانت في خزانة يعقوب سركيس ببغداد. ولم تطبع. ولا اعلم اليوم شيئاً عن مصير هذه المخطوطة.

- رحلة سيدي علي رئيس في العراق.

بقلم: عباس العزاوي، ت ١٩٧١.

(مجلة «المعرفة» ٢ (بغداد ١٥ مايس ١٩٦٢) ع ٣٣؛ ص ٤ - ٦، ٣٢).

- رحلة الشتاء في دار السلام.

بقلم: عائشة عبد الرحمن (= بنت الشاطىء).

(مجلة «الهلال» ٦٦ (القاهرة ١٩٥٨) جـ٣؛ ص ٥٢ - ٥٧).

- رحلة الشتاء والصيف.

تأليف: مهدي بن علي البحراني، ت ١٢٤٣ هـ = ١٨٢٧م.

ارجوزة في رحلته من البحرين الى الكاظمية. راجع: اغا بُزُرك: الذريعة الى تصانيف الشيعة (١٠: ١٦٩؛ الرقم ٣٣٠).

- رحلة الصيف في شمال العراق.

تأليف: عبد الرزاق الظاهر.

(نشرت ضمن كتابه: «صُور من العراق». مط السعادة - القاهرة ١٩٤٧؛ ص ١٢٥ - ١٧٤).

- رحلة طُلاب دار المعلمين الابتدائية ببغداد، الى: الحلة، كربلاء، سَدة الهندية طويريج.

بقلم: عبد الجليل داود.

(نشرها في جريدة «العراق» لصاحبها رَزوق غَنام، الصادرة في بغداد في شباط ١٩٢٦).

- الرحلة العراقية.

تأليف: سليمان ظاهر، ت ١٩٦٠.

لم تطبع. ورد ذكرها في «مجلة المجمع العلمي العربي» (٣٦ (١٩٦١) ص ٥٠١ الرقم ٩)، وفي «الاعلام» للزركلي (٣ (ط٤) ص ١٣٥).

- الرحلة العراقية.

تأليف: عزيز نصر الله.

وهي رحلته من مصر الى العراق، سنة ١٩١٦.

(مط التقدم - القاهرة ١٩١٦، ١٢٨ص).

- الرحلة العراقية الايرانية.

تأليف: محسن الامين العاملي، ت ١٩٥٢.

نشرها ابنه: حَسَن الامين.

(مط الانصاف - بيروت ١٩٥٤؛ ٤٥٦ص).

- رحلة غاسبارو بالبي الى العراق في القرن السادس عشر.

نقلها الى العربية: الاب الدكتور بطرس حداد. (مُعَدّة للطبع).

- رحلة الغراف.

بقلم: حسن الامين.

(مجلة «العرفان» ٣١ (صيدا ١٩٤٢ - ١٩٤٥) ص ٢٦٠ - ٢٦٣، ٣٧٧ - ٣٨١). الشطرة. البدعة. الرفاعي. قلعة سكر. الحي. الكوت.

- رحلة الفرات.

تأليف: كاظم الدجيلي، ت ١٩٧٠

وصف رحلته الى الفرات وكربلاء وشفاثا. ولم تُطبع. راجع:

رفائيل بطي: الادب العصري في العراق (١: ١٩٢).

ادهم الجندي: اعلام الادب والفن (٢: ٢٠١).

- رحلة فريزر الى بغداد في ١٨٣٤.

تأليف: جيمس بيلي فريزر، ت ١٨٥٦.

نقلها الى العربية وعلق عليها: جعفر الخياط، ت ١٩٧٣.

(مط المعارف - بغداد ١٩٦٤؛ ٢٢٤ ص).

اصل الكتاب بالانكليزية، وعنوانه:

FRASER (JAMES BAILLIE), TRAVELS IN KOORDISTAN AND MESOPOAMIA. (LONDON, 1840).

- رحلة فنشنسو الى العراق في القرن السابع عشر.

ترجمة: الاب الدكتور بطرس حداد.

(مجلة «المورد» ٥ (بغداد ١٩٧٦) ع ١٣ ص ٧١ - ٨٩).

- رحلة في انحاء العراق.

بقلم : يوسف هرمز جّمو، ت ١٩٦٥.
(نشرها تباعاً في جريدته «صوت الشعب» التي كان يُصدرها في بغداد).
- رحلة في البادية.
من مذكرات : اسكندر الخائك.
(بيروت ١٩٣٦، ٢١٦ص).
وصف رحلته من لبنان الى العراق سنة ١٩١٤ عن طريق بادية الشام والجزيرة.
- رحلة في بادية السماوة سنة ١٣٣٩ هـ = ١٩٢٠م.
بقلم : محمد رضا الشبيبي، ت ١٩٦٥.
(«مجلة المجمع العلمي العراقي» ١١ (١٩٦٤) ص: هـ - ث ث ، ١ - ٣٢). ثم افردت في كتاب. (مط المجمع العلمي العراقي - بغداد ١٩٦٤؛ ش ش + ٦١ص).
- رحلة في العراق، او خاطرات الحسني.
تأليف : عبد الرزاق الحسني.
(ط ٢ : المط العصرية - بغداد ١٩٢٥؛ ١٥٩ص).
- رحلة قصيرة الى دير مار متّى ١٦ - ١٩ نيسان ١٩٤٧.
بقلم المطران غريغوريوس بولس بهنام، ت ١٩٦٩، وقد نشرت غُفلاً من اسمه.
(مجلة «المشرق» ١ (الموصل ١٩٤٧) ص ١٠٤٦ - ١٠٤٧).
- رحلة لجان الى العراق سنة ١٨٦٦م.
تأليف الرحالة الفرنسي لجان GUILLAUM LEJEAN وقد عاش سنة ١٨٢٠ - ١٨٧١.
ترجمها من الفرنسية الى العربية وعلّق عليها : الاب الدكتور بطرس حدّاد . (مجلة «المورد» ١٢ (١٩٨٣) ع ٤٣ ص ٥٧ - ٨٤).
- رحلة ماركو بولو تصل الموصل.
بقلم : عبد المنّان محمد بشير.
(مجلة «الجامعة». تصدرها : جامعة الموصل ٣ (الموصل: كانون الاول ١٩٧٢) ع ٤٥ ص ٦٣ - ٦٧).
- رحلة المتنبي الى الكوفة، وبعد سنة ٣٥١ الى سنة ٣٥٤ هـ.
بقلم : محمود محمد شاكر.
(ضمن كتابه «المتنبي» ١ (القاهرة ١٩٧٧) ص ٢٦٣ - ٢٧٦).
- رحلة «متنكر» الى بلاد ما بين النهرين وكردستان.
تأليف : الميجر إي. بي. سون.
ترجمة وتعليق: فؤاد جميل، ت ١٩٧٢.
(١ - ٢: بغداد ١٩٧٠ - ١٩٧٢؛ ٣٦٨، ٢٨٤ ص).
الاصل بالانكليزية، وعنوانه فيها:
SOANE (E. B.), TO MESOPOTAMIA AND KURDISTAN IN DISGUISE. (LONDON, 1926).
- رحلة مَدام ديولافوا الى كلدة - العراق سنة ١٨٨١ م = ١٢٩٩ هـ.
نقلها الى العربية عن الترجمة الفارسية: علي البصري.
قدم لها: د. مصطفى جواد، ت ١٩٦٩.
(مط اسعد - بغداد ١٩٥٨؛ ١٨٦ ص).
- رحلة المشرق (سنة ١٥٧٣ - ١٥٧٦م)؛ الى العراق وسوريا ولبنان وفلسطين.
تأليف : الرحالة الهولندي راوولف DR. LEONHART RAUWOLF ترجمة وتعليق : سليم طه التكريتي.
(دار الحرية للطباعة - بغداد ١٩٧٨؛ ٢٣٢ ص).
منشورات وزارة الثقافة والاعلام العراقية.
- رحلة المظفَّر.
تأليف : خليل المظفر الموصلي.
(جـ ١: مط محفوظ - الموصل ١٣٥٨ هـ؛ ١٦٠ + ت ت ص).
- رحلة المعري الى بغداد.
للدكتور طه حسين، ت ١٩٧٣.
(ضمن كتابه : «تجديد ذكرى ابي العلاء»، المطبوع في القاهرة. ص ١٣٩ - ١٦٠).
- رحلة من القسطنطينية الى البصرة عام ١٧٨١م.
تأليف الرحالة الايطالي مستيفي، من اهل القرن الثامن عشر للميلاد ، وقد زار العراق، وألف رحلته باللغة الايطالية، ونقلها الى العربية. الدكتور المطران روفائيل بيداويد، ولم تطبع.

ـ رحلة من شرقي دجلة الى غربي الفرات

تأليف : محمد رضا الشبيبي، ت ١٩٦٥. لم تطبع.

ـ رحلة من ماردين الى الموصل.

تأليف : المطران بولس دانيال ، ت ١٩١٦.

جَرَت هذه الرحلة سنة ١٨٥٨م. منها نسخة، بخط المؤلف، لدى الاستاذ سهيل قاشا، في الموصل، ضمن مجموع لمؤلف الرحلة؛ ص ١٤ ـ ١٩).

ـ رحلة من الموصل الى بغداد (سنة ١٨٨٦).

تأليف المطران بولس دانيال.

منها نسخة، بخط المؤلف ، لدى الاستاذ سهيل قاشا في الموصل، ضمن مجموع لمؤلف الرحلة ؛ ص ٨٨ ـ ٩٢.

ـ رحلة من الموصل الى بغداد، برفقة السيد محمد النقشبندي وقاسم اغا الاسمرلي، بخصوص رسم الجسر.

تأليف : المطران بولس دانيال، وقد تمت هذه الرحلة سنة ١٨٦٢م. منها نسخة، بخط المؤلف: لدى الاستاذ سهيل قاشا، في الموصل، ضمن مجموع لمؤلف الرحلة، ص ١٩ ـ ٢٤.

ـ رحلة من الموصل الى ديار بكر وسيورك، والعودة الى الموصل.

تأليف : المطران بولس دانيال ، قام بها سنة ١٨٦٧م

منها نسخة ، بخط المؤلف، لدى الاستاذ سهيل قاشا، في الموصل، ضمن مجموع لمؤلف الرحلة، ص ٦٤ ـ ٦٩.

ـ رحلة من الموصل الى دير الشرفة في لبنان.

تأليف : المطران بولس دانيال، قام بها سنة ١٨٥٠م.

منها نسخة، بخط المؤلف، لدى الاستاذ سهيل قاشا، في الموصل، ضمن مجموع لمؤلف الرحلة، ص ١ ـ ١٢.

ـ رحلة من الموصل الى رومية، وما جرى له في طريقه وفي المدينة المقدسة.

تأليف : القس خِدر الكلداني الموصلي، ت ١٧٥٥م.

نشرها الاب لويس شيخو، في مجلة «المشرق» (١٣ (بيروت ١٩١٠) ص ٥٨١ ـ ٥٩٢، ٦٥٦ ـ ٦٦٨، ٧٣٠ ـ ٧٤٤، ٨٣٥ ـ ٨٤٣)، عن نسخةٍ بخط مؤلفها، وقف عليها حينذاك في القاهرة ، لدى بطرس عابد، خوري كنيسة الكلدان في القاهرة.

ومنها ايضا نسخة خطية في المكتبة الشرقية للآباء اليسوعيين في بيروت (الرقم ١٤٩).

ـ رحلة من الموصل الى القدس.

تأليف : المطران بولس دانيال، ت ١٩١٦.

جَرَت هذه الرحلة سنة ١٨٧٢م.

منها نسخة ، بخط المؤلف، لدى الاستاذ سهيل قاشا، في الموصل، ضمن مجموع لمؤلف الرحلة، ص ٦٩ ـ ٨٣.

ـ رحلة من الموصل الى ماردين.

تأليف : المطران بولس دانيال، قام بها سنة ١٨٩٨م.

منها نسخة، بخط المؤلف، لدى الاستاذ سهيل قاشا، في الموصل، ضمن مجموع لمؤلف الرحلة، ص ١٠٩ ـ ١١٦.

ـ رحلة من الموصل الى مذيات.

تأليف : المطران بولس دانيال، قام بها سنة ١٨٥٦م.

منها نسخة، بخط المؤلف، لدى الاستاذ سهيل قاشا، في الموصل، ضمن مجموع لمؤلف الرحلة، ص ١٣ ـ ١٤.

ـ رحلة المنشىء البغدادي.

تأليف : محمد بن احمد الحسيني المعروف بالمنشىء البغدادي، كتبها سنة ١٨٢٢م، بعد ان تجول في ديار الكرد ومَوَاطن العراق الاخرى.

نقلها من الفارسية الى العربية: عباس العزاوي، ت ١٩٧١.

(طبع لشركة التجارة والطباعة المحدودة ـ بغداد ١٩٤٨؛ ١٢٨ص).

ـ رحلة منظومة الى الكاظمين.

تأليف : صادق بن محسن بن مرتضى آل الاعسم، ت ١٨٩٠.

ذكرها الشيخ جعفر محبوبة، في كتابه: «ماضي النجف وحاضرها» (٢ (النجف ١٩٥٥) ص٢٣)، وقال: عندي منها نسخة، وهي في ١٥٦ بيتاً.

ـ رحلة المُواطن العراقي «الياس الموصلي» أول سائح عربي يصل الاميركتين.

بقلم : ابتهاج عمر طاهر الراضي.

(مجلة «المورد» ٤ (بغداد (١٩٧٥) ع ٢؛ ص ١٦٧ - ١٩٤).

- رحلة الميجر سون الى كردستان متنكرا باسم ميرزا فلاح حسين شيرازي. «بمناسبة مرور ٢٠٠ سنة على انشاء السليمانية».

عرض وتلخيص: جمال بابان.

(سلسلة حلقات، ظهرت في جريدة «العراق» كانت الحلقة الثانية بتاريخ ١٩٨٤/١٢/٢٤، ص٤).

- الرحلة النجفية.

تأليف : فرج العمران القطيفي.

نشرها في آخر كتابه : «سقط الغوالي وملتقط اللآلي». (المط الحيدرية - النجف ١٩٥٦؛ ص ١٥١ - ٣٣٢).

- رحلة نيبور الى بغداد في القرن الثامن عشر.

نقلها من الالمانية الى العربية: سعاد هادي العمري، ت ١٩٧٢.

(مط دار المعرفة - بغداد ١٩٥٤؛ ٧٢ص).

- رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر.

تأليف : كارستن نيبور.

ترجمة : د. محمود الامين، ت ١٩٨٠.

راجعها وعلق عليها ووضع فهارس: سالم الآلوسي.

(دار الجمهورية للنشر والطبع - بغداد ١٩٦٥؛ ١٨٠ ص).

مطبوعات وزارة الثقافة والاعلام العراقية.

نقدها : محمود الملاح (بتوقيع : ج).

مجلة «صوت الاسلام» ٢ (بغداد ١٨ كانون الاول ١٩٦٥) ع ١١٦؛ ص ٢٤ - ٢٦).

- رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر.

للرحالة الدانماركي كارستن نيبور.

نقلها من الالمانية الى العربية : د. محمود الامين، ت ١٩٨٠.

القسم الاول : من بغداد الى الموصل. مجلة «سومر» ٩ (١٩٥٣) ص ٢٥٠ - ٢٨٠). ثم افرد في رسالة. (مط الرابطة - بغداد ١٩٥٣؛ ٣٢ ص).

- رحلتان الى الحجاز والعراق.

تأليف : الحاكم النيسابوري محمد بن عبد الله، المعروف بابن البيع، ت ٤٢١ هـ = ١٠٣٠م.

ظ : هدية العارفين (٢: ٥٩).

- رحلتي الى بغداد في عهد الوالي داود باشا.

تأليف : الرحالة الانكليزي: جيمس ريموند ولستيد.

ترجمة وتعليق: سليم طه التكريتي.

(بغداد ١٩٨٤؛ ١٢٨ ص).

- رحلتي الى العراق.

تأليف : فاروق الحريري.

(طبعت سنة ١٩٤١).

- رحلتي الى العراق سنة ١٨١٦م.

تأليف : جيمس بكنغهام (١٧٨٦ - ١٨٥٥) : J. BUCKINGHAM ترجمة : سليم طه التكريتي.

(جـ ١: مط أسعد - بغداد ١٩٦٨؛ ٣٢٨ص.

جـ ٢: مط دار البصري - بغداد ١٩٧٠؛ ٣٨٦ ص).

- سفرة الى البصرة.

تأليف : عبد الله حسن.

(مط الصباح - بغداد ١٩٤٦؛ ١١٤ص).

- سفرة من «دربندي بازيان» الى «مله ي تاسلوجه».

تأليف : توفيق وهبي، ت ١٩٨٤.

(مط المعارف - بغداد ١٩٦٥؛ ٣٦ص).

- صدى الفؤاد الى حمى الكاظم الجواد.

تأليف : محمد بن طاهر السماوي، ت ١٩٥٠.

(مط الغري - النجف ١٩٤١؛ ط + ٧١ص).

- عجائب الدنيا في عمارة بابل.

تأليف : فيرتز كرشن.

تعريب : د. صبحي انور رشيد

(بغداد ١٩٧٦؛ ٧٨ ص).

- العراق في القرن السابع عشر كما رآه الرحالة الفرنسي تافرنيه.

نقله الى العربية، وعلّق عليه، ووضع ملاحقه وفهارسه:

بشير فرنسيس وكوركيس عواد.

(مط المعارف - بغداد ١٩٤٤؛ ١٨٤ ص).

- عروس الفرات او بابل العظمى.

تأليف : عبد الكريم بُني.

(المط الشرقية - الموصل ١٩٤٢؛ ٣٢ص).

- عروبة في الموصل .

تأليف : توفيق حسين، ت ١٩٥٤ .

(مط الاستقلال - بغداد ١٩٤٧؛ ٨٨ ص).

- في البصرة.

تأليف : معن العجلي.

(مط الاستقلال - بغداد ١٩٤٨؛ ١٣٦ ص).

- قَصَبة في مَهَب الريح .

تأليف : كافن ماكسويل.

ترجمة صادق عبد الصاحب التميمي.

(منشورات مكتبة الحياة ، بيروت، دت، (١٩٦١ م)؛ ٢٢٤ص).

اصل الكتاب بالانكليزية، وعنوانه فيها.

MAXWELL (GAVIN), A REED SHAKEN BY THE WIND. (LONDON, 1957).

- قلب العراق.

تأليف : امين الريحاني، ت ١٩٤٠ .

(بيروت ١٩٣٥، ٣١١ ص. ط ٢ : بيروت ١٩٣٩

- مذكرات اسبوع : في بغداد، البصرة، القرنة.

تأليف : مرزة حمزة شبر علي.

(مط الغري الحديثة - النجف ١٣٧٠ هـ؛ ٤٨ص).

- المرشد الى مَوَاطن الآثار والحضارة.

تأليف : طه باقر، ت ١٩٨٤؛ فؤاد سفر، ت ١٩٧٨. (١ - ٦: بغداد ١٩٦٤ - ١٩٦٦؛ ٣٠، ٤٩، ٦٨، ٤٠، ٢٥، ٢٦ ص).

الرحلة الاولى : بغداد - عنه - القائم.

الرحلة الثانية : بغداد - سامراء - الحضر.

الرحلة الثالثة : بغداد - الموصل.

الرحلة الرابعة : بغداد - كركوك - السليمانية.

الرحلة الخامسة : بغداد - اربيل.

الرحلة السادسة : بغداد - حلبجة.

- مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة الى الحلة سنة ١٧٦٥م.

ترجمة : سعاد هادي العمري، ت ١٩٧٢ .

(بغداد ١٩٥٥؛ ١١٢ص).

- من عمان الى العمادية، او جولة في كردستان الجنوبية.

تأليف علي سيدو الكوراني.

(مط السعادة - القاهرة ١٩٣٩؛ ٢٧٢ ص).

- من القدس الشريف الى النجف الاشرف.

تأليف : عزمي النشاشيبي.

(مط دار الايتام الاسلامية - القدس ١٩٥٠؛ ٩٨ ص).

- مناطق الاهوار في القسم الجنوبي من العراق.

للدكتور ابراهيم شريف.

(مط جامعة الاسكندرية - الاسكندرية ١٩٥٤، ص ٣٣ - ٦٦) مستل من مجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية.

- منطقة الحيرة : دراسة طبغرافية مستندة الى المصادر الادبية.

تأليف : د. صالح احمد العلي.

بحث نُشر في : «مجلة كلية الآداب - جامعة بغداد» سنة ١٩٦٢ .

ثم افرد في رسالة. (بغداد ١٩٦٢؛ ٢٨ ص، يليها خارطة).

- الموصل في القرن الثامن عشر حسب مذكرات دومينيكو لانزا.

نقله الى العربية: المطران روفائيل بيداويد.

(ط ١ : مط النجم - الموصل ١٩٥١؛ ٧٨ص)

ط ٤: المط الشرقية الحديثة - الموصل ١٩٥٣؛ ١٠١ص).

- يوميات البصرة.

تأليف : د. مصطفى عبد القادر النجار، د. عبد الامير محمد امين ، عبد الوحيد خان.

(١ - ٢: بغداد ١٩٨٠؛ ٣٩٦، ٤٠٨ص).

منشورات اتحاد المؤرخين العرب .

الرحلات الخطية
في دار صدام للمخطوطات

اعداد
اسامة ناصر النقشبندي
دار صدام للمخطوطات - بغداد

دأب العرب منذ القديم على الحركة والترحال لأسباب كثيرة - تجارية او دينية او اقتصادية او عسكرية وغيرها ونمت عندهم رغبة تلقائية للمشاهدة والوصف والملاحظة ، وقد اكسبهم ذلك مقدرة على اكتشاف الظواهر الطبيعية والحياتية في مختلف جوانبها وفي شتى الامكنة والبقاع واعتادوا على رحلتي الشتاء والصيف .

وبعد ظهور الاسلام واتساع الفتوحات العربية الاسلامية كانت جيوش التحرير العربية تصحب معها المحدثين والحفاظ والفقهاء والعلماء ، فظهرت حاجة جديدة للترحال لغرض نشر الثقافة العربية الاسلامية والتبشير بمبادىء الدين الجديد والرحيل الى الحواضر العربية الاسلامية التي كانت مراكز اشعاع فكري يقصدها العلماء وطلاب العلم للالتقاء بالشيوخ والدراسة على ايديهم والحصول على إجازات الدراسة والتلقي منهم . وقد لقب بعضهم بأسماء المدن التي رحلوا عنها والمدن التي قصدوها .

وتواصلت الرحلات وتعددت اهدافها واختلفت اتجاهاتها ويمكن ان نقول ان الرحلات في التأريخ العربي شهدت فترتي نشأة متميزة ، الفترة الاولى بدأت منذ عصر الفتوحات العربية الاسلامية ونشطت باتساع رقعة العالم الاسلامي والى القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد . والفترة الثانية التي ازدهرت فيها الرحلات بدأت مع حركة النهضة العربية الحديثة في القرن الثالث عشر للهجرة/ التاسع عشر للميلاد واستمرت حتى الوقت الحالي .

ويسرنا ان نعرف قراء «المورد» الكرام في هذا العدد الخاص بما تحتويه دار صدام للمخطوطات ببغداد من رحلات خطية معظمها لم ينشر او يعرف به سابقاً ، وامتدت للفترة من القرن العاشر الى الثالث عشر للهجرة (السادس عشر الى التاسع عشر للميلاد) وشملت العراق وبلاد الشام والقدس ومصر ومكة والمدينة واسطنبول . وكانت منطلقة من الوطن العربي الى خارجه ما عدا رحلة عالي بك من اسطنبول الى داخل الوطن العربي كما كانت رحلة الطهطاوي الى باريس والخوري الياس الى امريكا .

آملا ان تنال هذه الرحلات اهتمام الدارسين والباحثين لما تحتويه من معلومات مهمة توثق لنا بعض الجوانب التاريخية والجغرافية والادبية .

وقد اتبعت في التعريف بهذه الرحلات الاسلوب الذي اعتمدت عليه في فهارس المخطوطات التي انجزتها ، فذكرت عنوان الرحلة واسم المؤلف وترجمته ، ثم اقتبست بعض الاسطر من اول المخطوط وبالقدر الذي يميز كل مخطوط عن غيره ، والمحت بشكل موجز بمسار الرحلة ووجهتها وما تحتويه من

معلومات ، واشرت الى تاريخ النسخ واسم الناسخ والقياسات وما تتضمنه كل نسخة من قراءات وسماعات واجازات .

ورجعت في عملي هذا الى بعض المصادر والمراجع منها :

١ ـ ادب الرحلات للدكتور حسين محمد فهيم ـ الكويت ١٩٨٩

٢ ـ الاعلام لخير الدين الزركلي ـدار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٨٩

٣ ـ ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون لاسماعيل باشا البغدادي ـ اوفسيت بغداد ١٩٦٧

٤ ـ تاريخ الادب العربي في العراق ـ عباس العزاوي ـ بغداد

٥ ـ التوفيقات الالهامية لاحمد مختار باشا ـ بولاق ١٨٩٣

٦ ـ ذخائر التراث العربي الاسلامي ـ لعبد الجبار عبد الرحمن بغداد ١٩٨١

٧ ـ كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة اوفسيت بغداد ١٩٦٧

٨ ـ معجم المطبوعات العربية والمعربة ـ ليوسف الياس سركيس القاهرة ١٩٢٨

٩ ـ معجم المؤلفين لعمر رضا كحاله ـ دمشق ١٩٥٧

١٠ ـ معجم المؤلفين العراقيين ـ لكوركيس عواد بغداد ١٩٦٩

١١ ـ هدية العارفين لاسماعيل باشا البغدادي ـاوفسيت بغداد ١٩٦٧

اما الرموز التي استخدمتها لغرض الاختصار فهي :

رقم = رقم المخطوط في دار صدام للمخطوطات

ص = عدد الصفحات

× سم = الطول × العرض

س = عدد الاسطر في كل صفحة

× × ×

تحفة الادباء وسلوة الغرباء

لابراهيم بن عبد الرحمن بن علي الخياري المدني المتوفى سنة ١٠٨٣هـ/١٦٧٢م

الاول :

(الحمد لله فاتح الابواب ، وميسر الاسباب ، مذلل الصعاب ، مسهل الذهاب والاياب الى سوح سيد الاحباب ، احمده ان اودع في كل قضاه لطفاً . . . وبعد فاني منذ ما قدت عني التمايم ، ونيطت بي العمايم ، يجول في خاطري ويختلج في ضمايري ، الوصول الى ربوة الشام والتنزه بكل روض بها يسام . . .)

وهي رحلة الخياري الى اسطنبول التي بدأها من المدينة المنورة ومرّ بالعقبة وبلاد الشام واسطنبول وقد وصف المؤلف الابنية الاثرية والمدن والقلاع والوديان والمباني القديمة وكل ما صادفه في طريقه وصفاً دقيقاً وواضحاً . كما تحدث المؤلف عن الاعلام والشعراء والادباء والكثير من الناس الذين صادفهم ، ونقل الكثير من اشعارهم وقصائدهم وذكر مؤلفاتهم ، حتى غلب على هذه الرحلة الجانب الادبي والشعري .

نسخة جيدة ترقى الى القرن الثاني عشر للهجرة الثامن عشر للميلاد . ناقصة الاخر .

الرقم ١٣٦٢

القياس ٩٩ص . . . . ٢٠ × ١٤,٥سم ٢١

معجم المؤلفين ١/٤٦ فهرس المطبوعات العراقية ٢/٣٥٥ ذخائر التراث ١/٥٠٤

طبعت بتحقيق الدكتور رجاء محمود السامرائي ببغداد سنة ١٩٦٩م

× × ×

تخليص الابريز الى تلخيص باريز

لرفاعة بن بدوي بن علي الطهطاوي القاسمي المتوفى سنة ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م

الاول :

(سبحان من سير اقدام الانام الى ما مضى في سابق علمه ، ويسر للانسان الاقدام على محتم قضائه وحكمه ، فلا محيص لقوي وضعيف . . . اما بعد فيقول العبد الفقير . . . . . وانه سهل اليّ الدخول في خدمة صاحب السعادة ، اولاً في وظيفة

واعظ العساكر الجهادية ، ثم منها الى رتبة مبعوث الى باريس صحبة الافندية المبعوثين لتعلم العلوم والفنون الموجودة بهذه المدينة البهية فلما رسم اسمي في جملة المسافرين وعزمت على التوجه اشار عليّ بعض الاقارب والمحبين لاسيما شيخنا العطار ، فانه كان مولع بسماع عجائب الاخبار والاطلاع على غرائب الآثار ، ان انبه على ما يقع لي في هذه السفرة وعلى ما اراه وما اصادفه من الامور الغريبة والاشياء العجيبة ....)

وتسمى هذه الرحلة كذلك (الديوان النفيس بانوار باريس ، وقد جعلها المؤلف في مقدمة مرتبة على اربعة ابواب . وعدة مقالات .

نسخة جيدة ترقى الى فترة المؤلف تملكها اسماعيل بن حمد ابن سالم سنة ١٢٩١هـ/١٨٧٤م

الرقم ١٣

القياس ٣٠٦ص ٢١ × ١٦سم ١٩س

الاعلام ٣/٢٩ معجم المؤلفين ٤/١٦٨ معجم طبع ٩٩٢

× × ×

الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام والحجاز

لعبد الغني بن اسماعيل بن عبد الغني بن اسماعيل النابلسي(٣) المتوفى سنة ١١٤٣هـ/١٧٣١م

الاول :

(الحمد لله الذي بمعونته تتم الامور وبمؤونته الدارة على خلقه تصلح احوال الجمهور وبتوفيقه لانواع العبادة تنشرح الصدور وبتوفيقه على اجناس السعادة يحصل ...)

وتعرف هذه الرحلة كذلك برحلة النابلسي الكبرى . حيث ان للمؤلف ثلاث رحلات الاولى رحلته الصغرى الموسومة بحلية الذهب الابريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز . ورحلته الثانية وهي الوسطى وسماها الحضرة الانسية في الرحلة القدسية التي كتبها سنة ١١٠١هـ/١٦٨٩م

رتب المؤلف رحلته على ثلاث اقسام هي :

القسم الاول : في الجولان من البلاد الشامية

القسم الثاني : في الكلام عن البقاع المصرية

القسم الثالث : في الوصول الى الاقطار الحجازية

نسخة جيدة كتبها عبد الحميد بن اسماعيل الحكيم البسرودي سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٣م تتضمن الجزء الاول من الكتاب

الرقم ٥٥٥

القياس ٤١٠ص ٢٢×١٧سم ١٩س

معجم المؤلفين ٥/٢٧١ طبعت اكثر من مرة آخرها بتحقيق احمد عبد المجيد هريدي بالقاهرة ـ ذخائر التراث ٢/٨٧١

× × ×

نسخة اخرى تتضمن الجزء الثالث بخط ناسخ الجزء الاول عبد الحميد بن اسماعيل سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٣م

الرقم ٥٥٦

القياس ٥٣٨ ص ٢٢×١٧سم ١٩س

× × ×

نسخة اخرى مصورة بالاستنساخ عن نسخة مكتبة الدراسات العليا التي كانت ضمن خزانة الاستاذ كوركيس عواد والتي باعها مع مجموعة مخطوطاته الى مكتبة الدراسات العليا . وهذه النسخة كتبت بخط ناسخ الجزئين الاول والثالث وهي مكملة لها . والرحلة باجزائها الثلاثة كانت ضمن خزانة الاب انستاس ماري الكرملي .

الرقم ٣٠٥٤٤

القياس ٢٣٢ ص ٢٢×١٧سم ١٩س

× × ×

رحلات عبد الباقي الالوسي :

لعبد الباقي بن محمود بن عبد الله الالوسي(٣) المتوفى سنة ١٢٩٨هـ/١٨٨١م

الاول :

(في بيان السفرة الخامسة .. كان الخروج من بغداد يوم الخميس ثاني ربيع الاول سنة الالف والمائتين والاثنين والتسعين نسئله تعالى التسهيل وفي اليوم الثاني وصلنا الصقلاوية وركبنا

الوابور المسمى مسكنه . . .)

وتتضمن رحلات عبد الباقي بن ابي الثناء الالوسي الخامسة والسادسة والسابعة .

فقد كانت سفرته الخامسة سنة ١٢٩٢هـ/١٨٧٤م الى اسطنبول عن طريق الرمادي وهيت وآلوس وحديثة

والسفرة السادسة الى منطقة شهرزور والتي تجعل مركزها مدينة كركوك حيث صار نائباً فيها وكان بمعيته زوجته سنة ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م والسفرة السابقة بعد ان عين نائباً في مركز ولاية تبليس حيث سافر الى اسلامبول بمعية زوجته سنة ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م وقد ذكر المؤلف في سفراته هذه المدن والقرى والتي مرَّ بها والاعلام الذين صادفهم

نسخة جيدة كتبت بخط المؤلف سنة ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م في اولها فائدة في بيان اسفار المؤلف من بغداد . فذكر سفرته الاولى بمعية والده ابي الثناء الألوسي الى اسطنبول سنة ١٢٦٧هـ/١٨٥٠م والثانية بعد وفاة والده سنة ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م والسفرة الثالثة الى اسطنبول حيث عين نائباً في معرة النعمان والسفرة الرابعة عندما عين نائباً بحمص سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٤م وكان معه اخيه احمد شاكر الألوسي وقد سميت هذه السفرة (الروضة اليانعة في السفرة الرابعة) وسنأتي على ذكرها

الرقم ٢/٣٠٣٦٨

القياس ١١ص ٢٢×١٦سم ١٦س

معجم المؤلفين ٥/٧٥ الاعلام ٣/٢٧٢

× × ×

رحلة الى بيت المقدس

لمحمد امين بن خليل بن محمد بن ابراهيم القتال الذي كان حياً سنة ١٢٠٣هـ/١٧٨٨م

الاول :

(الحمد لله ملهم العباد المسير الى اقاليم البلاد وموفقهم لسلوك طريق الرشاد المنعم عليهم بالرحلة من دمشق دار الاجياد الى القدس المشرقة مقر الافراد والصلاة والسلام على سيدنا محمد الهادي الى طريق الرشاد والماحي بدعوته الى الحق اهل الزيغ والعناد . . .)

وهي رحلة المؤلف من دمشق الى القدس سنة ١٢٠٣هـ/١٧٨٨م قال انه بعد ان وقعت بعض الاحداث بدمشق في تلك الفترة وحكت الهموم بنفوس الناس ، فقرر ان يسلي نفسه بالسفر فقام بهذه الرحلة الى بيت المقدس ، وقد وصف فيها الامكنة والبقاع والاودية ، كما تحدث عن الادباء والعلماء والشعراء الذين التقى بهم . وبين كذلك اهمية بيت المقدس وفضله ، وموقعه وبناءه . وتسمى هذه الرحلة ايضاً برحلة القتال .

رافق المؤلف في هذه الرحلة علي اغا بن مصطفى الشهير بحموي زاده . ومصطفى اغا الشهير بقزاز زادة .

نسخة جيدة لعلها بخط المؤلف ، عليها قراءة على المؤلف لعبد الله السويدي وقراءة اخرى محمد بن احمد المعروف بعقيلة المكي سنة ١٢٠٣هـ/١٧٨٨م

الرقم ١٠٧٨٣

القياس ١٥ص ٢٤×١٧سم ٣٠س

× × ×

رحلة الى الديار المصرية .

لمحب الدين محمد بن منصور بن ابراهيم بن سلامة الدمشقي المعروف بالمحبي المتوفى سنة ١٠٣٠هـ/١٦٢١م

الاول :

(ان احلى ما تنطق به السنة الاقلام ، واول ما تتحلى به اسماع ذوي الافهام ، حمداً لله سبحانه على نعمه المتوافرة .. وبعد فقصدت ان اثبت في هذه الاوراق رحلتي الى الديار المصرية صحبة قاضي قضاتها صاحب النفس القدسية والخصال الملكية ، شيخ مشايخ الاسلام وملك العلماء الاعلام ..)

وهي الرحلة التي قام بها المؤلف من دمشق الى مصر ثم الى القدس سنة ٩٧٨هـ/١٥٧٠م وقد صحبه فيها قاضي القضاة جوي زاده ، ونوري افندي مفتي دمشق .

وقد تضمنت هذه الرحلة بعض القصائد والاشعار

وتراجم للرجال والاعيان والقضاة الذين التقى بهم المؤلف بمصر . وكذلك وصف لبعض الامكنة والبقاع التي مرّ بها في طريقه .

نسخة جيدة كتبها حسين صدقي بن علي بن اسماعيل القريشي الدمشقي سنة ١٣١٤هـ/١٨٩٦م عن نسخة خزائنية كتبت لخزانة الشيخ عبد القادر بنهان ، كما نقلت التقاريض التي كانت على تلك النسخة وهي : تقريض اسماعيل بن احمد النابلسي سنة ٩٨١هـ/١٥٧٣م وتقريض محمد بن محمد بن عماد الدين الحنفي سنة ٩٨١هـ/١٥٧٣م وشمس الدين محمد بن القاسم بن المنقار سنة ٩٨١هـ-١٥٧٣م

الرقم ١١٢٩٢

القياس ٩٢ص ٢٤×١٥سم ٢١س

معجم المؤلفين ٥١/١٢

× × ×

وحلة الديار المصرية والرومية

لفضل الله بن محب الدين بن محمد بن محب الدين بن ابي بكر منصور المحبي[1] الدمشقي المتوفى سنة ١٠٨٢هـ/١٦٧١م

الاول :

(احمدك اللهم حمداً يطلع في منازل ثنائه بدور المعاني ويبدع بديع اعجازه آيات المثاني ، وتتجلى في افق فصاحته ، وشفق بلاغته انوار المشارق ... وبعد فاني فرع نما في دوحة الشام وغصن سما بين الاراك والبشام من فئة ارتدوا اردية المجد ، وحازوا قصب السبق في مضمار العلى عن اب وجد ...)

وهي رحلة المؤلف من بلاد الشام الى مصر حيث التقى اثر جده ثم الى بلاد الروم وقد قابل الكثير من الاعلام المعروفين في المدن التي مرّ بها وفيهم بعض اساتذة والده يحيى بن زكريا وابراهيم الماهري ومحمد بن ادريس

نسخة جيدة كتبها عبد الله السيد الشريف المعروف بسعدي زادة في مدينة سلانيك سنة ١٠٧٣هـ/١٦٦٢م

الرقم ٥/٩١٧٧

القياس ٤١ص ٢٥×١٦سم ٢٧س

معجم المؤلفين ٧٦/٨ الاعلام ١٥٣/٥ هدية العارفين ٨٢٢/١

رحلة الرشتي

للسيد احمد بن محمد كاظم بن محمد قاسم الحسيني الرشتي .

الاول :

(اما بعد فيقول الطالب سواء الطريق ومن هو ببحر العصيان غريق ، .. انه كان لي اخ بارع ، وبدر ساطع سئلني عما لاقيته في هذا السفر وما واجهت فيه من الخطر ، وتفصيل ذلك ، والسلوك في تلك المسالك ، فقلت له يا ايها الخل اللبيب ...)

وهي رحلة المؤلف من مدينة كربلاء الى بغداد والى كرمان ، وقد ضمنها مشاهداته في المدن والقرى والبقاع التي مرّ بها .

نسخة جيدة كتبت بخط المؤلف مؤطرة الصفحات بمداد ذهبي .

الرقم ١١١٨٧

القياس ٤٢ص ١٦,٥×١١سم ١٢س

× × ×

رحلة الشتاء والصيف

لمحمد بن عبد الله الحسيني الموسوي المدني المعروف بكبريت المدني المتوفى سنة ١٠٧٠هـ/١٦٥٩م

الاول :

(الحمد لله وحده والصلاة على من لا نبي بعده ... اما بعد فانه لا يخفى على من سبر الدهر وخبر احواله ورأى تغيراته وشاهد في ذوي الفضائل افعاله ، ان من ارتدى محامد الخلال وتحلى بحلى الفضائل والكمال ...)

وهي رحلة المؤلف من المدينة المنورة الى الاستانة التي بدأها في ١٧محرم سنة ١٠٣٩هـ/١٦٢٩م وضمنها مجموعة من الاخبار والقصائد الشعرية للشعراء الذين صادفهم كما وصف المدن والقرى التي مرّ بها واهم العمائر والاسواق .

نسخة جيدة ترقى الى القرن ١٢هـ/١٨م اكمل كتابتها عبد المجيد خادم تربة الحضرة الاعظمية سنة ١٢٧٤هـ/١٨٥٧م

الرقم ٦٣٢١

القياس ٢٨٨ص ٢١×١٥سم ١٩س

معجم ١٦٣١ ،

× × ×

رحلة عالي بك

ترجمة عباس العزاوي المحامي المتوفى سنة ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م

وهي رحلة قام بها عالي بك الذي كان والياً على طربزون من اسطنبول الى بغداد فالهند سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م وقد وصف المدن التي مرّ بها وهي ديار بكر ، ازمير مرسين ، اسكندرون ، حلب ، عينتاب ، آمد ، ماردين ، تل كوجك ، حصن كيفا ، جزيرة ابن عمر ، الموصل ، تكريت ، سامراء ، بغداد ، اصل الرحلة باللغة التركية وعربها عباس العزاوي ، وكتبت هذه النسخة بخطه

الرقم ٣٣٣٥٢

القياس ٢٤ ص ٢٨×٢١سم ١٨س

× × ×

رحلة العمادي

لعله شهاب الدين بن عبد الرحمن بن عبد محمد العمادي المتوفى سنة ١٠٧٨هـ/١٦٦٧م

الاول :

(الحمد لله المنعم على عباده بالاعانة والتوفيق الصاحب في سفر الرفيق ، ونعم الرفيق الهادي بفضله الى سبل الخيرات واقوم طريق ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ... وبعد فقد عزمت بعدما استشرت في عنفوان الشباب ، وجزمت عب ما استخرجت بعنوان شريف الكتاب فشددت مطية ركابي وشيدت دعائم الرحلة كذهابي وركبت جواد الاخطار لبلوغ المراد ...)

نسخة نفيسة كتبت بخط النسخ الجيد سنة ١٠٥٦هـ/١٦٤٦م

الرقم القياس ٤/٩١٧٧

القياس ٦٢ص ٢٥,٥×١٥,٥سم ٢٧س

لم يرد اسم صاحب الرحلة صراحة وانما ورد ضمن نص في تقريض للكتاب اسم شهاب الدين العمادي سنة ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م كما ذكر ان والد المؤلف من الاعلام المعروفين ومتوفى سنة ١٠٥١هـ/١٦٤١م (معجم المؤلفين ٥/١٩١) مما جعلني احتمل ان يكون صاحب الرحلة هو الذي وضعت اسمه اعلاه .

× × ×

رحلة اللحافي

لاحد اللحافي افندي الذي كان حياً سنة ١٢٩٣هـ/١٨٧٥م

الاول :

(الحمد لله الذي خلق الانسان وعلمه البيان ، ومنحه عقلاً امتاز به عن سائر الحيوان ، وعلمه مالم يعلم ، وفهمه مالم يفهم ، والصلاة والسلام على من اسرى به ليلاً الى المسجد الاقصى ، وعرج به الى حضرة القدس فكان قاب قوسين ، ورأى من آياته الكبرى ما لا تكاد تحصى .. وبعد ان خرجنا يوم الخميس بكرة النهار غرة شعبان من الزوراء ...)

وهي رحلة المؤلف الذي كان مدرساً في بغداد وقد خرج في رحلته متوجهاً الى اسطنبول وقد ذكر القرى والمدن التي مرّ بها وذكر موقعها والناس الذين صادفهم فيها وبعض الجوانب من الحياة الاجتماعية والتقاليد العامة . وكان طريقه الى هيت وحديثة وعنه والقائم والصالحية والميادين والدير وقباقب وتدمر ودمشق وبيروت ثم ركب السفينة الى قبرص ومنها الى لدس وازمير والقسطنطينية .

نسخة جيدة كتبها عن نسخة المؤلف السيد احمد شمس الدين الالوسي . في آخرها تقريض للرحلة

الرقم ٣٢٤٦

القياس ٢٨ص ٢٢,٥×١٥سم ١٩س

نشرت هذه الرحلة ضمن عدد مجلة المورد الخاص بادب الرحلات الى العراق بتحقيق الدكتور عبد السلام رؤوف .

× × ×

الرحلة المحسنية والسياحة الهاشمية الى الديار الشامية والمصرية

للسيد محسن ابي طبيخ المتوفى سنة ١٩٦١

الاول : (الحمد لله الذي امر بالرحلة والتسيار وحث على النظر والاعتبار والصلاة والسلام على رسوله المختار وآله والأئمة الاطهار ... اما بعد فقد اتفق لي سنة ١٣٤١هـ مغادرة وطني ومسقط رأسي العراق والتجول في ديار الشام وفلسطين ومصر وتدوين ما امكن تدوينه من مشاهداتي في تلك البلاد وقد عزمت الآن على نشر تلك الخواطر المدونة ، ورأيت الواجب تقديم مقدمة اشرح فيها الاسباب التي حدتني على الخروج ...)

نسخة حديثة لعلها بخط المؤلف الرقم ٣٧٤٤٣

القياس ١٠٦ص ٢١×١٦,٥سم ١٨س

معجم المؤلفين العراقيين ٣/ ٨٩

× × ×

الروض الخصيب في رحلة السيد النقيب

لابي اسماعيل مصطفى نور الدين بن محمد الواعظ(١) المتوفى سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٣م

الاول :

(احمد الله تعالى على نعمه ، ومنه ، وكرمه ، والصلاة والسلام على من اسرى به الى المحل الاسنى ، والمقام الاسمى وعلى آله وصحبه وجنده وحزبه ...)

وهي رحلة المؤلف من بغداد الى البصرة الى صفوان وقد وصف فيها مشاهداته في البصرة وجبل سنام وصفوان وعرف ببعض من التقى بهم من الوجوه والاعيان .

نسخة جيدة تقع ضمن مجموع كتبه احمد شاكر الالوسي سنة ١٢٩٩هـ/١٨٨١م

الرقم ٣٠٣٨٦

القياس ٤ص ٢٣×١٥سم ٢٠س

نشرت هذه الرحلة ضمن عدد مجلة المورد الخاص بادب الرحلات الى العراق بتحقيق ظمياء محمد عباس.

معجم المؤلفين العراقيين ٣/٣١١ نشر المؤلف رحلته هذه ضمن كتابه الروض الازهر في تراجم السيد جعفر

الروضة اليانعة في بيان السفرة الرابعة

لعبد الباقي بن محمود بن عبد الله الالوسي المتوفى سنة ١٢٩٨هـ/١٨٨١م

الاول :

(الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم المرسلين ... اما بعد ... فاني ذاكر في هذه الاوراق ما حصل في سفري من مسقط رأسي بغداد الى دار الخلافة اسلامبول ... فاقول اني بعد ان استعفيت عن نيابة الحلة الفيحاء خرجت من بغداد الزوراء ومعي اخي الذي تنقل في منازل ...)

وهي رحلة المؤلف الرابعة من بغداد الى اسطنبول التي قام بها سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٤م برفقة اخيه احمد شاكر الألوسي وقد ضمن المؤلف رحلته هذه رسالته الموسومة (الاجوبة الألوسية على الاسئلة الفقهية .

نسخة جيدة كتبها محمد جواد سنة ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م بخط النسخ الجيد ، في اولها فائدة عن سفرات المؤلف السبعة والامكنة التي قصدها في كل سفرة . وعليها تقريض لاحمد فارس الشدياق .

الرقم ١/٣٠٣٦٨

القياس ٥٠ ص ٢٢×١٦سم ١٣س

الاعلام ٣/ ٢٧٢

× × ×

سلوة الغريب واسوة الاريب

لصدر الدين علي خان بن احمد بن محمد بن معصوم(١) الحسيني المتوفى سنة ١١١٩هـ/١٧٠٧م

الاول :

(الحمد لله الذي جعل الارض مهاداً وسلك فيها سبلاً ... وبعد فيقول المفتقر الى ربه الغني على صدر الدين بن احمد .... هذا واني منذ كبر عن الطوق عَمري ، وارتفع عن مناقشة الاتراب عُمري ، لم ازل اصابح وأماسي ، ما يهد ايسره الرواسي ... ولقد منيت بكربة الغربة ، وتشعث الحال ... فازمعت على ان اجمع ، ما وقع لي من ذلك رحلة تكون لاولي

الالباب نحله اثبت فيها ما وقفت عليه . . .)

وهي رحلة المؤلف من مكة المكرمة التي خرج منها ليلة السبت في ٦ شعبان سنة ١٠٦٦هـ/١٦٥٥م الى الهند . وقد كتب المؤلف الرحلة سنة ١٠٧٥هـ/١٦٦٤م ووضع مقدمة فيها ورد في السفر والاغتراب من نظم ونثر ذماً ومدحاً .

نسخة نفيسة مؤطرة الصفحات بمداد ذهبي وازرق مزوقة الاول بزخارف هندسية ونباتيه ملونة ومذهبة . بعض كلماتها كتبت بمداد ذهبي وازرق واحمر .

كتبها عن نسخة المؤلف بخط النسخ الجيد جلال الدين بن حسن العباسي سنة ١٠٧٥هـ/١٦٦٤م

الرقم ٩٦٣٦

القياس ٥٣٨ص ١٩,٥×١٢سم ١٧س

معجم المؤلفين ٢٨/٧ ذ/كشف ٢٥/٢ الاعلام ٢٥٨/٤

طبع ذخائر التراث ٢٤٥/١

× × ×

سياحة في اميركا

للخوري الياس بن حنا الكلداني الموصلي من رجال القرن الحادي عشر للهجرة السابع عشر للميلاد

وهي رحلة تغلب عليها الطابع الديني قام بها الخوري الياس من سنة ١٦٦٨ الى سنة ١٦٨٣م الى امريكا ويعتبر اول من سبق من ابناء الشرق الذين رحلوا الى امريكا .

طبعت هذه الرحلة في مجلة المشرق البيروتية سنة ١٩٠٥ في المجلد الثامن . ثم طبعت سنة ١٩٠٦ بعناية الاب انطون رباط اليسوعي .

نسخة ترقى الى القرن ١٣هـ/١٩م ناقصة الطرفين وبعض الصفحات من الوسط .

الرقم ٦٣٢٢

القياس ١٩٨ ص ٢٢×١٦سم ١٧س

× × ×

غرائب الاغتراب ونزهة الالباب في الذهاب والاقامة والاياب .

لابي الثناء شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي الحسيني المتوفى سنة ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م

الاول :

(الحمد لله الذي اخذ بيدي ، فاوصلني على اكف الراحة الى دار الخلافة ، واعطاني ما اقوى به خلدي فلم اذق ذرعاً فيما قطعته . . . وبعد فاني خرجت من زوايا الزوراء متهجاً اقوم طريق . . .)

جمع المؤلف في هذه الرحلة ، رحلته الاولى الى اسطنبول والتي سماها نشوة الشمول في الذهاب الى اسلامبول سنة ١٢٦٧هـ/١٨٥٠م ورحلته الثانية التي عاد بها من اسطنبول الى بغداد والتي سماها نشوة المداد في العودة الى مدينة السلام . وتسمى هذه الرحلة (جامع الرحلتين)

نسخة جيلة كتبت بخط المؤلف سنة ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م في اخرها تقريض لعبد الباقي العمري .

الرقم ٣٠٣٩٣

القياس ٣٨٢ص ٢١×١٢,٥سم ١٤س

معجم المؤلفين ١٧٥/١٢ تاريخ الادب العربي في العراق ٢٣٣/٢ ـ ٢٣٥ ذ/كشف ١٤٣/٢ ، فهرس المطبوعات العراقية ٣٦٠/٢

× × ×

نسخة اخرى

كتبها محمد صالح بن حيدر سنة ١٣٠٣هـ/١٨٨٥م

الرقم ٨٩٧٣

القياس ٣٥٨ص ٢١×١٦ص ٢٣س

× × ×

نسخة اخرى

كتبها علي علاء الدين الألوسي حفيد المؤلف سنة ١٣١٧هـ/١٨٩٩م ببغداد . في اولها قصيدة لعبد الباقي العمري في رثاء المؤلف وقصيدة اخرى في رثائه لعباس الحلي العذاري .

الرقم ٩٣٢٤

القياس ٢٥٢ص ٢٩×٢١سم ٢٥س

× × ×

نسخة اخرى

كتبها بخط النسخ الجيد محيي الدين بن عبد الحميد بن محمد مكي الشيخلي البغدادي سنة ١٣٢١هـ/١٩٠٣م في المدرسة المرجانية ببغداد

الرقم ٣٠٣٥٩

القياس ٣٤٨ ص ٢١,٥×٢٨,٥سم ٢١س

× × ×

نشوة الشمول في الذهاب الى اسلامبول

لابي الثناء شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسي المتوفى سنة ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م

الاول :

(سبحان الذي اسرى بعبده وسلك به قصد السبيل الى محل قصده ، وصلاة وسلاماً على من دنى فتدلى فكان في اقل من غلوة سهم قاب قوسين او ادنى وعلى آله واصحابه الذين شقوا من بوادي الاسرار بايدي .... وبعد فقد اسرى بي القضاء بعد فصلي من نصب منصب الافتاء من مدينة السلام الى دار السلطنة العظمى وعرج بي القدر ....)

نسخة جيدة كتبها محمد امين بن صالح الجميل سنة ١٢٧٦هـ/١٨٥٩م عليها تملك لابن المؤلف احمد شاكر الآلوسي

الرقم ١/٣٠٤٠٦

القياس ١١١ص ١٢,٥×٢٠سم ١٩س

معجم المطبوعات العراقية ٣٦٢/٢ هدية العارفين ٤١٩/٢ تاريخ الادب العربي في العراق ٢٣٥/٢

× × ×

نسخة اخرى

جيدة الخط كتبها محمد علي بن جواد سنة ١٢٧٩ هـ/١٨٦٢م

الرقم ٢/٩٠٥٧

القياس ٥٨ ص ١٥,٥×٢١سم ٢٢س

× × ×

نشوة المدام في العود الى مدينة السلام

لابي الثناء شهاب الدين محمود الآلوسي المتوفى سنة ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م

الاول :

(الحمد لله الذي جعل التنقل في السهول والاودية لذوي الادواء الحيثية او المعنوية ... وبعد فقد اقتضت بعض الحوادث الكونية سفري الى قبة الاسلام ودار السلطنة القسطنطينية ، فلما عدت منها الى وطني الزوراء ..)

نسخة جيدة كتبها محمد علي بن جواد سنة ١٢٧٩هـ/١٨٦٢م في آخرها تقاريض على الرحلة لسليمان بن داود وعبد الله افندي الفيضي المدرس بمدرسة الصاغة ببغداد ومحمد امين العمري الموصلي وعبد الباقي الفاروقي وعبد الغني الجميل .

الرقم ١/٩٠٥٧

القياس ١٤٦ ص ١٥,٥×٢١سم ٢٢س

معجم المؤلفين ١٤٣/١٢ هدية العارفين ٤١٩/٢ قدس المطبوعات العراقية ٣٦٢/٢ تاريخ الادب العربي في العراق ٢٣٥/٢

× × ×

النفحة المسكية في الرحلة المكية

لابي البركات عبد الله بن حسين بن مرعي السويدي(٣) المتوفى سنة ١١٧٤هـ/١٧٦١م

الاول :

(احمدك اللهم يامن سهلت لمن ام بيتك صعوبة المسالك ، ومنحته فضلاً منك بان وفقته لمعاطات جميع المناسك والصلاة والسلام على سيدنا محمد افضل من لبىٰ بالعمرة والحج ...)

وهي رحلة المؤلف من بغداد الى مكة المكرمة حيث ادى فريضة الحج ورجوعه الى بغداد ، وقد وصف كل ما صادفه او مرّ عليه من الشواهد والآثار .

نسخة جيدة كتبت لاجل ملا عبد الرحمن دري زادة في المدرسة المرجانية ببغداد سنة ١٢٤٥ هـ/١٨٣٠م تملكها عبد الملك محسن ومحمد سعيد مدرس المرادية سنة ١٢٤٥هـ/١٨٣٠م

الرقم ٢/٦٣٣٥

القياس ٢٢٨ص ١٤×٢١سم ٢٠س

الاعلام ٨٠/٤ تاريخ الادب العربي في العراق ٢١٠/٢

× × ×

نسخة اخرى

كتبها عبد الرزاق بن فليح البغدادي في آخرها فائدة لعباس العزاوي مؤرخة سنة ١٩٣٩م

الرقم ٩٠٩٠

القياس ٤١٥ص ٢٤×١٧سم ١٩س

× × ×

نسخة اخرى

كتبها بخط الرقعة علي بن عبد الله

الرقم ١٢٤٩٧

القياس ١٦٩ص ٣٢×٢١سم ٢٤س

× × ×

نسخة اخرى

تتضمن جزء من الفصل الثاني من الرحلة وهي مختصرة عن رحلة السويدي لولده . وقد نشر هذا المختصر الشيخ محب الدين الخطيب في كتاب باسم (مؤتمر النجف) سنة ١٣٦٧هـ/١٩٤٧م

الرقم ١١٦٦٩

القياس ٢٦ص ٢٠×١٤سم ٣١س

× × ×

نسخة اخرى

تتضمن قطعة من الرحلة .

الرقم ١١٥٠٦/١

القياس ٦٦ص ١٥×١٠سم ١٥س

× × ×

الهوامش والمصادر

١ - ولد في طهطا في مصر ، وانتقل الى القاهرة سنة ١٢٢٣هـ ١٨٠٥م وتعلم بالازهر ، وانشأ جريدة الوقائع المصرية . من مؤلفاته : غرائب عادات الاوائل والاواخر ، المعادن النافعة ، مبادىء الهندسة ، المرشد الامين في تربية البنات والبنين . نهاية الايجاز في السيرة النبوية ، تاريخ قدماء المصريين وغيرها .

٢ - ولد بدمشق سنة ١٠٥٠هـ/١٦٤١م ورحل الى بغداد وتنقل في فلسطين ولبنان ومصر والحجاز واستقر بدمشق الى ان توفي من تصانيفه : ديوان الالهيات ، ديوان الغزليات ديوان المدائح والمراسلات ، تعطير الانام في تعبير الرؤيا جواهر النصوص في حل كلمات النصوص لابن عربي وغيرها

٣ - ولد ببغداد سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م ، اديب حنفي ، رحل الى اسطنبول وتقلد مناصب القضاء في عدة مناطق من تصانيفه الكثيرة : اوضح منهج الى معرفة مناسك الحج ، القول المانع فيما يجب للمفتي والقاضي ، والفوائد الألوسية على الرسالة الاندلسية في العروض . وغيرها

٤ - مؤرخ نحوي ، شاعر ناثر ، مشارك في بعض العلوم ولد بدمشق سنة ١٠٣١هـ/١٦٢١م . له تآليف عديدة منها : الرحلة الحلبية . ذيل على تاريخ البوريني ، شرح الاجرومية ، ديوان شعر ، الرحلة الرومية ، وهو حفيد المحبي محمد بن منصور صاحب الرحلة السابقة ، وقال انه اقتفى اثر جده في رحلته هذه .

٥ - ولد في بغداد في محلة باب الشيخ سنة ١٢٦٣هـ/١٨٤٦م وتلقى العلم فيها وعين واعظاً ومدرساً في البصرة سنة ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م ثم عاد الى بغداد وكلف بالافتاء في الحلة . اديب فقيه مؤرخ من تصانيفه : البرهان الجلي في بيان الفرق بين الرسول والنبي ، الروض الازهر في تراجم السيد جعفر ، خلاصة المقال في نقد الرجال ، الدر النضيد في احكام الاجتهاد والتقليد

٦ - ولد سنة ١٠٥٢هـ/١٦٤٢م بمكة المكرمة واقام مدة بحيدر آباد بالهند . اديب نحوي ، بياني ، لغوي شاعر ، مؤرخ ، مشارك في بعض العلوم . من تآليفه سلافة العصر في محاسن اعيان العصر . رياض السالكين . شرح الصحيفة السجادية ، الدرجات الرفيعة ، انوار الربيع وغيرها .

٧ - ولد في جانب الكرخ ببغداد سنة ١١٠٤هـ/١٦٩٣م وتعلم واشتهر ورحل الى بلاد الشام والحجاز وعاد الى بغداد وتوفي بها . فقيه اديب لغوي مشارك في بعض العلوم من تآليفه : الجمانة في الاستعارات ، اتحاف الحبيب ، اسماء اهل بدر ، شرح صحيح البخاري ، انفع الوسائل في شرح دلائل الخيرات الامثال السائرة ، الحجج القطعية لاتفاق الفرق الاسلامية وغيرها .

• • •

رحلة البرتغالي تاكسيرا الى العراق في القرن السابع عشر
بقلم ساراسيرايت

ترجمة
فؤاد قزانجي

بغداد

يتفق البرتغالي (بيدرو تاكسيرا) من اعماق قلبه، مع معاصره الانكليزي فينس موريسون اول اوربيّ زار العراق، في القول الآتي:

«ماحلى المياه الجارية، بينما البرك الراكدة نتنة، خُلِقَ الناس كي ينتقلوا كالطيور المحلقة».

نعم، يتفق تاكسيرا نصاً وروحاً مع هذا التعقيب. فالمياه الراكدة في الابار المالحة خلال الارتحال، تكون نتنة.. نعم ان اناساً امثال تاكسيرا وموريسون قد خُلقوا للتجوال ولاسيما في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

كان هنالك احساس بالمخاطرة وراء تلك الرحلات التي قام بها الرجال عبر البحار والقارات، وهي التي تعبر عن رغبة تملكتهم للاتصال المباشر بالشرق. ان عالماً مثل فرانسيس بيكون قد يطرى منافع السفر نظرياً، ولكن جوالين امثال موريسون وتاكسيرا هم الذين يشدون الرحال فعلاً.

كان تاكسيرا برتغالياً، سافر الى (غوا)[1] في عام ١٥٨٠ وكانت مهنته الطبابة الا ان عمله في غالب الاحيان كان يتركز في تجارة الاحجار الكريمة، حيث كان تجار المجوهرات من الاوربيين، مطلوبين كثيراً في البلاطات الشرقية، يضاف الى ذلك، كان تاكسيرا محباً للاسفار، فقد زار سيلان (سري لانكا) في عام ١٥٨٨، واستقر في ميناء هرمز مدة من الزمن خلال عام ١٥٩٠، ثم قام برحلة حول العالم ثم عاد الى (غوا) بين الاعوام ١٦٠٠ـ١٦٠٣، وترك بعدها مذكرات موجزة عن رحلته. وعندما اشتد به الحنين الى الوطن في عام ١٦٠٤ غيرّ رغبته في الطريق ـ وربما كان ذلك من جرّاء ارهاق السفر بالبحر ـ الى الطريق الاقصر لاوربا وذلك عبر بلاد الرافدين.

كانت يوميات تاكسيرا عن رحلته هذه، اول تسجيل لشخص اوربي عن عبور الصحراء لذلك اعتبرت دليلاً عملياً لاي شخص يريد متابعة الرحلة في هذه المنطقة خطوةً خطوة. وكان هذا الطريق الذي يمر عبر صحراء الشام، يربط بلاد الرافدين بالبحر المتوسط ثقافياً وتجارياً منذ ثلاثة آلاف سنة. وعندما قَدِمَ الاوربيون الى هذه البلاد في القرن السابع عشر، وجدوا انه اقصر الطرق بين اوربا وبين مصالحهم في الهند وفي الخليج العربي، والآن وعلى الرغم من الحدود والسياسات التي وضعت بعض الحواجز على الطريق، الا ان علامات الطريق القديمة ـ من بقايا المدن واطلال خانات السفر والآبار المالحة، ظلت على حالها.[2]

ولقد ازدهرت تجارة القوافل عبر الصحراء في فترات الاستقرار النسبي خلال القرنين الميلاديين الثاني والثالث، وكذلك في اوج ظهور الامبراطوريتين الاموية والعباسية في الفترة الممتدة بين القرنين الثامن والتاسع. وبالنسبة الى تاكسيرا فأن اجتياز الصحراء تعني التخلص من حياة الحَذَر التي خلفها الغزو العثماني للبلاد الذي كانت ذروته احتلال بغداد في عام ١٥٣٤.

وقد شجع العثمانيون استخدام هذا الطريق بدلاً من طريق رأس الرجاء الصالح الذي كان يبحر فيه المغامرون من التجار الاوربيين.

وقد غادر تاكسيرا ميناء (غوا) في التاسع من شهر شباط عام ١٦٠٤. وكانت رحلته حتىٰ الخليج العربي غير حافلة، وقد وصل في نهاية تموز. كانت اشهر الصيف اكثر الشهور ازدحاماً بالتجارة في مدينة البصرة، وذلك لهبوب الرياح المواتية التي لم تأت بتاكسيرا حسب، بل جلبت معه تجاراً من الهند وباعة اللآلي من البحرين.

وفي البصرة، لم يجد تاكسيرا اية ابنية مشهودة بل وجدها مدينة ذات سور ضخم وبيوت مبنية بالاجر وبعض الحمامات العامة اللائقة التي تقدم خدمات طيبة حيث تستقبل الناس بعد عناء السفر. ويشار علىٰ الاوربيين عادة بارتياد تلك الحمامات، ليذكروهم بالخدمة السيئة التي يلقونها في حمامات اوطانهم. كانت الحمامات مكاناً مرغوباً باعثاً علىٰ الاثارة، تزدهر في البصرة لكونها ملتقىٰ الطرق بالنسبة للعراق والخليج العربي والجزيرة العربية وايران. اما صادرات البصرة الاساسية فهي التمور، الغذاء الرئيسي الذي كان يرسل الىٰ جميع انحاء الخليج، وكذلك الحال بالنسبة الىٰ العديد من انواع الحبوب والخضروات. وهناك تجارة مربحة اخرى مع الهند وفارس، هي تجارة الخيول. كانت البصرة قد تخلصت من اثار الحرب التي جرت بين الفرس والعثمانيين وانتهت بسيطرة الاتراك. وكانت الحامية العثمانية المؤلفة من ثلاثة آلاف جندي، تمول من وارد رسوم الكمرك الثقيلة. وعلىٰ اية حال، فقد كان وجود العديد من العقارب ذات الاحجام الكبيرة، مثار شكوى تاكسيرا.

كان تاكسيرا يرجو الوصول الىٰ بغداد عن طريق نهر دجلة، غير ان ذلك لايتيسر الا في فصل الشتاء. فقد تستغرق الرحلة في الصيف ثلاثة اشهر، حيث يكون دجلة ضيقاً والقاطنين علىٰ ضفافه (المتسمين بالعنف) قريبين جداً، بالاضافة الىٰ ان المسافة ستكون ضعف طريق البر بسبب تعرج النهر. وهكذا اختار طريق البر، علىٰ الرغم من تعذّر ايجاد قافلة يلتحق بها. وعلىٰ كلٍ فقد وافق اخيرا «الباشي» او رئيس القافلة ان يضمه اليها مع فراشه ومتاعه وان يُزوّده بدابة يركبها «مع قليل من الطعام الرديء الذي يقدم في ساعات غير مناسبة» الا ان تاكسيرا كان يضيف الىٰ ذلك بعض انواع من (البسكويت) والفواكه المعلبة وخاصة مربى السفرجل، وبالبرتغالية مارميلو. (واستطيع ان اشهد علىٰ مدىٰ قيمته في رحلة الصحراء وعلىٰ تمتع «الباشي» بتناوله ايضاً) بالاضافة الىٰ ذلك فقد اخذ معه ثلاثة اكياس من صبغ النيلة لتغطية اجور سفرته التي كانت اكثر اماناً مما لو حمل ثمنها معه.

تجمعت القافلة في الثاني من ايلول في خلاء باطراف المدينة قافلة «صغيرة» مؤلفة من (١٥٠٠) جملاً و (٩٥) حماراً و (٦٠) تابعاً مسلحاً. وكانت الحرارة لاتزال شديدة بحيث يسهل فيها تعكير الامزجة. فاليوم الاعتيادي يبدأ قبل الفجر، لذلك ساروا حتىٰ الظهيرة، ثم توقفوا عند ارتفاع درجة الحرارة في منتصف النهار ثم تابعوا السير عند الرابعة بعد الظهر تقريباً. كانت الآبار المالحة قذرة، وفي احدىٰ هذه الآبار وجدوا افعىٰ ميتة. وكان الامر بالنسبة الىٰ الدواب اكثر سوءاً، ففي يوم واحد نفقت خمسة جمال فتم نحرها وأُكل لحمها من قبل مرافقي القافلة، بينما لم يستطع تاكسيرا واصدقاؤه ان يشاركوهم في تناول هذا الطعام.

كانت القافلة تنتقل بصعوبة من بئر الىٰ اخرىٰ، ومن ثم كان علىٰ اصحابها ان يحترسوا من اللصوص. وعندما خيّموا في المساء «تخندقنا بشكل واضعين احمال المتاع والجمال والدواب في الوسط، وكانت جميع اسلحتنا علىٰ اهبة الاستعداد». وقد لاحظ تاكسيرا ان احد الحماة المأجورين ضمن القافلة هو من بين ابناء العشائر التي اعتادت السلب. وابتعد الحارس الخلفي للقافلة عنها خلسة، وراح يغني ليرفع من معنوياته. ولم يكن تاكسيرا من مثيري الفزع، غير انه لم يكن للادارة العثمانية من سلطة في خارج المدن ـ الا ماندر ـ كما كانت تسود المناطق الصحراوية شبكة من العلاقات والصراعات العشائرية بحيث لاتدع مجالاً للاغراب مهما اتخذوا من احتياطات لتأمين حمايتهم من قبل احدىٰ العشائر، اذ لابد ان يتعرضوا الىٰ الاعتداء من قبل عشيرة اخرى غيرها. ولذلك كان يتعذر عليهم السفر بدون تلك الحماية. وقد حذّر تاكسيرا من وجود اشخاص آخرين مع القافلة يحاولون سلب او قتل الاوربيين الذين يعتبرونهم اثرياء.

حينما يتعذر علىٰ القوافل ان تحط رحالها في بقعة ما بالصحراء فانها تخيم في خانات القوافل التي كانت في الغالب، وقفاً خيرياً اوقفه اغنياء المسلمين. فالخان الكبير يتسع لما مجموعه اربعمائة شخص مع حاجاتهم. والخانات شأنها شأن الفنادق ذات مستويات مختلفة، فأحدها يقع بالقرب من مدينة

النجف ـ مرقد الامام علي (ر) ـ وكان في وقت ما فسيحاً فخماً، ولكن عندما رآه تاكسيرا وجده متسخاً وارضيته ليست مستوية تتناثر فوقها الاحجار حتىٰ بدا له غير صالح للايواء.

كان تاكسيرا واهناً متعباً، وكان اكثر مايحتاج اليه ليلة كاملة من النوم، وكان طعامه مؤلف من التمر واللبن الرائب والماء، اذ كان قد اتى علىٰ (البسكويت) الذي يحمله «لم تكن هناك وسيلة لعلاج هذه الحالة سوىٰ الصبر، الشيء الاكثر ضرورة والذي يتسلح به الانسان في مثل هذه الرحلة». مهما كان ذلك القول صحيحاً او كان تعبيراً عن رباطة الجأش.

وقد حصل اصحاب القافلة علىٰ راحتهم بقضاء اربعة ايام في النجف. هذه المدينة الدينية المكرسة لذكرىٰ ابن عم الرسول (ص)، الامام علي (ر) الذي قتل في الكوفة التي تبعد بضعة كيلومترات شمالاً، ولايسمح لغير المسلمين بالسكنىٰ في هذه المدينة. ان مسجدها الرائع الذي يضم رفاة الامام علي (ر) كان اقل روعة عندما رآه تاكسيرا، ولم يُسمح له بالدخول اليه.[3] اما مدينة كربلاء التي تبعد قليلاً عن النجف، فتبدو اكثر ازدهاراً وان كانت معادية للغرباء. وقد دُهش تاكسيرا لوفرة مياه الشرب فيها وكانت تُقدَّم مجاناً في الشوارع، كما يفعل كثير من المسلمين لارواء المسافرين.

كان رئيس القافلة قد تزوج في كربلاء وقد دعا تاكسيرا الىٰ حفل الزفاف. ولوحظت رقة العرب بتناولهم الطعام بواسطة الملاعق.. وقد اعجب تاكسيرا بكرم الضيافة، وان كان اعجابه بطعامهم اقل من ذلك وفالعرب يبزون الشعوب الاخرى بما يقدمونه من طعام لاي شخص يفد اليهم او يمر بهم. وبعد انتهاء اسبوع الاحتفال بالزواج استأنفنا السفر، ينتابنا خوف شديد من اللصوص. وقد بدت لنا الارض الآن اكثر خصوبة والطقس اشد احتمالاً، والخانات اتم راحة ولاسيما ذلك القريب من اطلال بابل، والذي شيدته سيدة تركية تقرباً لله».

بعد مرور خمسة اسابيع علىٰ مغادرتنا البصرة، وصلت القافلة الىٰ بغداد. فاذا بهذه المدينة اصغر حجماً من البصرة واقل تأثيراً، ورغم خلوها من الابنية الحجرية الفخمة فقد كانت تشابه اية مدينة اوربية في ذلك الحين.. وحيث انها واقعة بين مفترق الطرق، فان الناس يفدون اليها وتلتقي فيها تجاراتهم القادمة من اطراف الشرق الاوسط الاربعة. كان الطعام فيها جيداً، بالقياس الىٰ رجل برتغالي جائع، ولاسيما السمك النهري «ذو الطعم اللذيذ. اما القهوة التي كانت ساخنة جداً وداكنة وبدون طعم» فأن تاكسيرا لم يكن شغوفاً بها علىٰ الرغم من الفوائد التي عُزيت اليها. حيث كانت ترتشف بتلذذ في المقاهي الممتدة علىٰ شاطيء دجلة حيث يلتقي الناس فيها للتحدث والتسلية وفق التقاليد السائدة هناك. وشاهد تاكسيرا في بعضها غلمان رشيقين وموسيقىٰ تقليدية مؤثرة.[4] كما لاحظ وجود جماعات من اليهود والعجم، ويزعم بعض اليهود انهم عاشوا في هذه البلاد منذ السبي البابلي. ويمتاز البغداديون في الحقيقة، بالنظافة ودماثة الخلق فضلاً عن ارتدائهم الملابس النضرة. اما المدينة فكانت تتمتع بجو هاديء ونسيم عليل.

كانت (حلب) المحطة الثانية التي تتطلب اختراق الصحراء، والسير خلال طريق معلوم ومطروق مع تجنب الاقتراب من نهر الفرات حيث تُغمر شاطئيه عما قريب بمطر الشتاء، كما ان القاطنين هنالك لايقلون عداوة عن الذين وجدوا في الجنوب.

ان اربعة قوافل تجارية، اثنتان في كل اتجاه، تروح وتغدو في كل عام بين بغداد وحلب. وتضم كل قافلة مايقارب الفاً من الدواب، وان معظم الاوربيين الذين يسافرون بين هاتين المدينتين يستخدمون احدى تلك القوافل.

وعلىٰ اية حال، كانت التحضيرات بطيئة، بينما كان تاكسيرا شديد التوق للعودة الىٰ الوطن. وقد ضمت القافلة بضعة تجار اوربيين من بينهم اثنان من مدينة البندقية الايطالية (كان البندقيون لايزالون التجار الرئيسيون في تلك البقاع من العالم) بالاضافة الىٰ برتغالي متعب من البصرة الذي اسهم في تحضيرات القافلة، فلكل عشرة جمال محملة بالبضائع، ينبغي اضافة جمل آخر محمل بالامتعة. اما القافلة المتجهة غرباً فينبغي تحميلها بصبغة النيلة والصمغ والجوز (لاستخدامها في الدباغة وصناعة الحبر) وكذلك التمور والتوابل والاقمشة الفاخرة. وكان الحصول علىٰ الطعام خلال الرحلة، امر نادر كالماء وعليه يجب ان يتهيأ لها المسافر مُسبقاً.

كان عليهم انتظار الاخبار الواردة من حلب قبل الشروع في الرحلة. وبعد ان جاءت هذه الاخبار ووصلت بعض الرسائل من حلب، قاطعة طريق الصحراء الذي كان يستعمل للبريد السريع بشكل مفضل علىٰ طريق البحر حتىٰ عام ١٦٠٥، وهي

السنة التي وصل فيها تاكسيرا الى بلاده. وهكذا جاءت الاشارة في الثاني عشر من كانون الاول عام ١٦٠٤ لتحرك القافلة التي كانت تضم (١٣٠) جملًا و(٧٥) حماراً، وقد نصح تاكسيرا بالسفر في مهد مغطىً ومعلّق على احد جوانب الجمل، الذي يفترض ان يعلوه عدلان. ولم يتشكّى تاكسيرا من هذا الامر، اذ كان المكان دافئاً واكثر اماناً من ركوب الحصان الذي قد يطمع البعض في سرقته. ولكن معظم المسافرين ابدوا انزعاجهم من فكرة استخدام المهد، كما لو كان الداخل فيه مصلوباً. وساروا في طريق يتقاطع مع الترع، ولاحظ تاكسيرا بأسى ان القنوات غير مستخدمة والاراضي غير المحروثة قد هطل عليها مطر غزير، ورغماً عن ذلك ظلت مياه الآبار ممجوجة.

وقرب نهر الفرات الذي قطعوه عند مدينة (عانه) شاهد تاكسيرا الحقول والمزارع ونبات العترة. فاذا بهذه المدينة مزدهرة وتضم جماعات من الغرباء والمدهش حقاً عدم وجود سوق فيها تتيح للمسافر ان يتمون منها.

وكان عليهم ان يدفعوا ضريبة المرور الى امير المدينة بالاضافة الى «جزء مما يملكون» الى الحامية التركية. وهكذا ففي كل مدينة كانت تتكرر امثال هذه الضرائب. ولهذا السبب يفضل الاوربيون ارسال بضائعهم بطريق البحر. وهذه البضائع على نوعين، الفاخر، مثل الحرير وصبغ النيلة والتوابل، والثقيل، مثل العفص والجوز والتمور. وتجري المطالبة المعتادة بتقديم الهدايا الى اتباع الامير، ولذلك كان هؤلاء يعرقلون اجراءات المرور للحصول على المزيد من الاتاوات، مما جعل اصحاب القافلة يتأخرون مدة ثلاثة اسابيع حتى ادركهم البرد والجوع، بالاضافة الى الابتزاز الذي تعرضوا اليه من قبل اهالي المدينة، والى خيبة الامل التي اصيبوا بها من جراء احتجازهم الطويل. ولذلك حمد الله تاكسيرا عند مغادرتهم المدينة.

اما الآن فان الرتابة والوحدة التي انتابتهم خلال اجتياز السهول المغطاة بالحصى قد اثقلت على اعصابهم على الرغم من ان عدم مشاهدتهم اي انسان، معناه انهم في امان اكيد. وقد فزع تاكسيرا مرة، لشدة الضجة التي اثيرت في القافلة حول من سيذهب، ومن الذي سيبقى، ومن الذي حانت نوبته للحراسة. «فالكل يجب ان يأخذوا دورهم فيها» كان الجو شديد البرودة وكانت المياه قد بدأت تتجمد في القِرَبْ التي تحمله.

وفي موضع يدعى (مسكنة) Sulchana قضوا خمسة ايام مكرهين. وهو مكان رديء على الرغم من انه مخصص لايواء المسافرين القادمين مع القوافل «وقد بقينا في حراسة مشددة يتملكنا الخوف لامن السكان القاطنين هناك بل من اولئك الذين يعيشون خارج المكان» وبعد مسيرة يوم واحد وصلوا قرية (طيبة) المشهورة بينابيع الكبريت الحارة ثم انطلقوا من هناك عبر الفلاة نحو مدينة حلب.

الهوامش

١ - غوا، ميناء في شبه القارة الهندية، ظل تحت سيطرة البرتغال منذ القرن السادس عشر وحتى استقلال الهند عام ١٩٤٨.

٢ - لم يبق من تلك المدن والخانات القديمة سوى بعض الآثار القديمة التي تعود الى عصور سابقة.

٣ - وقد وصف تاكسيرا مدينة النجف قائلاً: «دخلنا مدينة الأمام علي (ر) نهار السبت ١٨ أيلول ١٦٠٤، وقد كانت هذه المدينة كبيرة، فان دورها كانت قبل مايزيد على خمسين او سبعين سنة نحو ستة الآف او سبعة الآف دار. وتدل خرائب معظم هذه الدور انها كانت واسعة وجيدة البناء. اما اليوم فالدور المسكونة لاتزيد على خمسمائة وسكانها معظمهم فقراء... ان المدينة محاطة بسور ولكن ليه الف فتحة، وهو مبني كالجامع والدور، بالآجر والطين. والنجف ليست على مجرى، وماء آبارها اجاج، اما الماء العذب فهو من مجرى كان قد احدثه السلطان العثماني سليمان القانوني بفتح صخره من الفرات على بعد ثلاثة فراسخ من المدينة. وقد أنفق عليه مبالغ كبيرة مع مشاق. ولم نستطع الشرب من هذا الماء لقذارته. فقد حصل في المجرى مامنع جريانه، وهو بحاجة الى تطهير سنوياً.

ويشاهد في هذه الحاضرة خرائب اسواق معقودة كما هي العادة في المدن الفربية، وبناء هذه الأسواق يدل على ماكان لهذه المدينة من مجد عريق. ان هذه الاراضي تابعة للترك اما سيدها فأمير عربي (الشيخ ناصر المهنا) يؤدي له الخراج. وفي العادة ان تكون في هذه المدينة حامية قوامها خمسون جندياً ولكن لم يكونوا فيها حين مكوثي» (انظر كتاب مباحث عراقية / القسم الثاني تأليف البحاثة يعقوب سركيس) ص ٢٣٥.

٤ - وقد وصف تاكسيرا احد هذه المقاهي، وهو مقهى حسن باشا قائلاً:
«وهذا المقهى هو عمل جديد احدثه في سنة ١٦٠١ الوالي حسن باشا. وقد انشأ السوق والخان والمقهى المعروفة جميعها بأسمه، وهي من الابنية النفيسة...» ثم قال:
«ومن الابنية العامة - كما قلت سابقاً - المقهى.. ويستخدم في المقهى غلمان ملاح، ملابسهم فاخرة لتقديم القهوة وقبض الدراهم. وهناك الموسيقى تعزف وغيرها من وسائل التسلية واللهو. والتردد الى هذا الموضع في القيظ اكثر مايكون ليلًا، اما في الشتاء فنهاراً. وهذا المقهى قريب من النهر (دجلة) وفيه نوافذ ورواشن تطل على النهر فتجعله متنزها لطيفاً جداً» (يعقوب سركيس / المصدر السابق ص ١٨٩).